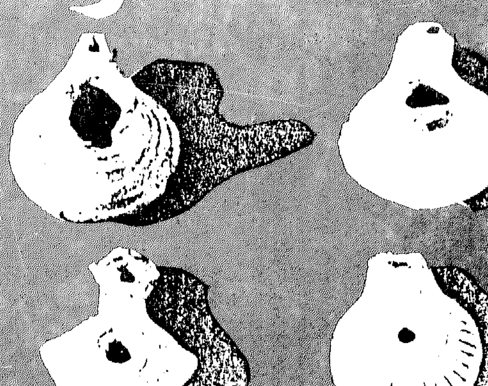
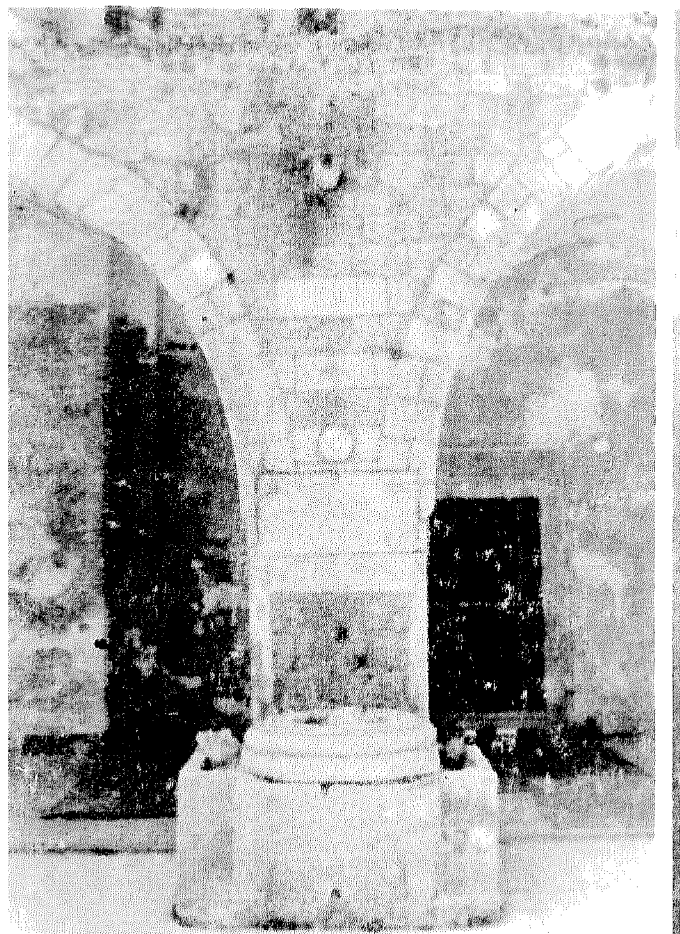
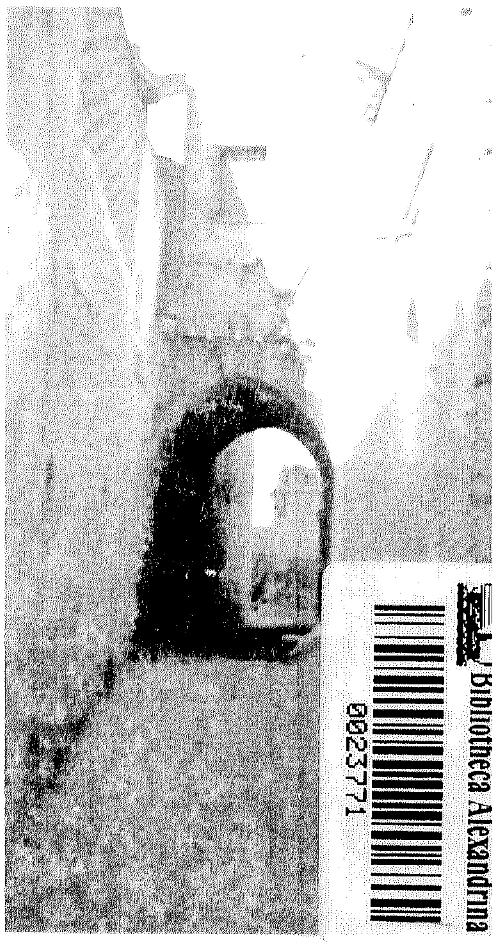
غـزة وقطاعها

دراسة
خلود المكان.. وحضارة السكان
"منذ العصر الحجري الحديث
حتى الحرب العالمية الأولى"



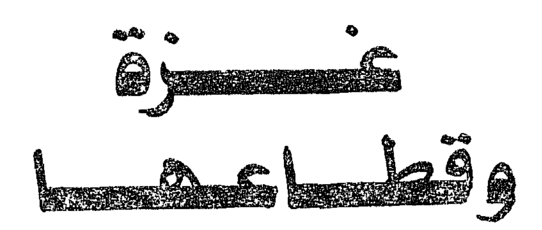




سليم عرفات المبيض



١٨٣ ◆



دراسة فى

خلود المكان .. وحضارة السكان

" من العصر الحجرى الحديث حتى الحرب العالمية الأولى "

سليم عرفات المبيض



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

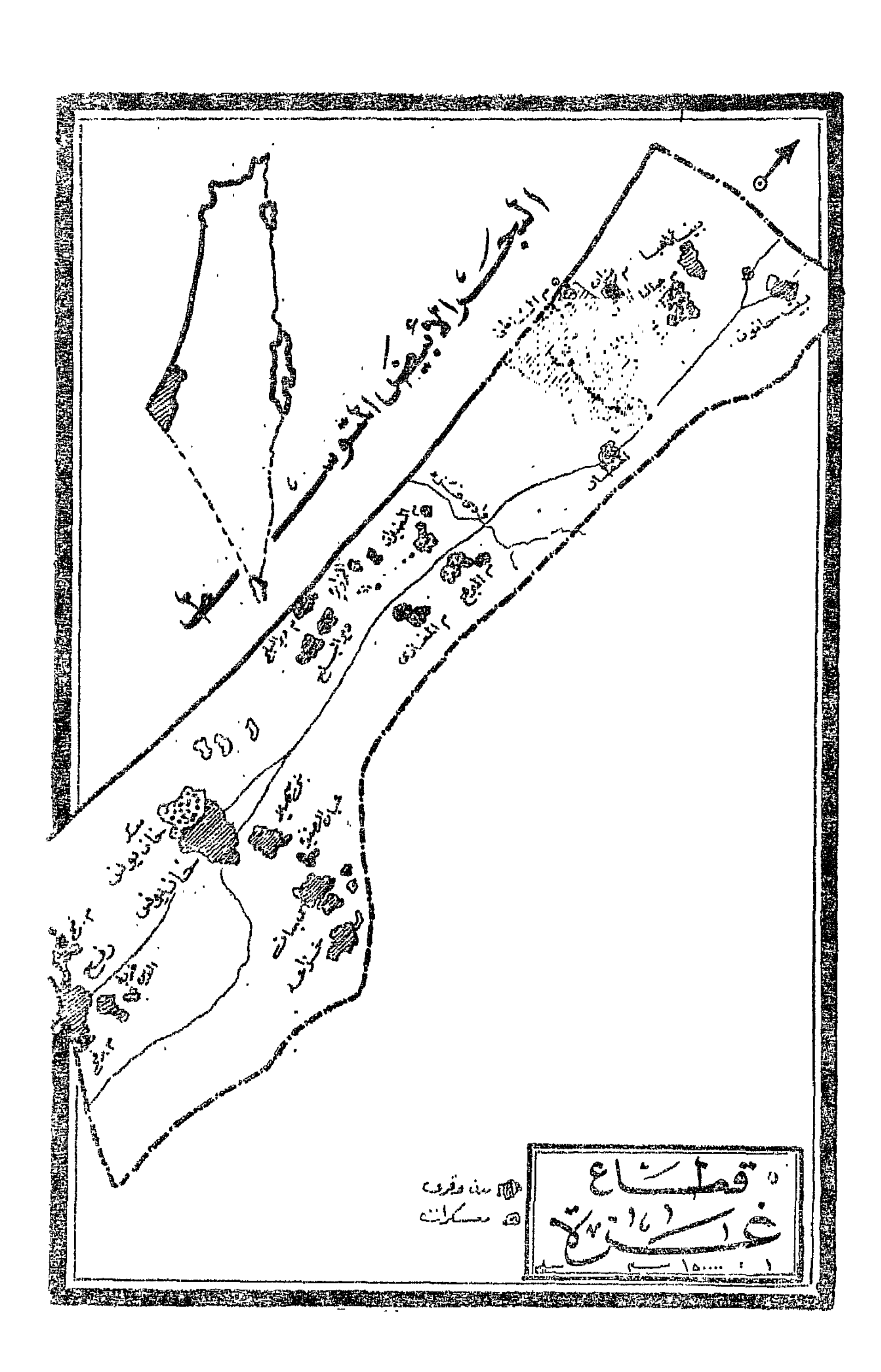
الاخراج الفنى	تصميم الغلاف
راجية حسين	أسامة سعيد

إهــــداء

الى الذى قضى صباه وشبابه فلاحا يحرث الأرض
وكهولته وشيخوخته شرطيا يحرس الأرض والعرض ٠
اليك يا والدى ٠٠ أهدى جهدى

سليم عرفات المبيض




البحر الأبيض المتوسط
بيت لاهيا
بيت حانون
دير البلح
خان يونس
رفح
مدن وقرى
معسكرات
قطاع غزة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

ان معرفة ما حولنا غريزة .. هكذا يقول أصحاب نظرية المعرفة ويسمونها بالاستعداد الفطرى للتاريخ ، ويقال أيضا بأن الانسان يولد جغرافيا منذ اللحظة التى يحاول فيها التفريق بين ثدى أمه وسريره الذى ينام فيه وهو رضيع ، برهانا منه وقدرة على التفريق بين الاختلافات المكانية (١) ومن الجغرافيين من يعرف علم الجغرافيا بأنه « دراسة الاختلافات المكانية » أو التباين الأرضى بمعنى التعرف على الفارقات الجوهرية بين أجزاء الأرض بجميع مجالاتها لهذا تكون قمة الجغرافيا التعرف على شخصيات الأقاليم «Regional Personality» فكأن الاقليم بهذا التعريف هو قلب الجغرافيا ، فمن المنطقى أن تكون الشخصية الاقليمية هى قلب الاقليم ، ومن ثم يتيقن أعلى مراحل الفكر الجغرافى (٢) ومن هذا الايمان ، وبدافع الانتماء لهذه الأرض ، كان التوجه نحو محاولة تشخيص مدينتنا مدينة غزة وقطاعها بالدراسة والتحليل قدر الجهد للتعرف على ملامحها وقسماتها عبر تاريخها المديد .

وحقيقة .. لسنا هنا بازاء « قطاع » متفرد بخصائص ومزايا معينة بل أمام « مدينة » داخل اقليم برزت فى ملامحه قسمات ميزته بقدر كبير من الخصائص والصفات تبادل فيها مع المدينة بتأثيراته عليها كما أثرت هى عليه .

أما اذا أضفنا للمدينة وهى غزة كلمة « قطاع » فقطاع .. مصطلح عسكرى سياسى حديث جدا يتنافر تماما مع مزايا « الاقليم الجغرافى » انه وليد السياسة العسكرية الناجمة من اتفاقيات رودس سنة ١٩٤٩ العسكرية التى

---

(١) س. و. ولدردج وزميله . الجغرافيا مغزاها ومرماها ، ترجمة د. يوسف أبو الحجاج ، القاهرة ص ٢٣ ، ٢٥ .

(٢) د. جمال حمدان . شخصية مصر ـ الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ١١ .

فصلت فيما بعد ما سمى خطوط الهدنة سنة ١٩٥٠ لتخرج الى حيز الوجود ما سمى لأول مرة بعد هذا التاريخ « قطاع غزة » (*) .

اذا لم يكن القطاع بما تضمنه من قرى ومدن ابن الجغرافيا الطبيعية التى لا تؤمن بالخطوط والحدود الهندسية البشرية . فمدينة غزة فى الحقيقة وقراها لم تنزع على الانفصال فى أية حقبة من تاريخها عن ظهرها الممتد شمالا وجنوبا وشرقا عبر سهل ساحلى خصيب أكبر بكثير فى حدوده ومساحاته من قطاعها الحالى الذى اقتطع قسرا أعقاب مسرحية عسكرية سنة ١٩٤٨ من أرض فلسطين التى هى أيضا جزء من سوريا الكبرى والتى لا تنفصم بحدود عن الوطن العربى الكبير . لكن هذه المدينة بقطاعها ـ اذا ما سلمنا فرضها بهذا التعبير العسكرى الجائر ـ هى جوهر دراستنا كجزء من اقليم أصبغت عليه الظروف الطبيعية بصفات ميزته عن سائر المناطق ، باذلين الجهد للنفاذ الى « روح المكان » حتى يتسنى لنا أن نحدد قسمات هويتها وشخصيتها الكامنة بما يعرفه علماء الجغرافيا باصطلاح « عبقرية المكان » (١) .

وعليه فاننا نرغب بهذه الدراسة أن نصل الى أبعد من ذلك بالتوغل داخل مكنونات هذه المدينة حتى نمسك بمفتاح سرها الذى منحها الخلود على مر العصور دون أن يأتى عليها حين من الزمان كانت فيه مندثرة ، وهذا قمة فلسفتها المكانية ، التى نتمنى الوصول اليها لا من خلال الوصف الجامد أو عن طريق الأسلوب التقريرى لمجرد سرد ركامات من الوقائع والأحداث التاريخية خاصة لمدينة ذات موقع تميز بزخم تاريخى دسم واكب معظم الحضارات بل وكان لكل منها بل ولمعظم القادة الكبار عبر التاريخ القديم والحديث حدث وحديث فى هذه المدينة .

بل نصل الى عبقرية مكانها عن طريق الأسلوب التركيبى الذى يحفظ الوصل بين الظروف الطبيعية والبشرية ومدى التفاعل بينهما ويدرس الفاعلية الايجابية للمدينة بما حولها ، لهذا لم يكن غريبا أن نجد بحثنا فى « المدينة وقطاعها » ليس مقتصرا بالدراسة على علم الجغرافيا أو التاريخ وحدهما بل وجدنا أنفسنا نخوض ولو بطرف لدراسة شخصيتها فى التاريخ والجغرافيا فى الجيولوجيا والاركيولوجيا فى الانثروبولوجيا والمتيورولوجيا . فهذه جمعاء

(*) قطاع غزة يأخذ شكل المستطيل يضيق فى الشمال الى حد يصل فيه الى تسعة كيلومترات لا يلبث أن يصل فى الوسط الى ٥٪ كيلومتر يتسع فى أقصى طرفه الجنوبى عند الحدود المصرية فيصل لنحو ١٦ كيلومترا بمساحة تقدر بنحو ٣٦١ كيلومترا مربعا « انظر الخريطة » ، وطول القطاع يصل الى ٤٥ كيلومترا على ساحل البحر المتوسط .

(١) A. J. Herbertson, Regional environment, heredity and consciousness, Creg, No. 34, 1915, p. 148

بتفاعلها الذى لا ينفصم هى التى أمدت المدينة بعنصر الخلود ، استمدته من جغرافيتها الخالدة وتاريخها البعيد .

فدراسة مدينة غزة وقطاعها بهذا المفهوم ومن خلال هذا المعنى لم تحظ بأية دراسة جادة لا على المستوى الأكاديمى المتخصص أو الثقافى العام .

ففى العصور التى سبقت الميلاد كان يأتى اسمها عرضا فى ثنايا المخطوطات أو النقوش على جدران المعابد ـ هذا على حد علمنا ـ وكان المؤرخون والسائحون يتعرضون لها بفقرات عند المرور بينها كما جاء وصفها والحديث عنها من قبل هيرودوت فى القرن الثالث قبل الميلاد كما سيأتى ذكره وهذا حالها فى الفترات الرومانية والبيزنطية على ما كان لها من مكانة مرموقة أما فى العصور الوسطى فقد حظيت بالمديح والوصف من الرحالة العرب والمسلمين حتى أتى القرن التاسع عشر قمة التحلل العثمانى وذروة التدخل الأجنبى الأوروبى برجاله منتشرين بالدراسة فى شتى المجالات ، فقدمت بعثة فى بداية سبعينات القرن التاسع عشر وهى «مسح غرب فلسطين Survey of Western Palestin فابتدأوا المسح بمدينة غزة ولم يعبروا جنوبها بأية دراسة فكانت أول دراسة قامت بعملية مسح ظاهرى للمدينة وأحيائها وبعض مساجدها وقراها الشرقية والشمالية دراسة طابعها الاحصاء الأفقى أكثر منها دراسة علمية ووقعت جميع هذه البيانات على خرائط بمقياس رسم ١ : ١٠٠٫٠٠٠ فى قرية دير البلح فقط .

وفى عام ١٨٨٦ أتى « شوماخر » G. Schumacher لكى يكمل ما ظل فجوة فى هذه الدراسة فقام بمسح « خان يونس » وقراها الشرقية ورفح وخربها متوغلا فى « الشيخ زويد » ليعودوا ثانية للمدينة ، وأخذت دراسته الطابع السطحى لمجرد ذكر ما رآه بعينه من أطلال وظواهر جغرافية وديمغرافية فى صفحات محدودة أشبه بتقرير رسمى سنتعرض له فى حينه .

ومع بداية العقد الأول من القرن العشرين كتب Martin A. Meyer أول كتاب عن « تاريخ مدينة غزة History of the city of Gaza سرد فيه تاريخ المدينة من الألف الرابع قبل الميلاد حتى نهاية الفترة العثمانية وكان حافزه فى هذه الكتابة كما جاء فى مقدمة كتاب ، الأستاذ Stark الذى سبقه فى الكتابة عن مدينة غزة سنة ١٨٥٢ فى كتاب Gaza Und die Philistaische truste (٥)

---

(٤) E. c r. Conder and H. Kitchener, the Survey of Western Palestine, Vol III, Jerusalem 1970.

(٥) Martin, A. Meyer, History of the City of Gaza, New York,, 1966, p. vii.

والتى لم يذكر فيه الحقبة الاسرائيلية فى التاريخ فكأن «ماير» بهذا يرد على « ستارك » ليحشو هذه الحقبة فى تاريخ المدينة ، والتى سنراه لا يمثل حتى ولو جملة اعتراضية فى مجلدات تاريخها ٠٠ فهذا هو دأب المستشرق Meyer وغيره من المستشرقين فى حملتهم فى التشكيك فى الدور العربى الاسلامى فى الحضارة الفكرية والعلمية فوق تراب منطقتنا ٠

وعند مطلع الثلاثينيات « سنة ١٩٣٤ » بدأت حملة أركيولوجية جادة بحفائر هامة فى مواضع وتلال بالقرب من مدينة غزة وما حولها قام بها السير فلندرز بترى Sir Filinders Petrie فى منطقة « تل العجول » دونها فى كتاب أسماه « غزة القديمة » Ancient Gaza جاء ذلك فى ثلاث مجلدات (٦) سبقهـا بالحفر فى « تل الفـارعة » وتل جمـه (*) سنة ١٩٢٦ ، وجنـوب شرق مدينة غزة مع زملائه ستاركى وهاردينغ J. L. Starky and L. Harding لتمولنا هذه الحفائر ودراساتها بمزيد من المعلومات الدسـمة عن المدينة وظهيرها الذى اشتمل أيضا مواقع أثرية فى « الخلصة » وعبدة « وكرنب » « وبئر السبع » « وخربة الفار » وجميعها كانت تتبع مدينة غزة بصورة أو بأخرى تتفاعل معها كنقاط عسكرية على الطريق المؤدية لها والتى سيرد ذكرها فى حينه ٠

وفى النصف الثانى من ثلاثينيات هذا القرن (١٩٣٥ ــ ١٩٣٨) اكتشفت بعثة « كولت » H. Dunscombe Colt (٧) الأثرية أثنـاء حفـرياتها فى « العوجاحفير » نقوشا كتابية ووثائق بردية وأوانى فخارية والتى كان يطلق عليهـا اسـم « نصـتان أو Nessana باليونانية أبانت الدور الذى كانت تلعبه مدينة غزة اداريا واقتصاديا على هذه المناطق وسنكشف النقاب عنها فى مكانها ٠

وممن كتب عن مدينة غزة من أبنائها فى أواخر الثلاثينـات وبدايـة الأربعينات الشيخ عثمان الطباع فى كتاب له لم ير النور بعد وما زال مخطوطا أسماه » اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة » اتبع فيه النهج التاريخى فى سرد الوقائع والأحداث ومما أضافه جديدا عن المدينة تعرضه للكتابة عن بعض الأسر الغزية وليس جميعها اعتمد فى دراسته على اجتهاده الشـخصى وما كان يرويه له

---

(٦) F. Petrie, Ancient Gaza, 3 volums, London, 1931.

(*) تل الفارعة يقع الى الشرق من مدينة غزة بنحو عشرين كيلومترا ويطلق عليه بترى اسم بيت بيلت Beth Pelet كما أطلقوا على « تل جمة » الذى يقع شمال شرق الفـارعة بنحو ١٢ كيلومترا اسم جدار عاصمة ابمالك الفلسطينى ٠

J. L. Starky and Lankester Harding, Beth Pelet II, London, 1932.

(٧) H. Dunscombe Colt, introduction p. 14 in Excavation at Nessana, London, 1962.

المسنون من أبناء المدينة ومما لا شك فيه أن دراسته أضافت شيئا لمعايشته فترة الحرب العالمية الأولى انتهاء بالأتراك وبداية بالانجليز تتمنى أن نرى كتابه مطبوعا ·

وقد استغل قائمقام مدينة غزة السيد عارف العارف وجوده فى المدينة فكتب كتابا بعنوان « تاريخ غزة » تم نشره فى عام ١٩٤٣ (٨) اتخذ فيه أسلوب « ماير » والشيخ الطباع فى سرد تاريخها بأسلوب تقريرى مفعم بالأحداث التاريخية ومعتمد اعتمادا رئيسيا على كتاب زميله Meyer مقتبسا من الشيخ الطباع ومضيفا اليهما ما استجد على المدينة فى الأربعينات وما استطاع الوصول اليه من أوراق لدى بعض السكان المحليين فى نهاية حكم الأتراك ·

ومن كتبه التى نعتبره فيها رائدا ـ كتابه عن « القضاء بين البدو » (٩) سنة ١٩٣٤ الذى يعتبر من وجهة نظرنا وبحق مدخلا لما يسمى الآن بالدراسة الانثروبولوجية الحضارية والثقافية لما دونه فيه من عادات وتقاليد البدو خاصة فى « الوشم » مما يعد أول دراسة انثروبولوجية لهذه الفئة السكانية لأبناء جنوب فلسطين فى الوقت الذى كانت جميع هذه القبائل تتبع مدينة غزة اداريا ، على الرغم مما أثير من جدل حول كتاباته ·

وفى بداية الستينات طالعتنا مطبعة جامعة اكلاهوما بالولايات المتحدة بكتاب بعنوان «غزة في بداية القرن السادس الميلادى(١٠) » لمؤلفه G. Dawney ركز فيه المؤلف على تاريخ المدينة فى مستهل القرن السادس الميلادى بأسلوب علمى متأدب مستعرضا ظروف سكانها الاجتماعية والاقتصادية واصفا حياتها اليومية بصورة أشمل من التدقيق فى تاريخها ·

تلك هى المراجع الأساسية التى اتخذت من مدينة غزة عنوانا لدراستها اشتركت جميعها بمعالجة الجانب التاريخى المحض ولما تعرضت له من وقائع تاريخية على مر العصور ، دون أن تتناولها بأسلوب تركيبى شامل يتعرض بالتحليل والدرس لمدى تفاعل عناصر بيئتها الطبيعية والبشرية بتلك الأحداث ومدى تأثير ذلك على المدينة كمدينة فى حجمها وتركيبها الوظيفى وتأثيرها على ما حولها من مواضع وقرى ومدن ·

---

(٨) عارف العارف ، تاريخ غزة ، القدس ، ١٩٤٣ ·

(٩) عارف العارف ، القضاء بين البدو ، القدس ؛ ١٩٣٤ ·

(١٠) G. Dawney, Gaza in the early Sixth Century, University of Ack-lahoma press, 1965.

فلم تكن المدينة كما سنوضح تعيش فى فراغ فهى جزء من كل أولا وجزء تميز بالقدرة على العطاء لما حوله ثانيا ٠

ومنذ الستينات لم تحظ المدينة بدراسة علمية جادة - على حد علمنا - باستثناء ورودها ضمن مقالات جغرافية أو سياسية ، وأحيانا اقتصادية (١١) ليس الا ، على الرغم من أن هذا القطاع حرى بالدراسة الشاملة فهو يمثل الآن كتلة بشرية هائلة تحمل على عاتقها مسئوليات جساما فوق مساحة محددة ، ونحن أبناء القطاع واجبنا يفرض علينا أن نكون أدرى بشعابنا والجغرافيا كما يقولون « كالاحسان تبدأ بالأقربين بل وبالبيت Geography begins at home (١٢) فنحن وبدون مواربة كمواطنين لسنا على المستوى الثقافى بهذه المدينة على قدر عراقتها التى تضعها فى مصاف أقدم مدن العالم قاطبة ٠

وبالتالى نحن الآن أحوج ما نكون لفهم شامل وعميق لمكاننا هذا وكياننا لقدراتنا وملكاتنا ، لنقائصنا ونقائضنا ، خاصة ونحن نعيش فى بحر متلاطم الأمواج يتهيج فيه الفكر ويستنفر بحثنا عن « غزة » بالذات لتبيان جوهرها والكشف عن معدنها وتحديد دورها الحضارى والانسانى فى مصاف الحضارات العريقة والتليدة ٠

فالمدينة - مدينة غزة - بقطاعها تمر اليوم بأخطر بل وأضيق دهاليز تاريخى معتم وتسحب الى أحرج حافة جرف هاوية فى تاريخها القديم والحديث ، فهى تستدرج نحو طمس شخصيتها العربية الفلسطينية الاسلامية ببداية التخفيف من هذه الملامح عن طريق حقنها بمزارع بشرية « مستوطنات » لخلق واقع جغرافى ومن ثم تاريخى جديد يسيطر على المدى البعيد ، يدعم هذا الاستيطان ويلازمه التحايل السياسى نحو طريق الضم والالحاق الاقتصادى تارة أو بما يسمى بالحكم الذاتى المشروط تارة أخرى ٠٠

ولا يفوتنى هنا أن أضغط على حقيقة أود ذكرها قبل الدخول فى هذه الدراسة حتى لا أفسح فرصة لشطط التأويل وهى : أن « شخصية مدينة غزة وقطاعها » مهما تبلورت وعرضناها للاضاءة الساطعة ووضعناها تحت ميكروسكوب مكبر فلن تخرج عن كونها خلية وملمحا من شخصية فلسطين التى هى بدورها جزء من شخصية الوطن العربى الكبير ٠

فدراستها لا تعنى الاقليمية السياسية الضيقة ، بل انها الاقليمية الجغرافية المنيرة ، فهى دراسة عن شخصية مدينة مع ما جاورها من قرى ومدن ودواضع ضمن اقليمها الكبير ، لانه ليس من السهل علينا أن نركز على

(١١) التنمية الاقتصادية فى قطاع غزة ، محمد على خاوصى ، القاهرة ؛ ١٩٦٧ ٠

(١٢) الجغرافيا مغزاها ومرماها ، المرجع رقم ١ ص

شخصيتها فى عبارة موجزة أو محاولة بسيطة فمدينة غزة غنية بتاريخها خصبة بقسمات شخصيتها الوضاءة فهى « حمراء اليمن » بالتعبير العربى القديم « وسيدة البخور » بالوصف اليونانى والرومانى وأول الشام من جهة مصر كما وصفها الرحالة العرب « ودهليز الملك » بتعبير الظاهرى « وبوابة آسيا ومدخل أفريقيا » كما ورد على لسان نابليون ، وميدان تطاحن الأمم · كما قال جورج آدم سميث « وغزة هاشم » جد الرسول ·· جمل مختزلة تترجم موقعها وموضعها ، اقتصادها وظروفها الاجتماعية لتفسير شخصيتها الفذة ولقد تغزلوا منذ عصورها التاريخية قبل الميلاد بكرومها وقمحها · بفخارها ونسيجها بجامعاتها وبساطة سكانها وسماحتهم ··

وقد بذلت جهدا أتمنى أن تكون ثماره على قدره — فى مسح جميع آثار المدينة ومقدساتها القديمة دراسة وتصويرا ورسما ، حاولت خلاله أن أجمع بعض الوثائق القديمة التى تخص بعض الأسر الغزية لدراستها وتحليلها ، وقد تجاوب العديد منهم تجاوبا فعالا ومثمرا يتناسب مع ما تميز به هذا الشعب من أصالة وكرم مما أثرى الدراسة ودعمها ·

وأخيرا أتمنى أن اكون قد وفقت فى رسم ولو أجزاء من ملامح هذه المدينة الخالدة ووصفها ، مؤمنا بأن الكمال لله وحده ، ومعترفا بأن النقد البناء هو البناء نفسه الراسخ الشامخ الذى أتوق لسماعه وقراءته ، مع وافر شكرى وتقديرى لبناته مسبقا ·

والله الموفق الى أقوم سبيل ·

غزة — الشجاعية

سليم عرفات المبيض

خطة البحث :

بالطبع ومن وحى استشفاف « الروح » لعناصر شخصية هذه المدينة الخالدة ، ومن واقع فاعليتها ككائن حى يتفاعل تفاعلا أيكولوجيا بكل العناصر المحيطة بها ، من موقع حدى ، وموضع اكروبوليسى ، لعبا دورا فى أمنها والدفاع عنها ، الى البنية الجيولوجية التى ترتكز على تربتها المدنية وتحيط بها · ومدى قابليتها للعطاء والتمويل الغذائى والصناعى ، الى المناخ المسيطر على سمائها وما تنفثه من حرارة وتزجيه من غيث يهبها الحياة ·

هذه الأضمومة الطبيعية بدأنا بها مكونات الباب الأول . كمدخل طبيعى وحيوى يفسر الى أى حد منحت هذه المجالات الطبيعية فرصة البقاء الخالد للمدينة مبتدئين بالموقع والموضع ، ثم البنية الجيولوجية والحركات الأرضية وأخيرا المناخ بعناصره المختلفة واسهاماته ، مع عدم اغفال كيف استطاع الانسان العربى الكنعانى والفلسطينى البانى لهذه المدينة أن يكون عنصرا جغرافيا موجبا ويشكل ثم يعيد تركيب تربته ويغرسها فى اطار بيئة حدية ليست بالذلول الهين استطاع أن يعيش معها فى توافق سعيد ·

أما الباب الثانى / فقد اتخذنا من العنصر البشرى مادة الدراسة وأساسها بأحداثه التاريخية ووقائعه الحربية كاستجابة وتحد مستهلين فصوله بالعصر الحجرى الحديث بأقسامه القديم والوسيط والحديث كعصر تميز بأهميته الحضارية كما سنرى أتبعناه بالعصر الحديدى الفلسطينى متجهين بعدها للفترات التاريخية التى تعرضت لها المنطقة من القوى الحضارية شرقا « كلدانية وبابلية واشورية » والفرعونية بجحافلها ثم اليونانية والرومانية والنبطية العربية والبيزنطية فالاسلامية والعثمانية مع ما اندس بين هذه الحقب من هجمات عارضة « صليبية ومغولية » وقد أفردنا للقرن التاسع عشر الميلادى فصلا خاصا لما تميز به من ضغط هجومى يكشف على الرجل المريض عسكريا وسياسيا واجتماعيا كبداية ممهدة للغزوة الامبريالية الصهيونية التى شكلت بعمق جراح هذا الشرق الأوسطى للقرن العشرين ·

مع حرصنا الشديد ونحن نترسم هذه الحقب ألا ننفصل عن المدينة من الداخل لنتلمس استجابة سكانها وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ــ بقدر الامكان ــ وعلاقة هذه جميعا بحجم عمرانها ووظائفه وما

يصيبها من تمدد سكنى وسكانى داخل حدودها وخارجها من عصر لآخر لايماننا بأن الانسان ككائن حى وليس العالم الطبيعى هو عنصر الحضـــارة الفعـــال وقاعدتها ٠

لذا غلف دراستنا لهذا الباب طابع «الجغرافيا التاريخية» للمدينة والقطاع لتعدد مناحيها ومجالاتها فى الدراسة وأكثر الفروع الجغرافية سبرا لأغوار أى اقليم وقدرة على اكتشاف جوهره وكيانه فمعظم من كتبوا عن أى اقليم دخلوه من باب الجغرافية التاريخية » (١٣) ٠

ونظرا لخصوبة تاريخ هذه المدينة ان لم تكن بحق مصغرا للتاريخ نفسه ـ لم لا وقد بدأت مسيرة الحضارة من منطقتنا منطقة الهلال الخصيب (١٤) ٠ فقد اتخذت أسلوب التتابع الزمنى فى ظهور المدن والقرن والمواضع العسكرية للقطاع مبتدئا بالأقدم فى « تل العجول وغزة ومنهيا بالأحدث حتى تبدو الصورة واضحة فى الدلالة على أهمية كل موضع ولتبيان دورها وأهميتها التاريخية فى ظهور ما يليها ٠ أى بأسلوب التاريخ الطولى بالنسبة لتتابع ظهور المدن والقرى والمواضع الأثرية ، وأسلوب التاريخ العرضى لكل حقبة زمنية نستعرض فيهـــا ما أنجزه انسان المدينة من تطور عمرانى ونشـــــاط اقتصادى ونمو اجتماعى وثقافى حتى تبدو الصورة متكاملة لحد ما ٠

وبناء على ذلك ـ ولتنفيذ هذه الخطة ، فان معظم مراجع هـــذا الكتـــاب كانت جغرافية بفروعها المختلفة الطبيعية منها والبشرية وأبحاثا وكتبا تاريخية قديمها وحديثها ودراسات اركيولوجية ومراجع ديمغرافية وأبحاث ودراسات جيولوجية وهيدرولوجيـــة ، ونظرا لأن المدينـــة وقطاعها لم يحظيا بالدراســـة المعمقة فى أى مجال من مجالاتها ـ باستثناء التاريخية منها ـ فقد كان الحصول على معلومات لتغطيتها أمرا ليس بالسهل ويعتمد على لمه من شـــتات متنافـــر ومتناثر من كتب الرحالة والبحاثة والحوليات الرســـمية والوثائق والمستندات فى الدوائر والمؤسسات الدينية والمجلات العلمية وما تمخضت عنه بعثات الحفر من دراسات وتعليقات ، معززة بالزيارات الحقلية الهادفة لكل موقع وموضع أثرى سواء أكان أطلالا لمدينة قديمة أو بقايا لأرضيات من الفسيفساء وكذلك الهرابات والمساجد والكنائس والأســـواق القديمة والحمامات والخانـــات حتى المزارات وبعض الأضرحة التى لها دلالاتها التاريخية ولعله من المفيد فى هذا المقام أن نشحذ همة مثقفينا وعلمائنا ومؤسساتنا الدينية ٠ خاصــــة ادارة

---

(١٣) شخصية مصر لمرجع رقم ٢ ص ١٤ ٠

(١٤) ج٠ برونوفسكى ـ ارتقاء الانسان ـ ترجمة د٠ موفق شخاشيرو ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨١ ٠

الوقف .. وأثرياء هذه الديار لكى يهبوا ويهبوا تراثا تركه الأجداد بالغالى والنفيس للحفاظ عليها وترميمها فهي شواخص حضارتنا الثابتة وهي « أوراق الطابو » لأرضنا ومجدنا وتراثنا وأن نجمع ما تناثر منها ليمثل النواة « لمتحف غزة » الأثرى ، فهى مدينة تملك رصيدا هائلا من التراث والآثار لاقامة « متحف » .

فهناك الكثيرون ممن يقترفون السوء بجهالة عند هدمهم لمساجدنا القديمة المنتشرة فى أحيائنا القديمة بقصد بناء مسجد حديث فوقها ، وهذا جريمة فى حق التراث ـ فمازالت أراضى الوقف واسعة فعلينا بالحفاظ على القديم بالترميم وبناء المساجد الجديدة على أراض جديدة لأن هذه المساجد وما حوته من طراز معمارى ونقوش وكتابات هى سمة من سمات الشخصية العربية الاسلامية لهذه المدينة ، تفرض علينا الحفاظ عليها واجلالها . ويا حبذا لو شكلت لجنة أو هيئة رسمية مهمتها المحافظة على هذه المناطق الأثرية يكون من مهامها :

١ ـ الحفاظ على هذه المبانى بترميمها من الأموال المتاحة محليا .

٢ ـ اصدار قرار بعدم هدم أو بناء لأى أغراض سكنية أو تجارية فى المناطق أو المبانى التاريخية .

٣ ـ لا يجوز استخدام الأسمنت المسلح فى ترميم أو اعادة بناء أى شيء فى هذه المناطق الا باذن خاص من الهيئة أو اللجنة المختصة .

فاهمال الآثار التاريخية هو فى حد ذاته انكار للذات والشخصية العربية ، ولشخصية هذه المدينة وما يتبعها من قرى ومدن والحفاظ عليها ملمح لنضج حضارى وثقافى راق ، كما أن تراثنا الحضارى بشخوصه وثوابته الشامخة هو محج لنا ولزوارنا وأبنائنا ليقرأوا منه قصة أجدادهم وفرصة تربوية نبدد بها النمط التقليدى المدرسى فى تدريس مادة التاريخ والعلوم الأخرى « كلاميا » فمن خلال هذه الأماكن الأثرية « والمتحف » ـ كما نتمنى ـ تكون الدراسة عملية قيد الانسان وطريقة انتاجه وبنائه وكيفية استخدامه لأدواته التى يخلفها لا تقل أهمية عن ما ينطق من فمه من أقوال ومأثورات .

اختصارات

AASOR : Annual of the American Schools of oriental Research.

BASOR : Bulletin of the American Schools of oriental Research.

T.P.O.S. : Journal of the Palestine oriental Society.

JEA. : Journal of Egyptian Archeology.

P.E.F.A : Palestine exploration Fund Annual.

PEQ : Palestine expploration quarterly.

JEA : Israel exploration Journal.

S.W.P. Survey of Western Palestine.

ZDPV : Zeitschrift des Patschen Palästina Vereina.



الفصل الأول

العوامل الطبيعية المسئولة عن خلود المدينة

- موضعا .. وموقعا
- جيولوجيا
- مناخيا

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان بقـدمين يدبان على سطح القشرة الارضية فيما نسميها « بالتربة » ورأس فى الهواء يستنشق أكسجين ويتأثر بحرارته ورياحه وأمطاره كعناصر رئيسية للسماء ٠

فهو اذن فى حقيقته « الواسطة » بين السماء والأرض ، ونتاج من نتاجها، الواسطة الحيوية التى حباها الخالق بالعقـل ذى الفـكر المدبر ٠ وفى أحسن تقويم ٠ يتأثر بما حوله ويؤثر فيما يحيط به ، يتفاعل وينفعل ، ليصـنع من ردود الفعل هذه « الحضارة » بمفهومها المادى والثقافى ٠

فالتربة هى مجال الانسان فى انطلاقاته سعيا وراء رزقه ، وبنوع تكوينها توفر له عناصر غذائه وادواته ، فان كانت فقيرة « كالرمال » فانها غالبا مـا تطرده ، وتجذبه لها ان كانت طيبة غنية ، وهى بجميع أنواعها المختلفة وكل تراكيبها المتنوعة غير ولود الا اذا تدفقت عليها المياه وتسربت خلال مساماتها سواء فى صورة أمطار أو أنهار وعيون وآبار فالمصدر واحد هو السماء ، تمتزج جميعها مـع البذور لتطبخها ـ الحرارة ـ فتنتج الزرع والكلأ غذاء ووقـودا للانسان وحيوانه ٠

ألم يكن من الماء كل شىء حى ؟! ٠٠

وعليه كان الاعجاز فى كتابه الكريم « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا « الانعام ٢ » فما دم الانسان ولحمه وعظمه الا نتاج حقيقى مما تنتجـه التربة وتفيض به السماء ولن يكتب له البقاء لو استغنى عما تعطيه هذه الأرض الطيبة ولو لفترة وجيزة ٠٠ كيف لا ومآله الابدى لها يذوب فيها ليصبح مزيجا وعنصرا من عناصرها « واليها ترجعون » لقد اختزل الخالق باعجاز محكم هذه « الدورة الحياتية » فى محكم قرآنه بقوله « الله الذى يرسـل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخـرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون « الروم ٤٨ » ٠

هكذا بتتابع تركيبى منتظم تبدأ بالرياح وتنتهى بسعادة الانسان لما يصيب الأرض من انتاج لوفرة الأمطار ، تلك هى العروة الوثقى بين السماء والأرض وما بينهما الانسان ٠

فالمحصلة مفادها أن الأرض تربتها واستقرارها « جولوجيا » والسماء بعناصرها « مناخيا والانسان بعقله وتدبيره ثالوث ينسج الحضارات » عـبر

الدراسة الايكولوجية نود تأكيدها فى التوطئة عن العوامل الطبيعية المسئولة عن خلود مدينتنا « غزة » فما الأرض والسماء الا الركائز الجوهرية والمقدمات الأساسية التى لا بد من وعيه جيدا قبل الولوج فى تراكمات الأحداث التاريخية البشرية التى يعتورها الكثير من الشكوك سواء المتوفر لدينا وهو قليل — وما انطمر منه واندثر بين طيـــات الأرض — وهو مازال الكثير — الذى نبحث عنـه .

ألم نر أن أعرق الحضـــارات واقدمها ما نشأت الا على تربة طينية فيضية تغمرها المياه الوفيرة سواء على ضفاف النيل أو بين جنبات دجلة والفرات وحول سهول أنهار جنوب شرق آسيا أو فى وديان وذرى جبال المناطق الممطرة كاليمن والشام ، فأمدت الانسان بخيراتها ومنحته الأمان على غذائه فأقام البنيان وشيد العمران الشامخ مقاوما الزمن مما دفعنا أن نطلق عليها « عجائب الدنيا » .

وفوق ثرى أرضنا فلسطين — قامت حضارة — عاصرت بل واكبت بنـاء الأهرام فى مصر والبابليين والآشـوريين فى العراق وهنا فى غزة وفوق رباها وضفاف أوديتها نشـأت مراكز استيطـان، واكبت — كما سيجئ ذكـره — بحضارتها حضارة مصر مما يلزمنا قبل نبع تاريخها أن نستقرئ جغرافيتها ، فالجغرافيا بأرضها وسمائها هى التى تنسج احداث التاريخ بل توجهه وتقوده. ومدينة غزة لها أسرارها الفريدة . فهى لم تندثر قط ، عاشت حية منذ ولادتها ولم تمت . مناقضة كل النظريات التى تقول ان المدينة أية مدينة كالكائن الحى يعيش ثم يموت (١٥) لقد اندثرت حقا بعض المدن الساحلية فى فلسطين فى حين من الزمان — مثل يافا — حيفا — عسقلان — المجدل — رفح — الا مدينـة غزة استمرت خالدة فى موضعها وموقعها لم يهجرها أهلها الصامدون على مر العصور فما هو السر ؟!!

والسر يتضح فى دراسـة روافـد الصـمود — انهـا الأرض المعطـاءة بموضعها وموقعها ، ببساطة تضاريسها أو صعوبتها — باستقرارها أو زلزالها والسماء بحرارتها ومائها — هذه جميعا تمنح البقاء والاستقرار .

---

(١٥) جمال حمدان — جغرافية المدن — القاهرة ، لا توجد السنة .

الموضع والموقع : المدينة غزة وتل العجول

أثير كثير من الجدل حول موضع ونشـــأة مدينة غزة منذ عصور ما قبل الميلاد . هل نشأت أول ما نشأت في منطقة « تل العجول » الواقعة على التلة الشمالية القريبة من فم الواد ـ وادي غزة ـ ؟ كما يرى فلندرز بترى ، أم أنها كانت تقع منذ أن شيدت لبناتها الأولى في موضعها الحالي الواقعـــة على خط عرض ٣١ر٣١ شمال خط الاستواء وعلى خط طول ٣٤ شرقا ، بعيدة عن الساحل ثلاثة كيلو مترات ونصف (٥ر٣) الى الغرب منه . تماما كما حدد بعدها هذا « هيرودوتس » أيام الاسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد .

ومما ضاعف من هذا النقاش ما ورد من أسماء مثل « غزة الجديدة وغزة القديمة » والفيصـــل لهذا الجدل ما أجمع عليه معظـم الأركيولوجيين من أن غزة الجديدة تقع على أنقاض غزة القديمة فالمواضع والمواقع غالبا ما تتوارث ، وما الارتفاع الذي تقع فوقه المدينة الحالية « ٤٥ مترا فوق مستوى سطح البحر » الا نتيجة الارسابات المتراكمة من أنقاض بنيانها القديم عبر القرون . ولو أن هذا القول يؤخذ بشيء من الحذر والتحفظ .

ففي عام ٣١٢ قبل الميلاد أسماها كل من ديودرس Diodorus وبروفي Prophy « غزة القديمة » تمشيا مع التعبير القديم «Veterem Gaza» وقال جيروم Jerome أن موقع مدينـــة غزة القديمة من الصعب تحديده وانها ربما دمرت أيام الاسكندر جانيوس Alexander Jannaeus ثم أعيد بناؤها ليطلق عليها اسم « غزة الجديدة » وربما كان ذلك على يد جابنيوس Gabinius سنة ٥٧ قبل الميلاد (١٦) .

فمهما اختلفت هذه التسميات تبقى هنـــاك أمور ثابتة لا تجعلنا نحيد عن جوهر الموضوع وهو أن موضع مدينة غزة الحالي سواء أكان في « تل العجول » الواقعة جنوب المدينة الحالية بسبعة كيلو مترات أو نشأت في موضعها الحالي ، يظل كلا الموضعين موقعا حديا ضمن اقليم جغرافي طبيعي واحد ، تظله ظروف مناخية واحدة فالســـبعة كيلو مترات لا تنقلنا من اقليم لاقليم آخر متباين . (انظر خريطة رقم ١) .

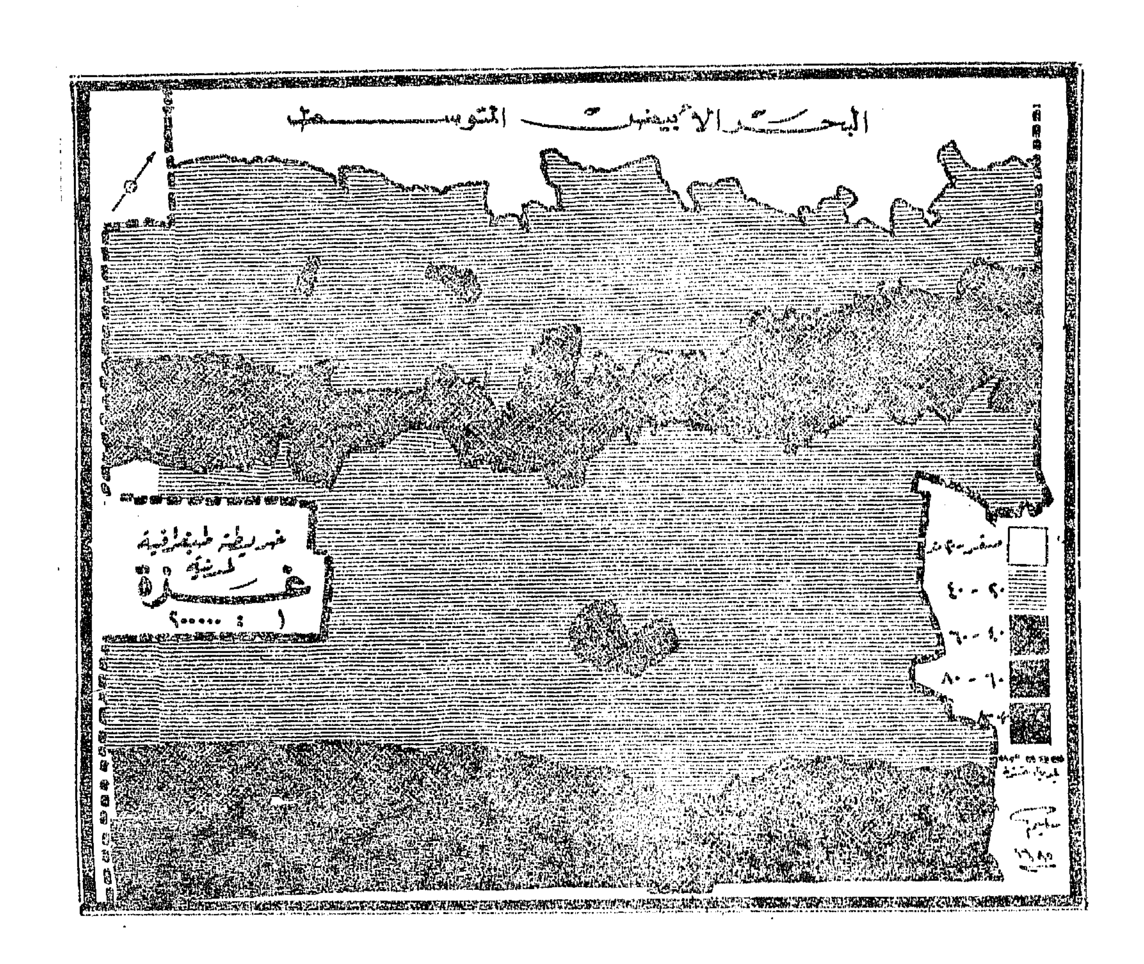
M.A. Meyer, History of the city of Gaza, New York, 1966, p. 7-11. (١٦)

خريطة (١) موقع وموضع غزه وتل العجول

وكلا الموضعين « تل العجول » وغزة ، يقعان على تلة ، الأولى قريبة جدا من البحر (١ كيلو متر) والثانية (٣٥ كيلو مترا) أبعد منها متمشيا مع الأسلوب القديم فى اختيار « التلال » مراكز للاستيطان ـ النظام الاكروبوليسى ـ لاستيفاء ضوابط الأمن والدفاع وسط منطقة سهلية تسيطر عليها · لكن يبقى استثناء واحد بين الموضعين هو أن « تل العجول » تقع عـلى حافة واد وبالقرب من نهايته المصبية وعند أكثر اتساع له · بينما غـزة تقـع على تلة وسط منطقة سهلية خصبة · وقديما تشكلت وتوطنت جميع المواضع منذ العصر الحجرى وحتى الانسان العربى الكنعانى وما بعده اما بالقرب أو على حافة نهر أو واد ، وسنرى كيف استقطب ـ وادى غزة ـ من منابعه عند الحافة الجنوبية لهضبة الخليل مرورا بمجراه الأوسط عند بئر السبع وحتى مصبه فى غزة عديد من هذه المواضع الأثرية الاستيطانية القديمة · وهذا لا يبرر طول البقاء لهذه المواضع سواء لقرب المياه السطحية منها أو الجوفية أو لكون الواد خندقا أماميا يصعب اجتيازه ويسهل الدفاع عنه · بالرغم من كل ذلك ـ كثير منها عاشت لفترة قصيرة واندثرت وأخرى استمرت لمدة أطـــول لمزايا موقعهـــا وموضعها · وربما تحولت نعمة الموقع على الواد التى انفردت بها « تل العجول » عن غزة الى نقمة عندما أدى ركـــود مياه الواد عند المصب الى انتشـــار مرض الملاريا بين سكان « تل العجول » فهجروا موضعهم متجهين شمالا نحو موضـــع مدينة غزة الحالى على حد زعم «فلندرزبثرى ليســكنوا تله وليبتعدوا عن البحر قليلا » ومياه الأودية الراكدة مستعيضين بدلا منها بينابيع المياه المحيطة بمدينة غزة ومياهها الجوفية القريبة ـ كما وصفها كثير من الرحالة كما سنرى ـ فوفر بالتالى عناصر الأمن والغذاء لها ليمنحها الخلود هذا عن الموضع Site

أما الموقع Situation فهو لسر الآخر لخلود المكان فسواء أكان موقع مدينة غزة الحالية أو موقع « تل العجول » فانهما يمثلان أول واحة للراحـة تقف عندها تلك القبائل العربية القادمة من الصحراء العربية ـ الخزان البشرى الهائل والأول ـ لتحل رحالها فيها لتجد الطين والخصب من بعد الرمال والقحط والماء الوفير بدلا من مياه العيون المتناثرة وسط بحر الرمال العظيم ، لتصبح منطقة غزة لهؤلاء أول مدرســـة لتعليم الزراعة والاستقرار لمن تعـــود الرعى والترحال ، فينجح من يملك القدرة والرغبة على التعليم فيكتب له الاستقرار اذا فهى مصب بشرى بحكم موقعها الحدى ـ بين المزروع واللامزروع فهى آخر الصحراء شمالا وأول البحر المتوسط جنوبا ـ منطقة انتقال ـ سمة من سمات الجذب جعلت العنصر البشرى العربى ذا الوجوه السمر دائم التوافد ، تترى سراياهم موجة اثر موجة على مر التاريخ ليتمركزوا بها ، تمولهم بعطائها الوفير ، فيفتدونها بالبذل والتضحية فكان سر خلود المكان وصمود السكان · على النقيض من « تل العجول » التى سبقتها سكنا ولم تجارها بقاء مستمرا فقـد تلاشى

اسمها — كموقع مدنى — بعد أول ضربة هكسوسية لتزول ثم تطفوا من جديد ولكن بوظيفة جديدة — وظيفة الموقع العسكرى المتقدم — والميناء احيانا — لمدينة غزة من الجنوب ، لم لا وقد نزح سكانها نحو — غزة — لكن لم ينسوها ، فقد أبانت لنا الحفائر والدراسات الأركيولوجية من أدوات زراعية وحلى ومجوهرات وأوان فخارية البحبوحة الاقتصادية والحياة الاجتماعية الترفيـة التى كان ينعم بها سكانها ·



خريطة رقم (٢)

وسمعنا عن « تل العجول » كنقطة تجمع عسكرى للوثوب على غزة من الجنوب على طول الفترات التاريخية وحتى الحرب العالمية الأولى ·

الموقع البحرى

وحافظت مدينة غزة القديمة على موقعها منذ نشأتها حتى اليوم الذى يبعد عن شاطىء البحر بنحو ثلاثة كيلومترات ونصف (٥ر٣ كم) من الغرب ، احتلت موضعا فوق تله فسيحة الى حد ما (كيلو متر مربع تقريبا) تتوافق فى مساحتها مع متطلبات وطاقات أبنائها الأوائل فى العصر العربى الكنعانى . وترتفع هذه « التلة » ثمان واربعين مترا (٤٨ متر) عن مستوى سطح البحر وسط منطقة سهلية أقل منها ارتفاعا أصبحت وكأنها جزيرة مرتفعة وســط مجرى وادى قديم . يحفها حزامان طوليان اكثر منها ارتفاعا الى الغرب والشرق منها موازيان لساحل البحر المتوسط .

أما الحزام الغربى فيمثل نطاقا من الرمال يرتفع اكثر من ٥٠ مترا عــن مستوى سطح البحر ويبعد عن البحر كيلو مترين .

أما الحزام الشرقى فيتكون من رمال خشنة (كركار) وطين يرتفع أكثر من ٦٠ مترا عن مستوى سطح البحر وتعلوها بعض تلال يزيد ارتفاعها عن ثمانين مترا عن سطح البحر مثل تل المنطار (٨٥ مترا فوق مستوى سطح البحر) وأخرى أكثر من سبعين مترا بحيث أصبحت تشكل « مناطير » الشرق وتشرف عليها (انظر الخريطة رقم ٢) .

يتوســـط الحزامين موقع وموضــــع مدينة غزة فوق حزام ثالث أقل انخفاضا (٢٠ ــ ٤٠ مترا) فوق سطح البحر .

هذا الموقع الاستراتيجى « الأكروبوليسى » ساعد المدينة كثيرا فى توفير اقصى درجات الدفاع عنها .

القطاع جيولوجيا :

يشبه هذا الشريط الساحلي المسمى « قطاع غزة » والذي هو جزء لا يتجزأ من السهل الساحلي الفلسطيني يشبه جيولوجيا ومورفولوجيا الساحل الشمالي لسيناء بشكل كبير ، لما يتميز به من ظاهرات بارزة من سلاسل وحواف طولية وكثبان رملية ·

فالكثبان الرملية في القطاع تمتد على هيئة حزام طولي مع امتداد ساحل البحر المتوسط من أقصى الشمال الى الجنوب يصل ارتفاع بعضها الى سبعين مترا عن مستوى سطح البحر كما في « تلة النصر » غرب قرية بيت حانون حيث تصل الكثبان الرملية الى أقصى امتداد لها نحو الشرق في قرية بيت حانون ، وبعدها تضيق نطاق الكثبان الرملية الساحلية الحديثة التكوين كلما اتجهنا جنوبا فتمتد الى الغرب من قرية النزلة وحاليا وتصل أعلى نقطة وسط هذه الرمال الناعمة عند « تلة الشيخ رضوان » وترتفع ٦٥ مترا عن سطح البحر » · وعند مدينة غزة وصلت الكثبان الرملية الى الغرب قليلا من المدينة لتحيط بها في اتجاه الجنوب لتنحصر بعدها هذه الكثبان الرملية لتمثل أضيق خاصرة لها الى الغرب من « دير البلح » ثم تأخذ في الاتساع قليلا في اتجاه مدينة خان يونس والى الغرب منها مباشرة حتى رفح لترتفع أعلى الكثبان شمال غرب خان يونس فتصل الى « ٦٨ مترا » وشمال غرب رفح الى ٥٥ مترا عن سطح البحر (١٧) ، وعلى العموم يتراوح عرضها ما بين ٢ كيلومتر الى ٥ كيلومترات داخل القطاع ·

تأخذ هذا الكثبان الرملية الشكل « الهلالي » وبعض الأشكال المتعرجة وذلك لسيادة الرياح الغربية والشمالية معظم العام · وهي متحركة نحو الشرق ·

وقبل أن نترك الكثبان الرملية والساحل للقطاع تستوقفنا ظاهرة جيولوجية ومورفولوجية ممثلة في حواف لها وجه شديد الانحدار تطل على البحر مباشرة تتألف من تكوينات طينية حمراء خصبة كتلك الواقعة على شاطىء البحر قبالة « بيت لاهيا » وعند شاطىء « الشيخ رضوان » ميناء انيندون القديم ، « وحانة الشيخ عجلين » والحانة الواقعة على شاطىء « دير البلح » فالتعرية البحرية الشاطئية هي المسئولة عن ظاهرة الارتفاع « الجرف » Cliff. لكن التكوينات الطينية ربما كانت نتيجة لارساب طمي النيل أثناء الفيضان عندما يقذف بارساباته الطميية في البحر المتوسط لتحملها أمواج البحر

---

(١٧) Palestine Map, 1 : 10,000 Sheet II, Gaza, 1941-1942.

أو ترسبها على شاطىء غزة . والتي اتخذ منهـا فيما بعد مناطق استيطانيـة وموانىء هامة للمدينة في العصر اليوناني والروماني . هذه الرمال حدت بل حددت بقوة طريق المواصلات القديم «Via Maris» طريق البحر » وحدت من التوسع العمراني لشبكة المدينة وسائر مدن القطاع نحو الغرب لفترة مديدة (انظر الخريطة رقم ٣) .

اما الى الشرق من القطاع فهناك الكثبان القديمة غير المتحركة والتي تتألف من تلال من الحجر الرملي المتماسك « الكركار » تتخلله طبقات رقيقـة من الرمـال الحمراء أو ذات اللون البني والتي تعرف محليا « الحمرة » تتركز جميعا مع طبقات من التكوينات الطباشيرية .

هذه التلال تحف بالقطاع في الغالب من الشرق مبتدئة من الشمال الى الجنوب وجميعها يتراوح ارتفاعهـا ما بين ٨٠ الى ٨٥ مترا فوق سـطح البحر باستثناء « تلة المنطار » شرق غزة التي يصل ارتفاعها الى ٨٥ مترا . ساهمت هذه التلال بدور رئيسي كنقاط للمراقبة « مناطير » على مر العصور .

وتكوينات « الكركار » أمدت سـكان غزة بحجارة البناء فبنوا منهـا مساكنهم ونحتوها لدفن موتاهم في حجرات منذ أقدم العصور وفي عصرنـا الحالي . بالاضافة لكونها الوعاء الخازن للمياه الجوفية لمساميتها فأصبحت تمثل الرصيد الاحتياطي الهائل للمياه وبمرتفعاتهـا الشرقية حددت طريق حوريس هي والكثبان الرملية (١٨) .

أما التكوينات الطينية الحمراء والمنتشرة شرق القطـاع فقد استغلهـا الانسـان العربي الفلسطيني الغزي في تشكيلهـا وصنع منها لبنات الطوب ليشيد بها بيته ، بل تعدى ذلك وتفنن في صناعتها لارتفاع نسبة الحديد فيها فصنع منها أدواته وآنياته الفخارية التي شملت معظم احتياجاتـه واحتلت شهرة فائقة كما سنرى عند مقارنتها بالأواني والأدوات الفخارية المصرية والتي عثر عليها في « تل العجول » و « دير البلح » وأماكن عديدة من القطاع .

فمنها صنع أدوات التخزين ومصابيحه وخزينة ماله وظـل يطورها حتى أمست قنبلة لمدفعه وقالبا يصب عليه نقوده كما سنرى .

وللتكوينات الطينية أهميتها للزراعة خاصة لو علمنا أنه الى الشرق من غزة تتألف التربة من مزيـج التربة الطينية المختلطة بالجير الايوسيني الذي تنقله الرياح « اللويس الصحراوي » فكان لهذه « التوليفة » الجيولوجية أثرها

---

(١٨) M. A. Mèyer, History of the City of Gaza, p. 9.

خريطة رقم (٣)

Palestin Map : 1 : 10,000, Sheet II, Gaza, 1941-1942

geological Map, Prepared by I.L. Picord. 1 : 500,000. July 1964.

فى شهرة أراضي غزة بزراعة القمح والشعير الغذاء الرئيسي للسكان منذ أقدم العصور وفيما بعد بالحمضيات والكروم ٠

هذه الامكانات الجيولوجية بتكويناتها المعطاءة وفرت لانسان هذه المدينة عناصر البقاء والصمود من زراعة وصناعة وحتى الظروف الأمنية ولعل « استرابو » فى العصر اليونانى خير ما أوجز ذلك بقوله « تربة غزة ناعمة ومن السهل العمل فيها ، وان أدوات وآلات الحصار تواجه صعوبة فى تطويقها لأنها تغوص فيها ولكن الكثير مدح خصوبتها وزراعتها » (١٩) (انظر خريطة رقم ٤) ٠

وفى نهاية العصر الجيولوجى الحديث « البلايوسين » تعرض القطاع كجزء مما تعرض له السهل الساحلى الفلسطينى لحركة هبوط امتدت من مدينة « يافا » شمالا حتى رفح جنوبا متوغلة الى بئر السبع شرقا على هيئة قمع كبير ، طرفه الضيق عند « بئر السبع » وفتحته الكبيرة تمتد من يافا حتى رفح [حوض بئر السبع ـ غزة] (٢٠) ٠

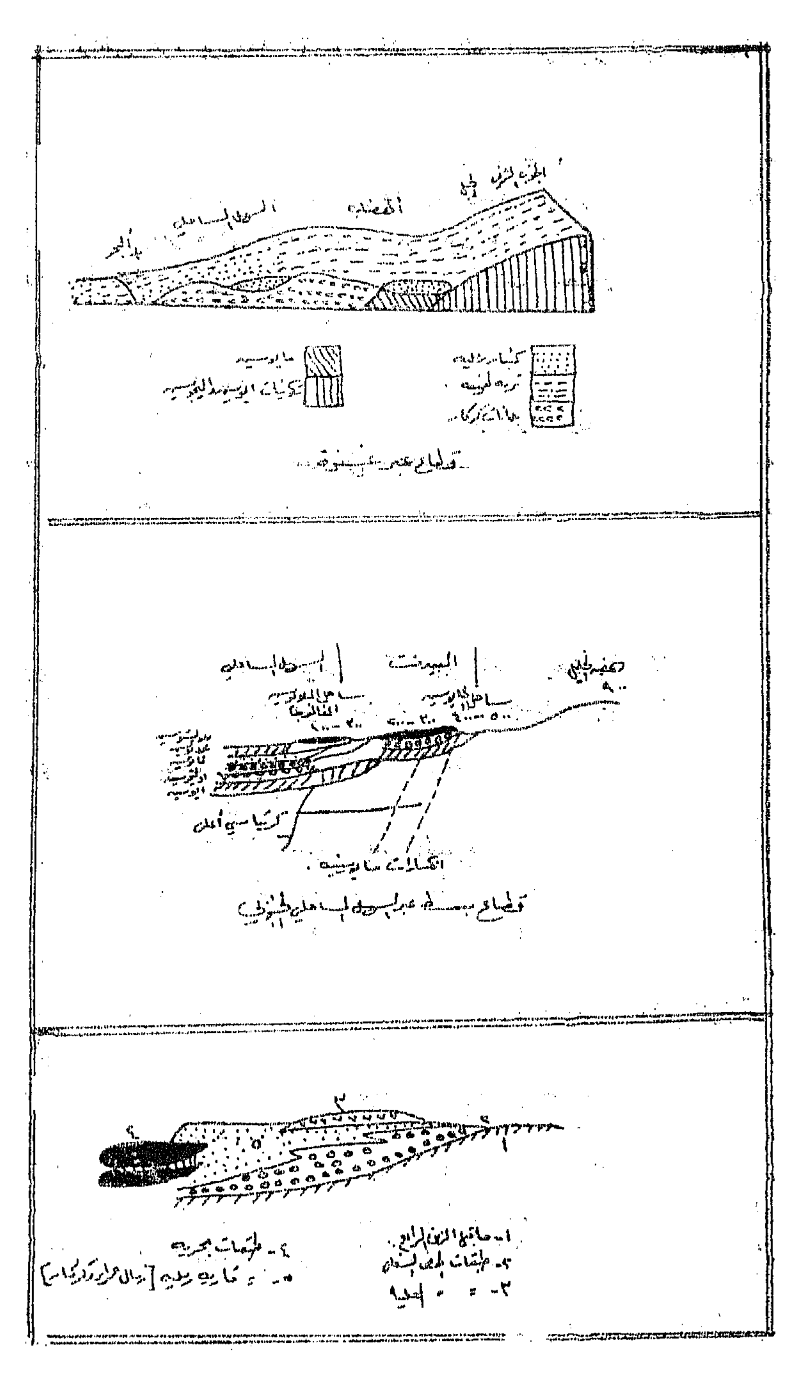
ويرى العلماء أن هذا الحوض انكسارى فصل هضبة الخليل عن النقب تماما كما فصل انكسار سهل مرج بن عامر بين الجليل وجبال نابلس ٠

أدى هذا الهبوط بطبيعة الحال الى توغل مياه البحر المتوسط على هيئة لسان مائى امتد حتى بئر السبع فنجم عنه ارسابات بحرية جيرية يمكن رؤيتها بوضوح عند مشارف مدينة بئر السبع الغربية خاصة وحولها بصفة عامة ٠ وهذه التكوينات أكسبت التربة الطينية مزايا جعلت زراعة القمح والشعير فيها ذات شهرة فائقة فى نوعيتها وجودتها عززت مكانة غزة بصفة خاصة الاقتصادية فى الأسواق العربية المحيطة بل والأوربية ٠ تراجع بعد ذلك هذا اللسان البحرى متجها للغرب فى اتجاه موقعه الحالى نتيجة حركة ارتفاع لباطن الأرض فى عصر « البلايستوسين » فانسحب مخلفا وراءه مستنقعات وبحيرات متناثرة أخذت تجف تاركة وراءها طبقات جديدة صماء تحول تسرب المياه السطحية الى أعماق بعيدة ، لذا كان الوصول الى المياه الباطنية فى القطاع وغزة خاصة لا يحتاج الى الحفر لأعماق بعيدة ، بحيث لا يزيد عن خمسين مترا شرق المدينة وخمسة عشر مترا الى الغرب منها بالقرب من الساحل ٠ وهنا يكمن سر آخر من أسرار بقاء المدينة

---

(١٩) Leo picard, geography, Library Boket, Jerusalem, 1973.

(٢٠) د٠ محمد غلاب ، الجغرافيا التاريخية لاقليم النقب ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ـ الموسم الثقافى لعام ١٩٥٦ ـ القاهرة ـ ص ٨٤ ـ ٨٦ ٠


البحر
السهل الساحلي
الهضبة
كثبان رملية
تربة طينية
السهل الساحلي
البيمنت
٤- إرسابات بحرية
١- ما قبل الزمن الرابع

خريطة رقم (٤)

وهو سهولة الحصول على الميـاه الجوفية خاصة وان المدينة تتلقى الحد الأدنى من كمية الأمطار الساقطة على فلسطين كلها ٠ فاشتهرت كما سنرى بحفر الآبار واقامة السواقى عليها لزراعة الخضار والفاكهة من حولها ٠

من هنا اختلفت طبيعة التكوينات الجيولوجية للتربة وخواصها التركيبية فى القطاع من التربة الطينية والرملية المتحركة والرملية المتماسـكة (الكركار) ويمكن توزيعها وفقا لموقعها الجغرافى بالنسبة التقريبية من الشمال للجنـوب كالتالى : (٢١)

١ ـ منطقة بيت حانون ودمره :

تشمل التربة الطينية على ٤٠٪ من مساحة أراضيها أما التربة الصفراء فتغطى ٣٠٪ منها فى حين تحتل الرمال والكركار ٣٠٪ من مساحتها الباقية٠

٢ ـ منطقة جباليا والنزلة :

تربة رملية وكركار ٩٠٪ والتربة الصفراء تغطى ١٠٪ من مساحتها ٠

٣ ـ منطقة شمال شرق غزة :

تربة طينية ٨٠٪ من مساحتها و ٢٠٪ رمال وكركار ٠

٤ ـ شمال غرب غزة (مشروع عامر والسيفا) وبيت لاهيا ٠

تتألف من تربة رملية تكون ٧٠٪ من مساحتها وتربة صفراء ٢٠٪ وتربة طينية ١٠٪ ٠

٥ ـ منطقة غزة :

٩٠٪ من تربتها طينية و ١٠٪ تربة صفراء ٠

٦ ـ منطقة وادى غزة والمغراقة (تل العجول) ٠

تربة طينية ٩٠٪ وصفراء ١٠٪ من مساحتها ٠

٧ ـ منطقة النصيرات وأبو مدين

تربة طينية ٤٠٪ ورملية وكركار وصفراء ٦٠٪ من مساحتها ٠

٨ ـ منطقة السميرى والسبع الوسطى والمغازى :

تربة طينية ٧٠٪ ورملية صفراء ٢٠٪ ورملية ١٠٪ من مساحتها ٠

---

(٢١) التطور الزراعى فى قطاع غزه ، نشرة من مديرية الزراعة ـ بتاريخ ١٩٧٨/٦/٢٥ ٠

٩ ـ منطقة دير البلح :

تربة طينية ٤٠٪ ورملية صفراء ٣٠٪ ورملية مواصى ٣٠٪ من مساحتها

١٠ ـ منطقة خزاعة وعبسان وبني سهيلا ·

تربة طينية ٨٠٪ ورملية صفراء ٢٠٪ من مساحتها ·

١١ ـ منطقة خان يونس :

تربة طينية ٢٥٪ ورملية صفراء ومواصى ٧٥٪ من مساحتها ·

١٢ ـ منطقة رفح :

تربة طينية ٢٠٪ ورملية صفراء ومواصى ٦٠٪ ورملية ٢٠٪ من مساحتها ·

نلاحظ من خلال التوزيع الجغرافى للتركيبة الجيولوجيـــة للتربة ان الأراضى الطينية الجيدة للزراعة تتوزع بنسبة كبيرة حول المدن وفى المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية والوسطى والشـــمالية الشرقية من قطاع غزة مما ســـهل قيام حرفة الزراعة المبكرة ·

وهكذا يمكن اجمال فضائل الجيولوجيا على المدينة وما حولها بانتشار تربتها الطينية الخصـــبة الممزوجة الى أقصى الشرق بتربة جيرية ساعدت على زراعة الحبوب وشهرته شرقا كما كانت المادة الخام لصناعة الفخار لأبنـاء المدينة ولبناء بيوتهم منها وفى الغرب حددت الرمال بكثبانها المتحركة نحـو الشرق الطريق التجارى والعسكرى فأصبح أشهر طريق عالمى قديم (طريق البحر « Via Maris ») يمر بحذاء مدينة غزة عبرته جحافل الامبراطوريات العسكرية القديمة وقت الحرب وقوافل التجار أيام السلم ومن هـــذه الرمال الناعمة صنع الزجاج ومن رمالها المتماسكة والمنتشرة الى الشرق من القطاع على هيئة تلال استمد الانســان العربى الفلســطينى حجارته فقام بنحتهـــا وتشذيبها لبناء منزله ·

ببقى لنا عنصر جيولوجى هام أضفى على المدينة « غزة » وما جاورهـــا نعمة الهدوء والاستقرار التكتونى لسكنها وسكانها وهى « الزلازل » ومدى تعرض المدينة لضرباتها على مر الأحقاب ·

الزلازل :

ونلاحظ أن نصيب غزة وما حولهـــا من الهزات الأرضية قليل جدا ، فالزلازل فى فلسطين عامة ـ وكما هو الوضع فى اقليم البحر المتوسط من النوع المعتدل عكس الحال فى منطقة الأغوار التى تضربها الزلازل بعنف وذلك لحداثة تكوين الاخدود الأفريقى العظيم والذى تعتبر منطقة الأغوار الفلسطينية امتدادا شماليا له هبطت فى عصر الاليجوسين » ·

فالجيولوجيون يرون أن هنـــاك مراكز للزلازل فى فلسطين فى منطقتى صفد ونابلس « مراكز سطحية » وأخرى أقل عنفا فى « اللد والرملة » .

ويرى السيد « سايبرج » «Sieberg» (٢٢) بأن خطوط الانكسار الجيولوجية القريبة من ساحل البحر فى الجنوب هى المسئولة عن وجود المركز الثالث والأقل عنفا مما سبقه . وهى منطقة « غزة - دير البلح » والذى يقع فى قطاع يمتد من بئر السبع - دير البلح - مواز للســاحل (أنظر خريطة رقم ٥) وعليه فمنطقة غزة هى على هوامش الزلازل تتلقى الحد الأدنى من ضرباتهـــا وتتكسر عندها أخف موجاتها الضاربة فلم يحدث لها كما حدث لبعض المدن التى دمرتها الزلازل كليا ، بل تعرضت لهزات جزئية أثرت على بعض بنياتها القديمة . ولعله من الأهمية أن نتتبع ما تعرضت له غزة والمدن الفلسطينية من هزات أرضية على مدار أكثر من الف وخمسمائة عام (٢٣) .

السنة	ملاحظات
٣٦٢ ميلادية	أحدثت الزلازل اضرارا فى غزة ونابلس وبيت جبرين
٦٧٢ «	ضربت غزة وعسقلان والرملة وكانت قوية .
١٠٣٣ «	ضربت غزة وعسقلان وكانت الخسائر شديدة وحدث مد بحرى على شاطىء المدينة .
١٠/١٢/١١٠٣/١٠٣٤ م	دمرت الزلازل ½ الرملة ونصف نابلس ودمرت اريحا ومعظم بيوت عكا مع خسائر فى الأرواح واكتسحت الأمواج ميناءها ودمرت بيوتا فى الخليل وغزة وطبريا .
١٢٩٣ م	ضربت غزة والرملة والكرك .
١٥٤٦/١/١٤	ضربت غزة ودمرت فيها مدرسة قايتباى تدميرا تاما .
١٨٣٤ م	ضربت غزة وكانت قوية واستمرت متقطعة لعدة أيام .
١٨٧٠/٦/٢٤	ضربت غزة وكانت خفيفة .
١٩٠٣	ضربت غزة ثلاث هزات فى ست ثوان .
١٩٢٧	هزة خفيفة فى غزة .

اذا نصيب غزة محـــدود من أضرارها لتوحى لنا وتشـــير الى شـــموخ بنيانها القديم الذى ما زال ماثلا فى أجزائها العديدة .

(٢٢) I.E.J. Vol. 2, 1952, pp. 49-60, D.H.K., Amiran, Arvised Earthquake.

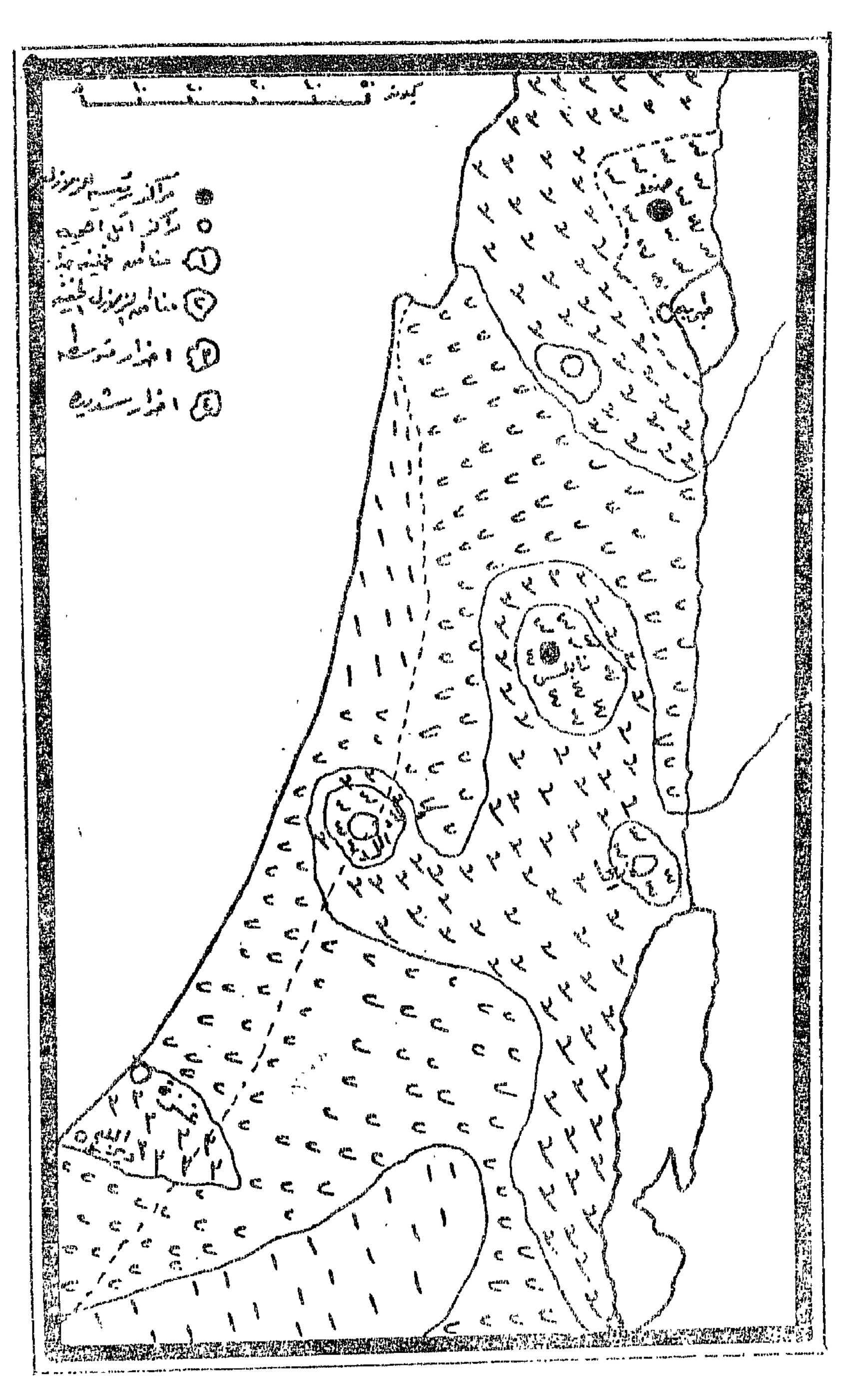
(٢٣) I.E.J. Vol. 1, 1950, pp. 51 calaloque of Palestine.

(★) درجات الزلازل عند Siebery كالتالى من ١ - ٢ درجة خفيفة جدا لا يلحظها الفرد العادى

٤ - ٦ درجات لا تحدث أضرارا أو خسائر .

٧ - ٨ درجات عنيفة وتسبب أضرارا مادية .

٩ درجات فما فوق عنيفة وتحدث أضرارا جسيمة .



خريطة (٥)

مناطق الزلازل فى فلسطين

وتضاريسيا يمثل القطاع تتمة للسهل الساحلي الفلسطيني ويصل الى ذروة اتساعه عند هذا القطاع ليصل شرقا فى بئر السبع رصعته بعض التلال ذات الحجر الرملي المتماسك جذبت الانسان العربى الكنعانى الفلسطيني للاستيطان فوقها طلبا لمزيد من الأمن وقوة فى الدفاع فأضحت هذه التلال بمثابة السهل الممتنع فوق أرض منبسطة فى عمومها فلا عجب أن تجد أقدم حضارات فلسطين العربية الكنعانية قد اختارت مواقعها الاستيطانية فوق تلال مثل « تل السبع — تل أبو هريرة — تل جمة — تل الفارعة — تل العجول — تل رفح وتل السلطان » وهى جميعا باستثناء التلين الأخيرين تقع على ضفاف وادى غزة بالاضافة الى مدينة « غزة » الواقعة على تلة وسط أرض منبسطة • وعليه لم تشكل التضاريس حاجزا أو مانعا يفصل المدينة عن ظهيرها فلا جبال ولا وديان تعوق الاتصال بين المدينة ومجالها الزراعى الفسيح شرقا أو شمالا أو جنوبا • فهناك اتصال أرضى مستمر فالأرض سهلية ومفتوحة فى أقصى وأعمق امتداد لها على طول الساحل الفلسطيني •

الأحوال المناخية :

ان الأرض وما عليها مرآة عاكسة للسماء وأحوالها ، فالتغير وعدم الاستقرار فى الأحوال المناخية معناه فى المقام الأول اضطراب فى ظواهر الجغرافية البشرية على الأرض وعلى رأسها تنقل القبائل ومن ثم التغير فى توزيع مراكز العمران والاستقرار سواء على مستوى القرية أو المدينة وحتى الحزب وبالتالى تبدل حالة الاستغلال الاقتصادى وحجمه مع ما ينجم عنه من ازدهار مناطق وزوال أخرى •

فهل ازدحام مراكز الاستقرار فى منطقة النقب ظهير غزة وما حولها يعنى ان مطرا كان فى الماضى أغزر مما هو عليه الآن ؟ فقد دلت الآثار والأطلال على وجود مدن عامرة فى الماضى وحتى القوة الرومانية البيزنطية مثل (سبيطة — عبدة — كرنب — الشاش — تل الفارعة — تل أبو هريرة وعسلوج الخ وجاء ذكر حوالى ثمان وثلاثين مدينة فى النقب فى عديد من المصادر القديمة • وعاصرت غزة جميع هذه المراكز الاستيطانية المندثرة وبقيت هى ، فهل يعنى ذلك ثبات الأحوال المناخية حول غزة وعدم استقرارها وتذبذبها على مناطق ظهيرها شرقا وجنوبا ؟

هناك رأى للسيد هنتنجتون «Hintington» يقول فيه ان أسباب الهجرات السامية ، مرده للجفاف الذى يصيب المناطق الانتقالية بين اقليمى البحر المتوسط والصحراء • وانه حدثت سلسلة من التغيرات المناخية تناوبت فيها فترات الجفاف وفترات المطر الغزيرة خلال العصور مستعينا بأفكاره هذه مع ما افترضه

« بروكنر » Bruckner من وجود دورة تكثر فيها البقع الشمسية كل خمسة وثلاثة أو احدى عشرة سنة واستنادا على هذا فسر هنتنجتون الأحداث التاريخية من قيام حضارات وانحطاط أخرى ومن هجرات البدو وهجمات البرابرة وتقلص التجارة أو تقدمها على أساس تغير المناخ من غـزارة المطـر أو جفـافه . وكأن هنتنجتون بهذا يحاول الوصول الى ايجاد علاقة بين الدفعات المناخية من ناحية وبين الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصـادية من ناحية أخرى مسندلا ومفندا آراءه هذه بأطلال المدن المنتشرة والمندثرة فى ظهير غزة فى النقب (٢٤) .

ولكى يدلل هنتنجتون على أرائه هذه قام بزيارة مدينة غزة خاصة وانها تمثل جزءا من الحزام الانتقالى بين الصحراء ومناخ البحر المتوسط الذى هـو صلب وجوهر وجل ميـدان بحثه ودراساته والتقى بالهر غات Herr Gut المبشر النمساوى الذى عاش ثلاثين سـنة فى كنيسة دير اللاثين فى غزة محدثا هنتنجتون بأنه لم يسمع بمحن أصابت الزرع بين مدينة غزة ووادى الشريعة فى الفترة الواقعة بين سـنتى ١٨٧٩ و ١٩٠٩ م سـوى مرة واحدة وكان باقى السنين كاف فى غلاته ويصدرون ما يزيد عن حاجتهم ، أما الأرض الواقعة شرق وادى الشريعة حتى بئر السبع فقد أصيبت فى نفس الفترة عشر مرات (٢٥) .

ولعل رد السيد غات كان منافيـا لآراء هنتنجتون فى عدد مرات الجفاف والقحط العديدة فى الفترة الوجيزة « ٣٠ سنة » ويوحى لنا عن تعدد فترات القحط فى ظهير غزة عنه فوق المدينة وهوامشها لقرب مدينة غزة من هبـوب الرياح العكسية الممطرة وقلة تأثيرها كلما اتجهنا شرقا وجنـوبا مما جعـل التذبذب أكثر وضوحا شمال النقب وجنوب غزة كما سيتضح من دراسة المعطيات الرقمية عن كميات الأمطار . كما اننا لسنا بصدد الرد هنا على آراء هنتنجتون لكننا نوضح بأن الظروف السياسية وتوزيع واختلاف مراكز الثقـل الادارى والعسكرى للامبراطوريات المتتابعة مع الظروف الصحية وانتشار الأوبئة كانت كفيلة بدفع هجرات بشرية وهجر مناطق واستيطان مناطق أخرى والتحول عن طريق تجارى وانكماش مدنه الى طريق أخرى وانتعاش مراكز عمرانه . فليست الأحوال المناخية سوى عنصر لا ننكره من جملة أسباب وعناصر سياسية واجتماعية وصحية ... الخ .

وما دمنا بهذا الصدد فلعله من المناسب أن نجيب عن السؤال هل المناخ فى السابق كان كما هو عليه اليوم ؟ هناك فريقان استخدما كل الوسـائل

---

(٢٤) Viole Hintington, Palestine and its Transformation, London, 1910, pp. 251.

(٢٥) عارف العارف ، القضاء بين البدو ـــ القدس ، ١٩٣٣ ص ٢١٩ .

لدراسة جذوع الاشجار والظاهرات الجيولوجية والمورفولوجية والاركيولوجية . ليؤكد فريق أن المناخ لم يتغير وقد كان فى الماضى على ما هو عليه اليوم ويترأس هـــذا الرأى السيدان وولى Wolly ولورنس Lawrence ويوضحانه فى كتابهما The Wilderness of Zin (٢٦) مستشهدين بكثرة السدود والصهاريج التى تفنن فى انشائها أجدادنا العرب الأنباط فى مدن النقب السابق ذكرها وحذا حذوهم الرومان والبيزنطيون · ولعل قصة أبينا ابراهيم عليه السلام ١٨٥٠ ق·م واختلافه مع ملك الفلسطينيين وقائد جيشه (سفر التكوين ـ ٢١) على ملكية بئر الماء فى بئر السبع ما يكفينا الدلالة على تذبذب كمية الأمطار وندرتها مما دفعهم لحفر الآبار والصهاريج وتفننوا فى حفظ كل قطرة ماء تهبط عليهم من السماء · ولعل هنتجتون يصطف مع هؤلاء لكنه يتميز بالربط بين تذبذب الأحوال المناخية وظروف الهجرات والاستيطان ·

أما أصحاب الرأى الآخر فيرون أن الأمطار كانت أغزر ممـا هى عليه الآن يقودهم كل من السـيد سـتاركى J. L. Starkey وهاردنـغ L. Harding فى كتابهما Beth Pelet (٢٧) مفسرين كثرة مـدن النقب وسدودها لغزارة الامطـار ، والرأى الأول هو الأرجح والأصوب فاذا ما رجعنا للكتب السماوية المقدسة الكتاب المقدس والقرآن الكريم نجد وصف الأول للهضاب والسهول الفلسطينية ونظام المطر فيها وما تضمنته الآيات القرآنية من أنواع الأشجار « كالتين والزيتون والاعناب والنخيل ووسائل استثمار الأرض ينطبق على نفس الحال اليوم · وهـــذا لا يمنع من وجود ذبذبات عليه عن المتوسط العام » ·

أما عن الحرارة كعنصر مناخى حيوى فيرى الأستاذ جريجورى J. Grogery أن درجات الحرارة لم تختلف فى الجانب السورى منذ القديم عنها حتى الوقت الحاضر مستدلا على ذلك بأشجار النخيل فى الجنوب والتى مازالت منتشرة · فلم تزد عليها الحرارة لتعوق نموها كما أنها لم تقل عن معدلهـا لتحد من انتشار زراعة الكروم على الساحل الجنوبى الفلسطينى أو فوق الهضاب (٢٨) ·

اذا لا خلاف على حدة ذبذبات المطر وقدرتها شرق وجنوب غزة وتوفرها بكمية معقولة فوق مدينة غزة مما جعل الاستقرار أكثر ثباتا منه فى ظهيرها

---

(٢٦) Wolly and Lawrence, The Wilderness of Zin.

(٢٧) J.L. Starky and L. Harding, Beth Pelet, II.

والاثنان من البعثة التى قامت بالحفريات فى تل العجول وتل جمة وتل الفارعة « شاروحين » ويدعى بترى أن تل الفارعة هى Beth Pelet.

(٢٨) J. W. Gregory, Glasgow, 1930, pp. 887-897.

شرقا وجنوبا فأضحت مراكز الاستقرار فى الشرق والجنوب مصـــدر تمويل بشرى لمدينة غزة فى احوال التذبذب المناخى أى منطقة جذب أكثر منها منطقة طرد · وبقى موقع غزة على طريق حيوى برى وبحرى كمحطة وقاعدة عسكرية وسوق تجارية ما أوحى لسكانها بالتأقلم على ذبذبات المطر لتورثهم ظاهرتـا القحط والخصب ملامح وتراث ظلا راسخين فى شخصيتها بصـفة خاصـــة فى غزة وعامة فى فلسطين · فأثرت على حياتها الاجتماعية والاقتصادية وتعدتها الى نمط الاستقرار البشرى فيها ·

فندرة الأمطار وتذبذبها شتاء وانحباسها صيفا ، طبعت الانسان العربى الغزى بالحذر الممزوج بالقلق سيكولوجيا والميل الى الادخار اقتصــــاديا فحفر الآبار الجوفية ليغطى احتياجاته البشرية والزراعية فى الصيف الجاف ونقـر الصهاريج فى الصخور ·

وفى منتصف بيته حفر آبار « الجمع » ليتلقف من أسطح منازله كل قطرة ماء تجود بها السماء شتاء ليسد حاجاته اذا ما أتى الصيف وكثيرا ما حفر آبارا أخرى لخزن الغلال فى نفس المنزل ليطمئن على غذائه كاحتياطى عند الحاجة · وأشاد « الهرابات » حول قراه ومواطن استقراره كصـــوامع غـلال ورصيد له اذا ما حل القحط أو داهمته الكوارث البشرية ، هذه الهرابات كثيرا ما نراها منتشرة حول المدينة وشرق دير البلح « الدميثة » وقرى خان يونس « عبســان وبنى سهيلا ـ وخزاعة » · كما كان لقلة كمية الأمطار الشتوية أثرها على ندرة الغطاء النباتى الكثيف أى قلة الأشجار ـ الكبيرة ذات القيمة الخشبية ، فأثر بالتالى على نمط السكن الغزى فأقام المساكن الطينية منها أو الحجرية ذات الطراز القبابى المحشوة بالرمال والفخار خالية من جذوع الاشجار فى الغالب الأعـم (باستثناء أشجار الجميز ـ السدر ـ والسلوط « الصفصاف » والحلفا ··) ·

وتعدى تأثير ندرة الأمطار واحتباسها عن موعدها أحيانا الى معتقداته فنرى كيف يخرج سكان المدينة فى معظم عصورها الوثنية والمسيحية والاســـلامية ينطلقون من كنائسها ومساجدها « للاستسقاء » « صلاة المطر » ومتجهون الى ساحة المدينة يطلبون من الله عز وجل الغيث ·

ومن المناسب أن نورد جدولا تتضح فيه كمية الأمطار الساقطة فى فصل الشتاء لعديد من المدن الفلسطينية لمقارنتها بما يهطل من أمطار على مدينة غزة ·

المدينة	كمية الأمطار « بالمليمتر »	
عكا	٦١١٫٤ مليمتر	
حيفا	٦٣٥٫٤ «	
يافا	٥٠١٫٦ «	
غزة	٣٧٣ ملليمترا	
الملك	٩١٢٫٤ ملليمتر	
الناصرة	٦٢٨٫٣ «	تتساقط
نابلس	٦٣١٫٧ «	بمعدل ٤٠ ــ ٦٥
القدس	٥٨٣ ملليمترا	يوما في السنة .
الخليل	٥٠١٫٩ ملليمتر	
بئر السبع	٢١٩٫٩ «	٢٨ يوما .

معدل كمية الأمطار الساقطة في الفترة الواقعة من سنة ١٩٠١ ــ ١٩٤٠(٢٩) لتبين أنها المدينة التى تمثـــل الحـد الأدنى لكمية الأمطار الساقطة باستثناء بئر السبع لكنه حد العيش ولكى تكمل الصورة على صعيد غزة وقطاعها نورد الجدول التالى لكميات الأمطار الساقطة التى تكشف لنا عن تضاؤل كمية الأمطار كلما اتجهنا جنوبا نحو صحراء سيناء .

المدينة أو القرية	كمية الأمطار « بالمليمتر »
بيت لاهيا	٣٧٩ ملليمترا
غــزة	٣٢٨ «
النصيرات	٢١٥ «
دير البلح	٢٦٧ «
خان يونس	١٨٩ «
رفح	١٦٢ «

ومما يعوض قلة كمية الأمطار جنوب مدينة غزة كثرة ليالى الندى ، والتى تزيد على ٢٥٠ يوما (٣٠) فى السنة لا يضاهيها فى ذلك سوى منطقة الكرمل

(٢٩) مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ القسم الأول ، دار الطليعة ــ بيروت ١٩٦٤ ص ٣٧ ــ ٣٨ و٥٦ و ١٢٥ .

(٣٠) Israel Pocket library, geography, 1973, Jerusalem, Map. pp. 103.

فى حيفا مما أكسبها شهرة فى زراعة الفواكه وخاصة الصيفية مثل « الشمام » والبطيخ ٠٠

وهنا لا بد لنا من توضيح مدلول ظاهرتى القحط والجفاف ليس فى قطاع غزة فحسب بل وفى فلسطين عامة فلا علاقة ــ كمـــا قد يتبادر للذهن لأول وهلـــة ــ بين الأمطار وظاهرتى الخصب والمحل ٠ فقد تصل كمية الأمطار الى أعلى معدل سنوى ويلازمها القحط والمحل وقد تصل كمية الامطار فى بعض السنين الى حدها الأدنى وتسمع بالخصب قد أصاب البلاد ٠٠

وما يدفعنا لوصف السنة بالمحل والخصب هما القمح والشعير كغلة غذائية رئيسية وحيوية للسكان لذا كان المحك الأســاسى الذى يخلق سنة الخصب أو المحل هو موعد سقوط الأمطار المبكرة فى المقام الأول حتى يتسنى للحبوب النمو فى مرحلة الانبات الأولى مع عدم وجود الصقيع يليها ثانيا انتظام سقوط الأمطار على أشهر السنة الشتوية ابتداء من نوفمبر حتى يناير وفبراير ليدفع النبات للنماء ولو بكمية قليلة ٠ وعلى النقيض يحـــدث « المحـــل » اذا ما تأخر موعد ســقوط الأمطار خاصـــة فى نوفمبر وديسمبر وقلت كميتها عن المعدل فى يناير حتى لو اعقبتها بعد ذلك أمطـــار غزيرة فى فبراير ومارس ، فتكون الفرصة قد فاتت لمرحلة انبات القمح والشعير ومن ثم يتضاءل نمو الساق فيصيبها المحل ولن تفيد الأمطار عندها الا المحاصيل الصيفية والخزان الجوفى للمياه الباطنية ٠

اذن فموعد سقوط الأمطار المبكر وانتظام هطول كميتها على مدار الشهور الشتوية الأولى هما الفيصل فى تحديد « الخصب والمحل » منذ آلاف السنين ٠

وتدوين جدول هنا يوضح كمية الأمطار الساقطة على مدينة غزة على مدار أشهر الشتاء لسنوات عدة يعكس لنا ظاهرة التذبذب فى كمية الأمطار سواء فى مجموعها السنوى أو فى معدلها الشهرى *

(*) بلغ متوسط كمية الأمطار الساقطة على مدينة غزة من سنة ١٨٩٦م حتى سنة ١٩٠٥م ما مقداره ٤١٩ر١٠ ملليمتر كما بلغ متوسط كمية الأمطار على المدينة فى الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠١ حتى ١٩٤٠ ما يعادل ٣٢٧ر٧ مللم ٠

السنة	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	يناير	فبراير	مارس	ابريل	المجموع
٦٨/١٩٦٧	٢٨ر٧	١٢١	٥٠ر٤	١٠٩ر٥	٧٢ر٩	١٠ر٨	٣٧ر٢	٤١٠ر٥
٦٩/١٩٦٨	٧٦ر٢	٥٥ر٤	١١٧ر٩	١١٠ر٩	٢ر٢	٥٣ر٦	١٨ر١	٤٢٥ر٣
٧٠/١٩٦٩	٣٤ر٧	٣٢ر٧	٢٣ر٢	٤٩	١٧ر٤	٢٢ر٩	٩ر٢	١٨٦ر١
٧١/١٩٧٠	٩ر٧	٥٣ر٣	٨٩ر٨	١٢٢ر٧	٧١ر٢	١٣ر٣	٧٥ر٣	٤٣٦ر٤
٧٢/١٩٧١	٢ر٣	١٣٢ر٥	١٦٥ر٢	٤٢ر٧	٤٥	٤١ر٤	٦.٧	٤٣٦ر٩
٧٣/١٩٧٢	١ر٦	٤٥ر١	١٠٤ر٥	١٦٠ر٧	٧ر٥	٥٤ر٦	-	٢٧٣ر٣
٧٤/١٩٧٣	٣١ر٦	٦٧ر٣	١٦ر١	٢٩٨ر٦	٥٣ر٨	٣٢ر٤	-	٥٠٦ر٦

فالتذبذب واضح على مستوى أشهر الشتاء فى السنة الواحدة كما أن التباين أوضح على مستوى كمية الأمطار الساقطة فى الشهر الواحد لعدة سنوات (دراسة الجدول أفقيا ورأسيا) ليبقى المجمل النهائى لكمية الأمطار أعلى من حد الجفاف .

نخلص من هذه العجالة الى نتيجة مفادها أن ـ العناصر الحياتية ـ لهذه المدينة قد أمدتها بأسباب البقاء والخلود . فالموضع هيأ لها الأمن والأمان والموقع كان ومازال استراتيجيا كبوابة بين قارتين وواحة بعد صحراء وقاعدة عسكرية وسوق تجارية بين اقليمين متباينين ودهليز الملك ، والخط الساخن بين امبراطوريتين وأخيرا العمق الاستراتيجى للدفاع عن أهم شريان عالمى وهى قناة السويس .

وجيولوجيا ، ذات تربة طينية وتكوينات رملية وجيرية أمدت المدينة بالخصب الزراعى ومواد البناء والصناعات الممكنة من فخارية وزجاجية وتضاريس مهذبة .

وبشريا : فان حيوية الانسان العربى على مر عصورها التاريخية قد استوعب جميع هذه العناصر فاستغل هذه الامكانات بعقلية خلاقة أثرت وتأثرت بما حولها من حضارات عريقة تحيط به من الجنوب والشمال كما سيتضح ، فتحدت بالتالى هذه المدينة الفناء لأكثر من خمسة آلاف سنة خلت رغم الأهوال والمحن ، رفضت الهزيمة ـ وتمسكت بالتجدد المستمر ، ففشلت كل القوى العاتية من فرعونية وبابلية وأشورية .. وحتى أحدثها العثمانية والبريطانية .. فى اذابة ملامح الشخصية العربية سواء الكنعانية والفلسطينية للمدينة وطمس سماتها وتراثها الثقافى الخالد على مدى التاريخ على الرغم من منجنيقات التدمير ـ والقذائف المحرقة ـ وأعمال السيوف على الرقاب قتلا وتقتيلا .. أو حقنا بالمستوطنين .



الفصل الثانى

حضارة غزة فى العصر الحجرى الحديث

- تل العجول تميزت بأنماط حضارية خاصة
- وادى غزة عقدة حضارية بين فلسطين ومصر
- الجعارين صناعة كنعانية فى تل العجول تأثرت بهـــا الحضارة المصرية ٠



غزة فى العصر الحجرى الحديث :

بدأ الانسان مسيرة الحضارة في منطقة الهلال الخصيب عندما وضع يده على النبات والحيوان متعايشا معهما فزرع في العصر الحجرى القديم ـ وقبل أن يصل الى العصر الحجرى الحديث ـ أشجار الزيتون والفـاكهة ودجن الكلب والطيور مستقرا في مسكنه ليجنى ثمار ما زرع مكونا ـ نواة القرية ٠

فالسـيادة الحقيقية للانســان لاتكمن فى الهيمنة على العوامل البيئية الطبيعية ـ لكنها وليدة وعى الانسان وادراكه للعالم الذى يعيش فيه ٠٠ وهذا ما وصل اليه الانسان في فلسطين فى العصر الحجرى الحديث ٠ من هنا أصبح هناك اتجاه مكثف ونشط منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن فى البحث عن المواقع الأثرية الفلسطينية المنتمية لمرحلة العصر الحجرى الحديث بصـفة خاصة ، على اعتبار أن تاريخ هذه المواضع يسبق زمنيا مثيلاتها من المواقع فى مصر والعراق والمنتمية لنفس العصر فآثار العصر الحجرى الحديث الفلسطينية تتميز بأهميتها وتنوعها ومدى ما وصل اليه انسان هذه البلاد من تقدم فى الفن المعمارى والنحت على الرغـم من عدم توافر عنصر التكامل الموضــوعى مما يصعب معه ربطها بنفس المقياس الحضارى المتكامل لحد كبير فى المواقع الأخرى ، لأنها تشتمل على مظاهر معمارية وتعبيرية فريدة فى نوعها كالتحصين المعمـارى والنحت والتشـكيل الصورى الانسانى ، مما يحفز الباحث لمزيد من التنقيب والمداومة على البحث لتلك المرحلة حتى يضعها فى مكانها الحضارى ٠

وفى الحقيقة ، اعتبر كثير من العلماء « مرحلة العصر الحجرى والنحاسى » مرحلة انتقال الى التطور التاريخى ، اتجه الانســـان فيه للبحث عن استغلال موارد بيئته الطبيعية المحلية المحيطة به ففى فلسطين أثبت البحث والتنقيب عن وجود حضارات محلية تمركزت فى مواضع مختلفة فى طول البلاد وعرضها ، ولو أن هناك تكثفا واضحا فى الجنوب الفلسطينى « جنوب خط مطر ٣٠٠ ملم تقريبا » والذى يمر بجنوب غزة ٠٠ هذا على ذمة ما تم الحفر والبحث فيه » ٠

ولقد قسمت هذه الحضارات الفلسطينية الى مراحل ثلاث متصلة :

أولها : حضارة وادى غزة ومنطقة أريحا « الطبقة الثامنة من تل اريحا » ٠

والثانية : الحضارة الغسولية(*) ٠

(*) نسبة الى موقع تليلة الغسول شمال شرق البحر الميت بنحو كيلومترين ٠

والثالثة : حضارة بئر السبع .

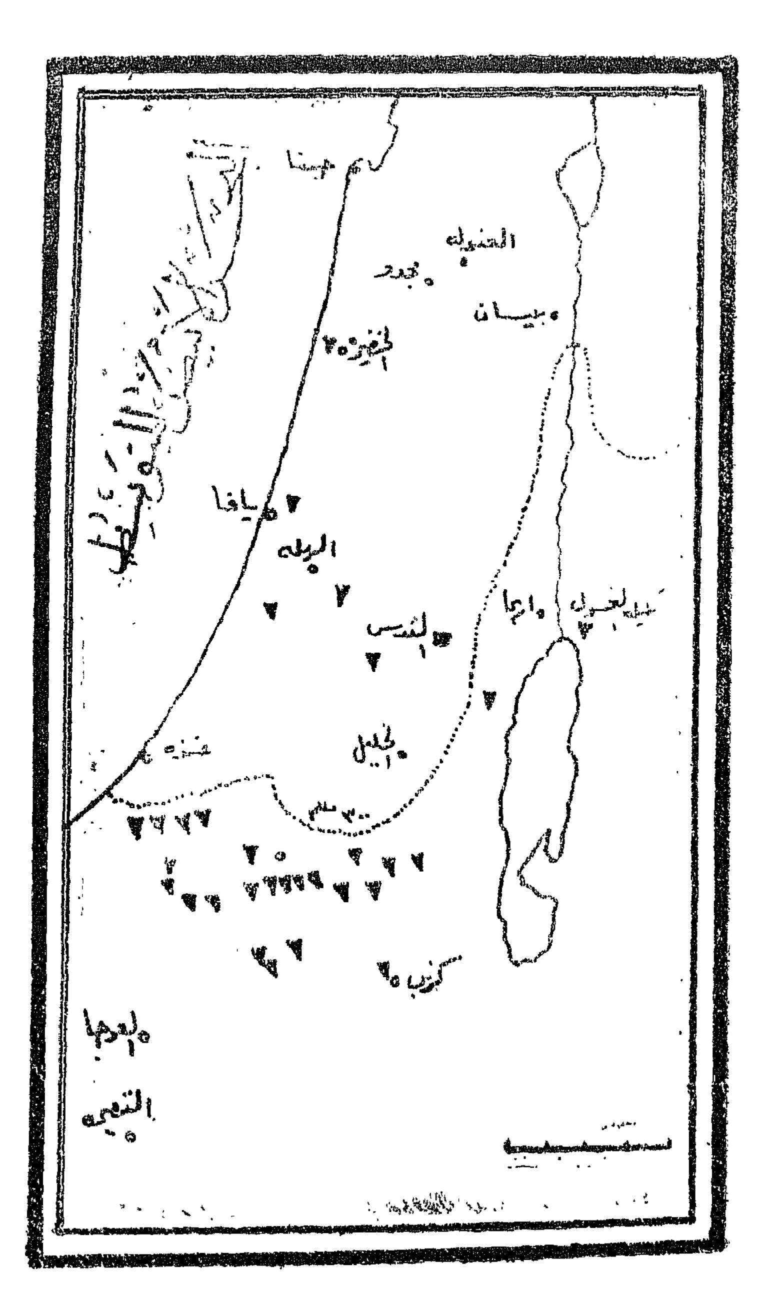
وتغطى هذه الحضارات فترة زمنية تمتد من نهاية العصر الحجرى الحديث فى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد حيث تطورت الحياة فى فلسطين بكامل مظاهرها فى هذا العصر بعد أن استخدم معدن النحاس والذى يهمنا هنا « حضارة وادى غزة » ، وخاصة منطقة « تل العجول » النواة لبداية السكن فى مدينة غزة على حد رأى بترى .. (انظر خريطة ٦) .

والذى يجب ألا يغيب عن الأذهان ، أن ليس هناك مواضع أو مواقع تعيش فى معزل عن غيرها — فان كانت الحضارات الفلسطينية فى مواقعها المختلفة لم تتصل بحضارات فى بداية نشأتها ، الا أنها احتكت وتأثرت بل وأثرت أحيانا فى الحضارات المجاورة لها .

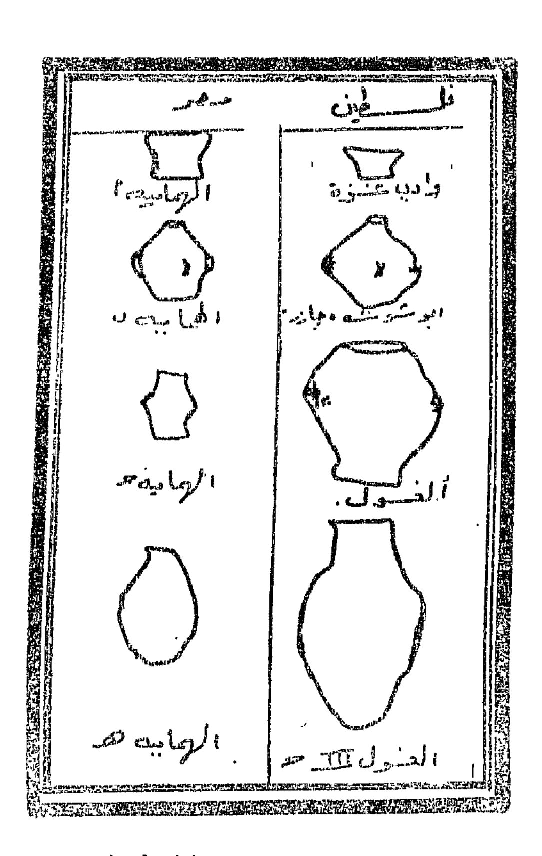
ففى شمال بلاد الرافدين كانت هناك « حضارة حلف » الذى تمكن انسانها من صناعة الأوانى الفخارية والأدوات الحجرية والطينية والعظمية والنحاسية وكذا الأختام الحجرية التى استطاع أن يؤثر — بفضل المد الحضارى الى شمال سوريا فى منطقة « العمق » الا أن هذه الحضارة — حضارة حلف — لم تصل بتأثيراتها الى فلسطين التى تميزت حضاراتها كما ذكرنا بأنها محلية مستقلة ومن المفيد أن نذكر بأن « وادى غزة » وعلى طول مجراه الأدنى فى غزة والأوسط فى شمال بئر السبع قد اعشوشبت عليه مواقع حضارية قديمة تلفت الانتباه ، فاقت فى عددها الخمسة عشر موضعا فقط على ضفاف مجراه الأدنى فى غزة . مستغلا وجود الماء القريب من سطح الأرض اذا ما غيض ثم الاحتماء خلف ثنياته ومستنقعاته متمركزا فوق تلال ليضمن عنصر التفوق ، فكان التوطن واضحا دفع كثيرا من العلماء لتسميتها جميعا « بحضارة وادى غزة » أو مجموعة وادى غزة ، والتى تضم على رأس قائمتها « تل العجول » الذى تميز بأنماط حضارية خاصة الفخارية منها ما ميزت هذه المنطقة عن غيرها خاصة بألوانها وكثرة ما عثر من « جعارين » تفوق فى نوعها وعددها ما عثر عليه فى فلسطين بل وفى مصر .. فالأوانى الفخارية ذات الرسوم الحمراء التى عثر عليها فى وادى غزة تشبه الى حد كبير مثيلاتها فى منطقة « الهمامية » بصعيد مصر ، ليثبت السيد Kantor « كانتور » أن هناك اتصالا حضاريا فلسطينيا فى الألف الرابعة قبل الميلاد « العصر الكالكوليثى » بمصر فى فترة ما قبل التاريخ .

وعلى الرغم من قلة ما اكتشف من أوانى فخارية فلسطينية فى هذه الحقبة الا انه وجد تشابه بينها وبين تلك التى توجد شمال وجنوب مصر والعراق (٣١) وتليلة الغسول . (انظر الشكل) .

(٣١) H. J. Kantor, the early relations of Egypt with Asia Jnes, 1942, pp. 174-213 and I.E.J., Vol. 9, 1959, pp. 134-135.



خريطة (٦) مواضع حضارات غزة وبئر السبع والغسول



اوجه الشبه بين الأواني الفخارية الفلسطينية والمصريه

وربما كانت حضارة ـ تل العجول ـ جنوب مدينة غزة هي القنطرة وهمزة الوصل مع حضارة الوجه البحري في مصر فقد تعرضت صناعة الأواني الفخارية في مصر الى تحول حضاري فأصبحت تصنع من « الطفل » بدلا من طمي النيل كما أدخل عليها بعض الزينات والرسوم في منطقة « حضـــارة جرزة » أو « نقادة الثانيـــة » وكان من أهمهـــا الأواني ذات المقابض المموجة الذي بنى « فلندرز بترى » تاريخه التتابعي على تطــور شكل هذه الأواني والذي يرى أنها استوردت من جنوب فلسطين كما يدل على ذلك الرســوم التي عليها (٣٢) ٠

كمـا اكتشف في « المعادى » في الوجه البحـرى المصرى بعض الأواني الفخارية ذات الغطاء الطيني التي تمتلىء بالزيوت من فلسطين وتذهب لمصر فاعتبرت لذلك « حضارة المعادى » حلقة وصل للحضارة الآسيوية الفلسطينية في الشمال بحضارة صعيد مصر في الجنوب (٣٣) ٠

ولقد عثر حديثا في منطقة « دير البلح » وبالقرب من شاطئها على نفس هذه الأنواع من الأواني الفخارية ذات الغطاء سنتحدث عنها في حينه ٠

فحضـارة وادي غزة ٠ لم تتفـاعل فقط تأثرا وتأثيرا بحـكم موقعها الجغرافي في العصر الحجرى الحديث بل تعدته عمقا حتى الصناعات الحجرية القديمة لما ضمته من ثراء وغنى بأشـكال الآلات الحجرية التي تعود للعصر الحجرى القديم « الأسفل » فقد قام السيد « مكدونالد » بدراســة وافية على الأدوات الصوانية والحجرية التي عثر عليها في مواضـع مختلفة من « وادى غزة » استطاع من خلالها أن يستشف مدى التفاعل ومدى التأثر بالحضارات الأخرى واضعا اياها في ميزان التقدير لما جاورها في مصر ٠

فقد لمح بأن الأدوات الحجرية في مواضع وادى غزة متأثرة في أشكالها وملامحها ـ « الأنواع من ١ ـ ٨ » بتلـك المنتشرة في مواضـع حضـــارة بئر الســـبع والتي منها في مواضـع « خربة البيطار » وخربة الصـــفدى « وتل أبو مطر » وتل السبع ـ ومنطقة بئر ابراهيـم شرق مدينة بئر السبع ، وجميعها تمثل حضارة واحدة ترجع للعصر الكالكوليثي في فلسطين « ٤٠٠٠ سنة

---

(٣٢) د٠ ابراهيم رزقانه ـ موضوعات في الجغرافيا التاريخية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٦٢ ٠

(٣٣) د٠ ابراهيم رزقانه ، المرجع السابق ص ٥١٠ ٠

ق، م » كما عثر على أثاثات قديمة لبيوت أشـــبه بالكهوف وأدوات حجرية صوانية ومخازن وأنفاق وهى من الوفرة والكفاية لتوضـــح مدى التجانس الحضارى شبه التام بينها وبين تلك المواقع الواقعة شرق مدينة بئر السبع فى منطقة « المشاش » وخربة « السويدانى » وكرنب ، وكما فى مواضع غرب المدينة ــ بئر السبع ــ أيضا فى مواضع « أبو يحيى » وأبو محيلق « وأبو ارفيق ووادى الزميلى * حيث تم العثور على أوان وأدوات حجرية صوانيــة ومساكن ومواقد للنار (٣٤) ٠٠ وعلى حواف نفس وادى غزة والى الشرق من مدينة غزة نفسها تم التنقيب من قبل السيد R. Neuville فى منطقة أبو هريرة عثر فيها على أدوات صوانيــة تشـبه مثيلاتها فى مواقع بئر الســبع السابقة الذكر كذلك الحال بالنســبة لما عثر عليه فى منطقة « تل الفارعة » وتل جمة وتل العجول ٠

أما الى أى حد تأثرت حضـــارة « بئر السبع » ظهير غزة بحضـــارة تليلة الغسول ، فان السيد « بيروت » J. Perrot (٣٥) يرى ومثله فى ذلك جلوك N. Glueck الذى يقول بأن حضارة بئر السبع عندما وصلت الى مرحلة النضج متخذة وضعها النهائى من التطور بدأت بالاحتكاك بالحضارة الغسولية شمال شرق البحر الميت (٣٦) شرقى الأردن التى تمثـل امتدادا جغرافيا وتاريخيا للاجزاء الجنوبيـــة من فلسطين « أقل من ٣٠٠ مللم من الأمطار » ٠ من هنا كان التشابه بين الأدوات الصوانية الغزية « الأنواع من ٨ ــ ١٧ » بتلك التى توجد فى حضارة تليلة الغسول ٠

أما بالنسبة لتلك الأدوات الغزية من « ١٨ ــ ٢١ » فيبدو التشـــابه بينها وبين الأدوات المصرية حيث يؤكد « ماكدونالد » بأن مواضع وادى غزة كانت أكثر عرضة للتأثيرات الخارجيـــة مما حدى بالســـيد Petfot لعقد مقارنة بين الأدوات الغزية وتلك التى وجدت فى منطقة الفيوم بمصر حيث يرى ان السكينة والفأس التى عثر عليها فى وادى غزة M2 والفأس المثلثـــة فى منطقة A و B ولرأس الرمح لمنطقة H والسكينة وذيل السمكة لموضع H هذه الأدوات تشبه تلك الفؤوس التى عثر عليها فى الفيوم والتى ترجع للفترة النيولوثيـــة » أو ما قبل الأسرات ٠ ويرى

---

(٣٤) I.E J. Vol. 5, p. 174.

(٣٥) J. Perrot, The excavation at tell Abu Matar near Beerskebo. I.E.J. Vol. 5 1955, pp. 185-187.

(٣٦) N. Glueck, exploration in eastern Palestine, I, BAASOR, 14, 1933-34 p. 87.

(*) هذه الأسماء تعود للعائلات الفلسطينية التى كانت تمتلك هذه الأراضى بمواقعها ٠

أيضا ان هناك تشابها فى الفن المعمارى وفى الأدوات الصوانيـــة لحضارة بئر السبع وحضارة المعادى فى مصر على الرغم من ان الصانع فى « بئر السبع» يبدو انه كان على درجة من المهارة الفنية الفائقـة اذا ما قـورن بالصـــانع المصرى (٣٧) ٠

وعليه نجد ان هناك تشابها حضاريا يعكس ظروفا اقتصادية واجتماعية متقاربة تبدو فيها مواقع وادى غزة بانها تمثل « عقدة حضارية » على الطريق بين بئر السبع وتليلة الغسول من جهة وحضارة مصر السفلى عبر سيناء من جهة أخرى ٠

فمن الواضح المؤكد بأن أقدم العلاقات التجارية بين سكان وادى غزة وظهيرها فى بئر السبع كانت قائمة عبر سيناء مع « حضارة المعادى » ومصر السفلى التى بدورها كانت همزة الوصل مع حضارة الصعيد ولقد أكد العديد من العلماء من أمثال « كينغ » والمؤرخ ماسبيرو أن « لعروق المصريين القدماء والعرب الكنعانيين والفينيقيين روابط تشد بعضها بعضا وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم » (٣٨) ٠ فالعلاقات قائمة بين شعوب هذه المنطقة ذات الأصول السامية العربية الواحدة ٠

ففى منطقة « المعادى » ، وجدت كميات من القار « الأسفلت » أثبت الفحص انه مستورد من منطقة البحر الميت وذلك لاستخدامه فى طلاء السفن المصرية (٣٩) كما يبدو جليا التشـــابه بين الأوانى الفخـــارية ذات الأيدى السميكة والموجة فى كل من تليلة الغسول ووادى غزة والهمامية فى صعيد مصر (٤٠) ٠

كما أكد السيد « فلندرز بترى » فى كتابه « غزة القـديمة » (٤١) على هذه العلاقة الحضارية القوية بين « حضارة تل العجول » ومصر من خـــلال ما اكتشف من آثار ومنها « الجعارين » Scarabs ذات الدلالة التى تعكس بعض العادات والتقاليد للسكان والتى يستخدمونها للحماية من السحر وفى الاحتفال بالمناسـبات الدينية المقدســـة ولحماية الملوك عند تسميتهم فمنح

---

(٣٧) I.E.J. Vol. 5, 1955, Ibid, p. 187.

(٣٨) احمد سوسة : تاريخ حضارة وادى الرافدين ـ الجزء الأول ـ وزارة الرى ـ بغداد ١٩٨١ ص ٢٩٥ ٠

(٣٩) د٠ ابراهيم زرقانة ـ موضوعات فى الجغرافيا ـ المرجع السابق ص ٥٠٦ ٠

(٤٠) J. Kaplan, The Connections of the Palestinian Chakolithic culture with the Prehistoric Egypt I.E.J. Vol. 9, 1959, p. 134-136.

(٤١) Petri, Ancient Gaza, Vol. I, p. 3.

توزيع الأدوات الصوانية فى المواضع الأثرية لوادى غزة « عن ماكدونالد (٣٩)

٥ نادرة — شائعة الاستعمال + عديدة جدا وكثيرة

	D1	M1	E	O	D2	M2	A	B	H	النــوع	مسلسل
	o	+	+	+	+	+	+	+	—	رأس سهم طويل ومقوس	١ —
ملامح حضارة بئر السبع	—	—	—	—	—	+	+	+	+	فأس مثلثة الشكل ومتساوية الساقين	٢ —
	—	—	—	—	—	+	+	+	+		٣ —
	—	+	+	+	+	—	+	+	—	مخرقة على شكل لسان	٤ —
	+	+	—	—	o	—	—	+	—	مخرقة ذات زوايا	٥ —
	—	—	—	—	—	—	—	—	—	سن	٦ —
	—	—	+	+	—	—	—	—	o	منجل صوانى	٧ —
مظاهر حضارة تل الغسول	+	+	+	+	—	—	—	—		شظية رفيعة	٨ —
	+	+	o	o	—	—	+	+	+	Microlith	٩ —
	+	+	+	+	—	+	—	—	+	خرزة مثقوبة	١٠ —
	+	+	+	+	—	—	+	+	+	مغرفة مروحية	١١ —
	+	+	+	+	+	+	+	—	—	مغرفة بيضاوية	١٢ —
	+	o	+	+	+	+	—	+	+	قطاع من فاس مثلثة	١٣ —
	+	+	+	+	+	+	+	—	+	فاس مثلثة	١٤ —
	+	+	+	+	+	o	+	+	+	فأس عريضة مستوية	١٥ —
	o	+	+	+	+	o	+	+	—	مغرفة دائرية	١٦ —
أنواط دهمية	+	+	+	+	+	+	+	+	—	معول	١٧ —
	o	+	o	+	+	+	+	+	—	منجل « شفرة كنعانية	١٨ —
	+	+	+	+	+	+	+	—	—	مغرفة طويلة	١٩ —
	+	+	+	+	+	+	+	+	—	سكينة	٢٠ —
	+	+	+	+	+	+	+	+	—	سكينة — ذيل سمكة .. الخ	٢١ —

(٣٩) E. Macdonald, J. L. Starky and Harding, Beth Pelet II, London, 1932.

الاسم يعتبر حدثا هاما فى حياة الأفراد لأنه – كما يعتبرونه – جزء لا يتجزأ من شخصيته (٤٢) ·

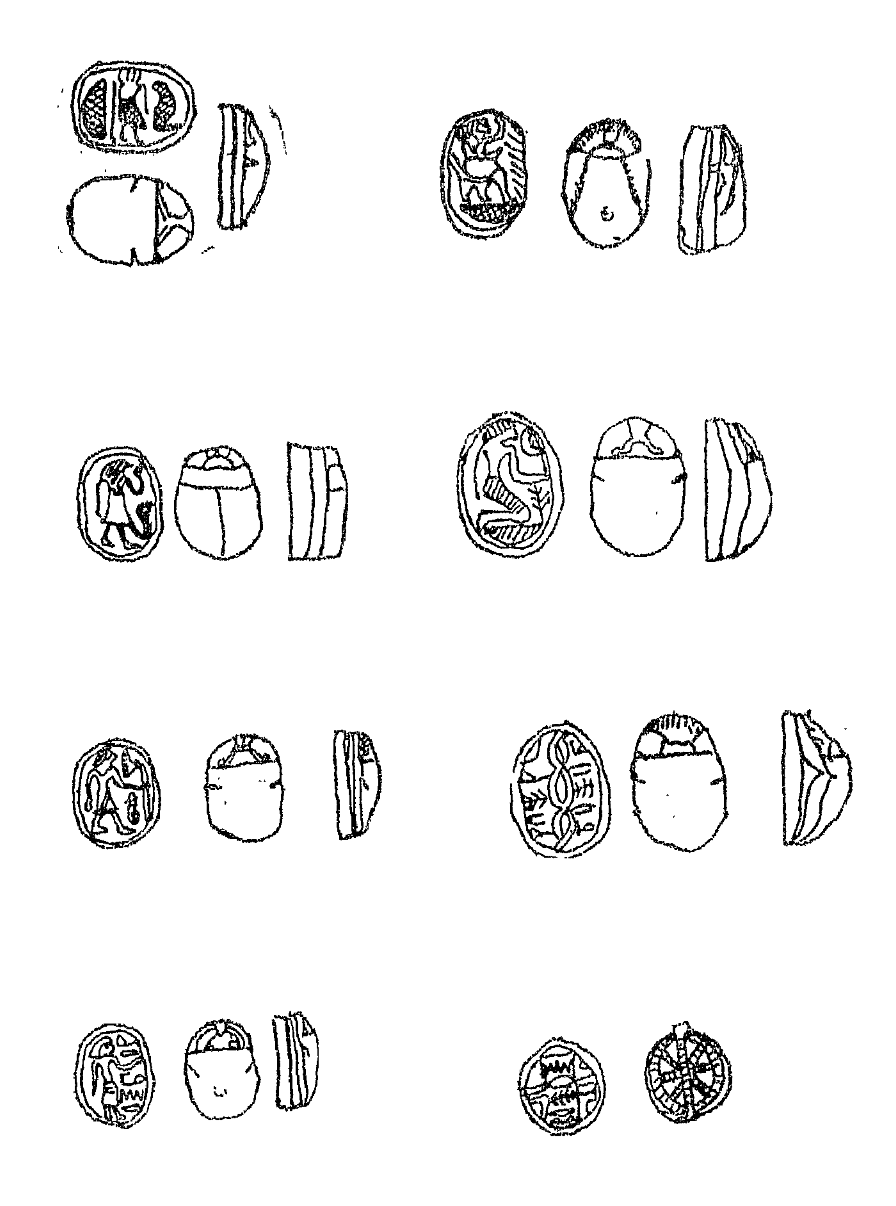
وما يدعونا للحديث عن « الجعارين » فى تل العجول ما تميزت به عن غيرها ليس فقط بالنسبة للمواضع الأثرية الفلسطينية فحسب بل وعن المصرية أيضا ، ففى أحد فصول العمل والتنقيب فى « تل العجول » عثر على أكثر من خمسمائة جعران بحالة جيدة وسليمة أما ما وجدوه متهشما فيفوق هذا العدد السليم منها · فى حين تم العثور على « جعارين » فى مواقع فلسطينية أخرى مثل تل الدوير « لخيش » وتل الفارعة وأبو شوشة « جازر » هذه الأعداد فاقت فى احصائها ما عثر عليه فى أى موقع من المواقع المصرية وهذا يحدونا للتساؤل عما اذا كانت هذه « الجعارين » فعلا من انتاج عربى كنعانى محلى أم لا ؟ والاجابة يؤكدها فلندرز بترى » قائلا بأن « هذه الجعارين صناعة كنعانية لا مراء فيها وان كل من يدعى بأنها هكسوسية لا صحة لدعواه فهى كنعانية الأصل صنعها الكنعانيون قبل وخلال الحكم الهكسوسى » · بل ويضيف السيد Marry بأن هناك نوعا من الجعارين الكنعانية التى عثر عليها فى تل العجول » تمثل المرحلة الأولى لبعض الجعارين المصرية فى صناعتها ، واصفا اياها بأنها جميلة ومتقنة وربما أجمل من الجعارين المصرية (٤٣) متتبعا العلاقة بينها وبين المصرية منها من خلال دراسة النقوش والرسومات التى عليها مؤكدا انه ليس من السهل معرفة متى حدث التغير والانتقال من الكنعانية الى المصرية ولو انه يفترض ان هذا الانتقال ربما حدث قبل دخول الهكسوس لمصر نحو قرن من الزمان (٤٥) ·

بالاضافة الى ما توحيه هذه الجعارين من دلالات وملامح الأحوال الاجتماعية فانها تعكس جانبا من الظروف الاقتصادية حيث يبدو على بعضها (اللوحات ٩ – ١١) صورة لجسم كائن حى بشرى يرتدى ملابس مزينة ملفوفة على جسده أكثر من طية ، ويحمل فى احدى يديه فرعا من سعف النخيل وأحيانا زهرة اللوتس · وفى بعضها يقف انسان رافعا احدى يديه واقفا تارة وراكعا تارة أخرى ، وظهر على بعضها صورة ثعبان يحمله انسان · واتخذ بعضها شكلا جديدا حين ظهر انسان وله رأس صقر ليمثل جانبا من الألوهية ربما للاله حورس ، أو رع (لوحة ٩ صور من ١ – ٩) وربما يرمز للاله الشمس ·

(٤٣) M.A. Murray, Some Canranite Scarabs, P.E. 9, 1949, pp. 92.

(٤٥) M.A. Murray, PEq. pp. 93.

والذى يعنينا هو ـ لا أى الحضارات أقدم ـ بل أن حضارة وادى غزة فى تل العجول والمواقع العديدة الأخرى هى ذات طابع عربى كنعانى فى صورتها الأولى ومنذ أقدم العصور الحجرية ولم تبق جامدة فى مكانها بل تعدت تخومها لتتصل بحضارات عريقة فى الجنوب ـ تمثل عقدة حضارية ذات قول وتأثير وموصل جيد للحضارات خاصة بعد أن تخطى انسانها فى كلتا المنطقتين مرحلة العصر الحجرى ٠



نماذج من جعارين عربية كنعانية عثر عليها فى « تل العجول »



الفصل الثالث

العصر البرونزى القديم والوسيط

- تل العجول مدينة عربية كنعانية ذات حضارة
- الهكسوس يغزو المدينه
- ظهور اسم غزة ورفح



العصر البرونزى القديم ٣١٠٠ – ٢١٠٠ قبل الميلاد ·

استمرت الاتصالات الحضارية بين فلسطين ومصر فى هذا العصر ، لكنها تميزت بمميزات خاصة فى انتشار الفخار الرمادى والبرتقالى المصفر وقد زينته الرسومات الملونة باللون الأحمر مضافا اليه الفخار ذا الأيدى المموجة والذى وصل الى مصر السفلى طوال عصر ما قبل الأسرات الأول « ٤٠٠٠ – ٣٦٠٠ ق‌م » من فلسطين والذى عثر عليه فى منطقة « تل العجول » · وفى الطبقة الثانية عشرة فى بيسان لتؤكد استمرار المواصلات الحضارية بين حضارتى فلسطين ومصر (٤٦)·

وفى المرحلة الأولى من عصر البرونز والتى توافق عصر ما قبل الأسرات الأخير فى مصر « ٣٤٠٠ – ٣٠٠٠ ق‌م » ويصطلح عليه أحيانا بعصر الحجر والنحاس الأخير (Late Cholcolih ، كما يطيب للسيدة « كينون » استخدام تعبير « ما قبل المدنى » «Proto-Urban» · وقد ازدهر فى هذه الفترة بناء المنازل والبيوت العامة التى لا يقدر فرد عادى بمفرده على بنائها كالمعابد والمقابر ، وظهور الأوانى الفخارية المتميزة بالخطوط المتقاطعة والمتموجة والتى اكتشفت فى أماكن عديدة من فلسطين فى أريحا ومجدو وتل العجول وتل بيت مرسم وتل الدوير · هذا مما يوضح لنا اتساع نطاق الجانب الحضارى فى فلسطين وبلاد الشام عامة حيث ساد نظام حكومات المدن City State كما ازدهر نظام الاتصال السياسى والحضارى والاقتصادى وبدا الاحتكاك بالحضارات المجاورة أمرا لا مفر منه بشكل مكثف سواء مع الشمال بحضارة الرافدين أو مع الجنوب فى مصر ·

فتواجدت بالتالى المدن المستقلة فى الشام عموما واستمرت محافظة على استقلالها الذاتى تحيط بها الأسوار الفخمة لتعزز استقلالها ، مستغلة التلال لتغنم البعد الاستراتيجى والدفاعات القوية ، ولا مانع من أن تختار موقعها وموضعها خلف واد مائى ليزيدها منعة وقوة كما هو الحال فى « تل العجول » حماية لها ضد الأخطار الخارجية المغيرة ، فانحصرت كل مدينة فى شئونها مع ممارسة نشاطها الخارجى بشكل مستقل ، ولما تجلى ظهور « تل العجول » فى هذه

---

(٤٦) H. Kantor, the chronology of Egypt and its correlation with that of other parto of the Near East in Periods before the late Bronze Age, Chicago, 1954, p. 4.

الحقبة ووصلت شأوا حضاريا جيدا ، لذا لا بد لنا من وقفة على أطلالها نستكشف بعدها الحضارى ودورها مع ما جاورها فوق هذه الشريحة من أرضنا فلسطين المسماة « قطاع غزة » ٠

بدأت هذه المدينة « تل العجول » كحال بقية المدن العربية الكنعانية فى فلسطين ـ فى جبالها وسهولها ـ تتخذ من موضعها على تلة «النظام الاكروبوليسى» متخذة من موضعها على قم الوادى وعند أقصى اتساع لمجراه ميزة دفاعية بلورها موقعها الهام كمدخل رئيسى نحو الأراضى الكنعانية الساحلية ، ووقوعها بالقرب من ساحل البحر المتوسط مما حدا بسكانها نحو المزيد من الاهتمام بتحصين مدينتهم فأقاموا حولها سورا ضخما يحيط بها ولقد عثر فلنـــدرز بترى على أساسات وبقايا مبان ترجع للألف الثالث قبـل الميـلاد أما الســور فارتفـاعه خمسون قدما ويتراوح عرضـه ما بين متر و نصف المتر ، أما النفق فيصل طوله الى خمسمائة قدم كان الأهالى يحتمون به عند الشدة ويعود كلاهما السور والنفق الى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ٠ وقد اقيمت هذه المدينـــة على مساحة تقدر ما بين ٢٠ = ٣٠ فدانا « لا يقل عن ٨٠ دونم » (*) (انظر صورة ١ ـ ٢) ٠

حقا لقد امتازت المدن الكنعانية فى هـذا العصر بالقوة والمنعة فى المناطق الجبلية مثل « يبوس ـ القدس » وحلحول وبطة وأربع « الخليل » وبيت رسم وتل الدوير ٠ كذلك بالنسبة للمدن الساحلية ٠ ومعظمها لا يزيد مساحتها على « عشرة دونمات » من هنا ندرك الفارق بينها وبين مدينة « تل العجول » التى تتفوق بثمانية أمثال هذه المساحة ٠ ولا غرابة فى هذا الامتداد الواســع خاصة لو أدركنا ظروف تكوينها الجغرافى عند مصب الوادى وساحل البحر لتحتل موضعا وموقعا شبه جزرى فالوادى يمتد بمياهه جنوبا والبحر غربـا فلم تعد بالتـالى قرية صغيرة كما كانت فى العصر الحجرى تعيش عيشة رعوية زراعية مغلقة داخل حدودها ، بل أصبحت وبفضل التربة الخصيبة حولها ووفرة المياه تلعب دورا رئيســيا هاما على طريق الساحل التجارى والعسكرى ، ليس هذا فحسب ، بل ان موقعها البينى وسط ظروف مناخية متباينة الى حد ما خلقت أنواعا من المزروعات ، فالساحل امتاز بأعنابه الجيدة التى اشتهرت بها منذ القدم وفى الشرق يمكن زراعة الحبوب حتى نصل الى « بئر السبع » التى

(*) قام فلندرز بترى بالتنقيب فى تل العجول فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٣١ ـ سنة ١٩٣٥ واضعا كتابه Ancient Gaza فى ثلاثة مجـــلدات ، كمـــا تم نشرها فى سلسلة مقالات ضمن :

Ancient Egypt and the East, Part 1, June 1934, London, pp. 1-6. (٤٧)

سادت فيها حرفة الرعي والزراعة منذ عصور سابقة • هذا بالاضافة الى انتشار التربة الطينية الخصيبة والمياه التي يمكن العثور عليها على أعماق بسيطة بحيث يمكن زراعة الخضار والفاكهة • هذه الامكانات الطبيعية مهدت السبيل لسكنى الانسان الذى احترف الزراعة بل والصناعة كما سنرى بعد مدة ـ وجيزة وفي العصر البرونزى الوسيط ـ هذا التنوع في الانتاج منح المؤهلات الكافية لقيام مدينة فالموضع يمنح المكان استمرارا أكثر مما يمنحه الموقع •

ووظيفيا : استطاعت « تل العجول » أن تقوم بوظائف عدة ـ كسوق محلية ـ وكحصن وملجأ وقت الخطر بالاضافة الى مكان للعبادة ، كما بينته الأدوات المكتشفة مثل المناجل والفؤوس والآلات الحربية كرؤوس الرماح والخناجر النحاسية لما لها من دلالات حربية وقدرات صناعية بالاضافة الى « الجعارين » وما عثر عليها من رسومات مثل « الحية » لمكانتها الدينية خاصة لو علمنا أن عبادة « الحية » كانت عادة كنعانية يستدل عليها من تماثيل الثعابين الكثيرة فى أماكن العبادة فقد عثر على نصب « الحية » فى بيت رسم يرجع تاريخه للفترة الواقعة ما بين ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق•م (*) أى عند نهاية العصر البرونزى القديم وبداية الوسيط ، كما كان للثعابين أهميتها ـ كرمز ـ تحرس الآلهة يضعها « مينا » موحد القطرين فى مصر فوق رأسه •

وهكذا كان الانسان العربي الكنعاني فى هذه المدينة « تل العجول » • وفي كل المدن التي أنشأها فوق الجبال والسهول أول من احترف الزراعة مستخدما المنجل والمحراث كما احترف الصناعة بما عثر عليه من أواني فخارية وأدوات نحاسية حتى أن الأستاذ « فنسمنت » يرى أن للكنعانيين فى فلسطين حضارة خاصة فى عهد البرونز أطلق عليها « حضارة الكنعانيين » •

ومن أقدم الوثائق فى العصر البرونزى القديم تلك التى تعود للحملة المصرية على أرض الكنعانيين أيام الأسرة السادسة والتى تتمثل مذكرات ضابط مصرى يدعى « وينى » يصف فيها حملة عسكرية قام بها أيام « بيبى » فى الفترة الواقعة ما بين سنتى ٢٣٢٥ ـ ٢٢٧٥ قبل الميلاد (٤٨) يستدل منها على المزروعات التى كانت قائمة على الأراضى الساحلية من أعناب وتين •

لقد أثبتت عديد من الدراسات الاركيولوجية بأن هناك فترة تعرضت لها مدن البلاد للتدمير عند نهاية العصر البرونزى القديم أعقبتها فترة من الفراغ

(*) يمكن رؤية هذه الأدوات والمجوهرات فى متحف روكفلر بالقدس (متحف حكومة فلسطين) •

(٤٨) Cardinar, Egypt of the Pharoahs, Oxford, 1961, p. 95.

السكاني ناتجة عن الغارات الأمورية والتي دمرت عديدا من المدن الكنعانية الجبلية والساحلية في تل الدوير « لخيش » ومجدو وتل بيت رسم والظاهرية وبيسان . ولكن الى أي حد وصلت هذه الموجة في تدميرها وامتدادها الى تل العجول ؟؟

ترى السيدة « كينون » بأن العناصر الأمورية قد وصلت الى فلسطين من طرفها الشمالي الشرقي مستدلة على ذلك بالشبه الكبير في صناعة الفخار التي عثر عليها في بعض المواقع الفلسطينية والأماكن التي قدم الأموريون منها(٤٩) . كما يرى السيد « ميللارت » أن بعض هذه الشعوب الوافدة قد قدمت من خربة الكرك حيث عثر على فخار يحمل اسمها معتقدا أن مصدره قد أتى مع جماعة وافدة من العناصر الأناضولية وهي العناصر الحورية (٥٠) ، فقد كانت خربة الكرك وقتها من أكبر مدن شرقي نهر الأردن في تلك الفترة (٥١) .

العصر البرونزي الوسيط « ٢١٠٠ ــ ١٥٤٦ قبل الميلاد » .

واصل المصريون حملاتهم واتصـــالاتهم بالعرب الكنعانيين في فلسطين متخذين من الطريق الساحلي الممر الوحيد الذي يربطهم بالبلاد عبر سيناء التي لم تمثل مانعا أو عائقا للمواصلات فقد كانت « الفرما » Sile في تل « أبو سيفة » اليوم والتي تبعد ميلين شرق القنطرة الشرقية ، بمثابة حجر القفز للحملات الفرعونية نحو أرض الكنعانيين ، وكانت تجر اليها المياه بواسطة قناة تأتيها من أحد فروع النيل . ويطلق عليها « قلعة طريق حورس » أو طريق الفرعون . كما جاء في أوراق البردى التي تعود للفرعون « انستاني الأول » كما ورد ذكـر هذا الطريق في قصــة « سنوحي » أيام المملكة الوسطى في القرن العشرين قبل الميلاد .

ونظرا لحيوية هذا الطريق أنشأ عليه الفراعنة عدة نقاط بهـــا حاميات عسكرية ومحطات وآبار في مسافات محدودة لتسهيل مهمات القوافل والجيوش وحمايتها (٥٢) كما عثر فلندرز بترى على بقايا مساكن في « تل آل أبو سليمه » بمنطقة الشيخ زويد تعود الى ما يزيد عن الف وخمسمائة سنة قبل الميلاد

(٤٩) K. M. kenyon, Archeology in the holly land, London, 1965, pp. 152-158, and Y. A horoni, The Land of the Bible, historical geography, Philadelphia 1967, pp. 124.

(٥٠) J. Mellart, the chalcolithic and Early Bronze Ages in the near east and Anatolia, Beriut 1960, p. 78.

(٥١) Y. Aharoni, The Land of the Bible ibid, pp. 123-124.

(٥٢) Y. Aharoni, pp. 43.

قد تكون بقايا اساسات لموقع حامية مصرية على الطريق الساحلي . ولو أن هناك آراء تقول بأن الاتصال البحرى فى هذه الحقبة بين مصر وفلسطين قد سبق ان لم يكن لازم الاتصال البرى (٥٣) لتظل بالتالى « تل العجول » مركز امداد وتموين وقلعة على الطريق لها أهميتها كمركز حضارى أيضا ربما كان لسكانها دور ما فى مجال التعدين وبصفة خاصة تعدين النحاس فى سيناء ، فالمصريون لم يبذلوا جهدا لاستغلال معدن النحاس على الرغم من وجوده فى سيناء الا بعد عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد حيث دخل الحضارة المصرية متأخرا عن باقى حضارات البحر المتوسط ومما عثر عليه فى سيناء بل ومن طريف الآثار نقش كتبه عامل منجم كنعانى الأصل كتب بلغته الكنعانية عبارات بحروف مصرية (٥٤) لتوحى بوجود علاقات ما بين الكنعانيين والمصريين بل لقد ترك العمال الساميون فى معبد « سرابيت الخادم » بسيناء الذين ساعدوا فى تعدين الفيروز مع المصريين نقوشا تدل على ان لهم كتابات خاصة كما جاء فى أخبار أحد ملوك الأسرة الخامسة أنه كان يوجد من بين أفرادها ثلاثة مترجمون مما يؤكد أن الأهالى الذين قبلوا التعاون يجهلون اللغة المصرية (٥٥) بل لم يتردد المصريون فى عبادة آلهتهم بالطقوس السامية . ليعكس ذلك أول تبادل واستخدام خبرات الآخرين فى التاريخ . وربما كانت حضارة « تل العجول » وما جاورها بحكم موقعها الجغرافى ومجاورتها لسيناء هى أول من أمدتهم بطاقتها البشرية الكنعانية واستعانت ربما بالحديد والنحاس لتصهيره فى مدينتها « تل العجول » فقد عثر على « محرقة » أو أشبه بفرن لصهر المعادن فيها .

تبقى الصورة العامة للحالة السياسية والاجتماعية وكذا الاقتصادية لأرض العرب الكنعانيين فى فلسطين فى العصر البرونزى الوسيط — مهزوزة وغير مستقرة فهى مقسمة الى وحدات سياسية ضيقة فى مداها الجغرافى وبالتالى فان نزاعاتها القبيلة تبقى محدودة كدوامات موضعية ، تعبر غالبا عن ضعف النفوذ المصرى التى لم تكن لديهم الرغبة فى بسط نفوذهم السياسى والاقتصادى (٥٦) .

فقد عثر على « جعارين » باسم الفرعون « سيزوستريس الأول » الذى حكم مصر ما بين عامى ١٩٧٠ — ١٩٣٦ ق.م في مناطق عدة مثل مجدو وتل الدوير

(٥٣) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، القسم الأول — الجزء الأول . بيروت ١٩٦٤ ص ٥٠٤ — ٥٠٥ .

(٥٤) د. سيد أحمد الناصرى ، مقدمة التاريخ القديم — المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٧١ .. ص ٧٧ .

(٥٥) ابراهيم غالى ، سيناء المصرية عبر التاريخ ، القاهره ، ١٩٧٦ ص ٧٠ .

(٥٦) G. Raux, Ancient Iran, London, Pelican Book, 1966, pp. 214.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجازر « أبو شوشة » • حتى بدأ النفوذ المصرى فى الاضمحلال والضعف أيام الأسرة الثالثة عشرة ١٨٠٠ قبل الميلاد (٥٧) ممهدا هذا الحال للغزو الهكسوسى ففى عام ١٧٢٠ قبل الميلاد تعرضت مصر لموجة الهكسوس التى اجتاحتها قادمة من الشمال فشيدوا لهم مدنا ومنها مدينة « تنيس » شرق الدلتا ليتخذوها عاصمة لهم ولينتهى فى مصر عهد « العزلة السعيدة » ولتدخل عصر المنازعات الدولية • ولتدفع ملوك مصر بعدها الى اعتماد استراتيجية وتكتيك جديد يقول « هاجم حتى لا تهاجم ، انقل الحرب الى ما وراء سيناء حتى لا نضطر الى الحرب داخل وادى النيل (٥٨) • هكذا !! منذ آلاف السنين خرجت هذه الحكمة العسكرية ــ اذا جاز التعبير ــ لتجعل من سيناء وتخومها فى فلسطين عمقا للدفاع عن مصر وأولها أراضى القطاع • لقد أكد معظم الدراسات الأركيولوجية أن فترة الهكسوس (عصر البرونز الوسيط الثانى) • امتازت بكثرة بناء المدن فى البلاد وازدياد نمو التطور العمرانى ووصلت مدينة « تل العجول » الى أزهى عصورها فعلى الصعيد العمرانى استطاع الهكسوس أن يبنوا مدنا ذات حجم جيد فى منطقة القدس كما أخذت مدينة تل العجول تزداد فى أهميتها ، وتفننوا فى تحصين المدن ببناء الأسوار المائلة والمبنية من الحجارة وحفروا الخنادق حولها والقلاع وهذا النظام كان بمثابة تكتيك دفاعى ضد المنجنيق (٥٩) •

وربما شادوا هذه التحصينات بالنسبة للمدن الكبيرة فى البداية ثم أخذوا فى تعميمها بعد ذلك بالنسبة للمدن والقرى الصغيرة خاصة بالنسبة لتلك التى وردت فى قوائم فرعونية (*) ضمت مجموعتين من أسماء المدن والحكام فى فلسطين وسوريا فى الفترة الواقعة ما بين القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد والتى نحن بصددها ، حيث جاء ذكر المدن المحصنة التى قاومت الغزو الفرعونى بعنف مثل « تل العجول » وتل الدوير وعسقلان على الساحل وتل بيت رسم وبيت صور فوق هضبة الخليل •

وفى المجال العسكرى ، فقد أمدوا البلاد بأدوات وآلات حربية حديثة وكان « الحصان » من أهم الوسائل التى أدخلوها على المفاهيم والأساليب العسكرية وكذا العربات ذات العجلات والدروع فأخذت هذه المفاهيم والأساليب دورها على مدى القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد فى مصر وبلاد الكنعانيين •

(٥٧) Y. Aharoni, pp. 134-135.

(٥٨) ابراهيم نال ، سيناء المصرية عبر التاريخ ، المرجع السابق ص ٦٩ و ٨٥ •

(٥٩) Y. Yadin, B.A.S.O.R., 137, 1955, pp. 23-32.

(★) تسمى هذه القوائم « قوائم اللعنات » وتضم مجموعتين ، الأولى منهما تضم عدد اسماء المدن والحكام بلغت عشرين مدينة وثلاثين حاكما ، أما القائمة الثانية فقد شملت ٦٤ مدينة بحكامها •

كما أضافت ــ للمصريين خاصــة ــ بعدا تكتيكيا في القتال العسكري مفاده أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وأن الدفاع عن مصر لا بد أن يكون خارج واديها في عمق سيناء وتخومهـا حتى حدود أرض كنعان الجنوبيـة • وهكذا أخرج الهكسوس مصر من عزلتها السعيدة وانغلاقها لتندفع خارج حدودها في حروب عديدة ومتكررة خاصة نحو أرض العرب الكنعانيين في فلسطين • أيام الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين كما سيظهر فيما بعد • ولا غرابة اذن أن نجد نهاية الهكسوس كانت في « تل الفارعة » قرب تل العجول حيث لم يعد لهم ذكر في التاريخ بعد هذه الواقعة •

ومن المواقع العربية الكنعانية التي كانت منتشرة ولها شأنها في فترة الهكسوس في جنوب فلسطين وبالقرب من « تل العجول » هي تل الفارعة آخر معاقل الهكسوس وتل جمة وجيرار التي يقال انها « تل أبو هريرة » وكانت جميعها مسورة تماما مثل تل العجول تحيطها جدران ضخمة وتقع على تلة يمكن رؤيتها بوضوح (٦٠) وقد شملها الازدهار ــ العمراني والزراعي في هذا العصر كما قام الهكسوس بترميم معظمها حتى كادت « تل الفارعة » ويطلق عليها « شاروحين » منافسة تل العجول حيث أصبحت القاعدة العسكرية الحصينة للهكسوس كما سنرى •

من المدن الرئيسية في فلسطين أيام الهكسوس « مدينة حاصور » Hazor في الشمال وهي من أهم المدن الكنعانية بما امتازت به من تحصينات فائقة ومساحة فاقت مساحة جميع المدن العربية الكنعانية حيث بلغت ١٧٥ فدانا في حدها ويحيطها سور عظيم مرتفع تشبه بذلك مدينة « تل المشرفة » في سوريا وكركيش على نهر الفرات ، كما يعتقد ان مدينة حاصور Hazor ربما كانت عاصمة الكنعانيين (٦١) يوضح هذا ويؤكده انها المدينة الوحيدة التي ذكرت في أرشيف ماري بالعراق والذي يرجع للقرن الثامن عشر قبل الميلاد (٦٢) •

نذكر ذلك لنبين أن مدينة غزة حتى هذا الحين لم يرد ذكرها كمدينة في جميع الوثائق والحفريـات ليس لكونهــا لم تكن موجودة بقــدر ما هو عائد لعدم وجود أية دراســة اركيولوجيـة جادة في موقع المدينة الحالي أو بالقرب منها • فتعددت الدراسات والحفريات في جميع المواضع الكنعانية السابق ذكرها باستثناء موضع مدينة غزة وهذا يعتبر ثغرة في سلسلة الدراسات الاركيولوجية

---

(٦٠) The Land of Gerar, I.E.J., 6956, pp. 26-32.

(٦١) A. Malmet, T.B.L, 79, 1960, pp. 12-19.

(٦٢) Y. Aharoni, Ibid, pp. 137.

لمدينة عريقة يقال انها موجودة منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد على يد بنيها العرب المعنيين والسبئيين (٦٣) ·

خراب تل العجول وظهور غزة ثم رفح :

ومع نهاية العصر البرونزي الوسيط كانت نهاية الهكسوس على يد القائد الفرعوني أحمس ١٥٨٠ ـ ١٥٥٧ ق·م مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ ق·م) في اخراج الهكسوس من مصر وملاحقتهم عبر سيناء حتى آخر معاقلهم في المنطقة الحدودية في « تل الفارعة » (شاروحين) الحصينة فكان أعظم حصار ذاك الذي دام ثلاث سنين أو أكثر أثبت فيه أحمس قوة الصبر والمثابرة في حين دل على عظمة الصمود الهكسوسي المتمثل في منعة المدينة وقوة دفاعاتها وغزارة رصيدها التمويني · الى أن سقطت بعد ذلك فأصابها التخريب والتدمير ثم لحقتها بعد ذلك مدينة « تل العجول » التي منيت بالتلف والتدمير (٦٤) · وظل أحمس يلاحقهم هو ومن تبعه من أبنائه أمنحتب الأول ثم تحتمس الأول حتى نهر الفرات ·

فهل يعني هذا ان لمدينة « تل الفارعة » مكانتها العسكرية والادارية التي فاقت في العصر الهكسوسي مدينة تل العجول ؟ ربما كان الأمر كذلك فاتخذ الهكســوس من تل الفارعة قاعدة عســكرية قوية تحمي مؤخرتهم فتميز الهكسوس ببناء المدن والاستحكامات العسكرية والقلاع كما تفننوا في ترميم القديم من المدن · فلا عجب أن يبتعد الهكسوس عن تل العجول ليجعلوا من تل الفارعة قاعدة لهم ·

ان انهزام الهكسوس وعلى اثره تدمير مدينة « تل العجول » يعتبر العلامة الفارقة في حياة هذه المدينة فيرى السيد فلندرز بترى بأنه من جراء التخريب الذي أصاب المدينة من اهمال وانتشار أمراض الملاريا دفع المواطنين من أبنائها للهجرة والتوجه شمالا والتمركز في جنوب موضع مدينة غزة الحالية (حي الزيتون) · مكونين بذلك النواة الأولى لمدينة غزة الحالية (٦٥) ·

والتي بدأ اسمها يظهر فعلا في القرن السادس عشر قبل الميلاد في عدة قوائم للفراعنة المصريين وعلى وجه التأكيد مع بداية العصر البرونزي الحديث ، وبدأت تظهر اسم « رفيحو » (رفح) كنقطة حراسة رئيسية على طول الطريق ـ طريق حورس ـ الساحلي والذي بدأ يدب بالنشاط والحيوية من جراء ازدياد

---

(٦٣) A. Meyer, The history of the city of Gaza, pp. 13-14.

(٦٤) بريستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، القاهرة ، ١٩٢٩ ص ١٧٤ ·

Petri, Ancient Gaza, Vol. II, London, 1932, pp.

النفوذ المصري للأسرة الثامنة عشرة بعد الغزوة الهكسوسية حتى كاد المصريون أن يستأثروا بالأجزاء الجنوبية من الأراضي الكنعانية ، فهزيمة الهكسوس علمتهم أن يدافعوا عن أنفسهم من العمق ـ التي هي أراضي « فلسطين » ٠

فهل كان ظهور مدينة غزة ورفح على حساب هجرة سكان مدينة تل العجول ؟

أم أن كلتا مدينتي غزة ورفح كانتا معاصرتين لمدينة تل العجول ولكنهما أقل شأنا اداريا وعسكريا لذا لم تكن لهذا تلك الأهمية ٠ أم هو القصور في البحث الاركيولوجي عن موضع ونشأة المدينتين فالى الآن لم تحظيا بأي دراسة أو حفريات جادة خاصة غزة في حين تم التنقيب في تل رفح ٠ ربما كانت الاجابة على هذه الأسئلة متكررة اذا ما ذكرنا اختلاف وجهة نظر الباحثين والاركيولوجين بهذا الصدد وعلى رأسهم فلندرز بترى الذي يرى هجرة سكان تل العجول بعد حملة الهكسوس وانتشار الأمراض هما النواة في تأسيس مدينة غزة في القرن السادس عشر قبل الميلاد أيده في ذلك زميله السيد ستاركي في التنقيب ومعهم القديس ايرونيموس ٠

ويخالفهم جميعا « استرابون » الذي يعتبر منطقة « تل العجول » ليست أكثر من ميناء وثغر بحري تجاري يخدم مدينة غزة التي كان موقعها في موقعها الحالي أو قريب منه ويؤيده في ذلك الأب « جورج غات » الذي يرى انها منذ ان بناها الكنعانيون هي في موضعها الآن ٠ وهناك رأى ثالث يقول صاحبه السيد ادوارد جلسر Edward Glaser بأن المعنيين كانوا يمتلكون المنطقة الواقعة من حضرموت حتى قرب غزة منذ فجر التاريخ وان هؤلاء الناس يرجعون للقرن السابع عشر قبل الميلاد وقد أتى بعدهم السبئيون واستولوا على نفس المنطقة ٠ وعليه يمكن القول بأن المعنيين أو السبئيين هم بناة غزة التي ارتبط اسمها كثيرا بسجلات أصحاب تجارة التوابل بين الشرق والغرب والتي تعبر قوافلهم صحراء غزة (٦٦) ٠

ومن استعراضنا لهذه الآراء نجد أن هناك نغمة سائدة وقاسم مشترك فيما بين آراء فلندرز بترى وادوارد جلسر وهو البعد الزمني فكلاهما اتفق في ان نشأة غزة لم تتعد القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد معتمدين اما على الحفريات كمعطيات مادية أو الوثائق والنصوص ويعضدهم في ذلك اولبرايت (٦٧) ٠

---

(٦٦) A. Meyer, ibid, pp. 14.

(٦٧) وليم ٠ ف ٠ اولبرايت ـ آثار فلسطين ـ ترجمة زكي اسكندر و د٠ محمد عبد القادر محمد ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ الكتاب الحادي عشر ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

أما بالنسبة لوجهة النظر القائلة بأن مدينة غزة اقدم من ذلك أى قبل العصر البرونزى الوسيط فان هذا الاعتقاد مشكوك فيه لو علمنا بأن « التلة » الواقعة عليها مدينة غزة الآن من الاتساع والامتداد (كيلو متر مربع) تقريبا بحيث لا تقوى امكانات الفترة الكنعانية المبكرة – قبل العصر البرونزى الوسيط – على اشغالها أو احاطتها بسور وان هذه المساحة تفوق أضعاف مساحة أى مدينة كنعانية معاصرة لتلك الحقبة شرقها أو جنوبها أو فى شمالها باستثناء حاصور «Hazor» العاصمة الكنعانية الذى بلغت مساحتها ١٧٥ فدانا ، والتى لم تتجاوز أى مدينة أخرى فى مساحتها على عشرة أفدنة .

ويكون مقبولا الاعتقاد بان مدينة غزة تأسست بعد الفترة الهكسوسية (القرن السادس عشر قبل الميلاد) فى موضعها ومساحتها الحالية . (على التلة) وذلك لاهتمام القبائل العربية لتقدمها وازدهارها التجارى تسانده اهتمامات الفراعنة بالمدينة كقاعدة ادارية وسياسية وعسكرية على الطريق الساحلى (طريق حورس) وما وصلت اليه هذه الامبراطوريات من حضارة وتقدم كفيل بأن يفى بمتطلبات تلة غزة المستوية كما سنلمسه بعد ذلك وفى العصر البرونزى الحديث . خاصة لو علمنا أن الفترة الهكسوسية تميزت بالرخاء الاقتصادى الذى ساد فلسطين بواسطة التجارة فأصبح لزاما على السكان أن يستوطنوا موقعهم وموضعهم الجديد فى « غزة » كمعبر بين قارتى آسيا وأفريقيا ، والكميات الكثيرة التى عثر عليها فى جنوب غزة وحولها من الحلى والأسلحة المصنوعة على النمط المصرى (٦٨) .

كما سنرى فيما بعد فى منطقة (دير البلح) (انظر الصور من ٣ الى ٨) .

ولا يعنى هذا بالضرورة أن البلاد كانت تعيش فى أمن وسلام بل على العكس من ذلك سادتها فترات من الاختلال والدمار لكثير من المدن والمواقع العربية الكنعانية كما هو الحال فى « تل العجول » وتل بيت رسم جنوب الخليل ومجدو ... التى دمرتها الحروب أكثر من أربع الى خمس مرات خلال قرنين ونصف من الزمن (١٨٠٠ – ١٥٥٠ ق.م) (٦٩) .

وقبل أن نترك العصر البرونزى الوسيط لنا وقفة أردنا أن نتحدث عنها جانبا لأهميتها التى شملت جوانب عديدة على سكان هذه المنطقة أو نرى أنها توجت هذا العصر ألا وهى قدوم أبينا ابراهيم عليه السلام الى فلسطين (أرض العرب الكنعانيين) فى عام ١٨٥٠ قبل الميلاد بسبب الصعوبات التى واجهها فى

---

(٦٨) وليم اولبرايت – آثار فلسطين – المرجع السابق ص ٩٠ – ٩١ .

(٦٩) وليم أولبرايت – آثار فلسطين المرجع السابق ص ٩٤ .

اور بالعراق (٧٠) ، فالبعض يدعي أن رحلته هذه تمت قبل ذلك ، الا أن هناك اجماعا بأن قدوم أبينا ابراهيم عليه السلام كان في الفترة الواقعة في العصر البرونزي الوسيط .

فان كان للهجرات مقاصد مختلفة منها الاقتصادية المعاشية في غالبها الاعم . أو سياسية أو لظروف اجتماعية احيانا ، فقد هاجر أبو الأنبياء ومعه ابن أخيه «لوط» ودافعه لذلك توصيل «رسالة البلاغ ومبدأ التوحيد» يحملها لأبناء هذه الأرض الذين يعبدون الأصنام والشمس والثعابين والحيوانات في كنعان ومصر الفرعونية ويطلقون عليها أسماء عديدة ــ اله رع ·· داجون ·· بعل ــ عشتاروت ··· الخ · قدم ليبلغهم بالوحدانية لله عز وجل قائلا لهم « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » فالهجرة اذا هجرة بلاغ ·· والا فان أراضي جنوب العراق التي قدم منها بخصبها ووفرة مياه أنهارها الفياضة أكثر رخاء وأجزل عطاء من أراضي كنعان ذات الأمطار المتذبذبة خاصة في مناطق استقراره « الخليل » أو بئر السبع أو بالقرب من غزة شبة الصحراوية . الأرض التي لا تعطي الا بالكد والجهد ·· ألم يختلف كما جاء في التوراة أبونا ابراهيم مع أبيمالك ملك الفلسطينية على الشرب من ماء البئر فوق أرض « بئر السبع » أو كما جاء شرق مدينة غزة في « جيرار » عاصمة أبيمالك » أو تل أبو هريرة » الواقعة على « وادي الشريعة » احدى روافد وادي غزة · كمدينة واقعة على حد المسكون بين المناطق الصحراوية في بئر السبع والزراعية عند سهل غزة . وقد أقام أبونا ابراهيم على هذه الأرض « جيرار » سعيا وراء الرعي وقت القحط وقد مارس أبناؤها بعضا من أنواع الزراعة الفصلية بنجاح الى حد ما (٧١) ·

وما نود تأكيده هنا عن رحلة أبي الانبياء ــ أنها تركت انطباعات وآثارا فاقت تأثيراتها على أي حدث في نفوس أبناء العرب الكنعانيين وأحفادهم العرب الفلسطينيين والمسلمين فوق أرض فلسطين حتى غزة . آثارا ظلت مطبوعة في أفئدتهم بل تعدت وغطت مناحي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحتى النفسية على سكانها العرب حتى الآن ولمدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . لم يتفاعل معها أي قوم أو شعب آخر بمثل ما تأثر بها واندمج معها العرب الفلسطينيون المسلمون مؤمنين « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه » « سورة آل عمران » ومعتقدين بأنه « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » « سورة آل عمران » · فتميزوا بالتمسك بدينهم دين الاسلام وكتاب القرآن وأصبحت شخصياتهم تتميز بطابع الجد والتدين . فاشتقوا من اسمه

---

(٧٠) G. Raux, Ancient Iraq, London, Pelican Book 7 1966, p. 216.

(٧١) Land of Gerar, I.E.J., 1956, p. 26-28.

اسم مدينتهم « الخليل » بل وقسموها الى أحياء أطلق على كل حي « خلة » واوقفوا مساحات شاسعة من أراضي فلسطين وقفا للحرم الابراهيمي ايفاء لمستلزماته وتقديم الخدمات لمسجده بل وللفقراء والمساكين يوميا · حتى الفلاح العربي الفلسطيني وفي غزة خاصة يتبارك بتقديم أول جزء من انتاجه من القمح الفقراء ويسمونه « صاع الخليل » ·

والدلالة الثانية : هي أن ابانا ابراهيم جاب البـلاد من أقصى الشمال « نابلس » لأقصى الجنوب شرق غزة وبئر السبع لكي يتمم البلاغ حتى انتهى به المطاف وتوفاه الله عز وجل في « الخليل » ·

والنقطة الثالثة : توحي بدلالة تاريخية فكما جاء في التوراة أنه اختلف مع أبيمالك ملك الفلسطينيين ، فهذا معناه أن الفلسطينيين قدموا الى البلاد قبل عام ١٨٥٠ قبل الميلاد وهي سنة قدوم أبينا ابراهيم عليه السلام في حين تؤكد الدراسات الاركيولوجية والأبحاث العلمية ان قدومهم كان مع انتهاء القرن الثالث عشر قبل الميلاد · ليدل على أن ـ التوراة ـ لا يمكن الركون اليها كمرجع خاصـة لو علمنا بأن ما جاء منهـا من أسفار وأخبار جمعت جمعـا وفقـا لما يذكره بعض رجال الدين بعد قرون عدة من الشتات ·

أما اذا صدقت ـ التوراة ـ فمعناه أن قدوم الفلسطينيين سبق قدوم القبائل العربية اليهودية بستة قرون تقريبا ·

الفصل الرابع

العصر البرونزى الحديث

- غزة العاصمة المصرية على ارض الكنعانيين
- رفح موقع عسكرى متقدم لمصر
- مقابر قديمة على شاطىء « دير البلح »



العصر البرونزى الحديث ١٥٤٦ ـ ١٢٠٠ قبل الميلاد ·

يعتبر العصر البرونزى الحديث امتدادا حضاريا مباشرا لفترة الهكسوس ، فلم يطرأ أى تغير على نظام « المدينة الدولة » فى البلاد ولم يتبدل سوى الغزاة من « الهكسوس » الى فراعنة مصر الذين ضمتهم الامبراطورية الثانية ١٥٤٠ ـ ١٣٥٠ قبل الميلاد ـ والتى انطلق ملوكها مكسرين أغلال العزلة السياسية السعيدة داخل حدودهم الى الغزو نحو الشمال ليضموا جميع البلاد السورية محققين انتصارات عسكرية على كثير من الشعوب وليعيدوا عديدا من مراكز القوى المدنية على خريطة الأرض الكنعانية لتفقد احداها دورها كمدينة هامة ذات شأن ادارى وعسكرى لتؤول الى مدينة أخرى ، وبالحتم الجغرافى الناجم عن موقع القوة الفرعونية الغازية فى الجنوب ، كان لا بد لمدينة غزة أول المدن الكنعانية على التخوم المصرية ان تتأهل لدور العاصمة الكنعانية الاقليمية ولتأخذ مركز الثقل الادارى والسياسى فى أرض كنعان كلها وتسلب مدينة حاصور Hazor اهميتها ومكانتها كعاصمة كنعانية فى الشمال فاختارت الادارة المصرية بحكم الضوابط الجغرافية مدينة غزة قاعدة رئيسية لهم ولمبعوثيهم من الدبلوماسيين والاداريين (٧٢) ، فاكتسبت بالتالى أهمية مزدوجة كقاعدة عسكرية ومركز ادارى وتجارى هام ولم تنافسها فى هذا الدور سوى مدينتى عسقلان واسدود (٧٣) على الساحل ·

لقد جاء اسم « غزة » عندما قام تحتمس الثالث بحملاته المتعددة على فلسطين وسوريا فى العراق ١٤٦٨ ـ ١٤٣٦ ق‌م ـ قاطعا المسافة بين « ثارو » شرق القنطرة حتى مدينة غزة فى تسعة أيام بجيوشه ليبرهن على جدارته العسكرية وقوة اندفاعه فى ذلك الوقت داخل الصحراء فى الوقت التى يقال فيه ان سفنه الحربية المبحرة فى البحر المتوسط قد رسى بعضها عند شواطىء غزة (٧٤) ولضمانه سلامة الطريق ـ طريق الفرعون ـ أقاموا عليه محطات عسكرية كمخافر وحفروا العديد من الآبار فى مسافات محددة لتسهيل مهمات

(٧٢) A. Alt. ZDPV, 67, 1944, p. 9.

(٧٣) Aharoni, Ibid, pp. 23.

(٧٤) شمس الدين جونالتاى ـ سوريا وفلسطين ـ أنقره ـ ١٩٤٧ ، ص ٢٧٩ (باللغة التركية) ·

المحافل العسكرية والقوافل التجارية ، ولضمانه ميمنة الطريق الهام هذا جعلوا من المدن الشرقية لمدينة غزة وتل العجول قلاعا عسكرية لهم فى تل جمة وتل الفارعة وأقاموا أيضا فى « تل رفح » على الساحل وعززوا مكانة تل العجول العسكرية .

فقد أبانت الدراسات الآركيولوجية التى قام بها فلندرز بترى وزملاؤه سنة ١٩٢٦ فى « تل جمة » على آثار ترجع لتحتمس الثالث سنة ١٤٨٠ قبل الميلاد ومن انقاض وحفريات « تل الفارعة » وجدت آثار ترجع لرمسيس الأول سنة ١٣١٨ ق‌م وسيتى الأول سنة ١٣١٧ ق‌م ورمسيس الثانى سنة ١٢٩٥ ومرنفتاح ١٢١٩ ق.م والذى اشتهر بكثرة اهتمامه لفلسطين كما وجدوا اسم سيتى الثانى ١٢١٠ قبل الميلاد محفورة على جرة من الفخار (٧٥) فى نفس الموقع لتظهر جميعا أهمية موقعها كنقاط عسكرية ففيها احتفل تحتمس الثالث بمناسبة مرور العام الثالث والعشرين على اعتلائه العرش وسط خبرة حتى يقال انها أول مرة يرد فيها اسم غزة فى الآثار للدلالة على مكانتها (٧٦) .

فى حين وصفت مدينة غزة بأنها • العاصمة المصرية فى أرض الكنعانيين (٧٧) فبدأت حياتها فى الازدهار فى حين كان هذا ثمنه الضمور الديمغرافى للمدن القائمة حولها خاصة الى الشرق منها وفوق المناطق الجبلية لعدم مبالاة الاهتمامات المصرية لها فتركوا المدن الداخلية الجبلية بصفة خاصة على حالها لا لفقرها وعدم أهميتها الاستراتيجية التى انصبت على الطريق الساحلى الفرعونى فحسب بل كرد فعل للتعدد والتقزم لهذا المدن بصورة لا تلفت الانتباه فلم تشكل فيما بينها وحدة سياسية تمنحها القوة للتهديد أو الغزو لهذا أدار المصريون ظهورهم لهذه المناطق فنادرا ما توجهت حملاتهم نحو الداخل فى فلسطين فساعد هذا الانعزال الداخلى على انتشار ظاهرة « الممالك المدنية » التى هى أشبه بقبائل تعيش كل منها فوق مساحة محدودة من الأرض تمارس سلطتها عليها (٧٨) .

وعليه بدأ نوع من الكشف المدنى والاستقرار البشرى فوق هذا الطريق الساحلى لم لا وقد بلغت حملات تحتمس الثالث التى جهزها للغزو من فرقه سبعة عشر حملة عسكرية على حضارات الشمال حتى وصلت شاطىء الفرات ، لتترك من ورائها ثراء علميا ووثائق تاريخية وجدت فى « معبد الكرنك » بصعيد مصر منها قائمة تضم ١١٩ مدينة كنعانية كانت تحت امرة ملوك قادش ومجدو بفلسطين يساعدهم « الميتانيون » فى بلاد الرافدين ويقدمون لهم العون

(٧٥) Starky and Harding, Pet Palet II, Ibid, pp.

(٧٦) Aharoni, Ibid, pp. 44.

(٧٧) A. Meyer Ibid, p. 20.

(٧٨) W. F. Albright, BASOR, 87, 1942, pp. 37-38.

والمساعدة للتصدى وتحدى السلطة المصرية (٧٩) · وعلى أرض « مجدو » المدينة العربية الكنعانية قامت أول معركة فاصلة تدور بين تحتمس الثالث وملوك كنعان تركت من بعدها معلومات ونقوش من بينها ما عثر على قبر أحد ضباط هذه الحملة منقوشا عليه المواقع التى مرت عليها الحملة مبتدئا بالسهل الساحلى حتى سفوح الكرمل مخترقة أراضى سهل مرج بن عامر حتى وادى بيسان الى جسر بنات يعقوب ومنها الى الأراضى السورية (٨٠) محورا عسكريا أبديا ، وممرا لا محيد عنه ، فى السلم والحرب ، وهذا هو أمنحتب الثانى ١٤٣٦ – ١٤١٠ ق‌م – يجهز حملتين عسكريتين بقصد ايقاع الهزيمة « بالميتانيين » فى الشمال حتى انتصر عليهم (٨١) وكالعادة تركت لنا سجلات هذه الحملات أسماء بعض المدن الكنعانية منها « قادش وجازور وافيق يسوكه » ومن أهم ما زودتنا به قائمة بتعداد بعض المسجونين الذين وقعوا فى الاعتقال ، وربما يكون لذكرهم هنا انعكاس للحالة الاجتماعية والتركيبة السكانية للمنطقة فى ذلك الوقت فقد ورد فى القائمة ١٢٧ رجلا من حكام « رثنو » ومما هو جدير بالذكر أن « رثنو » أطلقها الفراعنة على تلك الأراضى الواقعة فى شبه جزيرة سيناء حتى الطور أما سكانها فيطلق عليهم « الشاسو » (٨٢) ·

وهناك ١٧٩ من أبناء حكام رثنو ، و ٣٦٠٠ من قبيلة « الخابيرو » وهى قبائل يعوزها الاستقرار وبلغ عدد المسجونين من قبائل الشاسو البدوية ١٥٢٠٠ شخص فى حين وصل عدد الحورو Huru ٣٦٣٠٠ نسمة وهم من عامة الشعب ونحو ١٥٠٧٠ شخصا من Neges من سكان شمال سوريا وقرابة ٣٠٦٥٢ من العائلات التى تنتمى لسكان شمال سوريا (*) أيضا (٨٣) ·

ليست هذه الأرقام وليدة احصاء بل هى أقرب الى المجموعة العشوائية التى وقعت فى الأسر أو الاعتقال الفرعونى عند قيام الحملة نستلهم من خلالها صورة ولو جزئية عن التركيب السكانى الذى يمثل الحوريين أكثر قليلا من ثلث المجموعة فى حين نجد الشاسو وهى القبائل البدوية التى تسكن جنوب وشرق غزة تمثل ١٥٪ من المجموعة أما « الخابيرو » والتى كانت مصدر ازعاج لحكام الأقاليم فلا تتعدى ٣٫٥٪ من المسجونين · فى حين نجد النسبة الكبيرة من بين هذه الأعداد هم من سكان سوريا الذين يشكلون أقل قليلا من نصف

---

(٧٩) G. May Herbert, Oxford Bible Atlas Ibid., pp. 95.
(٨٠) Aharoni, Ibid, pp. 144-145.
(٨١) W. F. Albright and A. Rawe I.E.A., 14, 1928, p. 281-287.
(٨٢) غالى – سيناء المصرية عبر التاريخ – المرجع السابق ص ١٣
(٨٣) Aharoni, Ibid, pp. 144-145.
(*) ورد اسم مدينة بالقرب من بيسان باسم Neges أيام تحتمس الثالث I.E.J. Vol. 28, 1978, p. 93.

العدد الاجمالى « ٤٥٪ » ويبدو واضحا أن أعداد من ألقى القبض عليهم أثناء الحملة يأخذ فى الازدياد كلما اتجهنا نحو الشمال وربما كان يتناسب ذلك بتناسب عدد السكان ففى الجنوب حيث الصحراء والقبائل المتنقلة وقلة عدد السكان تقل النسبة فى حين تزداد شمالا للاستقرار على الأرض الزراعية وبالتالى شدة المقاومة .

ومن المشاعل التى أضاءت لنا مساحة شاسعة وكشفت عن أحداث هامة غطت حقبة تقل قليلا عن قرن من الزمان لهذا العصر كانت « رسائل تل العمارنة » التى ضمت فى مجموعها ٣٥٠ لوحة من الطين أرخت لعهد تحتمس الرابع ١٤١٠ ــ ١٤٠٢ قبل الميلاد الذى عقد الميتانيون معه معاهدة سلام لما أصابهم من ضعف ، كما أمدتنا هذه الرسائل بمعلومات تعود لـ أمنحتب الثالث ١٤٠٢ ــ ١٣٦٤ قم وأمنحتب الرابع ١٣٦٤ ــ ١٣٤٧ قم (٨٤) .

وما يعنينا من رسائل تل العمارنة أن نصف مجموعها أرسل من ملوك كنعان والباقى أرسلته ممالك شرق أوسطية (حيثيين ــ ميتيانيين ــ بابليين ــ قبارصة) وقليل منها مرسل من ملوك مصر أنفسهم الى أولئك الملوك والشعوب جميعا .. لنتبين ــ كثافة المراسلات بملوك كنعان والتى توضح بدورها الأهمية الاستراتيجية بين القطرين ومدى حساسية هذه المنطقة بالنسبة للأمن المصرى كمنطقة ارتطام وكموقع متقدم فى العمق للدفاع عن مصر . خاصة عندما كشفت لنا بعض الرسائل التى تحمل استغاثات أطلقها بعض قادة الحاميات فى الأراضى الكنعانية ضد من أسموهم « بالخابيرو » كعنصر مقلق دفع بعض الحكام أحيانا لعقد اتفاقات معهم ، وهؤلاء « الخابيرو » أشبه بقبائل متنقلة ، أو فئة من الأجانب لم يكن لهم حقوق الملكية (٨٥) وفضلوا الانتقال والانتشار داخل المناطق الجبلية ، ويرى آخرون بأنهم نوع من المرتزقة حرضتهم القوى الحيثية بآسيا الصغرى للعمل ضد الكنعانيين والمصريين عندما أخذ الاهمال يستشرى أيام أمنحتب الرابع « اخناتون » . فى حين يرى المؤرخ « يوسيفوس » بأنهم عرب واخوة للفينيقيين (٨٦) وهذا يناقض ادعاء بعض المحدثين الذين يدعون بأنهم طلائع العبرانيين .

وقد عكست رسائل تل العمارنة ، ومن الوجهة الجغرافية ــ أهمية كثير من المدن الكنعانية بشكل أشبه بالتصنيف الاقليمى ضم كل منها عدة مدن ففى

---

(٨٤) Georges Ville, Concise Encyclopedia Archoeology, 1971, p. 27.

(٨٥) R. Borger, Z.D.P.V. 74, 1958, pp. 121-122.

(٨٦) الدبس ــ تاريخ سوريا ــ المجلد الاول ــ الجزء الأول ــ بيروت ١٨٩٣ ص ٢٣٠ .

نطاق السهل الساحلي لأرض كنعان أوضحت ثلاث مدن هي غزة وعسقلان وجوبا « يافا » وأوردت مدن جازر — وجات — لخيش — مجدو — كمدن عربية كنعانية ، وغيرها من المدن الجبلية الداخلية (خريطة ٧) .

وهكذا ظلت مدينة غزة محتفظة بأهميتها كعاصمة اقليمية كنعانية ومركز اداري مصري كما جاء في رسائل تل العمارنة (*) ومما يؤكد هذا الازدهار ما جاء بوثيقة ترجع بتاريخها للفترة الواقعة ما بين ١٣٥٠ — ١٢٠٥ قبل الميلاد أي في النصف الأول من حكم الأسرة التاسعة عشرة تبين ما رآه أحد الرحالة المصريين للمدن الكنعانية والفينيقية ومن ضمنها مجدو وجوبا ورفح وغزة » ذات المراعي الجميلة والجنائن الخضراء ذات الثمار الناضجة من كل نوع ولم ينس أن يصف « الفتاة الجميلة التي تقوم بحراسة الكروم ذات النظرات الأخاذة والتي تأخذ الألباب » (٨٧) .

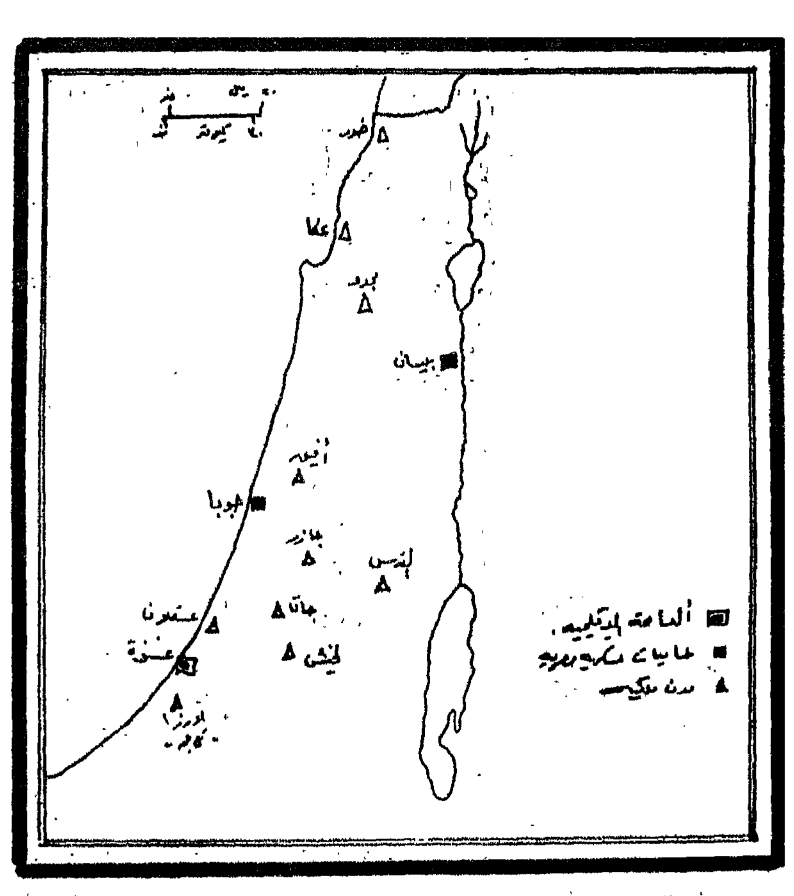
ومن أهم ما بينته رسائل تل العمارنة الضعف الذي بدأ يتسرب بجسم الدولة الفرعونية خاصة أيام « أخناتون » وكيف بدأت شعوب الأرض الكنعانية في مدنها المختلفة في طول البلاد وعرضها الانتفاض فعملت القبائل البدوية في قطع طرق القوافل التجارية ونهبها ، واندفعت شعوب المدن بالثورة ضد المصريين مما دفع السلطة للرد عليها مما أدى الى تخريب وتدمير عديد من المدن مثل أريحا وتل بيت مرسم ودمر سكان لخيش « تل الدوير » المعابد المصرية فيها . وبلغت أوجها عندما قام سكان غزة بتدمير المراكز الادارية والحصون العسكرية في المدينة ، ويصف بعض الضباط المصريين ردود فعلهم حيال السكان الثائرين قائلا (لقد أتلفت أمتعتهم وحرقت ودمرت مدنهم وحاصلاتهم فأخذوا يهربون الى الجبال كالأغنام وانتشر الجوع في أنحاء البلاد) وبالرغم من ذلك لم تتمكن بعدها حملات اخناتون من اخضاع ثورة السكان أو القدرة على استتباب الأمن ، فبدأ بعدها النفوذ المصري في الانكماش (٨٨) وهكذا احتفظت المدن الكنعانية بعناصر شخصيتها القومية العربية الكنعانية فلم تفقدها بالرغم من ازدياد النفوذ المصري لعدة قرون خاصة في أهم مراكزهم غزة ومن ثم في باقي المدن . ورغم تحريض وتهديد ملك البابليين الذي أرسل رسالة رسالة لأخناتون (أمنحتب الرابع) يدفعه فيها لمعاقبة المهاجمين لقوافلهم قائلا

---

(٨٧) أنيس الصايغ — سوريا في الأدب القديم — بيروت — ١٩٥٧ ص ٦١ — ٦٢ .

(٨٨) تاريخ مصر الى الفتح الفارسي — المرجع السابق ص ٢٥٧ — ٢٥٩ .

(*) هناك رسالة ذات أهمية أرسلها قائد مدينة غزة ويافا اسمه Yarbriti وهو كنعاني المولد يستعطف الملك الفرعوني ويقدم له الولاء والاخلاص في حراسة بوابة غزة ويافا — راجع :
A. Meyer, Ibid, p. 21.



خريطة (٧) المدن الرئيسية الفلسطينية التى وردت فى رسائل تل العمارنة

له (كنعان هى أرضكم وملوكها هم خدامكم) (٨٩) ٠

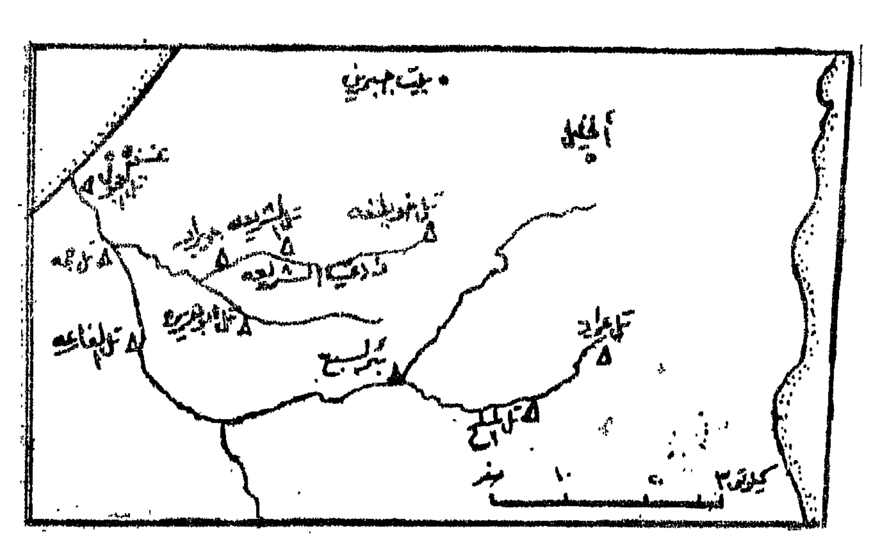
ومادمنا بصدد ما أوردته رسائل « تل العمارنة » فقد ظهر ولأول مرة مصطلح « كنعان Kinhi-Kīnahna » مع بداية النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد متضمنا فلسطين وأجزاء من سوريا تحت اسم اقليم كنعان «(P) Ihati Sakinahi» (انظر خريطة رقم ٨ و ٩) ٠

ولم تفقد مدينة غزة مكانتها سواء الادارية أو العسكرية بعد كل هذه الأحداث بل استمرت محتفظة بمكانتها كعاصمة كنعانية وقاعدة عسكرية لا غنى عنها للحملات المصرية فقد جاء ضمن قائمة المدن التى وردت فى حملة سيتى الأول (١٣٠٣ ــ ١٢٩٠ قم) التى تضمنت سبعة عشر موقعا كنعانيا كل من رفح «R.P.H.» وجاء اسم غزة مقترنا باسم كنعان ليشير الى مكانتها كعاصمة كنعانية ولها قيمتها العسكرية لمصر (٩٠) ٠ ويبدو أن هذه الحملة كسابقاتها تهدف لتأديب قبائل الشاسو البدوية المتمردة فاتجهت الحملة حتى مدينة صيدا لتعود بعدها الى بيسان وجازر حيث دارت معارك هنـــاك ٠ ولم ينس سيتى الأول حفر آبار مع طول طريق الفرعون من ثارو حتى رفح وغــزة q-d-t لجلب المياه كما ذكرت نقوش معبد آمون بالكرنك (٩١) ٠

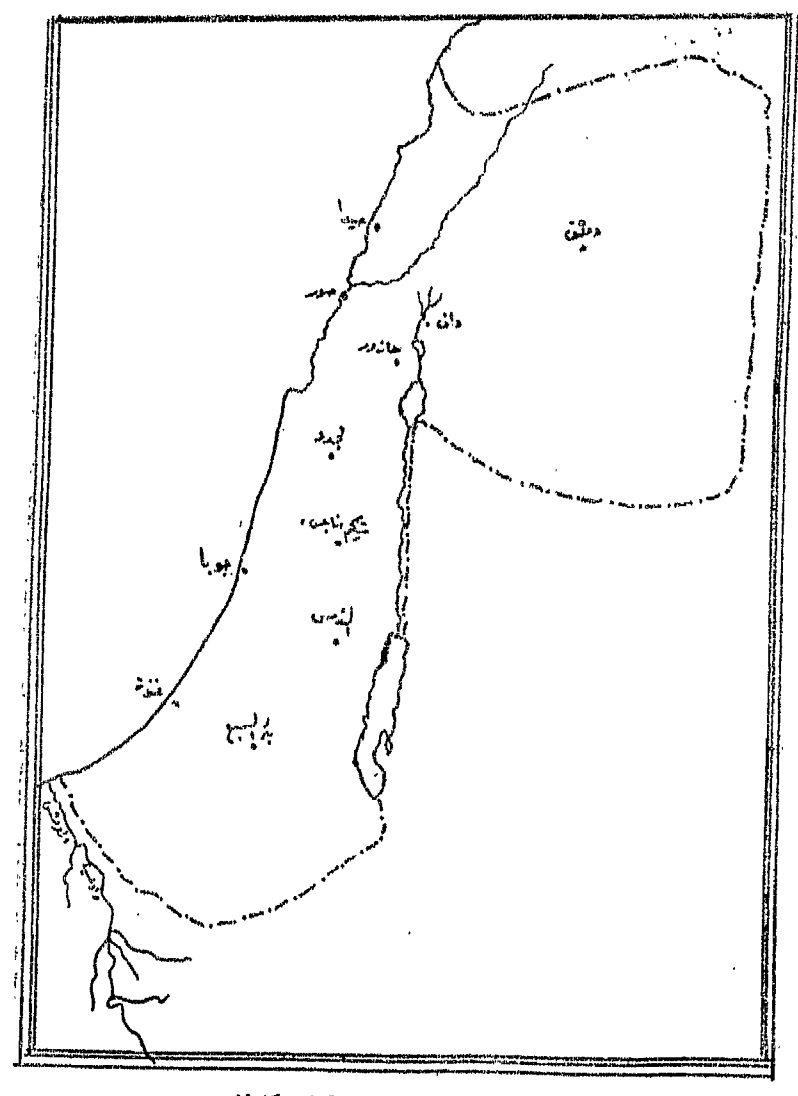
ويبدو أن التمرد ظل مستعرا خاصة فى الأجزاء الجنوبية من أرض كنعان وبالقرب من غزة فلم تهدأ بالتالى سرايا الجيوش الفرعونية التى أخذت تترى عبر هذا الدهليز الساحلى فاكمل رمسيس الثانى ١٢٩٠ ــ ١٢٢٤ قم ما انتهى به سلفه سيتى الأول فقاد حملته ضد سكان البلاد فى الجنوب ليواصل حملته ضد الحيثيين فى الشمال ، فأخضع سكان البلاد المتمردين من قبائل الشاسو فقال (هاجمت سنا آرو « أى جنوب كنعان » وأنزلت بلائى على قبائل الشاسو فخربت ديارهم وقتلت رجالهم وأهلكت أبقارهم وأموالهم ، وأسرتهم وأجبرتهم على دفع الجزية وقدمتهم الى الآلهة كعبيد فى المعابد) (٩٢) ٠

فلم يهدأ سكان البلاد ولم يستكينوا مهما طالت مدة بقاء السيطرة الأجنبية والبطش الذى أنزلوه على السكان من قتل وتخريب لجميع مصادر الثروة الزراعية عن الثورة والمقاومة ، فهل هى الصحوة الناجمة عن ســوء معــاملة المصريين والبطش الذى أنزلوه على السكان من قتل وتخريب لجميع مصادر الثروة الزراعية منها وحتى الحيوانية ، أم هو التحريض « الحيثى » كقوة مناوئة للمصريين فى الشمال للسكان ودفعهم للثورة ــ كما يحلو للبعض أن يفسروه ٠ أو هو ضعف

(٨٩) Aharoni, Ibid, p. 62.
(٩٠) Aharoni, pp. 70.
(٩١) K. A. kitchen, J.E.A., 50, 1964, pp. 47.
(٩٢) Aharoni, 165.



خريطة (٨) مناطق استقرار عربية كنعانية حول وادى غزة



خريطة (٩) حدود أرض كنعان

وانهيار السلطة المصرية أغرت السكان وقبائلهم بالتمرد واعتراض سبل القوافل والثورة • أم دخول عناصر جديدة كما يوضح دخول العبرانيين من الشرق والفلسطينيين من الغرب لأرض كنعان ؟ •

والرد على هذه الاستفسارات يأتى من « مرنفتاح ١٢٢٣ ــ ١٢١١ ق•م الذى قام بحملته بمطاردة القبائل العربية الكنعانية ومحاصرتهم فى « جازر » وانتصاره عليهم مما دفعه لتلقيب نفسه « محاصر جازر » (٩٣) بعد أن استولى على عسقلان ليبرهن على قوة دفاعات المدينـــة ومقاومتهـا • فالعبرانيـون والفلسطنيون قد قدموا مع بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد ولم يصلوا بعد لدرجة الاستقرار التى تمكنهم من المقاومة كما تلقى الحيثيون ضربات متواصلة من الملوك المصريين وكثيرا ما انهزموا أمامهم مما يقلل احتمال تأثيرهم على السكان الكنعانيين يبقى التمرد الكنعانى من سلطة المصريين الضاغطة هو المحك والدافع لغليان السكان الذاتى • ولتبق مدينة غزة أكثر المدن ــ بحكم موقعها الجغرافى ــ بقاء تحت السيطرة المصرية فى أرض كنعان محتفظة على قسماتهـا العربيـة الكنعانية بالرغم من استشراء الثقافة المصرية فيها بكل أبعادها الحضارية وفى مجال حياتها المختلفة كما سيتضح مما أبانته أحدث الحفريات على شاطىء دير البلح والتى تعود لنفس العصر البرونزى الحديث الذى نحن بصدده •

فان كانت تل العجول فيما سبق قد لعبت دور العقدة الحضارية كسمة غالبة فى العصور الحجرية فان غزة أخذت دور العقدة العسيرية كصفة سائدة على شخصيتها فى العصر البرونزى بقسميه القديم والحديث ، ومنطقة ارتطام حدية •

يدفعنا هذا للتساؤل عن السر فى استمرار التواجد المصرى واصراره فى أكثر الأوقات ضعفا على الجنوب الكنعانى فى غزة ورفح ومدنها الشرقية (تل جمة ــ الفارعة) • هل هى الدوافع الاقتصادية ؟! أم أنها الأطماع السياسية لفرض النفوذ والتصدى للأعداء القادمين من الشمال ؟ أم انها أرض الدفاع من العمق عن وادى النيل ذلك الدرس الذى استوعبه ملوك مصر من الحملة الهكسوسية ؟ •

وربما استعراضنا لجوانب ومقومات الحياة الاقتصادية للاراضى الكنعانية فى العصر البرونزى الحديث يلقى لنـا الضوء عن مدى اغراءاتهـا وجاذبيتها للسلطة المصرية ، هذه الجغرافيا الاقتصادية ــ اذا جاز التعبير ــ لأرض الكنعانيين نقشت على حائط قبر نائب تحتمس الثالث « رخمير Rekhmire » الذى كان

(٩٣) بريستد ــ تاريخ مصر من أقدم العصور حتى الفتح الفارسى ــ المرجع السـابق

بتلقى ضرائب البلاد ، سندرسها دراسة محصولية علنا نســتقرىء من بين سطورها الجوانب الكامنة وراء الغزوات الفرعونية على بلاد الكنعانيين ونستوضح مراميها والتى يبدو من خلالها أن السمة الاستراتيجية هى السائدة أكثر مما هى دوافع اقتصادية : ـ

ملكية الأرض (٩٤) ·

كان الفراعنة المصريون اذا ما استولوا على أراض يعتبرونها ملكا خالصا لهم يسبغ القائد المصرى اسمه عليها فعلى سبيل المثال كانت مدينة غزة ـ ملكا خالصا لتحتمس الثالث وأسماها « المدينة التى حاصرها الحاكم » وهكذا أطلق عليها رمسيس الثانى بعد أن حكمها · وكان بالتالى السكان الكنعانيون مضطرين لدفع الضرائب الى الفرعون المشرف الأول على زراعة الأراضى فيهـا ومجبى ضرائبها بنفســـه وقد جـــاء ذكر ثلاث مدن بالقرب من بيســـان (Hakur - Neges - Yenoan) تفعل مثل هذا الحال · وكانت هذه الضرائب تؤول قربانا للآلهة المصرية التى ألحقها تحتمس الثالث ببعض المدن الكنعانية كآلهة لها فقد قدم ضرائب مدن كاملة للاله آمون بمعبد الكرنك بالصعيد · فمدينة عسقلان أصبحت ملكا للاله « بتاح » تدفع له الضرائب · فالتغير هنا أصبح اجتماعيا أكثر منه سياسيا على المدينة بحيث عزلت المعتقدات الداخلية للأسر المحلية واستبدلت بآلهة المصريين ، كذلك الحال فى غزة صاحبة الاهتمام الفرعونى الكبير والذى سبق أن أوضحنا كيف اعتدى سكان غزة على الآلهه ودمروها داخل المدينة وكان جزء من هذه الضرائب ينفق على الجيوش المصرية فتجهز بها العربات الحربية ويأخذ بعضـــها رجال الحكم وكانت غزة تقدم ذلك (٩٥) ·

المحاصيل الزراعية :

وردت أسماء عديد من المدن الكنعانية التى ترسل « القمح » الى الاله آمون فى الكرنك أيام تحتمس الثالث ولكن لم توضح الكميات المرسلة ، وفى قائمة أخرى ترجع لرمسيس الثالث جاء فيها أن الاله « بتاح » فى هليوبوليس استلم من أرض كنعان كميات من القمح «hkito, Hirw» فى السنة كما استلم معبد « بتاح) فى ممفيس ٤٠ وحدة hk it كل سنة وهذا يعنى أن مقدار ما استلمته المعابد المصرية من أرض كنعـــان ما يعادل ٢٠٠ لتر أو ١٥٠ كيلوجراما (؟!) تقريبا · ويبدو أن هذه الكمية مجرد هبات رمزية اذا ما قيست بتلك الهبات

(٩٤) I.E.J., Vol. 28, 1978, pp. 93-95.
(٩٥) Aharoni, p. 138 .

التى تقدمها مصر نفسها الى معابدهم (٩٦) ولم تكن مصر بحاجة لاستيراد القمح من أى مصدر فما كانت تجمعه غالبا ما تزود به الجيوش المصرية المرابطة فى المدن الرئيسية فى غزة وعسقلان وجوبا « يافا » ، والتى كانت تخزن كميات كبيرة منه كرصيد احتياطى وقت الحرب كما هو الحال فى « يافا » وكثيرا ما كان سـكان المدن يتجهون بضرائبهم « كالقمح » ليسلموه فى مناطق التخزين أو المخازن . وفى بعض الحروب كان الجنود ينهبون كميات من القمح كما جاء فى رسالتين أيام تحتمس الثالث وعند حصار « مجدو » (٩٧) .

الزيت :

زيت الزيتون على العكس من القمح فمصر الفرعونية كانت مستوردة له فهى لا تنتجه بل وقامت الأسرة الثامنة عشرة بمجهودات لزراعته كما ورد فى احدى وثائق الأسرة التاسعة عشرة ، ويؤخذ الزيت كضرائب يقوم باستهلاكه واستغلاله الجنود ورجال الادارة المصرية فى المدن الكنعانيـة نفسهـا كما ورد ذلك فى رسائل تل العمارنة .

النبيذ :

جاء ذكره فى معظم السجلات وكان يقدر « بالجرة » أيام تحتمس الثالث فقد بلغ فى سنة ٢٩ من حكم تحتمس الثالث ما حملته من النبيذ بنحو ٩٥ ألف لتر (٩٨) أرسل لمصر .

الثروة الحيوانية :

فى مجال هذه الثروة ورد ذكر الأغنام والماعز بأعداد قليلة بحيث لم يتعد عدد ما ذكر منها فى قائمة الضرائب ثلث عدد الأغنام التى سلبت عند حصار مجدو ووصلت نسبة الماعز للأغنام ١ : ١٠ ليضفى دلالة ــ ولو بسيطة ــ عن قلة هذه الثروة التى كانت تقدم فهى لا تعدو كما ذكرنا ــ عن أعداد رمزية تضفى الدلالة على الولاء للآلهة . وقد قام أحد ملوك كنعان الجنوبيين بتسليم (٥٠٠) خمسمائة عجل وطلب أحـد الضـباط المصريين سبعة عجول من ملك جازر .

أما الخيول فتبدو أهميتها على الرغم من قلة ما كان يطلب منها فقد وصل عدد ما أخذ فى احدى السنوات ألفا وخمسمائة حصان تقريبا (٩٩) .

---

(٩٦) I.E.J. 28, Ibid., p. 96-97.

(٩٧) I.E.J. 28, p. 98

(٩٨) I.E.J. Vol. 28, ibid, p. 99.

(٩٩) I.E.J. Vcl. 28, 1978, p. 100.

المـواد الخام :

لا نبتعد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا بأن الأخشاب فى ذلك العصر تعتبر من المواد الاستراتيجية الحساسة والهامة وقد ذهبت مصر لاستيرادها ، وكلها من الشمال الفينيقى ، ولما كانت أرض كنعان تمثل الحدود الجنوبية بأمطارها القليلة المتذبذبة فان الاستفادة من أخشابها ضئيلة فى كميتها ولم يرد ذكرها ـ اللهم الا عند ارساء السفن المحملة بالأخشاب على موانىء أرض « الرتنو » ـ ربما كانت غزو أو العريش ـ القادمة من الأراضى الفنيقية ومتجهة الى مصر · أما الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعاج فانها بطبيعة الحال غير موجودة فى أرض كنعان أما تلك الكميات التى كانت ترسل منها لملوك مصر كتلك التى استلمها تحتمس الثالث من أرض كنعان فهى وان كانت ضئيلة فى كميتها ـ كما جاء فى رسائل تل العمارنة ـ فهى مستوردة من خارج أرض كنعان (١٠٠) ·

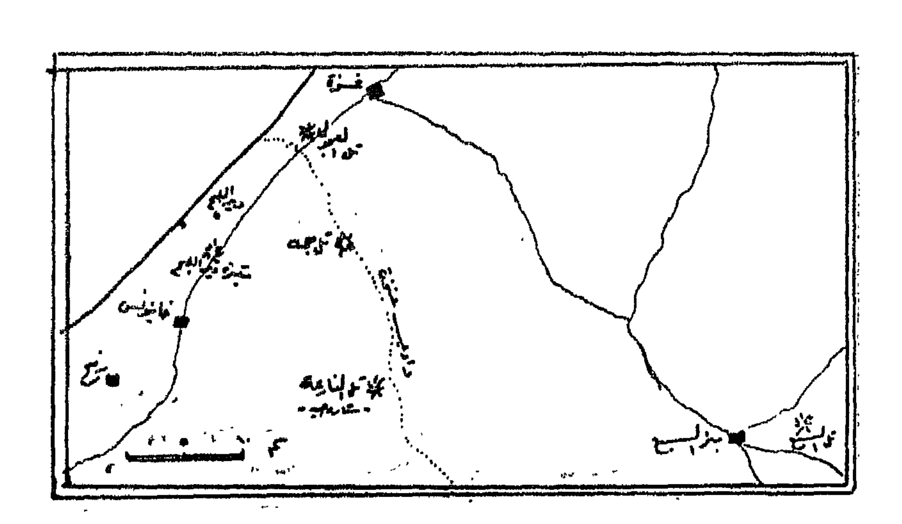
هذه النظرة السريعة لطبيعة ثرواتنا الاقتصادية فى أرض كنعان ـ ولو أنها جزئية ـ الا أنها تمثل نماذج واضحة للثروة الزراعية والحيوانية والمواد الخام الزراعية التى لا تختلف عن ثرواتنا اليوم لتوحى وتؤكد رأى من يقولون بعدم تبدل الظروف المناخية منذ آلاف السنين حتى اليوم ·

هذه الثروات لم تكن سببا لجذب المصريين لها فالدوافع الاقتصادية للحملات المصرية غير واردة فلم يكن هنـــاك اهتمام اقتصادى واضـــح تجاه الأراضى الكنعانية ، وان كان هناك هذا الاهتمام فانه محدود ولم يزد عن مجرد تزويد الحاميات العسكرية ورجال الحكم الادارى بمؤونتها مع بعض الهبـــات الرمزية المرسلة للآلهة ·

فالحقيقة أن الأراضى الكنعانية (خاصة الجنوبية منها) ليس لديها ما تقدمه للمصريين الا أقل القليل بحكم ضآلة مواردها فى الوقت الذى تتمتع فيه مصر كدولة غنية بثراء زراعى وحيوانى يوصلها لمرحلة الاكتفاء الذاتى ويزيد ، وان كان هناك ما تستورده مصر من أرض الكنعانيين فهو النبيذ والعسل والقار كما جاء ذكره سابقا ·

وعليه يمكن تنحية الجوانب والدوافع الاقتصـــادية المصرية لبلاد كنعان والتوجه نحو أهميتها الجغرافية فى موقعها البينى والحدى بين حضارات تليدة فى الشمال فى أرض الرافدين وشبه جزيرة الأناضول وبين مصر الفرعونية ، يربطها جميعا هذا الجسر الضيق الذى يبدأ من رفح وتل العجول وغزة القاعدة العسكرية التى انصبت اهتمامات المصريين بها ومعها عسقلان وجوبا « يافا » كقواعد انطلاق تحمى ظهورهم ومخازن تموين احتياطى عند تصديهم للقـــوى

(١٠٠) I.E.J., Vol. 28, 1978, p. 100-101.



خريطة (١٠) خريطة توضح موقع مقبرة دير البلح

خريطة (١١) الموقع الاستراتيجى الهام لمدن منطقة غزة على الطريق البحرى
« أو طريق حورس » «Via Maris»

الحيثية في الشمال • فلا غرابة أن تدفع المدن الكنعانية الثمن غاليا لقاء موقعها هذا من تدمير وتخريب وحرق ، وكثيرا ما بانت فوق تلالها وبين طبقاتها المحترقة والتي تعود للعصر البرونزي الحديث في (لخيش ـ جازر ـ مجدو ... الخ) • مما جلب الخراب عليها وعلى اقتصادياتها •

ومن أحدث الحفريات التي أجريت في غزة تلك التي جرت سنة ١٩٧٢ بالقرب من شاطيء مدينة دير البلح والتي كشفت عن وجود مقبرة ترجع للعصر البرونزي الحديث عثر فيها على مجوهرات وأوان فخارية وتماثيل صغيرة ـ وجعارين ومجموعة فخارية كبيرة ميكانية الطراز وقبرصية ومصرية بالاضافة الى بعض الصناعات المحلية الكنعانية • يبدو أن معظمها كان يستخدم لخزن السوائل مثل النبيذ والزيت والحليب لأن لها غطاء (١٠١) وصفت جميعا بأنها من أغنى الأدوات والأشياء التي عثر عليها في فلسطين وأكثرها تنوعا كما لم يكشف النقاب عنه (خريطة ١٠ و ١١) •

أما الأواني الفخارية فترجع جميعها للفترة الواقعة ما بين القرنين الثالث عشر وحتى الحادي عشر قبل الميلاد « سراجات ـ قدور ـ جرار » عليها بعض الرسومات ملونة باللون الأحمر وعلى هيئة دوائر وهذا النمط كان شائعا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كما عثر على « جعارين » أو أختام تحمل ثلاث منها اسم تحتمس الثالث وواحد عليه اسم أمنحتب الثالث وأخرى تحمل اسم أمنحتب الثاني وتحتمس الرابع وأمنحتب الرابع ورمسيس الثاني وهناك جعران واحد يحمل اسم رمسيس الرابع (منتصف القرن ١٢ قبل الميلاد) مما يعكس الفترة الطويلة للسيطرة المصرية والاهتمام بالأراضي الكنعانية (انظر الصور ٩ ـ ١٢) •

لقد عثر على جميع هذه الأشياء بجوار أكفان فخارية (موميات) تثبت ان هذه المقابر استخدمت ابتداء من القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر تقريبا قبل الميلاد (١٠٢) ومنها ما يشبه محتوياته بعض المقابر في مصر ومنها ما ليس له شبيه في كثير من المواقع الكنعانية مثل بيسان وتل الفارعة ولخيش والتي تعود لنفس الفترة • وهذا يدل على درجة من التمركز على طول الساحل الغربي وقلة الاهتمام المصري شرقا حتى في نطاق حدود غزة الطبيعية نفسهـا •

فهذه الأكفان الفخارية لم يعثر على مثيل لها حتى في « تل الفارعة » الى

---

(١٠١) I.E.J. Vol. 22, 1972, pp. 65-68.

(١٠٢) I.E.J., Vol. 22, 1972, pp. 65-68.

الشرق قليلا • فهى من أقدم ما عثر عليه عن عادة دفن الموتى فى فلسطين ، ولم يعثر على شبيه لها الا فى ثلاث مقابر بالأردن ترجع للفترة الواقعة بين القرنين العاشر وحتى السابع قبل الميلاد أى أحدث من مقابر دير البلح فى منطقة « سحاب » جنوب شرق عمان (١٢ كيلو متر) وفى جبل القصر بمدينة عمان نفسها ومنطقة « دبون » ومما هو معروف أن عادة دفن الموتى فى أكفان فخارية (موميات) بدأت منذ عهد المملكة الوسطى خلال الأسرة الثانية عشرة (١٠٣) •

ان اكتشاف هذه المقابر فى منطقة دير البلح يدفعنا للتساؤل عمن هم الذين كانوا يستخدمونها ؟! فبالقرب من المنطقة وحتى الآن لا توجد آثار تؤكد أن هناك استقرارا بشريا فى صورة مدينة أو قرية حتى يقوم سكانها بدفن موتاهم باستثناء « تل العجول » الى الشمال منها • وعلى ضوء ذلك يمكن وضع عدة افتراضات منها انها اما كانت لكبار الضباط المصريين وكبار رجال اداراتهم العاملين فى أرض كنعان •

أو كانت لبعض الكتائب المصرية المتمركزة فى المعاقل والحصون الكنعانية القريبة مثل تل العجول وتل رفح وتل جمة وتل الفارعة الى الشرق أو لمدينة قديمة داخل دير البلح لم تكتشف بعد خاصة وان مدينة « الداروم » فى الفترة الرومانية لعبت دورا مركزيا هاما ربما قامت على انقاض مدينة قديمة •

وهناك احتمال أخير بأن هذه المقابر كانت لحكام كنعانيين ذوى سلطة اندمجوا فى الحضارة المصرية وأخذوا عنها الكثير مع الحفاظ على تراثهم وصناعاتهم المحلية توارثهـا من بعدهم السكان الفلسطينيون الذين دفنوا موتاهم بنفس الطريقة فى أكفان فخارية (١٠٤) • وما بقى فى باطن الأرض لهذه المنطقة فهو أعظم وينتظر الدراسة والبحث الجاد •

وهكذا ومع نهاية العصر البرونزى الحديث تنتهى مرحلة من الصراع بين الرعاة والمزارعين أو قل صراع بين الرمل والطين • هذه المعادلة معادلة الصراع بين الرمل والطين ما اختزله السيد « بريستد » فى تاريخ الشرق القديم بأسره متمثلة فى هجرات الرعاة وغزواتهم ابتداء من الآراميين الكنعانيين بفروعهم والحيثيين وبلاد ما بين الرافدين والحضارة الفرعونية فى الجنوب تتوسطهم جميعا أرض كنعان أرض فلسطين • لخصها جميعا بالصراع بين البر والبحر •

لننتقل بعدها فى معادلة جديدة تروى قصة الصراع بين البر والبحر بين الفلاحين والملاحين •

---

(١٠٣) I E.J. Ibid, pp. 71.

(١٠٤) IIE.J. Vol. 22, Ibid, p. 72.

الفصل الخامس

العصر الحديدى

- قدوم الفلسطينيين واستيطانهم للمدن العربية الكنعانية
- قدوم القبائـل اليهودية لأول مرة بعد ١٢٠٠ سـنة من التوطن العربى الكنعانى ·
- تل العجول ثغرا ومصنعا لصهر الحديد ·
- رفح مازالت موقعا عسكريا حصينا وظهور لابان « الشـيخ زويد » سندا لها ·
- ظهور اله غزة « مارنا » والملك « هانون » الذى قاد الثـورة ضـد الاشـوريين ·



العصر الحديدى « ١٢٠٠ – ٥٨٦ ق٠م »

العصر الحديدى القديم « ١٢٠٠ – ٩٣٠ قبل الميلاد »

ان كانت معادلة الصراع بين الرمل والطين قد انتهت بانتهاء العصر البرونزى الحديث ، فقد أتى عصر جديد يحمل معه عناصر الصراع المتفاوتة ، صراع البر والبحر للفوز لا بالموضع فقط من أجل الثروة الزراعية المحلية الغنية ، بل أتى هذا الطمع البحرى – البرى للفوز بالموضع والموقع معا ٠

انهم الفلسطينيين القوة البحرية التى قدمت من جز غرب البحر المتوسط لتسبغ على هذه الحقبة لقب « العصر الحديدى » أتت لتستقر جنوب السهل الساحلى العربى الكنعانى بعد أن قاموا بمعارك ضارية فى الشمال مع الحيثيين وفى الجنوب مع المصريين ٠

فقد أخبرتنا وثائق رمسيس الثالث ان الفلسطينيين دمروا فى معاركهم Alashia ومملكة الحيثيين حتى وصلوا أبواب مصر ٠

وهكذا برز لأول مرة اسم « الفلسطينيين » على نقوش رمسيس الثالث فى العام الثامن من حكمه سنة ١١٧٠ ق٠م أثناء حملاته العسكرية على أرض كنعان وسوريا (١) ٠

وأكدت الوثائق المصرية أن الفلسطينيين قدموا بمراكبهم البحرية التى تحمل أسرهم فى مجموعات عديدة منها – مجموعة تسمى « بليست p -r -s -t Philistines نسبة الى « بالستا » احدى الجزر اليونانية كما أتوا من كريت ٠

– ومجموعة ثانية تسمى « تكر » (Sikel» T.K.R. ويبدو أنها قريبة من « صقلية » ومجموعتان تدعيان s.k.r.s w.s.s

وقد ظهر اسم الأولى – كما بينا – على نقوش رمسيس الثالث الذى قام بصدهم وهم متجهون لمصر ودمر سفنهم مما دفعهم للاستقرار فى أقرب موقع لمصر وهو الجنوب الفلسطينى ، متخذين من مدينة غزة مستقرا لهم وما حولها

---

(١) A.N.E.T., pp. 262 and Aharoni, Ibid., p. 245-246.

من مدن عسقلان وجات « عراق المنيشة » وعكرومة « عاقر » واسدود متخذين من هذه المدن الخمس «Pentopolice» اتحـــادا كنفدراليا كنقطة ارتكاز لتنظيمهم السياسى وقاعدة انطلاق أرضية نحو البر والبحر ، فلكل مدينة حكمها الذاتى وحاكمها ويطلق عليه « سيرين » Seren (٢) ويبدو أن « اســـدود » استأثرت بأهمية خاصة لموقعها المتوسط .

ويطفو هنا سؤال لماذا كان التمركز الفلسطينى فى هذه المدن الجنوبية ؟ لأن هذه المنطقة الجنوبية كانت منطقة ارتطام عسكرى وثورة عارمة تتصـــدى باستمرار للقوى الفرعونية الغازية من الجنوب فقد شبت نيران الثورة العربية الكنعانية ضد أعتى الملوك الفراعنة تحتمس الثالث الذى اتخذ من غزة مركزا عسكريا واداريا مرموقا واستمرت البلاد فى حالة من الثورة ضد حلفائه ، امنحوتب الثانى وتحتمس الرابع ١٤٣٦ قبل الميلاد وولده امنحوتب الثـالث الذى استقر الأمن والهدوء لحد ما فى عصره لينتهى عصره ببداية الاضمحلال المصرى في فلسطين وسوريا وبدأت عناصر الخابيرو والشاسو تقلق الأمن وتضعف الحكم العسكرى لتنقضى بعدها القوى المصرية فى عهد الأسرة التاسعة عشرة على الجنوب الفلسطينى بقيادة سيتى الأول ضد بدو الجدوب ومن ثم يجبرهم على دفع الضرائب ويتخذ من غزة قلعة عسكرية له ، وهكذا برزت اســـماء المدن الجنوبية ومنها غزة فى عهد رمسيس الثانى سنة ١٢٠٤ قبل الميلاد .

هذه الضربات المتوالية على الجنوب يبدو انها أضعفت القوى المصرية كما أنهت السكان الأصليين المثلين فى العرب الكنعانيين الذين ظـلوا محتفظين بكيانهم القومى رافضين للاحتلال مما هيأ هذا الضعف والتخلخل الفرصـــة للفلسطينيين للاستقرار فى منطقة الضعف هذه والبعيدة عن بؤر الحضارات فى شمال مصر وشمال سوريا فاستوطنوا هذا الشريط الساحلى الملتصق بالبحر . كان هذا أول تأثير لقوة بحرية على الساحل الكنعانى مع نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقبلها كان هذا الشريط الساحلى تحت السيطرة المصرية القلقة متخذة من غزة ويافا قواعد لحمايتها العسكرية تسيطر بها وتتحكم على أعظم ممر برى عسكرى وتجارى فى ذاك العالم بالاضافة الى قاعدة بيسان العسكرية فى الداخل .

فقد ورد فى احدى قوائم رمسيس الثالث التى أشارت الى مجموعة مـن المدن الفلسطينية بلغ عددهـا ثمانية فى « حورو Huru » ـ فيهـــا غـزة ، واكتشف فى عسقلان معبد مصرى للاله « بتــاح » أيام حكم رمسيس الثالث

(٢) Meyer, Ibid, pp. 22-23.

الذى أتاح تدهوره المجال لتوسع النفوذ الفلسطينى فى عصره فبدأ عصر الثراء الحضارى والتكنولوجى لمدينة غزة وما حولها ، من مواقع استراتيجية بشكل مكثف فكانوا أول من انتقلوا وارتقوا من مرحلة البرونز الى عصر الحديد ، ليبثوها فى أرجاء المدن والمواقع فقد عثر على أوان فخارية عليها التأثيرات الايجابية والمكانية فى تل جمة كما عثر فيه على خوذ وكؤوس فلسطينية ترجع لسنة ١٣٢٠ قبل الميلاد ولسنة ١١٦٠ ق٠م وبين طبقات تل الفارعة اكتشفت قبور فلسطينية يرجع عهدها للفترة الواقعة ما بين سنتى ١٣٢٠ ــ ١٠٥٠ قبل الميلاد والتى عثر عليها فلندرز بترى وزميلاه ستاركى وهاردنغ سنة ١٩٣٦ ٠ كما تم العثور بالقرب من شاطىء دير البلح سنة ١٩٧٢ م على أوان فخارية وأدوات ترجع للعصر الفلسطينى عليها التأثيرات الايجابية والمكانية لتوضح التأثير والاتصال مع جزر جنوب أوربا ٠ وحول مدينة غزة عثر على كثير من الحفر كانت تستخدم لخزن الحبوب وشحنها الى ما وراء البحر أيام الفلسطينيين الذين كانوا محاربين أشداء استخدموا الخوذ الفولاذية والدروع والسيوف والسهام والنبال كما ابتدعوا فى صناعة الأدوات الزراعية فصنعوا المحراث الحديدى والأدوات المنزلية ٠

فكانت غزة وما حولها المدرسة الأولى التى استقبلت واستوعبت هذا المنهاج الحضارى والتكنولوجى ليمولها بالثراء ويمنحها القدرة على البقاء والصمود ٠

بدأ الاشعاع والاحتكاك الحضارى الفلسطينى بالتفاعل مع الحضارة الكنعانية ينتشر الى جيرانهم فى الشمال وهم « الفنيقيون » المتمركزون فى منطقة ساحلية يفتقر ظهرها للمقومات الزراعية الوفيرة فجاء التشجيع الفلسطينى للفينيقيين حافزا لايجاد مصدر رزق آخر وذلك بحفزهم للتوغل فى عمق البحر المتوسط مما خلق لهم قوة بحرية لأكثر من ألف سنة أنتجت عائدا هائلا من الحضارة والثراء للبشرية ٠

ويمكننا الآن أن نتخيل الخريطة السياسية الفلسطينية التى أصبح يتقاسمها الفينيقيون فى أطرافها الشمالية كمجموعة عربية كنعانية استوطنت الساحل والشمال الفلسطينى ، تساندها وتتحفز لها فى الشمال القوة الحيثية ٠ والفلسطينيون على طول الساحل الفلسطينى الجنوبى بعمق يصل حتى أقدام السفوح الجبلية الوسطى شرقا ٠ أما المنطقة الجبلية الوسطى فتمركزت فوقها القبائل العربية الكنعانية التى أشادت مدنها وحضاراتها ممثلة فى مدنها « نابلس ويبوس » (القدس) واستوطنها اليبوسيون « وأربع » (الخليل) ،

---

(٣) Petri, Ibid, Pet Pelet, pp. 30-32.

الذى أنشأها القائد العربى العناقى الكنعانى « أربع » • وقد تسللت ولأول مرة فى التاريخ قبائل عبرانية عبرت نهر الاردن بقيادة يوشع سنة ١١٨٦ قبل الميلاد كما يرى بترى • وأخذت تتحفز للفلسطينيين والكنعانيين جنوبا القـوة المصرية •

ولما لهذه القبائل العبرانية من دلالات فى المنطقة علينا أن نتذكر بأنها قدمت للمنطقة وقد سبقتها حضارة عربية كنعانية استغرقت من التاريخ المدون اكثر من الفى عام أنشأت فيها المدن وحفرت الآبار وزرعت القمح والشـعير والأعشاب ، وسبقها التواجد الفلسطينى غربا بحضـارة وافدة أثرت المنطقة حضاريا وادخلت الرعب فى قلوب من حولها عسكريا •

فبماذا أمدت القبائل العبرانية المنطقة وما دورها فى ازكاء الحضارة ؟

على الرغم من التناقضات بين ما جاء فى « التوراة » وما أثبتته الدراسات الاركيولوجية وبالرغم من معرفتنا المسبقة عن أن كتابه التوراة قد نسخت بعد قرون من فقدانها وفقا لما يذكره بعض رجال الدين من اليهود مما يجعلنا أكثر تحفظا للأخذ بها كمرجع • الا اننا سنأخذ بما جاء بها للرد على السؤال المتضمن لدور القبائل العبرانية التى دخلت المنطقة الجبلية الوسطى من فلسطين •

بعد أن دخلت هذه القبائل بقيـادة يوشع بن نون الأراضى العربيـة الكنعانية مستخدمة وسائل التدمير والحرق للزرع والضرع ولم تقو بعدها على دخول المدن الكنعانية بل آثرت حياة العزلة والتنقل حول المدن وليس بداخلها لعدم قدرتها على التأقلم مع سكان المدن فى يبوس « القدس » وأربع « الخليل » وكانت ترى فى هذه المدن بأنها مدن عربية « فيفضلون سكنى الهوامش والظهير المدنى فيما يطلقون عليه « الحقل » التى كثر ذكرها فى التوراة دون دخـول المدن • (وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جدا قال الغلام لسيده تعال نميل الى مدينـة اليبوسيين هذه ونبيت فيها فقال له سيده لا نميل الى مدينة عربيـة حيث ليس أحد من بنى اسرائيل هنا ») « قضاة ١٩ : ١١ ــ ١٢ » هذا ما جاء فى التوراة •

هذا الابتعاد من القبائل العبرانية لسكنى المدن الكنعانية يعكس التباين والتنافر فى المستوى المعيشى بين الحياة البدوية وحياة الاستقرار والحضارة المدنية ، فبدأ انتشـارهم وسياحتهم فوق المناطق الجبلية الوسطى من « دان الى بئر السبع » قضاة (٢٠ : ١ ــ ٢٠) ولم يتعد هذا المجال ولم يتجرأوا على الاقتراب من الساحل الفلسطينى (« وجاء يوشـع فى ذلك الوقت وطـرد العناقيين من الجبل من حيرون ومن دبير ومن عناب •• فلم يتبق عناقيون فى أرض اسرائيل لكن بقوا فى غزة وجت واشدود ») يوشع ١١ : ٣٠ » لماذا ؟

لأن القبائل العربية العناقية الكنعانية قوم أشــداء فلم يستطيعوا ملاحقتهم والسيطرة على مدينة غزة على الرغم من وجود هذه القبائل حتى أثناء التواجد العبرانى كما سيتضح ٠٠ لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على غزة وما جاورها فتقول التوراة (لقد كان الاله يهوذا الذى سيطر على المناطق الجبلية ولم يستطع قيادة سكان السهول لأن لديهم مراكب حديدية ») قضاة ١ : ١٩ ٠ فاتجهوا بالتالى نحو الشرق لاقامة عـلاقاتهم مع من فى مستواهم ليقاتلوا المديانيين ورؤساءهم « عدد ٣١ : ٨ » كما حاربوا العمالقة كقبائل عربية امتازوا بكثرة عددهم (لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد فى الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد) ٠ قضاة ٦ : ٦ « حتى شملت مناوشاتهم شرقا قبائل بنى عمون » قضاة ٣ : ١٤ » ٠

وعلى هذا الحال من القتال والمناوشات عاشت القبائل العبرانية قرابة قرنين من الزمان مع القبائل العربية بفروعها المختلفة شرقى المنـاطق الجبلية وجنوبها ـ تسلم خلالهـا داود العرش سـنة ١٠١٠ ق٠م ـ كانت استمرارا للقتال ، وطيلة هذه المدة لم تسترع هذه المعارك أو المناوشات المحلية انتباه القوة الفلسطينية على الساحل كقوة عظيمة لأن هذه القبائل لم تكن ذات ثقل عسكرى يستحق الاهتمام ٠ فهم أى الفلسطينيون منكبون بالاهتمام التجارى والعسكرى وهم الآن المسيطرون على مدينة غزة وعسقلان حتى الكرمل ٠٠ وأخذوا يعززوها بالقلاع والحصون لمواجهة بعض المناوشات القادمة من الشرق احيانا ٠ ولكى يستفيدوا من موقعهم التجارى وما يفرضوه من ضرائب على السـلع من تجارة المرور » ٠

واذا كان الفلسطينيون لا يملكون أية ثروة من تجـارة المرور والبحر المتوسط ، فمن اين المصادر المالية التى مكنتهم من تحصين مدنهم ومنحتهم هذه القوة العسكرية الجبارة ؟! ٠ خاصة وان موارد الثروة الطبيعيـة المحيطة ـ قليلة ، فبالطبع كانت التجارة والصناعات الحديدية التى باعوا منها لما حولهم من القبائل ٠ ولما كان المصريون مهتمين بالطريق الساحلى الذى هـو مجـالهم الحيوى تجاريا وعسكريا ويربطهم بالأم فى الشمال فربما استطاعوا اغـراء الفلسطينيين بالعمل معهم لتأمين هذا الطريق فكان حسـن الجوار والمعـاملة لأننا نرى أن معظم الآثار الفلسطينية جنبا الى جنب مع الفرعونية فى غزة ـ ودير البلح وتل جمه وتل الفارعة ورفح ويافا وجازر ومجدو حتى بيسـان كأهم قواعد كنعانية ـ مصرية ـ فلسطينية على طريق الساحل وبالقرب منه ٠

ومع انتهاء القرن الحادى عشر قبل الميلاد كانت الخريطة السياسـية لفلسطين تتقاسمها قوتان هما الفينيقية فى الشمال والفلسـطينية فى الجنوب ويسودهم جو من حسن الجوار فلم يتدخل الفينيقيون فى جـو العـلاقات

الفلسطينية المصرية ولم يتوسعوا فى اتجاه الاراضى الفلسطينية جنوبا وبادلهم الفلسطينيون بدورهم بعدم التدخل فى شئونهم التجارية والبحرية فقد وصل النشاط التجارى والبحرى الفينيقى شمالا حتى اللاذقية والاسكندرية وانتشرت جالياتهم التجارية فى الموانىء الفلسطينية فى غزة والعريش « ونيوكولورا » جنوبا بل لقد كانت لهم جاليات فى « منف » العاصمة المصرية (٤) .

ويبدو أن منطقة « دور » وهى « الطنطورة » الساحلية كانت تمثل الحد الفاصل بين الفلسطينيين والفينيقيين ممتدة من شمال ومن جنوب المدينة كمنطقة عازلة . وكانت تكتنفها الرمال والأحراش والمستنقعات مما حدا بالطريق الساحلى للمرور شرقها ، حتى ان بعض القبائل العبرانية عندما حاولت الاقتراب من هذه المنطقة اصطدمت فورا بالفلسطينيين فى معركة « أفيق » « صموئيل الأول ٢٩ : ١ » والذى انتصر الفلسطينيون عليهم كحد فلسطينى على أرض الكنعانيين مع الفنيقيين فالعلاقة اذا ما زالت غير جيدة بين الفلسطينين والقبائل اليهودية التى لم تحدث أية تغييرات ذات أثر ولم تصل للساحل (٥) حتى فترة حكم داود لها . ومما هو جدير بالذكر هنا ولتوضيح ذلك أكثر ظهور اسم « اسرائيل » لأول مرة فى عصر مرنفتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م على لوحة منقوش عليها هذا الاسم عثر عليها فى « طيبة » وصفت فيها اسرائيل بأنها « بغير بذور No Seed فى الوقت الذى أطلق على أرض فلسطين وسوريا وعلى نفس اللوحة أرض الحورو «khor» فقد درجت الكتابة الهيروغلوفية أن تضع قرين كل اسم صورة أو رسم للأرض الذى يعيش فوقها فعندما كانت تذكر سكان الجبال تضع صورة لاناس وأمامهم صورة للجبال أو رسم لأرض سهلة أمام أناس للكناية بأنهم سكان سهول .

ولكن عندما جاء ذكر اسم « اسرائيل » لم يلحق أمامها سوى رسم لرجل وامرأة فقط دون رسم لأرض . للدلالة على اناس كانوا يعيشون متنقلين لا أرض ولا ملكية لهم فقد جاء على النقش تلك القصيدة :

(ونهبت كنعان بكل سوء .. وأخذت عسقلان وقبضت جازر (٧)

وجعلت يانو عام كأن لم تكن .. واسرائيل ضربت وانعدمت بذورها)

---

(٤) د. محمد غلاب - الشكل الفينيقى وظهيره - بيروت ، ١٩٦٩ ص ١٦

(٥) I.E.J., Vol. 6, 1956, p. 39.

(٦) P.H. Newby, The egyptian story, Italy, Abbeville Press, p. 55.

(٧) Pritchard, Ancient Near East Text Relating to the old Testement, princeton, 1929, p. 378.

وفى عهد مرنفتاح هذا جاء ذكر مدينة غزة ضمن مذكرات ضابط حدود جاء فيها : —

(A servant of Ba'al 'e'-ti-y' The son of Sa-pu-ira of Ga-sa-y)

لقد أتى سليمان بعد موت أبيه داود ليضع لنفسه وقبائله عنصرا أكثر أمنا وهدوءا (وكان له صلح من جميع جوانبه حواليه) « الملوك الأول ٤ : ٣٥ » فاستطاع أن يستغل موقعه الوسيط فوق المرتفعات واتخذ من هذا الموقع الجغرافى منطقة عبور للقوافل التجارية المارة بجمالها بين الفينقيين وأرض الرافدين من ناحية وبينه وبين الأمم والممالك الجنوبية عبر البحر الأحمر • الا أننا لا نستطيع أن نرسم صورة واضحة عن التجارة فى عصره لنبين أو نقيم فعاليتها الاقتصادية ومدى رواجها فمن النادر جدا ان نرى فى التوراة اهتماما واضحا للجوانب الاقتصادية أو التجارية باستثناء ذكر — وبأسلوب عرضى — بعض القوافل التى مرت بفلسطين متجهة نحو مصر وأخذت معها يوسف « تكوين ٣٧ : ٢٥ — ٥٨ » وما قدمه سليمان من قمح وزيت للملك الفينيقى « حيرام » عندما رفض الأخير أن يأخذ ذهبا مقابل ما أنجزه خبراؤه (فى بناء بيت الرب وبقية القلعة وسور أورشليم وحاصور ومجدو وجازر) « الملوك الأول ٥ : ١٠ — ١١ ») ونجح سليمان فى استغلال موقعه الجغرافى بين الحيثيين فى الشمال والمصريين فى الجنوب فى تبادل الخيول والعربات « الملوك الأول ١٠ : ٢٨ — ٢٩ » • كما كانت له صلة بمملكة سبأ التى أتت له بالذهب والطيب والحجارة الكريمة « الملوك الأول ١٠ : ١ » على الرغم من عدم وجود أدلة كافية لتوضيح أو تقدير نوع هذه الصلة وكمها ، وهل هى صلات قائمة على الاعجاب الشخصى بين ملكة سبأ وما تسمعه من حكمة سليمان وقدراته الفائقة أم هى علاقة تجارية محضة بين مجموعتين من السكان ؟ •

كما حاول سليمان اقامة سفن له فى ميناء عصيون جابر « ايلات » على شاطىء بحر سوف (البحر الأحمر) الواقعة ضمن الأراضى العربية الأدومية بمعونة (الفينيقيين الذين أرسلوا عبيدهم النواتى العارفين بالبحر) « صموئيل ٩ : ٢٦ — ٢٨ » لعدم توافر الخبرة والدراية اليهودية بركوب البحر وصناعة السفن •

---

(٨) Meyer, Ibid, p. 23.

ندرك من كل هذا أن الصانع الوحيد لهذا الازدهار السليمانى هو « حيرام الفينيقى » بما يمتلكه من خبرة وطاقات مدربة لهـا جذورها العميقـة فى التاريخ .

كما نرى ان فترة حكم كل من داود وابنه سليمان تميزت بعدم السيطرة على المدن الفلسطينية وبصفة رئيسية على غزة وحتى جازر التى كانت هـدفا للغزوات الفرعونية . وربما كان للمصاهرة بين فرعون مصر وسليمان الأثر فى عدم توغل الحملات المصرية نحو الداخل فى اتجاه المنطقة الجبلية الوسطى أكثر من التفسير القائل بأن المصريين لم تكن لديهم القوة الكامنة للتغلغل نحو مركز سليمان بل هناك قول بأن سليمان اسـتنجد بالمصريين ضـد المتمردين الكنعانيين فى « جازر » على الرغم من أنها حصنت على يد الفينيقيين مما جعلها تلعب الدور الحدودى ، بل قام أحد الفراعنة بتقديم قلاع جازر الكنعانية هذه وتحصيناتها هبة لسليمان ، وهـذا يعتبر أول تدخل فى الشـئون الداخلية الفلسطينية منذ عهد رمسيس الثالث (٩) .

وعليه لم تصل القبائل اليهودية المنهكة الى الساحل الكنعانى والفلسطينى قط وبقيت هذه المدن الساحلية تنعم بتجارتها .

وبموت سليمان انقسمت هذه القبائل اليهودية على نفسـها لتتمـركز احداها فى الشمال ٩٣٠ ـ ٧١٢ ق . م والأخرى فى الجنوب ٩٣٠ ـ ٥٨٦ ق.م .. وهذا يقودنا لرحلة أخرى جديدة من العصر الحديدى .

العصر الحديدى الوسيط والحديث ٩٣٠ ـ ٥٨٦ قبل الميلاد .

تعرضت فلسطين لحمـلة شيشنق سنة ٩٢٦ قبـل الميلاد فى السنة الخامسة من انقسام القبائل اليهودية على نفسها مما دفعه للتوجه نحو المناطق الداخلية ولأول مرة ـ تذهب فيها القوة الفرعونية نحو المناطق الجبلية التى لم تغز قط من قبل أى فرعون سابق ، وربما يرجع ذلك لمكانتها التى تبلورت أيام سليمان كطريق جديد يربط الشمال بالجنوب نحو ميناء « عصيون جابر » الأدومى كمنفذ نحو البحر الأحمر ومن خلفه الممالك العربيـة بحيث أصبح ممرا وطريقا ينافس الطريق الساحلى التقليدى (طريق الفرعون أو حوريس).

فمن خلال تتبع سير الحملة والتى يرى السـيد Meyer أنها لا تقل عن كونها « غارات » على النمط القديم أكثر منها احتلالا (١٠) ونرى المدن التى ذكرها فى حملته ومنها غزة التى جاء اسمها على الجدار القبلى لمعبد الكرنك

(٩) Meyer, Ibid, p.. 33.

(١٠) Meyer, Ibid, pp. 33.

كأول مدينة استولى عليها لتوضيح مكانتها الاستراتيجية والتى يبدو أنها لم تبد أية مقاومة ضد المصريين لتواصل من بعـــدها الحمـلة نحو مدينة جازر الحدودية ولتخرج منها الحملة متوجهة نحو « القدس » وأخرى اندفعت شرق غزة (أنظر الخريطة رقم ١٢) مستهدفة بذلك ضمان السيطرة على الطريق الجبلية الوسطى فى فلسطين ومن ثم قطع دابر المواصلات الداخلية المتجهة نحو البحر الأحمر والقضاء على كل تجارة تتخذ من هذا الطريق ممرا لها ٠

فقد دلت الحفريات التى قام بها Clueck « جلوك » على مدى ما عاناه ميناء عصيون جابر (ايلات) من التدمير فى القرن التاسع قبل الميلاد (١١) بعد فترة من الانتعاش التجارى الفينيقى حيث كانوا يجلبون الملابس الارجوانية والزجاج والحلى بالاضافة لشهرتهم الفائقة فى صناعة الصوف والنبيذ والزيت فى الشرق دون منافس (١٢) ٠ فدمرت الحملة الميناء وقطعت الطريق واستولت على القدس وخزائنها السليمانية « الملوك الأول ١٤ : ٢٢ ــ ٢٥ » ٠

ومما جاء من أسماء حملة شيشنق لأول مرة مدينة لابان « Laban جنبا لجنب مع رفح ويبدو أن لابان ٠٠ هذه تقع بالقرب من الشيخ زويد الآن على « تلة أبو سليمة » ٠ والتى أجرى الحفر فيها فلندرز بترى (١٣) ، وذلك لتعزيز المكانة العسكرية للمصريين فى سيناء التى تمصرت منذ الأسرة الحادية عشرة (١٤) ٠ فأصبحت تمثل نقاط دفاعية فى العمق ٠ وسندا ــ كما سنرى ــ للمدن العربية الفلسطينية وبوجه خاص رفح وغزة ٠

وحتى الآن نجد مدينة غزة تحتفظ بكامل ســماتها العربيــة الكنعانية الفلسطينية فمازالت الأرض الفلسطينية وأبرزها غزة وصيدا رصــيدا فلسطينا زاخرا وثريا فهى من المدن الواقعة فى الجنوب والقريبة من مصر الفرعونية التى تواءمت مع الفلسطينيين بحسن الجوار وتوطيد العلاقات الاقتصادية بحيث أسند الفلسطينيون ظهورهم جنوبا وهم مطمئنون ، فلم يعد هناك مصدر للقلاقل الا ووجهته الشمال أو مصدره الشرق من بعض القبائل اليهودية ٠

فحدود السيطرة الفلسطينية ليس من السهل تحديدها بحدود جغرافية ثابتة لأنها كانت دوما عرضة للمد والجزر مع القبائل اليهودية شرقا والتى لم تجدبهم لحرصهم على الاحتفاظ بالطريق التجارى والعسكرى الساحلى الهـام

---

(١١) N. Gluck, The other. Side of Jordan, New Haven, 1945, p. 99.

(١٢) Raux, Ancient Iraq, ibid, p. 244.

(١٣) W. M. Flinders petri, Anthedon, London, 1937, and ANET, p. 286.

(١٤) غالى ــ سيناء المصرية عبر التاريخ ــ المرجع السابق ص ٧٠ ٠

خريطة (١٢) حملة شيشنق /٩٢٤ قبل الميلاد

ولما أبداه المصريون من اهتمـــام له مما دفعهم أن يتفقـــوا مع الفسطينيين للاهتمام به .

لكن مما لا شك فيه ان هناك منطقة جغرافية ثابتة تميز بها الاستقرار الفلسطينى بشيء من الثبات لتضفى دلالة على قوتهم وقدرتهم الدفاعية ممثلة فى السهل الساحلى الجنوبى لأرض كنعان ابتداء من رفح وغزة حتى «اسدود» مما أضفى على مدينة غزة صفة الاستمرار والبقاء ٠

ولعل انتشار الأوانى الفخارية وبعض الأدوات الفلســـطينية ما يوضح مراكز تواجدهم فمن خلال المسح الذى أجراه السيد «أولبرايت W. F. Albright فى منطقة قريبة من « عراق المنيشة » أثبت أن هناك مدنا ترجع للعصر الحديدى الفلســـطينى أقيمت فوق تلال بسيطة (١٥) ٠ كمـــا عثر على قدوة فخـــارية فلسطينية على السفوح الغربية لهضبة الخليل فى خربة « سكة » لتدلل على مدى توغلهم شرقا كما تم العثور على أوان فخارية فلسطينية فى « تل الحسى » فى الطبقة الثالثة منها (١٦) والى الشمال فقد تم التنقيب والعثور على مدينة كانت بمثابة ميناء فلسطينى صغير تقع على الحافة الشمالية لنهر « العوجاء » (*) كما تؤكد الآثار على التواجد الفلسطينى فى مدينة أفيق (١٧) وانتشـــارهم شمالا فتأكد وجودهم من خلال آثارهم فى بيسان ٠ وجنوبا تم العثور أخيرا على توابيت واوانى فخارية فلسطينية بالقرب من شاطىء دير البلح كما ســـبق أن ذكرنا آنفا » وتعزز الوجود الفلسطينى فى المواضع القديمة شرقا فى تل الفارعة وتل جمه فى بئر السبع شرقا ٠ بل ويقال أن أبيمـــالك الفلسطينى اتخذ من تل جمه « جيرار » عاصمة له ٠ ولقد عثر على قبور فلسطينية فى تل الفارعة فالقوة الفلسطينية كانت كفيلة بحفظ تواجدها فوق هـــذه الساحة فالجندى الفلسطينى تميز بقوته وتقدمه فى استخدام أدوات القتال الحديدية وتزويده بالخوذ والدروع والأسلحة الحديدية والنحاسية والملابس العسكرية التى كانت تلقى الرعب فى نفوس اليهود كما جاء فى التوراة « صموئيل ٧ : ١ ـ ٨ »٠

استطاعت غزة فى الفترة الفلسطينية أن تصل الى ذروة مجدها الاقتصادى والعمرانى حتى قيل انه تم تسويرها بسور ضخم يحيط بها حتى اضحى اسمها يعنى كل الأرض الفلسطينية كما جاءت فى قائمة شيشنق ، فكثيرا ما كانت تبدى الولاء والطاعة للمصريين اكثر مما تقاومهم ٠

---

(١٥) W. F. Albright, A.A.S.O.R., 2-3, 1923, p. 11.

(١٦) Aharoni, Ibid, p. 247.

(١٧) B. Mazar, I.E.J. 1950, 51, pp. 61.

(*) نهر صغير يطلق عليه نهر يافا وينبع من رأس العين شمال شرق مدينة يافا بعشرين كيلومترا ٠

أما تل العجول ٠ فيبدو أنها حافظت على مكانتها فى عصر الفلسطينيين فقد عثر بترى على « محرقة » لصهر الحديد فيها تماما كما وجد فى عديد من المدن الفلسطينية خاصة فوق تلك الواقعة على نهر العوجاء ٠ ووجود هذه المحرقة فى تل العجول يدفعنا للتساؤل عن مصدر الحديد الخام والأخشاب المستخدمة أصهره من أين كان يؤتى بها ؟ خاصـــة عندما يؤكد العلماء بأن كل طن من الحديد يحتاج لصهره اثنى عشر طنا من الأخشاب ٠

فالحديد ربما كان يجلب من الجنوب فى وادى عربة وسيناء فالعلاقة قديمة بين تلك المناجم بسيناء والجنـوب الكنعانى وبين الفينيقيين كما وضحنا سابقا واستمرت كذلك مع الفلسطينيين ٠

أما الأخشاب فمصدرها الســـاحل الفينيقى والتى كانت لهم جالياتهم المنتشرة فى مدن السواحل ومنها غزة لكثرة أمطارها عن الجنوب الفلسطينى فاستورده الفلســطينيون اما عن طريق البحر أو البر فتجـارة الأخشاب بين الفينيقيين فى الشمال وسكان الجنوب الكنعانى أو المصريين كانت رائجة لما بعد ذلك وحتى العصر البيزنطى كما أثبتته الآثار الموجودة على ساحل مدينة غزة ٠

يؤكد هذا مكانة « تل العجول » كثغر فلسطينى وقلعة حصينة تمولهم بالصناعات المختلفة مثل « المحراث الفلسطينى » لحرث الأرض (١٨) ٠

يتبقى لنا ســـؤال لماذا لم يكن فى غزة محرقة ؟ والجـواب يبقى معلقـــا للقصور والنقص فى الحفر والدراســـة الاركيولوجية فى داخل المدينة أو ما حولها حتى الآن ٠ وربما كانت تل العجول ملحقة بغزة وتغنيها عن هــذه الصناعة بما تقدمه لها ٠

أما رفح Raphiku فيبدو أنهــــا تبلورت كمدينة حصينة لهـــا الطابع العسكرى المتقدم والتى تلعب دور المدينة الدولة ذات المسحة الدفاعية على النسق الأكروبوليسى حيث احتلت تلة مرتفعة يقرب مساحة قمتها أقل قليلا من ٢٠٠ متر مربع مزدهرة بالعصر الفلسطينى ومما أثرى هذا الازدهار انشاء مدن مصرية قريبة منها بدأ اسمها يقترن مباشرة معها وهى مدينة « لابان » Laban التى أشرنا اليه مع حملة شيشنق ٠

بدأ هؤلاء الفلسطينيون فى الذوبان داخل البوتقة العربيـــة الكنعانية ذات التراث المكين مثلهم مثل الأمم السابقة فتأثروا بالحياة العربية الكنعانية

Mohamed Raid, Bulletin de la Société de géographie D'Egypte, Tom xxxiii, Cairo, 1977, Plate VII.

فأخذوا أسماءهم وتدينوا بدياناتهم وأخذوا يعبدون الههم « داجون » فأصبحوا كنعانيين دما ولحما ولم تبق سوى بعض النظم الادارية والسياسية ذات الطابع الفلسطينى ٠

الغزو الأشــورى :

مع نهاية القرن التاسع قبل الميلاد وبداية القرن الثامن تعرضت البلاد للغزو الأشورى يحدوهم السيطرة على هذا الممر الاستراتيجى الهام الواصل بين مراكز القوة والسيطرة العالمية وتغريهم موارده ومدخولاته الثمينة والتى عبرت عنها قوائم الضرائب التى دفعتها مدن الوحدات الســياســية ـ اذا جاز التعبير ـ أو شعوبها بنظامها القبلى فاستولى القائد الأشورى Adad-Nirari ٨١٠ ـ ٧٨٣ قبل الميلاد «١٩» على المنطقة فقدم له الفلسطينيون والأدوميون والفينيقيون والقبائل اليهودية الضرائب وهى جميعا قبائل عربية استوطنت فيها القبائل الأدومية أراضى النقب وحتى البحر الأحمر وشمالا حتى مرتفعات البحر الميت فقد وصف ميناء عيون جابر على خليج العقبة فى عهد سليمان بأنه فى أرض الأدميون « الملوك : ٢٦ ـ ٢٨ » ٠

واستمرت هذه الأقوام فوق هذه الأرض مع مطلع عام ٧١٤ قبل الميلاد عندما استولى « تفلات بلاسر » Tighate Plssser على مدن عديدة متجها نحو غزة وكان ملكها يدعى « حانو » Hanno والتى هى من أغنى المدن الفلسطينية لموقعها الجغرافى الذى جلب لها الدخل الوفير ولأهميتهـــا بالنسبة للقبائل العربية فلم ينتظر « حانو » قدوم الأشوريين بل هرب الى Musri التى يقال بأنها مصر « ان لم يكن مكان يقع شمال شبه الجزيرة العربية) (٢٠) فنقل الأشوريون من غزة الهها وأخذوا فى جباية الضرائب والجزية معـــددا اياها فقد جاء فى أحد النقوش ما يلى : ـ

أخذت الجزية من سيبتى بيل (بل) من بيبلوس ومن أينل من حماة ، وفاناسو من سمأل (مملكة آرامين) وما تنبى من أرواد ويهـــوة هاذى من يهوذا ، آدوما « أدوم » وهانؤ وتو (هانو) من جازا (غزة)] (٢١) توزيع جغرافى لجميع الوحدات السياسية فى المنطقة وانفراد غزة هنـــا يعنى مدى أهميتها كوحدة تحمل اسم فلسطين ولعله من الطريف هنا أن نذكـر بعضـا من قائمة البضائع التى دفعتها غزة كضرائب منها « الذهب والفضة والحديد

(١٩) Raux, Ancient Iraq, Ibid, p. 373.

(٢٠) Meyer, Ibid ,pp. 34-35.

(٢١) الشيخ نسيب وهيب الخازن ـ من الساميين الى العرب ـ بيروت ـ ١٩٦٢ ص ١٥٤ ٠

والرصاص وملابس ملونة وأوعية فخارية ومن منسوجات البحر (الأســماك) ومنتجات البر ــ وخيول ــ وأسرجة لها ... الخ » (٢٢) لتبرز جميعها المكانة الاقتصادية للمدينة والثراء الذى كانت تنعم به ٠

فى هذه الأثناء وصلت القبائل اليهودية فى الشمال (فى نابلس) الى حد الاحتضار لأن هذه القبائل كانت تعيش على هامش مناطق الثراء فى الساحل وفتتتها التناحرات الداخلية فيما بينها ، وكان مركز الثقل السياسى والقـومى ممثلا فى النطاق الساحلى الجنوبى فى غزة وعسقلان ورفح التى قاومت بشدة الاحتلال الأشورى فقد شكل كل من أمير غزة « حانو » الذى عاد من بعـد فراره الى غزة ليشكل وحدة مع أمير عسقلان للتصدى لسرجون الثانى ٧٢٢ ــ ٨٢١ ق.م ٠ ثانية ربما كان يؤازره أيضا « سايبى Sibi » ملك مصر ؟ Musri فجميع المدن الفلسطينية قد تعانقت لقهر الغازى الاشورى باستثناء القبائل اليهودية فى جنوب المرتفعات الوسطى التى بقيت راضيـة للسيطرة الأشورية فبادر سرجون وبسرعة قبل تبلور التجمع الفلسطينى وهاجمهم حتى وصل الى أقصى الجنـوب الفلســطينى ليقابل « هانو » وســايبى فى مدينة رفح Raphiku لينتصر عليهم فتمكن من الفـرار الى بـلاده فى حـين أسر حانو أمير غزة وأرسل الى آشور ونقل اله غزة الى الخارج مرة ثانية ٠

ويبدو أن غزة ورفح لم ترضيا بهذا الاحتلال فعاودتا الثورة من جـديد لتأخذا دور الثقل الثورى ضد الغزاة القادمين من الشـمال وربما سـاندها وأيدها فى ذلك قرب التواجد المصرى لها فى « لابان » (القريبة من الشيخ زويد الآن) ٠

فعاد سرجون الثانى مرة ثانية لمدينة غزة ورفح ٧١٣ ــ ٧١٢ قبل الميلاد فدك المدينة وقام بتدمير معظمها ليجبر السكان على الخروج مما دفع أميرها « ايمانى » الى الفرار الى مصر ظهيره السياسى (٢٣) لتبدأ من بعد ذلك سلطة الأشوراين فى الاستقرار فنقلوا جميع أختام غزة الذى أطلق عليها اسم «مارنا»

ومات سرجون سنة ٧٠٥ قبل الميلاد ليخلفه ولده « سنحاريب » وبمجرد اعتلائه على العرش قام الفلسطينيون بثـورة ضـده وعلى رأسها مدينة غزة واشتعلت حتى وصلت الى عقر داره فى بلاد الرافدين فأخمد جميع المتمردين فى بلاد الرافدين ليتجه نحوالفينيقيين حتى عكا واصفا جميع هذه المدن بأنها كانت محصنة ويقودها ملك « صيدا العظيمة » حتى وصـل سـنة ٧٠١ قبل الميلاد لى الساحل الفلسطينى الجنوبى فاستولى على عسقـلان وأسر ملكهـا

(٢٢) Meyer, Ibid, pp. 35.

(٢٣) Raux, Ancient Iraq, ibid, p. 202.

« صدقيا » Sidqa ليتجه بعدها الى غزة ومن بعدها شرقا للهضاب الوسطى نحو القبائل اليهودية فأسلم زمام أمرهم الى ملوك غزة وأسدود وعاقر فكانت هذه الضربة هى بداية النهاية لتقويض القبائل اليهودية منهكا اياها بالضرائب الباهظة التى قدرت بنحو ٣٠٠ وزنة من الذهب و ٨٠٠ وزنة من الفضة بالاضافة للمجوهرات (٢٤) . يبدو من ذلك أن الأشوريين كان اهتمامهم منصبا على جمع الضرائب دون الالتفات كثيرا نحو الجوانب السياسية أو الادارية بحيث لم يطرأ على الخريطة السياسية الفلسطينية أية تغيرات ، كما أنهم كقوة برية لم يستغلوا البحر كوسيلة للمواصلات وبالتالى بقيت غزة وما جاورها مدننا طغى عليها الجانب العسكرى . ومما يجذب الانتباه ظهور اسم « مارنا » لأول مرة فى هذه الفترة مقترنا باسم غزة فربما مرد ذلك لوجود تماثيل أو آلهة للمدينة تحمل هذا الاسم — كما سنرى — وقد أطلق على ميناء غزة فى الفترة الرومانية اسم « مارنا » . فهل يعنى ذلك أن منشأ هذا الميناء بدأ فى القوة الاشورية التى هى قوة برية لم تلتفت للبحر ؟ هذا ما سنوضحه فى حينه .

أشارت الوثائق الاشورية بأن سنحاريب قد قتل عام ٦٨١ قبل الميلاد ليخلفه ولده أسرحدون Esarhaddon (٦٨١ — ٦٦٩ قم) الذى وصلت الامبراطورية فى ظله الى أوج عظمتها وقمة مجدها وأقصى توسعها محققا بذلك حلم آشور القديم بهزيمة مصر سنة ٦٧٠ قم (٢٥) فدفعت له غزة الضرائب Silbel . وأصبح الساحل الفينيقى ومعه الفلسطينى يجمع مدنها المحصنة تحت قيادته فتعرضوا لأقسى أيامهم بدفع الضرائب الباهظة ليحقق من بعدها نوعا من الاستقرار والهدوء فكان لابد للفنيقيين الاندفاع نحو البحر مستغلين أقصى امتداد وعمق له ليلتفوا حول رأس الرجاء الصالح قبل طواف داجاما بألفى عام (٢٦) ليجلبوا ويكسبوا ما يعوضهم عما يدفعونه من ضرائب باهظة للأشوريين التى ربما تعكس ثراء هذه الشعوب أو شراهة المحتلين .. فقد أبانت سجلات أسر حدون أسماء ملوك المدن التى دفعت له الضرائب وهم ملوك صور وبيبلوس فى فينيقيا وآدوم ومؤاب وغزة وعسقلان وعكرون « عاقر » أسدود . كما ورد ذكر هزيمة ملك « أوزرا » وهى تل جمة كموقع ومدينة عسكرية شرق غزة ظلت محتفظة بتواجدها حتى هذه الفترة . كما أخبرنا « اسرحدون » فى أثناء حملته ضد مصر سنة ٦٧١ ق.م بأنه استولى

---

(٢٥) Aharoni, Ibid, pp. 338-340.

(٢٤) Meyer, Ibid p. 35.

(٢٦) مستر فلاير — المقتطف — الجزء السابع — السنة السادسة عشرة — عدد ابريل سنة ١٨٩٣ ص ٤٥٠ — ٤٥٢ .

على رفح واصفا موقعها بأنه قريب من نهر مصر Brook of Egypt (وادى العريش) حيث واجه صعوبات عندها •

هذا التوزيع الجغرافى بوحداته السياسية استمر متماسكا وخالدا ومنها غزة فى حين بدأت أسماء القبائل اليهودية فى الزوال من هذه القوائم لقد لعبت مدينة غزة دورا قياديا وثوريا عالميا ضد الغزو الاشورى خاصة خلال حكم سنحاريب وخلفائه (٢٧) •

فلم تكف الثورة ضد الغزاة حتى خلف أشور بانيبال Assurbannipal الحكم بعد وفاة والده « اسرحدون » سنة ٦٦٨ ق•م فحاول السير على خطوات والده وقام فى عصر « أسل » بعل غزة A sil-Baal بدفع الضرائب له • وما ان جاءت سنة ٦٥٢ قبل الميلاد حتى هبت جميع شعوب الامبراطورية الاشورية بحركة تمرد ضخمة شملت عيلام ـ وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وحاول القضاء عليها لتعود الى الهدوء فى سنة ٦٤٨ وترجع الأمور لسابق عهدها بعد أن أخذت قوى الامبراطورية فى الضعف والأفول فبدأت القوى المصرية فى التحرك من الجنوب بالاضافة الى غزو السيكثيين Scythian من آسيا الصغرى شمالا •

وهنا برز دور مصر الفرعونية من جديد لملاحقة الاشوريون وضد المد الآسيوى السكيثى القادم من الشمال فقام بسامتيك الأول الملك الفرعونى بمطاردتهم حتى حاصر أسدود ليأتى من بعده ابنه نخاو الثانى سنة ٦٠٩ ق•م والذى غزا فلسطين وقد ورد ذكر احتلال غزة بشكل ترجيحى على لسان هيرودوتس الذى قال « بعد هذه المعركة » مجدو ؟ لقد أخذ نخاو Kadatu التى هى أعظم مدينة سورية » •

فهل مدينة Kadytis هى غزة فالاسم قريب من Ga-da-tu أو غازاتو كما كان يسميها « الفراعنة والاشوريون » أم انها قريبة من اسم قادس أو قدس ربما الحكم فى هذا يبقى رهن الدراسات الفيللوجية والاركيولوجية ولو ان الكثير يعتبرون ان الاسم مطابق لمدينة غزة (٢٨) •

---

(٢٧) Meyer, Ibid, p. 35-36.

(٢٨) Meyer, ibid, p. 40.

الفصل السادس

الفترة البابلية الفارسية

- غزة تنعم بالاستقلال الذاتى تحت القيادة العربية المعترفة بالسلطة الاشورية ·
- القبائل العربية تسيطر على الجنوب الفلسطينى ·
- ظهور مدينة « اينوسيس » ·
- هيرودتس يقول « غزة تشبه ساردس فى جاذبيتها » ·
- غزة تسك النقود لأول مرة ·



السيطرة البابلية :

هذه الفترة تعتبر النهاية للعصر الحديدى ، في الوقت التى تمثل فيه مرحلة من مراحل التغيير فى الخريطة السياسية لفلسطين ، فقد حاصر « نبوخذ نصر » المدينة العربية « يبوس » (القدس) وأحرق ما بها من معابد وقتل من سكانها قرابة خمسين ألفا ممن يعتنقون اليهودية (الأسر البابلى) وذهب بهم الى بابل العاصمة • ليستمر التمدد العربى الأيدومى (الأيدوميون) فى الزحف نحو الشمال نحو الخليل حتى بيت صور تدفعهم قوى العرب الأنباط من خلفهم والقادمين من شمال شبه الجزيرة العربية وجنوب فلسطين أما الساحل الفلسطينى فقد تمتع بنوع من الاستقلال فى مدينتى غزة وعسقلان مقابل دفعهما الضرائب فتعمقت الروابط التجارية مع بابل وانتشرت الكتابة المسمارية والبابلية كلغة متداولة سياسيا وتجاريا ولا أدل على ذلك من كونها لغة الكتابة ما كتب على ألواح تل العمارنة بمصر منذ قرون عديدة خلت •

اذا احتلت غزة بموقعها التجارى الهام والحدودى عند نهاية المملكة البابلية مكانة مرموقة خاصة وقد دعمها التواجد العربى الذى أصبح منتشرا وسائدا بمملكاته على طول وعرض الجنوب الفلسطينى بعمق يصل للجزيرة العربية نفسها فهم الأيدوميون والأنباط ما منح غزة الثراء التجارى فأصبحت « المدينة العظيمة » « والمدينة الكبيرة » على حد تعبير هيرودوتس وهيكاتيوس Hecataeus قبل احتلال الفرس لها •

وعلى العموم فان المعلومات والمصادر عن فلسطين فى المرحلة البابلية تكاد تكون شحيحة خاصة فى الحقبة الواقعة ما بين سقوط القدس ٥٨٦ ق‌م وحتى سقوط المملكة البابلية سنة ٥٣٩ ق‌م والتى حاول البابليون خلالها أن يرثوا التقسيمات الادارية الفلسطينية على الطريقة الأشورية السابقة •

الفترة الفارسية :

سقطت بابل سنة ٥٣٩ ق‌م للملك فارس « كورش » الذى أسس أكبر امبرطورية امتدت امتدادا واسعا فى تاريخ الشرق القديم من مرتفعات ايران شمالا حتى حدود مصر جنوبا ٠

وعلى الصعيد الفلسطينى ليست هناك أية وثائق أو كتابات تدل على حدوث معارك فوق منطقتنا وربما دانت سوريا وفلسطين للفرس بشكل تلقائى بعد القضاء على البابليين لمدة قرنين من الزمان تقريبا أحدثوا فيها تغيرات جذرية عميقة انبثقت من خلالها تحولات محورية على المستوى الادارى والسياسى والاقتصادى فى فلسطين عامة ولمدينة غزة بشكل أساسى وحيوى ، فاداريا ظهر مصطلح جغرافى يجمع رقعة الامبراطورية الفارسية المترامية تحت عنوان «بابل واراضى عبر النهر » أى تلك الواقعة غرب نهر الفرات أيام كورش ٠٠ وعليه فقد كانت سوريا وفينيقيا وفلسطين بطبيعة الحال ضمن مناطق عبر النهر ٠

وبناء على ما جاء من هيرودتس (٢٩) فقد قسم الفرس امبراطوريتهم الى عشرين ولاية Satarpy عند بداية حكم « داريوس ٥٢٢ ــ ٤٨٦ق‌م » قام على أثرها بفصل أراضى عبر النهر عن أراضى بابل وعين لكل ولاية حاكما « مرزبانا » وكانت الولاية الخامسة تمتد من شمال سوريا حتى غزة التى تحكم نفسها حكما ذاتيا ٠

أما المناطق الواقعة جنوب غزة مباشرة فقد حكمتها وسيطرت عليها القبائل العربية التى سادت سطوتها بشكل ملحوظ وكانت ــ أراضيهم معفاة من الضرائب والممتدة مباشرة جنوبا من غزة ٠ ولعل ما جاء على لسان هيرودوت الذى استقر فى مدينة غزة الى حين (٣٠) فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ما يضفى لنا دلالة واضحة للجوانب الادارية والسياسية للمنطقة فيقول (الأرض الممتدة من جنوب فينقيا حتى مدينة غزة يسكنها سوريون يسمون بالفلسطينيين ، وجميع الموانىء من غزة الى مدينة اينوسوس تتبع ملك العرب وتنتمى للسوريين ، البلاد من اينوسوس Jenysos الى بحيرة سربونس التى يمتد جوارها جبل كسيون Kasion ، والأرض وراء بحيرة سربونس (بحيرة البردويل حاليا) هى أرض

---

(٢٩) Aharoni, Ibid, p. 256-258.

(٣٠) H. G. wells, The out line of history, Vol. I, New York, 1956, pp. 188.
Meyer, Ibid, pp. 41.

مصر • والمنطقة الممتدة من مدينة اينوسوس الى جبل كسيون وبحيرة سربونس « مسيرة ثلاثة أيام » شديدة الجفاف) •

وهكذا نرى بجلاء ان مدينة غزة وجنوبها ظلت متمسكة بملامح شخصيتها العربية الفلسطينية بعد الكفاح المرير ضد القوى الاشورية والبابلية المريرة وازداد التكشف العربى فى جنوبها حتى قامت لأول مرة مدينة Senysos والتى وصفت بأنها من مدن العرب الرئيسية الذين استطاعوا فيها احتواء واستيعاب الفلسطينيين وامتصاصهم فأصبحوا عربا (٣١) • ولعل Jenysos هى اشتقاق من لفظة « العسس » الذين هم نواة الجيوش العربية كجنود مخافر أمامية فى ذلك الوقت خاصة وان هذه المدينة تقع عند حد الصحراء • أصبحت مدينة غزة تنعم باستقلال ذاتى تحت ادارة القيادة العربية لملوك « قيدار » المعترفون بسلطة الاحتلال الفارسى والذين فرضوا بدورهم ضرائب عليهم (٣٥٠ وزنة من الفضة) تعادل نصف ما كانت تأخذه من مصر ، هذا على الولاية الخامسة حتى غزة أما جنوبها فقد كان عربها معافين من الضرائب مما ساهم فى تنشيط التجارة فى غزة كمخرج حيوى رئيسى على شاطىء البحر للتجارة العربية •

نجد اذن التواجد العربى على طول الساحل الغربى وحتى رفح مدينة Ienyzos التى جاء ذكرها على لسان « استرابو » عندما وصف حملة قمبيز على مصر سنة ٥٢٥ ق‌م والذى حشد قواته فى عكا ومر بمدينة غزة الذى كما يروى دفن كنزه فيها حتى يقال ان كلمة غزة تعنى « الكنز » بالفارسية ولكن اسم غزة كما نعلم أقدم من ذلك بكثير • كما أثبتته الوثائق والكتابات على المعابد الفرعونية — وورد على لسان استرابو أن ملكا عربيا « ربما هو قيدار » قوله أثناء مروره بالمياه حيث كان الشريط الساحلى الممتد من غزة الى انيوسوس (*) أرضا معفاة من الضرائب (٣٢) •

وربما كان ذلك دافعا للفرس الى وضع كتيبة حربية لهم فى غزة منعا وتحسبا من الزحف العربى نحوها الذى ظل متحفزا حتى سنة ٣٥١ ق•م وذلك لم يعد يذكر بل يوصف السكان بأنهم سوريون بل عرب •

واقتصاديا :

نعمت غزة بتجارة هادئة مزدهرة أتى بها العرب من الهند عبر الجزيرة العربية مارة بجنوب فلسطين أى أرض القبائل العربية الايدومية • حتى مدينة غزة ، وتمم هذا الازدهار الضرائب المخففة على أسوأ تقدير — ان لم تكن معفاة

(٣١) Meyer, Ibid, pp. 42.

(٣٢) Herodotus, Historia, III, p. 49, and Aharoni, Ibid, pp. 256.

(*) مدينة Imysos انيوسيس ربما كانت تقع فى مكان ما بالقرب من موقع خانيونس الحالية •

تماما من قبل الفرس ، حتى ليمكننا القول بأن شريط غزة أصبح بمثابة ميناء تجارى حر بعيدا عن منافسة اخواتهم الفينيقيين فى الشمال والذين امتد أثرهم وفعاليتهم البحرية حتى عسقلان وكذا عن النفوذ الفارسى المباشر والذين منحوها نوعا من الاستقلال الذاتى حتى غدت مدينتنا غزة كما وصفها هيرودوتس عندما مر عليها بأنها « تشبه مدينة ساردس Sardis (**) فى جاذبيتها (٣٣) ٠

فالفرس على عكس الاشوريين أبدوا اهتماما كبيرا بالبحر المتوسط ، فقد هيمن الفينيقيون كما ذكرنا على تجارة الشمال فانتعشت موانئهم مع انهم اسميا تحت السيطرة الفارسية ـ فاستفاد الفرس من هذه القوى الفينيقية المتعاظمة التى كانت لهم سندا وعضدا ضد القوى اليونانية فيما بعد ٠

ومن التورات الاقتصادية الفارسية الرائدة سك النقود لأول مرة فى فلسطين أيام داريوس وكانت تحمل اسم « غزة » وربما سكت على النمط « الأثينى » (*) ومن أجل التجارة مع اليونان ، خاصة لو علمنا تسرب التأثير اليونانى ونقودهم الأثينية « أثينا » لأول مرة الى فلسطين فى هذه الحقبة (القرن الخامس قبل الميلاد) وبعدها سكت النقود المحلية الغزية على نمطها ومما زاد التأثير اليونانى وجود العديد منهم وقد اندسوا كجنود مرتزقة مع الجيوش الفرعونية والفارسية عندما غزت فلسطين (٣٤) ٠

ومما يلفت النظر أن تقوم فى غزة عملية سك نقود فارسية باسمها لتبرهن على مدى قوتها وأهميتها التجارية حتى بلغت النقود الغزية شأنا بارزا ليس فى النقد الفلسطينى فى الفترة الفارسية بل وتعدته على الصعيد العالمى والتجارة الدولية لما تميزت به سكتها من تشابه بالنقود الأثينية التى غدت نقدا عالميا متداولا فى عصرها (٣٥) وللمقارنة لم يكن فى هذه الحقبة لمدينة عسقلان المجاورة أية نقود تذكر ٠ وهكذا فانتشار النقود سهل الحياة الاقتصادية داخل المدينة فأعطاها سيولة التداول بين الناس ، ومهدت بالتالى لخلق فئة جديدة من السكان والتجار أتيحت لهم فرصة البيع والشراء لسهولة اقتنائهم كميات كبيرة من النقد بدلا من عملية « المقايضة » الأكثر عسرا فى السابق ٠ فازداد الرواج التجارى بين الناس للمدينة فتأكد الموقع الحدى البحرى الحاكم للمدينة وعززته ثروتها فعادت لدورها كجسر تجارى يرى بين الشمال والجنوب وميناء

---

(٣٣) U.J Rapport, I.E.J. Vol. 20, 1970, p. 75.

(**) مدينة سادرس كانت عاصمة الليديين فى آسيا الصغرى وتقع على بحر ايجه وهى من أعظم الموانىء ولكنها الآن قرية صغيرة ٠

(٣٤) Meyer, Ibid, pp. 42.

(٣٥) H. Rapport : Caza and Ascalon, I.E.J., Vol. 20, 1970, p. 76 and C.F. Hill, Cataloge of the Greek Coins of Palestine, London, 1914, pp. 176-183.

بحرى كمنفذ للتجارة العربية على ساحل البحر ، ومنطقة حدية يسيطر العرب على تخومها الجنوبية الصحراوية الفاصلة ٠

هذه الاغراءات جميعا دفعت الفرس بأن يضعوا فى غزة كتيبة فارسية حربية (٣٦) ٠ كطاقة احتياطية لهم تؤمن السيطرة على هذا الثغر الهام الذى يمثل عمقا استراتيجيا وعسكريا بل وتجاريا لهم وكرصيد سنرى كيف استفادت منه القوى الفارسية والعربية فى صد قوات الاسكندر الأكبر خاصة — وكما سبق لنا القول — بأنها كانت مدينة معمورة يسور بناه الفلسطنيون منذ قرون خلت كما يقول غارستنج (٣٧) واعادة تحصين قلعتها التى سبق ان دمرها « نبوخذ نصر » ٠

وسياسيا : — منحت غزة نوعا من الحكم الذاتى ، لما تميز به الفرس فى اطلاق الحريات وممارسة الشعائر الدينية الوثنية دون تدخل منهم ، فحكموا انفسهم فأصبحت لهم سلطة واسعة فى ادارة شئونهم الادارية والمحلية وفقا لقوانين ونظم عادلة سنها الفرس لولاياتهم ويشرف على تنفيذها « داريوس » بنفسه ، فكان هذا دافعا قويا لسكان منطقة العرب الفلسطينيين والفينيقيين الى مؤازرة الفرس ومساعدتهم بأداء فعال وقوى عندما تعرضوا للغزو اليونانى خاصة فى مدينتى صور وغزة ٠

أما المنطقة الجبلية الداخلية من البلاد فقد رأت عودة بعض اليهود من بابل على يد الفرس ليجدوا قوما من العرب الايدوميين والانباط قد شادوا البنيان وعمروا المدن فوق الهضاب وكما وصفوا فى التوراة بأنهم أصبحوا مستقرين جيدا ، وأنشأوا مراكز ادارية وأسوقا تجارية هامة مثل مدينة « مريشة » شمال غرب هضبة الخليل والتى عجت بسكانها الايدوميين (٣٨) وأصبحت مدينة بيت صور شمال الخليل مركز الثقل لتجمعهم السكانى بدلا من الخليل أو زيف (٣٩) ٠

هكذا عاشت جميع الشعوب العربية الساحلية منها والداخلية فى البلاد من عربية فلسطينية أو فينيقية أيدومية أو كنعانية أو حتى نبطية فى وئام فجمعتها صهرتها بوتقة القومية العربية على اختلاف مسمياتها القبلية وجميعا

---

(٣٦) Meyer, Ibid, 43.

(٣٧) P.E.F., Vol. 52, 1920.

(★) انظر الى مجموعة النقود الغزية التى تعود للقرن الخامس قبل الميلاد فى
M. Rosenberger, city coins of Palestine, Vol. II, Jerusalem 1975, p. 47-49.

(٣٨) Archeology of Israel, Pocket library, Jerusalem, 1974, p. 211-212.

(٣٩) Aharoni, Ibid, p. 364.

تحدت التغييرات بصمود وإباء أمام كل الغزوات صامدة شامخة باستثناء بعض سكان المناطق الجبلية الداخلية من القبائل العبرانية التى عاشت فترة من الازدهار القصير بفضل الحكمة السليمانية تعرضوا بعدها للاقتتال والاحتراب فيما بينهم ومن ثم للخروج البابلي وعودة البعض القليل أيام الفرس وتفضل الاكثرية البقاء فى بابل · عاشت كأقلية منغلقة بدينها الذى حوله بعض العبرانيين الى دين خاص بأبناء اسحاق ، والتوحيد فيها شابته شائبة وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله فجعلوه اله بنى اسرائيل · لا اله العالمين ! فأصبحت ديانتهم تمثل « جيتو فكرى » ففقدت بالتالى السمة العالمية والانسانية التى هى من أوضح مميزات وصفات الدين الالهى الواحد كما بشر به الرسل والأنبياء (٤٠) وبالتالى بقوا على انغلاقهم ولم يصلوا فى أية مرحلة من مراحل التاريخ الى مدينة غزة وما جاورها · بل هى وكما جاء فى التوراة « ملعونة من الرب » شملت مدينة غزة واعترتها تحولات محورية وجذرية حتى نهاية الفترة الفارسية التى دامت قرنين من الزمن ، لعبت فيها هذه التحولات دورا أساسيا فى قصة حياة المدينة ، وبلورة شخصيتها وعمقت قسماتها العربية فمهدت لها ان لم تكن سببت لها فى الفترات اللاحقة العزة والشموخ ، وكذا التحلل والرضوخ لفترات طويلة تحت نير الغزاة فاصبحت بموقعها الحدى والذى بلغ أوجه كمدينة اكروبوليسية فوق قمة تل محصنة مسورة ذات قلاع وابراج بل دفعها الثراء وازدياد ما يردها من منتجات وتجارة أن تخرج من أسوارها منطلقة نحو البحر تبنى ميناءها البحرى كمنفذ للتجارة العربية الهائلة والقادمة من الهند وشبه الجزيرة العربية · فلم تعد « محطة الرمال » بل وأصبحت محطة الترحال « انها بحق عقدة مواصلات » بالطول والعرض ·

وبلغ بها المجد فسكت النقود لتبنى لنفسها مكانة اقتصادية عالمية متأثرة بذلك باليونانية من وراء البحر ·

ولهذا اندفع العرب ليملأوا الفراغ بين مدنهم فاستوطنوا الأرض الواقعة بين غزة وتل العجول فى الشمال ورفح فى الجنوب فبنوا مدينة « انيوسوس » Ienysos ان لم تكن مدينة « العبسس » فى موضع ما عند خان يونس اليوم مع استمرارية المواضع العربية القديمة فى تل الفارعة وتل جمة التى عثر فيها فلندرز بترى على قبور فارسية وأوان ترجع لنفس الفترة والتى استخدمها الفرس كمناطق امدادات ومؤن لقوافلهم العسكرية المندفعة نحو مصر ·

اذن عاشت مدينة غزة هذا التاريخ الحافل تتأثر به وتؤثر فيه فاعلة ومنفعلة عبر كل العواصف السياسية وحتى الاقتصادية على مدار أكثر من ثلاثة

---

(٤٠) د· محمد عمارة ـ العرب والتحدى ـ كتاب الهلال العدد ٣٨٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٢ ·

آلاف عام وعند نهاية دولة الفرس آخر دول الشرق العظيمة وقبل قدوم اليونان من أوربا وليس من آسيا .

فماذا فعلته المدنية الشرقية منذ العصر البرونزى حتى نهاية الفرس وعلى مدى أربعة آلاف عام الا قليلا ؟ والاجابة يطرحها هنرى بريستد قائلا « (ان الشرق حبا العالم بالصناعات الأولى بدرجة عالية من الصنع والاتقان فصنعوا الآلات المعدنية والزجاج والنسيج والورق ، وأتقنوا فنون النجارة بصناعة السفن ، كما سبق الشرق أهل الأرض طرا فى تشييد المبانى الكبرى ، فقد نفح الشرق العالم باختراعات هامة لا يفوقها سوى اختراعات العصر الحديث فأخذ الغرب عن الشرق فنون البناء ذات الأبنية المعمدة والابراج اللولبية الشكل وفن النحت للتماثيل الهائلة والأختام النفيسة « الجعارين » والكتابة وحروف الهجاء وأقدم الروايات والقصائد الشعرية وتقويم السنين الذى يستخدم حتى اليوم ومبادىء الحساب والفلك والطب كما نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة أو من مجموعة أمم تألفت منها امبراطورية (٤١) .

---

(٤١) هنرى - بريستد - العصور القديمة - ترجمة داود قربان - المطبعة الأمريكانية - بيروت ١٩٣٠ ص ١٨٨ .

الفصل السابع

العصر اليونانى

- الاسكندر يحاصر غزة شهرين ·
والحامية العربية والفارسية تدافع عنها ببسالة نادرة وتجرح الاسكندر
- نشاط الاستيطان الاغريقى فى غزة وسواحلها ··
- غزة ورفح ميدان تطاحن بين البطالمة والسلوقيين
- العرب الانباط يعيدون لغزة مجدها وازدهار مينائها « أنثيدون »



العصر اليونانى

لم يكن مجىء الاسكندر الأكبر بحملته العسكرية التى زلزلت أرجاء المعمورة مع ثلاثينات القرن الرابع قبل الميلاد هى أول من أدخلت العناصر اليونانية لمنطقتنا ، لا .. بل لقد تسربت طلائع الشعب اليونانى قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون تقريبا ، وبالتحديد منذ القرن السادس قبل الميلاد أيام الاسرة الفرعونية السادسة والعشرين عندما شجعهم الملك بسماتيك على الهجرة لمصر كجنود مرتزقة انخرطت بين جنده فى حروبه الداخلية مانحا اياهم الأراضى الزراعية وفاتحا لهم وميسرا مجال التجارة (٤٢) . ومن هنا كانت الاماحة السابقة عن التأثير الاغريقى للنقود الغزية ، فاليونانى فى بلده الأم يعيش فى بيئة جبلية بحرية فقيرة طاردة لسكانها فاندفعوا نحو مراكز الحضارة فى شرق البحر المتوسط ومصر للارتزاق فى مرحلة ما قبل الاسكندر الذى أتى بجحافل جنده غازيا ليمثل النواة الأولى لأقدم استعمار استيطانى عبر البحار فى التاريخ . فاستولى على آسيا الصغرى بعد انتصاره فى موقعة ايسوس سنة ٣٣٣ ق.م على الفرس وبحنكة القائد العسكرية صاحب الميول البحرية لم يحاول مطاردة الملك الفارسى المهزوم شرقا نحو عاصمته صوصة ، بل واصل زحفه جنوبا بمحاذاة الساحل ليستولى على سوريا حتى استوقفته مدينة صور أمام أسوارها وقلاعها الحصينة سبعة شهور يوم كان الفنيقيون على الساحل الفلسطينى فى قمة مجدهم البحرى والتجارى فكانوا عضدا للفرس استغلوه لصالحهم لصد الاسكندر الذى واصل زحفه بسهولة جنوبا حتى غزة التى أوقفته أمام اسوارها فى اغسطس سنة ٣٣٢ ق.م ، كأعظم مدينة حصينة ذات سور ضخم بها قوة عربية التحمت مع القوة الفارسية بقيادة « بيتس » Betis فأوعز المهندسون لقائدهم الاسكندر بأن المدينة يصعب اجتيازها والاستيلاء عليها بسهولة .. فاستدعى بعض المهندسين ممن كانت لهم خبرة فى حصار صور ، فبدأوا فى بناء تلة مرتفعة . Rampart ساعدتهم التربة الطينية الرملية فى الحفر لكنها قادتهم بنعومتها وطبيعتها الرملية بعدم استقرار أدوات الحصار فوقها . وما أن انتهى بناء هذه التلة الصناعية التى بلغ ارتفاعها ثمانين مترا حتى بدءوا فى قصف المدينة ودك أسوارها وأبوابها بعد شهرين من الحصار فلاقوا مقاومة عنيدة فحاولوا

---

(٤٢) جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٨١ ، ص ٢٨٢ .

استغلال الناحيــة الجنوبية للاندفاع فى قلب المدينة كما يرى « فلندرزبترى » من خــلال ما عثر عليه من ركامات محروقة وأوان بالقرب من بابهــا الجنوبى (عند عسقولة الآن) • فلم تكن المدينة سهلة المنال فلم يدخلها الاسكندر الا بعد أن ضحى بعديد من القتلى والجرحى بما فيهم هو نفسه الذى أصيب فى كتفه وركبته فأخذ المدينة عندها بحد السيف ، باع النســـاء والأطفال كعبيد ووقع نحوا من عشرة آلاف مقاتل عربى وفارس وأسر القائد الفارسى « بيتس » Betis فأســـاء معاملته وربطه الاســكندر فى مؤخرة عربتــه وسحله فى شــوارع المدينة حتى الموت (٤٣) وفى أواخر الخريف من نفس العام ٣٣٢ ق‌م وصل الى بلوزيوم « الفرما » واستولى من بعدها على ممفيس لتسلم مصر من الوالى الفارسى « مازاكس » وليستقبله المصريون بالترحاب كمنقذ لهم من الحكم الفارسى (٤٤) •

بهذا اكتمل للاسكندر القضاء على الوجود الفــارسى والقوى العربيــة المساندة على طول امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، بعد أن كلفته مدينتا صور وغزة تسعة شهور من الحصار • علهما تضفيان لنا دلالة واضــحة على منعتهما أمام هذا الغازى اذا ما عرفنا أنه اكتسح أعتى مراكز الحضـــارة فى عهده حتى الهند فى ثمانية أعــوام • وهنــاك تفسير استراتيجى لهــذا التصرف يقول بأن الاسكندر كان يريد الحفاظ على أهم موانىء البحر المتوسط ـ صور وغزة ـ دون تبرير لتأمين الامدادات والتموين لأســطوله عبر البحر واتخاذهما أيضا قواعد بحرية لصد أى هجوم بحرى ضد قواته والقضاء على التواجد البحرى الفارسى ويرى بعض المؤرخين سبب اندفاعه جنوبــا متفاديا ملاحقة الفرس شرقا هو جاذبية مصر وشهرتها كمصدر لانتاج الغلال لتصبح قاعدة تموين لجيوشه التى سوف تتجه بعدها شرقا •

وعودة لمدينة غزة بدأ الاغريق ينتشرون داخل المدينة بوضع كتيبــة عسكرية وخارجها بصفة خاصة وبدأت مجمعات استيطانية على هيئة خلايا صغيرة تنتقط على ساحل البحر المتوسط « كالضفادع والنمل حول بركة » على حد تعبير أفلاطون (٤٥) فبدأوا يسكنون أطراف المدينة الشمالية والجنوبية وساحل البحر ضمانا للعزلة ولعدم الاحتكاك معتمدين عــلى زراعة الكروم والزيتون حتى ليقــال بأن الاستعمار الاغريقى من حيث توزيعــه الجغرافى

---

(٤٣) Meyer, Ibid, p. 43-44. and the out line of History Vol. 1, p. 284-286.

(٤٤) عبده مباشر واسلام توفيق ـ سيناء الموقع والتاريخ ـ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٨ ص ١٩٢ •

(٤٥) جمال حمدان ـ شخصية مصر ج ٢ ص ٢٨٣ •

الرئيسى أنه « استعمار زيتوني » الى حد معين (٤٦) بعد أن أفرغ الاسكندر المدينة والتى كانت أشبه بمدينة مخازن « للبخور والعطور واللبان والمر ومجوهرات وحلي • أفرغها من كنوزها مرسلا اياها كهدايا لزملائه (٤٧) • وهكذا أرتبط الاغريق بظاهرة الزراعة والتجارة فتمخضت عنها ظاهرة ثلاثية خطره هى « التعمير والتهجير والتوطن ليكتسب من ثم طابعا سكنيا أو استيطانيا لامراء فيه مدعما بثقافة هلينية ذات توجيه أوربى فأرست قواعدها البحرية لاستقبال أساطيلها الحربية والتجارية كظاهرة جديدة ميزت التواجد الاغريقى على ساحل البحر المتوسط والأحمر فبنى على شاطىء مدينة غزة ولأول مرة ميناء جديدا هو ميناء أنثيدون « مدينة الزهور Anthedon ليبدأ بعد هذا الاستيطان الاغريقى وبحق أول تحد لتراث هذه المدينة العربية العظيمة بكل ملامحها وسماتها وقسماتها العربية مع أول استعمار استيطانى فى التاريخ قادم من وراء البحار فاما أن يبتلع سكانها العرب هذه الموجة خاصة وان كل الذين أقاموا فيها اما أصبحوا عربا فلسطينيين أو مجتهم فلم يطيقوا مكوثا ولا مقاما مهما كانت أبعادهم ووسائلهم •

فاليونانيون بدأوا يتقمصون المدينة ليخلقوا اسلوبا جديدا على حياتها وبنيتها الاجتماعية لتبتلع الحضارة اليونانية الغربية لأول مرة فى تاريخها •

ان جميع الغزاة السابقين ـ كما بينا سابقا ـ قد أحدثوا تغييرات عميقة على سكان المنطقة الجبلية الداخلية فى فلسطين فى الوقت الذى كان التأثير فيه سطحيا بل بالكاد لمسوه فى مدن السهل الساحلى أما الاسكندر الأكبر وهو أس الاهتمامات البحرية فعل العكس كعملية اسقاط للتأثيرات الجزرية التي نشأ فيها • فقد ضمن لسكان المناطق الداخلية حقوقهم واماكن سكناهم الى حد كبير فاحتفظوا من ثم على تراثهم وثقافتهم العربية السامية لتبقى ذخرا للساحل الذي أحدث فيه تغييرات جذرية ثقافية وحضارية على السكان ليس فى غزة فحسب بل وباقي مدن الساحل الفلسطينى الذى أصبح الى حد كبير يونانيا بلغته وحضارته وكذا نظمه السياسية لألف سنة تقريبا ، اقترب فيها الفينيقيون من الاختفاء كقوي بحرية فتمركزوا فى بعض المستوطنات الصغيرة خاصة غرب البحر المتوسط استمرت لبعض الأجيال ليستوطن اليونانيون بدلا منهم (٤٨) •

---

(٤٦) M. Rossentzeff., Social and Economic history of the Helenistic World Oxford, 1941, Vol. I, p. 287, p. 360-362.

(٤٧) Meyer, Ibid, p. 44.

(٤٨) J.E.J., Vol. 6, 1956, pp. 43.

استأنفت غزة أهميتها التجارية لتعيد علاقاتها بما حولها من المدن وليتسع مجالها حتى بلاد اليونان ومع دائرة البحر الايجى حتى ايطاليا ، فامبراطورية الاسكندر جمعت بين سواحل البحر المتوسط فأصبح يعرف نظرية « وحدة البحر المتوسط » لتصبح سواحله جميعا خاضعة لنظام سياسى امبراطورى واحد (٤٩) ٠

فلم تتبدل مكانة غزة واخذت أمورها تسير سيرا طبيعيا ليبقى الوضع التجارى للساحل الجنوبى الفلسطينى كما هو بصفة أساسية حتى القرن الثالث قبل الميلاد (٥٠) ٠

وما ان مات الاسكندر الأكبر فى بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد فجأة حتى دب الخلاف بين قادته الأقوياء ووصل لدرجة الاقتتال والحروب فيما بينهم برا وبحرا انقسمت على أثرها مملكة الاسكندر الى ثلاثة أقسام فى أوربا وآسيا وافريقيا رأس كل قسم بها أحد قادته (٥١) ٠

ومع هذا التقسيم الجغرافى السياسى عاد لفلسطين عامة وغزة خاصة قدرها المحتوم كمنطقة ارتطام وأصبح لمدينة غزة تلقائيا دور ميدان التطاحن والصراع بين قادة الاسكندر فالتقى جيش بطليموس فى ربيع سنة ٣١٢ قبل الميلاد والذى انفرد بحكم مصر فى غزة مع جيش ديمتريوس بن انتيغونوس الذى استأثر بحكم سوريا كحصة له ٠ فأصبحت معركة غزة تمثل حابة تقرير المصير الفاصل لمصر وسوريا معا ، فانتصر بطليموس وقائده سيلوقس على خصومه المزودين بالفيلة فاتخذ هذا القائد من انتصاره فى غزة بداية « لتأريخ جديد عرف فيما بعد بالتأريخ السلوقى أو اليونانى ليتخذ من سنة ٣١٢ ق٠م بداية لتأريخ جديد يدون من خلاله وقائع انتصاراته وأحداثه ويقال ان هذه الموقعة حصلت فى تل العجول « بيت عجليم » (٥٢) ٠ بعدها لم يجد البطالمة منازع فى فلسطين بعد انتصارهم فى غزة على مدى قرن من الزمان تقريبا وحتى سنة ٢١٩ ق٠م استمرت خلالها مدينة غزة كأهم المدن الساحلية قاطبة ، وعزز هذه المكانة وحفظ لها كثيرا من سماتها وقسماتها القبائل العربية التى بقيت صامدة جنوبها والمستفيدة من تجارة المر والتوابل والبخور على الرغم من تقلصهم المحدود الا ان تواجدهم قد استمر

---

(٤٩) C.F Huroni, Arab Searching in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 170

(٥٠) I.E.J, Vol. 20, 1970, p. 76.

(٥١) هنرى بريستد ـ العصور القديمة ـ المرجع السابق ، ص ٣٥٨ ٠

(٥٢) Atlas of Israel, Jerusalem 1970, p. IXI, 5.

جنوب فلسطين وسيناء بقيادة العرب الأنباط فنعمت غزة بتجارتهم لتأخذ بوظيفة الترانزيت التجارية ولفترة طويلة ارتبطت معهـا بمدينة الاسكندرية الجديدة والتى أنشأها الاسكندر الأكبر ومع الموانىء الفينيقية وآسيا الصغرى واليونان ، ولعل ما ورد فى أوراق زينون البردية Zanon Papyri وورد اسمها عدة مرات وصفت فى احداها بأنها « سيدة البخور » لتبين لنا بوضوح دور التجار العرب كممول للمدينة منذ الفترة الفارسية حتى البطلمية ، ويتألق دور غزة كميناء حيوى نشط ما جاء فى خطاب أرسطو Letter of Aristeas حيث تضمن قائمة بأسماء الموانىء الفلسطينية الهامة فى فترة البطالمة التى جاء فيها « ان لفلسطين موانىء ذات موقع جيد ، تمولها بحاجاتها مثل غزة وعسقلان وجوبا وبطليموس « عكا » التى أنشأها الملك (٥٣) ٠

ولعلم النميات « النقود » Num's matic ٠ دوره فى تفسير وابراز أهمية غزة لما للنقود من أهمية اقتصادية تحمل فى نقوشها وصورها دلالات خاصة تعكس ظروفا واحوالا سياسية وعسكرية واجتماعية فى كثير من الأحيـان ٠

فقد راجت فى غزة النقود المسكوكة باسم الاسكندر حيث بلغت أوج نشاطها وسيولتها فى المدينة بصورة فاقت جميع المدن والموانىء الفلسطينية المجاورة مثل عسقلان ، فتدلنا قائمة نركيس Narkiss على وجود ثمانية أنواع من النقود الغزية وواحدة فقط لمدينة عسقلان (٥٤) ليثبت بهـذا نشاطا اقتصاديا فائقا عما يجاورها من مدن هذه الحقبة ٠

ولم تهدأ الحال بين البطالمة فى مصر والسلوقيين فى سوريا ، كما لم يتغير قدر غزة فى موقعها الحدى الذى حولهـا الى « موقعـة عسكرية » بين الطرفين المتخاصمين فاستولى عليهـا سـنة ٢١٩ ق٠م « أنتيخيوس الثالث » ٠ السلوقى من سوريا ليحصنهـا تحصينا منيعا وليتخذ منهـا مقرا لعمليـاته العسكرية المتقدمة كرأس حربة فى وجه البطالمة فى مصر ، وبعـد عامين فقط أعاد البطالمة الكرة ثانية فالتقى الجيشان فى ٢٢ يونيه سنة ٢١٧ قم فكان مسرح القتال هذه المرة مدينة « رفح » فانتصر البطالمة فأعادوا استيلاءهم على غزة وفلسطين كلها ٠ فلم تكد المدينة تلتقط أنفاسها لأقل من عقدين من الزمان حتى أغار السلوقيون على البطالمة سنة ٢٠٢ / ٢٠١ قم بقيـادة أنتيخيوس الثالث الذى زحف حتى غزة القلعة التى اعتادت أن ترغم القـادة العسكريين على الوقوف أمام قلاعها وحصونها فاستعصت عليه وقاومته بعنف

(٥٣) I.E.J, Vol. 20, 1970, pp. 76-77.

(٥٤) I.E.J., Vol. 20, 1970, pp. 77-78.

مما دفعه للانتقام منها بقسوة عندما استولى عليها ، وفشل البطالمة بعدها في استرداد غزة حتى اذا ما أتى عام ١٩٨ ق٠م وفلسطين وسوريا قد دانتا للسلوقيين ٠

بهذه السيطرة السلوقية بدأت مكانة غزة في الضمور والتدهور السريع واختفت التجارة عن غزة لبعض عقود من السنين ، لأن الغزو السلوقي أجبر جزءا من التجارة العربية من المرور مباشرة الى مصر دون التوجه الى مدينة غزة كما كان في الماضي ، ونظرا لتفوق البطالمة في الملاحة البحرية خاصة في البحر الأحمر واكتشافهم الرياح الموسمية فاقاموا علاقات تجارية نشطة بين سواحل الحجاز وموانئها « لوكة كوميه » والبتراء التي أصبحت همزة الوصل بين اليمن وسوريا والعراق ومصر مما أصاب التجارة العربية بالضرر فدفعهم بجانب السلوقيين في الشام ضد البطالمة من أجل السيطرة على جنوب سوريا في فلسطين وضمنها بلاد الانباط (٥٥) وبذا فقدت غزة شريانا حيويا كان يمولها بالطاقة والقدرة كان يضخ في جسدها يغذيه اقتصاديا وينميه ويعيد له تراثه بل ويذكره ويذكيه ، هذا الشريان قطعه السلوقيون ولم يكتفوا بذلك بل أجبروا التجار العرب بأن يواصلوا سيرهم شمالا من الجزيرة العربية الى دمشق ومنها الى موانيء فينيقيا أو آسيا الصغرى ، ففقدت عندها غزة معظم تجارة الترانزيت تماما كما تأثرت بقية الموانيء الفلسطينية حتى ميناء بطليموس « عكا » شمالا وبترت الاتصالات العربية مع الاسكندرية(٥٦) المدينة والميناء الناشيء الناشط ٠

واستمر هذا الوضع الاقتصادي المتدهور لمدينة غزة حتى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد تقريبا أي لعهد انتيخيوس الرابع ١٧٤ ـ ١٦٤ ق٠م ٠

وكرد فعل للتحلل المتواصل للدولة السلوقية بحكم الأقدمية واستمرارية استنزافها بالحروب شبه المتواصلة مع البطالمة على أرض غزة ورفح ، بدأت في الظهور قوة ثالثة متربصة شرقا ومتضررة من جراء القطيعة التجارية الا وهي قوة العرب الأنباط الذين نجحوا في استعادة السيطرة على طرق التجارة الرئيسية ومنها الطريق القادم من الجزيرة العربية حتى وادي عربه فالبتراء العاصمة وبئر السبع لينتهي المطاف في مدينة غزة مستقلين بالتالي عن السلوقيين ورغما عن أنف البطالمة ، فعادت لغزة سيادتها وسيطرتها على التجارة كميناء مرور ولتنطبع عليها من جديد السمات والملامح العربية والتي

---

(٥٥) محمد عواد حسين ـ البحرية في عهد البطالمة ـ جامعة الاسكندرية ـ ١٩٧٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٦ ٠

(٥٦) I.E.J., Vol. 20, 1970, p. 78 79.

كان الشرق دوما رصيدها الهائل في التشبث بها والحفاظ عليها رغما عن تراكمات السنين من الثقافات الأجنبية الوافدة ٠

ففي القرن الثاني قبل الميلاد أصبح الانباط أمة ذات حضـارة عظيمة وصلت قمة ازدهارها وتألقها التجاري خاصة في تجارة التوابل ، فأقاموا المحطات التجارية عبر المناطق الصحراوية في النقب لتؤمن لهم الحماية والمدد بالمياه والمؤن على طول طريقهم نحو مدينـة غزة ولتنضوي كما سنرى جميعها تحت لواء مدينة غزة الاداري والعسكري ومن هذه المحطات عبدة وسبيطة وكرنب والخلصة والعوجا « نصتان » ولقد اكتشفت في الخلصة lusa كتابة نبطية ترجع لسـنة ٩٦ ق٠م جاء فيهـا « أسس هذا المكان ناديزوا لحيـاة الحارث ملك الانباط » (٥٧) أما الاكتشافات التي عثر عليها في العوجـا فانها تنير لنا الكثير عن هذه الحقبة ففي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٥ – ١٩٣٨ ميلادية اكتشفت بعثـة « كولت » الأثرية وثائق بردية ونقوشـا كتابيـة دلت على أن نصانا Nessana وهو الاسـم اليوناني للعوجـا وعرفتـه الادارة العربية فيما بعـد باسم « نصتان » بأنه اسـم نبطي وأنشئت كمحطة على الطريق بين قاعدتهم البتراء وأيلة وقدم آثارها يرجـع للقرن الثاني قبل الميلاد كما عثر فيها على ٣٨ من الجرار الفخارية ذات الأختام اليونانية التي ترجع للفترة ما بين سنة ١٥٠ – ٥٠ قم تعرف باسم « امفورا » Amphora جاءت معظمها (٣٣) منها من جزيرتي ردوس وكوس اليونانيتين وثلاثة من بامفيليا بآسيا الصغرى واثنتـان من الجرار للزيت ايطالية الصنع ، ويعتقد ان هذه الجرار جميعا لم تأت الى العوجا « نصتان » بما فيها مباشرة من هذه الجزر اليونانية أو آسيا الصغرى ولعل الأكثر احتمالا انهـا مرت أولا بغزة أو مصر نظرا لتشابه أختامها مع أختام عثر عليها في الاسكندرية ونقراطيس بمصر (٥٨) ويدعم هذا القول ما ورد على لسان هيرودوت فيما وصف الاراضي الواقعة ما بين انيسوس « خان يونس » وبحيرة سربونس « البردويل » بأنهـا شديدة الجفاف ، وحينما قال بأنه كانت تأتي لمصر أوان فخـارية مملوءة بالنبيذ من بلاد اليونان وفينيقية وكان كل رئيس مقاطعة يرسل جميع الجرار الفخارية الى منف حيث تفرغ ثم يملأونها بالماء ويصدرونها للاقاليم الجافة في البلاد السورية (٥٩) ٠

---

(٥٧) محمود العابد – البتراء – عمان – نابلس ١٩٥٦ – ص ٥٥ ٠

(٥٨) V. Grace, Stamped Handle of Commercial Amphoras, excavation of Nessana, Vol. 1, London, 1962, p. 106.

(٥٩) د٠ مصطفى العبادي – محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٨٢ ص ١٦٠ – ١٦٥

ولا ننسى كثرة ما يعثر على النقود النبطية فى ساحل مدينة غــزة وداخلها . وقد عثر على آثار نبطية فى ايطاليا التى كانوا يصدرون لها أنواعا من الزفت والقار والى بلاد اليونان أيضا (٦٠) .

فلم تكن هـذه الأمة العربية تجارية فقـط بل وزراعية بدرجة فاقت الوصف ولعل ما قاله السيد جلوك Gluck يوجز ذلك ببلاغة فقد ذكر (لقد استطاع الانباط توسيع مساحة الاراضى الزراعية على حساب الصحراء بطريقة لم يستطع تنفيذها سكان سورية أو شبه الجزيرة العربية أو الاردن ولا حتى أى أمة أخرى ، فقد عالجوا استغلال الاراضى الجبلية الوعرة ، كما نجحوا فى حفظ مياه الأمطار المتساقطة لفترة قصيرة) (٦١) . وقال فيهم ول ديورانت .

(ان البتراء أصبحت فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع قبل الميـلاد وحتى سنة ٤٠ ميلادية بلدة هلينستية لغتها آرامية وفنها يونانى وشوارعها فى عظمة شوارع الاسكندرية) (٦٢) .

هذا على الصعيد التجـارى والزراعى والمدنى أما عن التعدين فلم يـأل جهدا فى هذا المضمار هؤلاء الانباط فقد عدنوا الفيروز فى وادى المغــارة وكذلك النحاس فى وادى النصب بسيناء (٦٣) .

وهكذا استمر العرب الانبـــاط فى تجارتهم وهم على أســـوأ علاقة بالسلوقيين الذين بدأوا يتعسفون فى حكمهم وضرائبهم حتى ظهرت ومع بداية النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد قوة برية جديدة ولمـدى جيلين فقط هى قوة المكابيين الذين تمردوا على السلوقيين فاستطاعوا ولأول مرة فى تاريخهم الوصول لمدينة يافا سنة ١٤٦ ق.م بقيادة يوناثان Jonethan واستطاع من بعده هركانوس والكسـندر جانيوس من توســيع هذه الرقعة الساحلية لفتح شــقة بحرية توصله للتجارة الخارجيـــة عبر البحر المتوسط ويعزى هذا لا لمجرد التمرد على السلوقيين بقدر ما هى جاذبية البحر المتوسط الذى يموج بالتجارة الخارجية (٦٤) التى وصلت بأبناء المـدن الساحلية ومنها

---

(٦٠) G.A. Smith, Historical geography of the holy Land, London, 1966 p. 365.

(٦١) Gluck, The other Side of Jordan, New Haven, 1945.

(٦٢) ول يورانت ـ قصة الحضارة ـ ج ٣ المجلد ٣ ـ مترجم ـ جامعة الدول العربية سنة ١٩٦٤ ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٦٣) عبد مباشر واسلام توفيق ـ سيناء الموقع والتاريخ ـ المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٦٤) I.E.J. Vol. VI, 1956, p. 43.

غزة الى أقصى الدول الغربية فى حين ظل أبناء المناطق الداخلية فى حالة من الجمود والانغلاق ٠

أما عن مدى العلاقة التى ربطت بين مدينة غزة وهؤلاء المكابيين ــ فقد كانت بطبيعة الحال علاقة سيئة حاول فيها يوناثان الاستيلاء عليها فقاومته مقاومة عنيفة مما دفعه لحرق ضواحيها واجبارها على الخضوع وتقديم الفدية فقد جاء في العهد الجديد ٠

[وخــرج يوناثان وطاف عبر النهــر وفى المدن فاجتمع لمظاهرته جميع جيوش سوريا وقدم اشقلون ، فلاقاه أهل المدينـــة باحتفال ، وانصرف من هناك الى غزة فأغلق أهل غزة الأبواب فى وجهه فحاصرها وأحرق ضواحيهـــا بالنار ، ونهبها فسأل أهل غزة « يوناثان » الأمان ، فعاقدهم واخــذ أبنـاء رؤسائهم رهائن »] مكابين ١١ : ٦ ــ ٦٢ ٠

ولهذا التطور الوجيز الطارىء أصبحت عسقلان ــ على العكس من مدينة غزة ــ ببناء علاقات طيبة مع المكابيين والبطالمة في حين واصلت غزة اظهـــار العداء تجاههم مستمرة بتجارتها مع الانباط الذين ناصبوا بدورهم العـــداء لكل من المكابيين والبطالمة ٠

فبدأت كفة عســقلان فى الرجحـــان في هذه الفترة الوجيزة على غزة وميناثها ولعلم النميات أيضا حكمه ، فقد لاحظنا سابقا نشـــاط المسكوكات الغزية فى القرن الثالث قبل الميلاد من خلال قائمة « نركيس » عندما تفوقت على نقود عسقلان ، فاننا نجد الآن انقلاب الصورة فى القرن الثانى قبل الميلاد فقد تفوقت النقود العسقلانيـــة فبينت « قائمـــة نركيس » أحد عشر نمطـــا للنقود العسقلانية مقـــابل نوع واحد للنقـــود الغزية فى القـــرن الثانى قبـــل الميلاد (٦٥) ٠

ومع نهاية القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد تعرضت مدينـة غزة وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد لضربات الاسكندر جانيوس الذى حاول تدمير سوريا وحاصرها سنة كاملة وبعدها اتجه الى رفح ودمرها (٦٦) ٠

---

(٦٥) I.E.J. Vol. 20, 1970, p. 78-79

(٦٦) P.E.F., 1886, p. 184, and I.E.J. Vol. 20, 1970, p. 79-80.

فقطع بالتالى الطريق التجارى الهام للأنباط الواصل الى مدينة غزة وميناثها انتيدون • ليعيد القائد جبانيوس Gabinius من بعد بناء مدينة غزة ورفح (٦٧) •

وما ان أشرف نهاية القرن الأولى قبل الميلاد حتى أنهكت هذه المدينة العتيدة من الضربات المتلاحقة والمتلاطمة مستمرة فى انكماشها وضمورها خلف جارتها الشمالية عسقلان حتى بدأت مرحلة جديدة هى المرحلة الرومانية•

واجمالا لهذه الفترة يمكن القول بأنه اذا انتشرت مظاهر الحضارة اليونانية داخل أسوار المدينة فقط فقد ظل السكان المحيطون بها على عاداتهم وتقاليدهم العربية السامية القديمة فتحدثوا بلغتهم لغة آبائهم متمسكين بمعتقداتهم وأفكارهم حتى ان هؤلاء الساميين الأرياف كانوا النواة والرصيد الذين ابتلعوا غير الساميين الذين حلوا بينهم وطمسوا آثارهم (٦٨) مضافا لهذه قوة العرب الأنباط الذين واجهوا بتحد ضار أعنف القوى اليونانية ، ليمنحوا الخلود للسمات العربية حتى بعد مجيء الرومان •

---

(٦٧) Catalogue of the Great Coinsin the British Museum, Bologan, 1965, p. lxxxi.

(٦٨) هنرى برستد - العصور القديمة - المرجع السابق، ص ٣٦٢ •

الفصل الثامن

الفترة الرومانية

٦٣ ق م - ٣٧٩ هـ

- ظهور قرية طباثا جنوب غزة .
- دخول الديانة المسيحية لمدينة غزة وميناثها .
- تدمير معابد غزة الوثنية وبنـاء اول كنيســة ...



الفترة الرومانية

حققت « روما » نجاحا مرموقا فى خلق امبراطورية لها احتوت عليها الامبراطورية اليونانية بكاملها ، تدعمها قوتها البحرية والبرية ، فان كان الاستعمار الاغريقي قد تميز بالنمط السكني الاستيطاني ، نجد أن الامبراطورية الرومانية أتت بطابع الاستعمار الاستراتيجي فى أساسه ، وفى حين تميز الاغريق بالقوة البحرية المطلقة جمع الرومان بين الخاصية البحرية والخاصية البرية متوسعة بمدى أبعد وحدود أعمق توغلت بها الى قفار الصحارى الى حد لم تصله القوى الاغريقية من قبل فكانت الامبراطورية الرومانية بحق ثنائية الأغراض استراتيجيا واستغلاليا لدرجة الابتزاز الواضح ·

وللوصول لهذه الأهداف الاستراتيجية صنعت هذه الامبراطورية الرومانية لنفسها شبكة من الخطوط البرية لا تقل خطورة وفعالية عن شبكة الخطوط البحرية التى خططتها لنفسها عبر البحار خاصة المتوسط ـ محاولة أن تقضى على ما تبقى من قوى فينيقية ·

فعلى طول امتداد الساحل الفلسطيني أصبح المستوطنون اليونانيون وكلاءهم وتجارهم للنفوذ الروماني الوافد ·

بدأ الرومان بترميم المدن وبناء مدن حربية ، ولمدينة غزة نصيبها بلا أدنى شك كموقع وموضع لا غنى عنه والتى آكيلت لها الضربات المتوالية مع نهاية الفترة الاغريقية ، عندما لعبت دور الكتيبة الأمامية المتقدمة بين القوى المتصارعة ، فلا تغيب هذه الأهمية على الرومان ففى عهد يوليوس قيصر تمتعت المدينة ـ فى مرحلة الانتقال هذه ـ بادارة مستقلة ، لتبدأ فترة من الأمن على يد قوى الكتائب العسكرية التى بثتها الامبراطورية فى مواقع ومدن محورية ذات أهمية خاصة بلغت ثلاث عشرة مدينة عسكرت فى كل واحدة منها كتيبة عسكرية تمركزت فى مدن الساحل الفلسطيني فى غزة وعسقلان ويافا وعكا وفى داخل البلاد حطت كتائب فى بيت لحم وبيت جبرين وسبسطية وعمواس فى الداخل بالاضافة الى الكتائب العسكرية فى بانياس وجرش وبيسان وبصرى وعمان » ·

تأتمر كل كتيبة بأوامر قائدها العسكرى ، لينشروا الأمن حتى

غدا المؤرخون يبالغون فى هذا الهدوء فأسموه « السلام الرومانى Pax Romana» الذي تنعكس آثاره الى شيء من الانتعاش الاقتصـادى الذى حققه الحكام الجدد لما تميزوا به من خبرة ادارية وحنكة عسكرية وسياسية ٠ بهذه القوات العسكرية وما تبعها من مد الطرق ورصفها على الأقل لربط هذه الكتائب ببعضها البعض فلا يعقل لكتيبة رومانية معسكرة فى مدينة من المدن السابقه أن لا يكون لهـا طريق موصل يربطها بكتيبة أخرى ، كما لا يمكن لأى طريق أن يبقى ممتدا الى ما لا نهـاية ٠

فقد دلت الدراسات أن أقدم طريق رومانى فى فلسطين هـو بدون شك الطريق الساحلى الذى كان يربط مدينة انطاكية Antioch بمدينة بطليموس « عكا » والذى أنشـأه نيرو Nero فى بداية عهـده (٦٨) كما عثر على « حجر كيلو » يرجع لسنة ١٣٠ ميلادية فى طريق يربط القدس بغزة يرجع لعصر هدريان ٠ كما عثر على « حجر كيلو » جنوب مدينة عكا يعود للفتـرة الواقعة لسنتى ٢١٠ ـ ٢١٧ ميلادية ٠

فهذا الطريق الساحلى كان يربط القاعدتين العسكريتين أنطاكيـا فى سوريا والاسكندرية فى مصر ٠

ففى القرن الأول الميلادى استقر الوضـع الأمنى لحد ما وبدأت أجزاء الامبراطورية فى الترابط والاتصال احتفظت فيها مدينة غزة بنوع من الارتباط التجارى العربى النبطى فالأنباط ظلوا وحتى نهاية القرن الأول قوة تجارية متماسكة ، وعلى صلة بمدينة غزة حتى مع بداية النصف الثانى من هـذا القرن وفى عام ٦٦ ميلادية تعرضت المدينة وميناؤها أنثيدون لبعض التخريب والحرق الناجم عن غضب الرومان لعـدم الاستقرار فى المناطـق الداخلية من قبل بعض القوى العربية اليهـودية فأحرقت العديد من المدن الساحلية فى قيسارية وعكا وعسقلان ومعها غزة وانثيدون لتبدأ من بعدها حيـاة المدينـة وميناؤها حيـاة طبيعية ليست بالسهلة على حين بدأ الضمور يغلف حيـاة المدن الداخليـة ٠

ففى عام ٦٩ ميلادية مر على غزة القـائد تيتس Titus وهو قادم من مصر الى فلسطين كما عاد اليهـا بعد سقوط القدس وبعد أن وضع فيهـا معسكرات رومانية عسكرية ٠

تبقى المعلومات والدراسات عن غزة وما جاورها طيلة القرن الأول الميلادى شحيحة كفترة انتقالية تعوزها الأحداث الهامة لكننا نقول بأن هذه المدينة

(٦٨) I.E.J. Vol. 9, 1959, pp. 51-60.

استمرت بعلاقاتها مع شبه الجزيرة العربية والبتراء وأيلة حتى عام ١٠٥ ميلادى عندما دخل فى هذا العام Cornelius Palma لمدينة بصرى (٦٩) فاستتباب الأمن قبل ذلك فى الجزيرة والبتراء منح غزة صفة الاستمرارية التجارية معها كمنفذ هادىء على الطريق التجارى الجنوبى ، ومع اطلالة عام ١٠٦ ميلادية وهى سنة محورية فاصلة فى التاريخ الغزى بل وفلسطين الجنوبية ففيها سقطت البتراء العاصمة العربية النبطية تحت قبضة الرومان بقيادة تراجان الذى بدأ فى بناء طريق جديد امتد من الساحل السورى الى أيك « أم المرشرش » مارا بدمشق وبصرى وفيلا دلفيا « عمان » والبتراء ، استغرق هذا الخط فى مده وتعبيده خمس سنوات بدأت فورا بعد سقوط العاصمة البنطية ١٠٦ ميلادية وانتهى سنة ١١١ ميلادية ٠

كان بناء هذا الطريق بمثابة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى ذلك الزمان وعلى حساب طريق غزة ــ ايلات القديم ــ الذى أصبح شبه مهجور ولتنقطع من بعد ذلك الامدادات التجارية القادمة سواء من شبه الجزيرة والهند من خلفها أو البتراء ٠ ومن ثم ليقضى على التجارة الجنوبية الفلسطينية ولتنزوى وتضمحل النقاط المدنية على طريق غزة مثل نصتان « العوجا » وعسلوج وكرنب وسبيطة ولكى لا نسمع عنها شيئا طيلة القرنين الثانى والثالث الميلادى ٠ ولتنتعش من جراء ذلك مدينة تدمر (خريطة رقم ١٣) ٠

فهذا الطريق الجديد كان أول ضربة سددت على يد « تراجان » ضد الاقتصاد الغزى أما الضربة الثانية فقد وجهت الى شعبها بأكمله لتمس صلب عقيدته وتثير الاضطرابات والقلاقل لمدة استغرقت أكثر من قرنين من الزمان وهى بداية انتشار الديانة المسيحية فى فلسطين عامة مع بداية عصر « تراجان» والتى لم تدخل مدينة غزة بصفة رسمية الا فى أواخر القرن الرابع الميلادى حيث ظلت المعابد الوثنية منتشرة فى المدينة (٧٠) يحيط بها سكان المدينة ويقاومون كل فكر ضدها ٠

تألقت مدينة غزة بصورة شكلية فى عصر هدريان الذى خصها بزياراته واقامة المباريات الرياضية فيها فقد قدم للشرق فى سنوات ١٢٣ م وسنة ١٢٥ ميلادية وكذلك فى سنة ١٢٩ ــ ١٣٠ م حتى أضحى عصره يسمى بالعصر الهدريانى كما أصبحت زيارته لمدينة غزة سنة ١٢٩ ميلادية سنة بداية للتقويم الغزى أو الهدريانى Anno Gazae ليقيم في هذا العام وفي غزة العابا أولمبية ومهرجانات رياضية لألعاب القوى والملاكمة والمصارعة قام بعرض الأسرى خلالها لتمزق الحيوانات أجسادهم اربا اربا ٠ وقام بسك نقود نقش عليها اسم

---

(٦٩) Meyer, ibid, ٥١.

(٧٠) Meyer, ibid, p. 57

خريطة (١٣)

« طرق المواصلات الفلسطينية فى العصر الرومانى »

« غزة » ولما كان هدريان كارهـا للديانة اليهـــودية والمسيحية الوليدة فقـد اهتم ببناء الهياكل والمعابد الوثنية في المدينة فقد نشر فى فلسطين عامة مراكز خاصــــة لهذه العبادات جعـل مدينة غزة مدينة العبــادات الوثنيـــة هى وميناؤها أنيثدون كما انتشرت فى عهده وفى غزة تجارة الرقيق فى ســـنة ١٣٤ م حيث أصبح فيهـا أســواق لهم • وفى مجال المواصلات ـ وبعد موت هدريان ـ أصبحت شبكة المواصلات الرومانية فى فلسطين تامة وأخذت شكلها النهائى الذى يربط سواحلها بداخلها حتى دمشق (٧١) •

أما مدينة رفح فلم نسمع عنها الا أقل القليل فلم تعد هى وما جاورها شرقا أكثر من نقاط عسكرية أمامية لكن يبدو أنها ظلت باقية تجتر عظمتهـا بقوة الدفع التاريخى القديم فقد كان لرفح مع نهاية القرن الثـــانى الميلادى نقودها التى سكت وعليها اسمهـا وتعود للامبراطور Severus Elgabonnus سيفروس الجبانوس ، وأخرى للامبراطور أورلياس M. Aurelias مؤرخة بالأحرف والتى ربما تعنى سنة ١٧٧ ـ ١٧٨ ميلادية • لتدل دلالة قاطعة بأنها ما زالت مدينة تتمتع بنظام المدينة الدولة City State على الطريق المتجه نحو مصر •

وتوالت السنون لتشمل القرن الأول والثانى الميلاديين وغزة تحيا حياة شبه منعزلة على هامش الطريق التجارى الرئيسى الجديد شرقا ولم يعد الطريق الساحلى ذاك الممر الاستراتيجى الهام يوم كانت هنـــاك قوى متصارعة فى الشمال والجنوب لتلتقى عندها أو بالقرب منها جحافلهم ، بل أصبحت اليوم امبراطورية واحدة تسيطر على سوريا بأقسامها فى الشمال ومصر فى الجنوب ليصبح هذا الطريق الساحلى مجرد ممر مدنى تحرسه قلة من الجند تقف على أطلال المدن القديمة لتحولها لمخافر عسكرية اتقاء وتحسبا لأى غزو غربى قادم من الشرق أو الجنوب الشرقى •

كما انكفأ سكان المدينة الوثنيون على أنفسهم يفكرون فى كيفية التصدى للهجمة الايديولوجية الجديدة التى بدأت تتربص بهم وتهب عليهم بعواصفها بين الفينة والأخرى لتهز كيانهم الاجتماعى وبنيانهم الاقتصادى تلك الهبـــة القادمة مع أولئك المبشرين بالديانة الجديدة « المسيحية » وكان أولهم فيليب Philip ومن بعده سيلفانس Sylavanus فى عام ٢٨٥ ميلادية ليوصدوا الأبواب فى وجوههم تارة ويحرقوا الطريق أمامهم تارة أخرى فى مقاومة فردية مرة وشعبية فى مرات عديدة وليستمر هذا الصراع طافيا على حياة المدينـــة

---

(٧١) I.E J., Vol. p. 1959, pp. 52.

وميناءها ليغطي على أهميتها وحياتهـا السياسية في أواخر القرن الرابع الميلادى وفي سنة ٣٩٥ م عندما استطاع بروفوريس Prophyrius اغلاق أهم معبد في المدينة لرب الأرباب وهو الاله « مارنا » ويبني على أنقاضه كنيسـة جديدة ٠

عاش سكان المدينة داخل أسوارها لذا لم يكن مناص لاولئك المبشرين من أن يعيشوا خارج أسوار المدينـة داخل مناسـكهم وصوامعهم التي طـال ببعضها المقام لتكون نواة القرى ومن ثم المدن مع الزمن شمال وشرق وجنوب مدينة غزة ٠

فسكان المدينة تمتعوا داخل أسوارهـا بادارة ذاتيـة مستقلة كما دلت نقوش جورديان الثالث Gordian III « ٢٢٨ ـ ٢٤٤ ميلادية » والتي أوضحت أن غزة « مدينة مقدسة وملجأ وتتمتع بحكم ذاتي » كما رضى أهاليها بكلمة « شعب » demos للدلالة على ما كانت له من مكانة كما لو كانوا يمثلون وحدة بشرية متكاملة ومستقلة كما نقش على كثير من نقودها اسم « شـعب المدينة » δηros,rwyévtàδη هذه القوة البشرية المتراصة لدى سكان المدينة قد حالت دون تسرب معتنقي الديانة المسيحيـة من الدخـول بين صـفوفهم فظلوا كما أشرنا قابعين على هوامشها في مناسكهم تحفزا للوصول اليها حتى جاء عام ٢٩٠ ميلادية ليقيم عدد من هؤلاء بلغ الألفين من الرهبان في دير أقاموه جنوب غزة في « دير البلح » ليمثل النـــواة الأولى لقرية دير البلح ومن ثم مدينتها الحاليـة ، أقامه القديس « هيلاديون » الذى ولد من أبوين وثنيين في قرية صغيرة تقع أيضا جنوب غزة على الطريق المؤدى باتجاه مصر بنحو خمسة أميال تدعى « طبـــاثا » Tabatha (ربما كانت في منطقة الديشـــة الآن لما لهذه المنطقة من آثار توحى بمكانتهـا القديمة) فاستطاع هلاريون أن يجذب اليه الكثير من الأتباع خاصة من القبائل العربية التي دخلت معتنقـة المسيحية معه بأعداد كبيرة ممن تسكن « الجنوب حتى وادى العريش (٧٢) فقد جاهر هلاريون بدعوته بينهم صائحـا « لقد هزم المسيح الاله مارنا » اله غزة والذى لم يكن يضاهيه سوى الاله « سرابيس » Sarapis اله مصر المشهور ٠ بقيت اذا الديانة المسيحية تتحفز في صدور أدعيائها الرهبان والنساك الذين اصبحت لهم قرى ليس في الجنوب فقط بل وفي شمالها كما سيجيء ذكره حتى مطلع القرن الرابع الميلادى وعندما اعتنقها الامبراطور قسطنطين ودخل بها المدينة سنة ٣٢١ ميلادية وجعل لها « قسيس » يمثلها في مجلس مدينـة نيس Nice سنة ٣٢٥ م على الرغم من الغالبية الساحقة للسكان الوثنيين

---

(٧٢) غالى ـ سيناء المصرية عبر التاريخ ـ المرجع السابق ص ١١٦ ٠

والمتشبهين بآلهتهم اما سكان الميناء الغزى « أنثيدون » ، فقد اعتنق منهم المسيحية فى سنة ٣٣١ — ٣٣٤ ميلادية بايحاء ومباركة من قسطنطين الذى سر لهذا شرف الميناء بأن لقبها باسم « قسطنديا » تيمنا باسم شقيقه وأصبحت لها أسقفية مستقلة ٠

لم يكن هذا الاستقلال لمدينة قسطنديا الميناء يعجب سكان مدينة غزة الأم الذين يروا بأنها جزء لا يتجزأ منهم ٠ لذا فقد لبى هذا المطلب عندما نجح جوليان Julian فى سنة ٣٦١ ميلادية بالوصول للحكم فأعاد ربط قسطنديا للمدينة غزة الأم منذ ذلك الحين بتسمية « قسطنديا » باسم « ليمنا غزة » «Limena of Gaza» لكن بذور الخلاف ظلت مستترة فى نفوس أبناء المدينة ليطفوا الخلاف بوفاة جوليان سنة ٣٦٣ ميلادية وليعود الصراع بين المدينة الأم وميناءها ليمنا « محوره رفض الانفصال فى حين تأججت نار الخلاف بين سكان مدينة غزة نفسها بين الأغلبية الوثنية والقلة المسيحية التى نجحت وفى عام ٣٦٣ م فى بناء أول كنيسة لها على الرغم من قلتها والتى دعمت من السلطة الحاكمة كما أوضحنا ، اسمتها كنيسة « ايرين Eiren » أى السلام نسبة لبانيها Irenius وأصبح لها تمثيل فى مجلس شيوخ انطاكية (٧٣) ٠

---

(٧٣) Meyer, ibid, p. 61-62.



الفصل التاسع

الفترة البيزنطية

٣٧٩ - ٦٣٤ م



الفترة البيزنطية .

٣٧٩ م – ٦٣٤

تعرضت الامبراطورية الرومانية للانقســـام فى عام ٣٧٩ ميلادية تبعت فلسطين وبلاد الشـــام على أثره الدولة البيزنطية الشرقية فاحتاجت هـــذه الامبراطورية لانشاء قوة دفاعية على تخومها الصحراوية لصد أى هجوم محتمل من القبائل العربية المتاخمة للجنوب فى شمال شبه الجزيرة العربية والنقب ، فقامت بتحصين المخافر والمدن لتبدأ مرحلة جديدة أكثر استقرارا وأوفر انتاجا بدأت معها مدينة غزة وما حولها عصرا مزدهرا الى حد كبير لتعيد أمجادها القديمة خاصة بعد عودة الطريق التجارى ولتتألق مع مطلع القرنين الخامس والسادس الميلاديين مدن النقب الواصلة بين غزة وايلات وشبه الجزيرة العربية من جديد · وذلك لسقوط تدمر للسيطرة الرومانية وتوتر العلاقات بين الدولة الفارسية فى الرافدين والبيزنطية عندنا مما أدى معه لوقف طريق القوافل عبر بادية الشام فعادت معه الحياة الى الطريق التجارى الجنـــوبى فى فلسطين لتربط بين الجزيرة العربية جنوبا وغزة وميناثها على ساحل البحر المتوسط شمالا تجوبها القوافل التجارية مزدانة برحلة الشتاء والصيف وحتى مطلع القرن الســـابع الميلادى فيعم الرخاء ليس فقط مدن المرور الصحراوية « العوجا – عبدة – سبيطة – عسلوج – بئر السبع » بل وتكتظ المدينة بأهلها لتقدم قراها الشمالية « جباليا – ازاليا « النزلة » – بيت لاهيا ... » مما دفع الكثير للكتابة عن هذه الحقبة وما خلفه السكان من آثار لحضاراتهم كأرضيات من الفسيفساء وخزانات وسدود ونقود وأوان فخارية وأوراق بردية عليها كثير من الكتابات والنقوش وما لا حصر لها من الأدوات وما لم يكتشف ربما أكثر وأعظم · وفى أشد الحاجة لمن ينقب ويبحث خاصة فى مدينتنا – « والقطاع » ·

من هنا لا بد لنا من عودة لمدينة غزة وما جاورها من قرى لندقق فيها المسح الشامل لجميع مناحى حياتها التى تعتبر من أوجد المراحل فى تاريخ المنطقة لأنها تمثل مرحلة الانتقال للفتح العربى الاسلامى وعلى أرضها كانت أول معاركهم ·

فممن أجـاد وصـــف مدينتنا غزة وميناثهـا السيد « دونى «Dawney» فى الفترة البيزنطية عندما قال عن ميناثها (٧٤) · انها مملوءة بالسفن المتنوعة،

(٧٤) G. Dawney, Gaza in the early Sixth century, university of ocklohuma Press, 1963, p. 9.

التجارية منهـا وسفن الصيد والسفن العسكرية للامبراطورية ذات الألـوان البيضاء والزرقاء والمطلية باللون الذهبى رمز البحرية ، فى حين ترى التجار ينتشرون على طول الشاطىء ، منهم من ينتظر بضاعته وآخرون يفرغون الأحمال من فوق ظهور الابل القادمة من الشرق عبر بئر السبع والمحملة بالبهارات والتوابل والحرير والقطن والأحجار الكريمة والأكلمة والسجاد المستورد من ايران والهند بالاضافة الى واردات شرق أفريقيا من الفراء وجلود الحيوانات والمنسوجات المطرزة والعطور ، ولجميع هذه السـلع أسعارها المرتفعة لما تواجهه من مخاطر على طول الطريق يرفع من قيمتها وبالرغم من ذلك فان الطلب عليها كبير) (٧٥) هذا على الصعيد التجارى العالمى • فماذا عن التجارة الداخلية الفلسطينية ؟ لما لها من رواج عالمى وبالذات للعـالم اليونانى والرومانى البيزنطى • مثل التين المجفف والبلح والفواكه ــ لما تدره من أرباح جزيلة •

فأريحا ترسل الدبس المصنوع من البلح لأنه ينضج مبكرا لارتفاع الحرارة عن معدلها فى منطقة الغور ومدينة الخليل ترسل لميناء غزة النبيذ المصنع من الكروم لما لها من شهرة فائقة منذ أن زرعه العرب الكنعانيون ويرسل فى أوان فخارية تصنع معظمها فى مدينة غزة نفسها والقرى المحيطة بها •

أما الزيتون فهو من الحاصلات التى ــ على الرغم من وفرته ــ لم يكن له نصيب كبير فى الصادرات الفلسطينية من ميناء غـزة وذلك لأهميته كمـادة استهلاكية أساسية فى فلسطين وتعدد استخداماته كغذاء ودواء ومادة وقود وللانارة (السراجات الفخارية) أما القمح فلم تنتج منه فلسـطين وحتى مطلع العصر المسيحى ما يكفى الطلب المحلى ، بل وغالبا ما يستورد ميناء غزة القمح المصرى والقبرصى فى أكياس (٧٦) •

هذه صورة الميناء الحافلة بالنشاط التجارى التى يخدم التجارة العالمية شرقا حتى الهند وايران وغربا لبلاد الامبراطورية الرومانية وثغرا يفى بالصادرات المحلية وليقوم بدور الميناء البحرى بجدارة فى هذه الحقبة ، ولعله من الجدير والمناسب الآن أن نقف على أبعاد هذا الميناء موقعا وموضعا وتسمية لما أثير حوله من جدل : ــ

(٧٥) G. Dawney, Ibid, p. 39-40.

(٧٦) G. Downey Ibid, p. 41-43.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميناء غزة :

لقد اختلف العلماء ورجال الآثار والباحثون في تحديد موقع ميناء « أنثيدون » الغربي فمنهم من حدد موقعها عند مصب وادي غزة ومنهم سب Sepp والمؤرخ يوسيفوس وفاندفرد vande verde وغيرهم ويعزز آراءهم هذه السيد فلندرز بتري لما عثر عليه من آثار قيمة في منطقة تل العجول سبق أن بينا بعضا من جوانبها ذات مغزى ودلالات استراتيجية واقتصادية قائمة على أساس ان منطقة تل العجول هي منطقة غزة القديمة ومن ثم كان ميناؤها واقع بجوارها عند مصب الوادي ٠

أما السيد شوماخر (٧٧) والذي زار منطقة تل العجول في سنة ١٨٨٦ ميلادية فانه يرى أن ميناء انثيدون كان يقع فوق « تل نقيد » القريب من تل العجول وعلى الضفة الجنوبية للوادي معززا ادعاءه بما عثر عليه من تمثال كبير سنة ١٨٨٠ م يدعى انه للاله جوبتير اله البطولة في هذه المنطقة وقول آخر بأنه تمثال الاله مارنا اله غزة الرئيسي كما بينا (وهو الآن موجود في متحف اسطنبول) مما يعكس أهمية هذا التل وان له شأنا كبيرا ومميزا بالاضافة الى ما يحويه التل من قطع فخارية وأوان أثرية منتشرة في مساحات واسعة ٠

على حين دقق السيد جوري Gueri الفرنسي فاحصا هذه المنطقة فلم يجد — وعلى حد رأيه — أية بناية توحي باهتمام هذه المنطقة أو ما يشير بأنها موقع لميناء (٧٨) ٠

وهناك رأي آخر لا يتعدى المنطقة لكن يتسع ليشمل مدى أكبر امتدادا فقد جاء في تاريخ اللاتين أن ميناء غزة القديمة هي ميناء ومدينة عظيمة على شاطىء البحر تمتد من ناحية دير الداروم « دير البلح » الى موقع الشيخ عجلين وكان لها ضياع كثيرة زال أثرها ومنها قرية « طباثا » (٧٩) ولعل ما اكتشف من آثار على شاطىء دير البلح وما يعثر عليه من آثار سطحية وآبار مائية جنوب الوادي ما يجعلنا نضع علامات استفهام كثيرة فوق هذا الشريط (أنظر الصور ١٣ — ١٥) ٠ أما الرأي الآخر فيتبناه السيد Guthe والذي يرى ان أنثيدون تقع الى الشمال الغربي من موقع مدينة غزة الحالية على شاطىء البحر يؤيده السيد Pliny أيضا وربما غزارة ما يعثر عليه من آثار فوق هذه المنطقة سواء كانت أوان فخارية وحجارة ونقود وبقايا أساسات وجدران أشبه ما تكون بسور

---

(٧٧) P.E.F., 1886, pp. 175-176.

(٧٨) S.W.P., P., Vol. 3, Condorg, pp. 253.

(٧٩) الشيخ عثمان الطباع ، اتحاف الأعزة في تاريخ غزة — ١٩٤٧ — غزة ص ٢٣٩ « غير مطبوع » ٠

يحيط بها لتدل دلالة على موقع ميناء قديم (منطقة البلاخية) ومما يدعم هذا الافتراض تلك المقولة التى تدعى بأن اسم « البلاخية » الواقع عليها هذه الميناء مشتقة من اسم « بلخاريا » ملكة الروم والتى وهبها القيصر أغسطس لهيروس الكبير (٨٠) · ولعل معظم الخرائط القديمة أظهرت موقع « أنثيدون » فى هذا الموضع من شمال غرب غزة (منطقة الابلاخية) · وكان يطلق على باب غزة الغربى « باب الابلاخية وأحيانا باب الميناء وباب البحر » للدلالة على موقع الميناء فى اتجاه غرب موقع المدينة الحالية ·

ولكن يتبادر للأذهان هنا سؤال وربما يكون مدخلا للتسميات التى أطلقت على هذا الميناء وهو هل كانت أنثيدون وقسطنديا وميوما غزة ومن ثم « أجريبا » « وتيدا » تمثل نفس الاسم لنفس الميناء القديم الوحيد أم أنها أسماء لم ترث نفس المكان وأن لكل اسم موقعا وموضعا آخر على الشاطىء ؟! (أنظر خريطة ١٤) ·

ان الذى يفرض هذا التساؤل هو وجود آثار كثيرة فى منطقة واسعة ممتدة امتدادا طوليا كالقاطرة على طول الساحل الغربى والممتد من شمال منطقة الابلاخية (ومعسكر الشاطىء الآن) شمالا وحتى جنوب الشيخ عجلين الآن بقليل أى بمسافة تقدر بنحو ثلاثة كيلو مترات تقريبا ، وبعمق يصل لنحو كيلو متر شرقا قبالة كل منطقة (*) فهل كان الميناء يحتل هذه المساحة والامتداد الطولى الكبير ؟! والا بماذا نفسر آثار المنطقة الشمالية فى الابلاخية ، والأعمدة الرخامية الملقاة على شاطىء البحر وأسفل الميناء الحالى فى الوسط ثم الآثار التى اكتشفت فى سنة ١٩٦٦ م شمال الشيخ عجلين جنوبا « تله بطشان » تتناثر على بعد هذه المسافة · فاذا كانت منفصلة فهل يعنى أن أنثيدون كانت فى الشمال وميوما فى الوسط وقسطنديا أو أجريبا جنوبا ؟! خاصة وان لكل منطقة آثارها الزاخرة والموحية بأن هناك حياة تدب فيها (أعمدة رخامية فسيفساء ــ نقود ــ أوانى فخارية وزجاجية ··· الخ) ·

ويبقى القول الفصل رهين الدراسة الاركيولوجية الجادة لهذه المنطقة لأن الخفى ما زال أعظم والمسح والتنقيب لم يبتدىء بعد وما يعثر عليه حتى الآن وليد الصدفة ·

---

(٨٠) الشيخ عثمان الطباع ــ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ــ ج ١ المرجع السابق ص ١٨٤ وهناك تفسير آخر يقول أن الابلاخية عشيرة من عرب بئر السبع تنسب لعميدها أبلاغ » · والبلغ شجر السنديان ·

(*) فقد تم العثور على بقايا أحواض تدل على وجود حمام فى منطقة بالقرب من المجلس التشريعى الآن كما قال أحد المسنين من أبناء المدينة ·

ولو أن ما نراه هو أن قيام كل ميناء على حدة أقرب الى الصواب وذلك من واقع ما تمليه آثار المنطقة الممتدة على طول الشاطىء والتى تبدو واضحة فى ثلاثة مواضع رئيسية تكشف عن مكنوناتها الدفينة هبوب الرياح الغربية والجنوبية فى مواسم الشتاء فتكنسها فتظهر فيها النقود والأوانى الفخارية والزجاجية وأحيانا تميط اللثام عنها معاول الحفر والتجريف عند البناء صدفة فتكشف أرضيات قديمة وفسيسفاء وأعمدة رخامية تفصح عن ماض تليد • فأيا كانت رسائل التوضيح والاستبانة بشرية أو طبيعية فاننا بازاء آثار لها دلالتها الواضحة فى ثلاثة مواقع لكل موقع ظهير ممتد لمئات الأمتار من خلفها شرقا بشكل شبه متساو •

ففى المنطقة الشمالية والتى هى أول المواقع والمتمثلة فى ميناء « أنثيدون » والتى تكرر ذكرها فى كثير من المراجع والأطالس نجد أن لها ظهيرا يمتد لمسافة تقدر بنحو ١½ كيلو متر وحتى حى الشيخ رضوان الحالى ويبدو أن هذا الميناء كان مسورا حيث عثر على بقايا سور ان لم تكن حجارة لحصن قديم تبعد عن آثار الميناء قرابة ٣٠٠ متر شرقا • لتتناثر بعد ذلك آثار لأدوات وأوان فخارية ونقود رومانية بيزنطية واسلامية وزجاج يشير الى وجود حياة لتؤكد سعة الظهير وامتداده حتى موضع « الشيخ رضوان » التى ربما ورثت الموضع ان لم تكن قد استقرت على هامشه الشرقى فى الفترة العربية المبكرة ثم الاسلامية من بعدها كقوة عربية كانت تفضل البقاء غالبا بعيدا عن البحر • نتجه بعدها للموقع الثانى جنوبا لمسافة لا تقل عن كيلو مترين وعند موقع الميناء الحالى الذى شيدته القوة البريطانية الانتدابية ليسترعى انتباهنا أعمدة رخامية ملقاة بالقرب من الشاطىء مباشرة وأسفل مياهه مع أوان فخارية قديمة توحى بأنها اما كانت مستوردة من شمال فلسطين أو روما لتشييد المعابد والمبانى داخل المدينة ثم القى بها فى البحر على غير عمد أو أنها كانت تمثل بنايات قديمة على الشاطىء جرفتها أمواج البحر خاصة وأن الساحل المقابل لها مباشرة غنى بآنيته الفخارية ونقوده اليونانية والرومانية والنبطية والبيزنطية على اختلاف مراكز سكنها ، مما يوحى بوجود مركز عمرانى مستقل ربما ميناء ورثته الموانىء الحالية ، أما عن ظهيرة فقد عثر على بقايا أحواض رخامية أشبه ما تكون ببقايا حمام رومانى ، تقع على بعد كيلو متر تقريبا شرقا (*) نتجه بعدها جنوبا الى الموقع الثالث الذى يمثل تلة مرتفعة يطلق عليها « تلة بطشان » فقد عثر بطريق الصدفة فى صيف عام ١٩٦٦ م على أرضية من الفسيفساء تعود للقرن السادس الميلادى توحى بأنها تعود لمكان مقدس والى الغرب والشمال فيها عثر على أحواض ربما

(*) قال لى بعض المسنين فى المدينة عن هذه الأحواض التى عثر عليها بالقرب من موقع « المجلس التشريعى المالى » •

كانت لعصر الزيوت والنبيذ أو للدباغة تغطى جميعا مسافة تقدر بنحو مائتى متر مربع ولا تنقطع الآثار خلفها شرقا والمسافة لا تقل عن نصف كيلو متر تقريبا (دار الحاكم العسكرى المصرى) حيث تظهر بقايا شقف ونقود رومانية وبيزنطية (أنظر الخريطة ٩) ٠

كل موقع من هذه المواقع الثلاثة تفصل بينها مناطق لا أثر لشىء قديم فيها مما يؤكد تعددها ٠ كما أن لكل موقع من هذه المواقع الثلاثة دلالته الاستراتيجية القديمة وذلك باحتلاله تلة مرتفعة بنحو لا يقل عن ٤٠ مترا عن مستوى سطح البحر متمشيا مع النظام الاكروبوليسى القديم ٠ فضلا عن ان كل موقع من هذه المواقع الثلاثة له عمق وظهير يتجه شرقا لمسافة لا تقل عن نصف كيلو متر ولا يزيد عن ٢ كيلو متر ٠

وفي أقصى الجنوب وبعد منطقة انفصال لا يوجد فيها أى أثر نجد تلة الشيخ عجلين التى تمثل الحد الجنوبى لمواقع الموانىء الغزية السابق ذكرها كما أنها الحد الشمالى لمنطقة تل العجول الأثرية القديمة حيث لا تنقطع الآثار منهما والتى توحى بأن هذا الجزء من الساحل كان زاخرا بالحياة سواء أكانت مدنية أم زراعية « فكثيرا ما نرى آبارا قديمة وتلالا تحمل فى باطنها تراثا حضاريا ينتظر البحث والتنقيب تدل على ذلك بقايا فخارية ونقود أثرية وأساسات قديمة تنم عن حياة حافلة زاخرة على طول هذا الساحل ٠ كما اكتشف العديد من القبور بطريق الصدفة فى باطن جرف الشيخ عجلين ظهر أثناء عملية شق طريق ساحلى كما أبانت بعض الجرار الفخارية الرومانية ٠ (أنظر الصور ١٦ – ١٨) ٠

هذا عن ميناء غزة أو عن الأماكن المقترحة لمواضع ومواقع موانىء غزة ، فماذا عن المدينة نفسها وهى « غزة » حتى فى الفترة الرومانية وفى نهاية العصر البيزنطى ؟ والذى فتن الكثيرين بها عبر هذه الفترة ، وما هو سر حب هيرودس سنة ١٠٥ م لها عندما أطلق عليها اسم « المدينة العظيمة » ؟ وتغنى بضخامتها وعظمتها العديدون من أمثال « بلنى Pliny واريانس Arrian وايسوبس Eusebius

بقيت مدينة غزة على موقعها فوق تلة ترتفع قرابة خمسين مترا عن سطح البحر بمعزل عن مينائها فلم تؤكد أية دارسة أن هناك التحاقا مدنيا وصل بينها وبين مينائها على الساحل فأقصى امتداد لظهير الميناء أو الموانىء الغزية لا يزيد على كيلو مترين ، اذا فهناك شقة من الكثبان الرملية الزاحفة شرقا بقيت فاصلة بين المدينة ومينائها ٠ وكان يحيط بالمدينة سور ضخم عليه قلاع للدفاع منتشرة فى نقاط استراتيجية أربع بالقرب من كل باب من أبوابها الرئيسية ٠

البحر المتوسط

مواقع المواني القديمة المقترحة

خريطة (١٤)

خريطة توضح الأماكن المقترحة للموانىء القديمة التى وردت أسماؤها

وبداخل هذا السور الضخم بيوت المدينة ذات الحدائق الجميلة ، تتوسطها ميادين مزدانة بالأشجار ويتوسط كل بيت وفى فنائه بالتحديد بئر لخزن المياه ، فأهالى غزة عرفوا كيف يحافظون على كل قطرة من الماء عند سقوط الأمطار ... فالقحط والجفاف أخطر ما يهدد أمن هذه المدينة .. حتى أصبحت الأمطار تشكل عنصرا حيويا فى تراث سكانها ومعتقداتهم الدينية .

أما تخطيط المدينة العمرانى ، فقد شكل اطارها العام سورها التى اتخذ هيئة المستطيل أكثر منه الشكل الدائرى ، فخططت الشـــوارع على النمط الهللينى ، تتقاطع مع بعضها البعض بزوايا قائمة وعند مركز التقاطع تكون هناك ساحات عامة ، وهناك شوارع رسمت بمساحة أعرض من غيرها . بالاضافة لهذا كان هناك شارعان رئيسيان يشطران المدينة من الشرق للغرب . ومن الشـــمال للجنوب ويمثل مركز التقاطع ميدانا كبيرا يوجد فيه « الأجورا » أى السوق المركزى للمدينة .

هذه الشوارع الطولية المتوازية والمتقاطعة تمنح المدينة مزايا صحية تنفذ اليها أشعة الشمس لتغطى معظمها نهارا وتستفيد أيضا من هبوب نسيم البحر والبر المنعش (٨١) .

أما بالنسبة للتركيب الوظيفى للمدينة :

فقد كان الطابع التجارى هو المهيمن على حياة المدينة والمتجه بصفة خاصة لخدمة مينائها النشط فترى المكاتب الرسمية مليئة برجال الأعمال بالاضافة الى حوانيت الحرفيين والذين تتركز خدماتهم لخدمة الملاحين والفلاحين ، فهناك نجارين لخدمة صناعة السفن ومستلزماتها ، وصانعى الشباك والحبال والأدوات الحديدية والنحاسية ومعظم خاماتها كانت تستورد من سيناء . أما الحجارة فتجلب من المناطق المجاورة للمدينة .. حيث يقيم أصحاب كل حرفة فى شارع خاص بهم واستمر هذا الطابع الوظيفى فى بداية القرن العشرين (سوق النجارين ـ الحدادين ـ السروجية ـ الصوافين والدباغين ... الخ) .

ومن المرافق الحيوية داخل المدينة « الحمامات » لما لها من وظيفة مزدوجة فقد تعددت وظيفتها من الاستحمام الى ساحة رياضية يمارس فيها التدليك ومزودة بمكتبة لتأخذ دور المركز الثقافى والاجتماعى .

وكان يشاهد الكثير من الصيارفة وحوانيت الخمور والوكالات التجارية لما وراء البحار داخل المدينة . أما حرفة الزراعة فهى حرفة الفلاحين على هوامش المدينة ،

---

(٨١) G. Dawney, Ibid, pp. 48.

فبفضل « السلام الرومانى » بدأ الانتشار السكانى ومن ثم العمرانى حول المدينة وفى جميع الاتجاهات مستغلين مواقع المدن القديمة تارة والقريبة من خطوط المواصلات وأنشئت – قرى جديدة يعيش أهلها فى بيوت متراصة متكتلة تمنحهم الاطمئنان وقوة الدفاع ، فقد تقدمت الزراعة فى العهد الرومانى والبيزنطى فتقدم فن البستنة وزراعة الفواكه وأقاموا البرك ومدوا القنوات فازداد عدد السكان زيادة كبيرة مما دفعهم للزحف حتى المناطق شبه الصحراوية فى منطقة النقب عزز هذه القرى انتشار ظاهرة الرهبنة والتبشير للديانة المسيحية الجديدة · ومن القرى الغزية التى بدأت تظهر على الخارطة الفلسطينية :

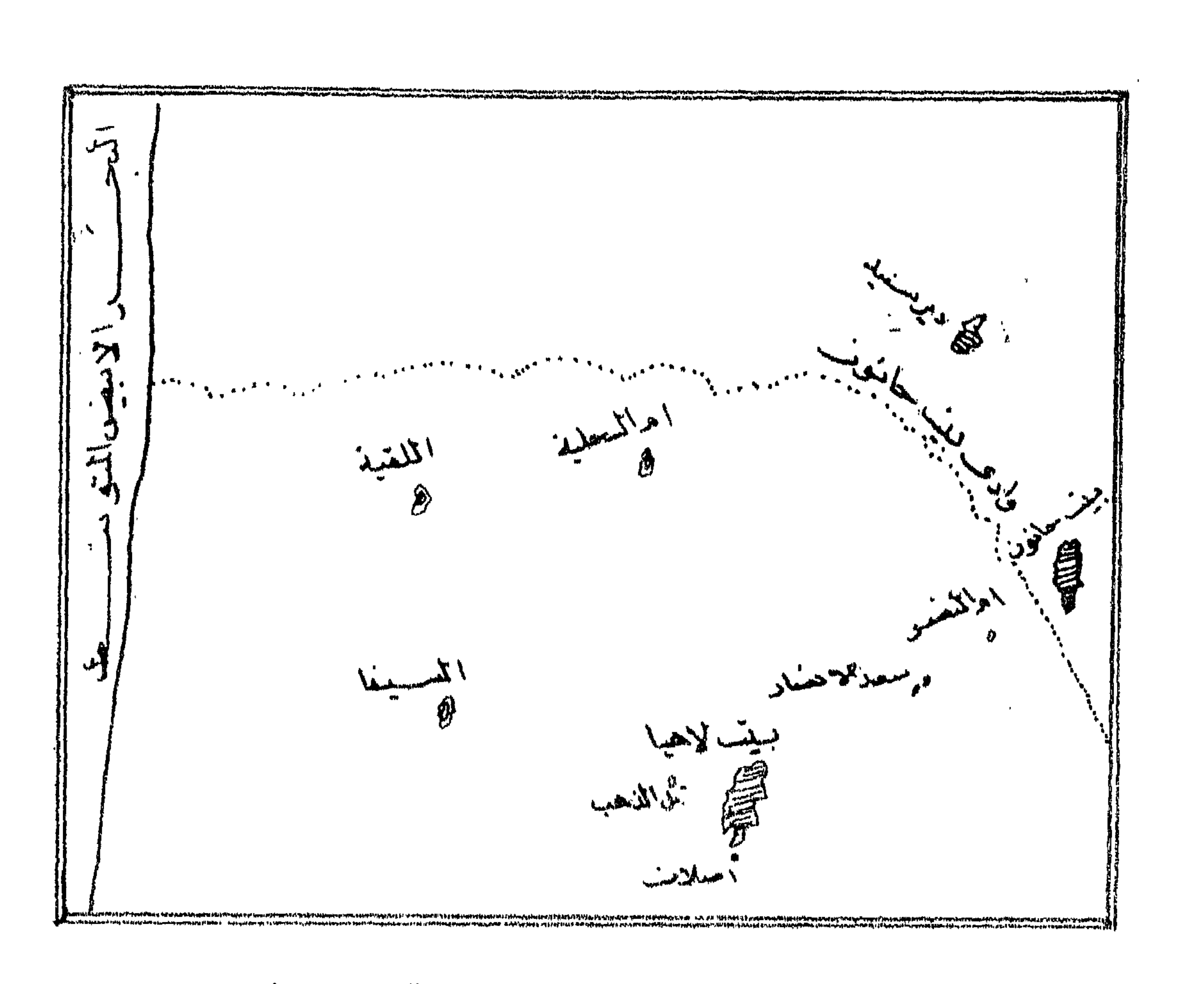
قرية بيت لاهيا : اتخذت موضعها شمال مدينة غزة بنحو خمسة كيلو مترات وأول ما يتبادر للذهن أن اسمها يوحى بأنها « بيت للآلهة » فيدفعنا هذا الى زمن أبعد من الفترة الرومانية فى نشأتها (*) وهنا لا تسعفنا الأدلة والمستندات التاريخية فنعود للقول بأنها مشتقة من اسمها القديم « بتلهى » أو Bitolion التى تقع على « تل الشيخ حمدان » وخربة صعقب » وممن اشتهر من علمائها فى منتصف القرن الخامس الميلادى سوزومانوس ٤٠٠ – ٤٤٣ م · وبهذه القرية كثير من المواضع الأثرية التى هى فى أشد الحاجة لمن يميط عنها اللثام فقد عثر الى الشرق من موضع القرية على قطعة من الفسيفساء فى منطقة تسمى « سعد الأنصار » هذا بالاضافة الى آثار « تل الذهب » الواقع الى الغرب من القرية وبعض الأساسات والمقابر فى منطقة السيفا واللقية وأم السحلية توحى بأشبه ما يكون بنظام القرى المتكتلة غذاها ونماها بعد ذلك الوجود العربى الاسلامى (أنظر الخريطة رقم ١٥) ·

وظهرت للوجود قرية « أزاليا » Asalea وهى النزلة الآن وربما كانت قرية جباليا الملتحمة بها الآن تحريف لكلمة أزاليا والتى نزلها بعض سكان الجبال فى أواخر العصر البيزنطى (٨٢) ·

والنزلة كقرية صغيرة تقع للغرب مباشرة من قرية جباليا الحالية لا يوجد أية آثار تشير أو تكشف عن أسرارها باستثناء حوض رخامى كبير – منقول بطبيعة الحال – عثر عليه غرب القرية مباشرة ربما كان المسقاية على الطريق الواصل لمدينة غزة « يصل طوله الى ٣ أمتار بعرض ١½ متر بارتفاع متر » · عثر عليه بالصدفة أثناء حفر حوض كبير لتجميع مياه الأمطار سنة ١٩٧٩ (أنظر الصورة رقم ١٩ – ٢٠) وعلى عمق ثلاثة أمتار تحت الرمال ·

(*) هناك من الاعتقاد بأنها قرية عربية كنعانية قديمة (بيت الآلهة) تشبه فى اسمها قرية بيت لاهيا الواقعة بالقرب من دمشق ·

(٨٢) مصطفى مراد الدباغ – بلادنا فلسطين – الجزء الأول – القسم الثانى – بيروت ١٩٦٦ ص ٢٨٢ و ٢٨٧ ·



خريطة (١٥) المواضع الأثرية الواقعة حول قريتي بيت حانون وبيت لاهيا

أما قرية جباليا فربما كانت هى • وكما ذكرنا ــ تحريف لقرية « أزاليا » السابق ذكرها خاصة لو وافقنا على المقولة التى تذكر بأن هناك قبائل بدوية قدمت من جبال جنوب سيناء يدعون « الجبالية » والذين يردون لسلالة مائتى جندى من البسنة جاء بهم الامبراطور جستنيان بعد بناء دير «القديسة كترينة» اختلطوا بعدها بالمصريين فأصبحوا مزيجا من الروم والعرب والمصريين واعتنقوا الاسلام بعد النصرانية (٨٣) •

ويبقى ثابتا أن سكان هذه القرى كانوا يمثلون الظهير الزراعى والممول الغذائى الزراعى اليومى للمدينة فيخرج أبناؤها الفلاحــون وكما تعودوا ــ كل يوم صباحا متجهين نحو المدينة ليعودوا قبل حلول الظلام يعرضون حاجياتهم ومنتجاتهم فى أسواق المدينة ، وتستغرق رحلتهم هذه ما بين ساعتين وثلاث سيرا فوق الرمال (٨٤) •

أما التركيبة الاجتماعية للمدينة :

صاغت المعتقدات السائدة حسب فلسفات المفكرين اليونانيين طبيعة وبنية التركيبة الاجتماعية فى المدن خاصة ، ففى مدينة غزة شكلت طبقــة المفــكرين والعلماء سواء الكتاب منهم والأدباء والشعراء قمة المجتمع ولا يعلو عليهم الا طبقة من البيزنطيين يتكلمون جميعا اللغة اليونانية على الرغم من ملامح معظم السكان السامية ، بالاضافة لانتشار عدة لغات من قبل الوافدين من البحارة والتجار ، حتى أولئك الذين ينحدرون من أصول عربية فلسطينية فقد غدا البعض منهم يتكلمون اليونانية ومنهم من يتحدث الآرامية ، ففى المدن الرئيسية عامة تتغير اللغة تبعا للقوى المحتلة فى حين وكما ذكرنا ــ تبقى المناطق الريفية الهامشية بسكانها فى حالة من الثبات والاستقرار والتمســك بلغتهم السامية وتراثهم الحضارى المادى •

واثنوغرافيا ، أصبح سكان غزة خليط من أجنــاس مختلفة عربيــة فلسطينية ويونانيــة كجزء من امبراطورية تميزت بعدم التجانس العــرقى أو الجنسى وحتى الثقافى (٨٥) •

وثقافيا : بلغت مدينة غزة مرتبة هامة فعاشت فترة من الثراء الفكرى وانتشار المدارس والكليات وظهور طبقة من الأدباء لعبوا دورا بارزا فى تطور الأدب اليونانى حتى وصلت الى مصاف أرقى المدن الهامة مثل اثينا وروما

(٨٣) غالى ــ سيناء المصرية عبر التاريخ والمرجع القديم ص ٤٧ •

(٨٤) G. Dawny ibid, pp.67-67.

(٨٥) G. Dawny, Ibid, pp. 31.

وانطاكيا والاسكندرية ولو أن التركيز بحكم الضوابط الجغرافية ـ لابناء غزة فى توجههم العلمى كان فى اتجاه الاسكندرية فهذا هو « بروكوبيوس » الذى درس فى الاسكندرية صاحب الشهرة أيام الامبراطور اناستاسيوس ٤٩١ ـ ٥١٨ م والذى قاوم اغراءات جامعات بيروت وانطاكيا وصور وقيسارية عاصمة فلسطين وقتها فى التدريس فيها وآثر البقاء فى مدينته غزة ، ابدع هذا الرجل فى وصف « ساعة » فى غزة كظاهرة نادرة ومثيرة تزين بها الميادين العامة للمدن الكبرى فقط وكتب أيضا أوصافا لنقوش ورسومات وجدت فى غزة ليوحى لنا ما تبوأته المدينة من مكانة حضارية كما أبدع هذا الكاتب شعرا ونثرا كمسيحى ورع يرد فيها على المعارضين والملحدين من الفلاسفة الوثنيين .

وممن تعتز بهم غزة « جون الغزى » الذى وصف فى كتاباته وفى قصائده المناظر المنقوشة فى حمام عام تظهر قوى الطبيعة على أشكال بشرية .

وهناك الأسقف « زخاريا مثيلين » الغزى كتب تاريخ الكنيسة باللغة السريانية وهذا هو العالم « ثيموثى اوتيموثيوس » والذى تتلمذ فى الاسكندرية وصاحب الاتجاه العلمى فى كتاباته فكتب عن الحيوانات كما حظى الأعراب المتواجدون حول المدينة أو بداخلها بنصيب من دراساته .

لقد جمعت هؤلاء الكتاب مدينة غزة فى مسرحها يتبارون تحت سقفه بشعرهم الكوميدى والتراجيدى كما كان بالمدينة ميدان سباق ولو أنها كانت حكرا للطبقة الثرية دون الفقراء وغالبا ما تعقد فى الصيف مرة كل أربع سنوات تماما كالولمبياد أنطاكية ، فتاريخ غزة عريق فى الألعاب ، ألم يزرها الامبراطور الأولمبيادى هدريان قبل قرون « سنة ١١٧ ـ ١٣٨ م » عدة مرات وحينما جعلت المدينة من زيارته عيدا لها وبداية لتقويم غزى جديد سمى بالتقويم الهندريانى سنة ١٢٩ م وسك نقودا نقش عليها اسم غزة (٨٦) .

وكما قال السيد داونى Downey موجزا ان غزة مدينة جامعية على الساحل الفلسطينى تدعو للفخر مثلها فى ذلك مثل أثينا وقد لعبتا دورا هاما فى الثقافة اليونانية (٨٧) .

ومع نهاية عشرينات القرن السادس وعندما أصدر الامبراطور «يوستنيان» ٥٢٩ م مرسوما يمنع فيه العلماء الوثنيين من تعليم الفلسفة فى أثينا بدأت هذه المدينة فى الذبول لتصبح غزة الملاذ لطلاب التعليم العالى فى العالم ساعدها على

(٨٦) G. Dawny, ibid. pp. 50-52

(٨٧) G. Dawny, Anticoh in the Age of eadosius the great, Norman, 1962.

ذلك موقعها الجغرافي الوسيط وشهرتها التجارية كعقدة التقاء ثقافي حضارى ودخول الديانة المسيحية فيها كحافز ثقافي ومعتمد جديد نافست بها وثنية أثينا وتقاليدها القديمة ‥ ولعل ذلك مدخلا للتحدث عن التطور التاريخى للمعتقدات الدينية فى غزة ·

فدينيا : لا شك أن العرب الكنعانيين والفينيقيين ومعهم المصريين كانوا أول من ألهوا الشمس والقمر والنجوم · هكذا قال المؤرخ أو سابيوس – وأردف قائلا بأنهم أول من صرحوا بأفضليتها وتعلق الحياة والموت بها فأدخلوا بين الناس أساطير الآلة ونشروها ، لذا أشبهت ديانة العرب الكنعانيين والفينيقيين فى كثير من أمورها ديانة مصر وأشور فآلهتهم هى آلهة ممالك النيل والفرات وهى التى اقتبسها منهم اليونان والرومان وحولوها حسب عاداتهم فتطورت الأديان وتمازجت بتطور الأمم وتمازجها (٨٨) ولما كانت غزة واسطة العقد الجغرافى ومنطقة التماس الحضارة فقد أبانت معابدها الوثنية قصة التطور الدينى عند القوة العربية الكنعانية وفى دخول المسيحية مع بداية القرن الخامس الميلادى ·

فكان الوثنيون يملكون ثمانية معابد جميلة منتشرة فى الميادين العامة للمدينة وبداخلها وهى (٨٩) :

١ – معبد الشمس « هيلوس » Helios وهو نفسه الاله « بعل » عند الكنعانيين والذى أدخله المصريون فى عبادتهم وشبهوه بالشمس وعبدوا زوجته « استارتا » أى عشتروت المشبهة بالقمر ·

٢ – أفروديت Aphrodite وهى اله الجمال وهى « عشتروت » الفينيقية والمصرية ، وفسينوس عند الرومان ·

٣ – أبوللو Apollo اله النور وهو معبود السلوقيين أدخلوه عند احتلالهم للبلاد كما يعتقد ماير Mayer

٤ – برسيفون Persephone اله الخضار ويمثل أعلاه انسان واسفله على شكل سمكة ·

٥ – هيكاته رايكان Hecata له القمر ويمثل تمثال لامرأة ظاهرة العورة ·

---

(٨٨) عيسى اسكندر المعلوف – الروابط التاريخية بين مصر وسوريا – مجلة المقتطف – ديسمبر سنة ١٩٢٧ ص ٣٩٦ ·

(٨٩) S.W.P., Vol. 3, ibid, pp. 251.

٦ ــ هيريون Herior. اله البطولة ويسمى جونو وجوبيتر عند اليونان .

٧ ــ تيخائون Tychacon إله الحظ ويبدو على صورة امرأة وقد نقش وجهه ورأسه على النقود القديمة .

٨ ــ مارنيون Marneion معبد الرب العظيم وكانوا يلجأون اليه عند الشدائد وقد بانت صورته على النقود ايضا وهو المعبود الاقوى الذى تخضع له جميع مجالات الحياة الطبيعية .

هذه هى آلهة غزة فى عهدها الوثنى التى أخذت فى معظمها عن الديانة العربية الكنعانية والفينيقية والمتأثرة بالمعبودات المصرية والآشورية كصورة للاقتراحات والعلائق بين هذه الحضارات ليأخذ عنهم اليونان والرومان فيما بعد حتى ليفال ان « هدريانوس » هو الذى اعتنى واهتم ببناء هذه الهياكل لما يكنه من كره للديانة اليهودية والمسيحية والذى جعل فى فلسطين مراكز خاصة لهذه الديانات فخصص مدينة غزة للديانة الوثنية هى وميناؤها « يوما » انثيدون القديمة » سنة ١٢٤م .

استمرت غزة على عبادتها الوثنية قرابة قرنين من الزمان واكثر حينما بدأت الديانة المسيحية دخول فلسطين على يد الامبراطور قسطنطين ٢٨٨ ــ ٣٢٧م ذلك العسكرى العبقرى فمست التغيرات معظم مجالات الحياة جلبت معه لمدينة غزة والمدن المجاورة لها خاصة مدينة رفح وما بينهما تغييرات هامة عقائدية وديمجرافية استيطانية .

لكن المسيحية لم تنتشر بسهولة فى غزة الوثنية بدأها الامبراطور ثيودوسيوس theodosius ٣٧٩ ــ ٣٩٥ م وابنه ركاديوس Arcadius ٣٩٥ ــ ٤٠٨م بسلسلة من الأوامر والتشريعات لوضع حد ونهاية لعبادة الأوثان والطقوس السحرية فبلغ عدد من اعتنق المسيحية فى غزة فى ذلك الوقت ٢٨٠ شخصا تضمهم كنيسة صغيرة واحدة اسمها كنيسة ايرين Eiren أى « السلام » أو ربما نسبة لبانيها Eiren وبها بيت صغير يقطنه أحد رجال الدين فى حين ظلت المعابد الثمانية شاخصة بوسط المدينة ، ولم يستجب سكان المدينة لهذه الأوامر والقوانين الجديدة بل واجهوا المبشرين لها من القساوسة عندما كانوا يعلمون بمقدمهم بأن يوقدوا فى طريقهم الحطب والأوساخ حتى تزكمهم برائحتها وتعمى عيونهم (٩٠) . فأرسلت الامبراطورة

---

(٩٠) G. Dawney, ibid, pp. 10-16.

أفدوكسيا Evdoxia ــ وكرد فعل انتقامي ــ تأمر أركاديوس بتدمير جميع المعابد الوثنية الغزية ٠

فتفادى الامبراطور بحنكته وكياسته هذا الأمر العاطفي واضعا في اعتباره قيمة الضرائب السنوية التى يدفعها أبناء غزة بانتظام وأنه سيفقد هذه المبالغ للجزية والكبيرة لو نفذ أوامر سيدته الامبراطورة لذا فقد قرر غلق المعابد فقط كاجراء أولى ٠

فأحتج أبناء المدينة وبدأ أغنياؤها فى منتصف مايو سنة ٤٠٢ ميلادية من الوثنيين بالتوجه نحو المدن والقرى المجاورة ، ويعتبر الكثيرون أن هـــذا التاريخ يمثل بداية دخـول المسيحية لمدينة غزة ٠ ليأتى بعد ذلك رســول عسكرى من قبل الامبراطورة ويدعى « كينجوس Cynegius متفذا قراراتها فقوبل بالاعتراض والتظاهرات الشـعبية التى واجهها بضرب الشـعب الغزى واحراق معابده التى استمرت تشتعل فيها النيران لمدة عشرة أيام لم يبق منهـا جميعا سوى المعبود « مارنا » رب الأرباب لما كانت له من مكانة عظيمة فى نفوس الناس الذين التفوا حوله بصلابة ما نعين السلطة العسكرية من حرقه مما دفع القائد ومن حوله من رجال الدين فى التفكير والتأمل فى الأمر ٠٠ هل يقومون بحرقه ؟ أو تدميره ؟ وأشار رأى ثالث بنقله فقط لمكان آخر ٠ ولم يحسم الموقف الا طفل صغير لم يتجاوز السابعة من عمره عندما نطق بالآرامية قائلا « المعبد يجب أن يحرق » حيث رأى رجال الدين فى نطقه وحيا من الرب ، فحرقوا المعبد وسلبوا ما به من مجوهرات ثمينة ، ليجوب من بعد ذلك الجنود ورجال الدين المسيحى البيوت بحثا عن الأصنام وتدميرها (صورة ٢١) ٠

ومما هو جدير هنا بالذكر أن ميناء غزة « يوما » قد اعتنق سكانه الديانة المسيحية قبل سكان غزة سنة ٣٣١ م فجعلت بالتالى أساقفهم منستقلة ومن هنا أطلق على الميناء وسكانه اسم « قسطنديا » تيمنا بالامبراطور قسطنطين ممـا أشعل نار المنافسة فيما بينهما فرأى الامبراطور جوليان سـنة ٣٦١ م بضم مدينة الميناء الى غزة تحت حكومة مدينة واحدة ــ اداريا واقتصاديا وسياسيا مع الحفاظ على الاستقلال الدينى لكل منهما ٠

بدأ السكان المسيحيون فى المدينة فى الازدياد وأخذوا فى بناء الكنائس فوق أنقاض المعابد القديمة فأقاموا كنيسة فوق معبد الاله مارنا [والذى يقال ان موقعها هو موقع الجامع العمرى الكبير الآن] فأمدتهم أوزوكسنيا باثنى وثلاثين عمودا رخاميا عن طريق البحر لبناء الكنيسـة التى استغرق تشييدها خمس سنوات لتسمى الامبراطورة بعدها « يوم ايستر سنة ٤٠٦ م » (٩١) ٠

---

(٩١) S.W.P., Vol. 3 ibid, pp. 251

وعلى الرغم من هـــذا بقيت بعض فلول الوثنية ماثلة فى المدينة تقاوم المسيحيين ويذهب ضحية هذا الصراع العديد من القتلى والجرحى حتى عـام ٤٢٠ ميلادية لتستقر من بعد ذلك الأحوال • ويقوم القديس « برفيريوس » أسقف غزة ببناء كنيسة كبيرة تعرف الآن بكنيسة (الروم الارثوذكس) كتب عليها « بسم الله الحى الواحد القدوس » ابتدأ عمارة هذه الكنيسة بسعى الأب برفيريوس مطران غزة سنة ٤٢٥ ميلادية)(صورة ٢٢) •

وبانتشار المسيحية ــ أخذت جذوة الكتابة الدينية تتقد بين رجال الفكر والأدب والشعر كما ذكرنا فى المدينة سابقا ، كما أدخلت هذه الديانة عنصرا جديدا تمثل فى التوسع السكنى وظهور نواة لحركة استيطان مدنى جديد ليس فقط شـــمال المدينة بل وفى جنوبها وشرقهـا فى المناطق القريبة من مواقع الاستيطان الغربى الكنعانى القديم والرومانى •

فان كانت القوى الرومانية قد أدخلت التجارة بأوسع أبوابها ومعهـا غرست العناصر البشرية فى المدن الهامة تحرسها المخافر الرئيسية على الطرق الهامة ، فقد أتت الديانة المسيحية فى العصر البيزنطى تبشر حركة الرهبنة المسيحية ورغبة الأنقياد منهم الى العزلة والقرب من الصحراء ــ وهذه ميزة غزة الحدودية ــ فبنوا الأديرة المنعزلة التى جذبت بدورهـا بعض البـدو من العرب للسكنى حولها فبدأت نواة عدة قرى جنوبية لغزة وهى :

قرية دير البلح أقيم فيها أول دير فى فلسطين أقامه القديس هيلاريون ٢٧٨ ــ ٣٧٢ ميلادية والذى ولد فى « تبته » أو « تافاثا » القديمة وهى خربة أم « التوت الواقعة » على ضفة وادى غزة الجنوبية (٩٢) •

ويقال أقيم فوق قبره مسجد فى وسط دير البلح ، وهناك قول آخر يدعى بأن هيلاريون أنشأ مسكنا أقام فيه ديرين غزة وميوما • (خريطة ١٦) •

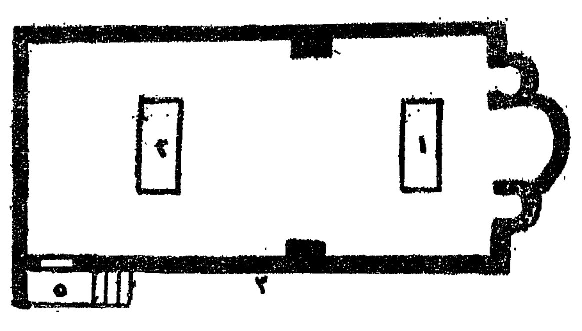
والى الجنوب الشرقى من دير البلح ظهرت وازدهرت مدينة أخرى يطلق عليها سوكومازون Sycomazon كانت مركزا للأسقفية فى العهد المسيحى ولعلها تحريف لاسم « سوق مازن » ومازن قبيلة من الازد والخزرج نزلت ببلاد الشام قبل الاسلام وقد ظهرت هذه المدينة على خريطة فلسطين فى الفترة الواقعة بين ٣٢٤ ــ ٦٤٠ ميلادية • حيث عثر فيها على صهاريج وبنايات وكثير من النقود الرومانية والبيزنطية وكذا الاسلامية (*) • والى الجنوب من موقع المدينة هذه

---

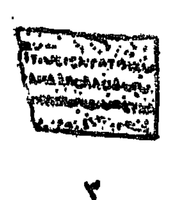
(٩٢) تسريح الابصار فى ما يحتوى لبنان من آثار وكتاب مصــطفى مراد الدباغ ــ بلادنا فلسطين ــ الجزء الأول ــ القسم الأول المرجع السابق ص ٦٨٦ •

(*) تقع هذه الأطلال الآن فى أرض الشيخ حموده شمال بنى سهيلا •

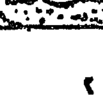




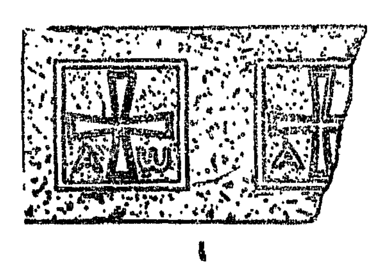
تخطيط لضريح الخضر
" دير البلح "



٣



٢



١

بعض الكتابات التى عثر عليها فى مقام الخضر سنة ١٨٧٢م

وفى منتصف قرية « عبسان » عثر على أرضية من الفسيفساء تدل على أنها جزء من أرضية لكنيسة (صور ١٦ و ١٧) ٠

والى الشرق من دير البلح ، كانت تقع « الدميثة » أو قرية « داثن » جنوب المغازى التى وقع على أرضها أول المعارك الاسلامية — البيزنطية المتجهة نحو غزة وربما كانت أشبه بموقع متقدم لدير البلح فى الفترة البيزنطية حيث عثر بها على صهاريج للمياه وأثار لبنايات قديمة بها بعض الاعمدة الرومانية الرخامية كما شاهدها « شوماخر » سنة ١٨٨٦ ميلادية (٩٣) ٠

ومن المواقع الأثرية الهامة التى لم تعتن بها أية دراسة على الرغم بما ينطق بها سطحها التلى من بقايا آثار من الشقف الفخارية وبقايا لنقود قديمة يعثر عليها فى منطقتين تقعان فى الشمال الغربى من مدينة خان يونس » التى لم يكن لها وجود حتى هذه الفترة — وعلى شاطىء البحر هما تلال « قطيف » « وتله ريدان » الى الجنوب منها كما توجد تلة « جنان » الى الغرب مباشرة من خان يونس وعلى شاطئها (٩٤) ٠

وفى شرق مدينة غزة وعلى ضفاف واديها « وادى غزة » كشفت قنابل الحرب العالمية الأولى صدفة والموجهة من قبل الفرقة الاسترالية ضد الأتراك على أرضية من الفسيفساء فى تل جمه تشبه تلك التى عثر عليها فى غزة وعبسان وبيت لاهيا وسوق مازن وتعود جميعا للفترة البيزنطية أما فسيفساء تل جمه فعليها كتابة جاء فيها « لقد زين هذا المعبد بالفسيفساء الجميلة أبونا الراهب الاعظم ٠٠٠٠ وجورج الورع العظيم ، القسيس راعى الكنيسة فى سنة ٦٢٢ ميلادية وفقا للتقويم الغزى » ٠ (صورة ٢٩) ٠ اى فى عام ٥٦٢/٥٦١ ميلادية ولقد زينت بحيوانات كالأسد وبعض الطيور والطاووس وطيور وحيوانات مختلفة شبيهة بتلك التى عثر عليها فى مدينة غزة وعلى شاطئها فى سنة ١٩٦٦ عن طريق الصدفة ، وهى عبارة عن أرضية الفسيفساء عليها كتابة يونانية ترجع لبداية القرن السادس الميلادى ٥٠٩/٥٠٨ ميلادية جاء فيها (*) :

[« نحن تاجرى الأخشاب مناموس وايزووس أبناء ايزيس المباركة ، أهدينا هذه الفسيفساء قربانا لأقدس مكان من شهر لوس من عام ٥٦٩ »] أى

---

(٩٣) P.E.F., 1886, pp. 177-178.

(٩٤) Map, of Palestin, Sheet II, GAZA 1924.

(★) لما كانت السنة الغزية تبدأ فى ٦١/١٠/٢٨ قبل الميلاد كما استنتج كليرمان غانو لذا اذا ما أردنا معرفة التاريخ الميلادى فعلينا طرح ٦١ من هنا كانت سنة ٥٦٩ ميلادية تصادف سنة ٥٠٨ — ٥٠٩ وقد تم اكتشاف هذا الفسيفساء عن طريق الصدفة بواسطة « جرافة » سنة ١٩٦٦ وقامت بترجمة كتابتها اوتى ٠

ما يصادف عامى ٥٠٨/٥٠٩ ميلادية وقد زينت بحيوانات تمثل أشبال وزانات وأفعى وطاووس ونمر مرقط وحمار وحشى وطائر فى قفص (أنظر صور من ٢٣ ــ الى ٢٨) ٠

هذا النمط كما بينا كان منتشرا فى فلسطين فى الفترة البيزنطية ، كما اكتشف بالقرب من هــذه الأرضــية بعض أحــواض يبــدو انهــا كــانت تستخــدم للصــباغة التى كانت تستورد ــ وفقــا لتحليلات كميــائية ــ خاماتها من ايطاليا واليونان ومن مدن النقب وسيناء كما أثبتت الدراسة أن هذه المنطقة الصناعية كانت أقدم بسبعين سنة من أرضية الفسيفساء هــذه والواقعة فى المنطقة المعروفة باسم « تلة بطشان » بين ساحل مدينة غزة وحى الشيخ عجيلة والتى سبق أن بيناها على الخريطة باسم « قسطنديا » لأن هذه المنطقة تبدو وكأنها لعبت دورا بارزا لكثرة ما يعثر فيها من نقود قديمة متآكلة وسراجات فخارية وبقايا أوان فخارية وزجاجية كما يبدو بين طبقاتها السفلية طبقة سوداء محروقة تؤكد ان هذه المنطقة تعرضت لحريق (٩٥) ٠

وقد عثر على أرضية من الفسيفساء يبدو أنها كانت لأرضية كنيسة فى منطقة عبسان شرق مدينة خان يونس ٠ (صورة ٣٠ ــ ٣١) ٠

أما من الوجهة الادارية :

فقد قسمت فلسطين الى ثلاثة أقسام ادارية هى :

فلسطين الأولى Palestine Prima وتشمل نابلس والقدس والخليــل والسهل الساحلى حتى رفح وعاصمتها ٠ مدينة قيصارية ٠

وفلسطين الثانية Palestine Seconda وتضم طبرية والجليل وقلعة الحصن وعاصمتها « بيسان » ٠

وفلسين الثالثة Palestine Tirtia وتضم بلاد الأنباط وبئر الســبع وعاصمتها « البتراء » ٠

ومن هنا كانت مدينة غزة وقراها تلحق بفلسطين الأولى اداريا وللمدينة مؤسساتها الاجتماعية والقومية المستقلة وتتشكل من سكان المدينة الأصليين ويطلقون على هذه المؤسسات اسم « ديموس » Demos أى الشعب وكثيرا ما جاء ذكر هذه الكلمة على بعض النقود الغزية ٠ وللمدينة مجلس أعيان يضم

(٩٥) I.E.J., Vol. 19, 1969, pp. 193-197.

خمسمائة عضو ينتخبون من بين العائلات الثرية وتمنح الأجانب حق التجنس بالجنسية الغزية باقتراع الشعب . حتى قيل بأن الامبراطور « بومبى » لم يمنح اليهود حق المواطنة الغزية ٠

بالاضافة لذلك كان للمدينة « محكمة بلدية » كأعلى منصب يمكن أن يرتقى اليه ابن المدينة ويتألف من موظفين توكل اليهم مهمة المحافظة على الأمن والنظام العام والآداب وتطلق عليهم « حفظة السلام » Irenarcha أى أشبه بوظيفة الشرطة ، هذا بالاضافة الى وظيفة « مسئول الأسواق » وموظفين لحراسة الاماكن المقدسة (٩٦) ٠ وعودة لحياة غزة الاجتماعية فى القرن السادس الميلادى ـ يجملها السيد « دوانى قائلا » : ـ

ان بمدينة غزة عالمين متصارعين عالم يكافح من أجل الحياة وآخر يعيش فى كنف العلم والاعياد ، أما أولئك الذين يتكلمون السامية فيسود معظمهم الجهل والبطالة وبالكاد يعيشون على الخبز الناشف وبصعوبة قصوى يحصلون على الزيت والملابس انهم عاشوا وماتوا فى شوارع غزة ٠ وهناك العالم الثانى بأناسه الذين يتكلمون اليونانية ويتسمون أعلى المراكز الثقافية والاجتماعية ويعيشون فى فلك القسطنطينية والاسكندرية أبصارهم ترنو دائما نحو المجتمعات المتلالئة فى أنحاء العالم ، حياتهم معظمها أعياد وترف وموسيقى » (٩٧) ٠

هذا التمايز الطبقى كان وليد المعتقدات والأفكار التى تبنتها الافكار والمفكرون اليونانيون فقد كانوا يعتقدون بأن الناس غير متساوين بالطبيعة ، فمنهم من يخلق للحكم وآخر لكى يكون محكوما أما دور الكنيسة فيما بعد فى التخفيف عن هؤلاء البؤساء فقد كان حسنا عندما تقدم للبعض الملابس والمآكل والنقود فى أوقات الكوارث فتهب لتغيث المسيحى والوثنى على حد سواء لكنها عجزت أمام تجارة الرقيق فى المدينة ولم تقدم شيئا ٠

أما الوظيفة الاقتصادية للمدينة اهم عناصرها ، فربما كانت النقود وثيقة وبنية تاريخية لها مغزاها ومرماها الاقتصادى وأيضا الاجتماعى العميق ، فتلقى لنا الضوء على معظم مناحى الحياة فى المدينة وما جاورها ٠

فقد بينا ان بمدينة غزة دار لسك النقود استمرت كما بدأت أيام الفارسين وازدادت سيولتها فى القوة اليونانية والرومانية منها ما حمل اسم أغسطس حتى حكم « ثيلاغا شالوس » ومنها ما حمل اسم « أنطونيوس » « وهدريانوس » سنة ١٢٩ صاحب التقويم الغزى ٠

---

(٩٦) Dawney, Ibid, pp. 58.

(٩٧) Downey, Ibid, pp. 55

وبعضها حملت رسومات بعض المعتقدات الدينيـة مثل ضـم الحـظ « تينماءون » وعلى رأسه صورة غزة المحصنة ، ومنها ما له دلالة اجتماعية عبرت عن وجود بعض المؤسسات الاجتماعية والتى نقش عليها اسم « الشعب Demos وقـد برز بعضهـا حرف M اللاتينى والتى يفسر البعض رمزهـا للاله « مارنا » ويفسر آخرون بأن لها دلالتها الرقمية والتى توضح قيمتها بأربعين نميا (*) ٠

ومن النقود ما ضربت أيام « جستنيان الأول ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م تحمل حرفين لاتينيين L + B (**) ضربت فى الاسكندرية (٩٨) لتشير للعلاقة التجارية فى القوة البيزنطية بين غزة والاسكندرية والتى اوضحنا جانبا من هذه العلاقة عندما تحدثنا عن الحياة الاجتماعية والثقافية ٠ (أنظر الصورة رقم ٣١) كما سكت نقود لمدينة رفح تحمل اسمها سبق أن أوضحناها فى موضع سابق ٠

أما الشق الثانى من الملامح الاقتصادية لمدينة غـزة خاصـة فى الفترة البيزنطية فقد ازدهرت بعد فترة من الضـمور فى القـرنين الثـانى والثالث الميلاديين تقريبا ، وعندما سقطت تدمر تحت السيطرة الرومانيـة ثـم توتر العلاقات بين الدول الفارسية فى الرافدين والبيزنطية فى سوريا أدى ذلك لتعطيل طريق القوافل عبر بادية الشام وعودة الحياة الى طريق التجارة الجنوبية من الجزيرة العربية الى البحر المتوسط ٠ لتنشط من ثم رحلة الشتاء والصيف من شمال الجزيرة العربية وجنوبها وجنوب بلاد الشام على نحو من الازدهار لم تحظ به منذ تاريخ طويل (١٥٠٠ سنة ، تاريخها القديم) ٠ ولتدخل جميع القرى الغزية والقديمة المؤدية لها فى النقب مرحلة من الانتعاش الاقتصادى فى القرنين السادس والسابع ولتبدأ الدولة البيزنطية فى التمركز العسكرى فى هذه المدن لحماية الطريق ـ ولتبعث فيها الزراعة والتجـارة وتقيم بهـا الخزانات والسدود وتحفر الآبار ـ (٩٩) فى نصتان ـ العوجا حفير ـ عبدة ـ كرنب ـ تل الملح ـ الخلعة ـ ») ٠

فأضحت المنطقة الجنوبية بمثابة منطقة عازلة Buffer zone للدولة

(*) هذا الحرف M يشير للرقم ٤٠ فى الأبجدية اليونانية بمعنى أن قيمتها أربعـون نميا ٠

(**) هذان الحرفان يحملان الرقم ١٢ للدلالة على قيمتها باثنى عشر نميا Nummja

(٩٨) د٠ عبد الرحمن فهمى محمد ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ القـاهرة ١٩٦٤ ص ١٩ ٠

(٩٩) Philip Maverson, The Ancient Agricultural Rigime of Nassana and central Negeb, in excavation at Nassana, pp. 211.

البيزنطية ضد العرب المتحفزين حولها والمنتشر بعضهم فى كثير من هذه المدن ..

فالتواجد العربى سبق الفتح العربى الاسلامى لهذه المدن ولا يمكن بأى حال أن نفصل ما هو اسـلامى عن ما هو قبل الاسلام فلقد حاول كثير من المستشرقين اجتثاث كل ما يشير الى العروبة قبل الاسلام وهذه ظاهرة خطيرة .

فالعرب - وعبر رحلة الشتاء والصيف - استوطنوا جميع هذه المدن - فقد وفدت القبائل العربية خاصة قريش واقام بعضها فى غزة وما حولها . فقد أتى لمدينة غزة فى هذه الحقبة عبد مناف كمـا ذكره ابن هشـام ، وكانت قبيلتا « بنو عامر وبنو لؤى » ترحلان أيضا اليها فى الجاهلية وقد أقامتا بل وشكلتا حيا خاصا فى غزة يعرف الآن « بحى بنى عامر » (شمال شرق مدينة غزة القديمة) وكذلك قدم اليهـا « بنو عبد شمس » بن عبد مناف وبها مكان حتى الآن يعرف باسمهم يقال له « جورة الشمس » فى حى الزيتون . أى خارج سور المدينـة القديم اختصارا لجورة بنى شمس لأنهم كانوا ينزلون فى هذه البقعة لخصبها (١٠٠) . وكان يحلو للعرب ان يلقبوا غزة « بحمراء اليمن » قبل الاسلام .

ومات بها جـد الرسـول هـاشم بن عبد مناف أثناء رحـلاته فأقيم له مقام يقع على أطراف المدينة القديمة الشمالية مما أضفى عليها دلالة روحية لدى المسلمين وأصبح من بعدها يطلق عليها (غزة هاشم) .

وقد اشترك كثير من العرب فى مباريات غـزة العلميـة التى أقامهـا البيزنطيون عندما أقاموا لها سوقا به موسم معلوم تبارى فيه الخطباء من روما واليونان وبعض القبائل العربية القرشية حتى وصلت أعظم شهرة لها أيـام ملك فرنسا « كونتران » .

وفى مدينة غزة استغنى عمر بن الخطاب فى الجاهلية لأنها كانت متجرا لاهل الشام كما قال ابن حوقل (١٠١) وكما سيصبح هؤلاء الرجال وهـذه القبائل من كبار طلائع الفتح الاسلامى بعد فترة وجيزة .

كما أبانت خريطة « مأدبا » مكانة مدينة غزة بين المناطق التى أوضحتها

---

(١٠٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة - المرجع السابق ص ١٨٦ .

(١٠١) محمد كرد على - خطط الشام - الجزء الرابع / دمشق ١٩٢٦ ص ٢٥٧ - ٢٦٠ .

من شمال مصر حتى جنوب سوريا مرسومة على أرضية من الفسيفساء تعود لأيام الامبراطور « جوستنيان » (*) ٠

ولعل بعض حجاج اليونان أوجز مكانة غزة عندما مر عنها سنة ٥٧٠ ميلادية عندما قال « غزة مدينة مفتخرة ، مليئة بكل الأشياء المبهجة ، فمعظم رجالها أمناء يتميزون بكل انطلاق وحرية وهم أصدقاء حميمون لكل زائر » (١٠٢) ٠

ولعل وثائق « نصتان » [العوجا ضير] قد كشفت لنا الجذور العربية للمدن الهامشية عبر طريق غزة ـ الجزيرة العربية التجاري والتواجد العربي فيها وكذا تأثر البيزنطيون بها فهناك بردية « مؤرخة سنة ٥١٢ م تبرز أسماء لجنود من أصل عربي مثل فلافيوس اوس بن ابراهيم الذى تنازل لأخيه عن ملكية أداة حجرية لعصر الزيتون (١٠٣) ٠ كما أبانت العديد من الوثائق أسماء عربية الأصل مثل عبد الله ـ والعمير ـ وسعد الله بن المغيرة ٠

وهناك وثيقة من الجدير ذكرها ورد بها اسماء تسعة مواقع جنوب فلسطين أمام كل منها مبالغ مالية أمكن تقدير تاريخها بمنتصف القرن السادس أو قبله بقليل اى فى عهد الامبراطور جستنيان (١٠٤) ٠

وهى كالتالى : ـ

الموقع	المبلغ المطلوب أو المدفوع
من الكرمل	١٤١ ١/٦ نومسما
من خربة الغار (شماع الكنعانية)	١١٤ »
من الخلعة	٤٨ ١/٢ »
من عبدة	٨٢ ١/٣ »
من نصتان	٨٦ »
من زباله	٦٢ ٢/٣ »
من تل الملح (ملحانة الكنعانية)	٧٠ ١/٦ »
من بئر السبع	٨٣ ١/٣ »
من كرنب	٣١ ٢/٣ »

(●) اكتشفت هذه الخريطة على أرضية من الفسيفساء لكنيسة مادبا بشرقى الأردن سنة ١٨٨٤ ٠

(١٠٢) Dawney, Ibid, pp. 162.

(١٠٣) د٠ مصطفى العبادى ـ محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ـ ١٩٨٢ المرجع السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ٠

(١٠٤) د٠ مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ١٨٢ ٠

وتمثل هذه المواضع حصون بيزنطية لحماية الحدود الشرقية والجنوبية لفلسطين Limes Palestina وقد قدر كل من جون واينغ وهنتجتن عدد سكان هذه المدن ما بين ٦ الى ١٢ الف نسمة (١٠٥) في كل من « عبدة » « والعوجا » ٠

وقد جاء في بردية من برديات نصتان ما يوضح مكانة غزة الادارية كمركز وعاصمة ادارية لهذه المواقع وتبرز بعضا من معاناة سكانها ربما العائدة لظروف الجفاف أحيانا أو لكثرة المبالغ المطلوبة منها فيرفعون شكواهم الى الادارة المركزية لهم في غزة طالبين العفو أو التخفيف وقد جاء فيها ما يلي : «١»

« نود أن نحيط نبيل عظمتكم المحببة الى الله علما بأننا تسلمنا رسالة من عظمة السيد صموئيل ، وانه بشخصه يدعونا واياكم لنتوجه فورا الى سيدنا الوالي المبجل لعله يخفف عنا ٠ لأنهم يثقلون علينا وعليكم ، ولا نستطيع أن نتحمل مثل ذلك العبء فاعلم أننا غدا يوم الاثنين سوف نذهب الى غزة وسوف نكون عشرين رجلا ٠ ومع واحد بعد أن تفرغوا من قراءة الخطاب الحالي ارسلوه الى نصتان لقد كتبنا الى سوباطه (سبيطه) مع أطيب التمنيات والمودة » (١٠٦) [٠

رسالة تدل على تظلم اجتماعي مرسل لحاكم غزة في أواخر العصر البيزنطي ٠ وكيف كانت غزة تمثل العاصمة الادارية لمعظم المدن الجنوبية في النقب ابان الفتح الاسلامي ٠

أما رفح فقد احتفظت بموقعها الحدى على الطريق نحو مصر متمسكة بدورها الوظيفي « كنقطة عسكرية » فقد عثر في منطقة رفح على حجر منقوشا عليه كتابات يونانية مؤلفة من عشرة أسطر ورد فيها اسم « اسكندر سيفارس » Severus Alxander الذي كان حاكما في سنة ٢٣٣ م (١٠٧) حيث يرى البعض انه بمثابة « حجر كيلو » أو يرمز « لنقطة تفتيش » على طريق رفح ـ القنطرة ـ وان هذا الحجر يسد فجوة في دراسة السيد طومسون Thomson الذي عثر على اثنين وعشرين حجرا على طريق مصر ـ الشام (*) ٠ ومما يؤسف

---

(١٠٥) عارف العارف ـ تاريخ بئر السبع وقبائلها ـ القدس ـ ١٩٣٤ ص ٥٠ ٠

(١٠٦) د٠ مصطفى العبادي ـ محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ المرجع السابق ص ١٩٠ ـ ١٩١ ، وقبس من كتاب :

F. M. Heichelheim, Roman Syria, an economic survey of Ancient Rom, edited by T. Frank, Vol. IV, Baltimore, 1938, pp. 234.

(١٠٧) P.E.F., 1886, ibid, pp. 184.

(*) عثر هذا الرجل على ٢٢ حجرا من ١ الى ١٨ لسوريا وفينيقيا ومن ١٩ الى ٢١ عثر عليها في فلسطين (رقم ١٩ من البرج بالخليل ورقم ٢٠ من منطقة اللد و ٢١ من دلهدما كما وجد حجر رقم ٢٢في القنطرة بمصر ٠

نه ان هناك كسرا بالحجر عند ذكر المسافة بين سوريا ومصر (١٠٨) [صورة ٣٦] ويشير هذا الحجر الى الحدود بين فلسطين السورية ومصر [كما ورد فى السطرين التاسع والعاشر] بشكل يطابق تلك التى أشار اليها المؤرخ الفلسطينى القيصارى يوسابيوس Eusebius ٢٦٠ - ٣٤٠ م بأنها فى منطقة Peth Tappuh على بعد ١٤ ميلا غرب رفح والذى يقترح بعض الاركيولوجيين بأنها فى منطقة « الشيخ زويد » وكما شخصها كل من ألت Alt ودالمن Dalman (١٠٩) فى نفس المكان تقريبا . ولقد أوضحت خريطة مادبا الحدود الفلسطينية المصرية فى منطقة تقع الى غرب « بيت بالون Bét'ylion والتى ربما هى نفس منطقة الشيخ زويد الآن والتى كان البيزنطيون يطلقون عليها نفس الاسم والتى ذكرها الرومان باسم Bethafru ولم يعد يرد ذكرها قبل القرن الرابع أو بعده (١١٠) .

وفى عام ١٩٧٤ عثر أيضا على حجر فى منطقة رفح مكتوبا عليه كتابة ترجع لبداية القرن الخامس الميلادى وفقا للتقويم الغزى وتتألف من ستة أسطر جاء فيها :

« فى السنة ٤٧٠ من شهر ميكاير Mecheir ١٢

أبلابوس Ablabios ابن ابابلوس Ababoils البالغ ٦٣ سنة شجاع . لا أحد خالد (١١١) . (صورة ٣٠٤) .

فالتاريخ هنا كتب بأسلوب تنازلى كما هو معمول به فى غزة والذى يوافق لسنة ٤١٠ ميلادية وهى الفترة المتأخرة من الوثنية فى غزة والتى كانت تقاوم فيه انتشار المسيحية كما ذكرنا .

ويؤكد هذا الحجر بكتابته مدى التأثير العربى فى الفترة البيزنطية على سكان المناطق الهامشية فان كان اسم « أبابلوس » يونانيا فى ظاهره فهو عربى فى مضمونه .

وفى هذه الحقبة أشار المؤرخ الغزى اللهوانى « قرية بيت لاهيا » سيزومينوس Sozomenus على وجود معابد وثنية فى رفح لعبادة « ابللون كما اكتشف Ibry سنة ١٨١٧ م وهو ينقب فى تل السلطان برفح على خرائب لمعبد كبير » (١١٢) .

---

(١٠٨) I.E.J., 23, 1973, pp. 50-52.

(١٠٩) G. Dalman, p. J.B. 20, 1924, pp. 57.

(١١٠) Avi Yonah, the Madaba Mosiac Map, Jerusalem, 1954, p. 75. No. 120.

(١١١) I.E.J. Vol. 24, 1974, p. 128-131.

(١١٢) P.E.F. 1886 Ibid, p. 184 and F.M. Abel, Histoire de la palestine, Paris, 1922, II, pp. 315-317.

فالكتابة بطريقتها هذه تكشف النقاب مجددا عن ان السكان العرب فى الفترة الوثنية لم يبرحوا المنطقة بأسرها وقد تأثروا بالهللينية شكلا لا مضمونا محتفظون بشخصيتهم العربية التى ورثوها من اجدادهم منذ آلاف السنين متفردة بقسماتها السامية ومتمسكة بأصالتها • ومنتظرة قوة الدفع من قلب الجزيرة العربية لتمنحهم القدرة على الثبات والتجذر فى بطن الأرض العربية •

وتبقى فى منطقة رفح تلال تحمل فى جوفها آثارا لمراكز من العمران سواء المدنى فيها أو العسكرى فالى الجنوب الشرقى من رفح هناك « خربة العدس » وهى منطقة كثيرا ما يعثر الاهالى فيها على « جرار فخارية » تعود بطرازها للعصر الرومانى والبيزنطى وكذا نقود رومانية بالاضافة الى تل مصبح ـ الواقعة الى الشمال مباشرة من خربة العدس بالاضافة الى المناطق الأثرية الأخرى مثل « أم المديدة » وتل رفح التى كانت تقوم عليه رفح الرومانية •

الفصل العاشر

الفترة الاسلامية

- عرب غزة وقراها هم « الدلاه » للفتح الاسلامى
- عمر بن الخطاب يعمل مبرطسا فى غزة قبل الاسلام
- معركة الدميثة « داثر » الفاصلة لفتح غزة
- بلورة نواة قرى عبسان وبنى سهيلا وخزاعة ومعن والنصيرات وسوق مازن .. ودير البلح
- ظهور أحياء اسلامية جديدة حول غزة
- ضرب النقود الاسلامية فى فلسطين



الفترة الاسلامية

خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة العربية المقفر الذى بقى بمعزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين – خرجوا بقلوب خصبة بالايمان ليبنوا دولة الاسلام على الجمع والتأليف والاحاطة بالمعتقدات السائدة ، والعودة بها الى جذورها الابراهيمية التى أنبتت الفروع ، متجاوزين حدود التنظيمات والهياكل العنصرية والقومية العربية ، لأنها لم تقتصر على الشعب العربى •

فكانت دولتهم التى لم يسبقها ولم يلحقها من قبل ومن بعد دولة فى الامتداد والرقعة ، بل هى فى نظر « هالفورد ماكندر » الامبراطورية العالمية «World Empire» الأولى فى التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون (١) •

فاذا كانت الحضارة اليونانية – الرومانية قد حدتها الحدود ، فالعرب المسلمون كانوا أكثر تشعبا وأوسع نطاقا وأجزل عطاء وأوفر انتاجا وأحلى خلقا للشعوب العديدة صاحبة الثقافات المتنوعة ، وفيما اقتصرت الحضارة الرومانية على حد رأى « كروسى Grousset» على حقل السياسة والفتح العسكرى أكثر مما مكنت الشعوب من العطاء فى حقل العلم والفن والأدب فان الحضارة العربية الاسلامية فتحت مجال الخلق والابداع مشجعة الشعوب للاسهام بما عندها من طاقات وقدرات مكبوتة لتنهض بتراثها وفنونها •

ولأول مرة فى تاريخ فلسطين أصبح سهلها وجبلها تحت سيطرة شعب واحد يسوده التجانس الدينى والحضارى واللغوى • فالفتح العربى مازال يمثل ثورة فى تاريخ هذه البلاد التى صهرها وغير من انماط حياتها تغييرا جذريا ليوحدها فى شعب واحد • فالنقاء العربى السامى كان دوما يلج البلاد مقتربا من حدودها يسكنها حينا ويقف على أبوابها أيام التراجع حينا ولا يتركها ابدا •

ومدينة غزة وقراها البوابة الجنوبية كان لها السبق والأولوية فى الفتح الاسلامى ولها فى هذا السبق مبررات : – فلم يأت على مدينة غزة حين من الزمان لم تكن القبائل العربية فيه على اتصال دائم ومباشر معها ابتداء من القبائل المعينية حتى القرون الأولى الميلادية ومن بعدها الفتح الاسلامى وكما

(١) H. J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality, Pelican Books, 1944, p. 74-75.

اوضحنا ذلك سابقا • بالاضافة الى أن غزة تواجه النقب الفلسطيني وهي ثغرة على البحر المتوسط والرئة التي يتنفس فيها تجاريا وهي بالتالي امتداد طبيعي متصل بشبه الجزيرة العربية ذلك الخزان البشري الهائل الذي يرسل الموجات العربية مرة بدافع الهجرة سعيا وراء الرزق لما تمتاز به الشـام من خيرات، واحيانا بغرض التجارة •

ففي القرن الأول الميلادي هاجرت قبائل قضاعة الحميرية من شمال الحجاز الى شبه جزيرة سيناء واراضي غزة التي استوطنت فيها قبيلة « بلى » •

وفي القرنين الثاني والثالث الميلادي وصلت الموجة الأولى لبني كهـلان، التي من بطونها قبيلة « جذام » والتي من بقاياها قبيلة الحويطات ولخـم وآل ربيعة وثعلبة وبني صخر التي استوطنت مناطق جنوب غزة وحول «خان يونس» فيما بعد وما تزال كثير من بطونها تعيش لليوم (*) •

هذه القبائل لعبت دورا في خدمة البيزنطيين كحراس لطرق المواصلات عبر الصحراء « فأهالي نجد أدرى بشعابها » أكثر مما يعي البيزنطيون عن المناطق الصحراوية وكانوا يتقاضون أجورا على ذلك كما أوضحت عديد من « البرديات » التي عثر عليها في نصـتان « العوجا حفير » والتي وصـل أجر العربي كدليل للقافلة متجهة نحو الطور الى ٣½ دينار عند نهاية القرن السادس الميلادي (٢)، كما كانت هذه القبائل العربية بمثابة الرصيد الاحتياطي والقنبلة الموقوتة ضد البيزنطيين خاصة عندما قطعوا وظائفهم فهب العرب من « بني جفنة » وغيرهم من قبائل لخم وجـذام بثورتهم ضـد البيزنطيين فزحفوا نحو أرض غزة ومنهم من اتجه نحو سيناء ليقفوا مع العرب المسلمين مقتحمين واياهم البلاد (٣) •

فلم يكن مستغربا والحالة هذه في التكنيك العسكري البيزنطي بأن تخرج جحافلهم بقيادة حاكم « قيصارية » لملاقات العرب المسلمين عند الثغرة الطبيعية والممر الأرضي المتصل والمعبر التجاري الهام والمسرح البشري للقبائل العربية وبوابة تدفقهم ، في جنوب البحر الميت ، مما جعل « موقعة العربة » على حـد رأي البلاذري هي أول وقائع المسلمين مع البيزنطيين (٤) ومع المنطق الجغرافي

(★) هناك كثير من العائلات العربية الفلسطينية كعائلات العبادلة والقدرة والأحامدة هم جميعا بطن من جزيمة من جرم طيء وللاستزادة راجع كتاب : الشيخ أبي الفوز محمد بن البغدادي (السويدي) ــ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ــ بيروت ص ٥٠ ــ ٥٥ •

(٢) د• مصطفى العبادي ــ محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ــ بيروت ــ ١٩٨٢ ص ١٧٥ ... ١٧٦ •

(٣) المقدسي ــ الذيل على الروضتين وتراجم رجال القرنين السادس والسابع ــ دار الجيل ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٤ ص ٤ •

(٤) البلاذري ــ فتوح البلدان ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ ص ١١٧ •

والطبغرافى هذا كانت الخبرة التجارية قد مكنت التجار العرب أيام الجاهلية أن تمنحهم الدراية فى الدروب واختيار أنسب المسالك وهؤلاء عند الاسلام أصبحوا « الولاة » والقادة العسكريين وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب » وعمرو ابن العاص ·

مدينة غزة هى سوق العرب منذ المعنيين وفى رحلة الشتاء والصيف ففيها قبر جد الرسول « هاشم بن عبد مناف » الذى توفى بها أثنـاء مروره بتجارته كما أيسر عمر بن الخطـاب فى الجاهلية لوظيفتهـا كمستطرق لأهل الحجاز وكان بها عمر مبرطسا » (٥) يكترى للناس الابل والحمير ويأخذ عليها جعلا وعليه كانت غزة « مدينة عربية » على مر العصـور بجدارة واستحقاق لا مراء فيه ومنذ أقدم العصور (٦) ليأتى الفتح الاسلامى معززا ومؤيدا للهوية العربية لها ·

وللدواعى الطبغرافيـة والجغرافيـة توجهت رأس الحـربة الاسـلامية بجيوشها نحو غزة عبر شمال النقب بعد أن تم لهم النصر فى « موقعة العربة » متجهين غربا ليصلوا الى « نصبتان » « العوجا حفير » سنة ٦٣٣ ميلادية وليصلوا الى مشارف غزة وعند جنوبها الشرقى يلتقى الجمعان فى معركة « داثن » سنة ٦٣٤ ميلادية والتى يعرف موقعها الآن باسم « الدميثة » فى منطقة المغازى التى ربما كانت موقعا أماميـا لكل من مدينتى الداروم « دير البلح » وغزة والتى سيأتى ذكرها فيما بعد ·

ثم تتجه القوات العربية الاسلامية نحو غزة المدينة المسورة والمحصنة بقيادة عمرو بن العاص ليدخلوها فى ١٤ شباط ٦٣٤ ميلادية (٧) بعد هزيمة قائدها البيزنطى « بطريقيوس » أكبر قادة هرقل العسكريين فى الجيش البيزنطى · ونجحت بالتالى العسكرية الاسلامية من قطع الطريق بين مصر والشام ليتسنى لها عزل مصر ومن ثم لتبرهن على بصيرة واعية لقيمة الموقع الجغرافى الغزى كمفتاح لضمان فتحهم لمصر وهكذا كان ·· ولتأخذ غزة دورها كقاعدة ومنطلقا نحو مصر مما دفع القائد الاسلامى وثانى الخلفاء الراشدين « عمر بن الخطاب » لتفقدها بعد فتح القدس سنة ٦٣٨م للاطمئنان على جيوشها والعودة ثانية عام ٦٣٩م للتفكير والتخطيط لاخراجها فيما كان يتهددها من اخطار المجاعة (٨) ·

وبدخول مدينة غزة دائرة الاسلام دخل كثير من سكانها المسيحيين فى

---

(٥) ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ بيروت ·· ص ١٥٩ ·

(٦) Meyer, History of the city of Gaza, Ibid, p. 73.

(٧) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ المرجع السابق ص ١٠٩ ·

(٨) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١١٩ ·

دين الله ٠ فمثلوا بين يدى القائد العربى عمرو بن العاص مطالبين باقتسام الكنائس مع اخوانهم الذين بقوا على دينهم ـ فحكم عمرو للذين اسلموا وهم الأكثرية بالكنيسة الكبرى فاتخذوها مسجداً وليسمى باسم « الجامع العمرى الكبير » وبقيت الكنيسة الصغرى « الروم الكاثوليك » للأقلية المسيحية يمارسون شعائر دينهم بحرية سماحة الاسلام فيها ٠ والسيد St. Willibald الذى زار المدينة سنة ٧٢٣ ـ ٧٢٦ ميلادية يقول « ان المسيحيين ما زالوا يحتفظون ببيوتهم وأماكن عبادتهم » وانه سمع عن كنيسة القديس Church of St. Mattias لكنه لم يذكر متى ومن بنى هذه الكنيسة كما جاء على لسان هذا الزائر انه فقد بصره فى المدينة التى كان مرض العيون منتشرا بها حتى اطلالة القرن العشرين (٩) ٠

وانتهى الفتح الاسلامى لفلسطين بأستيلائهم على أهم المدن الساحلية الخصبة « قيصارية » سنة ٦٤٠م وعندما فتحوها ودخلها القائد العربى معاوية ومن معه « وكان بها خلق من العرب (١٠) ليؤكد التواجد العربى فى هذه المدينة قبل الفتح الاسلامى ٠

التفتت بعدئذ الدولة العربية الاسلامية فى ادارة البلاد فقسمتها اداريا الى أجناد وولايات وكور ٠٠ وقسمت فلسطين الى ولايتين : الأولى وهى الجزء الشمالى من البلاد وعاصمتها مدينة « طبرية » والثانية وتحتل القسم الجنوبى من فلسطين وعاصمتها « الرملة » وكانت القدس تابعة لها ٠ [انظر خريطة رقم ١٧] ٠

ولقد حافظت الادارة العربية الاسلامية فى ايامها الأولى على النظام البيزنطى بأشخاصه كما ذكر فى بعض البرديات لكن هذه الادارة كان لها ايجابياتها فقد ورد فى احدى البرديات التى عثر عليها فى « نصتان » التى كانت تتبع مدينة غزة ما يلى « [٠٠٠٠ لقد تسلمنا منك أيها السيد سرجيوس بن جورج مقدار ما أعطيتنا ٣٧٪ نومسما عدا حسب مسح الأرض الذى قام به العرب عما منح لك بأمر أميرنا الوالى مسلم من اقطاع بنى دعر »] (١١) هذا يعنى أنه قد تم مسح الأراضى بمجرد الفتح الاسلامى لها ولو أن هناك اكثر من احتمال لتاريخ هذه البردية فهناك المسح الأول أمر به الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ ميلادية وتبعه مسح آخر بنصف قرن أمر به عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ الموافق ٦٩٢ ميلادية ويرى ناشر البردية أن الاحتمال الثانى هو الأرجح ٠

ولقد عثر أيضا على تسع برديات من العصر العربى الاسلامى توضح عن ضريبة « الرزق » كتب غالبيتها العظمى بالعربية واليونانية وقد صدرت جميعا

---

(٩) Meyer, History of the city of Gaza Ibid, p. 76.

(١٠) البلاذرى ـ فتوح البلدان ـ بيروت ، ١٩٥٧ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

(١١) د٠ مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ١٨٦ ٠

من مكتب الوالى فى غزة الى أهل « نصتان » العوجا حفير • مؤرخة جميعها بين عامى ٥٤ هـ و ٥٧ هـ (٦٧٤ ــ ٦٧٧ ميلادية) واخرى كتبت سنة ٧٠ هـ (٦٨٩م) • وقد جاء فى احداها وهى البردية رقم ٦٠ ما يلى بالخط العربى : ــ

بسم الله الرحمن الرحيم

(من) الحارث بن عبد الى أهل نصتان
من كورة غزة من اقليم الخلوص « الخلصة »
فاعطوا عسر بمدى بن خلد من بنى
سعد بن ملك رزق ذى القعدة
والمحرم وصفر وشهرى ربيع
سبعين مدى قمح ومثله زيتا
وكتب أبو سعيد فى ذى القعدة
من سنة أربع وسبعين • [انظر صورة رقم ٣٥] •

وهكذا ترى من هذه البردية مكانة غزة الادارية والتى هى مقر الوالى الحارث بن عبد وتتبعها نصتان « العوجا حفير » التى هى بمثابة كورة تابعة لاقليم الخلوص « الخلصة » ثم يحدد النص الضريبة ويسميها « رزقا » أى طعام الجند وأرزاق المقاتلة ، والتى هى ربما كانت استمرارا للضريبة الرومانية التى تقدم لطعام الجند annona Militaris وقد جاء فى البردية كلمة «عسر» أى « عاجل » لأن مثل هذه الضريبة تتطلب السرعة فى ارسالها من هنا فهى شهرية تختلف فى كميتها من شهر لآخر لاهميتها للناحية العسكرية وعليه كانت عينية تؤخذ من المحاصيل مثل القمح والزيت (١٢) •

وهناك وثيقة أخرى تضفى لنا دلالات أخرى فهى تخرج من والى غزة ايضا ليحدد أوامر « الرزق » نصفها عينا والنصف الآخر نقدا كما يتضح من النص : ــ

بسم الله الرحمن الرحيم • من الحارث بن عبد
الى أهل •••• من كورة غزة من اقليم سوق مازن
فأعطوا عسر عبد الله بن
علقمة من بنى سعد بن زير رزق

---

(١٢) د• مصطفى العبادى ــ المرجع السابق ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ •

خريطة (١٧) اقسام فلسطين الادارية فى القرن الثامن الميلادى

شهرى ربيع تسعة وسبعين
ومئتى مدى قمح (ومثله زيتا وثمن)
تسعة وسبعين ومئتى مدى قمح و
مثله زيتا ثمنية عشر د
ينرأ وثلثى دينر وكتب
.... فى شهر ربيع الأول
من سنة ستة وخمسين .

تأتى بعد ذلك الترجمة اليونانية ثم مراجعة الحساب
مجمعه تسعة وسبعين ومئتى
مدى قمح ومثله زيتا وثمن مثل
ذلك ثمنية عشر دينرا
وثلثى دينر .

وهكذا يتضح من هذه البردية أن هناك نوعا من ضريبة الرزق النقدى بالاضافة الى الطلبات العينية ، والضريبة النقدية هذه استخدمتها الادارة الرومانية والعربية على حد سواء وأطلق عليها الرومان adaeratio ومعناها « قيمه» أو « ثمن » كما استعملتها الادارة العربية وأساس تقديرها بالدينار الذهبى (١٣) .

كما أوضحت البردية اسم « سوق مازن » وهى مدينة عربية واقعة شمال شرق مدينة « خان يونس » (أرض الشيخ حمودة) .

وبناء على هذه الوثائق التى حررت بعد الفتح الاسلامى بحوالى ثلاثين عاما نلحظ أن القوى العربية الاسلامية حافظت على مكانة غزة الادارية كمقر للوالى الذى بدأ يمارس سلطاته على القرى المحيطة بالمدينة وكذا فى مسح الأراضى تمهيدا لاستغلالها . وعسكريا ومن قبيل الاحتياطات الأمنية واحتسابا لعودة البيزنطيين من البحر ، قامت الادارة العربية الاسلامية بترميم ما خربته الحرب فأقاموا الحصون . والرباطات والقلاع لمراقبة الساحل (١٤) ، ولو أن هناك من يفسر هذه الظاهرة بأنها كانت بمثابة نقاط ساحلية « لاستقبال الأسرى المسلمين وافتدائهم بالمال عند هذه النقاط ، وبالنسبة لمدينة غزة فيعتقد أن

---

(١٣) د. مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

(١٤) د. السيد عبد العزيز سالم وزميله ـ تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط الجزء الأول ـ الاسكندرية ، ١٩٧١ ص ٥ .

ميناء « تيدا » بالقرب من الابلاخية ، الآن كان هو « الرباط » الغزى لورود هذا الميناء على لسان ابن حوقل وخريطته بالاضافة الى غنى هذه المنطقة وظهيرها بالملحقات الأثرية من نقود وشقف فخارى وزجاج ٠٠ الخ وأن « رباط غزة » كان واحدا من سبعة رباطات منتشرة على الساحل الفلسطينى فى القوة العربية الاسلامية (١٥) ٠

والمسلمون كقوة برية بدأ توجههم نحو الداخل ، جذبتهم المكانة الدينية المقدسة للمدن الداخلية فأسسوا مدينـــة « الرملة » التى انشأها عبد الملك ابن مروان سنة ٧١٥ ــ ٧١٧م فأخذت تنافس المدن الفلسطينية جمعاء لتأخذ دور العاصمة ولتصبح أعظم المدن الفلسطينية تليها بيت المقدس فى الكبر (١٦) لتتبعها غزة الذى بدأ الضمور يعتربها خاصـــة وقد أصبحت مركزا لحركات الجيوش العباسية والطولونية المتحاربة ، ومسرحا للاقتتال بين الدولة الطولونية والاخشيدية هجعت على أثرها المدينة وانكفأت على نفسها فى زمام أراضـــيها وداخل أسوارها لتدخل فى عداد « القرى » الصغيرة التابعة للعاصمة الفلسطينية الفاطمية « الرملة » ولتنافس مينائها موانىء عسقلان وعكا وصور (١٧) فقـد ساءت الاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى عصر الخلافة العباسية وأصـــبحت الأمور تسير من سيىء الى أسوأ وبدأ الاحتراب يمزق الأهل منقسمين بين « قيس ويمن » فى اقتتال داخلى به اشتعلت نيرانها منذ عام ٧٨٨ ميلادية فى دمشق لتنتشر أوارها وتلهب نارها ربوع فلسطين وشرقهـــا الاردن حتى مدينـــة غزة جنوبا ، فكان القيسيون من حزب العباسيين فى حين اصطف اليمنيون مشايعين الأمويين وسكان غزة كانوا يميلون « لليمانية » وتحزب أبناء الخليل وقراها وبعض قرى رام الله الى « القيسيه » (١٨) فكثيرا ما أشعلت هذه الفتنة التى استمرت قرونا وحتى أربعينيات القرن التاسع عشر من قبل الغزاة نار الاقتتال بين الشعب الواحد ٠ ولعل استعانة معاوية بالعناصر العربية اليمنية لتسيير السفن البحرية دفعهم للتمركز على الساحل وذلك لتفوقهم على القيسيين الذين تمركزوا فى الداخل (١٩) واستمر الوضع المتردى مع الدولة الفاطمية لكثرة حروبها والتى أصبحت غزة ــ كقدر لموقعها ــ ممرا للجيوش عند توجههم للشام شمالا تارة لقتال مناوئيهم وأخرى للقضاء على من يتصـــدى أن يثور من أمراء بنى طيء وسائر العرب فى فلسطين بقيادة « مفرج بن الجراح » عنـــدما قضى

---

(١٥) Meyer, Ibid, pp. 78.

(١٦) ابن حوقل ــ صورة الأرض ــ المرجع السابق ص ١٥٥ ٠

(١٧) د٠ السيد عبد العزيز سالم وزميله ــ تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط الجزء الأول المرجع السابق ص ٢٧٢ ٠

(١٨) عمر البرغوثى وخليل طوطح ــ تاريخ فلسطين ــ القدس ــ ١٩٢٣ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٨ ٠

(١٩) د٠ السيد عبد العزيز سالم وزميله ــ المرجع السابق ص ٦ ٠

عليه العزيز سنة ٣٦٥ هـ٠ولعل هذا هو الدافع الذى أدى بالفاطميين لاستدعاء بطون قيس من بنى سليم وبنى هلال الى أن يسكنوا مصر ليأمنوا بهم جانب بعض القبائل العربية النازلة ببلاد الشام ، كما يؤتى بعد ذلك الى مديرية البحيرة بقبيلة « سنبس » احدى بطون طىء والقاطنة حول مدينة غزة ليأمن الفاطميون جانب هذه القبيلة ٠ وهذه القبيلة ـ سنبس ـ لم تكن الوحيدة التى اضطرها الفاطميون للهجرة الى مصر بل الحقت بهم قبائل أخرى من طىء فعملوا هناك على تثبيت مراكزهم فازداد نفوذهم فى أواخر أيام الفاطميين (٢٠) ٠

وزاد الأمر ضعفا وتدهورا ما أصاب البلاد من اشتعال نار الفتنة بين الفاطميين والسلاجقة الذين بدأوا يغزون البلاد بعد أن استولوا على العراق واقتحموا أراضى فلسطين بقيادة مليكهم السلطان ألب ارسلان حتى غزة وعسقلان وفشلوا بالتالى فى الوصول نحو مصر وردوا خائبين سنة ٤٦٩ هـ بقيادة ملكشاه بن ألب ارسلان أمام ثورة الشعب العربى الفلسطينى فى وجهه فواجهها بالفتك بالسكان وقتل الآلاف منهم فى القدس والرملة حتى غزة التى قتل من أهلها أناس كثيرون (٢١) ٠ لتعود البلاد ثانية للسلطة الفاطمية ٠

هذه الحروب انهكت القوى الفاطمية ودفع ثمنها سكان البلاد الذين تعرضوا أيضا الى ويلات الكوارث الطبيعية كالزلازل والأوبئة ففى شتاء ١٠٣٣ ـ ١٠٣٤ ميلادية ضربت الزلازل فلسطين على مدى أربعين يوما بصورة متقطعة دمرت فيها بيوتا من غزة والخليل وطبرية كما دمرت ثلث مدينة الرملة ونصف بيوت نابلس ومعظم منازل أريحا واكتسحت الامواج ميناء عكا لمدة ساعة ٠ وقبل ذلك بعام وفى سنة ١٠٣٢ ميلادية كان قد ضرب مدينة غزة زلزال آخر ومعها عسقلان وكانت الخسائر شديدة حدث على أثرها مد بحرى طغى على سواحل المدينتين (٢٢) ٠

وصلت البلاد على أثر ذلك ونتاجا للاهتراء السياسى والتدهور الاقتصادى مع ما صاحبها من ضربات وكوارث طبيعية الى أدنى حد من الضعف يغرى أية قوة متحفزة للغزو فكانت الحملة الصليبية أمامها الطريق شبه ممهد ٠

وقبل أن نتحدث عن هذه الغزوة نقف قليلا لأهم الظاهرات الديمغرافية والثوابت الجغرافية العربية التى تبلورت فوق هذه الارض وضربت جذورها فى التربة الفلسطينية مزدهرة بالمناخ العربى الاسلامى صاحب الفتح الجديد متدفقة على اثره موجات عربية من بطن الجزيرة ومتجهة نحو امتداد الصحراء

---

(٢٠) السويدى ـ سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ـ دار احياء العلوم ـ بيروت ص ٥٨ ٠ لا يوجد تاريخ ٠

(٢١) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١٢٧ ٠

(٢٢) I.E.J. Vol. I, 1950, pp. 51.

الطبيعي المتصل جنوب الشام فى فلسطين فتمركزت فى النقب وجنوب غـزة مدعمة التواجد العربي قبل الاسلام فى المنطقة والذى سبق أن أشرنا اليه ونحب أن نؤكده وهو أن التواجد العربي فى المدن الفلسطينية فى العصر البيزنطى قد سبق الفتح الاسلامى ومهد له وعضده ، تماما كما أن الحضارة العربية هى حضارة اسلامية مما لا شك فيه ولا انفصام بينهما ٠

اذن عززت القبائل العربية بعد الفتح الاســلامى التواجد العربى من قبله جنوب مدينة غزة مشكلة قرى صغيرة سرعان ما أسهمت فى تشكيل مدن بالقرب منها فيما بعد وكان من هذه القرى : ـ

قــرية عبسان

ولعلها ترجع « لبنى عبس » وهم بطن من قبيلة لخـم التى سكنت هذه المنطقة فى صدر الاسلام وقبله وقد ورد ذكرها على لسان الهمذانى المتوفى سنة ٩٤٥ ميلادية (٣٣٤ هـ) حيث جاء فى كتابه جزيرة العــرب [ومـن جشم ابن جذام بطن يقال لهم بنو جرى ينزلون بالرمل من الفرما وبنو بياضة من جذام وبنو راشـــدة من لخم وينزلون بالبقارة والواردة والعريش ويغلب على عريش بنو الثعــل من بنى جـــرى ومن بنى الثعــل بعبسان قرية بداروم غزة] (٢٣) ٠

يستشف من ذلك أن قرية عبسان هــذه تتبع اداريا مدينـــة الداروم « دير البلح » والتى أوضحنا مكانتها فى القوى الرومانية ـ البيزنطية ـ لأنه وحتى هذا الحين لم يكن لمدينة خان يونس من وجود والتى لم تظهر الا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كما سيتضح ٠

قــرية خزاعة

ولعل هؤلاء هم « الخزاعله » الذين هم بطن من سنبس من طىء السابق ذكرها وقد قيل ان من سنبس طائفــة ببطايح العراق وطائفة بدمياط بمصر وكان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين (٢٤) ٠

قرية بنى سهيلا :

نسبة الى « بنى سهيل » وجدهم سهيل بن عمرو بن عبد شمس وهـم بطن من جذيمه جرم طىء مساكنهم مع قومهم جرم ببلاد غزة وقال الحمدانى

(٢٣) الهمذانى ، جزيرة العرب ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٢٤) السويدى ـ سبائك الذهب ، المرجع السابق ص ٥٨ ٠

بأنهم كانوا سفراء بين الملوك وكان يجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببنى فهيد ثم اختلطوا بهم وكانت من أعمالهم « قريتا سطر (*) والخصاص » (٢٥) ٠

قرية معن :

تقع الى الشرق من بنى سهيلا ويطلق عليها أصلا « معين » وتنسب الى « معين » القبيلة العربية التى هى بطن من بطون سنبس المار ذكرها ٠

ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذه القبائل قبل الاسلام وفى العصر الجاهلى كانت تعبد الكواكب والنجوم (٢٦) « فكانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشترى وطىء سهيلا » (٢٦) ٠

قرية دائن :

ذكرها ياقوت بأنها قرية من قرى غزة هزم فيها الكفار سنة ١٢ هـ حيث أوقع المسلمون بالروم أول هزيمة فيهم (٢٧) ٠ وقد أطلق عليها « الدميثة » وفى الوقت الحالى يطلق عليها « المغازى » نسبة الى مجاهد اسمه « المغزا » يوجد له ضريح فى المنطقة أسفل سدرة وبالقرب منها آثار لأساسات وحجارة قديمة تشير لآثار قرية كانت تحتل مساحة لا تقل عن سبعين دونما يحيط بها خزانات « هرابات » ما تزال آثارها حتى اليوم باقية تطوق القرية القديمة من الشمال والشرق والغرب (لهذه الهرابات فوهة دائرية يصل قطرها مترا وتأخذ الشكل البيضاوى أسفل سطح الأرض وتصل قاعدتها الى قرابة ثلاثة أمتار) (صور ٣٦ ــ ٣٧) ٠

وكانت تمول القرية بالمياه ، ويبدو أن قرية الدميثة هذه قد لعبت دور نقطة الدفاع الأمامية لمدينة « الداروم » جهة الشرق ، فقد شاهد « شوماخر » عندما زارها سنة ١٨٨٦ ميلادية وبالقرب من السدرة بناية مربعة الشكل على بقعة مرتفعة عند حائطها الجنوبى عمودان وعمود ثالث عند الحائط الشمالى (٢٨) ويصل عرض الحائط الذى يسورها الى ٢٩ بوصة ، بالاضافة

(*) السطر : هى الأرض الواقعة الى الشمال مباشرة من مدينة خان يونس الآن ٠

(٢٥) السويدى ، المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٢٦) صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ ص ٤٣ و د٠ عفت الشرقاوى ــ فلسفة الحضارة الاسلامية ــ بيروت ١٩٧٨ ص ٨٦ ٠

(٢٧) ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ ج ٢ ــ دار احياء التراث ــ بيروت ص ٤١٧ ٠

(٢٨) G. Schumacher, P.E.F., Researches in Southern Palestine, 1886, p. 193.

لوجود عـديد من الأعمـدة الرخامية والجيرية والـذى لم يجد مثيلا لها ـ على حد رأيه ـ الا فى منطقة عسقلان ٠

أما الرأى القائل بأن « الدميثة » هى مدينة « أنثيدون » الساحليـة والتى سميت « تيدا » Teda كمـا اعتقـد « بلينى » Pilīny فهـذا اعتقاد خاطىء بلا شك ، فقد أورد السـيد سميث بأن المسلمين انتصروا بالقرب من أنثيدون Anthedon الساحلية على البيزنطيين » (٢٩) ٠

فلا حاجة للربط والتحريف فى التسـمية بين أنثيدون وداثن والدميثة فقد ورد فى خريطة ابن حوقل لفلسطين والشام فى الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى (٩٧٨ م) ذكر « تيدا » قبالة مدينة غزة وعلى شاطئها (٣٠) أما بالنسبة لما ذكره « سميث » فلا غرابة أن تواصل الجيوش الاسـلامية بعد استيلائهم على مدينة غزة زحفها نحو الشمال الغربى لاحتلال أنيثدون أو « تيدا » على الساحلية وبناء الهرابات كما أوضحنا سابقا ٠

قرية سوق مازن :

استمرت هذه القرية فى وجودها بعد الفتح الاسلامى وقد جاء ذكرها فى برديات نصـتان السابق ذكرهـا ولا يوجد من آثارها سـوى بعض « الهرابات » وأساسات قديمة لمناطق سكنية وطرق قديمة وشقف ونقود ترجع للعصر الرومانى والبيزنطى والاسـلامى وتعرف الآن بأرض الشـيخ حمودة (صور ٣٨ ـ ٣٩) ٠

النصيرات :

اسم قبيلة عربية ترجع لنسل « عبد الجابر الانصارى » ومن ذريته الشيخ أحمد الانصارى * والذى أنجب ثلاثة أولاد يدعى أحدهم « نصير » ويسكن بالقرب من الداروم (٣١) وهم جميعا بطن من الأنصار من الأزد من القحطانية ، وقد انتشرت هذه القبيلة فيما بعد فى الأراضى الواقعة جنوب وادى غزة مباشرة حتى دير البلح ٠ وأخذوا يمارسون الزارعة واستوطنوا المنطقة الواقعة شمال مصب الوادى مباشرة والتى يطلق عليها « النصيرات » ٠

---

(٢٩) A. Smith, Historical Geography of the holy land, Ibid, p. 189.

(٣٠) ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ بيروت ص ١٥٨

(٣١) احسان النمر ـ تاريخ نابلس والبلقاء ـ الجزء الثانى ـ نابلس ١٩٦١ ص ١٧٣ ٠

(*) يقال أن لهذا الرجل ثلاثة أولاد أحدهم ناصر ونزل قرية عتيل والآخر ياسين وسكن كفر قدوم والثالث نصير الذى عاش فى منطقة النصيرات جنوب وادى غزة وسميت لذلك باسمه ٠

أما الداروم « دير البلح » فقد فتحها المسلمون وملكوها سنة ١٣ هـ بعد موقعة داثن ، ويقال لها « الدارون » ويبدو أنها لم تكن أكثر من قلعة عسكرية بها دير للعبادة كما بينا سابقا بدأ يعززها تجمع المسلمين من بنى زريق السابق ذكرهم والنصيرات كما جاء على لسان الهمذانى سنة ٩٤٥ ميلادية ، لكنها على ما يبدو ووفقا لما جاء فى كتاب معاوية الى عامله فى جند فلسطين أنها لم تكن مركزا جذابا للاستيطان وفقا للمقاييس الديمغرافية فى اختيار مواقع المدن الاسلامية فقد جاء فى رسالته « اتخذ لى ضياعا ولا تكن بالداروم المجداب ولا بقبيبسا المغراق واتخذها بمجارى السحاب » فاتخذ له الطبانى من كورة عسقلان • (٣٢)

وهكذا كانت مجارى السحاب معيارا وأساسا فى اختيار أنسب المواضع والمواقع للسكنى عند المسلمين وقد قال زياد بن حنظلة عند فتح الداروم « دير البلح » :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها
شد الخيول على جموع الروم

يضربن سيرهم ولم يمهلنهم
وقتلن فلهم الى داروم

رفح :

لقد أبدى الخليفة عمر بن الخطاب تحفظاته عندما تقدم قائده عمرو بن العاص يقود جيش المسلمين لفتح مصر سنة ١٨ هـ ٦٣٩ ميلادية » وقد أوضح هذه التحفظات بعد أن تقدم جيش المسلمين فى الأراضى المصرية على هيئة كتاب أرسله للقائد عمر هذا نصه : ــ

« أما بعد فان أدركك كتابى هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، أما ان كنت دخلتها أو شيئا من أرضها فامض واعلم أنى ممدك » •

فالتفت عمرو بن العاص الى من حوله وقال « أين نحن يا قوم ؟ فقالوا : فى العريش •• فقال : وهل هى من أرض مصر أو الشام أجابوا : انها من أرض مصر وقد مررنا بعمدان رفح مساء أمس فقال : هلموا بنا اذا قيامنا بأمر الله وأمير المؤمنين » (٣٣) •

---

(٣٢) ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ج ٣ ــ بيروت ، دار احياء التراث ــ المرجع السابق ص ٤٢٤ •

(٣٣) ابراهيم أمين غالى ــ سيناء المصرية عبر التاريخ ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ، ١٩٧٦ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ •

هكذا جاء ذكر رفح كمدينة حدية سبق لنا أن أوضحنا هذه المكانة والوظيفة لها فى عديد من المواقع الحربية والحجارة الأثرية التى اكتشفت فيها لتأتى هذه الرسالة وتؤكد هذا الدور .

أما بالنسبة للاشارة التى وردت فى رد المسلمين على قائدهم والخاصة بعمدان رفح ، فهناك من قائل بأنها مسلات فرعونية وضعت كحد للأراضى المصرية الفرعونية أما ما هو موجود عبارة عن أعمدة رخامية ثلاثة وكما وصفها « شوماخر سنة ١٨٨٦ ميلادية بأنها أعمدة رخامية اثنان منها منتصبان ويمثلان الحدود بين مصر والشام (ارتفاع الاثنين ١٣ قدما بقطر ١٦ بوصة) ويقعان أسفل سدرة ويتجه الحد غربا نحو البحر وشرقا جنوب خربة أبو عمد (٣٤) والثالث ملقى .

وفى تقويم البلدان لأبى الفدا قال « حد ديار مصر الشمالى بحر الروم من رفح الى العريش ممتدا على الجفار الى الفرما الى الطينة الى دمياط الى ساحل رشيد الى الاسكندرية الى ما بين الاسكندرية وبرقة » .

لذا فان هذه الوظيفة الحدية لمدينة رفح لم تكن الا وليدة الظروف الجغرافية الطبيعية فهى تمثل حدا مناخيا بين البحر المتوسط والصحراء الجافة قبل أن تكون حدا سياسيا فهى بحق جزء من وحدة فزيوغرافية تشمل الجزء الغزى من صحراء النقب وأقصى الطريق الشمالى العربى لسيناء وهى بالتالى جزء من اقليم أوسع لا يقتصر على هذه الوحدة الفزيوغرافية فقط بل يمتد شرقا عبر وادى عربة وشمال الجزيرة العربية وتاريخ الحدود منذ العصور الكنعانية ــ الفرعونية حتى الوقت الحالى بين لنا أن الحكام كانوا يقصرون اهتمامهم مع مراكز العمران والريف المنزرع فى مصر وفلسطين كى يرسموا حدودها .

وابان القرن الحادى عشر الميلادى أورد لنا أبو الحسن المهلبى عن رفح قائلا : ــ

وأعيان مدن الجنار العريش ورفح والورادة وأهلها بدو متحضرون ولجميعهم من ظواهر مدنهم أجنة أملاك واخصاص فيها كثير منهم ــ وبمدينة رفح سوق وجامع وفنادق وأهلها من لخم وجذام يزرعون فى الرمل زرعا ضعيفا يؤدون فيه العشر وبها عدة دكاكين يشترى منها كل ما يحتاج المسافر » (٣٥) .

هذا الوصف يعكس ظروف المدينة الاثنوغرافية والاقتصادية كمدينة واقعة فى منطقة التخوم الحدية الصحراوية « الجنار » وكيف استطاعت هذه

---

(٣٤) G. Schumacher, P.E.F., 1886, Ibid, p. 183-184.

(٣٥) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ــ الجزء الثانى ــ المرجع السابق ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

القبائل ممارســـة الزراعة واقامة الجوامع والفنادق مستغلين موقعهـا كما عرفوا كيف يستثمرون هذا الموقع كما بينا فى الفترة البيزنطية ٠

هكذا كان الاستيطان العربى الاســلامى الجديد الذى بدأ فى الغـالب خارج المدن ليعمروا خرائب الأرض ومنهم من دخل المدن لتكثيف التواجد العربى القديم وبناء أحياء لهم وهذا يقودنا للحديث عن مدينة غزة ٠

مدينة غـزة :

ظلت مدينة غزة المدينة الادارية التى يتمركز فيها الوالى فقد أوضحت وثائق نصتان أن الوالى منذ بداية الفتح الاسلامى قد اتخذ منها عاصـمة ادارية له تخرج منها أوامره ويستقبل فيها أبناء رعيته من القرى المحيطة بها وقد بقيت المدينة مسورة ذات أبـواب (باب الداروم من الجنوب بالقرب من جامع الشمعة الآن وباب عسقلان من الشمال وبالقرب من جامع السيد هاشم الآن وباب الخليل من الشرق بالقرب من مدرسة هاشم الاعدادية وباب البحر غربا ويقع على سفح التلة الواقعة عليها بلدية غزة الآن) ٠

دخل المسلمون المدينة وأخذوا فى ترسيخ تواجدهم ومراكز استقرارهم القديمة حول المدينة كما فى منطقة « جورة الشمس » جنوبا وفى شرق المدينة (فيما سمى بعد ذلك بحى الشجاعية) وفى شمال المدينة استقرت أيضـا قبيلة « المشاهرة » التى هى بطن من بنى زريق وهم بدورهم فرع من بنى ثعلبة من طىء القحطانية والتى لا يزال هــذا الحى يحمل اسمهم والذين سبق أن ذكرناهم فى النصيرات والداروم (٣٦) ٠ هؤلاء هم الذين سيمثلون النــواة للأحياء الشرقية والشمالية والجنوبية للمدينة فيما بعد خاصة فى القوة الأيوبية والمملوكية » ٠

أما من دخل أسوار المدينة فقد استوطن على أطرافها وهم قبيلة بنى عامر ابن لؤى والذى يطلق حتى الآن على هذا الحى اسم « حى بنى عامر كجزء من حى الدرج وعلى الرغم من هذا التواجد العربى الاسلامى ، فقد ذكر المقدسى عند نهاية القرن العاشر الميلادى ـ٩٨٥ م ـ بأن معظم المدن سكانها من المسيحيين عدا مدينـه « الرملة » التى أسسها الخليفة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ ٧١٧ م) ٠

بث الاعلام والآثار الاسلامية فى غزة :

ومن أعلام مدينة غزة فى هذه الحقبة الاسلامية المبكرة « الامام الشافعى»

---

(٣٦) المقريزى ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١ ـ الجزء الأول ـ ص ٤٨١ ، القاهرة ١٩٥٧ ٠

محمد بن ادريس بن عباس بن عثمان بن شافع ٠ الذى ولد بها سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) ويرجع لأب كان من تجار قريش واستقر بغزة قبل الفتح الاسلامى ، وعلى الرغم من اختلاف الكثيرين فى أى البلاد أو المدن كان مسقط رأس الامام الا أن ابن العماد يقول « ولد بغزة أو عسقلان أو اليمن أو منى »

وروى عن الشافعى نفسه أنه قال « ولدت بغزة وحملتنى أمى الى عسقلان » وان صحت الرواية عن الشافعى بأنه قال « ولدت باليمن » فانه قد أراد باليمن قبائلها فى غزة وهم أهل أمه لأنها « أزدية » (٣٧) ٠ ومما هو معروف أن بمدينة غزة منطقة أو حى يسمى « يمن » وان سكانها يميلون كما بينا سابقا الى « اليمانية » ٠

ومن رجال غزة أبو اسحق ابراهيم بن يحيى الكلبى الغزى الذى ولد سنة ١٠٤٩ م فى المدينة ثم ذهب لدمشق سنة ١٠٨٨ م وتعلم القانون ثم ذهب لبغداد وتعلم فى الكلية النظامية ثم استقر به المقام فى خراسان وقد جمع أشعاره فى مجلد ضم خمسة آلاف سطر وتوفى سنة ١١٣٠ ميلادية فى بلخ (٣٨) ٠

ومن أقدم الآثار الاسلامية فى غزة « جامع الشيخ زكريا » عند سفح المدينة الغزى وفى حى الدرج بنى فى بداية القرن الخامس الهجرى كما جاء على احدى بلاطاته : « عمر هذا الايوان المبارك ان شاء الله تعالى بأمر مولانا ملك الأمراء ٠٠٠ السيفى كافل المملكة الغزية أعز الله أنصاره فى شهر محرم سنة عشرة وأربعمائة » ٠

وبداخل هذا الجامع يوجد ضريح الشيخ زكريا نقش عليه « هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى زكريا التدمرى توفى فى شهر صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ٠

وقد أعيد بناء هذا المسجد ولم يبق من آثاره القديمة سوى مئذنته (صور ٤٠ ـ ٤١) ٠

ومما يسترعى الانتباه وجود مزارات لثلاثة من أولياء الله الصالحين بنيت عليهم مساجد ويرجعون لأسرة واحدة تمت بصلتها لمولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتوزعون فى ثلاث مناطق تحيط بمدينة غزة الأم ويتسنمون أعلى التلال المحيطة بها فأحدهم وهو « الشيخ عجلين » يقع فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى لغزة وعند ساحل البحر والثانى « الشيخ رضوان » ويقع على تلة تقع فى أقصى الطرف الشمالى الغربى والثالث الشيخ

---

(٣٧) عبد الغنى قمر ـ الامام الشافعى فقيه السنة الأكبر ـ القاهرة ـ دار القلم ـ ١٩٧٦ ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(٣٨) M. A. Mayer, Ibid, p. 79.

محمد البطاحى « المنطار » على تلة مرتفعة أقصى شرق المدينة وعلى مسافة كيلو مترين تقريبا فى حين يبتعد عن مسجدى الشيخ رضوان والشيخ عجلين بمسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات .

ويذكر النابلسى لدى زيارته لمزار الشيخ عجلين والشيخ رضوان بأن كليهما ولدا الشيخ أبى عرقوب الذى هو الشيخ ابراهيم دفين قرية حمامة وأنهما (الشيخ عجلين والشيخ رضوان) حفدة الشيخ على بن عليل (٣٩) وللشيخ محمد البطاحى صلة قربى بهم ، وجدهم جميعا وهو الشيخ على بن عليل بنى عليه جامع شمالى أرسوف على الساحل الفلسطينى كتب على ضريحه « بعد البسملة .. هذا مقام سلطان العارفين وسيد الأولياء الكاملين شمس الوجود وبحر الفضل والجود من شهدت كراماته وعمت الأنام بركاته الشيخ على بن عليل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن بن السيد الجليل الصحابى عبد الله بن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب الفاروقى القرشى رضى الله عنه توفى يوم السبت لأحد عشر خلت من ربيع الأول سنة أربعماية وأربع وسبعين » (أنظر الصور رقم ٤٢ ـ ٤٥) .

ويعلق القاضى مجير الدين الحنبلى على جدهم الشيخ على بقوله « انه على بن عليل وهو المشهور عند الناس بابن عليم (بالميم) وأما نسبه الصحيح الثابت عليل « باللام » وله ضريح بشاطىء البحر المالح بساحل أرسوف وعليه مشهد عظيم مأنوس وبه منارة مرتفعة (٤٠) توفى سنة ٤٧٤ هجرية .

وقد اتخذ كل شيخ لنفسه مزارا فوق تلة مرتفعة فالشيخ عجلين أقيم عليه مسجد فوق جرف مرتفع على شاطىء غزة للجنوب الغربى من موقع المدينة غزة الأم وقد عمر المسجد أحمد أغا متسلم غزة سنة ١٢٠٧ هجرية كما جاء على ضريحه ، ويبدو أن هذه المنطقة كانت مأهولة فى الفترة البيزنطية لوجود قبور قديمة وجرار فخارية ترجع فى شكلها للعصر البيزنطى وكذلك من الأعمدة والتيجان الرخامية المتناثرة فى المنطقة نفسها كما ذكرنا سابقا والشيخ من أبناء القرن الخامس الهجرى أما بالنسبة للشيخ رضوان فيبدو أن منطقته كانت عامرة بالسكان فقد بنى على ضريحه قبة ومسجد ومدرسة وكان لها أوقاف وقد جدد مزاره فى القرن العاشر كما جاء مكتوبا على الضريح وعلى اسطوانة ايوانه (قد بنى وعمر هذا المقام الشريف المبارك المعروف بالشيخ رضوان أمير الأمراء فى غزة مراد بك سنة احدى وسبعين وتسعمائة » ثم اندثرت

(٣٩) النابلسى ـ الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ـ مخطوط .

(٤٠) القاضى مجير الدين الحنبلى ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ عمان الجزء الثانى ص ٢٤٢ .

المدرسة وضاعت أوقاتها وأصبح يطلق عليها بعد ذلك « ضريبة القبة » كانت تحفها أشجار الزيتون والكروم حتى دمرها الأسطول الانجليزى فى الحرب العالمية الأولى نهائيا . (٤١)

وقد تم العثور عند حفر أساسات مستشفى الزهور (تل السكن) على شاهد قبر كتب عليه « هذا قبر السيدة فاطمة بنت الشيخ رضوان توفيت الى رحمة الله تعالى سنة أربعة عشر وخمسمائة » .

أما مزار الشيخ « محمد البطاحى » وهو من أبناء القرن الخامس الهجرى فيقع فوق تلة الى الشرق من مدينـــة غزة هى بمثابة مفتاحهـــا الشرقى يطلق عليها « تلة المنطار » والمنطار ظاهرة عســكرية استغل فيها الخلفاء الراشدون التلال العالية المطلة على المــدن والقرى فى فلســطين فأقاموا فوقها أبنية أطلقوا عليها « مناطر » (مناطير) وجعلوا بها أفراد يراقبون ما حولها كأبراج المراقبة فى الوقت الحاضر ، فاذا ما داهم العدو المنطقة أنذر هؤلاء سكان المدن باشعال الدخان نهارا والنار ليلا فينتقل الخبر بسرعة ليأتيهم المدد فكان لهؤلاء « المناطير » ومن بداخلها قيمتهم العســكرية ولا أدل على ذلك من انتشـــار اسم « منطار » على عديد من المواضع المرتفعة فى أنحاء فلسطين ، لذا لا مجال للتحريف فى تفسير كلمة منطار بتفسيرات بعيدة عن الواقع دس بعضها المستشرقون * .

ليس اذن من قبيل الصدفة أن نجد هؤلاء الأتقياء يتمركزون على طول امتداد الساحل الفلسطينى من « أرسوف » شمال مدينة يافا حتى ساحل غزة الجنوبى ، فربما كان هؤلاء من المرابطين الذى يجاهدون فى سبيل الله داخل أبراجهم ورباطاتهم ومناطيرهم البحرية والبرية تيمنا بجدهم الصحابى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى شــجع على تحصين الســواحل فحذا حذوه معاوية بن أبى سفيان فحصنها وشحنها بالمقاطعة واقطع من ينزلها القطائع (٤٣) فنجحوا فى صد البيزنطين عند غزوهم الساحل فى سنة ٢٥ هـ وكذلك فى سنة ٤٩ هجرية ، فحققت مدن المرابطة الساحلية فى كل من عكا وقيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة حتى رفــح » (٤٤) الهدف من وجودهـــا فى مواجهة هؤلاء الغزاة فشدت بالتالى لها العديد من أتقياء الله الصالحين الراغبين

---

(٤١) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزه ـ المرجع السابق ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٤٢) عمر البرغوثى وخليل طوطح ـ تاريخ فلسطين ـ المرجع السابق ص ١١٠ .

(*) هناك من فسر « المنطار » بعدة تفسيرات لا سند لها مثل « المن طار » أو أنها تحريف لاسم « منطريوس » أول قس دخل غزه ، وهى من الاجتهادات التى يعوزها الصدق .

(٤٣) البلاذرى ـ فتوح الشام ـ الجزء الأول ص ١٥٢ .

(٤٤) قدامه بن جعفر ـ الخراج وصناعة الكتابة ـ شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدى دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ ١٩٨١ ص ١٨٨ .

فى الجهاد فى سبيله فكان من بينهم على بن عليل الذى دفن فى أرسوف ذلك الرباط الاسـلامى المعروف ليخلفه من بعده حفدته يرابطون فوق تلال مرتفعة على طول الشاطىء الغربى فى تلة الشيخ رضوان المرتفعة ٦١ مترا فوق سطح البحر والشيخ عجلين (٥٠ متر فوق سطح البحر) كمناطير ساحلية ثم تلة المنطار التى فوقها مزار الشيخ محمد البطاحى (٨٥ مترا فوق سطح البحر) شرق غزة كمنطار برى وكأن الثلاثة قد تسنموا مناطير عالية قديمة وما زالت تحرس المدينة الأم من جهاتهـا المختلفة • فما هو معروف اهتمـام المسلمين بالأساطيل البحرية وبنائها طيلة الفترة الاسـلامية المبكرة وحتى أيام الدولة الفاطمية أيام المعز لدين الله الفاطمى ومن بعده ابنه الذى بنى المراكب البحرية العديدة والتى كانت تذهب للمدن الساحلية الفلسطينية السابقة الذكر حتى القرن الرابع الهجرى بدأت بعدها هذه القوة فى الضعف حتى القرن الخامس الهجرى •

والى الشرق من الجامع العمرى الكبير مباشرة وفى موضع مكتبة الظاهر بيبرس قديما والمدرسة الحسنية فيما بعد يوجد ضريح قاضى قضاء غزة جاء عليه الكتابة التالية « بسم الله الرحمن الرحيم ، كل نفس ذائقة الموت • هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى شيخ الاسلام وقدوة الأنام قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد الأغبر الغزى الشافعى تغمده الله برحمته توفى الى رحمة الله تعالى فى شهر رجب سنة أربعمائة » •

وينتسب لنفس العائلة الشيخ حسن الأغبر المدفون على شاطىء غزة •

من هنا نرى أن الاستيطان العربى الاسـلامى تعدى حدود المدينة الأم وأسوارها ليعمر المناطق الغربية الساحلية وعلى طول امتداد الساحل من الشمال للجنوب بمسافة لا تقل عن سبعة كيلو مترات كانت فى أساسها رباطات عززها المجاهدون فأقيمت عليهـا مزاراتهم ومساجدهم وبنيت بالقرب منهـا مدارس أحاطتها المزارع لتصبح مراكز اشعاع ثقافية واجتماعية لها قيمتها فأصبحت نواة تجمع حولها السكان كضواحى للمدينة الأم •

ومن ناحية أخرى نجد ان السكن العربى الاسلامى داخل مدينة غزة تركز منذ البداية عند حوافها على هيئة حزام خلف السور مباشرة كما هو واضح من موقع • حى بنى عامر » عند حافتها الشرقية وجامع الشيخ زكريا عند سفحها الغربى وبقية المساجد التى سيمر ذكرها فى حينه والتى تمركزت عند حواف المدينة وبالقرب من أبوابها الرئيسية •

أما بالنسـبة لقرى غزة الشمالية فقد تمركز العرب الفلسطينيون بها وساندوا سكنها وسكانها منذ البداية خاصة فى الفترة المتميزة بالاستقرار والاصلاح الزراعى ومسح الأراضى •

وعند نهاية الحكم العباسى لم يعد يسمع الكثير عن هذه القرى سواء جباليا أو النزلة أو بيت حانون وبيت لاهيا وجاء ذكر الأخيرة فقط كقرية صغيرة فى معجم البلدان (٤٥) · وحيث انزوت هذه القرى ولم تعد أكثر من « خرب » صغيرة تخدم مدينة غزة بما يلزمها من منتجات وفواكه يسوقها أبناؤها كل يوم عند سفوح المدينة الشمالية وبالقرب من بوابتها (باب عسقلان) بالقرب من جامع السيد هاشم الآن ·

ومن أقدم ما عثر عليه فى هذه الحقبة الاسلامية فى « قرية جباليا » وداخل مسجدها الكبير كتابة على ضريح بداخله جاء فيها : (نصر من الله وفتح قريب · لا اله الا الله محمد رسول الله · الشيخ محمد المغفور ··· ولى الله ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هذا قبر الشيخ ··· المشيشى سنة أربعماية) وهذه الأسرة (المشيشية) تعود بنسبها وأصولها الى بلاد المغرب وتفرعت فى عديد من الشام · (منها العلمية ــ القاوتجى ــ العقاد ·· الخ) (٤٦)·

وما ان أهل القرن التاسع الميلادى حتى بدأ الضمور والانكماش ينتاب المدن من رفح والداروم وغزة حتى قراها الشمالية بعد أن عاشت فترة من الازدهار واكبت القرون الأولى من الفتح الاسلامى فأضحت بعدها صورة الحياة السياسية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين قاتمة فى فلسطين عامة ، كما اقترن بها التطاحن والاقتتال بين الأمويين والعباسيين ، تحول معها الاكتفاء الذاتى فى اقتصاد البلاد من زراعة وصناعة تعداه لتصدير الزيت ، أعقبة تدهور زراعى وصناعى وصل لحد الكفاف وتغطية الاحتياجات المحلية من صابون وزيت·

وانتاب مدينة غزة بل وجميع المدن الفلسطينية الاهمال التجارى فبدأت تفقد أبهتها لتصل لمرتبة القرية الصغيرة ، وذلك لتحول طرق التجارة الرئيسية من جنوب فلسطين الى الطريق الشرقى عبر مرتفعات الأردن مباشرة ذلك الطريق المنافس والخطير للطريق الساحلى الواقعة عليه غزة · كما أصبح البحر المتوسط بحرا شبه مغلق يعج بالقراصنة فاتجهت معه خطوط الملاحة البحرية التجارية عبر شماله نحو البحر الأسود ونهر الدانوب تسيطر عليه القوى البيزنطية ، وعليه أقام المسلمون خطوطا أرضية عبر شمال أفريقيا وآسيا وأصبح التوجه المدنى نحو الداخل فاستبدلت الاسكندرية بالقاهرة وصور بدمشق وانطاكية بحلب كما أصبحت « الرملة » المدينة الرئيسية والعاصمة الفلسطينية لذلك فقد البحر المتوسط أهميته العالمية فى هذه الفترة ولم تعد معه المناطق الجنوبية الفلسطينية « منطقة ارتطام » فتكاتفت بالتالى الظروف السياسية القاسية والأحوال الاقتصادية المتردية مع الكوارث الطبيعية من زلازل كما أسلفنا من

---

(٤٥) ياقوت الحموى ــ معجم البلدان ــ الجزء الاول · ص ٥٢٢ ·
(٤٦) الشيخ عثمان الطباع ــ الشجرة الزكية ــ غزة ــ مخطوط ·

توجه الأطماع الأوربيــة الصليبية نحو الوطن العربى لاسيما وأن تجار جنوة والبندقية كانوا من أكبر مموليها يحدوهم الطمع الاقتصادى (٤٧) ٠

ولعله من المفيد قبل أن نتطرق بالحـديث عن الغزوة الصليبية أن نلقى الضوء على ظاهرة اقتصادية ان لم تكن ثورة اقتصادية جبارة أدت الى تحولات فى البنية الاقتصادية العربية والاسلامية فى حينها وكشفت فى الوقت نفسه عن دلالات سياسية وصور اجتماعية على مدى أربعة قرون ونصف ابتداء من الفتح الاسلامى وحتى الغزوة الصليبية هذه الظاهرة هى سك النقود الاسلامية ومدى علاقتها بالأرض الفلسطينية عامة ومدينة غزة بوجه خاص والتى اشتهرت منذ الفترة الفارسية بدور السك ٠

النقود الاسلامية :

لقد عرف العرب التجارة ومارسوها قبل الاسلام برحلتى الصيف والشتاء نحو الشام واليمن وكان لهذه التجــارة مردود هائل من الأرباح تصل الى مائة فى المائة من بلاد الشام ، كما قدرت أرباح القافلة التجارية الواحدة بما يقرب من خمسين ألف دينار بيزنطى ، وتعامل العرب كذلك مع أهل فارس شرقا بالدراهم الساسانية ، حيث لم يكن للعرب نقود يتعاملون بها ، ولما جاء الاسلام أقر الرسول عليه الصلاة والسلام هذه النقود فى المعاملات التجارية خاصة وانه عليه السلام قد زوج عليا كرم الله وجهه ابنته فاطمة بأربعمائة وثمانين درهما وفرض زكاة المال بهذه النقود السائدة وقد أشار ابن سلام فى كتابه الأموال الى الكثير من هذه المعاملات (٤٨) ٠

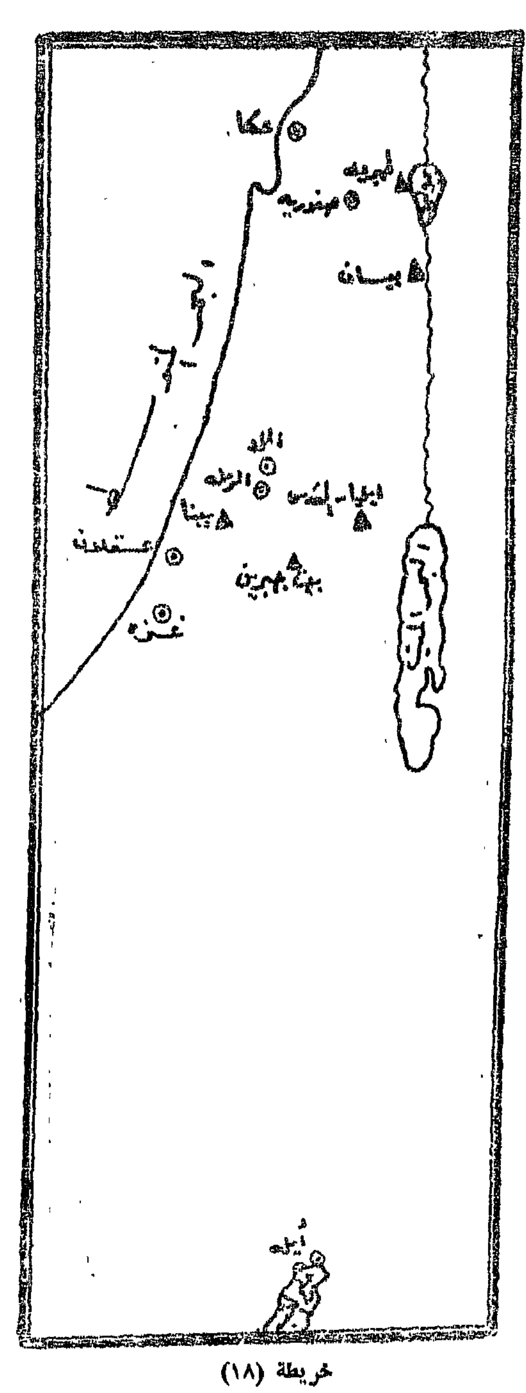
ولما تم الفتح الاســلامى لفلسطين بدأ ظهــور الكلمات العربيــة بجانب الكلمات اليونانية فنجد مثلا تكتب ايليا بالعربية واليونانية وكذلك طبرية كما رأينا فى بردية نصتان المرسلة من والى غزة اليها طالبا منه ضريبة « الرزق » على هيئة مواد عينية كالزيت والقمح ودنانير ذهبية بيزنطية ثم أخذت الكتابة اليونانية تتلاشى بالتدريج لتحل محلها العربية الى أن أصبحت عربية خالصة وظهرت النقود الاسلامية على يد عبد الملك بن مروان ٠

ففى المرحلة الانتقالية ــ البيزنطية العربية كانت هناك دور لسك النقود فى فلسطين فى كل من مدن ايليا فلسطين (القدس) وبيت جبرين وبيسان وطبرية وينبى ٠ حيث ظهرت نقود اســلامية عليها تأثيرات بيزنطية (صورة رقم ٤٦) ٠

---

(٤٧) W. B. Fisher, Middle East, London 1950, p. 136.

(٤٨) د٠ عبد الرحمن فهمى محمد ــ النقود العربية ماضيها وحاضرها ــ القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٢ ــ ٢٣ ٠



خريطة (١٨)

المدن الفلسطينية التى سكت فيها النقود الاسلامية

مدن سكت فيها النقود فى صدر الاسلام

مدن سكت فيها النقود فى العصر الأموى ·

ولما قام بتعريبها عبد الملك بن مروان رأى أن يغمر الأسواق بهذه السكة لتغطى حاجة الناس وتلبى احتياجاتهم فقام بفتح دور ضرب جديدة فى فلسطين فى كل من مدينة غزة ورملة فلسطين وعكا وعسقلان وصفورية وأيلة (أم المرشرش) (٤٩) · (خريطة رقم ١٨) ·

من هنا تبوأت فلسطين فى العصر الأموى مكانة انفردت بها عن بقية الأجناد الخمسة الاسلامية فى الشام كله وأمكن التأكد من ثلاثة عشر دارا فلسطينية للضرب وهذا بدوره يعكس ما حظيت به فلسطين من مكانة مميزة فى العصر الأموى مما دفعها بالقيام بدور حيوى وفعال فى حركة الاصلاح النقدى بل والتعريب فمعاوية أقام فى القدس وعبد الملك بن مروان بانى قبة الصخرة المشرفة سنة ٧٢ هـ « ٦٩١ م » كأعظم أثر اسلامى وعرب النقود والدواوين بها وقد ظهرت له نقود ضربت فى فلسطين (الرملة) ظهر فيها واقفا متمنطقا بسيفه (أنظر صورة رقم ٤٤) وعليها تأثيرات بيزنطية (حرف M) عثر عليها فى مدينة غزة ·

كما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد الأقصى وتوجها سليمان بن عبد الملك ببناء مدينة الرملة ومسجدها الأبيض ·

أما العصر العباسى بعهودة الطولونية والاخشيدية ومن تبعهم من الولاه ٧٤٩ ـ ٩٦٨ م (١٣٢ ـ ٣٥٨ هـ) فلا نجد سوى دار ضرب للعملة الذهبية فى الرملة شاركتها دار فرعية فى مدينة « طبرية » (٥٠) ·

ومما يلفت النظر فى العصر العباسى هو كتابة « القدس » لأول مرة فى عصر المأمون بدلا من اسمها القديم « ايليا » ·

اذن بدأ الضمور فى دور الضرب الفلسطينية فى العصر العباسى بحيث لم يتعد مدينتى طبرية والرملة التى ضرب فيها الخليفة المكتفى دنانير ذهبية ودراهم فضية خالية من أسماء الولاة ·

أما العصر الفاطمى فقد عكست النقود الاسلامية من دنانير ذهبية ودراهم فضية تأثير الأحلاف والمصاهرات والصراع الدائر بين القرامطة من أجل الحكم والسيطرة (٥١) لتعكس التردى المالى بعد رواج فى أوائل العصر الاسلامى ·

---

(٤٩) ظهرت بعض هذه النقود فى كتاب ستانلى لان بول ·
Stanley Lane-Poole — Cataloge of the collection of Arabic Coins, Cairo, 1984, pp. 91 and 110-115, and 141-144.

(٥٠) يوسف النتشة ـ سكة فلسطين الاسلامية ـ رسالة ماجستير غير مطبوعة ـ القدس ص ١٠٩ ـ ١١٠ وعلق عليها بمجلة الفجر الأدبى ـ عدد آذار سنة ١٩٨٣ ص ٣٦ ـ ٤٣ ·

(٥١) المرجع السابق ص ٢٥٤ ·



الفصل الحادى عشر

الغزوة الصليبية

- الداروم تتفوق على غزة كقاعدة أمامية للصليبيين ·
- صلاح الدين يحاصر الداروم وغزة ·
- الصليبيون يزيفون النقود الاسلامية ·
- الاستيطان خارج أسوار غزة والى الشرق منها على يد صلاح الدين ·
- هزيمة الصليبيين فى بيت حانون أدت الى نهايتهم ·

الغزوة الصليبية

قامت الغزوة الصليبية على البلاد بعدة هجمات فى فترات متلاحقة ، ابتدأت زوة الأولى سنة ١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ م لتغطى قرنين بالضبط « الثانى عشر ثالث عشر » اكتسحت المنطقة بثمان أو تسع موجات لم تكن فيها على شكل وش نظامية بل تشكلت عفويا على هيئة ميليشيات البروليتارية والعبودية طاعية الخاوية مما دفعها الى البربرية (٥٢) فمن المؤكد علميا بأن الصليبيات سم على غير مسمى دوافعها الدفينة ومحركاتها كانت اقتصادية ـ مادية • حين استثمرت الدولة العربية الاسلامية موقعها الجغرافى الوسيط ضابطة سيطرة على مجمع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب مستفيدة بذلك الا طائلة منحتها القوة والثراء والتقدم الحضارى الزاهر ، فى هذا الوقت ت المدن الأوربية التجارية النامية تنظر الى هذا الفيض الدافق على العرب يد أن تنقض عليه •

فالدولة العربية الاسلامية تمتعت باقتصاد زراعى مستقر يقابلها مجتمع بى صليبى يعانى اقتصاده الزراعى من التخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش •

ومما يؤكد ان دوافع الحرب الصليبية الكامنة اقتصادية •• أنها أخذت ذى من كبار تجار أوليجاركية البندقية وجنوة وبيزا وحينما أوشكت على نتهاء أصبحت أقرب الى القرصنة التى تسلب وتنهب ، فأساطيل المدن الايطالية التى ساعدت الصليبيين على الاستيلاء على معظم مدن الساحل ومنها صور وعكا دخول القدس سنة ١٠٩٩ م ليضعوا « جودفرى » ملكا على بيت المقدس نتهى الحملة الصليبية الأولى (٥٣) •

أما التبرقع بقناع الدفاع عن المسيحيين فى الأراضى المقدسة وحماية الحجاج اضطهاد السلجوقية الحاكمية فهو باجماع واتفاق كل الآراء فرية ملفقة ومنطق ير لا أكثر ولا أقل (٥٤) • ولو كان هدفها دينيا محضا لما اتسع مداها ستراتيجى ليتعدى أرض فلسطين المقدسة وليهدد مصر والحجاز والعراق •

لقد ساعد التمزق السياسى العربى وتشرنقهم الى وحدات سياسية قزمية

---

(٥٢) Philip Hitti, The Arabs, London, 1948.

(٥٣) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، د• حسن ابراهيم حسن ، الرابع ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ ، القاهرة ص ٢٤٧ •

(٥٤) Fisher, Middle East, pp. 136

أشبه بدول المدن والولايات والأتابكيات فى الشام ومصر الصليبيين على الاستيلاء على أراضيهم فابتلعوا الأجزاء الشمالية لفلسطين فى مدينة عسقلان عند غزوتهم الأولى سنة ١٠٩٦ ــ ١٠٩٩ م وعليه تركز الاهتمام الصليبى العسكرى بمدينة « عسقلان » فتحولت لمدينة عسكرية محصنة حدودية أمام غزة ــ التى أصبحت تواجه مباشرة القوة الصليبية ــ التى لم يستولوا عليهــا الا مع بداية الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٠٠ م • وبدافع الاحتياطات الأمنية والعسكرية كانت غزة مدينة مسورة ذات قلاع ، حاول على أثر ذلك « بلدوين الثالث » من اعادة ترميم ما هدم من سورها وانشاء وتجهيز تحصيناتها سنة ١١٥٠ م (٥٥) ، كما أنشأ « كنيسة القديس يوحنا » كما يدعى كليرمان غانو سنة ١١٤٩ م على أنقاض كنسية قديمة وفى الحقيقة أنه أقام هذه الكنسية على حساب الجامع العمرى الكبير فحوله الى كنيسة بعد أن أصابه التدمير على أثر الحرب لقرب موقعه من باب المدينة الشرقى وقلعتها « باب القلعة » ويبدو أن الصليبيين قد عززوا تواجدهم الساحلى كنقاط امداد لهم يوثق علاقاتهم ويحفظ خط الامداد والتمويل عبر البحر لهم من الدول الأوربية الممولة فقد ذكر الادريسى سنة ١٩٥٤، م ميناء « تيدا » الغربى والذى استمر باقيا ، وحافظ على وجوده المسلمون كمــا ظهر على خريطة صورة الشام لابن حوقل فى القرن التاسع الميلادى (٥٦) •

الا أن مكانة غزة العسكرية والتجارية لم تعد اليها فلم تتعد أهميتها أكثر من قاعدة للتجهيزات العسكرية ضد الزحف العربى الاسلامى المتقدم من مصر جنوبا ، لذا بدأ الاهتمام الصليبى فى التوجه جنوبا لأقصى حد ليقفوا عند « الداروم » « دير البلح » ليتخذوا منها رأس حربة وقاعدة متقدمة تواجه القوى الاسلامية فأقام بها الملك « عمورى » سنة ١١٦٢ ــ ١١٧٣ م قلعة ذات أبراج أربعة فى كل زاوية للدفاع عنها (٥٧) ، لتتبوأ بعدها المدينة مكانة هامة تتبع مملكة القدس التى أصبحت تتألف من (القدس ــ عكا ــ نابلس ــ الداروم) لتنزوى غزة أمام اسمها خاصــة وان عمورى اتخذ من الداروم مقرا لقيــادته العسكرية والادارية ليلتقى بالسفراء العرب مثل « بدران » بها عندما يريد عقد وابرام معاهدات معهم(٥٨) وبالنسبة لمعاملة الصليبيين للشعب العربى الفلسطينى فقد كانوا « يغتصبون كل متر من الأرض ويجردون الفلاحين من كل شىء ويكرهون النساء العربيــات على الزواج المختلط والخروج عن دينهم » (٥٩) استــعمار

---

(٥٥) Steven Runicimen, A history of the Crusades 2, Pelican Books, 1971, p. 338.

(٥٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لم يذكر الســنة ص ١٥٥ •

(٥٧) S.W.P., vol. 3, pp. 239.

(٥٨) Steven Runiciman, pp. 380.

(٥٩) يقظة العرب ــ أنتونى ناتينج ، مترجم ــ كتاب الهلال ، ص ١٢ •

استبطانى بربرى يعبر بها عن اسقاطات من لا جذور لهم • لذا بدأ نجم الصليبيين فى الأفول بعد الحرب الثانية سنة ١١٠٠ ـ ١١٠٤ لاخفاقهم التام فى الهاب الروح الدينية كما حدث فى الموجة الأولى فى حين بدأ المسلمون فى حشد طاقاتهم ، فقل عدد الحجاج وضجر أهل أوربا بفضل بسالة نور الدين الذى قوى مركزه باستيلائه على دمشق وحلب • وعندها انتقل مسرح القتال فجأة لمصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية فبرزت شخصية القائد الاسلامى صلاح الدين الأيوبى الذى اشترك فى الحرب الصليبية الثالثة وأكسبته شهرة فائقة • فقد جرد حملة ضد الصليبيين فى ديسمبر سنة ١١٧٠ م فحاصر الداروم « دير البلح » على الرغم من قلة أدواته مما دفع عمورى Amairic بالاسراع بقوة للتصدى له جلبها من عسقلان فى الوقت الذى التف فيه صلاح الدين تاركا الداروم ومتجها نحو غزة (٦٠) فدمر جزءا كبيرا من سورها وهجم على ربضها وأخذ ما به (٦١) ثم عاد لمصر فى الوقت الذى وصلت فيه قوات عمورى للداروم ثانية •

ولقد عثر فى مقبرة دير البلح الواقعة الى الشمال من المدينة الحالية وفى سنة ١٩٧٨ على حجر رخامى طوله ٨٠ سم وعرضه أربعون سنتيمترا بأعلاه وبحجم اليد قطعة من الفسيفساء جميلة الألوان كاشارة على رتبة الشهيد أسفلها كتابة جاء فيها : (*) •

هذا ضريح شمس الدين بن روس البايناسى

التابع لدار السلاح فى عهد

صلاح الدين الأيوبى •• بغداد

المتوفى سنة خمس وستين وخمسمائة •

أى ما يوافق عام ١١٧٠ ـ ١١٧١ ميلادية ربما وقع شهيدا ودفن فى هذه المنطقة من جراء هذه المعركة • ووقوعه فى هذه المنطقة ربما يؤكد أن القلعة كانت تقع بالقرب من شاطىء البحر فى منطقة « البركة » • أخذت حروب صلاح الدين الأيوبى بعدها تأخذ دور الكر والفر مع الصليبيين للانقضاض على أهم تواجدهم العسكرى فى عسقلان وغزة والداروم والخليل وبيت جبرين ـ والنطرون وبعدها للقدس (٦٢) فى عام ١١٧٧ بعد أن أوشك جيشه على الهلاك فى منطقة « تل الصافى » جنوب الرملة عاد ليستجمع قواه فى مصر ثم

---

(٦٠) Steven Runciman, A history of the Crusades, Vol. 2, Plican Books 1971, pp. 390.

(٦١) السيد أحمد بن زينى دحلان ـ الفتوحات الاسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤٣ •

(*) عثر على هذا « الشاهد » سنة ١٩٧٨ وقد تم نقله للقدس •

(٦٢) السيد أحمد بن زينى دحلان ـ الفتوحات الاسلامية المرجع السابق ص ٤٥١ •

يرجع الكرة ثانيــة ليحقق نصره المبين فى عام ١١٧٨ فى موقعة « حطين » وأصبحت على أثرها بمثابة نقطة تحول وانعطاف حاد لموقف حكام المسلمين خاصة أولئك الذين لم يكترثوا لها لبضعة قرون لمنازعاتهم الشخصية ومن حطين بدأ زحف صلاح الدين جنوبا للاستيلاء على أهم المدن العسكرية المحصنة فى عسقلان وغزة والداروم لتأمين الطريق أمام جيوشــه نحو القاعدة الأم مصر فاستغل بعض الملوك الصليبيين ممن وقعوا فى أسره للمساومة فاستولى على عسقلان مقابل اطلاق سراح « غى Guy » ملك القدس الأسير كما استسلمت غزة مقابل اطلاق سراح مقدم الداوية جيرار Gerard (٦٣) ٠

وبعودة صلاح الدين لمدينة غزة عاد لها الهدوء والاستقرار وبدأ بعملية تعزيز الاستيطان العربى الاسلامى خارج سور المدينة فبدأت تظهر أحياء جديدة ولأول مرة خاصة فى الجهة الشرقية فى الوقت الذى سمح فيه بخروج فلول الصليبيين خاصة أولئك الذين شكلوا جمعيات دينية بحجة العناية بالجرحى والمرضى والحجاج وأهمهــا « طائفة فرسان المعبد » وفرســان القديس يوحنــا Templers الذين كانوا مصبا لاغداق الجميع لمساندة القوات الصليبية ٠

وكعادة صلاح الدين فى معظم المدن الفلسطينية والشامية عضد تواجده باقطاع جنده من التركمان أو الخوارزميين والأكراد أراض فأسكنهم مناطق داخل المدن وخارجها بصفة رئيسية حملت اسمهم كحى الأكراد فى الخليل وحى الأكراد فى دمشق أما فى مدينة غزة فقد استوطنوا « الشجاعية » تيمنا باسم أحد قادته الذين استشهدوا (شجاع الدين الكردى) على أبواب المدينة فأصبح يطلق على جزئه الجنوبى حى « التركمان » نسبة للقبائل التركمانية أشهر القبائل التركية وأول من اعتنقوا الاسلام من الأتراك (٦٤) معتمدا عليهم فيما يبذو لتوطيد قيادته فى البلاد ٠٠

أما داخل المدينة فقد أعاد جامعها الكبير لمزاولة الشعائر الاسلامية فيه ٠

الا أن الصليبيين لم يكفوا عن مزاولة حشودهم فجردوا حملة من ملوك فرنسا وانجلترا والمانيا استطاعت أن تستولى على معظم المدن الساحلية الفلسطينية الشمالية حتى يافا لانسحاب جنود صلاح الدين منها والتمركز فى القدس لذا فشلوا فى الوصول للقدس بقيادة « ريتشارد قلب الأسد » الذى بدأ فى التفاوض مع صلاح الدين ولكن المفاوضات كانت تتعثر بسبب مطلبين لا سبيل للتوفيق بينهما : ـ

---

(٦٣) Steven Runciman, ibid, pp. 461-462.

(٦٤) السلوك لمعرفة الملوك ، ج ١ ق ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٦ ـ ٣١٨ ٠

١ ــ اصرار ريتشارد على أن يتنازل صلاح الدين عن فلسطين خاصة عسقلان وغزة والداروم ٠

٢ ــ تشدد صلاح الدين واصراره بالمقابل على ان تكون هذه المدن عربية اسلامية وعلى رأسها عسقلان ٠ وليس علينا بغريب تمسك الجانب العربي الاسلامي لهذه المدن لموقعها الاستراتيجي الهام على الطريق نحو مصر منذ آلاف السنين وبذل التضحيات الجسام من قبل صلاح الدين أمامها في حروبه الفدائية لانهاكها طيلة السنين السابقة ٠

لذا تحطمت كل المفاوضات واستؤنف القتال سنة ١١٩٢ م ليتم بعدها بشهرين ابرام اتفاقية « صلح الرملة » والتي بموجبها ظفر صلاح الدين بعسقلان وغزة والداروم وأصبحت فلسطين أرضا عربية اسلامية كما كانت باستثناء تلك الأراضي الواقعة بين عكا وصور ٠

وانتقل بعدها سنة ١١٩٣ صلاح الدين لجوار ربه واستمر الاهتمام بمدينة غزة كبوابة حيوية بين الشام ومصر يبني فيها الأيوبيون المساجد والمدارس ففي عام ١٢٣٧ أنشأ الملك الكامل بن الملك العادل جامع المدرسة الكاملية « الكمالية » بداخل مدينة غزة ٠ وفي عهده عقد اتفاقية مع « فردريك » القائد الصليبي في مدينة يافا تنازل فيها الملك الكامل عن القدس والسماح للمسلمين والمسيحيين لمزاولة شعائرهم الدينيـة مقابل عدم تحصينها واستمرار الادارة الاسلامية على مقدساتها لمدة عشر سنوات ، أي حاول الصليبيون نزع الشرعية العربية الاسلامية عن المدينة وتجريدها من أسباب القوة والمتعة وتركها أشبه ما يكون اليوم بمنطقة منزوعة السلاح ٠

وعلى الرغم من هذا التسامح المفرط الذي هو أقرب الى الاستسلام ، الا ان البابا نادى بقيام حملة صليبية جديدة استجاب لها بعض آراء الدول الأوربية وعلى رأسهم ملوك فرنسا حيث وصلوا لمدينة عكا سنة ١٢٣٩ م ليعقدوا فيها مؤتمرا يطرحون فيه المفاضلة بين ابتداء هجومهم اما على دمشق شمالا كمركز لثقل عسكري أو التوجه جنوبا للاستيلاء على عسقلان وغزة والداروم بوابات فلسطين الحصينة نحو مصر لقطع الطريق عن القوى الاسلامية القادمة من مصر ٠ فكان القرار بالهجوم على عسقلان وغزة والداروم بالطبع ٠

فاتجهت حملتهم مساحلة حتى التقت بالجيوش العربية الاسلامية التي أرسلها الملك العادل الثاني بن الكامل عند قرية بيت حانون شمال مدينة غزة هزم فيها الصليبيين هزيمة نكراء وقتل قائدهم « هنري » فيها وأرسل الباقي أسرى للقاهرة فخلدها المسلمون ببناء جامع أسموه « جامع النصر » في القرية وهو يتوسطها الآن مسجلين على بلاطته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ...

أنشأ هذا المسجد المبارك الأمير الأجل الاسفهلار (*) الكبير الغازى المجاهد المرابط شمس الدين سنقر الملكى الكاملى العادلى عند كسرة الافرنج خذلهم الله تعالى ببيت حانون يوم الأحد النصف من ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية وبنــاء مسجد للنصر وفقد من استشهد من أصــحابه فى الموقعة) . (صور ٤٧ ــ ٤٩) .

شجعت هذه الانتصارات أفراد المسلمين ومنهم أمير الكرك الأيوبى للهجوم على القدس وهدم قلاعها كذلك حشد الملك الصالح أيوب مغتنما الفرصة حاشدا القبائل الخوارزمية مسترجعا القدس فولى الصليبيون الأدبار نحو يافا فى عام ١٢٤٤ م وتوالت الأيام ليبلغ الحقد السياسى والتناحر على السلطة حده فيتحالف الصالح اسماعيل ملك دمشق مع الصليبيين ومعهم صاحب حمص والناصر داود أمير الكرك مؤلفين حشدا مع أمراء الصليبيين (صور ــ تبنين ــ يافا ــ انطاكية ــ طرابلس وأساقفة الرملة) لملاقاة جيوش الملك الصالح أيوب فالتقى الجيشان عند قرية «هربيا» شمال مدينة غزة فى ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ (٦٤٢ هـ) فانهزم فيها التحالف الصليبى ــ الاسماعيلى فى موقعة فاصلة لم يكد يسمع للصليبيين من بعدها حراك فكانت هربيا المقبرة الثانية للصليبيين بعد حطين حتى لقد أسموها « حطين الثانية » أسر على أثرها من الافرنج خلق عظيم وغنم المسلمون أموالا طائلة (٦٥) .

وعلى أثر هــذه المعركة ازداد التكثف السكانى الاســلامى الخوارزمى أو التركمانى فى مدينة غزة وما حولها (الشجاعية ــ التفاح ــ الزيتون) تحقيقا لأوامر الملك الصالح نجم الدين أيوب وايفاء بوعده لهم بأن يقطعهم أرضا فى غزة يسكنهم اياهم مقابل اشتراكهم فى الحرب معــه (٦٦) . وكان هذا الملك هو آخر ملوك الدولة الأيوبية .

هكذا كافحت الدولة الأيوبية كفاحا مجيدا ضد الغزوة الصليبية الشرسة اتخذت من فلسطين مركزا ومسرحا لبطولاتها التى بلغت أوجها بصفة خاصــة فى المدن الجنوبية وعلى رأسها غزة والداروم كطريق حيوى هام نحو القدس . وما دام قطب القوة والادارة « القاهرة » فلا بد من نصيب الأسد لمدينة غزة وما جاورها من الاهتمام فبنوا فيها المساجد وأقاموا أحياء كاملة الى الشرق والجنوب والغرب من مركز المدينة الاكروبوليسى وازداد الاستيطان الاسلامى بها .

(*) الاسفهلار : هو مقدم الجيش أى برتبة رئيس أركان حرب .

(٦٥) المقدسى الدمشقى ــ تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ــ دار الجيل ــ بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٧٤ .

(٦٦) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٧ ــ ٣١٨ .

وقد برزت أهمية « تل العجول » كقاعدة عسكرية على حدود مدينة غزة الجنوبية فى الفترة الأيوبية فقد جاء ذكرها على لسان المؤرخين العرب تجمعت فيها قوات صلاح الدين قبل اقتحامه لمدينة غزة وعسكر فيها الملك العادل ووقف عندها جنود الملك الكامل فى رمضان سنة ٦٢٥ هـ متأهبا للذهاب لابن أخيه داود عندما رفض الأخير تسليمه حصن الشوبك (٦٧) .

أمام الداروم « دير البلح » فقد تعرضت لعمليات متلاحقة من التدمير لشدة الاغارات عليها لمكانتها العسكرية كدرع ومواقع متقدم وقلعة حصينة أقصى الجنوب فقد أصابها التدمير على يد صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ (١١٧٨ م) ومقاومتها للقائد الصليبى ريتشارد الذى فاجأها بهجوم قاومت فيه حاميتها لمدة خمسة أيام عانت خلالها من المعاملة الشرسة ، حتى اذا ما استقرت بها الأحوال انتهت لزراعتها التى اشتهرت بكرومها وخمورها كما جاء ذكر ذلك على لسان ياقوت الحموى المتوفى سنة ٢٢٨ م (٦٨) .

أما بالنسبة لرفح فقد ساء حالها فى هذه الحقبة اذا ما قورنت بأيام المهلبى ٣٨٦ هـ أى قبل أكثر من قرنين ونصف من الزمان فقد ذكرها ياقوت بأنها « فى أول الرمل وهى خربة الآن ويسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل » (٦٩) .

وانتهت الغزوة الصليبية فلم يعد لهـا ذكـر بعد عام ١٢٤٤ ميلادية ذو شأن تاريخى حيث قضى على آخر معاقلهم فى عكا سنة ١٢٩١ تاركين وراءهم عديد من القلاع والحصون والكنائس التى تبارى فى قيامها كثير من اللوردات خاصة فى القرن الثانى عشر الميلادى لتمجيد الصليب وحراسة طرق المواصلات وبصفة أساسية تلك التى تربط مدينة الخليل بغزة (٧٠) كمنطقة ارتطام حدودية مع القوى العربية الاسـلامية المتمركزة فى الجنوب ، كذلك بدأ تركيز القوى الصليبية على المدن الساحلية بتحصينها وانشاء القلاع بها (أنظر الخريطة ١٩) لضمان امداداتهم الأوربية عبر البحر المتوسط وللوصول لمدن البندقية وبيزا وجنوة التى أصيبت بحمى صناعة السفن لتلعب دوراً مزدوجاً فى التجارة وخدمة العسكرية الصليبية ضد المدن الساحلية الفلسطينية فأصبحت تنافسها مدن البحر المتوسط فى التجارة وتعدتها لمضاهاة التجارة البيزنطية (٧١) مما أدى

---

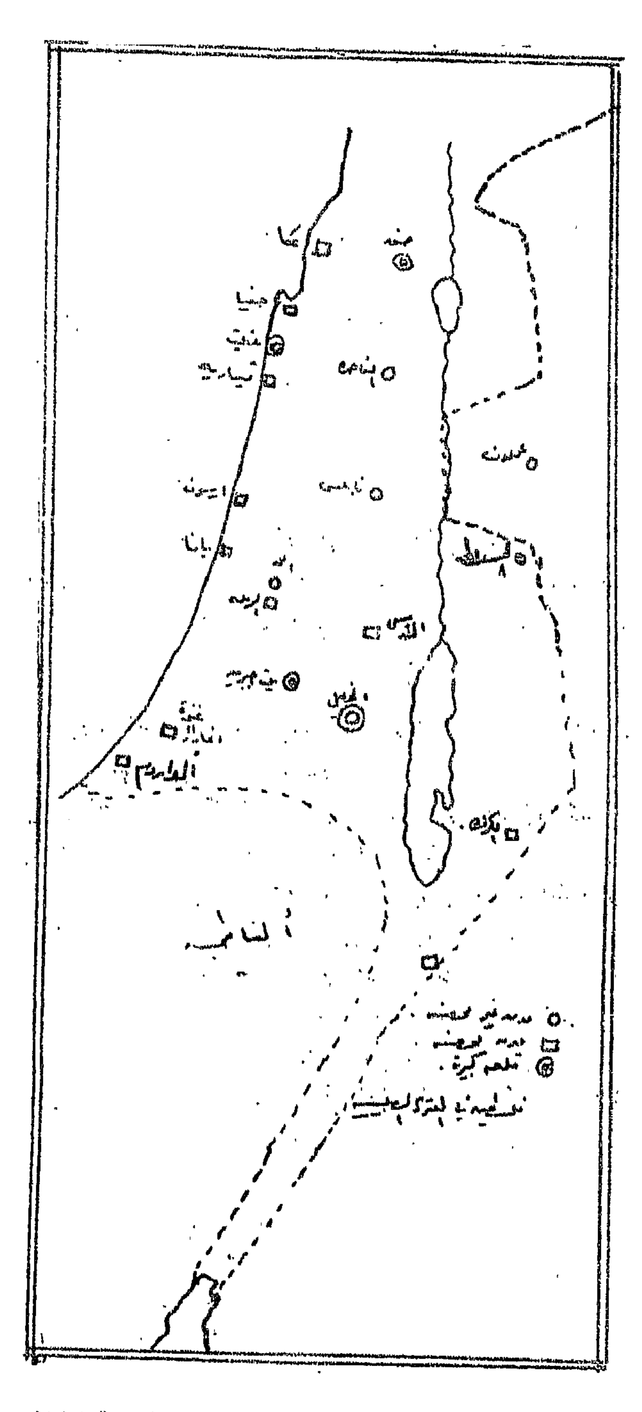
(٦٧) محيى الدين الحنبلى ، يونس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الجزء الأول ، عمـان ١٩٧٠ ص ٤٠٥ وكذلك : S.W.P., Vol. 3, p. 253.

(٦٨) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٤ .

(٦٩) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤ .

(٧٠) G.A. May, Oxford Bible Atlas, London, 1968, p. 97.

(٧١) I.E.J. Vol. VI, 1956, pp. 45-46.



خريطة (١٩) مملكة الصليبيين فى أوج امتدادها سنة ١١٨٧م

لتحقيق نوع من النشاط الاقتصادى خاصة بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فأصبحت للمدن الساحلية وظيفة مزدوجة تجارية عسكرية فازداد النشاط بين دول المشرق العربى وأوربا فوصلت فواكه فلسطين وخمور الداروم « دير البلح » لأوربا .

هذا النشاط الاقتصادى المؤقت حث الصليبيين الى ضرب كثير من الدراهم الفضية التى تميزت بعدم دقة تواريخها فكانت تكتب عليها عبارات مسيحية مسجلة بالعربية ضرب بعضها فى عكا بأمر القديس لويس (٧٢) تقليدا للنقود الأيوبية . والتى بدأوا فى سكها على معظم فترات تسلطهم لأحداث تضخم اقتصادى فى السوق العربية بالاضافة لما تعكسه من أغراض الاستيطان والاقامة فى البلاد لا بدعوى حماية الدين كما زعموا !! .

فقد قاموا بتزييف وضرب نقود عليها أسماء بعض ملوك الدولة الفاطمية كدينار الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (أنظر الصورة رقم ٥٠ ـ ٥١) .

وفى أوقات الحروب مع الصليبيين كانت النقود الأيوبية من دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية تتعرض لاهتزازات عنيفة فى قيمتها لانتشار « الزيوف » وتسرب النقد الأجنبى ففى عام ٦٢٢ هـ اضطر الملك الكامل محمد ابن العادل الى ضرب دراهم ثلثيها من الفضة والثلث الآخر من النحاس لكى تواجه النقود الصليبية المزيفة التى احتوت نسبة النحاس بها الى أكثر من النصف مما جعل قيمتها الاسمية تفوق قيمتها المعدنية ولقبها الناس « بالزيوف » (٧٣) لزلزلة الاقتصاد الاسلامى .

ولقد تكررت الأزمة الاقتصادية فى سنة ٦٣٠ هـ وأيام الملك الكامل فانخفضت فيها قيمة الدينار الذهبى وازدادت بالتالى كمية الفلوس النحاسية زيادة غير طبيعية لتحتل ولأول مرة مكانة هامة فى السوق النقدى وأصبحت تكتفى « بالدراهم النحاسية » جزءا بقيمة الدراهم الفضية التى انكمشت أمام الفلوس النحاسية فلم تعد كافية لسد حاجة التجار مما سمح بتسرب النقد الأجنبى للأسواق العربية (٧٤) .

واستمر الوضع الاقتصادى المتقلب باستمرار القوى الصليبية المتسلطة حتى أواخر عهدهم فلعل ما ذكره شامة المقدسى الدمشقى فى سنة ٦٥٨ هـ « ١١٢٦ م » أى مع بداية ستينات القرن الثالث عشر ما يعطينا صورة حية للسوق العربية ومعاناة المستهلك العربى المسلم وما يكابده من أبتلاء

---

(٧٢) د. عبد الرحمن فهمى محمد ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٠ ـ ٨١

(٧٣) المرجع السابق ص ٨١ .

(٧٤) المرجع السابق ص ٧٥ ـ ٧٧ .

شديد بسبب الغلاء الذى عم فى هذا العام على جميع السلع الاستهلاكية الضروريه فسجل لنا قائمة الأسعار الخيالية (للملابس — واللحم — الخبز والثوم — الجبن — العنب ...) لا يطيقها الناس معللا ذلك بقوله (ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج (الصليبيون) من ضرب الدراهم المعروفة « باليافية » (أى تلك التى سكت فى مدينة يافا » وكانت كثيرة الغش ، بلغنى انه كان فى المائة منها خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس وكثرت فى البلد كثرة عظيمة ») (٧٥) .

ولم يكتفوا بذلك بل قام الصليبيون بتزييف نقود آخر ملوك الدولة الأيوبية فقلدوا دراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى ناصبهم العداء وهزمهم شر هزيمة فى حربيا .

هذه الحرب الاقتصادية الشرسة لم تقل ضراوة أيام الأيوبيين عن مقارعة السيوف فى ميدان المعارك أدرك ذلك القائد صلاح الدين الأيوبى منذ توليه السلطة مدركا أن حماية وتقوية الجبهة الداخلية اقتصاديا أمر ضرورى ملح يسبق الدخول فى معارك حربية وعليه فقد اتخذ عدة خطوات اقتصادية منح فيها السكان حرية التجارة ودفع عنهم ما أثقلهم به وزراء الفواطم بأنواع الضرائب المختلفة فأبطل المكوس بناء على أوامر صدرت منه نشرت على الناس وقرئت أمامهم من على منابر المساجد فى عام ٥٦٧ هـ (٣٠ يونية ١١٧٠ م) (٧٦) مكنته من تحقيق النصر ليبدأ الصليبيون فى مقاومتها بعد ذلك كما بينا حتى آخر أيامهم .

أما على الصعيد السياسى ، فقد أضاف الصليبيون للتمزق السياسى الذى كان متفشيا فى الدولة الفاطمية تمزقا جديدا بحيث لم يعد يربطها رابط حتى أتى صلاح الدين لكى يوحد البلاد العربية من النيل حتى دجلة ولتحقيق النصر للأمة الاسلامية ومن بعده عاد التصدع بين مصر وسوريا مما أتاح الفرصة للصليبيين من التمكن والمكوث فى البلاد أطول فترة مستغلين المنازعات بين الاخوة وأبناء الأسرة الواحدة المنقسمين على أنفسهم فى ممالك متعددة متنافرة وعلى العموم فقد كانت الشخصية الحضارية الحقة للعالم العربى الاسلامى تتبلور

---

(٧٥) أبى شامة المقدسى الدمشقى ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين — ص ٢١١ .

(٧٦) د. احمد بيلى ، حياة صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٢٢ ص ١٩٩ .

فى حضارة الاسلام سواء فى الفكر أو العلم أو الحضارة المادية ، لهذا لم تكن الحروب الصليبية درسا سياسيا فحسب لأوربا وأنما كانت منهلا حضاريا ، حتى لتعزوا النهضة الأوربية فى واقع أمرها وحقيقتها من النهضة العربية الاسلامية ·

ولا يمكننا أن نجمل دور الصليبيين بأكثر مما ذكره السيد « فشر » بأنهم « هدموا أكثر مما بنوا وتركوا البلاد أفقر مما كانت » (٧٧) لأنهم لم يستطيعوا التأقلم مع طبيعة هذه البلاد ولم يتح لهم أبناؤها البقاء ·

(٧٧) S.N. Fisher, Middle East history, London, 1966, p. 138.



الفصل الثانى عشر

الفترة المملوكية

- غزة تصبح « المملكة الغزية ودهليز الملك »
- الظاهر بيبرس ينشىء مكتبة غزة
- ظهور قرية « السلقة » كمحطة بريدية لأول مرة
- قلاون يبنى « بيمارستان » ويوسع الجامع الكبير
- « سنجر الجاولى » بانى غزة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى
- انتشار المساجد والمزارات بالشجاعية والتفاح والزيتون
- انشاء « خانيونس » ١٣٧٨ م كنواة للمدينة
- قايتباى يوقف الأراضى الواسعة لمرافق غزة
- ضمور غزة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح
- تل العجول تستمر كموقع حربى
- رفح تتحول الى خربة على الطريق



الفترة المملوكية

« ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م »

لا يضاهى الحقبة التأسيسية العربية الكنعانية فى انتشار العمران وتشييد الأماكن المقدسة ـ وازدهار العلم واستتباب الأمن الا الفترة المملوكية التى دامت أكثر من قرنين من الزمان « ٦٤٨ ـ ٩٢٢ هـ » .

بدأت بقوة وانتهت بضعف وفوضى ـ قدر الامبراطوريات والدول المحتوم ـ فالدولة كأى كائن حى يعيش مرحلة الطفولة والشباب لتمر بمرحلة الكهولة والشيخوخة مع ما يلازم كل مرحلة من مظاهر القوى والتوسع وأعراض الوهن والانحسار والذبول بحيث لا يبقى لها بعد ذلك فى ذمة التاريخ من رصيد سوى ما خلدته من بنيان وقوانين عادلة .

لقد قدم المماليك لفلسطين بعد كسر شوكة الصليبيين وأكدوا دورهم بعد صدهم للغزو المغولى فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م كقوة واقعية ورادعة للعالم الاسلامى ، فأصبحت بعدها جميع المدن الفلسطينية منجذبة اداريا وسياسيا وكذا اقتصاديا نحو قطب الجاذبية المملوكى فى القاهرة . فكما لحقت فلسطين بالدولة الاخشيدية والفاطمية والأيوبية للقاهرة . الا أن تبعيتها لها فى المرحلة المملوكية أكثر الحاقا والتحاما من أى فترة خلت من قبلها وبالتالى ـ وبحكم الموقع الجغرافى ـ أصبحت « مدينة غزة » أول مدينة على الطريق بين القاهرة ودمشق كمركز الثقل الثانى (خريطة رقم ٢٠) ، وتستأثر الأهمية القصوى عند المماليك لتصل لمستوى « المملكة الغزية » ويطلق على حاكمها لقب « كافل غزة » ويهملون عن عمد جميع المدن الساحلية الفلسطينية باستثناء غزة ويافا لأنهما لعبتا دور وظيفة القلعة العسكرية وحجز القفز للداخل فى الفترة الصليبية وكاجراء وقائى أمنى ضد عودة الغزو الصليبى المحتمل التى ما زالت جيوبه متمثلة فى مملكة صليبية عاصمتها عكا ترنو ببصرها للانقضاض نحو بيت المقدس .

لقد ساد ربوع فلسطين مع بداية العهد المملوكى من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وحتى القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا الهدوء والاستقرار وسيادة الأمن وشيدت على أثره القنوات المائية والجسور والمبانى العامة الكبيرة مثل القياصر والخانات والجوامع والمدارس والزوايا والبيمارستانات ... الخ . كما

خريطة (٢٠)

فلسطين فى الفترة المملوكية (القرن الرابع عشر م)

تميزت البنية الاقتصادية لفلسطين بالقوة والاكتفاء ويستدل على ذلك بما وضعه العديد من الرحالة العرب والمسلمين من أمثال « ياقوت الحموى » ٦٢٣ هـ - ١٢٢٥ م والدمشقى ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م والقزوينى ٧٠٨ هـ ١٣٠٣ م والعمرى ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م وابن بطوطة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م والظاهرى ٩٠١ - ١٤٩١م وغيرهم كثيرون ممن سنتعرض اليهم واصفين مزروعات البلاد وصناعاتها المنتشرة فى معظم المدن والقرى التى مروا بها .

وبينما كانت القوى المملوكية فى أوج عنفوانهـا اجتاحت البلاد موجة مغولية بربرية تمكنت فى عام ١٢٦٠ م من مداهمة سوريا بقيادة « هولاكو » الذى استخلفه أحد قادته لمواصلة التخريب جنوبا نحو فلسطين حتى استطاع بقواته التوغل فى مدينتى الخليل وغزة لارساء قواعد عسكرية لهم فيها « فقتلوا الرجال واستولوا على الأبقار والمواشى والأغنام (٧٨) كـمـا حـاولوا الاعتزام لدخول مصر (٧٩) .

فهبت الجيوش المملوكية بقيـادة « سيف الدين قطز » لملاقاتهم معززة بنجدات عربية من أمير الكرك الأيوبى والسكان المحليين فلم تلق سوى قوى مغولية بقيادة « بايدار » استطاع « بيبرس » قائد مقدمة الجيش المملوكى من هزيمته فى ظاهر مدينة غزة وعند مدخلها الجنوبى «حى الزيتون» والتى ستصبح فيما بعد نواة « لمقبرة الشهداء » « حارة العواميد » واستمروا فى ملاحقة فلولهم حتى قادوهم للمعركة الفاصلة والحاسـمة فى « عين جالوت » ليسجل بيبرس نهاية جيش هولاكو على أرضها ولتزدهر من بعدها الحضارة الاسلامية فى الشام متقين بذلك شرا مستطيرا كاد يعصف بالمنطقة بأسرها .

والتفت بعدها المماليك بقيادة « الظاهر بيبرس » فى مدينة غزة لموقعها كمدخل رئيسى للشام جنوبا ولمصر شمالا متخذين المواجهة الدينية شعارا وهدفا لهم خاصة بعد أن جعلوا من القاهرة عاصمة الخلافة العباسية بعد مقتل الخليفة العباسى ببغداد على أيدى المغول سنة ١٢٥٨ م . فأصبحت غزة أولى مدن الشام أكثر قربا من مقر الخلافة فى القاهرة .

فقام بيبرس ببناء « مكتبة » ضخمة شرق المسجد العمرى الكبير مباشرة قيل انها ضمت أكثر من عشرين ألف كتاب سميت « مكتبة الظاهر » ذات غرف أربع ويوانين فسيحين ليأتى من بعده قلاوون ويزيلها ليعيدها من جديد الملك قايتباى ، كما كانت ويدعمها بالكتب (٨٠) ومما هو جدير بالذكر وجود ضريح

---

(٧٨) المقدسى - الذيل على الروضتين - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤ ص ٢٠٧ .

(٧٩) ابو الفدا - البداية والنهاية ، ج ١٣ بيروت ١٩٦٦٦ ص ٢٢٠ .

(٨٠) الشيخ عثمان الطباع - اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة - المجلد الأول - غير مطبوع ، غزة ١٩٤٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

بساحة المكتبة يرجع للقرن الخامس الهجرى نقش عليه العبارات السابق ذكرها والتى ترجع لقاضى القضاة أبو عبد الله الأغبر (*) ·

وبعد الألف من الهجرة قام بترميمها وتجديدها المرحوم حسن باشا والى غزة فصارت تعرف باسم « المدرسة الحسينية » بعد أن فقدت كتبها ، وبعد ذلك أقام بها العلامة الشيخ عبد القادر الغصين واتخذها مدرسة وزاوية ثم وقفها عليه وعلى ذريته من بعده فى عام ست وستين وتسعمائة هجرية وهى الآن مقبرة فقط ·

وديمغرافيا فقد عزز القائد بيبرس الاستيطان البشرى فى المدينة من المسلمين التركمان فخلع على أمرائهم الخلع (٨١) ، واستقروا فى الحى الجديد للشرق من مدينة غزة والذى أسس فى الفترة الأيوبية وهو حى الشجاعية بحارة التركمان كما استقر بعض الأكراد للشمال من هذه الحارة فى حى الجديدة كما سنرى ·

كما استطاع أن يجعل من المناطق الساحلية الفلسطينية مراعى للقبائل التركمانية منذ عام ١٢٦٦ م وتطوير مدينة غزة ويافا والمدن الجبلية وعلى رأسها مدينة صفد الذى أعاد بناءها فى هذا العام بعد زيارته لها لتصبح احدى عاصمتى فلسطين بعد غزة (٨٢) · كما أقام الجسور وشجع الزراعة وزاد من أراضى « الوقف » لصيانة الأماكن المقدسة والمرافق الحيوية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد وخاصة فى الخليل والقدس وصفد وغزة·

ولكى يوفر للدولة المملوكية أسباب القوة والمنعة ركز « بيبرس » اهتمامه على طرق المواصلات وزيادة الكفاءة البريدية منها والجوية « حمام الزاجل » ليتسنى له سرعة الاتصال فجعل فى مدينة غزة محطة بريدية مركزية للحمام الزاجل سنة ١١٧٠ ينطلق منها السعاه نحو الخليل والكرك شرقا والقدس والمدن الشامية شمالا يساندها بعض المحطات البريدية الثانوية فى « رفح » « والسلقا » والداروم فى جنوبها ومحطة « حنين » (بيت حانون) فى شمالها (٨٣) ·

وهكذا برزت ولأول مرة على الخريطة الفلسطينية « قرية السلقا » كمحطة بريدية فى العصر المملوكى تجمع أبناؤها على أثر الهدوء والاستقرار من القبائل

(*) ينتمى لهذه العائلة الغزية « عائلة الأغبر » أيضا الشيخ حسن الأغبر المدفون بمسجده بالقرب من شاطىء غزة والذى ذكره النابلسى فى رحلته للمدينة سنة ١١٠١هـ ·

(٨١) المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك — الجزء الأول — ق ٢ القاهرة ١٩٥٧ ص ٣١٦ — ٣١٨ ·

(٨٢) ل· م· ماير — بعض البنايات الاسلامية الدينية الهامة فى اسرائيل — القدس ١٩٥٠ ص ٣٦ ·

(٨٣) القلقشندى — صبح الأعشى — ج ١٤ ، القاهرة ص ٣٧٩ — ٣٨٠ ·

العربية الفلسطينية المتواجدة فى بنى سهيلا وعبسان وخزاعة ومعن لخدمة المحطة على الطريق الرئيسى . وربما كان موضع محطة « السلقا » هذه هو موضع « خان يونس » فيما بعد كما سيأتى ذكره عند حديثنا عن الخان .

ولكى يؤمن عنصر الامداد والتموين لهذه المحطات البريدية فقد اعتمد على قبائل بنى ثعلبه وهى بطن من طىء القحطانية فاستخدمهم عندما نزل غزة سنة ٦٦١ هـ بتقديم الزكاة المطلوبة لهم وأن يقوموا بخدمة البريد باحضار الخيل اللازمة له (٨٤) فلا غرابة بعد ذلك أن نقرأ عن ابن اياس باهتمام بيبرس بسرعة تلقى الأخبار الشامية لدرجة أنها كانت ترد اليه فى الجمعة مرتين (٨٥) .

وحتى يرسى دعائم المدينة قام بغرس ثوابتها الدينية والتثقيفية باقامة المساجد والمزارات تخليدا للشهداء فى سبيل الله — فى بعض الأحيان — فها هو يقيم مسجدا للشهيد المجاهد الجمالى على أبو الركب فى قلب المدينة القديم (حى الزيتون) ليطلق عليه فيما بعد « مسجد ومزار الشيخ أبو ركاب » الذى توفى سنة ٦٦١ هـ جاء على قبره : —

« بسم الله الرحمن الرحيم . كل نفس ذائقة الموت . هذا قبر الشيخ الصالح المجاهد فى سبيل الله الجمالى على أبو الركب توفى الى رحمة الله تعالى فى سنة احدى وستين وستماية » . ومما يؤسف له أن بقايا هذا المسجد وقبته ما تزال موجودة فى حالة من الاهمال التام (صورة ٥٢) .

كما عثر على بلاطة فى احدى ايوانات جامع الشيخ محمد أبو العزم المغربى عند الحافة الشرقية لمدينة غزة وتدل على وجود جامع قد اندثر قد بنى فى عام ٦٧٠ هـ . وربما نقلت هذه البلاطة لهذا الجامع الأحدث منه أو تم بناء جامع « أبو العزم » العائد لبداية القرن العاشر الهجرى على أنقاضه ..

جاء على هذه البلاطة :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أنشأ العبد الفقير الى الله تعالى والراجى عفوه ومغفرته وجلاله .. وأوقف عليه الأرض ... ذلك بتاريخ الخامس والعشرين من جمادى الأول سنة سبعين وستماية » . (صورة ٥٣) .

كما تم بناء مسجد الشيخ الياس عند الحافة الجنوبية الشرقية للتلة الواقعة

(٨٤) المقريزى — السلوك لمعرفة دول الملوك — المرجع السابق ص ٤٨١ .

(٨٥) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى — المختار من بدائع الزهور فى وقائع الأخبار — كتاب الشعب — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٨٩ و ٩٢ .

عليها المدينة وفى حى الزيتون • جاء على لوحته الرخامية الموجودة أعلى الباب الخارجى (*) ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله أمر بانشاء هذا المسجد المبارك لله وفى طاعة الله •

وابتغاء مرضاته ورغبة فى مغفرته وثوابه العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الياس •

بن سابق بن خضر غفر الله له واثابه فى شهر صفر سنة احدى وسبعين وستمية رحم الله من دعا له وجميع المسلمين » • (صورة رقم ٥٤) •

وليس لهذا المسجد من وجود سوى قبة تظل ضريحا، أما الرمز أو الشعار الذى يحد الكتابة من جانبيها فلا يعرف بالضبط لمن يرمز اليه من السلاطين وربما كانت اشارة لبعض القبائل التركمانية على الرغم من عودة تاريخ بنائه لفترة حكم الظاهر بيبرس •

ونظرا لغنى غزة ببناياتها العامة وما تعرضت له من حروب وكوارث عديدة دمرت الكثير منها فلا غرابة — كما هو الحال فى العديد من البنايات كما سنرى — أن يكون هذا الحجر منقولا لهذا المكان ، يؤكد ذلك « الحجر » الرخامى الذى عثرنا عليه داخل جامع « العجمى » فى قلب مدينة غزة (حى الزيتون) أسفل جدار أحد أقبيته الداخلية فى وضع غير مألوف أن يوضع فيه وبشكل مستتر يرجع لفترة الملك الظاهر بيبرس كتب عليه بخط النسخ المحفور يعود لسنة ٦٧٣ هـ •

١ — « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من •

٢ — آمن بالله واليوم الآخر أنشأ هذا المسجد المبارك لله وفى طاعة الله •

٣ — العبد الفقير الى الله على بن محمود فى شهر صفر سنة ثلاث وسبعين وستمئة غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » (صورة رقم ٥٥) •

ولو دققنا النظر فى الحجرين السابقين نجد أوجه الشبه بينهما متطابقة • سواء فى الخط أو الاسلوب وكذا الرموز التى حولهما حتى ليكاد أن يكون الكاتب واحد •

(*) لوحة رخامية بيضاء طولها ١١١ سم بعرض ٢٥٪ سم منقوشا عليها اربعة سطور بخط نسخ أيوبى بالحفر وعلى كلا جانبى الأسطر شعار على هيئة سهم « انظر الصورة » •

وبداخل مسجد العجمى هذا وعلى احدى جدران الغرفة المواجهة لساحته توجد بلاطة رخامية صغيرة منقوش عليها ثمانية سطور :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ـ الا ان أولياء الله لا خوف عليهم

٣ ـ ولا هم يحزنون هذا قبر العبد

٤ ـ الفقير الى الله تعالى الشيخ

٥ ـ الراشد القائد الورع محمد

٦ ـ العجمى أعاد الله من ذريته عوضا

٧ ـ ....

٨ ـ .... وصلى الله على محمد · (صورة ٥٦) ·

وأطلق بالتالى على الجامع « جامع العجمى » ومن الغريب أن لا يأتى ذكر تاريخ وفاة محمد العجمى لتظل كلتا البلاطتين موضع نقاش خاصة عن مصدرهما وهل يمتان بصلة للجامع نفسه أم يعودان لمساجد ومزارات اندثرت ·

كذلك استمرت مكانة مدينة غزة فى بؤرة اهتمام الدولة المملوكية فاتسعت رقعة المسطح البنائى لها خاصة فى اتجاه أحيائها الجديدة شرقا « الشجاعية » وشمالا « حكر التفاح » وجنوبا « حى الزيتون » خارج نطاق سور المدينة التلية القديم وبشكل اشعاعى يتبع مناطق الجذب والمواصلات سواء فى اتجاه القاهرة جنوبا أو القدس وصفد ودمشق شمالا ·

أما الجهة الغربية المواجهة للبحر المتوسط فغالبا ما بقيت على حالها لزحف الكثبان الرملية من ناحية وعدم اهتمام المماليك بميناء غزة بشكل جدى من ناحية أخرى الا أنه قد أقيمت بعض المساجد والأضرحة بالقرب من البحر كما سبق ان أوضحنا لتأمين بعض الرباطات كما زرعت الأراضى القريبة من حدودها الغربية بأشجار الزيتون التى أوقفت الكثير من المرافق الدينية كالمسجد والحمامات والزوايا والمدارس كما سيأتى فى حينه ·

وظل العمران وانشاء المساجد كأهم ظاهرة عمرانية لها وظائفها المركبة مستمرا طيلة حياة الظاهر بيبرس وحتى وفاته سنة ٦٧٦ هـ فقد أنشىء مسجد

ومزار الشيخ مجاهد (*) جنوب مسجد الشيخ الياسن السابق والتى عثرنا على بلاطته بالجامع العمرى الكبير بعد أن اندثر الجامع تماما كتب عليها حفرا أربعة سطور :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ٠

٢ ـ أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الكبير المجاهد الغازى شهاب الدين قرطاى ٠

٣ ـ المغورى على ضريح ولده الفقير الى ربه شمس الدين يحيى توفى الى رحمة الله ٠

٤ ـ تعالى فى النصف من صفر سنة ست وسبعين وستماية رحمه الله ورحم من ترحم عليه وجميع المسلمين ٠ (صورة ٥٧) ٠

ولقد أوقفت بعض الأراضى صيانة لهذا المسجد المندثر حسبما جاء فى الدفاتر العثمانية (٨٦) ٠

وقبل أن نترك فترة حكم الظاهر بيبرس علينا أن نؤكد ظاهرة « الرنوك » المنتشرة فى عديد من البنايات داخل المدينة فى غزة وخان يونس ٠ فمن المؤكد اركيولوجيا وتاريخيا أن الظاهر بيبرس قد اتخذ لنفسه شعار « الأسد » الذى وضعه على نقوده وعماراته الا اننا نرى بعضا من هذه الرنوك قد بنيت فى بنايات تعتبر أحدث عصرا كما هو الحال فى بناية الدبويا بغزة (مدرسة الزهراء الثانوية) وعلى بوابة « خان يونس » للدلالة على اشادة هذا الملك فى عصره من ناحية ولما تعرضت له المدينة من دمار نقلت على أثرها هذه الحجارة لتستخدم فى بنايات أخرى أحدث عصرا من ناحية أخرى ٠

وجاء الملك المنصور قلاوون ليتابع مسيرة البناء فى مدينة غزة عاصمة المملكة الغزية فأصلح المساجد وقام بترميمها فى وقت اشتدت فيه الحروب مع

(*) لقد جاء فى حجة شرعية صادرة من المحكمة الشرعية بمدينة الرملة الفلسطينية سنة ١٣٢٥هـ وقاضيها اذ ذاك محى الدين الخيرى مدرجا بها ما يلى [افتخار المعتمدين والسادات الموفقين السيد محمد بن السيد الحاج على أبو كر ضريح مكة ابن السيد حسن ضريح بيت المقدس ابن السيد حسين ضريح القاهرة ابن السيد صالح ضريح الرملة البيضاء ابن الشيخ محمد العابد ضريح غزة هاشم بن السيد عبد الله زين العابدين ضريح دمشق ابن السيد محمد زين العابدين المنسوبين لسيدنا الحسن بن على بن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ٠

(٨٦) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ حسب الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة فى القرن العاشر الهجرى ـ تحقيق وتقديم ـ محمد البشرى ومحمود التميمى ـ استانبول ١٩٨٢ ص ٦ ٠

الصليبيين فى الشمال والتتر بدأوا بالانقضاض بين الحين والآخر على بلاد الشام شمالا مضافا الى ذلك اشتداد بعض الفتن بين القبائل والتآمر على السلطة بين السلاطين استطاع قلاوون من خلالها أن يعقد هدنة مع الصليبيين فى عكا سنة ٦٨٢ هـ (يولية ١٢٨٣ م) مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام . ليواصل البناء فقد جاء على بلاطة موجودة على احدى غرف الجامع العمرى الكبير بالايوانات الغربية كتابة ترجع لعام ٦٨٧ هـ لجامع قد تهدم وأعيد بناؤه ولا يعرف بالضبط موقع هذا المسجد الذى نقل حجره هذا فقط للجامع العمرى لمكانته المركزية واتساع مساحته جاء عليها :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة .

٢ ـ وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ولما سقط المسجد المعلق المعروف بانشاء الأمير المرحوم .

٣ ـ سيف الدين بلبانى المستعرنى أنشىء مكانه هذا المسجد المبارك من مال الوقف المبارك المعروف بالأمير سيف الدين المذكور .

٤ ـ فى سـنة سبع وثمانين وستمائة بنظر الأمير سعد الدين لوجبا الناصرى الوصى أثابهما الله وأجرهما لهما ولجميع المسلمين . (صورة ٥٨) .

وقد وصف الجامع المعلق هذا بأنه ظريف وحسن يقيم به العلماء والقضاة والمسافرون ويقع بقصبة سوق المدينة . ويبدو أن الجامع العمرى الكبير قد تهدمت بعض جدرانه خاصة الجدار الشرقى فتم فتح بابه الشرقى فى ظل حكم حسام الدين أبو الفتح لاجين وجاء على بابه كتابة تحيط بمدخله :

« بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ، أمر بانشاء هذا الباب المبارك والمئذنة المباركة مولانا وسيدنا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصورى أدام الله أيامه ونشر فى الخافقين بالنصر الويته وأعلامه وأعز أنصاره وأعوانه ووزراءه وأمراءه وحكامه وجنده وخدامه وحكم فى نحر المشركين سهامه وسنانه وحسامه وأوزع شكر ما أنعمت عليه وأحسن فى الدنيا والآخرة اليه تولى عمارتها العبد الفقيرة الى ربه الراجى عفوه سنقر السلحدار العلائى المنصورى فى شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستماية .» (صورة ٥٩) .

---

(٨٧) عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة بتاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١٨ .

فقد ظهر على بلاطــة فى منتصف المئذنة اســم « بكتمور الأعسر » لعله اسم البانى ٠

وفى نفس العام فتح شباك بالجدار الشمالى للمسجد جاء على بلاطة رخامية اعلاه ما يلى :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام مولانا السلطان الملك المنصــور حسام الدنيا والدين فتح هذا ٠

٢ ــ شباك النور المبارك فى ولاية العبد الفقير الى ربه سنقر السلحدار العلائى فى شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستماية أثابه الله وغفر له ولجميع المسلمين » ٠ (صورة ٦٠) ٠

وبعد ذلك بعامين وفى سنة ٦٩٩ هجرية تم افتتاح باب آخر بنفس الجدار الشمالى للمسجد القديم جاء على بلاطة توجد أعلاه سطران ٠

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أنشأ هذا الباب والمحراب فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه فى ذا الأننا أنشأه العبد الفقير الى الله تعالى ابراهيم بن محمد الحاجب غفر الله وأدامه بالعز آمين سنة تسع وتسعين وستماية » (صورة ٦١) ٠

وليفهم من ذلك أنه أنشىء محراب للجامع بالداخل فى هذا العام الذى أشيع فيه قدوم التتار لبلاد الشام مما أدى الى رفع أسعار السلع فاشتد الغلاء فخرج السلطان من مصر فأقام فى مدينة غزة قرابة شهرين (٨٨) للدلالة على مكانتها الاستراتيجية والادارية فى مراقبة الأحداث واستطلاع الأمور ٠

وتابع ابن قلاوون مسيرة أبيه ففتح الباب الجنوبى للجامع الكبير المطل على سوق القيسارية بقلب المدينة القديم فقد جاء أعلى الباب منقوشا على بلاطة طويلة ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ٠ أمر بانشاء هذه الزيادة المباركة بالجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون خلد الله تعالى ملكه باشارة المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى الأجلى الكبيرى العضدى النصيرى المخترمى المخدومى المجاهدى المرابطى المثاغرى المؤيدى المنصورى السيفى مولانا ملك الأمراء تنكز الناصرى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس أعز الله

(٨٨) أبو الفدا ــ البداية والنهاية ، ج ١٤ ــ بيروت ــ طبعة أولى ١٩٦٦ ص ٦ ٠

أنصاره وكان الفروغ منه فى شهر المحرم سنة ثلاثين وسبعمائة » أى فى عام ١٣٢٩ م · (صورة رقم ٦٢) ·

كما أنشأ نفس السلطان فى العام نفسه « بيمارستان » هو بمثابة مستشفى للأمراض العصبية وملحقا به جامع ورباط سمى « بالرباط المنصورى » أى « خان الزيت » فيما بعد والذى أوقف له المنصور قلاوون كثيرا من الأراضى كما أوقف فى عام ٦٨١ هـ كثيرا من الأراضى والبساتين الغزية على رباطه بالقدس الشريف منها بستان زيتون غربى غزة وقرية المحرقة فى شرقها (٨٩) كما أوقف أراضى شاسعة على البيمارستان الناصرى فى غزة (٩٠) · وقد أصاب الدمار هذا البيمارستان على أيدى جنود الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ م ثم دخل أوقاف أحمد بن رضوان باشا فى الفترة العثمانية ·

وهناك بلاطة يبدو أنهـا نقلت من مكانها من أحد مساجد غزة (ربما من جامع البيمارستان السابق الذكر) والذى بناه قلاوون ووضعت فى الايوان الشرقى للجامع العمرى الكبير وعلى منبر جامع قايتباى المنقول أيضا ، وهذه البلاطة غير كاملة فقد جاء عليها :

١ ـ ··· الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين جدد هذا المسجد المبارك الفقير الى الله ·

٢ ـ ··· المنصــور قلاوون الصالحى خلد الله ملكه دامة ···
يتوسط الكتابة « رنك عصا البولو » · (صورة ٦٦) ·

وهناك بقايا حجر رخامى نقش عليه عبارات تدل على وجود قصر فى المدينة يرجع لبداية القرن الثامن الهجرى قد أكمل بنيانه الأمير ركن الدين بيبرس العلائى ـ نقش على هذا الحجر الموجود على احدى أعمدة الايوانات الجنوبية :

١ ـ ···· الأنهار ويجعل لك قصورا أكمل عمارة هذا القصر أيام ·

٢ ـ ···· العبد الفقير الى الله تعالى الأمير ركن الدين بيبرس العلائى ·

وقد تولى هذا الأمير نيابة مدينة غزة فى عام ٧٠٨ هـ ثم أقيل منها · (صورة ٦٧) ·

وقبل ذلك بعامين تم بناء مسجد فى حى الشجاعية الجديدة ويعتبر من أقدم مساجد هذا الحى أنشأه « الشيخ مسافر » حيث سمى باسمه ولم يبق من هذا المسجد سوى قبة صغيرة عليها بلاطة كتب عليها أربعة سطور : ـ

---

(٨٩) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٤٤ ·
(٩٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٦ ·

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن ٠

٢ ـ بالله واليوم الآخر أنشأ هذا المسجد المبارك العبد ٠

٣ ـ الفقير الى الله تعالى الحاج سعد الدين مسافر بن قتبغلى أحد ٠

٤ ـ المماليك السلطانية المناصره ؟ وذلك بتاريخ شهر شعبان سنة ست وسبعمائة » ٠ (صورة ٦٨) ٠

وهذا فان كانت الترميمات والزيادات هى السمة الغالبة على الجانب العمرانى فى قلب المدينة غزة وذلك تأكيدا لشخصيتها العربية الاسلامية وداخل أسوارها ، فقد تميزت الأحياء الجديدة ذات الأصول والنشأة العربية الخالصة فى أحياء الشجاعية بقسيمها (الجديدة والتركمان) شرقا وحى حكر التفاح شمالا وحى الزيتون جنوبا بانتشار المبانى العامة الجديدة كالمساجد والمزارات والمدارس والحمامات كمراكز دينية وثقافية وصحية ٠

وهذه فى حد ذاتها أصبحت بمثابة طوق عمرانى جديد يلف المدينة القديمة الأم اتخذت لنفسها طابعا ريفيا ازدان بأشجار الفواكه كالزيتون والتفاح وكذلك الخضار والحبوب ليدعم سكان المدينة ومبانيها العامة ٠

وفى حى التفاح وفى الجهة الشمالية الشرقية من موضع غزة القديم وبالقرب من الطريق الموصل لشمال البلاد أقيم « جامع على بن مروان » وهو من الجوامع الكبيرة بالمدينة بداخله ضريح « على بن مروان » المتوفى سنة ٧٥ هجرية ٠

وقد جاء على بلاطة صغيرة أسفل مئذنة الجامع وعند بابها : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم جدد عمارة هذه المنارة المباركة

وايوان القاعة والمنبر والمحراب الشريف فى جامع ابن

مروان رضى الله عنه الفقير الى الله تعالى محمد بن عبد الله

سنة خمس وعشرين وسبعمائة ٠ (صورة ٦٩) ٠

وقد جاء على مئذنة الجامع أيضا أبيات من الشعر :

منبر من أمير المحمل شريف ... فى مقام معظم لله

وعليه لله حمد وذكر ... وصلاة وتوجه لله

وهو انشاء حاجب وأمير ... صاحب الجود والوفاء والجاه

فهو سمى سفر دام عزا ... يبدا الكل دم فى الأفواه

ومما هو معلوم أن الأمير سفر الحاجب كان موجودا بمدينة غزة سنة ٦٩٧ هـ وربما أضاف له هذا الامير منبرا جديدا • لأن الجامع بطبيعة الحال أقدم من ذلك ونظرا لقدمه وأهميته لأنه يلي الجامع العمرى الكبير فى المساحة والاتساع فى حينه لذا كان الأمراء وأغنياء المدينة يتبارون على اصلاحه وترميمه• فقد جاء على بلاطه رخامية طويلة بنيت على جدار الجامع الغربى المواجه للمقبرة أبيات من الشعر كتبت فى سطور ثلاثة طويلة جاء فيها :

« لولا المحبة فى القلوب وأنهــــا رحب لضاق الكون بالأكـــوان
هى سر فرقان الاله وجمعـــه هى منه من جنـــة الرحمـــن
بجود وحلم ساد يحيى على المـــلا أمير غـــزة هاشـــم الجـــزران
بنى بنـاء خالصا فى صـــنعه جزاه خيرا خالق الانســـان
يحيى حيـــاة الله كل فضـــيلة ببناء مســـجد على بن مـــروان
حصـــنته بالهاشـــمى محمـــد وبالخليـــل مبـــرد النـــيران
صلى الاله عليـــه بعـد نبينـــا والآل والأصـــحاب والأقـــران
ما دام خـــير الدين يرجـو رحمـة من منزل الزابور والفـــرقان »

حبر وحرر من عشرة من شعبان المبارك سنة ١٢١٧ هجرية • (صورة ٧٠) •

وقد ظهرت فى الدفاتر العثمانية أوقاف عديدة لزاوية الشيخ على بن مروان معظمها أراضى زراعية ، ومن ضمنها بيت فى « حارة الأكراد » قرب مســجد العلواشى (٩١) الآتى ذكره لنوصى بسكنى الأكراد المسلمين فى هذا الحى •

وفى العقدين الأول والثانى من القرن الثامن الهجرى اجتاحت المدينــة نهضة عمرانية عادت لقلبها القديم مركز الادارة والحكم فبعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك الصالح اسماعيل من بعده ورسم للأمير علم الدين سنجر الجاولى (٦٥٣ ــ ٧٤٥ هـ) الفقيه الشافعى بنيابة غزة فأتى اليها وشرع فى انشائها فأنشأ « عمارة الجامع بغزة وهو جامع الجاولى » وعمر حماما هائلا ومدرسة للشافعية وعمر خانا للسبيل وبنى بغزة مارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة وجعل النظر فيها لنواب غزة (٩٢) وسنأتى بذكر هذه الأوقاف لكثرتها وانتشارها فى جميع قرى ومدن فلسطين •

(٩١) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ــ المرجع السابق ص ١٣ •
(٩٢) د• أحمد عيسى بك ــ تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ــ دمشق ، ١٩٣٩ ص ٢٤٧ •

وبحق يمكن اعتبار علم الدين سنجر الجاولى بانى غزة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ومن أعظم نوابها فى الفترة المملوكية فقد أبدع ابن بطوطة فى وصف جامعه « جامع الجاولى » الذى بناه فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة غزة على الطريق المؤدى لمصر فقال عنه « أنيق البناء محكم الصنعة » (٩٣) .

ويبدو انه بعد تهدمه نقلت حجارته لبناء « جامع الشمعة » بحى الزيتون ومن ضمنها حجر الأساس الذى نقشت عليه هذه العبارات : ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم .. انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .. أمر بانشاء هذا .. المبارك .. مرضات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة أربعه .... » (صورة ٧١) .

هذا ما جاءت به نقوش هذه البلاطة المتهدمة من طرفها الأيسر ، ولما كانت ولاية سنجر الجاولى قد بدأت بمدينة غزة سنة ٧١١ هـ وانتهت فى سنة ٧٢٠ هجرية زمن الملك الصالح اسماعيل لذا يعتقد أن هذه الكتابة ترجع لسنة ٧١٤ هجرية » (٩٤) .

وهو بطبيعة الحال منقول لأن جامع الشمعة . أحدث بناء تماما كما تم بناء كثير من المساجد من حجارة الجامع الجاولى فهناك بقايا حجر رخامى كتب عليه .. « فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلثة عشر وسبعماية » بنى فى أحد جدران جامع السيد هاشم ربما نقل من جامع الجاولى . (صورة ٧٢) وهناك بلاطة رخامية ثالثة ربما جيء بها من « جامع الجاولى » أيضا وضعت فى الايوان الشرقى للجامع العمرى وبالقرب من محراب جامع قايتباى المنقول للجامع جاء عليها : ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم عمر هذه الأفناء المباركة بالجامع المعمور بغزة أيام مولانا السلطان ابن السلطان الملك ابن الملك المنصور خلد الله سلطانه بادارة المقر العالى .. العبد الفقير الى الله تعالى سنجر الجاولى الملكى الناصرى .. غفر الله له فى سنة عشرين وسبعمائة » (انظر الصورة السابقة رقم ٦٦) .

---

(٩٣) ابن بطوطة ـ مهذب رحلة ابن بطوطة ، تهذيب وضبط أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى ـ ج ١ القاهرة ١٩٤ ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٩٤) L.A. Mayer, Arabic inscriptions of Gaza, J.O.P.S., Vol. XI 1929, pp. 147-148.

وهناك جزء من حجر رخامي يرجع لفترة سنجر الجاولي صغير الحجم يبدو انه نقل لجامع ابن عثمان بالشجاعية وموجود على جدار المسجد الخارجي بشكل ارتجالي خطوط غير واضحة تماما ربما نقل من أنقاض مرافقه العديدة التى انشأها بالمدينة واوقف لها مساحات شاسعة من الاراضى الزراعية معظمهـا فى قرية جباليا والعديد من القرى والاراضى الفلسطينية • (صورة ٧٣) •

ولجزالة ما تعطيه الأراضى الزراعية التابعة للمملكة الغزية من وفرة انتاج مزروعاتها نجد أن هناك أمراء وسلاطين يوقفون بعضا من أراضيها ومزارعها على مرافقهم وتربتهم خارج حدودها فها هو الأقبغا بن عبد الله الأوحـدى يوقف اراضى تابعة لغزة في المجدل وعسقلان وحمامة على تربته بالقـاهرة فى عـام ٧٣٤ هجرية (٩٥) تماما كما أوقفت مساحات كبيرة للحرمين الشريفين •

وفى عام ٧٣٥ هجرية أقيم جامع سمى فيما بعد « جامع كاتب الولاية » أو كاتب الولايات كما جاء فى الدفاتر العثمانية • فقد نقش على رخامة طويلة بنيت أسفل المئذنة سطران ـ جاء فيهما « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المئذنة مولانا المقر الأشرف السيفى أفنانى العلائى نائب السلطنة الشريفة بغزة المحروسة ابتغاء لوجه الله تعالى فى مستهل ذى الحجة الحرام سنة خمس وثلاثين وسبعماية » يتوسط الكتابة « رنك عبارة عن دائرة مقسمة الى ثلاثة أقسام ترمز للمقلمة ثم كأس في الوسط واسفله زهرة السوسن » (صورة ٧٤) •

وقد بنى قبالة الكنيسة الكاثوليكية القديمة (كنيسة بيرفوريوس) التى تم بناؤها فى القرن الخامس الميلادى وقد بنى هذا المسجد فى عهـد السلطان الناصر بن قلاوون وقد تعرض للهدم فأمر بانشائه وتجديده أحمد بك كاتب الولاية فى أوائل ذى الحجة سنة ٩٩٥هـ كما جاء على احدى بلاطاته المبنية أعلى باب الجامع الرئيسى والتى تعود لأيام السلطان مراد العثمـانى فقـد نقش عليهـا :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله •• انشأ هذا المسجد العبد الفقير الى الله أحمد بك كاتب الولاية فى أوائل ذى القعدة سنة ٩٩٥ هجرية » •

والغريب أن تكتب السنة بالأرقام لأول مرة • (صورة ٧٥) •

ولقد كان تأثير الطرق الصوفية المتواجدة فى مصر له أثره وامتداده فى مدينة غزة فالزوايا والتكايا كمؤسسات تقليدية قد ازدهرت وترعرت فى حجر المجتمع الاسلامى وضربت جذورها العميقة فى التربة الاجتماعية وتغلغلت فى نفسية المواطن والجماهير •

(٩٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٠٠ و ١٠١ •

وقد بد ذلك في المجتمع الغزى عندما تم بناء « زاوية السيد أحمد البدوى » في وسط المدينة وفي حي البرجلية » (الدرج فيما بعد) . ومما هو معروف أن السيد أحمد البدوى قدم لمصر بعد أن تعددت أسفاره للعراق ثم مكة فتوجه منها الى طنطا في حوالى سنة ٦٣٧ هـ وبعد وفاته انقسمت الطرق الأحمدية الى عدة طرق فرعية حيث كانت هذه الطرق بعيدة عن القضايا السياسية وتتمحور حول التجربة الروحية الفردية (٩٦) .

ولتأثيره هذا بنيت كما ذكرنا هذه الزاوية التى جاء على احدى البلاطات التى تعلو واجهة مدخل الزاوية السطور التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا ، أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى طرنطاى الجوكندارى » . (صورة ٧٦ ، ٧٧) .

ومما هو جدير بالتنويه أن طرنطاى هو أحد امراء العشرات بدمشق وهو حسام الدين الجوكندار قد ولاه الأمير سيف الدين تنكز فى مدينة غزة فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٧٣١ هـ (٩٧) .

وفى فناء الزاوية وعند مدخلها الرئيسى يوجد ضريح كتب على بلاطته ستة أسطر بخط النسخ المملوكى ما يلى : —

بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان
هذا ضريح الست الجليلة الكبرى المصونة
السيدة الشهيدة قطلو خاتون ابنة المقرا
المرحوم بهادر الجوكندار (*) رحمها الله
تعالى وكان وفاتها يوم الاثنين الثانى من شهر
ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وسبعمايه .. (صورة ٧٨ — ٧٩) .

ونظرا لأن طرنطاى الجوكندار هذا من لجراكسة لذا كثيرا ما عرفت هذه الزاوية فى الدفاتر العثمانيــة والأوقاف فى الفترة المملوكيــة « بالزاوية الجركسية » وأحيانا بالمدرسة الجركسية . ولاكمال مسيرتها فقد رصد لها

---

(٩٦) السيد أحمد البدوى قطب التصوف فى مصر — مجلة الهلال — يونيه ١٩٨٥ ص ٦٩ — ٧٠ .

J.P.O.S. Vol. III, 1923, pp. 74-75.

(*) بهادر الجوكندار أحد أمراء الأربعين بدمشق (الطبلخانة) وقد توفى سنة ٧٢٣هـ أى قبل وفاة ابنته بعشرة سنوات وربما كانت ابنته هذه احدى زوجات كبار المماليك فى غزة أو توفيت وهى فى طريقها للحج أو السفر .

أوقاف خاصة باسم المدرسة في عام ٨٥٧ هـ عبارة عن مزارع في قرى غزة الشرقية (٩٨) .

وتابع العمران مسيرته بأيدى عربية اسلامية مواكبة التطور والتوسع الديمغرافى للمدينة فقد بنى مسجد الشيخ أحمد طقماج بحى الشجاعية حارة التركمان وفى أقصى الطرف الشرقى لها ضم ايوانات ضخمة وبداخله غرفة بها ضريح الشيخ أحمد المذكور وعليه تاريخ يرجع لسنة ٧٤٣ هـ ليدفنوا أولاده من بعده فى نفس المكان حيث جاء على ضريحهما :

« هذا قبر محمد وشعبان أولاد أحمد طقماج العلمى الجاولى توفيا الى رحمة الله تعالى فى شهر شعبان المبارك سنة أربعة وستون وسبعماية » .

وأحمد طقماج جركسى من مماليك نائب غزة الامير شجاع الدين وعلم الدين سنجر الجاولى (٩٩) .

وهكذا استمر استغلال حدود المدينة القديم فبالقرب من أبوابها تم بناء المؤسسات بوظائفها المختلفة وعلى رأسها المساجد فقد بنى فى عام ٧٤٩ هـ مسجد ومزار الشيخ خالد على سفح المدينة الغربى بالقرب من بابها « باب الجرن » وقد دفن بانية في وسطه كما جاء منقوشا على بلاطه بنيت فوق سطح الضريح بشكل فريد لثلاثة أسطر ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتهـا .

٢ ــ جدد هذا المكان المحتوى على ضريح ولى الله تعالى سيدنا .

٣ ــ الشيخ خالد المتوفى سنة تسع واربعين وسبعمايه . (صور ٨٠ ــ ٨١) .

ويقال انه دفن بهذا الجامع الشيخ جماق جد عائلة جماق التى تنسب اليها « الأجمقية » فى حى التفاح .

ويبدو من الكتابة أن هذا الجامع قد أنشىء قبل هذا التاريخ الذى يدل فقط على سنة وفاة الشيخ وقد أصبح بهذا المسجد فيما بعد زاوية تسمى زاوية الشيخ خالد حيث أوقفت لها بعض الاراضى فى غزة نفسها منهـا « بستان المراجعة » قرب تربة باب البحر » (١٠٠) .

لكن النهضة العمرانية التى عمت أرجاء المدينة وضواحيها والمعبرة عن جو الاستقرار الأمنى الذى منح الأمراء من المماليك وكذا العديد من أفراد الشعب

---

(٩٨) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ــ المرجع السابق ص ٦ .

(٩٩) الشيخ عثمان الطباع ، اتحاف الأعزة ، الجزء الاول المرجع السابق ص ١٧٥ .

(١٠٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٦ .

فرصة التنافس فيما بينهم فى البناء والعمران وكثيرا ما كانت تعتكره الفتن وكوارث الاقتتال بين القبائل . ففى هذه الحقبة وفى عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) كثرت الفتن بين قبيلتى جرم المنتشرة حول القدس مع قبيلة ثعلبة المتواجدة حول مدينة نابلس فوقف أمير غزة « يلجك » مع شيخ جرم « اوى » وكانت الهزيمة من نصيبهم فقتل الكثير ونهبت أموال عديدة من مدن القدس والخليل والرمله واللد مما أضطر المماليك من تجهيز حملة قوية ضدهم قضت على ثعلبة بالقرب من اللد (١٠١) .

وفى حكر التفاح (حى التفاح) أقيم جامعها الرئيسى للآن والذى يقال بأن بانيه الأمير عبد الله الايبكى (*) من رجال عز الدين الايبكى التركمان ففى هذا الجامع يوجد الآن بلاطه تدل على تاريخ بنائه الا أن الشيخ الطباع يروى بأنه شاهدها بالمنبر فى أربعينيات هذا القرن (١٠٢) . وقد نقلت الآن بعد ترميمه وزيادته الى ضريح بالجامع جاء عليها ما يلى : —

« أمر بانشائه الامير الأجل المجاهد المثاغرى المرابط المغازى سيف الدين المستغربى المالكى الصالحى الأشرفى أثابه الله وأوقفه وأيده وسبله ابتغاء لوجه الله ومرضاته سادت السموات والأرض فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه وذلك فى العشر الاخير من ذى القعدة سنة احدى وخمسون وسبعمايه » . (صورة ٨٢) .

ولقد ذكر المقريزى انه فى عام ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) هطلت على مدينة غزة أمطار لم يسبق لها مثيل هدت بيوت كثيرة على أهاليها كما هدمت نصف دار النيابة ومسكن النائب بجامع الجاولى (١٠٣) .

حتى اذا ما قدم ابن بطوطة للمدينة بعده بسنوات قليلة من خمسينيات القرن الثامن الهجرى وجدها على حد وصفه « متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق » واصفا جامعها الجاولى بأنه « أنيق البناء ومحكم الصنعة » كاشفا النقاب عن كثافة التجارة على الطريق التجارى الهام بين القاهرة وغزة وبقية بلاد الشام بالعائد المادى الذى تحصله نقطة التفتيش والجمارك فى « قطيا » والبالغ جباها فى اليوم الواحد ألف دينار ذهبى ولا يحق لاحد الدخول لبلاد الشام الا بعد أخذ براءة من مصر (١٠٤) .

---

(١٠١) ابن اياس — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — الجزء الثالث — القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣ ص ٢٢٥ .

(★) يقال أن لهذا الشيخ ولدين احدهما وهو الشيخ عياد والمدفون بالقرب من جامع السيد هاشم والابن الثانى هو أحمد والذى له مزار ويدعى « مزار الشيخ نبك » وقد ورد اسمه فى كتاب أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين . باسم الشيخ أينه بك » وله اوقاف .

(١٠٢) عثمان الطباع — اتحاف الأعزة — المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٠٣) المقريزى ، كتاب السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٨٨٤ .

(١٠٤) ابن بطوطة — مهذب رحلة ابن بطوطة — المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٤ .

وتواصل التعمير فأنشىء في عام ٧٥٩ هـ « جامع الأوزاعي - الذي هدم على أثر افتتاح شارع في منتصف المدينة (شارع فهمي بك) وتم بناؤه بالقرب من الحد الشمالي الغربي للمدينة حتى سميت المقبرة القريبة منه باسمه .

وهكذا كان النصف الأول من القرن الثامن الهجري زاخرا بحركة عمرانية عمت أرجاء المدينة بطموح بالغ نحو احيائها الحديثة لتعكس اقدرا من الانتعاش الاقتصادي جنته المدينة من موقعها المروري الهام وتجارتها الرائجة وزراعاتها الخصبة الغنية . فبدأ أهلها وامراؤها لا يتركون فراغا حول المدينة القديمة الا واستغلوه في بناء المساجد أو المدارس والاسبله ففي نفس العام (٧٥٩ هـ) توفى العالم الصالح الشيخ على الاندلسي المغربي في جامعه (مسجد وزاوية الاندلسي) وسط مدينة غزة وقد اندثر هذا الجامع .

وفي عام ٧٣٦ هـ بنى جامع « الظفر دمرى » عند بداية حى الشجاعية الغربي نقش على بابه فوق حجر رخامى ثلاثة أسطر : -

بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى شهابه الدين أحمد بن أزفير ابن الظفر دمرى في سنة اثنان وستون وسبعمائة » (صورة ٨٣) .

وهناك حجر رخامى يوجد أعلى شباك خلف الجامع يعود لنهاية الغزة المملوكية جاء عليه في ثلاثة أسطر : -

(١) أمر بانشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف الكريمى العالى الأميرى الكبيرى المالكى المخدومى السيفى أزدمر .

(٢) كافل المملكة الشريفة الغزاوية المحروسة أعز الله تعالى أنصاره بتاريخ يوم الأحد المبارك ثامن عشر ذى القعدة الحرام سنة ثلاثة وتسع ماية .

واستمر العمران في تسابق مع الزمن يوحى بازدياد عدد السكان لأن مثل هذه المرافق العديدة ما كانت لتقام الا لتفى حاجة السكان المتزايدة فقد بنى بنفس حى الشجاعية وفي عام ٧٨٢ هـ « مسجد ركن الدين التركمانى » الذى بناه ركن الدين عمر بن خليل التركمانى وقد اندثر هذا المسجد الا أن بلاطته التأسيسية قد بنيت أعلى الباب الشمالى للجامع العمرى الكبير وتتألف من ثلاثة بلاطات رخامية تحف بالباب كتب عليها : -

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاه بنى الله له قصرا في الجنة .. أمر بانشاء هذا المسجد الشريف والتربة

المباركة ابتغاء لثواب الله ٠٠٠ الفقير الى رحمة الله الجليل ٠٠ بن المرحوم ركن الدين عمر بن قرا التركماني العربى ٠٠ وذلك فى النصف من ذى الحجة الحرام سنة اثنين وثمانين وسبعمائة اثابه الله الجنة وغفر له ولجميع المسلمين » ٠٠ (صورة ٨٤) ٠

وبحى الشجاعية أقيم أيضا مسجد يسمى « مسجد الطواشى » (*) وهو اسم لأحد الأمراء المماليك وقد أطلق عليه فيما بعد مسجد السيد على المغربى » لأن الأخير اعتاد الصلاة فيه ودفن بداخله ، وعلى باب المسجد توجد بلاطتان نقش على السفلى منها : ـ

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى شاهين بن عبد الله الكحكى مقدم القصر الشريف انه

٢ ـ أوقف جميع البيت والقاعتين جوار المدرسة وجميع الحوش ظاهره وباطنه المعروف بالجوبانى وجميع الحاكورة وما فيها المجاورة بالمدرسة وقفا صحيحا شرعيا فى سنة ست وثمانين وسبعمائة » ٠

وأعلى هذا الحجر كتب على بلاطه ثلاثة سطور جاء فيها :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة والبئر المعمر المقر السيفى شاهين ٠

٢ ـ الكحكى مقدم القصر الشريف كاف وجعل البئر وقفا على المدرسة المذكورة وعلى السقاية الشتا ٠

٣ ـ والحوض داخل المدرسة وذلك فى مستهل شهر الله المحرم سنة احدى وعشرين وثمان مائة » ٠

وهناك أسفل هذين الحجرين وعلى جانبى باب الجامع توجد أجزاء من حجارة تأسيسية قد تكسرت وبقى منها أجزاء قد استغلت فى البناء كتب على الحجر الايمن :

ـ وقفا على المدرسة

ـ وعلى القبه

أما الحجر الايسر فقد جاء عليه سطران :

(*) لقد تم العثور على حجر رخامى على اثر هدم الجدار الخارجى لهذا المسجد جاء عليه فى ثلاثة سطور :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارته للسبيل للعابر المقيم الأمير

٢ ـ الأجل الكبير الأسفهلار المجاهد المثاغر المرابط المظفر ٠٠٠٠٠٠

٣ ـ علم الدين سنجر بن عبد الله الجولانى الصالحى غفر له فى شهور سنة احدى (وستين) ٠٠٠٠

ـ والطاحونة والدكاكين و ..

ـ المعروفة بالشجاعية . (صورة ٨٥) .

وكما ذكر دفن فى هذا الجامع الشيخ على المغربى من صلحاء المغاربة فى القرن الثالث عشر الهجرى ثم جدده الأمير محمد باشا متصرف غزة الذى نقش على أحد البلاطات الموجودة أعلى باب الغرفة الداخلية بالمسجد العبارات التالية التى تعكس مدى التردى الثقافى والادبى فقد جاء عليها :

١ ـ هذا ضريح نوره فينا ضياه قد بهر .

٢ ـ جدده وزير أهل المكارم والخير محمد باشا عز له ما مثله فى .

٣ ـ الكون من ادم علينا حكمه وانصره نصرا معتبرا هذا بناء .

٤ ـ كامل بمحمد خير الوزير وخير الدين راجيا جنات عدن ونهر سنة ١٢١٥ . (صورة ٨٦) .

وهكذا يبدو من هذه الكتابة المنقوشة على الحجارة أن منطقة الشجاعية الجديدة تمثل وحدة سكنية ذات مرافق حيوية تعكس الجانب الديمغرافى بها فقد أصبح بها وبالقرب من الجامع مدرستان منفصلتان عنه تمثل أقدم مدارس الحى بالاضافة لبئر ماء وطاحونة وحوض للسقاية فى فصل الصيف حيث تخزن به مياه الامطار الشتوية ولكى يفى بحاجة المزروعات فى الحاكورة المجاورة وجميع ذلك يعرف كما جاء فى النقش « بالشجاعية » وهذا يمثل فى حد ذاته أقدم سجل يذكر فيه اسم الحى الذى انسحبت هذه التسمية فيما بعد لتضم « حى التركمان » الواقع للجنوب من هذا الحى .

وقد جاء فى كتاب أوقاف المسلمين فى فلسطين أن هناك بيتا موقوفا لزاوية على بن مروان يقع قبالة هذا المسجد « بحارة الاكراد » (١٠٥) حتى نهاية القرن العاشر الهجرى مما يدل على سكنى الاكراد القادمين من الايوبيين والمماليك حيث لا يخلو حى فى معظم المدن الفلسطينية منهم .

وفى هذه الاثناء تولى الحكم الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هـ وكما جاء على لسان كثير من المؤرخين أنه أبطل المكوس وانتعشت فى عصره التجارة فانخفضت أسعار السلع المستوردة مما شجع العديد من التجار الشرقيين والأجانب على الاتجار مع مصر (١٠٦) وعليه فلابد ان يتبع ذلك انتعاش لبوابة

---

(١٠٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ١٣ .

(١٠٦) د. سعاد ماهر ـ القاهرة القديمة وأحياؤها ، المكتبة الثقافية العدد ٧٠ القاهرة أول أكتوبر سنة ١٩٦٢ ص ٨٣ .

مصر الشمالية الشرقية مع الشام وآسيا ويعود مردوده الاقتصادى بالدرجة الأولى على المملكة الغزية التى تتبوأ عاصمتها غزة هذه المكانة لتستقطب بدورها جميع المدن والقرى التى حولها بعمق يصل شمالا لمدينة قيسارية والقدس والخليل شرقا ممتدا حتى الداروم (دير البلح) والعريش جنوبا .

هذا الرواج التجارى عمل على زيادة الضغط المرورى على الطريق التجارى والعسكرى الوحيد منذ آلاف السنين بين مصر والشام مما استوجب تكثيف المحطات التى تخدم قوافل التجار والحجاج والمسافرين على طول الطريق ممثلة فى أهم هذه المرافق وهى الفنادق أو الخانات » . (خريطة رقم ٢١) .

فحتى ذلك الحين لم يرد ذكر لمثل هذه المرافق الحيوية الا فى مناطق ذكرها ابن بطوطة مع بداية منتصف القرن الثامن الهجرى فى شمال صحراء سيناء مثل « السوادة والورادة والعريش والخروبه » وان لكل منها « فندقا » وهم يسمونه « الخان » ينزله المسافرون بدوابهم وبضائعهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاجه لنفسه (١٠٧) .

إذن أصبح من مقتضيات الأمن وضرورات التجارة فى عصر راجت فيه الحركة والتنقل عبر هذا الطريق الاستراتيجى أن يوجد بين مدينة غزة والخروبة موقع يوجد به « خان » بحيث ينشأ بينهما نزل جديد فى صورة « خان » يفى باحتياجات التجار والمسافرين والحجاج فكان الاختيار والبناء من الأمير يونس النوروزى الداودار المملوكى فى ظل عهد الملك الظاهر برقوق حيث أقام «خان» سمى على اسمه « خان يونس » فى سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) ليصبح فيما بعد النواة التى تجمع حولها السكان ولتصبح مدينة « خان يونس » الحالية .

وقد زود هذا الخان الذى اتخذ شكل المربع « طول ضلعه ٨٥ر٥ متر » بأبراج فى اركانه الاربعة ومسجد بمئذنة مازالت بعض بقاياها ماثلة لليوم ، وكان يضم عدة قباء بعضها يشتمل على غرفة والآخر على غرفتين أو ثلاثة وفناء صغير لكل قبو (انظر الخريطة الموضحة للخان) .

وعادة كان يخصص الطابق السفلى للمخازن والاصطبلات أما العلوى فيشمل على حجرات لمبيت النزلاء ومخازن للبضائع المعدة للبيع (١٠٨) .

ولهذا الخان باب رئيسى ما زال حتى اليوم يتوسط الجدار الوحيد الأمامى فقط وقد كانت جدرانه تخلو من المنافذ لتجنب السرقات والتى اندثرت جميعها

---

(١٠٧) ابن بطوطة ــ مهذب رحلة ابن بطوطة ــ الجزء الأول ــ المرجع السابق ص ٤٣ وكذلك فى كتاب رحلة ابن بطوطة ــ دار صادر ــ بيروت ص ٥٤ .

(١٠٨) دائرة معارف الشعب ــ الجزء الثانى ــ القاهرة ، ص ١٠ .

خانات فلسطين في العصر المملوكي

جسر بنات يعقوب
صفد
جب يوسف
عكا
المنية
حيفا
عيون التجار
عثليت
اللجون
جنين
قاقون
الفندقومية
جلجوليا
نابلس
يافا
الرملة
يبنا
القدس
اسدود
غزة
الخليل
خان يونس
كيلومتر ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٥

(الشرقية والجنوبية والشمالية) ولهذا الباب قوسان أحدهما داخلي والآخر خارجي احدث منه لأن الرخامة المنقوش عليها الكتابة تعلو قوس الباب الداخلي والذى يحيط بجانبها « صورة أسدان » وهما كما هو معلوم اركيولوجيا شعار الملك الظاهر بيبرس • أما الكتابة فتشير صراحة لبانيها يونس الداودار فى عهد مليكه برقوق سنة ٧٨٩ هـ • حيث جاء على سطورها الخمسة وهى على هيئة أشعار ما يلى : —

١ — أقول والحق له رونق يقوم فى النفس مقام الدليل ، ان له العرش سبحانه قد عضد الملك بأكفى كفيل •

٢ — فالملك الظاهر بحر الندى أبى سعيد ذى العطاء الجزيل ، فأصبحت مصر به جنة واهلها فى لهو ظل ظليل •

٣ — والهم الله دواداره يونس للخير وفضل جميل ، أنفق من ملجئه من ماله خانه الله بخان السبيل •

٤ — يبغى به الأجر وحسن الثناء عليه طول الدهر فى كل جيل ، لا أمر الله بها دولة ولا حلية من بركات الجليل •

٥ — وتم الخان لتسع مضت بعد ثمانين بعون الجليل ،وسبع مئين لذا أرخوا وحسبنا الله ونعم الوكيل •

(صورة ٨٧) •

لذا وحيال هذا الباب نجد أنفسنا أمام ظاهرتين مختلفتين أركيولوجيا وتاريخيا •

فالباب له قوسان كما أسلفنا الداخلي منه مختلف عن الخارجي الاحدث والذى كما يبدو قد أضيف بناؤه فيما بعد •

أما الأسدان اللذان يحفان البلاطة المبنية أعلى قوس الباب الداخلي فيرمزان للظاهر بيبرس الذى أكد عديد من الدراسات التاريخية أنه بنى عدة أسبلة وجسور ومحطات بريد بين القاهرة ودمشق ومنها جاء ذكره فى «قرية السلقا» حيث أقام محطة للبريد كما أشار الرحالة «العمرى» ، كذلك ذكر «ابن الفرات» بأن يونس الداودار قد بنى خانا عظيما فى مكان يدعى « السلقا » قبل غزة (١٠٩) •

(١٠٩) Marawan F. Abu Khalaf, Khan Yunus and khans of Palestine, levent, Journal of British School of Archaeology in Jerusalem and the British Institute at Amman for Archaeology and history, Volume XV, 1983, pp. 183-184

وهذا يوحى بأن محطة البريد التى جاء ذكرها فى « قرية السلقا » أيام بيبرس ربما هى نفس المكان الذى أعاد فوقه يونس الداودار « بناء الخان » فأضاف الباب الحديث على الباب الجديد والا فأين محطة السلقا ؟ وليبق الجواب محفوظا فى ذمة الدارسين والبحاثه ٠

وعلى جانبى الباب الرئيسى والوحيد للخان هناك بلاطتان رخاميتان عليهما نقوش تكمل بعضهما البعض الآخر على الرغم من بعد المسافة بينهما وعلى كل حجر سطران كتب عليهما ما يلى : — (صور ٨٨ — ٨٩) ٠

١ — بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، أنشأ هذا الخان فى أيام سيدنا ومولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبى سعيد برقوق خلد الله سلطانه وشد بالصالحات اركانه ٠

٢ — أوقفه المقر الشريف العالى المولوى الأميرى الزعيمى المثاغرى الشرفى ظهير الملوك والسلاطين والفقراء والمساكين أمير المؤمنين التقى يونس النوروزى الداودار لمولانا السلطان الملك الظاهرى — أعز الله تعالى أنصاره وضاعف جزاءه ٠

وقد وضعت فوق كل بلاطة ثلاث رنوك الوسطى بيضاوية نقش عليها « عز لمولانا السلطان الظاهر برقوق عز نصره » وعلى جانبيها رنكان دائريان متشابهان عليهما شارة المقلمة رمز الداودار والكأس (أنظر الصورة ٨٨ — ٨٩) ٠

أما داخل الخان فقد جاء على جدار أسفل المسجد نقوش كتب على بلاطة رخامية طويلة ما يلى : —

١ — بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ٠

٢ — انشأ المرفق الشريف العالى المولوى الأميرى الزعيمى المثاغرى الشرفى النوروزى داودار مولانا السلطان الملك الظاهرى برقوق نشر الله عمله وبلغه أمله آمين بتاريخ جمادى الأولى سنة ثمانية وثمانين وسبعمائة ٠ (صورة ٩٠)٠

وقبلتها توجد عدة بلاطات أخرى يبدو أنها قد تهشمت فأعيد بناء بعضها مما جعل قراءتها غير مكتملة على النحو التالى :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ أنشأ هذا الخ ٠٠ العبد أبو ٠٠ (أنظر الصورة) ٠

وربما تعود هذه الكتابة لأربعة حجارة قد تكسرت ، وبالنظر الى طريقة الكتابة فانها جميعا ترجع لنفس الفترة التى بنى فيها الخان تقريبا . (صورة ٩١) .

وبدأ الخان بعد ذلك أى (خان يونس) له وظيفة الجذب والاستقطاب لسكان القرى الواقعة فى الشرق فيه ممثلة فى بنى سهيلا وعبسان وخزاعة ومعن وسكان سوق مازن وقرية السلقا التى ربما كانت تقع الى الشمال من الخان أو هى نفس الخان كما بينا آنفا لينيدفع سكان هذه القرى حول رافد اقتصادى جديد يسهم فى رفع مستواهم مقابل ما يقدمونه من خدمات للمسافرين والتجار والحجاج فبدأوا يبنون الدكاكين من حوله ويقطنون بجوارها لتصبح محله عامرة يطلقون على سكانها « القلاعية » نسبة للقلعة التى بالخان لتتطور كما سنرى الى « قرية خان يونس » ثم تأخذ مرتبة المدينة بعد ذلك .

ولم يبق من هذا الخان الآن سوى الجدار الخارجى له يتوسطه الباب الرئيسى (انظر ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤) .

وما كاد القرن الثامن الهجرى يوشك على الانقضاء حتى أقام المماليك سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) أكبر جامع فى حى الشجاعية بل وفى مدينة غزة حتى الآن ليبرز الدلالة على نماء وتطور هذا الحى جغرافيا وديمغرافيا ، فالجامع من حيث المساحة لا ينافسه الا الجامع العمرى الكبير وسط مدينة غزة ، وقد سمى هذا الجامع الكبير « بجامع ابن عثمان » نسبة لبانيه شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عثمان الذى ولد بمدينة نابلس ثم نزل غزة « وكان صالحا منقطعا » بمسجده الذى بناه بغزة وتوفى سنة ١٤٠٥م كما جاء على لسان السخاوى (١١٠) الذى لم يوضح أين توفى ؟

فالمكانة المركزية التى تبوأ بها هذا الجامع لكبر حجمه وموقعه المتوسط فى الحى وأزدياد خدماته الاجتماعية نجد أنه ضم حشدا من الحجارة الأثرية المنقوش عليها كتابات لمؤسسات دينية وثقافية واجتماعية قد أسست فى الحى أو المدينة أو فى نفس الجامع . لذا تحتاج دراستها لشىء من التحفظ لعل البعض منها منقولا من أماكن قد تهدمت كما هو الحال بالجامع العمرى الكبير خاصة وان الكثير منها قد بنى فى مواضع غير مألوفة على الجدار الخارجى للجامع .

فالجامع له بابان رئيسيان جاء فوق الباب الأيسر أقدم هذه الحجارة منقوشا عليه بالخط النسخ المملوكى أربعة سطور كما يلى : ـ

(١١٠) السخاوى ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ القاهرة ١٣٥٤ ـ المجلد الثالث ص ٣ ـ ٤ .

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوقف الى الله تعالى السيفى أرزمك الملكى الظاهرى .

٢ ــ أعزه الله تعالى جميع القيسارية والاربع حوانيت مجاورة الشــيخ ابن مروان والدار سكن الواقف جميع

٣ ــ ذلك وقفا على مصالح المدرسة والسبيل وكتاب الايتام وخبز الصدقه والمسجد المجاور سكنه وما فضل من ذلك يكون للجامع بتاريخ شهر شــوال سنة سبع وتسعين وسبعمايه .

٤ ــ ومن الاملاك المذكورة قيراط ونصف للنبى عليه السلام ومثله للخليل عليه السلام نفذه عنه (*) ..

(صورة رقم ٩٥) .

لذا يعتبر هذا الحجر وثيقة وقفية توضح المصادر المختلفــة التى أوقفت لصالح مسجدين ومدرسة وسبيل وكتاب للايتام وخبز الصدقة المشار اليهم والمفروض أنهم موجودون يقدمون خدماتهم قبــل عام ٧٩٧ هـ ١٣٩٥ م فاذا افترضنا أن هؤلاء جميعا كانوا فى جامع ابن عثمان نفسه والذى توفى كما بينا سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . فأين الحجارة التى تدل على بناء الجامع نفسه ؟ فهناك حجران يشيران الى بناء مساجد وافتتاحها للعبادة أحدهما يرجع لعــام ٨٠٠هـ ١٣٩٨م موجود داخل الجامع فوق أحد الأعمدة للقباء الغزى المطل على صحن الجامع نقش عليه ستة سطور كالتالى : ــ

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .. صلا الله .

٢ ــ عليه وسلم من بنى لله مسجدا بنى الله له مثله فى الجنة أمر بانشاء هــذا

٣ ــ الجامع المبارك الفقير الى الله تعالى المقر الأشرف العالى

٤ ــ المولوى الاميرى الكبيرى المالكى الظاهرى أعز الله أنصاره وختم الله

٦ ــ بالصالحات أعماله بمحمد وآله فى تاريخ شهر رجب الفرد سنة ثمان مائة غفر الله له . (صورة ٩٦) .

فهل هذه هى بلاطة الجامع والتى بنيت بالداخل ؟ أم تلك الموجودة أعــلى

(*) يبدو أن السطر الأخير قد أضيف فيما بعد لانه حفر حفرا بما لا يتلاءم مع بقية السطور البارزة .

عتب الباب الرئيسى الثاني والتى تعود لسنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) ويوحى وضعها بذلك والتى جاء عليها خمسة سطور بما يلى : —

١ — بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن

٢ — بالله واليوم الآخر أمر بانشاء هذا الجامع

٣ — المبارك المقر الاشرفى   العام المولوى السيدى

٤ — المالكى المخدومى العلاء آقبغا الطولوتمرى الملكى

٥ — الناصرى أعز الله أنصاره بتاريخ شهر رجب الفرد سنة اثنين وثمان مائة ٠ (صورة ٩٧) ٠

ويقال بأن علاء الدين آقبغا الطولوتمرى كان يلقب « باللقاش » وهو عبد من عبيد السلطان برقوق الذى عينه حاكما على غزة (١١١) ٠ ويقول ابن اياس بأنه وصل لمدينة غزة فى عام ٧٩٢هـ واشترك فى مؤامرة ضد فرج فى نفس العام (٨٠٢ هـ) حيث دارت معركة بين قوات الناصر فرج بن برقوق والخارجين عليه فى « تل العجول » (١١٢) ٠

ويبقى السؤال الملح أى البلاطتين تشير الى افتتاح الجامع ؟ خاصة وان الزمن بينهما قريب وان ابن عثمان كان ما يزال على قيد الحياة ٠ وان اشارت الاجابة على احداهما تبقى الأخرى منقولة فمن اين ؟ ٠

والذى يدعو للدهشة أن هناك « بلاطة » بنيت أعلى محراب صحن الجامع تشير بأن هذا الجامع فى عام ٨٢١ هـ قد تعرض للهدم والخراب كتبت بأربعة سطور كما يلى : —

١ — فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو

٢ — على كل شىء قدير أمر بعمارة هذا الجامع المبارك بعد الهدم والخراب مولانا السلطان

٣ — الملك المؤيد أبو النصر شيخ أعز الله أنصاره بمباشرة المقر الكريم العالى

٤ — السيفى أبو بكر اليغمورى حاجب الحجاب بمدينة غزة المحروسة

(١١١) J.O.P.S. Vol. 5, 1925, pp. 66-67.

(١١٢) ابن اياس — النجوم الزاهرة ، ج ١٢ — القاهرة ص ٢٠٤ ٠

بتاريخ شهر شعبان سنة احدى وعشرين وثمان مائة • [الموافق أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر سنة ١٤١٨ م] (*) • (صورة ٩٨) •

فما هى الأسباب التى أدت لهدم وخرابه جامع قد أنشىء قبل عشرين عاما فقط ؟!! هل هى أمطار غزيرة ؟ أم لأسباب بشرية ناجمة عن رد فعل المؤامرة التى اشترك فيها آقبغا الطولوتمرى ضد السلطان فرج بن برقوق على فرضية لجوء بعض المؤيدين له بالجامع • أم لا هذا ولا ذاك وتكون البلاطة منقــولة ؟ والارجح أن تكون هذه البلاطة للجامع نفسه تؤكده كتابة البلاطة الموجودة أعلى المحراب الداخلى للجامع والتى تشير الى بعض الاصلاحات به جاء عليها : ــ

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم انما يعمـــر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين • والمحراب أشرف مكان من المسجد ، عمر هذا المحراب وكذلك الفسقية والقبة أعلاه بصحن الجامع ابتغاء لوجه الله العبد الفقير الى الله تعالى الصدر الأجل الكبير الحاج علم الدين سنجر المعامل بغزة أعز الله بعزه وجعله فى كنفه وحرزه وذلك فى مدة آخرها العشر الأخير من شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثمانمئة » (صورة ٩٩) •

وربما تضفى هذه اللوحة بعض الشكوك عن مرتبة علم الدين سنجر هذا خاصة لو علمنا بأن حاكم غزة فى هذه الفترة كان « انيال العلائى » •

وللدلالة على بعض الملامح الاقتصادية التى اتسم بها هذا العصر ومردودها على مدينة غزة هناك بلاطه توجد على الجدار الخارجى للجامع والمطلة على الشارع العام الذى يقسم وسط الحى ويمثل فى الوقت نفسه سوقه الرئيسى تعود لسنة ٨٥٣ هـ (١٤٥٠ م) جاء عليها : ــ

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى السيفى أعلاه الله تعالى •

٢ ــ وشرفه وأنفذه وصرفه أن يبطل ما على الملح المجلوب الى مدينة غزة المحروسة من المكس الذى كان يؤخذ عند بيع الملح المذكور

٣ ــ استجلابا للأدعية الصالحة لهذه الدولة العادلة خلد الله ملك سلطانها بتاريخ خاتمه عام ثلاث وخمسين وثمان مائة • (صورة ١٠٠) •

وعلى نفس هذا الجدار الخارجى هناك بلاطه رخامية نقش عليها سطران :ــ

(*) فى نفس هذا العام وقبل هذا التاريخ بسبعة شهور [فبراير سنة ١٤١٨] بنى الكجكى مدرسته بالقرب من جامع محمد الطواشى على بعد أمتار شمال جامع ابن عثمان •

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى
٢ ـ الله تعالى المقر السيفى غردمل الملكى الظاهرى .. بتاريخ
(صورة ١٠١ ـ ١٠٢) .

ويبدو أن هذه البلاطة هى التى تشير الى افتتاح مدرسة فى هـذا الحى قريبة من الجامع نفسه هذا بالاضافة لوجود عدة بقايا من حجارة نقشت عليها سطور لافتتاح مؤسسات أخرى سـواء أكانت دينيـة أو ثقـافية قد بنيت واستخدمت فى بناء الجدار الخارجى لهذا الجامع كما هو موضح فى الصورة ولتدل على كثرة المؤسسات التى بنيت فى هذه المدينة .

وبداخل هذا الجامع يوجد قبر للامير يلجاش حامش الناصرى نائب غزة سنة ٨٤٩ هـ الذى تقلد منصبا مرموقا ايام الظاهر برقوق وتوفى سنة ٨٥٠ هـ ودفن بجامع ابن عثمان (١١٣) .

ولمكانة هذا الجامع فقد أوقفت له أوقاف عديدة زادت على اثنى عشر مصدرا ، مزارع بالقرب من خان يونس (مزرعة جميزة *) وارض زراعية أخرى بالقرب من قرية بيت لاهيا ودكاكين ومعاصر وبيوت بنفس الحى رصدت له فى أواخر القرن التاسع الهجرى لاستمرار تواجده (١١٤) كمركز دينى وثقافى مرموق .

وفى حى بنى عامر بمدينة غزة أقيم مسجد المغربى سنة ٨٦٤ هـ (مسجد السواد) وقد ذكر هذا العام على ضريح بداخله .

وتتعاظم حركة المعمار وداخل حى الشجاعية وعلى مسيرة بضعة مئـات من الأمتار التى تبعد عن جامع ابن عثمان والسيد على المغربى يقام جامع جديد يطلق عليه « جامع البرديكية » سنة ٨٥٩ هـ ليعبر ليس فقط على ازدياد النمو السكانى والانتعاش الاقتصادى بل ولتنافس أمراء المماليك وحكامهم وبعض رجال الذين فى اقامة المبانى الدينية والمرافق الثقافية العامة وعلى رأسـها المساجد فيقوم « انيال العلائى » بانشاء هذا الجامع التى ألحق به مدرسة فى نفس العام أسسها « برديك الداودار » كما جاء على البلاطة الموجودة أعلى عتب الباب الشمالى للجامع (مغلق الآن) جاء عليها :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر بنى هذه

(١١٣) عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة بتاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .
(*) ربما نسبه للشيخ جميز المدفون بالقرب من خان يونس وهو اخو الشيخ لبهان المدفون جهة وادى غزة والمتوفى سنة ٦٨٤هـ .
(١١٤) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٧ .

٢ ـ المدرسة المباركة ابتغاء لوجه الله تعالى المقر الأشرف العالى السيدى المالكى

٣ ـ المخدومى السيفى برديك الداودار الملكى الأشرفى اعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة الحرام

٤ ـ سنة تسع وخمسين وثمانمئة وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليما أبدا » ٠

(صور ١٠٣ ـ ١٠٦) ٠

وفيما بعد أطلق سكان المدينة على هذا الجامع اسم « جامع المحكمة » لأنه أصبح مقرا للحكم بين الناس وقد ذكر أن الأمير « برديك الأشرفى اينال الداودار » كان نائبا لمدينة غزة وبنى جامعا هو هذا الجامع وقد توفى سنة ٨٦٨ هـ (١١٥) ٠

ويوجد على جدار منبر الجامع بلاطه رخامية كبيرة بنيت بأسلوب ارتجالى محفور عليها بالخط الكوفى البديع خمسة عشر سطرا جميعها أدعية ربما كانت موضوعة فى مكان ما بالجامع أو المدرسة أو نقلت من مكان آخر تعرض للاندثار ٠

وفى ساحة الجامع يوجد ضريح عليه « شاهدان » عليهما كتابة احدهما حجر صغير مبتور جاء عليه اسم العالم الصالح الشيخ محمد البياس وقدمحيت الكتابة التى تدل على التاريخ ويبدو أنه منقول من ضريحه المندثر ٠ وعلى الشاهد الآخر المتكامل جاءت كتابة تعود لشهيد الشباب محمد بن المرحوم الحاج درويش المتوفى سنة ٨٢٢ هجرية يعلوها شارة سنتحدث عنها عند تعرضنا لدراسة الرنوك فى غزة ٠

وفى عام ٨٠٠ هجرية وعند أقصى الطرف الشرقى لحى التفاح أقيم « مسجد ومزار الجولانى » بداخله ضريحه والمتوفى سنة ٨٠٠ هجرية وقد اندثر هذا المسجد ثم أعيد بناؤه فى أواخر سبعينات هذا القرن ٠

وفى داخل سور المدينة وفى حى البرجلية (الدرج) أقيمت زاوية ومزار « الشيخ طريف » جاء على بابها :

« بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه الزاوية المباركة الجناب العالى السيفى ٠٠٠ أستاذ الصحبة الشريفة جانبلاط الظاهرى لأولاده الأطفال خلى باى وجابى

---

(١١٥) السخاوى ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ القاهرة ١٣٥٤هـ ـ المجلد الثالث ص ٤ ـ ٥ ٠

باى ومحمد وعلى وقد تم بناؤه فى الخامس عشر من شعبان المكرم سنة احدى وثمانين وثمان مائة » .

ويبدو أن الزاوية قد أقيمت على أنقاض بناية سبقتها ربما تكون زاوية أو مسجد لأن بداخلها قبر الشيخ ظريف المتوفى سنة ٧٨٤ هـ حسبما جاء على قبره مما يدل على أن التاريخ السابق لبناء الزاوية ربما كان لاعادة بنائها وقد اندثرت هذه الزاوية ولا يوجد لها أثر على اثر شق شارع جديد بالمدينة (شارع الوحدة) .

ومع بداية الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى والذى يوافق الربع الاخير من القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا وفى ظل حكم السلطان قايتباى (١٤٦٨ م) . أقام جامعا ومدرسة عند الطرف الجنوبى الغزى من حى الشجاعية (ساقية الطوابين) ولقد دمرت الزلازل هذا الجامع سنة ١٥٤٦ م وظل مهجورا حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى عندما قام محمد كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٩٦ هـ بنقل حجارة هذا الجامع واجزاء متكاملة منه مثل باب الجامع والمحراب والمصطبة والدكة الخاصة بالقراء والمؤذنيين وقام ببنائها كما هى فى صدر الايوانات الشرقية بالجامع العمرى الكبير (١١٦) كما ذكرنا آنفا .

ويبدو أن ولده الملك الناصر محمد قد بنى لجامع والده منبرا ، فقد جاء على بلاطه طويلة أربعة سطور بنيت فوق المحراب بالايوان الشرقى للجامع العمرى جاء عليها : —

١ — بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا أنشأ هذا المنبر المبارك .

٢ — فى أيام مولانا السلطان ابن الملك الناصرى العلائى محمد بن المرحوم مولانا السلطان الملك الأشرف ابى النصر قايتباى خلد الله ملكه ....

٣ — .... مولانا العبد الفقير الى الله تعالى قاضى القضاة الشافعى بدر الدين ابن أبى الفضل محمد بن المرحوم علاء الدين بن ابراهيم الغزى وصاحب ديوانى ..

٤ — .... الجمالى يوسف بن المرحوم الناصرى محمد

ثلاثة وتسع مائة

(صورة ١٠٧) .

وأسفلها مباشرة توجد رخامة نقشت عليها آيات قرآنية :

---

(١١٦) عثمان الطباع ، اتحاف الأعزة بتاريخ غزة — المرجع السابق ص ١٨٢ .

« فأنظر الى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم » (صورة ١٠٧) ٠

وعلى الجانب الايمن لمحراب جامع قايتباى الموجود بالجامع العمرى هناك بلاطه يبدو أنها كانت لجامع قام ببنائه محمد بن السلطان قايتباى وهى جزء من حجر قد كسر جاء عليها :

١ ـ ٠٠٠ الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة

٢ ـ ٠٠٠٠ الكفرة والمشركين محيى العدل بالعالمين محمد بن سيدنا ومولانا السلطان الـ ٠٠٠ (صورة ١٠٨) ٠

كما يوجد جزء من حجر قد تهدم وبنى أسفل قاعدة المنبر العلوية بشكل عشوائى مقلوب يبدو أنها كانت لجامع قد تعرض للاندثار جاء عيها سطران كما يلى : ـ

١ ـ ٠٠٠ متولى غزة المحروسة وذلك فى أيام مولانا ٠

٢ ـ ٠٠٠ هذا المسجد المبارك فى شهر شوال ٠٠ (صورة ١٠٩) ٠

وقد أوقف السلطان قايتباى على جامعه ومدرسته أوقافا جليلة وكثيرة كما سنوضحه عند تعرضنا لظاهرة الوقف فى مدينة غزة وقراها سنة ٨٨٣ هـ ٠

ولقد بلغت مكانة غزة الاقتصادية مداها عندما نرى أن السلطان قايتباى قد أوقف العديد من المرافق والمصادر الاقتصادية فى غزة على مدرسته التى بناها بالقدس حيث أوقف الحوانيت وحمام السويحى بحى الشجاعية بالاضافة للمعاصر والقاعات (١١٧) ٠

ومما يؤسف له أن « حمام السويحى » بالشجاعية قد هدم دون أن نعرف من بانيه على الرغم من أنه مملوكى ٠

وفى هذه الحقبة ومع نهاية القرن التاسع الهجرى بنى شرف الدين عيسى بن الوزير مسجدا فى قلب مدينة غزة بالقرب من سوق الخضر والذى يطلق عليه للآن « مسجد الوزير » أوقف له فى عام ٨٩٢ هـ بعض الدكاكين الملاصقة له من الشمال (١١٨) ٠ وعلى باب الجامع توجد جزء من بلاطه عليها أدعية فقط ٠ (صور ١١٠ ـ ١١١) ٠

ولعل آخر الآثار المملوكية المباركة ما بناه قنصوى فى بداية القرن العاشر

---

(١١٧) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٤ و ٤٠ ـ ٤١ ٠

(١١٨) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ١٤ ٠

الميلادى عند بوابة مدينة غزة الشرقى فأقام جامعه الذى سمى فيما بعد وللآن مسجد الشيخ محمد أبو العزم المغربى » (*) وهو من رجال التقى المغاربة وكان معتكفا بزاويته بالمسجد حيث توفى فيها فقد جاء على بلاطه رخامية أعلى عتب الباب الخاص بالزاوية ما يلى :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا المسجد المبارك مولانا ملك الأمراء المقر الأشرفى السيفى ٠

٢ ـ قانصوه كافل المملك الغزى أعز الله أنصاره بتاريخ صفر سـنة ثمان وتسعماية » (صورة ١١٢ ـ ١١٣) ٠

وبعد أن تعرض هذا الجامع للهدم قد نقلت هذه البلاطة للجامع العمرى الكبير ويبدو لنا أنها هى الموجودة الآن أعلى شباك مكتبة الجامع العمرى الكبير الداخلى ٠

وقد أوقفت لهذا الجامع أوقاف عديدة كما سنرى ٠

حتى كانت نهاية المماليك قام جان بردى الغزالى ببناء مسجد سـمى « جامع الغزالى » فى حى الشجاعية الجديدة وقبالة جامع السيد على وما دمنا بصدد ذكر بوابة غزة الشرقية » والى الغرب من جامع قنصوه « أو أبو العزم » توجد بنايات أثرية أو بالمعنى الأدق مجمع لبنايات قديمة توحى بأهمية مكانتها الادارية والعسكرية خاصة وانها تقع على تلة عالية (٥٠ مترا فوق سطح البحر) تشرف منها على نواة المدينة وظاهرها ٠

وفى وسط هذه الأبنية القديمة بناية ضخمة أشبه بقصر يطلق عليهـا « الدبويا » ترجع فى بنائها للقرن الثالث عشر الميلادى لو اعتبرنا الحجـارة التى نقش عليها شـعار « الأسد » والموجودة على جانبى احدى البلاطات فى الحائط الجنوبى للبناية وبالقرب من الباب العلوى الذى ينتهى عنده الدرج المؤدى للطابق العلوى هى جزء لا يتجزأ من البناية عند انشائها وهى كمـا هو معلوم شعار الظاهر بيبرس ٠ وهذا افتراض بعيد الاحتمال ويعتقد ان هذه الحجارة لبناء « الدبويا » التى ما زالت ماثلة بقوة للآن (مدرسة الزهـراء الثانوية الآن) ٠

ويبدو أن هذه البناية كانت تطل على بوابة غزة الشرقية المعززة بالأبراج

(★) يطلق على هذا الجامع ابناء غزة جامع « أبو العزم » وكثيرا ما يربطون بين هذه الصفة (أبو العزم) وبين ما تميز به شمشون الجبار الذى ورد ذكره فى التوراه فتراهم أحيانا يدعون بأن الضريح الموجود فى الزاوية بأنه شمشون وهذا خطأ لأنه لم يرد ذكر موضع شمشون فى غزة بل كثيرا ما ظهر فى الخرائط القديمة فى مواضع متباينة فقد وضع على خريطة الحملة الفرنسـية فوق تلة المنطار ٠

الحربية حيث يوجد أسفلها انفاق أرضية تقود الى أماكن خارج حدود البناية وهي بالتالى مفتاح غزة من جهة الشرق والمطل على الطريق التجارى والعسكرى الهام بين مصر وفلسطين • لذا فقد أطلق على جميع الحى الذى توجد به وحتى حدوده الغربية عند مسجد الشيخ خالد حى البرجلية نسبة للأبراج ومن يقومون بالمرابطة بها •

والتف حول هذه البناية عدة بنايات قديمة مثل جامع القلعة (مقر دائرة الأوقاف الآن) والبيمارستان والحمامات (حمام القلعة وحمام السمرة وحمام الباشا) وجميعها اندثرت عدا « حمام السمرة » والقيسارية (صورة ١١٤) •

أما بالنسبة للبنــــاية الماثلة للآن فى هذه المنطقة (الدبويا) فسنتحدث عنها فى الوقت الذى بنيت فيه فى النصف الأول من القرن السابع عشر •

ولعل خير من يوجز مكانة غزة فى القرن التاسع الهجرى هو « الظاهرى » الذى ذكرها قائلا « انها من احدى الممالك الثمانية • واصفا مرافقها الحيوية » بأن فيها من الجوامع والمدارس والعمارات ما يورث العجب » وان المسلمين بدأوا فى تأسيس المساجد وتجديد السوق الكبير الذى يمتد الى الكرنتينة * جنوبا ، وأوجز دورها الوظيفى الحســـاس فى كلمتين بالغتى الدقة والدلالة بقوله انها أى غزة « دهليز الملك » (١١٩) •

ولو أعدنا النظر للمدينة وما حولها لنتلمس بنيتها الاقتصادية وملامحها الديمغرافية وسماتها الثقافية فى الحقبة المملوكية • نجد أن المدينة وما حولها خضعت لمؤثرات طبيعية شكلت كيانها واثرت فى سكانها وعلى قمتها الأمطـار وذبذباتها الناجمة عن موقعها البينى المناخى بين مناخ الصحراء ومناخ البحر المتوسط ، يليه مباشرة كونها بوابة وجسر يربط بين قارتى آسيا وأفريقيا أو بمنطق « الظاهرى » « دهليز الملك » الذى عبره جيوش وتجار كل الامبراطوريات التى عرفها التاريخ •

فموقع غزة وقطاعها على هوامش الصحراء من الشمال وبداية مناخ البحر المتوسط من الجنوب جعلها تتلقف الحد الأدنى من كمية الأمطار [غزة يسقط عليها ٣٠٠ ورفح ١٥٠ ملم] والمدينة مع هذا لا يوجد بها أنهار أو ينابيع ، فاستنبط سكانها مياههم بحفر الآبار سواء أكانت آبار الجمع التى حفرت فى

(★) كانت هذه « الكرنتينة » تقع عند نهاية شـارع الكمالية (دير اللاتين) الجنوبية فى حى الزيتون •

(١١٩) الظاهرى ـ زبدة كشف الممالك وبيـــان الطرق والمســـالك ـ باريس ١٨٩٤ ص ١٤ وما بعدها •

فناء المنزل لتخزين مياه الأمطار أو حفر الآبار الارتوازية للحصول على مياهها الجوفية والتى حفروها داخل المدينة وعلى أطرفها ٠

وقد أوضح القلقشندى ، المتوفى سنة ١٤١٨ م بأن أهالى غزة يشربون من مياه الآبار (١٢٠) ولعل ما كشفت به النقوش المكتوبة على جدران المساجد ما يشير الى ذلك وكذلك ما جاء فى وقفيات وأملاك المسلمين فى فلسطين فى الدفتر العثمانى ٥٢٢ ما يوضح مواقع البعض منها ومدى فاعلية السكان فى استصلاح الأراضى وزراعتها كما يستدل من الأراضى الزراعية العديدة التى أوقفت لصالح المؤسسات الدينية والثقافية والترفيهية فى المدينة كما سنرى ٠

فقد جاء كما ذكرنا سابقا على حجارة « جامع السيد على المغربى » بالشجاعية عن البئر والسقاية ألشتا التى أوقفت لصالح المدرسة التى بجوارها ٠

وكذلك تم حفر بئر الأجمقية بحى التفاح فى أيام الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٦ هـ) الموافق ١٤٣٨ ـ ١٤٥٢ م والآبار التى جاء ذكرها فى وسط المدينة فى « خط الخضر » (١٢١) التى أوقفها أحد أبناء غزة فى عام ٨٨٧ هـ لأعمال الخير والبر ٠ (صورة ١١٥) ٠

واستمر « بئر الأجمقية » الممول الوحيد للمدينة حتى أواخر العهد العثمانى الذى جرت فيه مياهه حتى « سبيل الرفاعية » فى داخل المدينة (حى بنى عامر) لكى يستمر حتى عام ١٩٢٦ عندما أقامت عليه بلدية غزة موتورا يدفع المياه للخزان الموجود بسبيل الرفاعية ليفى باحتياجات المدينة ٠

وكان البناء الاقتصادى قويا بقوة الدولة المملوكية والتى بلغ أوجها فى القرنين السابع والثامن الهجرى وبصفة محددة حتى بداية النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المطابق لنهاية النصف الأول تقريبا من القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٥٣م) الذى يمكن اعتباره حد الازدهار النهائى المملوكى وبداية النهاية للعصر الذهبى الاقتصادى فى الشرق الأوسط قاطبة ٠

ويمكننا استقراء مثل هذه الأحوال للبنية الاقتصادية على الصعيد المحلى الغزى وما جاورها من خلال ما ورد من كتابات عربية على المرافق المختلفة داخل المدينة ٠

فحفر الآبار والسواقى العديدة التى كانت تسور المدينة كما جاء فى عديد من الوقفيات تعكس الرخاء الاقتصادى داخل المدينة وانتشار المرافق الانتاجية والأسواق العامة فقد جاء ذكر العديد منها داخل مدينة غزة الأم فهناك الأفران

---

(١٢٠) القلقشندى صبح الأعشى ، المجلد الرابع ، القاهرة ص ٩٨ ، ٩٩ ٠

(١٢١) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ١٦ ٠

فى محلة البرجلية (حى الدرج الآن) والدكاكين العديدة داخل القيسارية ودكاكين بمحلة الخضرية وكذا المصانع بالبرجلية أيضا جميعها توحى ولو بشكل جزئى على رخاء المدينة بالاضافة لبناء المساجد العديدة التى قمنا بالتركيز عليها سابقا لدلالتها المتعددة وبناء المكتبات والحمامات والرباطات والمدارس والبيمارستانات وانشار الاسبلة والزوايا والتكايا هى جميعا أيضا تعكس متانة النسيج الاقتصادى للدولة أو حتى أفرادها من الأمراء أو من رجال الدين كانوا هم المساهمون ، كما تعكس بشكل واضح حجم المدينة العمرانى الذى استوعب هـذه المؤسسـات الضخمة والعديدة سكنا وسكانا ٠

فالقياسر (*) التى أنشئت فى قلب المدينة القديم « سوق القيسارية » وكذا سوق الشجاعية الذى يقع فى منتصفه جامع ابن عثمان ٠ والقياسر التى وجدت بالقرب من جامع ابن مروان بحى التفاح قد اندثرت جميعا عدا قيسارية مركز المدينة ٠ فقد شاع بناء مثل هذه الأسواق التى تأخذ شكل القاطرة فى العصر المملوكى وعلى جانبيها الحوانيت (الدكاكين) للتجار والصناع خاصة فى عصور بيبرس وقلاوون وبرقوق التى تميزت بتقسيم الأراضى على الشيوخ والأجناد والأمراء وبناء الخانات فى معظم المدن الفلسطينية من صفد (١٢٣) شمالا فى غزة وخان يونس جنوبا (انظر خريطة الخانات فى فلسطين) ٠

كما شيدت الوكالات فى نهاية العصر المملوكى التى هى أسواق فى حد ذاتها فى جميع أحياء المدينة والقياسر وهى تمثل نمطا عمرانيا وهندسيا فى فترة العصور الاقتصادية ولتخدم الجوانب الاقتصادية للناس ٠ كما أنها هندسيا تأتى تكيفا للاحوال المناخية الشرق أوسطية فلكونها مسقوفة تحمى المواطن من الأمطار شتاء وتوفر طقسا معتدلا ورطبا فى الصيف الحار الجاف وبالتالى تمنع من تسرب الرمال والأتربة التى قد تذروها الرياح فى الربيع والصيف وهى بالتالى توفر الفرصة الكافية للتنقل والتجوال للمشترين بحرية ٠ (صورة رقم ١١٤) ٠

ومن الملاحظ أن اختيار موقع القياسر بالقرب من الجامع الرئيسى فى المدينة أو الحى كما بينا ، له فلسفته التجارية حتى اذا ما انفض المصلون من صلاتهم وجدوا أنفسهم فى وسط هذه الأسواق مباشرة لقضاء حوائجهم بسهولة ويسر ٠

وقد تسابق التجار وأمراء المماليك فى بناء هذه القياسر فكانوا يؤجرونها

(١٢٢) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٦ ـ ٧ ٠

(*) القياسر لعلها مأخوذة من كلمة « قيصر » باللاتينية Cesaire وقد ظهرت فى الشام قبل مصر ارجع لكتاب ـ د٠ نعيم زكى فهمى ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها » ص ٢٩٦ ٠

(١٢٣) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقان ، الجزء الأول ـ نابلس ١٩٦١ ص ٣٠ ٠

للتجار والهيئات بالحجرة أو « الدكان » بأسعار خيالية يوقفون مدخولاتها على المساجد والجوامع والمدارس والبيمارستانات والزوايا كما جاء على احدى بلاطات جامع ابن عثمان وجامع السيد على المغربى بالشجاعية وفى الدفتر العثمانى رقم ٥٢٢ . وتكاد معظم المدن الفلسطينية الرئيسية لا تخلو من هذا النمط من الأسواق .

وقد ألمحت بعض النقوش الواردة على احدى بلاطات جامع ابن عثمان بالشجاعية عن بعض السلع المستوردة لمدينة غزة وهى « الملح » وكيف كان المكس أى الضريبة عليه تشغل بال الكثيرين من الناس والتجار لأهمية هذه السلعة ودخولها فى صناعات محلية عديدة والمطالبة بالتالى بالغائها فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريبا وهى خط التقسيم بين الازدهار والاضمحلال . لذا قرر السلطان اعفاء الناس منها خاصة أيام حكم« اينال العلائى» الذى اتخذ فى مصر « ١٤٥٣ — ١٤٦٠ م » خطوات اقتصادية واجراءات أمنية عندما تحفظ على كثير من السفن والسلع ووكالات التجار الأجانب متخذا تدابيره لمواجهة تدفق الأعداد الضخمة من هؤلاء التجار الأجانب الذين تركوا تركيا ومدنها الساحلية بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م فى أيدى الأتراك العثمانيين الذين بدأوا توسعاتهم الحربية فطردوا الجاليات الأجنبية وتجار المدن والجمهوريات الايطالية لانهم ساعدوا البيزنطيين ضدهم . هذا السيل تلقفه « اينال العلائى » فمنحهم امتيازات تسمح لهم بتوسع تجارتهم وانشاء المصارف والفنادق ففضلوا البقاء فى الموانىء السورية لقربها من أوربا عن الموانىء المصرية (١٢٤) .

مما لا شك فيه قد استفادت غزة « دهليز الملك » بحكم موقعها بين مصر وبلاد الشام من هذه الأحوال الاقتصادية فاتسعت أسواقها وراجت تجارتها وكثرت وكالاتها ودعم ذلك الانسان العربى فى غزة باهتمامه بالزراعة حتى طوق مدينته بالأراضى الزراعية التى أوقف العديد منها لصالح المؤسسات الخيرية والدينية فظهر منها :

ساقية الزيتون للجنوب من مدينة غزة وكذلك بساتين الزيتون للمغرب أما جهة الشمال فهناك حكر التفاح وساقية الأجمقية وبئرها والى الشرق — ساقية خليل (١٢٥) « وساقية سويد » وفى الشمال الشرقى « ساقية الحكمية والرماد » حيث كانت تزرع أشجار الزيتون والفواكه معتمدين بذلك على

(١٢٤) د. نعيم زكى فهمى — طرق التجارة الدولية ومحطاتها — المرجع السابق ص ٢٩٥ وما بعدها .

(١٢٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ٦ — ٧ .

ما حفروه من آبار والتي أقاموا عليها الطواحين الهوائية للاستفادة من مياهها في الزراعة • (الخريطة رقم ٢٢) •

ولم يدم هذا الازدهار طويلا نتيجة لعملية الأسر الجغرافي لموقع الوطن العربي الوسيط بعد الكشوف الجغرافية سنة ١٤٩٨ م فسرق الأوربيون تجارة جنوب شرق آسيا وتوابلها التي لم يسمح بتصديرها الا باذن خاص من مندوب الملك عما نويل، مما أثار غضب ايطاليا فكون مجلس التوابل في فنيسيا لمعالجة الموقف الذي يهدد تجارتها ، كما أقسم في الوقت نفسه سلطان مصر المنصور الثاني بأنه لن يدع أحدا يجرده من هذا الامتياز الذي يتمتع به هو الآخر (١٢٦)• الا أن قرارات فنيسيا وقسم السلطان المملوكي ذهبا هباء ومع هذا وذاك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل ليبدأ الانحدار الرهيب ليصبحوا فريسة سهلة للعثمانين بعد فترة وجيزة •

أما من الناحية الديمغرافية السكنية :

فقد وصلت المدينة الى قمة النضج في حجمها واتساعها وخرجت المدينة النواه الاكربوليسية « فوق المدينة » من عقال اسوارها لتمتد شرقا وجنوبا وشمالا منذ الفترة الأيوبية ليصل كمال اتساعها مع نهاية المرحلة المملوكية •

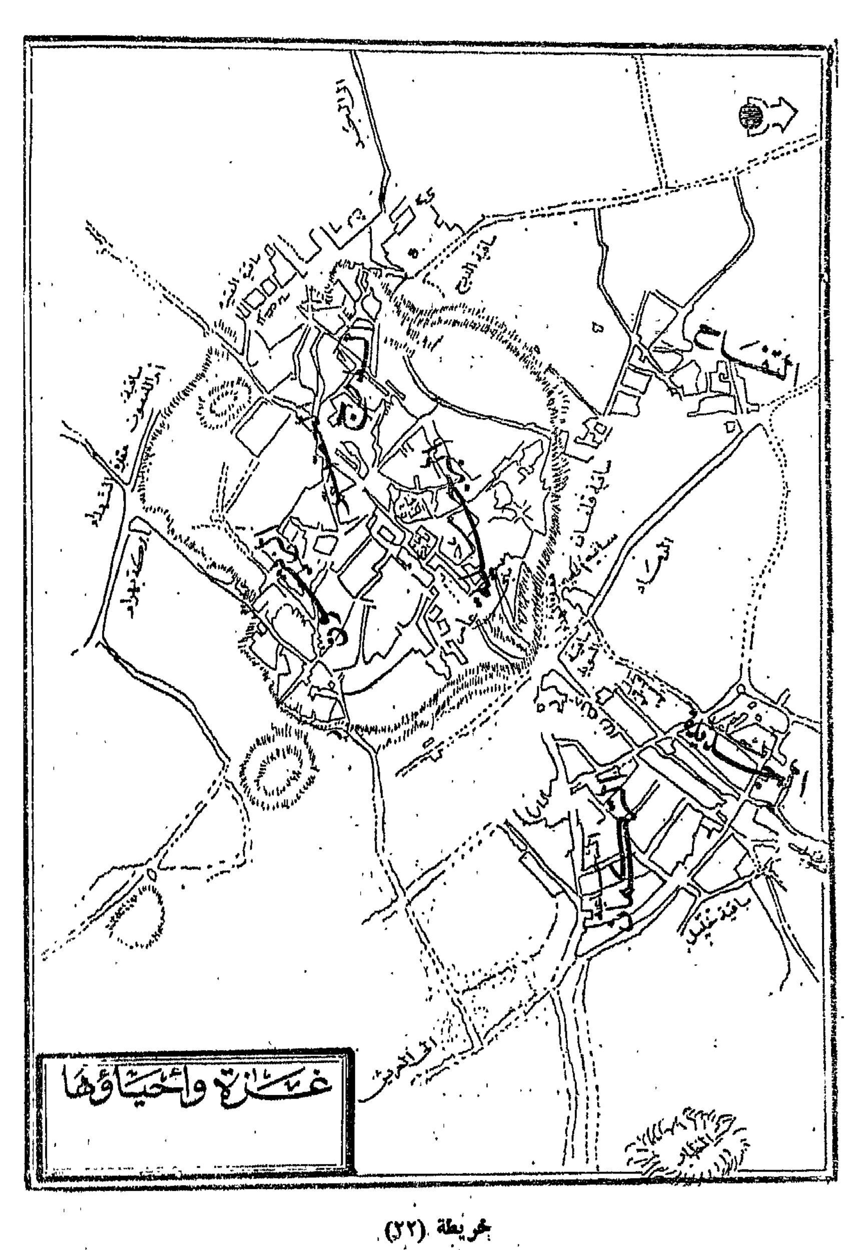
فأصبحت هناك أحياء جديدة [الشجاعية شرقا والتفاح شمالا والزيتون جنوبا] قائمة بذاتها مكتفية بمرافقها الحيوية من جوامع ومدارس وأسواق تجارية • حتى بلغت هذه الأحياء في امتدادها ومساحتها مسافات مساحة المدينة الأم غزة (فوق المدينة) منـــذ أن أنشأهـا العرب الكنعانيون وحتى الفترة الأيوبية ، أي أن ما شاده الأيوبيون والمماليك على مدى قرنين من الزمان من عمران قد فاق عمران آلاف السنين •

فالنمط العمراني في مدينة غزة الأم قد تأثر تأثرا كبيرابالأنماط السابقة التي تحكمت فيها الاسوار وأبوابها وقلاعها الواقعة على حدودها • فكانت المباني عبارة عن كتلة سكنية متراصة أشبه بقلعة وشوارعها ضيقة معوجة غالبا ما تتصل ببعضها البعض ولا تتسع في غالبيتها لاثنين قد ركبا دابتيهما لو تقابلا مع بعضهما ، كما كانت بعض الشوارع مغلقة •

وعليه لم يكن في المدينة النواه تسميات أو تقسيمات على مستوى الأحياء ولكن التقسيمات كانت وظيفية تخضع للحرفة التي يزاولها السكان وهذه سمة من سمات المدينة العربية في القرون الوسطى فهناك :

---

(١٢٦) سونيا هاو ــ في طلب التوابل ــ ترجمة محمد عزيز رفعت ، ١٩٥٧ ص ٢١٦ •



خريطة (٢٢)

مدينة غزة وأحياؤها وسواقيها في الفترة المملوكية

سوق الزياتين وسوق النجارين وسوق السروجية وتقع في الناحية الجنوبية من نفس المدينة (حي الزيتون الآن) ثم سوق الكتان والغزالين والخضرية (في وسط وغرب المدينة الآن) وكانت هذه الأسواق جميعا والواقعة غربي الجامع العمرى الكبير تدعى « محلة البرجلية » ربما لسكنى جنود الابراج بها • بالاضافة الى أسواق اللبان والعطارين وخان الدباغة وخان الطباعية (١٢٧) فلسفة عمرانية قائمة على أساس أن يكون لها سوق « لقصادهم أرفق ولضائعهم أنفق » وفي وسط المدينة هذه وحول قلعتها توجد الحمامات يتوسطها الرباط المنصورى « خان الزيت فيما بعد » بكل وظائفه كبورصة تجارية وفندق للمسافرين والتجار •

وكانت لهذه الحمامات وظائفها الترفيهية والصحية تنم عن حياة اجتماعية مترفة حتى جعلها ابن خلدون من مظاهر « المدن المستبحرة » وبالنظر لمساحة مدينة غزة الأم أو النواة التلية التي لا تتعدى كيلو متر مربع من أقصاها لاقصاها أنشيء بها ثلاث حمامات تمركزت في قلبها وحول قلعتها وهي حمام السوق وحمام القلعة وهناك حمام جاء اسمه في الدفتر العثماني باسم « حمام التنورة » كان قد أوقفه أقبغا بن عبد الله الأوحدى سنة ٧٣٤ هـ (١٢٨) • ربما كان هو موضع « حمام السمرة » الآن لان جميعهم قد اندثر عدا هذا الحمام الذى يوجد خلف الرباط المنصورى القديم (خان الزيت) مباشرة من الجنوب وقد جاء على بلاطه تعلو الباب الداخلي له بما يفيد بأنه « قد آل الى أويس باشا والى دمشق وجدده وقام بعمارته واصلاحه ثم آل الى ابنته آمنه هانم أم أحمد باشا الصغير (١٢٩) • (صور ١١٦ — ١١٨) •

هذا بالاضافة الى وجود بلاطه قديمة أخرى قد محيت سطورها وأصبح من الصعب قراءتها •

وقد افتتن المماليك بمظاهر الحمامات الجمالية ولعل « حمام السمرة » يبرز بعضا منها حيث يدخل اليه بممر ضيق لا يلبث أن يقودنا الى فناء واسع شبه دائرى تتوسطه بركة صغيرة مضلعة وعلى جانب الفناء هذا قبو صغير للاستراحة والفناء له قبة ذات فتحات تأخذ أشكالا هندسية جميلة مغلقة بزجاج ملون وفي الجهة القبلية للفناء باب يقود لممر ضيق فيفرج عن صالة صغيرة ذات غرفة لتغيير الملابس والاستراحة الأولى بعد الاستحمام ومن هذه الصالة

---

(١٢٧) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين — المرجع السابق ص ٩ — ١٠ و ص ٤٠ — ٤١ •

(١٢٨) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، المرجع السابق ص ١٠ •

(١٢٩) عثمان الطباع — اتحاف الأعزة في تاريخ غزة — المجلد الأول — المرجع السابق ص ٢٠٤ •

يدخل الشخص نفسه الى الحمام المزود بالمياه الساخنة وهو عبارة عن قاعة متسعة عند اطرافها غرف صغيرة للاستحمام الشخصى (★) ٠

ومما يلفت الانتباه بالنسبة لمساجد غزة القديمة الواقعة فوق التلة أنها بنيت عند أطرافها القريبة من سورها القديم وربما كان مرد ذلك استغلال المسلمين للفراغ الواقع بالقرب من اسوارها المتهدمة كما هو الحال بالنسبة لجامع الشيخ زكريا عند الحافة الغربية وجامع الكمالية الى الشرق وجامع الياس ٠ وعندما تهبط من فوق تلة المدينة تجد مقابرها التى تلفها من جهاتها الأربع تقريبا كحد نهائى للمعمور ٠

ويبدو أن هذه المقابر بدأت بزمن الشهداء الذين قاوموا الغزوة الصليبية منذ بداية القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ولعل أقدمها وفقا لما جاء على أضرحة الشهداء :

ـ مقبرة ابن مروان : فى الطرف الشمالى الشرقى للمدينة ويبدو أن هذه التسمية قد أتت فيما بعد لان المقبرة قد بدأت فى موضع أبعد الى الشمال الشرقى من جامع ابن مروان نفسه فى منطقة « الشيخ بشير » حيث وجد ضريح لشهيد كتب عليه :

- « هذا قبر المجاهد فى سبيل الله تعالى الخارج ابتغاء الله الراجى عفوه تعالى الحاج عز الدين حسن بن عمر بن عيسى الملكى الصالحى المقتول بالجهاد بعسقلان فى النصف من جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وسمائة » ٠

ومن بعد ذلك « الشيخ بشير » نفسه الذى أصبح ضريحه مزارا لأهل المدينة ومعلما دينيا تلتف حوله أضرحة الشهداء فقد جاء على ضريحه :

« هذا قبر الفقير الى الله تعالى الطواشى الأجل الكبير سعد الدين بشير ابن عبد الله الأشرفى رحمه الله تعالى توفى فى العشر الأخير من رمضان المعظم سنة تسع وأربعين وستماية » (١٣٠) ٠

وقد جاء على قبر آخر يقع الى الغرب منه :

« هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى على بن عز الدين خميس بن يوسف الشهرزورى المتوفى يوم الخميس الخامس عشر من ذى الحجة سنة اثنين وثلاثين وسبعماية » رحمه الله ورحم من ترحم عليه ٠

(★) هذا النمط الهندسى للحمامات تتكرر صورته وفنه المعمارى فى بقية حمامات فلسطين والاردن ومصر ٠

(١٣٠) عارف العارف ، تاريخ غزة ، المرجع السابق ص ٣٥٤ ٠

هكذا أخذت هذه المقبرة تتسع فيما بعد وتتجه غربا نحو المدينة الأم ايقام بها جامع بن مروان مع بداية القرن الثامن الهجري (٧١٥ هـ) . كما اتجه امتدادها نحو الشمال الشرقي لتفصل بين حي التفاح وحي الشجاعية الجديدة .

وعند حافة المدينة الشرقية مباشرة قيل انه كانت هناك مقبرة تدعى مقبرة « بني ميس » قامت عليها « مدرسة هاشم الآن » حيث عثر أثناء الحفر على ضريح لاسحق بن ابراهيم المقلدى المتوفى فى ١٤ محرم سنة ٧٤٠ هـ وبالقرب منها كان يوجد « خان الطيب » الذى اندثر فيما بعد (١٣١) .

هذا من الشرق والشمال الشرقى .

أما من الشمال فتحدها مقبرة الأوزاعى الواقعة أسفل منحدر المدينة الشمالى والتى يقع على أطرافهـا ضريح جد الرسول السيد هاشم رضى الله عنه الذى توفى أثناء رحلة له بين الشام والجزيرة .

أما من جهة الغرب فهناك مقبرة تحت سفحها الغربى وبالقرب من باب المدينة القديم (باب البحر) حيث دفن بها الكثير من المجاهدين والامراء الذين استشهدوا فى القرنين السابع والثامن الهجريين . ونظرا لعدم امتداد العمران فى هذا الاتجاه لسفن الرمال البحرية فقد ظلت هذه المقبرة هى حدها الغربى وأطلق عليها فيما بعد « مقبرة الشيخ شعبان أبى القرون » بعد الألف الهجرية حيث يوجد جامع أطلق عليه « جامع الشيخ شعبان » حيث أخذت هذه المقبرة تتجه غربا بجنوب .

أما من الجهة الجنوبية فقد حدتها أيضا مقبرة عند نهاية سفحها وفـوق أرض منبسطة قبالة بابها الجنوبى « باب دير الروم » حيث دفن بها شهداء سجلت أسماؤهم فوق أعمدة رخامية عديدة تخليدا لبطولاتهم حتى سمى هذا الحى « بحارة العواميد » وسميت المقبرة « بمقبرة العواميد » ومقبرة الشهداء ومن أسماء الشهداء التى حفرت على هذه الأعمدة :

١ ــ محمد بن قنعامن القرم المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

٢ ــ الشهيد الحاج نور الدين على بن الامير شهاب الدين بن منارة التركمانى المتوفى فى ٥ شعبان سنة ٦٩٤ هـ .

٣ ــ حسام الدين محمد العجمى توفى فى ٥ ربيع أول سنة ٨٩ هـ .

٤ ــ الشهيد الحاج اسماعيل القرمى المتوفى فى ربيــع أول سنة ٧٠٥ هـ . (صور ١١٩ ــ ١٢٠) :

---

(١٣١) عثمان الطباع ــ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ــ المرجع السابق ص ١٤٧ .

٥ - الأمير المرحوم بدر الدين الروبى الطالوى السعدى السلحدار المتوفى فى ١٨ شعبان سنة ٦٩٩ هـ .

وهكذا كانت المدينة غزة بحكم موقعها خط الدفاع الأول لمصر وكان المرابطون بها يعتبرون أنفسهم فى رباط دائم وعلى الجبهة القتالية المستمرة فى صدامها مع الأعداء لذا نرى كثرة هذه الصفات التى تسبق أسماء الأمراء والسلاطين والمجاهدين والمحفورة على كثير من الحجارة مثل « المرابطى والمجاهدى والمناغرى .... الخ » .

هذه هى الحلقة الأولى لمدينة غزة التلية القديمة الأم لتأخذ فى الاتساع كما ذكر مع الفترة الأيوبية والمملوكية وتتخطى المقابر القديمة السابقة الذكر لتدخل فى الطور الثانى المتمثل فى أحياء الشجاعية (التركمان والجديدة) شرقا وحتى « حكر التفاح » شمالا « وحى الزيتون » جنوبا تحيط بالمدينة الأم كحدوة حصان من جميع الجهات عدا الناحية الغربية لامتداد زحف الرمال وعدم صلاحيتها للزراعة اذا ما قورنت بأراضى المناطق فى الجهات الأخرى .

حى الشجاعية :

ويقع كما ذكرنا شرق المدينة الأم مباشرة بدأت سكنة القبائل الاسلامية التركمانية التى وفدت مع الأيوبيين لمقاتلة الصليبيين حيث أقطعوا كثيرا من الأراضى كما ذكرنا واستوطنوا القسم الجنوبى من الحى الذى سمى باسمهم « التركمان » يقابله فى الشمال « حى الجديدة » الذى سكن بعض شوارعه اكراد قبالة جامع السيد على المغربى كما جاء فى وقفية عماد الدين بن بدر الدين المسارعى سنة ٩٠٩ هـ بأنها سميت بحارة الأكراد (١٣٢) . فكانوا بذلك عونا للأيوبيين والمماليك فى القتال والحكم حيث لا تخل معظم المدن الفلسطينية من أحياء كاملة باسم « الاكراد » فيها .

تعتبر المساجد من العلامات الرئيسية البارزة التى تحكمت كما يبدو فى تخطيط الاحياء الجديدة كما هو واضح فى هذا الحى فلا يكاد يوجد بها شارع واحد دون أن نجد به مسجد أو جامع يتوسطه أو يبتدىء به ان لم يكن عند نهايته .

فقد تمحور هذا الحى حول شارعين رئيسيين يقطعهما من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب تتفرع منهما شوارع طولية متوازية ضيقة الى حد ما لكنها شبه مستقيمة .

وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين توجد السوق الرئيسية للحى وعلى طول

(١٣٢) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٤ .

امتدادهما خاصة تلك المتجهة نحو الشمال والجنوب والذى ينصفه تقريبا جامع ابن عثمان (شارع السوق) حيث يبدأ هذا الشارع من جهة الشمال بجامع السيد على المغربى (الطواشى) بمدرسته يتوسطهم مزار الشيخ مسافر حتى اذا ما اقتربا عند نهايته الجنوبية فى حى التركمان نكون قد وصلنا الى نهاية السوق . الذى يمثل العمود الفقرى للشجاعية بأكملها .

فى هذا الشارع السوق وهو أشبه بنظام القيسارية لكنها غير مسقوفة يتوزع التجار وفقا لمهنهم المختلفة . فعند طرفه الجنوبى سوق الحدادين ليأتى بعده شمالا سوق النجارين والفرائين (عمل الفراء) ثم سوق الغرابلية فى الوسط يليه سوق العطارين وعند التقاطع سوق الخضار لينتهى شمالا بدكاكين الصباغين .

بالاضافة لهذا كثرت الجوامع فى هذا الحى كما ذكرنا سابقا وكذلك المدارس منها مدرسة جامع السيد على المغربى ومدرسة جامع ابن عثمان والمدرسة الباسطية ومدرسة المحكمة ومدرسة قايتباى . يتوسطهم حمام واحد هو « حمام السويحى » الذى اندثر ولم نعرف بانيه . لينتهى شرقا بجنوب «بسوق الغنم» وبمقبرة تمثل نهاية حدود العمران المملوكى تسمى مقبرة «التونيسى» أو مقبرة « التفليسى » ، يقال انها كانت ملكا لرجل من تفليس ثم حرفت فأطلق عليها « تونيسى » .

وقد حدت حى الشجاعية من الشمال مقبرة « الدررية » أو مقبرة « التمرتاش » حيث يوجد بها قبر محمد التمرتاش صاحب « الدررية » والمتوفى سنة ١٠٠٤ هـ ، ويقال ان « الدررية » اسم جماعة نزلوا بالقرب منها . وقد التحمت هذه المقبرة بمقبرة الشيخ بشير السابقة الذكر .

حى « حكر التفاح » :

ولعل هذا الاسم اشتق الكثرة أشجار التفاح فى هذا الحى الذى تجمعت بيوته حول جامعه الرئيسى « الجامع الايبكى » وجامع على بن مروان الذى كانت بجواره سوق كما جاء على أحد أحجاره وجامع ابن عثمان بالاضافة لجامع آخر يقع الى الشمال منه قد اندثر هو جامع « الجمعة » والى الشمال منه مباشرة يوجد بئر الأجمقية وسبيلها بالاضافة الى طاحونة ورد ذكرها فى وقفية الشهابى أحمد بن على بن على الحاجب سنة ٨٩٣ هـ (١٣٣) .

وبالقرب من الأجمقية كانت هناك سدرة ، بنى بالقرب منها جامع يحمل اسمها للآن (جامع السدرة) .

---

(١٣٣) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ، المرجع السابق ص ١٥ .

أما حي الزيتون ، الذي اشتهر بكثرة زراعة الزيتون منذ القدم فقد امتد مع سفح المدينة الجنوبي وخلف باب الداروم « باب دير الروم » أي المواجهة لمدينة دير البلح يوم كان يطلق عليها « دير الروم » .

وقد أنشئ في هذا الحي وفوق أرضه المنبسطة عدة مساجد قد اندثرت وبقيت أعمدة الشهداء السابق ذكرها فاطلق عليه « حارة العواميد » .

وقد كثرت أوقاف الأراضي المزروعة بالزيتون في هذا الحي وكذلك السواقي وجامع قبلي غزة الذي ورد ذكره في وقفية أتبغا بن عبد الله الأوحدي سنة ٧٣٤هـ ولم يذكر اسمه (١٣٤) .

هذه هي الحلقة الثانية من تاريخ تطور العمران بالمدينة حتى نهاية الفترة المملوكية انتهت أيضا بمقابر وقد استمر وضعها العمراني على هذا الحال من الثبات التام طيلة أربعة قرون السيطرة العثمانية وحتى بداية حكم الانتداب البريطاني فقد ظلت حدود تنظيم بلدية غزة ضمن هذا الامتداد الجغرافي من جهاتها الأربع كما جاء في الوقائع الفلسطينية لسنة ١٩٢٧ م من الشمال « بركة قمر » وهي ملاصقة تقريبا الساقية الأجمقية . ومن الشمال الشرقي « مقبرة الدررية » ومن الشرق « سوق الجمعة » (سوق الغنم) ومن الجنوب « حارة العواميد » (الأعمدة القديمة) بحي الزيتون ومن الغرب « سوق فراس » (١٣٥) الذي يحد باب المدينة من الغرب وهو « باب البحر » .

أما تقييم الجانب العلمي والثقافي في الحقبة المملوكية لمدينة غزة وما حولها . ومما لا شك فيه أن الحركة العلمية والتعليمية قد ارتقت وازدهرت في دولة كثرت فيها الكتابات والمؤلفات الشاملة لكل علم وفن وعمت الموسوعات المستوعبة والجامعة ، طيلة قرنين ونصف من الزمان شملها السلام والأمن بعد أن صدوا جحافل التتار وقطعوا دابر الصليبيين لغير رجعة ، ودعمتها المكانة الاقتصادية المتينة للدولة .

فأنشأت المكتبات العلمية أيام الظاهر بيبرس في غزة ولم تعد المدارس ملحقة بالجوامع فقط بل أقيمت بشكل مستقل في المدينة الأم وفي جميع احيائها مثل المدرسة الكاملية ومدرسة الرومي والمدرسة الجركسية وكذلك مدرسة جامع المغربي (الطواشي) ومدرسة ابن عثمان والمدرسة الباسطية والمدرسة الحكمية (جامع المحكمة) . معلقا وواصفا مبانيها وعماراتها الحسنة « بما يورث العجب » (١٣٦) .

---

(١٣٤) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، المرجع السابق ص ١٠ .

(١٣٥) جريدة حكومة فلسطين الرسمية ، العدد ١٧٩ القدس ١٦ آذار ١٩٢٧ ص ٤٣ .

(١٣٦) الظاهري ـ زبد كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، المرجع السابق ص ١٣٤ ـ ١٣٨ وكتاب اتحاف الأعزة في تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٧٥ .

هذه المرافق الثقافية أنجبت العديد من رجال العلم الذين لم يكتفوا بالاستزاده العلمية فى المدينة بل خرجوا لاستكمالها فى القاهرة ودمشق وحلب وبغداد حتى بلغوا شأوا عظيما فألفوا الكتب وتسلم العديد منهم مناصب حكومية وصلت لمرتبة الوزير والمستشار من أمثال :

ــ ابراهيم بن محمد بهادر بن أحمد عبد الله برهان الدين المقرشى النوفلى الغزى ويعرف « بابن زقاعة » ولد بمدينة غزة سنة ١٣٤٤ م وتوفى سنة ١٤٠٧ م فكان عالما فى النبات والأعشاب وعلم الكيمياء فقربه اليه السلطان بوقوق تكريما له واستفادة منه ثم انتقل الى مصر فوصل لمكانة مرموقة أيام الملك الناصر فرج حيث توفى بها (١٣٧) ٠

ومن الشخصيات الغزية على بن أحمد بن محمد العلاء الغزى ولد بغزة سنة ١٤٠٨ م وتوفى سنة ١٤٥٨ م فتعلم فيها على يد فقيهها ناصر الدين الاياسى فتعرف على الأشرف اينال نائب غزة الذى ارتقت به الأيام فأصبح سلطانا لمصر سنة ١٤٥٣ م فاستدعى هذا العالم وبوأه مكانة عالية بين كبار الأئمة حتى ولاه « نظارة الأوقاف » فى مصر أى أصبح وزيرا بها ٠

ومن رجال غزة أحمد بن عبد الله بن بدر « أبو نعيم » شهاب الدين العامرى الغزى ثم الدمشقى ولد بغزة سنة ١٣٦٨ م وتوفى سنة ١٤١٩ م ذهب لدمشق فولى افتاء دار العدل وقام بالتدريس فى عدة أماكن وله شرح « الحاوى الصغير » فى أربع مجلدات (١٣٨) ٠

ومن الشخصيات الغزية الشمس أبو عبد الله المكنى « بأبى الجود » ولد سنة ١٤٢٧ م وأخذ فى التجوال طلبا للعلم بين عدة مدن عربية منها حلب والقدس ثم عاد لمدينة غزة مسقط رأسه فتولى مشيخة جامع البرديكية (جامع المحكمة) ثم انتقل بعدها لمصر فتولى القضاء على المذهب الحنفى للديار المصرية فى القاهرة (١٣٩) ٠

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا (١٤٥٥ م) ولد محمد ابن القاسم بن محمد بن الشمس « أبى الغرابيلى » الذى درس العلوم الدينية

---

(١٣٧) شمس الدين محمود عبد الرحمن السخاوى ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج ١ القاهرة ١٣٥٣هـ ، ص ١٣٠ وانظر خير الدين الزركلى ــ الأعلام ــ قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، المجلد الأول ــ دار العلم للملايين ــ بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ص ٦٤ ٠

(١٣٨) خير الدين الزركلى ــ الأعلام ــ قاموس ترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ــ المجلد الأول ــ بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٩ ٠

(١٣٩) السخاوى ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ــ المرجع السابق ٠

والجبر فى القاهرة واشتغل مدرسا فى الأزهر ثم عين خطيبا فى «جامع القلعة» القريب من قلعتها (الأوقاف حاليا) ومفتيا بها ·

كما أنجبت مدينة غزة مؤرخا هو محمد بن أحمد بن عبد الله بدر الغزى · الذى أصبح نائبا لقاضى دمشق وأرخ لسيرة الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ م) ·

وهناك من عمل فى سلك التدريس داخل مدارس غزة التعليمية منهم أحمد ابن شعبان بن على بن شعبان الشهابى الانصارى الذى درس فى القاهرة ثم بمدارس القدس وأخيرا عينه السلطان قايتباى (١٤٦٨ ـ ١٤٦٥ م) مدرسا بمدرسته فى غزة (مدرسة السلطان قايتباى) التى اندثرت (١٤٠) ·

هؤلاء قلة من كثيرين أنجبتهم مدينة غزة طافوا الأمصار سعيا وراء العلم فاحتلوا مكانة مرموقة تزكيهم سماحة الاســلام التى حطمت النعرات الاقليمية والحدود الجغرافية الضيقة وفتحت لهم رحاب أرض الاسلام واسعة ليصل ابن غزة الى ذرا المناصب فى القاهرة أو فقيها فى دمشق أو مدرسا فى حلب أو القدس · فلا حدود ولا فواصل أمام العلم والعلماء تحت راية الاسلام ·

ولقد لعب الموقف الاسلامى دورا جوهريا فى اذكاء الحياة العلمية والتعليمية فى غزة فها هو محمد بن مقبل الرومى يوقف من ماله وأراضيه فى قرية بيت حانون أوقافا جليلة ويطلب نفقة ثلثها على طلبة العلم الواردين من مصر ومن الجامع الأزهر الشريف وعلى طلبة العلم الوافدين الى رواقه (رواق ابن مقبل) فى غزة وكان ذلك سنة ٨٠٧ هـ كما حرر محضرا لوقفيته أيضا سنة ٩١٦ هـ (١٤١) أى حتى نهاية الفترة المملوكية تقريبا ·

قرى غزة :

أما بالنسبة لقرى مدينة غزة ونمط الاستقرار البشرى فيها فقد اتسعت مراكز الاستيطان البشرى وتناثرت بشكل لم يسبق له مثيل على الخارطة الفلسطينية فأصبح التوجه من المدينة نحو الأراضى الزراعية المبادرة يسوده الهدوء والأمن والاستقرار السياسي وهو السائد والمستمر ، تحفهم مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية السهلة شرقا وشمالا وجنوبا فهم فوق أوسع سهل ساحلى فلسطينى خصيب · فانتشرت القرى الصغيرة التي هي أشبه « بالقرى المؤقتة » احترف أبناؤها الزراعة لخدمة المدينة العامرة ذات المتطلبات الكثيرة والمقدرة الشرائية القوية فبرزت قرى لأول مرة على الخريطة الجغرافية العمرانية الفلسطينية مثل

---

(١٤٠) السخاوى ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ المجلد الأول ـ المرجع السابق ص ٣١٢ ·

(١٤١) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٣

قرى خرسا ونخاسة ولسن وقرى صحان (سيحان) وبيت حاين وزير الحرازين وبزا وبشا ... الخ قرى أوضحتها سجلات الأوقاف والدفاتر العثمانية كما سنرى فيما بعد أوقف أجزاء من أراضيها الزراعية المعطاءة كثير من السلاطين والأمراء المماليك الوجوه البر والاحسان وتشجيع الدروس الدينية وتشييد المدارس والبيمارستانات والزوايا واستمرت هذه القرى في مواقعها بسكانها حتى أيام الدولة العثمانية فيما بعد .

هذا مع ثبات القرى الرئيسية القديمة في تواجدها فقد تكشف التواجد السكاني في قرية جباليا حول مزار وجامع المشيش المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، واستمروا في زراعة الأرض حتى أوقف سنجر الجاولى نائب غزة سنة ٧١١ هـ معظم اراضيها لمستلزمات جامعته وبيمارستانه في مدينة غزة كما جعلها مقرا لماليكه الجركسية وقد احتوت « ألنزله » التي لم نعد نسمع عنها الا فيما بعد .

أمام قرية « بيت لاهيا » فقد جاء ذكرها في معجم ياقوت الحموى مع بداية القرن الثالث عشر (١٤٢) ويبدو أن هذه القرية قد اتسعت مساحة اراضيها الزراعية واوقفت العديد منها لصالح البر والخير في القوة المملوكية فقد أوقف حاجى حسن بن عبد الله الشهير « بابن العال » سنة ٨٦٧هـ بعضا من أراضيها وأراضى قرية « رسم الشراقى » (١٤٣) فى هربيا .

وتتميز هذه القرية بكثرة آبارها الاثرية القديمة التي تحيط بموقع القرية الآن والتي تصل الى أكثر بقليل من عشرين بئرا لتعكس مدى العمران البشرى والتقدم الزراعى داخل القرية التي تجمع سكانها حول زاوية الشيخ سليم التي أوقفت لها مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية مع بداية الفترة العثمانية .

أما قرية « بيت حانون » فقد حظيت بنصيب وافر من الاهتمام المملوكى لموقعها الهام فأصبحت كنصب تذكارى للنصر الذى أحرزه المسلمون على الصليبيين سنة ١٢٣٩ م كما جاء على مسجد النصر فى القرية كما بينا .

وقد ذكرها المقريزى واصبحت مركزا للبريد وذكرت باسم « حنين » وقد أوقفت بعض أراضيها لصالح طلبة العلم فى غزة والأزهر مع بداية القرن التاسع الهجرى (١٤٤) .

أما قرى غزة الجنوبية فقد أدت ظروف الدولة المملوكية الادارية والاقتصادية الى خلق قرى جديدة حيث ظهرت لأول مرة مؤسسة تجارية عسكرية

---

(١٤٢) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ـ المجلد الأول ـ دار احياء التراث ـ بيروت ـ ص ٥٢٢ .

(١٤٣) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٤٠ ، ٩٠ .

(١٤٤) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٣ .

وهى « خان يونس » سنة ١٣٨٩ · اعشوشبت حوله المحال التجارية لأبناء القرى المجاورة فى مساحة لا تتعدى نصف كيلو متر مربع من جهات الخان الأربع لتكبر وتصبح قرية فمدينة خان يونس لخدمة التجار والمسافرين والحجاج وكمحطة على الطريق ·

وكذلك ازدهرت قرية « السلقا » التى ذكرنا أنها ربما كانت تعنى فى وقت من الأوقات المملوكية « خان يونس » نفسه فقد جاء أن هذه القرية أقيمت على « بئر للمياه » حفر فى عهد طرنطاى المملوكى لتأخذ فيما بعد وظيفة « محطة بريد » كما جاء على لسان المقريزى المتوفى سنة ١٤١٨ م وليعمرها سكان القرى الشرقية من أبناء عبسان وبنى سهيلا ومعن وخزاعة وقرية « سوق مازن » وعشائر النصيرات التى اتخذت من الأراضى الشرقية مسرحا لترحالهم وتجوالهم سعيا وراء الرعى كما احترفوا الزراعة وارثين ما تبقى من خرب وهرابات لتخزين المياه بها من آثار مدن داثن « الدميثة » و « سوق مازن » وقد أوقف بعض أراضى قرية السلقا لصالح الحرمين الشريفين كما أوقفت احدى سيدات غزة (سعادات بنت سعد الدين الحاجب) أوقافا لصالح الخير من أراضى هذه القرية سنة ٨٩٣ هـ (١٤٥) ·

وقد أظهرت الوقفيات فى الدفاتر العثمانية (دفتر ٥٢) كثير من الأراضى الزراعية لعديد من القرى مثل قرية « جميل المعاد » أو « المعادى » قرب النصيرات وربما تعنى هنا « المغازى » التى هى « الدميثة » الآن ·

كما أوقف مجهول قطعة أرض زراعية لأعمال الخير تعرف « بمازنية غازى » تابعة لمدينة غزة ربما هى الواقعة بين سوق مازن والمغازى (١٤٦) فأطلق عليها « مازنية غازى » ·

أما المدن التى كساها العمران فى الفترة الرومانية والبيزنطية الى حد ما كمناطق حدودية وقلاع كدير الروم (دير البلح) ومدينة رفح فلم تعد لهما هذه الوظيفة الادارية أو حتى العسكرية لسقوط وظيفتها الحدودية والعسكرية ، فقد سلبت « خان يونس » دور المدينتين خاصة بعد أن دمر صلاح الدين قلعة دير الروم (الداروم) كمدينة صليبية حدودية سنة ٥٨٤ هـ (١٤٧) ·

وانحدر الحال بمدينة رفح فبعد أن وصفها المهلبى « بأنها عامرة بسوقها وجامعها وفندقها » أصبحت أيام ياقوت الحموى بأنها« أول الرمل وخربه الآن » مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى (١٤٨) ·

(١٤٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ١ و ٤ ·
(١٤٦) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين المرجع السابق ص ٤ ـ ٥ ·
(١٤٧) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ـ مجلد ٣ المرجع السابق ص ٤٢٤ ·
(١٤٨) ياقوت الحموى ـ المرجع السابق ص ٥٤ ·

وبقى هناك موضع حظى بنصيب وافر من الذكر لموقعه الاستراتيجى الذى ورثه منذ آلاف السنين عند وادى غزة وهو « تل العجول » كمفتاح لمدينة غزة من الناحية الجنوبية وكموقع عسكرى تمركزت فيه جيوش صلاح الدين كما عسكر الملك العادل برجاله فى هذه المنطقة كذلك فعل الملك الكامل عندما رابط بعساكره وهو متوجها لدمشق فقد جاء ذكرها طيلة هذه الحقبة الأيوبية والمملوكية باسم « تل العجول » دون أى ذكر لطبيعة وظيفتها سواء أكانت قرية مأهولة أم مدينة ، الا انه جاء فى سجل الأوقاف العثمانية وحتى بداية الحكم العثمانى باسم « منشية تل العجول » لترمز بذلك على سكنى بعض الناس فيها كما سنرى ، كما أوقفت بعض المزارع فيها لصالح البيمارستان الناصرى فى مدينة غزة (١٤٩) .

وقد سبق لأحد جنود الأمير جمال الدين موسى يغمور أن تغزل بها وهو محتشد بقيادة الملك صلاح الدين الأيوبى قائلا :

يذكرنا زمان الذكر حقا زمان اللهو فى تل العجول
وتطلب مسلما يروى حديثا رغب من أحاديث الرسول

ومع اطلالة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى الموافق للنصف الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بدأت غيوم الاضمحلال تتراكم وتخيم على سماء المنطقة بأجمعها لتعصف بها رياح التسيب الادارى والخلف بين النواب والأمراء مع بداية سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، فكان هذا السقوط ناقوسا ينذر بمجيء القوة العثمانية من الشمال مما أربك التجارة بين آسيا وأوروبا عبر بحار المتوسط والأسود . فبدأ خط الازدهار الصاعد المملوكى فى الانحناء والهبوط لتضيق الحياة بأهلها لشدة ما اكتنفها من أزمات اقتصادية عمت جميع المدن والقرى فى الشام ومصر ومن جملتها « المملكة الغزية » وبرز ذلك بوضوح بعد ربع قرن عندما أفرغت المدن معظم رصيدها المخزون من ثراء القرون السابقة ليذكرها ابن اياس ، مترجما الأزمة الاقتصادية فى صورة نقود الدولة المملوكية سنة ١٤٧٥ م بقوله : « انها جلبت الخسارة للناس عندما انخفضت قيمتها وتدنى مركزها النقدى لدرجة أن الناس قد « خسروا ثلث ثرواتهم من النقود » عندما استبدلوا قديمها بحديثها » (١٥٠) .

وقد سبق هذه الأزمة المالية بخمس سنوات (١٤٧٠ م) انتشار مرض الطاعون مبتدئا بالقدس ومستمرا أربعة شهور يحصد فى أرواح البشر وقد بلغت ضحاياه ما بين ٣٠ ـ ٤٠ نسمة فى اليوم الواحد ضاربا الرقم القياسى

(١٤٩) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ ص ٦ .

(١٥٠) ابن اياس ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ، المرجع السابق ص ٢٢٨ .

بضحاياه فى مدينة غزة فوصل عدد الموتى فى أحد الأيام الى أربعمائة نسمة !! فى حين بلغت ١١٠ ضحية فى اليوم الواحد فى مدينة الرملة أما فى مدينة الخليل فقد مات خمسون شخصا فى اليوم (١٥١) وربما تعكس هذه الأرقام ولو جزئيا الكثافة السكانية فى كل مدينة ٠

ولعل ما ذكره « فيلكس فابرى » سنة ١٤٨٣ م يوضح هذه الكثافة السكانية عندما تحدث عن ازدهار المدينة (غزة) وبأنها أضخم من القدس مرتين من حيث اتساع مسطحها العمرانى وانها من مدن فلسطين الرئيسية وبانها عامرة بالسكان وغنية ببضائعها المتميزة بانخفاض أسعارها وهذا عائد لموقعها على الطريق التجارى ولقوة الدفع التاريخى وبأثر رجعى لمخزونها الثرى وقوة اقتصادها الزراعى المحلى عبر السنوات السالفة ٠

وقد وصف مساكنها بأن معظمها من الطين باستثناء المساجد والحمامات المبنية من الحجارة ومن الناحية الاثنوغرافية قال « ثابرى » : ان سكان غزة مزيج من عرب مصريين وسوريين وهنود ومسيحيين شرقيين ٠

وليس ذلك بمستغرب على مدينة غزة « دهليز الملك » أن تضم هؤلاء جميعا موقعها المرورى كجسر بين جناحى الاسلام الافريقى والاسيوى ٠ كما وصف سلوك ابناء المدينة حيال الحجاج والمسافرين بأنه ممتاز ولا غبار عليه ، كما الم يشاهد سورا يحيط بالمدينة لكنه شاهد ابراجها العديدة مؤيدا ما لاحظه قبله بعامين سنة ١٤٨١ م مشولام فولتيرا ٠ الايطالى الذى أفاد بأنه لم يكن يحيط بالمدينة سور (١٥٢) ٠

أما القاضى مجير الدين الحنبلى فهو خير من وصف الحياة المملوكية فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٦٧ ـ ١٤٩٥ م) ٠ وهى تحتضر بحكم منصبه الحساس كقاض بالاضافة لكونه من مواطنى البلد ٠ فقد ذكر بأن « الخلاف بين الحكام والأكابر » قد خرب أطنابه واستشرى فى البلاد فانتشرت معه الخصومات والمحن بين النواب لترتد مآسيهم على الفلاحين وابناء المدن على حد سواء ٠ حتى وصل التسيب الادارى حدا لا يعرف معه النائب حدود نيابته ـ أو هكذا يتظاهرون ـ محكا للخلاف والاقتتال الذى أصبح السمة الظاهرة والغالبة على تصرفاتهم فيفتعل النواب مشكلة تبعية القرى الحديثة بين نياباتهم ولأيها تعود ؟!! ٠

فعلى سبيل التمثيل لا الحصر وفى عام ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) ٠ وقع خلاف بين نائب القدس الشريف وملك الأمراء آقباى كافل المملكة الغزية لتعدى الأول

(١٥١) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ المرجع السابق ص ٨٣ ـ ٨٤ ٠

(١٥٢) M. A. Mayer, History of the city of Gaza, New York, 1966, pp. 92-93.

على قرية « القباب » لادعائه بأنها تابعة له ، ويرى كافل غزة بأنها له فكانت النتيجة أن « قطعت الطرق وساد السلب والنهب » بين الناس فى النيابتين على حد رأى مجير الدين (١٥٣) •

ومن صور التحلل الادارى والسياسى ما حدث عندما انسلخت مدينة الرملة من ولاية غزة لتنضم الى الأمير جان نائب القدس فكان رد الفعل ان « فرح أهل الرملة بزوال نائب غزة » ثم حدث « تخبيط فى الطرق » وهى الرد المباشر لكل تقلب ادارى يقترفه النواب فى البلاد وعلى أثره تقوم مظاهرة عنيفة من قبل السكان يقطعون فيها الطرق ويدمرون كل شيء تعبيرا عن سخطهم •

أخذ النواب على اثر ذلك وكرد فعل لضعف الحكومة المركزية فى القاهرة ينفردون بولاياتهم فأخذوا فى ابتزاز الأموال من السكان خاصة الفلاحين وأهل المدن بأسلوب تميز بالشراهة والعنف فكانوا يأخذون الزيت المتحصل من مدينة نابلس فى الشمال الفلسطينى ويجبرون أهل القدس وغزة والخليل بشرائه بالقوة وبأثمان باهظة يحددونها كما حدث بالتحديد فى سنوات ١٤٩١ م وحتى سنة ١٤٩٤ م عندما فرضوا على سكان هذه المدن شراء كل قنطار من الزيت بالكيل الرملى (نسبة لمدينة الرملة) بما قيمته ١٥ دينارا ذهبا (١٥٤) فى وقت كان يسمى « بعصر النحاس » تعطلت فيه الأسواق عن البيع والشراء بسبب الفلوس التى ضربها « قنصوى الغورى » « وهى تخسر فى المعاملة الثلث » حتى على هذا العصر المملوكى الجركسى « عصر النحاس » لقلة كميات الذهب المتداولة فيباع كما ذكرنا قنطار الزيت فى غزة بخمسة عشر دينارا ذهبيا (١٥٥) فى حين كانت تصل كلفته دينارا واحدا فقط لكى تصل بذلك الخسارة منتهاها بالمواطنين الذين لم يفيقوا بعد من حصاد الجراد لمزروعاتهم سنة ١٤٨٤ ليعقبها وفى عام ١٤٩٨ م هزة أرضية أسقطت العديد من المنازل مع ما حملته هذه السنة من ضربة مؤلمة وقاتلة سددها البرتغاليون للمنطقة بأسرها بحركة كشوفهم الجغرافية الدموية ووصولهم للهند عبر رأس الرجاء الصالح مكتسحين العرب من بابهم الخلفى عند الخليج العربى فى مسقط وعمان ويسلبون دورهم كوسيط تجارى بين الشرق والغرب مما حجب وصول السلع والتوابل عن مصر والشام وأصبح البحر المتوسط « بحيرة راكدة » بعد ان كان يعج بالسفن العربية والايطالية التى واجهت هى الأخرى ظروفا قاسية أصبحت فيها سفن البندقية وجنوه تعود فارغة لأول مرة من الموانىء الشامية •

وبذا نجح البرتغاليـون من سـلب قوة المماليك الاقتصادية ومن ثـم

---

(١٥٣) مجير الدين الحنبلى ـ الانس الجليل بتاريخ القـدس والخليـل ـ المرجع السابق ص ٣٦٧ •

(١٥٤) مجير الدين الحنبلى ـ المرجع السابق ص ٣٧٣ •

(١٥٥) مجير الدين الحنبلى ـ المرجع السابق ص ٣٧٣ •

السياسية فى المنطقة فعجلت من شيخوخة الدولة المملوكية بحيث أصبح الاستيلاء على البلاد أمرا ميسورا وبحد أدنى من المقاومة المملوكية المنهكة نجحت القوات العثمانية بعد سنوات وجيزة ومع بداية القرن السادس عشر من اجتياز البلاد ٠

مع هذا الضمور الاقتصادى والتسيب الادارى ومع ما لازمه من ابتزاز للاموال العامة والخاصة بالتجار والفلاحين بدأت موجة معاكسة من القرية والمزارع المحيطة بالمدن المتوجه نحو المدينة نفسها منجذبين نحوها لأنها توفر لهم حدا أعلى من الأمن والأمان ويحدوهم الأمل فى نيل ما يخصهم من زكاة أموال الأغنياء المتمركزين فى المدينة ولما فى المدينة من مرافق حيوية كالجوامع والمدارس والبيمارستانات والحمامات والزوايا والأسبلة ٠

بدأت بالتالى القرى الصغيرة المؤقتة والحرب فى الانجذاب نحو قطب العمران المركزى وهى المدينة الأم ليتلاشى العديد منها ريثما يعود الأمن والاستقرار لتعود لها الحياة من جديد ٠

الوقف :

قبل أن نترك هذه الحقبة التى بدأت بقوة وعزة وازدهار وانتهت بضعف وانهيار قدر كل الامبراطوريات الحاكمة فقد كانت هناك قوة خفية طيلة هذا العصر على صمود وبقاء مؤسسات عديدة من مدارس وزوايا وحمامات وقيساريات وعلى رأسها الجوامع داخل مدينة غزة بل وفى جميع فلسطين والبلاد العربية هذه القوة هى ظاهرة « الوقف » الاسلامية التى رصدها الملوك والسلاطين والأمراء وأثرياء الشعب لمؤسسات بلادهم الدينية والثقافية والصحية فقد أوقفوا الأراضى الزراعية والأموال اللازمة لدفع مسيرة هذه المؤسسات لدوام تقديم خدماتها كما رأينا ساهم بها صلاح الدين الأيوبى وقلاوون وأبناؤه وكذا بيبرس [وثيقة رقم ١] وبرقوق وقايتباى وقنصوى حتى سيدات المدينة أوقفوا العديد من الأراضى والأموال كما بينا ليبقى هذا الوقف شريانا دافقا بالمال ليهب البقاء لها فقد حث فقهاء المسلمين على دعم الوقف ليس فقط على هذه المؤسسات بل تعداه لطلاب العلم واعتبروا ذلك من صور الجهاد فى سبيل الله مدعمين فتواهم بالأحاديث النبوية الشريفة التى وضعت العلم والعلماء على مرتبة على من مراتب الجهاد والشهداء فشدت بذلك ظاهرة « الوقف » من أزر العلم والعلماء كما رأينا فى وقفيه ابن مقبل الروبى على رواقه وطلاب العلم فى غزة والأزهر ٠ وقد تعدى دور الوقف كممول مالى لهذه المؤسسات وليتعداه كمبرمج ومخطط للعملية التعليمية واضعا بذلك ما يجب على المعلم اتباعه وكذلك طلاب العلم ٠

ومما حفز الناس على وقف أراضيهم ما ساد المجتمع عند نهاية الفترة

المملوكية وما تعرض له من جشع الأمراء ومصادرة الأموال والاراضى مما حدا بالأغنياء والأثرياء سواء منهم السيدات أو الرجال وهروبا من سلب أراضيهم فقد أوقفوها لأعمال الخير ٠

وعملت بالتالى ظاهرة الوقف على الحد من الاقطاع الذى حاول جاهدا مع نهاية العصر المملوكى والحكم العثمانى من مد يده على هذا الوقف مما أدى الى اندثار كثير من المساجد والمدارس والزوايا كما رأينا ومما دفع المجلس الأعلى الاسلامى أن يحصل على وثائق شرعية وقيود خاقانية مسجلة بدار الخلافة بالاستانة العليا بوقف قرى ومزارع وحوانيت بفلسطين ٠ نورد هنا منها ما أوقف بقضاء غزة عله يبين لنا أثر الوقف على بقاء هذه الثوابت العمرانية والحيوية فى مدينة غزة ولتوضح بعض القرى التى ازدهرت وبانت على الأرض الفلسطينية أيام الازدهار المملوكى واندثرت فيما بعد ٠

وثيقة (١)

توضح ما أوقفه الظاهر « بيبرس » و « سيدات غزة » في القرنين السابع والثامن الهجري.
من اوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ـ ص ١٥٠ .

مسلسل	اسم القرية او المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظات
١ ــ	قرية خرسة	وقف السلطان قايتباى على مدرسته بغزة	خربة تقع عند دير البلح ٠
٢ ــ	قرية نخاسة	وقف السلطان قايتباى على مدرسته بغزة	خربة عند الشيخ بنهان جنوب غزة
٣ ــ	قرية لسن	وقف السلطان قاينباى على مدرسته بغزة	ارض تابعة لمحلة التفاح والزيتون شرق غزة ٠
٤ ــ	قرية سيحان (صنحان)	وقف السلطان قايتباى وعلى بن بوغا التميمى	ارض تابعة لمحلة الجديدة الشجاعية شرق غزة ٠
٥ ــ	قرية جولس	وقف السلطان قايتباى	خمسة قراريط من الثلث ٠
٦ ــ	قرية عمورة	وقف السلطان قايتباى ومحمد سراج الدين الانصارى	ارض تقع بين قريتى سمسم وبربرة
٧ ــ	قرية عراق المنشية	وقف السلطان قاينباى	تاخذ الاوقاف عشر اربعة قراريط ٠
٨ ــ	قرية كوكبا	وقف السلطان قايتباى والمدرسة الجوهرية	تاخذ الاوقاف خمس الحاصلات ٠
٩ ــ	قرية ارزا	وقف السلطان قايتباى	خربة تابعة لقرية بيت طيما ٠
١٠ ــ	قرية شحمة المغار	وقف السلطان قيتباى وبوغا بن عبد الله التميمى	خربة تابعة لقرية المغار ٠
١١ ــ	قرية بيت حامين	وقف السلطان قايتباى	خربة تابعة لغزة ٠
١٢ ــ	قرية خصاص عجلان	وقف السلطان قايتباى والامير الجاولى الخليل الرحمن	قرية قرب جوره وعسقلان
١٣ ــ	قرية قابورة	وقف السلطان قايتباى والمارستان الجاولى	قرية قرب نعليا ٠
١٤ ــ	ارض جديدة	وقف السلطان قايتباى	خمسة عشر قيراطا تابعة محلة الجديدة الشجاعية بغزة ٠
١٥ ــ	غراس الكرم الكبير	وقف السلطان قايتباى	تابعة محلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٦ ــ	غراس الكرم الصغير	وقف السلطان قايتباى	تابعة محلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٧ ــ	غراس كرم عطا	وقف السلطان قايتباى	تابعة محلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٨ ــ	غراس النزاز	وقف السلطان قايتباى	تابعة محلة الجديدة بالشجاعية بغزة
١٩ ــ	غراس سلوة عند الجامع الكبير	وقف السلطان قايتباى	استحكر للبناء وصار بها محلات لوكالة ابى خضرة
٢٠ ــ	قرية زيد الحرازين	وقف السلطان قايتباى والملك قنصوى والحرمين	خربة تابعة لعرب ابى معيلق ٠
٢١ ــ	قرية جهنين	وقف السلطان قايتباى والمارستان والحرمين	لعلها « جبين » من خرائب السبع
٢٢ ــ	قرية سمسم	وقف الأمير الجاولى على جامعة بغزة	تاخذ الاوقاف عشر اثنى عشر قيراطا
٢٣ ــ	قرية كوكبا	وقف الأمير الجاولى على جامعة بغزة	قرية معروفة ٠
٢٤ ــ	قرية جبالبا	وقف الأمير الجاولى على جامعة بغزة	شمال غزة ٠

مسلسل	اسم القرية أو المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظات
٢٥ ـ	قرية قمصا	وقف الأمير الجاولى على جامعة بغزة	قيراط لجامعة وقيراط للحرمين وهى من أراضى بربر .
٢٦ ـ	ملاقص	وقف الناصر على المارستان بغزة وخليل الرحمن	خربة ضمن أراضى بربر
٢٧ ـ	صميل عند عامورة	وقف الناصر على المارشان بغزة وخليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٢٨ ـ	قرية هربيا	وقف الناصر على المارستان بغزة وخليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٢٩ ـ	بطانى الشرقى	وقف الناصر على المارستان بغزة وخليل الرحمن	تستوفى اعشارها الحكومة .
٣٠ ـ	قرية البها	وقف الناصر على المارستان بغزة	تستوفى اعشارها الحكومة وهى خربة شرق غزة
٣١ ـ	مزرعة تل العجول	وقف الناصر على المارستان بغزة	معروفة بالمغراقة وضمت لوقف السيد هاشم .
٣٢ ـ	بربرة	وقف الناصر على المدينة المنورة والشيخ يوسف	النصف والنصف الآخر ميرى .
٣٣ ـ	جلس	وقف الناصر على المدينة المنورة والشيخ يوسف	خربة تابعة لاراضى الفالوجا .
٣٤ ـ	سمحان	وقف قايتباى وعلى بن بوغا	وهى ارض سعاد ويقال السعاد بزيتون غزة .
٣٥ ـ	حمامة المجدل	وقف الحرمين والتزيه والقراءة وبوغا	شمال المجدل .
٣٦ ـ	المجدل	وقف الحرمين ١٤ قيراطا وثلاثة لمدرسة الصالحية بالشام	شمال مدينة غزة .
٣٧ ـ	احليقات	وقف الحرمين	شمال غزة .
٣٨ ـ	بيت دراس الصغرى	وقف الحرمين	قرية ضمن أراضى بيت دارس الكبيرة
٣٩ ـ	الفالوجا	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	قرية معروفة
٤٠ ـ	مشرفة غزة	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	خربة باراضى عرب الحسنات والوحيدات
٤١ ـ	عوريا	وقف الحرمين وبوغا بن عبد الله التميمى	ارض جهة أراضى المجدل .
٤٢ ـ	ارض أبو المعالى	وقف الحرمين	ارض أبو المعالى .
٤٣ ـ	المحرقة	وقف الصخرة والخمس والباقى المنصورى بغزة (خان الزيت)	قرية شرق غزة .
٤٤ ـ	دمبطة (ديشة)	وقف خليل الرحمن	خربة الدميثة التابعة لعرب النصيرات بالمغازى .
٤٥ ـ	رشيدة	وقف خليل الرحمن	خربة ارشيد تابعة لعرب العتياها

مسلسل	اسم القرية أو المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظات
٤٦ ـ	رمداس	وقف خليل الرحمن	
٤٧ ـ	دويرة	وقف الخليل الرحمن	خربة تابعة لقرية دير البلح .
٤٨ ـ	منشية العجول	وقف الخليل الرحمن	أراضي تابعة لمحلة الزيتون بغزة .
٤٩ ـ	دير سنيد	وقف المدرسة الحنفية	قرية شمال غزة .
٥٠ ـ	مزرعة بلاس المجدل	وقف المدرســة الشركسيــة وقراءة القرآن	ضمن أراضي حمامه والرسم الشرقي فيها .
٥١ ـ	مزرعة صلوحية	وقف الزاوية الادهية	ضمن أراضي المسمية الكبيرة .
٥٢ ـ	مزرعة حيموس	وقف جامع انيال وزارية العمارة	علها ارض الجواميس بمحلة الدرج .
٥٣ ـ	مزرعة جميزة	وقف شهاب الدين أحمد بن عثمان	جنوب دير البلح .
٥٤ ـ	مزرعة الرسم الشرقي	وقف حسن بن عبد العال	أراضي ضمن حي الشجاعية .
٥٥ ـ	مصرية ؟ جندية	وقف علي بن بوغا التميمي	علها خربة الجندي او قريةالجلدية؟
٥٦ ـ	قرية بيت دراس	وقف عبد الله التميمي وعرب بن عطية	قرية معروفة شمال غزة .
٥٧ ـ	قرية بردغة	وقف عرب السوالة	بين البكاني الغربي وبيت دراس .
٥٨ ـ	تل حجر	وقف عرب السوالة	علها تل جمة .
٥٩ ـ	المسمية الكبيرة	وقف خليل الرحمن	تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف .
٦٠ ـ	المسمية الصغيرة	وقف خليل الرحمن	تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف .
٦١ ـ	السوافير الشرقية	وقف خليل الرحمن	تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف .
٦٢ ـ	السوافير الشمالية	وقف خليل الرحمن	تحصل الحكومة اعشارها للأوقاف .
٦٣ ـ	صميل	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق سنة ٨٠٨ هـ	
٦٤ ـ	ياحور	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق سنة ٨٠٨ هـ	
٦٥ ـ	القسطينة	وقف الملك الظاهر بن سعيد برقوق وعشرين قيراط	
٦٦ ـ	عبسان	وقف الملك الظاهر	شرق خان يونس .
٦٧ ـ	دمرة	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٢¼ قيراط	
٦٨ ـ	برير	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٤ قراريط	
٦٩ ـ	عراق المنشية	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٤ قراريط	
٧٠ ـ	قطرة	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٣¼ قيراط	
٧١ ـ	قرقلة الشرقي	وقف السلطان قايتباي على مدرسته بغزة ٢¼ قيراط	

مسلسل	اسم القرية او المزرعة الموقوفة	الواقف	ملاحظـــات
٧٢ -	قرقفة الغربى	وقف السلطان قايتباى عل مدرسته بغزة ٢ ١/٢ قيراط	
٧٣ -	بيت عفا	وقف السلطان قايتباى عل مدرسته بغزة ١ ١/٤ قيراط	
٧٤ -	ارض الساقية والبركة	وقف السلطان المنصـوز قلاوون عل الرباط المنصورى بغزة (خان الزيت) ودخل فى اوقاف أحمد رضوان باشا نائب غزة (١٥٦) ٠	

هذا بالأضافة الى عديد من الأوقاف التى سبق أن ذكرناها والتى جاءت فى الدفتر رقم ٥٢٢ العثمانى ٠

(١٥٦) عثمان الطباع ، اتحاف الأعزة بتاريخ غزة ـ المرجع السابع ص ١٩٩ ـ ٢٠١ ٠

[illegible]

2

[illegible]

3

[illegible]

تاريخ الوقف في سنة ٩١٩

[illegible]

4

[illegible]

وثيقة (٢)

توضح وقفية ابن الرومي لطلبة العلم من إبناء غزة للازهر وللعرب في غزة ، ص ١٤٩ ،

عن املاك المسلمين في فلسطين ص ١٤٩ .

12

13

وثيقة (٣)

توضيح ما أوقف من مزارع ومصادر أخرى لصالح « بيمارستان غزة » ـ « ص ١٥١ » عن أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ص ١٥١ .



وثيقة (٤)

توضيح الأراضي والمصادر المختلفة التى أوقفت فى لواء غزة لصالح الحرمين الشريفين

« املاك واوقاف المسلمين فى فلسطين ص ١٤٨ » .



الفصل الثالث عشر

الرنوك الاسلامية فى غزة وقطاعها

الرنوك الاسلامية فى غزة وقطاعها

لقد أفردنا لهذا الموضوع الحيوى وهو « الرنوك » فصلا خاصا به لأسباب عـديدة على رأسـهـا كثرة ما بنى بمـدينة غزة فى الفترة الأيوبية عامه والحقبة المملوكية بصفة خاصة من مرافق ومؤسسات دينية وثقافية وترفيهية واقتصادية تعرضت معظمها للاندثار كما أسـلفنا • أما ما قاوم منها الزمن واسـتمر فقد حملت لنا رنوك « Runuk » أو شارات Heraldy, Emblem, Blazon تستوجب الدراسة والعناية خاصة وان معظمها تبعثر فى مواقع ومواضع غير ما بنيت فيه مما يوجب تقفى أثرها وذلك لأن العديد من البنايات قد تهدمت وأخذت حجارتها بما تحمله من شارات ورنوك وبنى بها بنايات أخرى قد لا يتفق شعارها مع ما جاء على حجارتها من أسماء ملوك أو أمراء حكموا فى فترة تاريخية وزمنية محددة ولهم رنوك خاصة بهم • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد تميز العصر المملوكى ليس فقط داخل المملكة الغزية •• وفلسطين بل فى مصر والحجاز بأنماط فنية جديدة لازمت سلوكـه السياسى والاقتصادى بحيث ظهرت مدرسة فنية مملوكية اسلامية وصلت الى درجـة هامة جدا من الرقى الفنى عاشت أكثر من قرنين ونصف من الزمن « ٢٦٧ سنة » ابتداء من عام ١٢٥٠ ميلادية •

تمثلت ليس فقط بفن العمارة والكتابة والمسـكوكات كمواد علمية أثرية بل زادهما ظهور مـادة علمية فنية أخرى وهى « الرنوك الاسـلامية » ابتدعها المماليك على آثارهم بأشغال ورسوم وعلامات متباينة لتفصح عن شخصية ملكها وأميرها النفسية والوظيفية •

لذا أصبح الالمام والتعرف على هذه « الرنوك » أمرا علميا لا فكاك منه لكونها أصبحت الآن علما جديد الاكتشاف • على الرغم من وعورة وصعوبة الخوض فى هذا المجال لندرة من تحدثوا عنها أو تعرضوا لقواعد صناعتهـا أو قـوانين حملها (١٥٧) • فكثيرا ما ذكرها بأسلوب عرضى كل من القلقشندى وابن اياس والمقريزى واهتم بها الآن ، البرفسور الألمانى مايكل ماينكه Michael Meinecke كعلم من علوم الآثار له ذاتيته • ونحن هنا لسنا بصدد دراستها دراسة أكاديمية شاملة بل سنتعرض لهـا بالتحليل وفقا لما وجد منهـا على البنايات الغزية الأثرية فقط •

---

(١٥٧) عبد الغنى محمد عبد الله ـ الرنوك الفن القديم المتجدد ـ مجلة الفيصل ـ العدد ٩٤ يناير سنة ١٩٨٥ ص ١٠٨ •

واختيار الرنك في الغالب عبارة عن عملية اسقاط تعكس ما يجيش في صدر الأمير أو السلطان من صفات أو تسميات تحلو له ويتمنى أن يوصف بها هو ومن يتبعه ويبرهن على ذلك عملية اختيارهم لأسمائهم التي لها أفضل الصفات في القوة أو الشجاعة يأخذونها من أسماء بعض الحيوانات كالأسد والفهد والحصان أو الطيور كالنسر أو الأسماك كالقرش وكذلك من المعادن كالذهب فاسم بيبرس معناه الفهد من هنا اختار لنفسه رنك الفهد أو الأسد أحيانا (١٥٨) . وقلاوون ومعناه « البطة » فاتخذ منها شعارا له .

وللأمير أو السلطان حرية اختيار « رنكه » عند تأميره (١٥٩) وغالبا ما يختار شعارا له صلة بالوظيفة التي يشغلها أو الهواية التي يمارسها (١٦٠) .

وقد تعددت أشكال وألوان الرنوك كما تنوعت الأماكن التي وضعت عليها فقد كان الأمير أو السلطان يضعها على مقتنياته فمنها ما نقش على الحجارة وأخرى رسمت على الأواني الزجاجية المختلفة وبعضها حفر على الخشب ومنها ما تمت حياكته على الملابس أو نقش على أدوات القتال الحديدية المختلفة . وقد ورد مفهوم الرنك على لسان القلقشندي بمعنى « العلم » أو الراية التي يحملها الجنود عند الحرب ، فقد رفع الجنود المسلمون في موقعة عين جالوت رنكا أحمر وآخر أبيض وثالث أصفر (١٦١) ويقال أن « الرنوك » عرفت بمفهومها الوظيفي أو الزمني في العصرين الفاطمي والأيوبي وشاعت في العصر المملوكي البحري (١٦٢) .

ولو أننا نميل للاعتقاد بأن هذه الشارات أو الرموز قد ظهرت بظهور الاسلام الذي كان حافزا ومشجعا على اختيارها خاصة تلك التي خصها القرآن الكريم بالذكر أو أقسم بها الله عز وجل واستمد منها الرسول عليه الصلاة والسلام بعض أحاديثه . فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله عز وجل اختار من المدائن أربعة :

مكة وهي البلدة والمدينة وهي النخلة وبيت المقدس وهي الزيتونة ودمشق وهي التينة .. (١٦٣) » .. مستلهما ذلك عليه السلام من قسم الله عز وجل

---

(١٥٨) المقريزي – السلوك – مجلد ١ ص ٣٦٨ .

(١٥٩) القلقشندي – صبح الأعشى مجلد ١١ القاهرة ١٩١٧ ص ٩٦ .

(١٦٠) جمال محرز – الرنوك المملوكية – مجلة المقتطف – مايو سنة ١٩٤١ .

(١٦١) القلقشندي – صبح الأعشى – مجلد ٤ – ص ٦٠ – ٦٢ .

(١٦٢) محمود نديم احمد فهيم – الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري – الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٣ ص ٩٣ .

(١٦٣) أبي عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطي – اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى – تحقيق د. احمد رمضان أحمد – القاهرة سنة ١٩٨٣ ص ٢١١ – ٢١٢ .

« والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم .. » سورة التين .

لذا نجد كثيرا من الفلوس الاسلامية المبكرة قد ظهر عليها رسم «النخلة» .

وسط دائرة فى منتصف الفلس وعلى الوجة الآخر رسم هلال وسط دائرة فى المنتصف أيضا عثر عليها فى غزة وتحفهما الشهادة « لا اله الا الله محمد رسول الله » (أنظر الصورة) ، كما ظهرت النخلة على فلوس اسلامية أخرى على احدى وجهى الفلس وعلى يمين الشهادة « . محمد رسول الله » ومازالت الى الآن المملكة العربية السعودية تتخذ من النخلة شعارا لعلمها . (أنظر صورة رقم ٤٦ السابقة) .

فلا مانع والحالة هذه أن يتخذ المماليك شارات ورموز مستوحاة من الكتاب الكريم والسنة .

وسندرس الآن « الرنوك » التى وجدت على البنايات فى مدينة غزة وقطاعها متخذين منها عنوانا للدراسة .

أولا : رنك الأسد Heraldic Animals

يرجع هذا الرنك للسلطان الظاهر بيبرس فقد اختاره لنفسه شعاراً يرمز للقوة لأن «الأسد ملك الحيوان» فقد ذكر ابن اياس أن بيبرس اتخذه شعارا لقوته وكان اذا أنشأ خانا أو سبيلا نقش على حجرين صورة أسدين متقابلين على جانبى اللوحة التى عليها اسمه .

فقد ظهرا على بوابة « خان يونس » بمدينة خان يونس جنوب غزة صورة أسدين متقابلين يعلو وجههما خطوط الشعر ترمز لشارب الأسد ما لم نره فى غيرهما .

ومن المتناقضات أن تكون اللوحة التى بينهما تعود لفترة حكم السلطان برقوق كما سبق وأوضحنا عند الحديث عن هذا « الخان » اما أن تكون هذه الحجارة التى عليها نقش الأسد منقولة من بناية محطة بريد السلقا التى أنشأها الظاهر بيبرس واما من الشمال من الخان فى موضع ما على وادى السلقا الواقع جنوب دير البلح مباشرة . أو أن السلقا كانت تعنى نفس مكان خان يونس الآن ، ثم أتى برقوق ليبنى الخان عليها كما بينا عند دراستنا لبوابة الخان الرئيسية . (صورة ١٢٢) .

وهناك أسدان متقابلان موجودان على الجدار القبلى لبناية « الدبويا » فى قلب مدينة غزة « مدرسة الزهراء الثانوية للبنات الآن » كما أن هناك أسدا ثالثا

نقش على حجر بالقرب من أحد أبواب غرف الطابق العلوى للبناية ومما هو معلوم أن هذه البناية قامت أيام (صورة ١٢٢) حكم أسرة آل رضوان التى بدأت مع نهاية الفترة المملوكية وبداية العثمانية حتى سنة ١٦٦٢ ميلادية تقريبا ولم يكن بانيها الظاهر بيبرس لذا فقد نقلت حجارتها على ما يبدو من مرافق قام ببنائها الملك الظاهر بيبرس مثل المكتبة التى أنشأها بالقرب من هذه البناية وعلى بعد بضعة أمتار الى الجنوب منها ٠ أو من أماكن أخرى اندثرت داخل المدينة ٠

ثانيا : مجموعة الرموز الرنكية Symbols

١ ـ زهرة السوسن Fleur de ly

كانت هذه الزهرة شعارا ملكيا لأسرة قلاوون الذى جلبه الصالح نجم الدين أيوب فاتخذ قلاوون رنكه زهرة ذات ثلاث بثلاث ٠

وقد وجدت زهرة السوس منقوشة أسفل رنك دائرى لجامع كاتب الولاية وسط الحجر التذكارى الموجود أسفل المئذنة العائد لسنة ٧٣٥ هـ ٠ (انظر الصورة رقم ٧٤) ٠

كما يوجد حول حجر مسجد الشيخ الياس « ٦٧١ هـ » ما يشبه زهرة السوسن قد أحاطت بزواياه الأربع تماما كما هو الحال بالنسبة للحجر الموجود داخل مسجد محمد العجمى بحى الزيتون « ٦٧٣هـ » حتى ليبدو أن الكاتب واحد ٠ (انظر الصورتين ٥٤ و ٥٥ السابقتين) ٠

وقد أحاط حجر الشيخ الياس سهمان أشبه بالتمغة منها للزهرة ويشبه هذا الرمز الشعار الموجود على سبيل الأمير شيخو الملحق بمسجده بالقاهرة « ١٦٤ » ، كما يشبه الرمز الموجود على قطعة من الفخار عليها رنك دائرى أصفر يتوسطه مثل هذا السهم ترجع للعصر المملوكى (*) ٠

٢ ـ الوريده Rossetta

هناك وريدة اتخذتها كما ذكرنا أسرة قلاوون رنكا لها ذات ست بتلات وقد وجدت مثل هذه الوريدة على أعلى محراب جامع ابن عثمان بالشجاعية الموجود فى صحن الجامع (صورة ١٢٦) ٠

---

(١٦٤) L.A. Mayer, J.P.O.S. Vol. 3, 1923, p. 72.

(*) توجد ضمن معروضات متحف الفن الاسلامى بالقاهرة نماذج عديدة لقطع من الفخار مطلية ببطانات ملونة برنوك مملوكية مختلفة ٠

كما أن هناك وريدة ذات ثمان بتلات أعلى البـاب الشمالى للجـامع العمرى الكبير ٠

كما عثر على فلوس نحاسية عليها وريدة ذات خمس بتلات ترجع للفترة الاسلامية المملوكية ٠

وقد ظهرت وريدات ذات خمس بتلات وست بتلات مختومة على أدوات للتدخين من الفخار « غليون » عثر على الكثير منها فى غزة (صورة ١٢٥) ٠

٣ ـ الهـــلال Crescent

وهو رمز امبراطورى وجـــد مرسوما على أحـد جانبى حجر رخامى أعلى الحائط الجنوبى لسور « الدبويا » ٠ (صورة ١٢٧) ٠

وقد ذكرنا أن هنـاك فلوسا نحاسـية اسلامية عثر عليها فى غزة يوجد فى وسط أحد وجهيها الهلال ٠ (صورة ٤٦) ٠

٤ ـ الدرع Shield

يوجد هذا الدرع وسط لوحة رخامية أعلى الباب القبلى لجامع ابن عثمان بحى الشجاعية ويتألف من ثلاث طبقات وسط دائرة تمثل جوهرتين على شكل معين فى الطبقة العليا وفى الوســـط كأس ثم كأس آخـــر فى الأســـفل ٠ (صورة ٩٧) ٠

وقد كان هـذا الرنك يحمله آقبغا الطولوتمرى ســـنة ٨٠٢ هـ وعند تأسيس هذا الجامع (١٦٥) ٠

ثالثا : الرنوك الكتابية Written Blazons

تتألف هذه الرنوك من كتابات دعائية للسلطان وقد استخدمها لأول مرة السلطان الناصر محمد فى مدة حكمه الثالثة لكى تحل محل رنكه « النسر » وتأخذ الرنوك الكتابية عادة شكلا بيضـاويا أو دائرة تقسم الى ثلاثة أقسام يكتب فى الوسط عبارة دعائية يعلوها فى الطبقة العليا اسم السلطان وفى الأسفل عبارة « عز نصره » كما جاء على الرنك الكتابى للسلطان برقوق بخـــان يونس حيث جاء فى الوسط « عز لمولانا السلطان الظاهر » وفى الجزء العلوى « برقوق » وفى الجزء السفلى « عز نصره » ٠ (صورة ٨٨ و ٨٩) ٠

---

(١٦٥) L.A. Mayer, J.P.O.S., Vol. 5, p. 68.

وكما جاء أيضا وسط بلاطة رخامية أعلى عتبة باب الجامع العمرى الكبير الشمالى حيث وضع رنك بيضاوى صغير نقش فى الوسط « أمير المؤمنين ». وفى الأعلى « العباس » وفى الجزء الأسفل « عز نصره » وترجع لبداية القرن التاسع الهجرى (صورة ١٢٨) ٠

وقد استمرت هذه الرنوك الكتابية أيام السلطان قلاوون على يد الظاهر برقوق كما بينا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى حيث كان أول السلاطين البرجية ٠ واستمر الحال هكذا حتى أواخر الفترة المملوكية (١٦٦) ٠

وهناك ٠ رنك دائرى كتابى « نقش على حجر رخامى استخدم « كدرجة » فى سلم مئذنة جامع السيد هاشم ٠ ويبدو أن الرنك يرجع للملك أبو النصر قايتباى ٠ نقل من أنقاض جامعة ٠ (صورة ١٢٩) ٠

رابعا ـ شعارات الوظائف

Signs of officess

لقد حملت هذه الشارات التى تدل على وظائف معنية أو هوايات اتخذها الموظفون لأنفسهم وقد تعددت أشكالها فمنها :

(أ) عصا البولو Polo Stick

ويدعى حاملها « الجوكندار » أى لاعب البولو ٠ وقد ظهر هذا الرنك على ضريح « قطلو خاتون » ابنه بهادر الجوكندار والتى ترجع وفاتها لسنة ٧٣٣هـ والموجود بالزاوية الأحمدية بمدينة غزة وقد حكم غزة فى هذه الفترة حسام الدين الجوكندار الذى ولاه الأمير سيف الدين تنكز فى الخامس عشر من شهر رمضان عام واحد وثلاثين وسبعمائة من الهجرة (١٦٧) ٠ (انظر صورة ٧٩)

كما ظهر هذا الشعار على بلاطة رخامية توجد على جانب المحراب المنقول من الجامع الجاولى للجامع العمرى الكبير وقد ظهرت عصا البولو وسط دائرة ٠ وترجع لأيام المنصور قلاوون الصالحي والحجر غير مكتمل ٠ (صورة رقم ١٣٠) ٠

ولقد كان بكتمور سيد البولو فى البلاط الملكى فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى (١٦٨) ٠

---

(١٦٦) عبد الغنى محمد عبد الله ـ الرنوك الفن القديم المتجدد ـ المرجع السابق ص ١١٥ ٠

(١٦٧) القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ مجلد ١٢ ص ٣٣١ ٠

(١٦٨) Lane Pool, A history of Egypt in the Middle Ages, Frank Cass, 1968, p. 302.

(ب) المقلمــــة Pen-Pox

ويحمل هذا الشعار « الداودار » أى سكرتير السلطان وقد حملها الداوادار يونس النوروزى الذى أقام « الخــان » المسمى باســمه « خان يونس » أيام السلطان برقوق ٠

وقد ظهرت هذه الشارة أعلى رنك دائرى وأسفلها كأسان ٠ (انظــر صور قلعة خان يونس) ٠

وهناك شارة « للمقلمة » ظهرت أعلى رنك يوجد على بلاطة جامع كاتب الولاية الذى سبق ذكره ٠ (انظر صور جامع كاتب الولاية ٧٤ ــ ٧٥) ٠

(جـ) السيف المعقوف Sicimiter

ظهر هذا السيف الصغير المعقوف على بلاطتين تحفان باب جامع الوزير فى قلب المدينة وقد بنى هذا الجامع فى نهاية القرن التاسع الهجرى ٨٩٢هـ والذى بناه شرف الدين عيسى بن الوزير نقش عليهما سيف معقوف يتوسط هلالين لكل منهما نجمة ٠ (صورة ١٣١) ٠

ومما هو معلوم أن السلطان برقوق اتخـذ لنفســه شــارة « الترس والنمجاة » أى خنجر مقوس يشبه السيف القصير » والذى سلمه لخصمه يلبغا عندما ثار ضده دلالة على التسليم (١٦٩) ٠

(د) الكـــأس

وقد اتخذه ساقى السلطان شارة له وقد ظهرت هذه الكؤوس فى عـدة مواقع أثرية بالمدينة فهناك أربعـة رنوك بيضاوية يحاصر كل اثنين منها رنك كتابى على واجهة خان يونس مقسم كل رنك الى ثلاثة مناطق العليا وعليهـــا المقلمة وفى الوسط كأس وفى الأسفل كأس آخر ٠ (صورة خان يونس) ٠

كما يوجد رنك آخر وسط بلاطة بجامع بن عثمان بالشجاعية عليهـــا كأسان يعلو بعضها البعض وفى اعلاهما توجد زمردتين على شكل معين كمـــا ذكرنا سابقا ٠

---

(١٦٩) د٠ ابراهيم على طرخان ــ مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة ــ الألف كتاب ــ القاهرة ١٩٦٠ ص ١٢٩ ٠

كما يوجد كأس وسط رنك دائرى بجامع كاتب الولاية تعلوه المقلمة واسفل منه زهره السوسن ٠

وقد عثر على نقود اسلامية عليها رنك الكأس ترجع للفترة الاسلامية المملوكية ٠

(هـ) الخوانجا « الدائرة » Khanga Table

ويضع هذه الشارة أو الرنك ٠ الأمير الذى يقوم باعداد الطعام والشراب ويذوقه قبل أن يتناوله السلطان خوفا من محاولة سمه أو ما الى ذلك (١٧٠) ٠

وقد عثرنا على بلاطة تحمل هذا الرنك بنيت ضمن حجارة مئذنة الجامع العمرى الكبير ٠ (صورة ١٣٢) ٠

خامسا : التمغات الرنكية ٠

سميت بالتمغات لأنها لم تتخذ شكلا حيوانيا أو طائرا كذلك لا تدل على شعارا لوظيفة ما ٠

ومن اتخذ لنفسه هذه التمغات لم يكن يعمل بوظيفة عامة ولذا فانهم استخدموا هذه العلامات القبلية شارة لمواطنهم الأصلية التى جاءوا منها سواء بالجلب أو الهجرة وهم فى الغالب أتراك قدموا من أواسط آسيا ثم هاجروا لآسيا الصغرى ومنها لبلاد الشام ومصر فى العصرين الايوبى والمملوكى أو جلبوا اليها ٠

وقد اتخذوها كشعارات أو كرموز متنوعة ليس لها فى الغالب معنى أو دلالة ٠ لذا اتفق على تسميتها بالتمغات (١٧١) ٠

ولعل السهم الذى يحف بحجر الشيخ الياس السابق الذكر N هو فى الحقيقة يمت لمثل هذه « التمغات » ٠

كذلك يحف بالحجر الرخامى الموجود على جدار مسجد ابن عثمان بالشجاعية الخارجى أربع تمغات تتوسط دائرة صغيرة ٠ (صورة ١٠١) ٠

كما ظهر بعض التمغات على دراهم فضية اسلامية مملوكية عثر عليها فى مدينة غزة ٠

---

(١٧٠) القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ المجلد الخامس ـ ص ٤٦٠ ٠

(١٧١) عبد الغنى محمد عبد الله ـ الرنوك ـ المرجع السابق ص ١١٣ ـ ١١٦ ٠

سادسا : الرنوك المركبة

لقد لاحظنا ان هناك رنوكا مركبة تضم عدة شارات ورموز داخل إطار واحد أو شكل واحد كدائرة أو شكل بيضاوى لتشير الى الوظائف العديدة التى يمارسها الأمير أو السلطان كما هو الحال فى رنك جامع كاتب الولاية الذى ضم داخل دائرة مكونة من ثلاث طبقات : العليا تمثل مقلمة للداوادار وفى الوسط كأس للساقى وفى الأسفل زهرة السوسن .

كذلك الحال بالنسبة للرنك المركب الخاص بجامع ابن عثمان بالشجاعية والذى تحدثنا عنه تحت عنوان « الدروع » .

وكذلك الحال بالنسبة للرنك المركب الموجود على واجهة خان يونس الذى يتألف من ثلاث طبقات العليا للمقلمة والوسطى تمثل كأسا والسفلى لكأس أيضا .

وهناك بلاطتان تحفان قوس باب جامع الوزير عليهما شارات مركبة كلتاهما عبارة عن بلاطة مربعة الشكل تقريبا عليها سيف قصير معقوف « النمجاة » يتوسط هلالين بداخل كل واحد منهما نجمة .

ومن خلال دراستنا للمساجد والزوايا لمدينة غزة لاحظنا أن هناك شعارا يعلو شواهد أضرحة مميزة قد دفنت فى مساجد أو زوايا أو مقابر ملحقة بمدارس قديمة وأخرى وجد الشاهد فقط منقولا ومحتفظا به فى الجامع العمرى الكبير لأهمية الفقيد ومكانته . ويتألف هذا الشعار ــ وكما هو واضح من الصور ــ من قاعدتين عليهما شعلتان يتوسطهما ما يشبه القنديل المضىء أو السراج .

ويبدو من خلال دراسة النقوش المكتوبة على هذه الشواهد أن هذا الشعار كان للشهداء فقط من رجال العلم والدين أو لأولئك الذين استشهدوا فى سبيل الله .

فقد نقش هذا الشعار أعلى شاهد ضريح قاضى القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد الأغبر الغزى الشافعى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ومدفون شرق الجامع العمرى الكبير فى مكتبة الظاهر بيبرس قديما والمدرسة الحسنية فيما بعد .

كما علا هذا الشعار أيضا شاهد ضريح محمد العجمى المدفون بالمسجد المسمى بأسمه بحى الزيتون والذى ــ لقب كما جاء على الشاهد ــ بالقائد الورع ولم يذكر تاريخ وفاته عليه .

كذلك كلل هذا الشعار شاهد ضريح الشهيد الشاب محمد بن المرحوم الحاج درويش الذى انتقل لرحمة ربه سنة ٨٢٢هـ ومدفون بجامع المحكمة البردبكية بالشجاعية .

هذا بالاضافة لشاهد ضريح ينى أعلى باب احدى غرف زاوية أبو مدين الغوث يعلوه هذا الشعار ويرجع لعلاء الدين الرجاجي المتوفي سنة ٩٣٩ هـ أى فى بداية الحكم العثمانى وقد عثرنا على شاهد لضريح موجود بالجامع العمرى الكبير عليه هذا الشعار يعود للمرحوم ابراهيم الدنرنواسى المتوفى سنة ٧٠٨هـ . ولا ندرى من أى الأماكن قد نقل .

كما تم العثور على شاهد لضريح أبى عبد الله بن أبى عبيد المتوفى سنة ٧٩٢هـ فى مقبرة « بنى بيس » القديمة والمندثرة الآن والتى كانت تقع ملاصقة لسفح مدينة غزة الشرقى (بجوار مدرسة هاشم الاعدادية الآن) يعلوه هذا الشعار ، وقد انفرد هذا الشاهد بتمغه على هيئة قلب حفر بداخله صورة ما يشبه القط ربما كانت ترمز لناقش الشاهد وكاتبه . عند نهاية الحجر السفلية . (أنظر صور ١٣٣) .

وقد علا هذا الشعار أيضا شاهد ضريح الشيخ أحمد طقماج المتوفى سنة ٧٤٣ هـ والمدفون بجامعه المندثر كما عثر على شاهد لضريح يعنونه هذا الشعار فى مقبرة « التونيسى » بالشجاعية توفى صاحبه سنة ٧٩٣ هـ ويبدو انه كان رجلا عسكريا .

ويكلل هذا الشعار ضريح لأحد أولياء الله بمسجد « المغازين » بالشجاعية الجديدة .

يتضح لنا أن هذا الشعار الذى لم نقرأ عنه من قبل كما لم يات ذكره من قبل الرحالة والدارسين قد استمر ردحا من الزمن لا ندرى بدايتها الا وفقا لما شاهدناه على الشواهد التى عثرنا عليها وقدمها العائد لسنة ٤٠٦ هجرية مستمرا طيلة الفترة المملوكية وعلى مدى القرنين الثامن والتاسع الهجريين وفى بداية الفترة العثمانية . متمنين أن نعرف عنه الكثير مستقبلا .

الفصل الرابع عشر

الفترة العثمانية

- الغزيون يحرقون مخيمات العثمانيين ·
- سنجق غزة يظل قوة مركزية للأطراف ·
- اضمحلال قرى غزة الجنوبية ·
- تمرد أغاوات خان يونس ·



وقع العالم العربى بسرعة فائقة تحت سيطرة العثمانيين ، ولعل ما أوردناه من أسباب سياسية واقتصادية وكوارث طبيعية ما مهد لهذا الغزو السريع على الأمة العربية التى ـ منذ قرنين فقط ـ حطمت المد الصليبى ودمرت الموجة المغولية البربرية .

اندفع العثمانيون بقوة استمدوها بعد ما ملكوا البلقان وموارده منذ قرنين من الزمان ساعدهم أنهم تقدموا بمسوح الدين الاسلامى فى عصر الدين لا القومية .

واذا كان هناك من يدعى بأن الاستعمار هو سيطرة الحضارة الراقية على الحضارة المتخلفة فان للأتراك وضعا مقلوبا ، ولهذا ستأتى النتائج والانجازات عقيمة فى مجالات كثيرة بدليل ما سوف نراه ونقارنه بين ما خلفه المماليك والعثمانيون رغما عن قدم الأولى وقصر مدتها زمانا وحداثة الثانية وقدم زمان سيطرتها (أربعة قرون) من آثار ثقافية وعمرانية فى هذه الشريحة العربية الفلسطينية « غزة » .

ولعل لموقع غزة الاستراتيجى الحساس ـ كدهليز ـ وآخر مجمع سكانى ـ ومركز تمويل نهائى للتوجه عبر الصحراء نحو مصر ما بينه وأوضحه . ابن اياس ـ فى بدائع زهوره ـ عندما عكس ذلك فى حالة الذعر والبلبلة والدعايات النفسية والحشود وما لازمها من تمرد قبل وأثناء استيلاء العثمانيين على غزة ليبرز اهتزاز السلطة المملوكية .

ففى مدينة غزة كان « دولات باى الأعمش » آخر الولاة المماليك يترقب قدوم الجيش العثمانى بعد تلقيه نبأ هزيمة سلطانه « قنصوى الغورى » فى « مرج دابق » ينتظره بجبهة داخلية يرثى لها معنويا خاصة لو علمنا أنه يتهم قادة جيشه بالاتصال بالعثمانيين وهو على أشد الخلاف معهم لتشبث براءتهم أمام السلطان (١) .

ولعبت الحرب النفسية بدعاياتها المغرضة دورها عندما ذهب « الداودار نائب غزة « على باى الأحدب » لمصر يخبر السلطان « بأن الوخم انتشر فى عسكر السلطان العثمانى فصار يموت منهم كل يوم جماعة وعزت عليهم الاتاوات

(١) ابن اياس ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ تحقيق محمد مصطفى ـ الطبعة الثانية ـ الجزء الخامس ـ القاهرة ـ ١٩٦١ ص ١١٩ .

من الغلال والعلف ، وضيق عليهم العربان ٠٠ وكل من خرج من عسكره يموت ، وهم فى غاية الحصر » (٢) ٠

ليكتشف السلطان بعد ذلك بأيام بأنها فرية كاذبة ٠ هذا فى مصر ٠

وفى غزة أشيع بأن الجيش العثمانى بقيادة سنان باشا قد هزم هزيمة نكراء على يد القائد المملوكى « جان بردى الغزالى » « والوالى والعثمانى فيما بعد » نحو مخيمات عساكر العثمانيين الذين استولوا على المدينة قبل مدة وجيزة فنهبوا أمتعتهم وأحرقوا خيامهم وقتلوا منهم من قتلوا حتى بلغت ضحاياهم نحو أربعمائة نسمة » (٣) حتى اذا ما عاد القائد العثمانى سنان باشا منتصرا — عكس ما أشيع — قام بجمع سكان مدينـة غزة وأمر جنـده بأن « يعملوا فيهم بالسيف فقتلوا ما لا يحصى عدده وراح فيهم الصالح بالطالح » (٤) فأوقع هذا الحدث الرعب فى نفوس الناس والعربان ٠

بذلت القيادة المملوكية فى مصر بقيادة طومان باى فى شوال سنة ٩٢٢ هـ مجهودات مضنية لحشد وحث من جردوهم للقتال لمواجهة العثمانيين ، فقد تمرد الجنود على السلطان عندما دفع لكل منهم خمسين دينارا فردوها عليه رافضين محتجين « وخرجوا من باب الحوش على حمية وقصدوا ينشئون الفتنة » مما دفع بعض الأمراء للتدخل وارضائهم بعد مزايدات حتى « منحوهم مائة وعشرون دينارا على جارى العادة » (٥) ؟ !!

وبالتالى فقد رفض الجند المغاربة أمام سلطانهم أيضـا القتال تحدوهم جلالة الاسلام وليس طمعا فى الدنانير قائلين « لا نقاتل المسلمين بل نقاتل الافرنج » ٠

هـذه هى الفرق العسكرية — وبهذه الروح المعنوية — تقدمت كدفعـة احتياطية لمشاغلة العدو العثمانى المرابط فى غزة ٠

فمن الطبيعى والحالة هذه أن تتقدم الجيوش العثمانية بسهولة لتستولى على غزة ويرسل منها السلطان سليم الأول كتابا ينذر طومان باى بالاستسلام مقابل « أن يضرب النقود باسمه وكذلك الخطبة ويكون نائبا له فى مصر ومعها مدينة غزة » ٠ فرفض طومان هذا العرض لتتقدم الجيوش العثمانيـة جنوبا فتستولى على آخر قاعدة عسكرية مملوكية فى فلسطين فى « خان يونس » يوم ٢٨ كانون أول ٩٢٢ هـ كما أفاد القائد سنان باشا العثمانى سلطانه

---

(٢) ابن اياس — بدائع الزهور — المرجع السابق ص ١١٢ ٠

(٣) ابن اياس — بدائع الزهور — المرجع السابق ص ١٣٢ ٠

(٤) ابن اياس — بدائع الزهور — المرجع السابق ص ١٣٢ ٠

(٥) ابن اياس — بدائع الزهور — المرجع السابق ص ١١٦ ٠

سليم الأول بذلك فى هذا اليوم (٦) ولتواصل القوات العثمانية زحفها لتدخل مصر بعد موقعة « الريدانية » الفاصلة سنة ١٥١٧ م لتصبح مصر والشـــام تحت السيطرة العثمانية ٠

بدأت بعدها تعيش الدولة العثمانية فى أبهى أيامها عظمة فاستتب الأمن فى ربوع فلسطين حتى أواخر القرن السادس عشر تقريبا حيث تميزت فى عهد السلطان سليمان القانونى بأسلوب مارست فيه سلطتها ونظام ادارتها بشكل يمكن اختزاله بأنها دولة اقطاعية ــ عسكرية ــ دينية ٠

ووفقا لما جاء فى دفاتر التحرير العثمانية لعـــام ١٥٢٧ ميلادية قسمت فلسطين الى ثلاثة الوية هى لواء القدس وغزة ثم لواء نابلس وصفد وأخيرا لواء السلط وعجلون (٧) ٠ (خريطة ٢٣) ٠ وكل لواء يتكون من سناجق ليمثل كل سنجق وحدة اقتصادية ــ سياسية ــ وقضائية مستقلة وليضم سنجق غزة ثلاثة أقاليم هى غزة والرملة واللد حتى شمال مدينة يافا قامت الدولة العثمانية بعدها بتوزيع الأراضى على القادة العسكريين وفقا لمكانتهم ورتبهم العسكرية ، « لكى يمارس تحصيل الضرائب على المساحة المخصصة له بما فيها من مدن وقرى ومزارع مقابل تقديم عدد من الخيالة من أبناء سنجقه للقتال عند داعى النفير وذلك بنسبة فارس أو مقاتل واحد لكل « خمسة آلاف آقجه » ٠

وعليه قسمت السناجق تقسيما اقطاعيا عسكريا الى ثلاثة أنواع وفقا لعائدها :

١ ــ المقاطعات الصغيرة : وهى تلك التى لا يزيد واردها الضريبى عن ٢٠٫٠٠٠ آقجه ويطلق عليها اسم « تيمار » ٠

٢ ــ المقاطعات المتوسطة : والتى يصل واردها الضريبى ما بين ٢٠٫٠٠٠ ــ ١٠٠٫٠٠٠ آقجه وتسمى « زعامت » ٠

٣ ــ المقاطعات الكبيرة : والتى لا يزيد دخلها الضريبى على ١٠٠٫٠٠٠ آقجة وتسمى « خاص » (٨) ٠

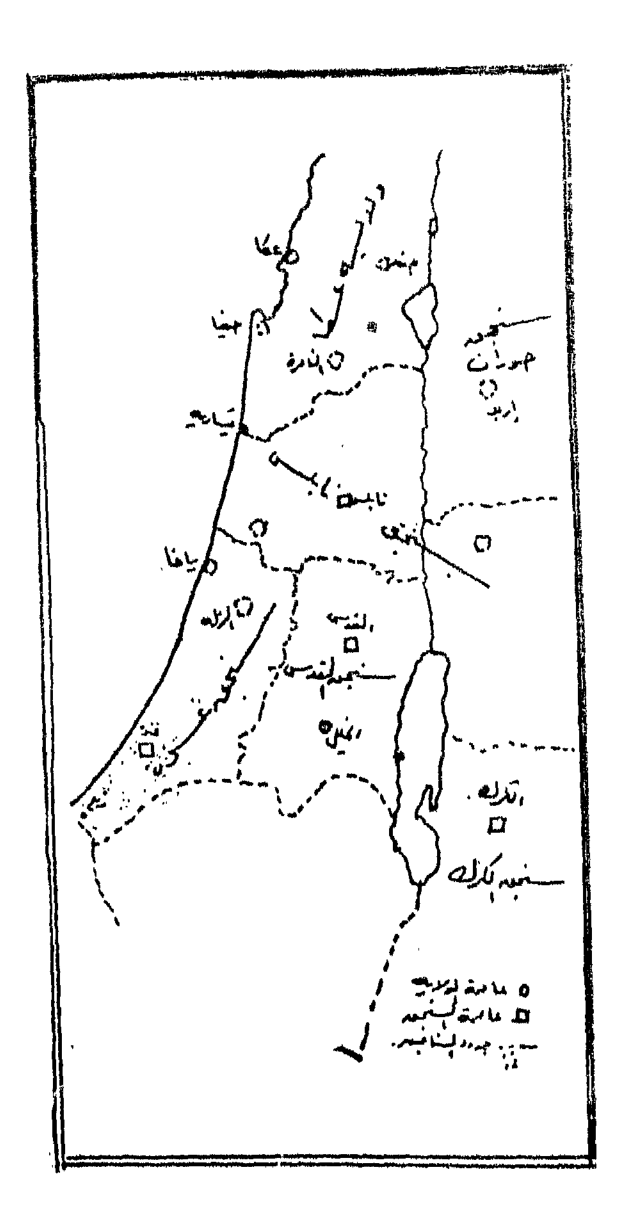
لا يمكننا القول بعدئذ بأن التقسيمات الادارية العثمانية هى ادارية مدنية محضة بل يغلفها ويسيطر عليها الطابع العسكرى خاصة لو علمنا أن « الأيالات »

---

(٦) ابن اياس ــ المرجع السابق ص ١٣٥ ٠

(٧) محمد ابشرلى ومحمد التميمى أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ــ ص ح ٠

(٨) ساطع الحصرى ــ البلاد العربية والدولة العثمانية ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٦٥ ص ٣٠ ٠



خريطة (٢٣)

التقسيمات الادارية فى الفترة العثمانية (القرن ١٧ م)

التى تقسم سناجق تتألف بدورها من « تيمارات وزعامتات » يدير شئون « الأيالة » باشا يطلق عليه « بكلربكى » برتبة أمير لواء ٠

أما السنجق فيخضع لأمره « بك » (سنجق بكى) برتبة « ميرالو » والسنجق بك هـذا هو الآمر الناهى والمرجع لجميع التيمارات والزعامتـات المشمولة لسنجقه ومنه يطلب تجهيز الفرسان من أهل المنطقة وحشدهم عند الحاجة العسكرية لهم ٠ وبالتالى كان الباشا والبك يجمع كل منهما السلطتين المدنية والعسكرية كوال وقائد عسكرى للجيش فى وقت واحد ٠

أما العشائر البدوية القاطنة على هوامش المدن والقرى فقد خرجت عن هذه الترتيبات الادارية العسكرية لتتبع مباشرة شيوخها ورؤساء عشيرتها تحكمها التقاليد والأعراف المتعارف عليها فيما بينهم (٩) ٠

وقد جاء أول وصف للساحل الفلسطينى فى الفترة العثمانية على لسان Piri Kea's فى كتابه « كتاب بحرى » أنهى كتابته سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م)٠ أى بعد احتلال العثمانيين بست سنوات ضمنه خريطتين وصف فيهما الساحل وهو مبحر من العريش حتى الكرمل (١٠) (خريطـة ٢٤) ٠ وصـفا مقتضبا وواصفا بها غزة كما رآها من البحر بأنها صغيرة تحيط بها الأشجار وكروم الأعناب من جميع الجهات يظهر فى وسطها مئذنة جامع ويبدو أن الشاطىء كان مأهولا بالسكان لما رآه من آبار عامرة ٠ وبدت المدينة كما رسمها على الخريطة قلعة عامرة تميزت عن بقية مدن الساحل التى أصاب معظمها الخراب ٠

حكم مدينة غزة وسنجقها بعد « جان بردى الغزالى » الأمير مصطفى باشا ابن عبد المعين الذى ولى نيابتها سنة ٩٣٠ هـ « ١٥٢٤ م » ويبدو أن السلطان العثمانى سليم الأول قد منح ولاية غزة بالوراثة لأبناء هذا الرجل جد أسرة « آل رضوان » فيما بعد والتى استمر حكمها تباعا لما بعد النصف الثانى من القرن السابع عشر تقريبا بقليل ٠

ومن آثار هذا الرجل فى غزة « خان الكتان » الذى بناه غرب الجامع العمرى الكبير مباشرة وقد جرى وقفه لصالح الجامع ومكتوبا على باب الخان « هذا وقف مولانا المرحوم مصطفى باشا فى ذى الحجة سنة ٩٦٢ هـ « ١٥٥٦ م » (١١) ٠

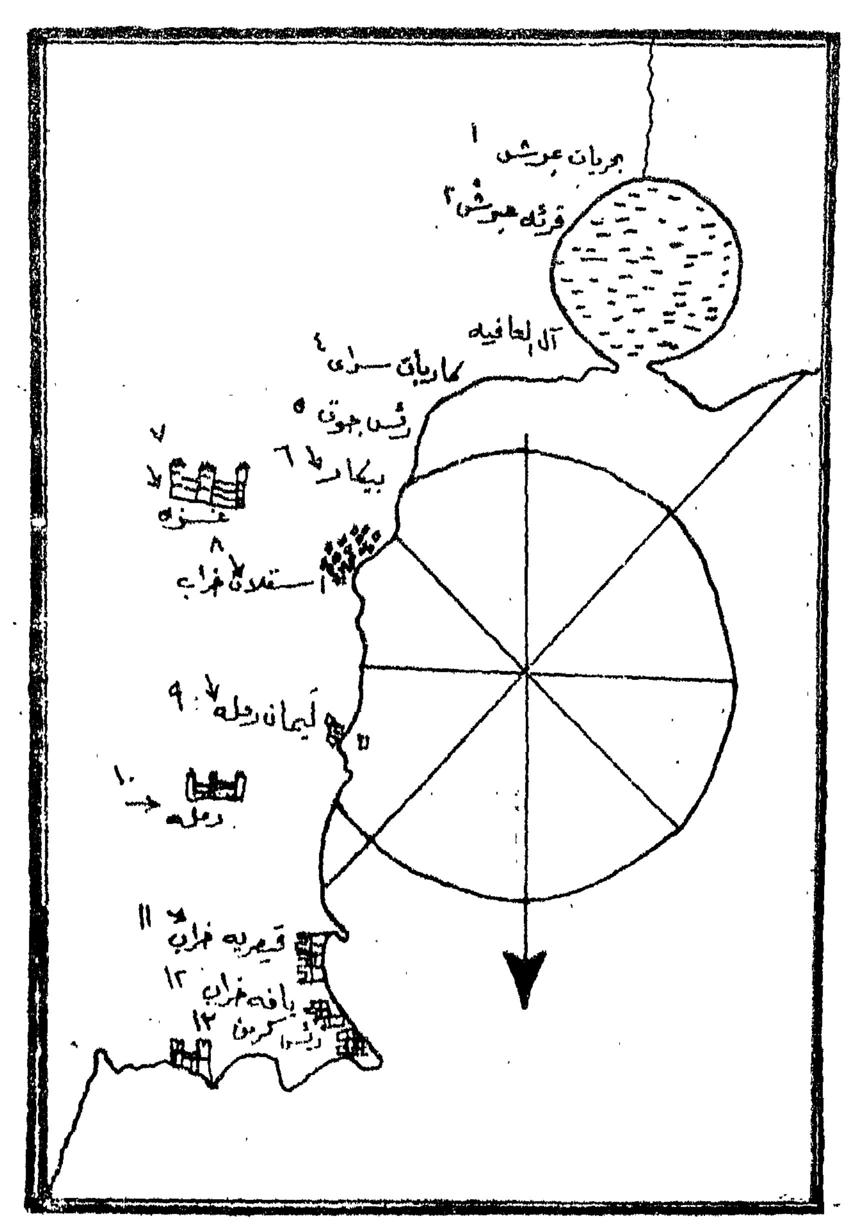
وبالاضافة لاهتمامات هذا الرجل الاقتصادية فقد كانت له مهامه العسكرية والأمنية التى توضحها هذه الوثيقة : —

---

(٩) ساطع الحصرى — المرجع السابق ص ٣٤ ٠

(١٠) I.E.J. Vol VI, 1956, pp. 207

(١١) الشيخ عثمان الطباع — اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة — ج ٢ — المرجع السـابق ص ٣١٧ ٠



خريطة (٢٤)

خريطة الساحل الفلسطيني سنة ١٥٢١م « عن خريطة بيرى ريس » ـ الطبعة التركية
S.E. J. Vol. VI 1956

١ ـ بحيرة العريش   ٢ ـ قرية العريش

٣ ـ آل العبافية اسم قبيلة بدوية « بنو العافية وربما هى تحريف لاسم رافيا « رفح » ٠

٤ ـ كاربات سراى Gayvan Seyai اى سرايا القافلة التى هى « خان يونس » ٠

٥ ـ رئس جوت اى راس المرقب التى ربما هى « دير البلح » ٠

٦ ـ بيكار ٠٠ قبر على شاطىء غزة الجنوبى الذى ربما هو فى « الشيخ عجلين » ٠

٧ ـ غزة : وقد بانت فى رسمها على هيئة قلعة كبيرة عامرة ٠

٨ ـ عسقلان اسقلان وقد ظهرت خرابا ٠

أمر الى دفتردار « مدير المال » ولاية العرب (١٢) ٠

مؤرخ ٢١ رجب ٩٥٩ هـ الموافق ١٣ يولية ١٥٥٢ م ٠

« لقد أرسل لنا مصطفى حاكم سنجق غزة خطابا يوضح فيه بأن قلعة جبرين تخلو من المؤن والعتاد وانها فى حاجة الى ثلاثة قناطير من مسحوق البارود الأسود وقنطارين رصـــاص وخمس مدافع خفيفة ومائة بندقية وثلاثة مدافع ثقيلة وكمية كافية من الحبوب) ٠

أوجه هذا الأمر اليك لتعد هذه اللوازم للقلعة المذكورة ٠

ورغما عما يقال بأن هذا القرن (السادس عشر) قد شهد نوعا من الاستقرار الا انه يجب عدم المبالغة فى هذا الصدد سواء من الوجهة الادارية أو العسكرية وحتى الاقتصادية تفصح عن ذلك بعض الوثائق العثمانية لو درسناها فها هى احداها الموجهة الى أحمد بك رضوان حاكم غزة مؤرخه فى يولية سنة ١٥٧٩ م جاء فيها :

« عندما تم بنــاء قلعة رأس العين وضـــع فيها مائة خيال وثلاثين جنديا للعمل فيها وقد خصص اجورا لهم جميعا ، غير انه لا يوجد الآن ســوى ثلاثين محاربا فقط » ولما كانت هذه القلعة تشغل موقعا هاما بين سناجق غزة والقدس ونابلس وتقدم خدماتها لهم جميعا لذا أصبح من المتعذر تأدية واجبها بهـــذا العدد الضئيل ٠

وبناء على اقتراح تقدم به حاكم غزة فان القلعة المذكورة تضم الى سنجق غزة ويوضع بها جنود بدل الفارين الذى أبدى قائدهم خيانة بهربه معهم ٠

لذا فقد أشار بالاستعاضة عنه بصاحب « تيمار » يعرف المنطقة جيدا ويضبط أمورها بعد أن يقوم حاكم غزة بتجهيز اللازم ويقدم كشــفا بالجنود المكلفين فيها ليرسل دفتردار دمشق المبالغ اللازمة لدفع رواتبهم » (١٣) ٠

يتضح من هذه الوثيقة هروب أكثر من ثلثى رجال الحامية مع قائدهم المدعو « مصطفى » مما يعكس ظروفا قاسية سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو حتى نفسية عسكرية ٠ كما تبرز مركزية الأحوال المادية بدمشق وكيف يمكن ارسال رواتب الجند منها وكيفية اختيار صاحب « تيمار » ليأخذ مكانه القائد العسكرى للحامية « أى اختيار أى رجل اقطاعى له مساحة من الأرض ليقوم بهذه المهمة » ٠

---

(١٢) Uriel Heyed, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615,, Clarenden Press, Oxford, p. 1960.

(١٣) Uriel Hayed, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615, Ibid.

وربما تفصح الوثيقة التالية وتفسر تردى الأحوال الاقتصادية وسوء المواصلات فى مدينة غزة « عقدة المواصلات » فى العصر المملوكى السابق مؤرخة فى نوفمبر سنة ١٥٧٥ م (٦ شعبان سنة ٩٨٣ هـ) • كما توضح بعض الملامح الديمغرافية للمدينة الى حد ما • وهذه الوثيقة موجهة الى حاكم غزة وقاضيها جاء فيها : —

« لقد أرسلت يا قاضى غزة خطابا تقول فيه أن أشخاصا موثوقين تقدموا الى محكمتك وقرروا أن غزة رغم وقوعها على الطريق الرئيسى بين دمشق ومصر تخلو من خيل البريد فيها مما ضايق السكان الذين يطلبون تخصيص ثلاثة خيول كما هو متبع فى مناطق أخرى ، لهذا تقرر بأن يرابط فى غزة ثلاثة خيول للبريد وكل خمسة عشر رب بيت فى غزة يقدمون علفا لحصان واحد وبهذا يكون لديكم علف لخمسة وأربعين حصانا ، والمهم أن تحافظوا على خيل البريد لتظل قوية وسليمة فلا تستخدموها لأغراض أخرى لئلا تهزل » (١٤) •

وثيقة تفصح عن تردى المواصلات مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى بشكل مهين أصبحت فيه الدولة العثمانية ممثلة فى حاكمها من آل رضوان غير قادرة حتى على تقديم علف لثلاثة خيول وهذا ان دل على شىء فانما يدل على اهتراء الأحوال الادارية وسوء المواصلات أكثر منه لظروف اقتصادية فى مدينة كانت منذ أقل من قرن خلى قد امتلأت بمراكز البريد فى العصر المملوكى « رفح — السلقا — الداروم — غزة — وبيت حانون » •

وتضفى هذه الوثيقة على دلالة ديمغرافية خاصة بعدد السكان فى مدينة غزة خاصة عندما جاء فيها بأن كل خمسة عشر رب بيت عليهم ان يقدموا علفا لحصان فيكون لدى الحاكم علفا لخمسة وأربعين حصانا وهذا يعنى أن فى غزة ٦٧٥ أسرة تقريبا أو ما يقارب من ٣٣٧٥ نسمة (على افتراض ان متوسط حجم الأسرة خمسة أشخاص) • وربما يكون هذا الرقم معقولا لو عرفنا أن عدد سكان فلسطين فى الخمسين سنة الأولى من القرن السادس عشر بلغت ٣٠٠,٠٠٠ نسمة يعيش ٢٠٪ من السكان فى خمس مدن هى غزة والقدس والخليل والرملة ونابلس وصفد (١٥) وتعكس الوثيقة فساد الأحوال الاقتصادية والأعباء الملقاة على عاتق السكان من تقديم الأعلاف للحيوانات بالاضافة الى ما يدفعونه من ضرائب وأعشار متنوعة كما توحى التوصيات بعدم استخدام الخيول للأغراض الأخرى — على حد تعبير الوثيقة — وبالعبث من قبل الولاة فى استخدام أموال

---

(١٤) Uriel Hayed, Ibid, pp.

(١٥) The History until 1880, Israel Pocket library Jerusalem 1973, pp. 215-216.

الشعب وتبديدها كعملية نهب داخلي للسكان ورد فعل للحروب التى تقوم بها الدولة العثمانية فى الخارج ٠

ولعل الوثيقة الرابعة تدلل على الخراب الذى أصاب القرى الجنوبية لمدينة غزة حتى كادت منطقة عازلة بعد أن لعبت « خان يونس » نقطة امداد وانطلاق للمسافرين ٠

فقد جاء فى سطورها الموجهة الى حاكم غزة أحمد بك عند نهاية هذا القرن ما يلى : ـ

« ان جزءا من طريق دمشق ـ القاهرة الواقع بين غزة وقطيا والذى يتحمل السفر فيه ما بين ستة وسبعة أيام يقع فى الصحراء الخالية من السكان ـ عدا منطقة العريش ـ مما سهل على أشرار البدو مضايقة المسافرين لدى مرورهم فى هذا الطريق وخاصة قرب أنقاض « خان يونس » ٠ وحتى يمكن تأمين مرور المسافرين فى ظل حماية دولتنا العلية ورغم ما نتحمله من تكاليف كثيرة فانى أصدرت الأوامر لاعادة الخان المذكور ليكون قلعه حصينة كما أمرت « على باشا » حاكم ولاية مصر بأن يضع فى هذه القلعة مائة خيال من مصر تدفع أجورهم من الاقطاعيات التابعة له كما هى الحال فى حامية العريش ، وبناء على ذلك أعيدت هذه القلعة ووضع فيها أربعون فارسا وعشرون جنديا من المشاه ولكن كثرة عدد البدو وموقع هذه القلعة المنعزل يجعل هذه الأعداد قليلة لهذا أصدرت الأوامر لباشا مصر المذكور أن يرسل أربعين فارسا آخرين من مصر لتصبح الحامية مائة رجل كما هو مقرر » (١٦) ٠

هكذا يبدو بأنه لم يعد هناك مناطق استقرار بشرية تذكر جنوب غزة حتى « قطيا » باستثناء العريش تماما كما جاء فى خريطة « بيرى ريس » سنة ١٥٢١ فقد أحالت الحرب العثمانية هذه القرى الى مناطق شبه خربة ـ دير البلح ـ السلقا ـ خان يونس ـ رفح ـ التى ربما ابتعد سكانها شرقا ـ فقد تحولت « مدينة خان يونس » الى « أنقاض خان يونس » وانها أصبحت كما جاء فى الوثيقة فى « موقع منعزل » ٠ فى حين وصفت أعداد البدو بأنهم كثيرون مما دفعه لمضاعفة القوة المتمركزة فى قلعة الخان التى أمر باعادة تحصينها والحاقها الى حاكم مصر « على باشا » ٠ تأكيدا على عدم قدره حاكم غزة على تحصينها ولم تعد لديه الامكانات المادية والعسكرية بعد أن ضم قلعة رأس العين التى بها نفس الطاقة العسكرية وكذا « قلعة بيت جبرين » التى يعوزها المدد كما أوضحنا ٠

وقد استمرت مدينة غزة تحكمها أسرة واحدة من المماليك الفقاريين مثل

(١٦) Uriel Heyed, Ibid,

[آل رضوان وآل بهرام وكيوان وفروخ] وهى آل رضوان الذين صاروا حكاما لعديد من السناجق والمدن الفلسطينية طيلة القرن السادس عشر الميلادى ·

فتولى الأمير بهرام بك « نيابة غزة بعد وفاة والده مصطفى السابق الذكر والذى قام بترميم « الدبويا » والساقية التى كانت لحمام القلعة وسبق أن أوقفها المنصور قلاوون على الرباط المنصورى فى وسط المدينة ثم جعل فيها « سبيلا » جاء على احدى حجارته « بناه أعدل الحكام بهرام بك » وذلك فى سنة ٩٧٦ هـ « ١٥٦٩ م » ·

وقد تولى هذا الأمير امارة « الركب الشامى » وكذلك تولى أخوه الأمير رضوان الفقارى امارة الركب المصرى ليجعلا من مدينة غزة مركزا للركبين نحو مكة (١٨) ·

ولو نظرنا للخريطة العمرانية لمدينة غزة فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى نجد بأنه لا يوجد تطور عمرانى يذكر قد طرأ على المدينة باستثناء بعض الترميمات لبعض مؤسساتها التى كانت منذ الفترة المملوكية ·

فقد تم تجديد « مسجد الشيخ خالد » سنة ٩٥٥ هـ (١٥٥٠ م) عند حدود المدينة الغربى فقد جدده ناظره الشيخ شهاب الدين أحمد بن ابراهيم المقدسى الانصارى فى أوائل جمادى الأول سنة خمس وخمسين وتسعمائة » ·

كما تم بناء « مسجد الست رقيه » بحى الشجاعية ورقية يقال انها كانت زوجه لأحد حكام غزة قبل الألف الهجرى وربما كانت بنت أحمد التى وجد قبرها بجامع على بن مروان بتاريخ سنة ٩٦٧ هـ · ولا يوجد على المسجد أية كتابة تشير لبانيه وقد عثر أسفله عند الحفر على بقايا بلاطة أثرية عليها بضع كلمات · (صورة ١٣٤) ·

كما أعيد بناء جامع « مكاتب الولاية » التى سبق ذكره على يد أحمد بك كاتب الولاية فى أوائل ذو القعدة سنة ٩٩٥ هـ (١٥٩٠ م) ·

كما تم بناء بعض المساجد الصغيرة مثل · مسجد الهواشى (*) بحى الشجاعية ومسجد الشيخ فرج بحى الدرج فى أواخر هذا القرن (١٩) ·

كما بنيت « زاوية أبو مدين الغوث » فى قلب مدينة غزة القديمة وليس هناك ما يدل على سنة بنايتها سوى ضريح يوجد بها لأحد رجال الدين ترجع

---

(١٧) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٣١٧ ·
(١٨) احسان النمر ـ تاريخ نابلس والبلقاء ـ نابلس ١٩٦١ الجزء الأول ص ٧٥ ـ ٧٦
(*) نسبة الى قبيلة الهواشة من الحجاز نزلت فى النقيبة وقبيب ·
(١٩) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ القدس ـ ١٩٤٣ ص ٣٤٧ ·

سنة وفاته لعام ٩٣٧ هـ نقش عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى علاء الدين الرجاجى توفى فى خامس عشر من شهر ربيع ثانى فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة » . ويعلو هذا النقش رنك أو شعار سبق أن تحدثنا عنه (صورة ١٣٥) .

وقد أبانت الدفاتر العثمانية عن وجود « زاوية الشيخ نبهان » فى مدينة غزة والتى أوقف لصالحها بعض الأراضى سنة ٩٥٢ هـ (٢٠) وهذا الزاوية قديمة ترجع لأواخر القرن السابع الهجرى وبها ضريح الشيخ نبهان المتوفى سنة ٦٨٤ هـ .

هكذا ومع دوام الوجود العثمانى لاقل قليل من قرن كثيرا ما وصفه الكتاب والمؤرخون بأنه قرن الاستقرار والهدوء الا أن غزة لم تحظ الا بالنزر اليسير من العمران فى حين نجد قرى الجنوب مثل « خان يونس » قد دب فيها الخراب ولم نسمع شيئا عن « دير البلح » أو رفح بأكثر من أراض فيها بعض المزروعات من خلال الدفاتر العثمانية طيلة القرن السادس عشر الميلادى الموقوفة .

ومرد ذلك انشغال الدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليم الأول المتوفى سنة ١٥٢٠ م وسليمان القانونى بالحروب فى منطقة البحر الأحمر والخليج العربى وهزيمة أسطولهم هناك ، وما لاقته وجابهته بعد ذلك أيام السلطان سليم الثانى الذى تولى الحكم سنة ١٥٦٦ م ومن بعده مراد الثالث المتوفى سنة ١٥٩٦ م (٢١) من حروب طاحنة فى شمال افريقيا وأوربا أفقد الدولة معها التركيز على الحكم والسيطرة الادارية والعسكرية على الولايات كما لاحظنا من خلال وثائق هذا القرن مما أتاح الفرصة للولاة العسكريين الابتزاز عن طريق جمع الضرائب والرسوم الباهظة لتعويض ما تنفقه الدولة العثمانية من جراء حروبها المتواصلة فى آسيا وأوربا وأفريقيا .

ولعل الدفتر العثمانى لسنة ١٥٩٦ م خير ما يحمل الحياة الاقتصادية والديمغرافية فى أواخر عهد مراد الثالث وحتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، والمتضمن مجموع الضرائب بأنواعها المختلفة التى أخذت من جميع أسواق المدن الفلسطينية الهامة وكذا قراها ومزارعها . مبينا مكانة غزة التى احتلت بأسواقها المكانة الأولى ، فقد بلغ ما أخذ منها مائة وخمسين ألف آقجه تقريبا فى حين بلغت قيمة ما أخذ من المدن الأخرى كالقدس ونابلس وصفه ما قيمته خمس وسبعون ألف آقجه لكل مدينة ولم تنافس غزة أية مدينة ساحلية تذكر كالمجدل وعكا بحيث لم يزد ما جبى من كل منهما عن ثمانية آلاف « آقجه »

(٢٠) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ١٥ .

(٢١) محمد فريد بك المحامى ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ بيروت ١٩٧٧ ص ٩٧ ـ ١١٧ .

(خريطة ٢٥) وقد كانت تؤخذ الضرائب بوجه عام فى هذه السنة وفقا لما جاء فى ــ الدفتر العثمانى ــ على القمح والشعير والكروم والزيتون وأشجار الفاكهة والثروات الحيوانية والنحل والمحاصيل الصيفية مضافا لها ضريبة « الهــوا والعروس » (★) ٠

ولقد استمدت غزة أهميتها هذه من موقعها الجغرافى الهام كأول محطة بين مصر والشــام بالاضــــافة لما تضمنه سنجقها من مجمــوعة كبيرة من القرى والمقاطعات (زعامتات وتيمارات) اذا ما قورن بتبعية السناجق الفلسطينية كما يتضح من الجدول التالى (٢٣) :

السنجق	زعامتات	تيمار	المجموع
سنجق القدس	٩	١٦١	١٧٠
« غزة	٧	١٠٥	١١٢
« عجلون	٤	٦١	٠٦٥
« نابلس	٧	٤٧	٠٥٤
« اللجون « جنين »	٩	٣٩	٠٤٨
المجموع	٣٦	٤١٣	٤٤٩

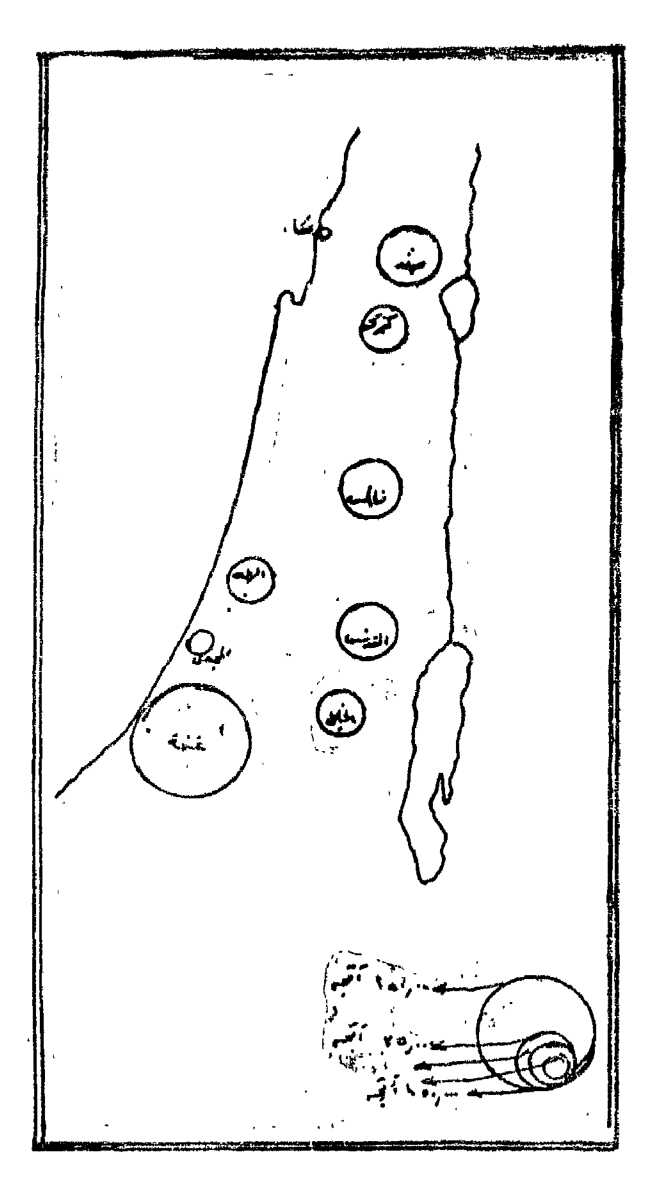
هذه السناجق جميعا تتبع اداريا ولاية دمشق مباشرة ، وقد يأتى سنجق غزة فى المرتبة الثانية بعد القدس فى عدد اقطاعاته ليضم مساحة تغطى المنطقة السهلية الواقعة من قيسارية شــمالا حتى خان يونس جنوبا والتى كثيرا ما كانت تذكر على أنها نهاية المعمور على الساحــل الفلســطينى الجنوبى ٠ أما حدوده الشرقية فلم تكن واضحة الا أنها لم تتعد السفوح الغربية لهضبة الخليل ٠ محتلا بالتالى الأراضى الفسيحة والخصبة من السهل الساحلى الجنوبى ومستأثرا بأقل قليلا من خمس [زعامتات] فلسطين ٤ر١٩٪ وأكثر قليلا من ربع « ٤ر٢٥٪ » التيمارات كلها ٠

هذه المصادر الزراعية لتلك المساحات مضافا لها موقع مدينة غزة كسوق زراعى وصناعى هام مكنها من أن تصبح مركزا للمركب الشامى والمصرى كما ذكرنا وقاعدة لتمويل قوافل الحج التى تمر منها وتلك التى تمر عبر الطريق

(٢٢) W. D. Hutteroth - K. Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Sauthern Syria, in the late 16 century Erlangen, 1977, p. 142-156.

(★) وهى ضريبة الرأس اما العروس فهى رسوم تؤخذ عند الزواج ٠

(٢٣) Amnon, Palestine in 18 century, Jerusalem, 1973, p. 295.



خريطة (٢٥)

الضرائب بالنسبة للأسواق التجارية الهامة في فلسطين سنة ١٥٩٦م ٠

الشرقى والمارة بمدن معان وتبوك والعقبة لدعم مراكز حصونهـا وقلاعهـا العسكرية ، فكان على متصرف غزة أن يرسل قافلة من الابل محملة بنحو ثلاثين ألف حمل من الشعير لتمويلها (٢٤) حتى يتسنى لها السيطرة على قطاع الطرق من البدو الذين يعيشون على هوامش المعمور بعيدين عن اهتمام السلطة التى لم تعيرهم اهتمامها قط وتمنحهم جانبا من الرعاية أو العناية مما عمق الهوة بينهم وبين السلطة العثمانية فلم يجدوا بدا من قطع الطرق على المسافرين والحجاج لتأمين الحد الأدنى من معاشهم ، الأمر الذى دفع السلطان العثمانى تعيين ولاة الشام « أمراء المحج » يصطحبون القوافل حتى مكة ليعودوا معهم بعد رحلة قد تمتد لثلاثة شهور يتركون فيها ولاياتهم .

وربما أضفت وقفيات وأملاك لواء غزة دلالة على مكانتها الاقتصادية ومدى ثراء أبنائها اذا ما قورنت ببقية الوقفيات لألوية فلسطين فى القرن السادس عشر والتى نستخلصها من واقع دفتر تحرير الطابو رقم٥٢٢ والذى يرجع لسنة٩٥٤هـ وهى أحدث سنة وردت به (٢٥) .

اسم اللواء	عدد الوقفيات	عدد الأملاك	عدد مصادر الوقفيات	عدد مصادر الأملاك
لواء غزة	٥٥	٩	٢٣٠	١٠
لواء القدس	٩٠	١١	٣٤٤	١٧
لواء صفد	٦٤	٦٥	١٧٤	٧٣
لواء نابلس	٢٣	٣	١٤١	١٤
لواء عجلون	١	٤	١	٤
المجموع	٢٣٣	٩٢	٨٩٠	١٠٨

ليبدو لواء غزة وقد احتل المكانة الثانية بعد لواء القدس فى عدد مصادر وقفياته ينافسه أحيانا لواء صفد .

وربما تتضح مكانة غزة أيضا لو استعرضنا ما جاء بدفتر التحرير العثمانى رقم ٣١٢ م والذى حرر بعد عشر سنوات من الدفتر السابق الذكر حيث ورد أحدث تاريخ به لسنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٦ ـ ١٥٥٧ م) (٢٦) .

(٢٤) Amnon, Palestine in 18 century Ibid, p. 896.

(٢٥) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ل .

(٢٦) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ن .

اسم اللواء	عدد الوقفيات	عدد الأملاك
لواء غزة وقضاء الرملة التابع له	١٤٥	٨٦
لواء نابلس	٧٣	٥٢
لواء صفد	٧٢	٧٧
المجموع	٢٩٠	٢١٥

هكذا يبدو وفى عقد من الزمان مدى القفزات الطفرية فى عدد الوقفيات التى طرأت فى لواء غزة فوصلت الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل عشر سنوات مع بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى وتتفوق على لوائى صفد ونابلس • ويعزى البعض كثرة الوقفيات كرد فعل لتسلط وابتزاز الحكام والأمراء بفرض الضرائب والتعدى على الملكيات الخاصة فلا يجد المواطن مناصا من وقفها على المؤسسات الدينية هروبا من جور الحاكم وتقربا لله تعالى ومحبة لأبناء جلدته •

أما على الصعيد الديمغرافى الخاص بالجغرافية العمرانية سكنا وسكانا فى أواخر القرن السادس عشر فالدفتر العثمانى لسنة ١٥٩٦ م هو المرجع الوحيد لشموله على جميع المواقع العمرانية من مدن وقرى ومضارب المبدو والمزارع فى فلسطين والتى شملتها الضرائب •

فقد شمل لواء غزة على ناحيتى غزة والرملة ضمت المواقع الجغرافية التالية التى شملتها الضرائب وفقا للجدول التالى (٢٧) :

لواء غزة	خاص	ميرالو	زعامة وتيمار	المجموع
ناحية غزة	٣٦	١٦	١٠٠	١٤٢
ناحية الرملة وتضم معها اللد •	١١	٠٥	٥٦	٠٧٢

وبذا ضم لواء غزة ٢١٤ مدينة وقرية ومزرعة ومضارب للبدو أخذت منها الضرائب وأحصيت فيها « الخانات » أى الأسر وسنكتفى هنا بأهم القرى التى جاءت تابعة لناحية غزة وعدد أسرها والتى هى الآن ضمن قطاع غزة :

(٢٧) V. D. Huettroth and Abdulfattah, Historical geography, ibid, p. 142-156.

وجميع الجدول التالية الخاصة بهذه الفترة هى من واقع الكتاب نفسه

اسم القرية	عدد الخانات (الأسر)	ملاحظات
بيت حانون	٣٦ أسرة	
بيت لاهيا	٧٠ »	
جباليا	٣٣١ »	
بيت زيتون	٢٣ »	علها حارة الزيتون
منشية العجول	١٧ »	تل العجول « المغراقة »
دميطة	٦٢ »	الدميثة الآن
دير الداروم	٣٠٠ »	دير البلح
سلقا	٦٣ »	مما يؤكد أن « السلقا » هي خان يونس
سوف مازن	١٩ »	
سطر	٤٥ »	الى الشمال من « خان يونس »
عبسان	٢٨ »	
رفح	١٥ »	
المجموع	١٠٠٩ أسرة	

هذا باستثناء مدينة غزة نفسها التى قدر عدد أسرها بناء على وثيقة سنة ١٥٧٥ أى قبل عقدين من الزمن تقريبا عن هذا الاحصاء بنحو ٦٧٥ أسرة . أى تقريبا ضعف سكان قرية جباليا ودير البلح . وأكثر من المجدل التى بلغ سكانها ٥٥٩ أسرة .

كما يبدو من ذلك اندفاع السكان نحو الشرق من منطقة « خان يونس » ــ التى لم يرد ذكرها ــ نحو عبسان وكذلك نحو « سوق مازن » وفى منطقتى السطر والسلقا شمالا وقلتهم فى رفح بشكل يدعو للالتفات وربما كانت « السلقا » هى نفسها « خان يونس » .

كما يلاحظ توطن السكان فى قرى صغيرة شبه متكتلة شرق مدينة غزة مباشرة معتمدين على زراعة الحبوب بشكل خاص وأشجار الفاكهة ولم تكن هذه القرى تبتعد عن غزة بأكثر من مسيرة ساعة من الزمن أو أقل وهى :

القرية	عدد الأسر	ملاحظات
صيحان	١١ أسرة	قرية الى الشرق من غزة
لسن	٤٩ »	قرية الى الشرق من غزة
البها	١٥ »	قرية الى الشرق من غزة
رسم الشرقى	٤٣ »	قرية الى الشرق من غزة
رسم الغربى	٣٥ »	قرية الى الشرق من غزة
نحاسة	١٧ »	جنوب شرقى غزة
تل جمة	٣٢ »	جنوب شرق غزة
المجموع	٢٠٢ »	

هذا بالاضافة الى مئات القرى والمزارع التى استطاع الانسان العربى الفلسطينى من فلاحتها واستثمارها جيدا بأنواع المزروعات المختلفة التى جاء بها الدفتر العثمانى • ولقد اقتصرنا على قرى القطاع حاليا -وتلك القرى والمزارع التى لا يبعد عنها مركز مدينة غزة بكيلو مترات بسيطة وتعتبر ظهيرا للمدينة تمولها بكل ما تحتاج اليه من سلع •

هذه هى الصورة الديمغرافية لمدينة غزة وما حولها وبنيتها الاقتصادية حتى آواخر القرن السادس عشر الميلادى •

حتى اذا ما جاء القرن السابع عشر الميلادي حمل معه ومنذ اطلالته الأولى بوادر الضعف وبذور الفوضى خاصة عندما سمح لغير الانكشاريين من الفلاحين والحرفيين بالانخراط فى سلك الانكشارية بعد أن كانت حكرا لهم (٢٨) •

ومن أعراض هذا القرن ظهور الانتفاضات المحلية الطموحة للانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية والتى ظهرت بوادرها فى شمال البلاد متمثلة فى حركة « فخر الدين المعنى » الذى تنفس خلالها أمير غزة أحمد بن رضوان الصعداء لانشغال « المعنى » بالاستعداد لمجابهة السلطان العثمانى نظرا لما كان بين هؤلاء الأمراء من ضغائن وأحقاد فيما بينهم فما زالت أسرة آل رضوان وآل فروخ وبهرام يحكمون المدن الفلسطينية الرئيسية وكانوا جميعا يفكرون فى القضاء على آل فروخ (٢٩) •

وقد بلغ من سطوة « فخر الدين المعنى » أن اضطر السلطان مراد الرابع باصدار فرمان سنة ١٦٢٤ م يخوله السلطة بمقتضاه على بلاد « عربستان » أى بلاد البدو الخارجة عن حدود المدن (٣٠) من حلب شمالا حتى العريش جنوبا مستغلا سطوة هذا الرجل ومحاولا تفريغ شحنات تمرده للقضاء على تمرد البدو الناجم عن التدهور الاقتصادى والتسيب الادارى وضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية مقابل أن يقدم « المال الميرى » للدولة العثمانية ومحافظته على الأمن • وكان هذا يعني بطبيعة الحال تدخل « فخر الدين المعنى » فى شئون بقية الأمراء فى الوية فلسطين وكانت لعبة استطاع السلطة العثمانى من خلالها

---

(٢٨) عبد العزيز عوض ــ الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ ــ ١٩١٤ ــ القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ١٣ •

(٢٩) د• عبد الكريم رافق ــ العرب والعثمانيون ١٥١٦ ــ ١٩١٦ ــ الطبعة الثانية ــ عكا ــ سنة ١٩٧٨ ص ١٥٤ •

(٣٠) د• عبد الكريم رافق ــ العرب والعثمانيون ــ المرجع السابق ص ١٦٥ ــ ١٦٦ •

زرع الاحقاد والفتن في نفوس أمراء الألوية ضد المعنى ، فبعد أن توفى أحمد باشا رضوان خلفه ابنه حسين باشا الذى وقف متحالفا في سنة ١٠١٠ هـ مع أحمد بن طرباى « حاكم اللجون جنين » وفروخ باشا حاكم نابلس ضد « فخر الدين المعنى » حتى قضى على الأخير سنة ١٦٣٥ م (٣١) . ونجح بالتالى السلطان في القضاءعلى حركته مستغلا أحقاد هذه الأسرة فيما بينها .

ومع منتصف القرن السابع عشر وبالتحديد في عام ١٦٤٩ م زار مدينة غزة السائح التركى « أوليا جلبى » (٣٢) فنزل في ضيافة أميرها حسين باشا الذى مهد له السبيل بالاجتماع بعلماء المدينة وأشرافها ليصفها بعد ذلك وصفا شبه شامل مبينا تركيبها الوظيفى وحجم العمران بها ذاكرا مرافقها الحيوية .

ففى نطاق العمران ذكر أن بالمدينة ستة أحياء تضم ١٣٠٠ منزل جميعها مبنية من الحجارة واسطحها مستورة بالطين والكلس . ولم يذكر أسماء هذه الأحياء ـ الا أنها هى تلك التى جاء ذكرها قبل قرن تقريبا في الدفتر العثمانى ٥٢٢ وهى : حى الشجاعية ومحلة دار الخضر وحكر التفاح وحى الزيتون ومحلة البزجلية وحارة الاكراد التى هى جزء من حى الشجاعية (٣٣) « الجديدة الآن » .

وأضاف « جلبى » أن بمدينة غزة سبعين مسجدا هذه المساجد ذات محاريب منها أحد عشر مسجدا تقام بها صلاة الجمعة ويتوسط المدينة « تكية عبد العظيم » وبالقرب منها « تكية مرغان » وأضاف أن بها حمامات ذكر منها « حمام الباشا » « وحمام العسكر » (٣٤) .

وان لم يكن هذا الرقم من عدد المساجد فيه شيء من المبالغة حيث لم يتعد عدد ما تم معرفتة حتى هذه السنة نصف هذا الرقم فان ذلك يدل على عظمة هذه المدينة الذى يخص فيها كل ١٩ منزلا مسجد على افتراض ما ذكره جلبى (سبعون مسجدا) صحيحا .

---

(٣١) احسان النمر ـ تاريخ نابلس والبلقاء ـ الجزء الأول ـ نابلس سنة ١٩٦١ ص ٧٢ .

(٣٢) أوليا جلبى سياحتنا مى سى / ، مترجم بالانجليزية ـ ترجمة حنا اسطفان ، المتحف الفلسطينى بالقدس . المجلد ص ٧٦ .

(٣٣) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ المرجع السابق ص ٧ ـ ٢١ .

(٣٤) أوليا جلبى سياحتنا مى سى ـ المرجع السابق ص ٧٦ .

وفي مجال النشاط الاقتصادى والتجارى داخل المدينة فقد أفاد بأن بها ستمائة (٦٠٠) وكان واصفا اياها « بأنها مدينة تجارية وان لم تكن ميناء » وأن مصانع الزجاج والسروجية (★) فيها رائجة (٣٥) • ولم يفدنا « جلبى » بأسماء أسواقها ، لكننا لو عدنا لقرن من الزمان وبالتحديد لسنة ١٥٤٩ م وهى السنة التى دون فيها أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين فى « الدفتر العثمانى ٥٢٢ » نجد أنه جاء ذكر عشرة أسواق [سوق الشجاعية ـ سوق الغزل واللبان ـ سوق العطارين والقطن ـ خان الدباغة ـ خان الطباعية ـ سوق الحدادين ـ سوق باشورة النقلية ؟!] نضيف اليها « خان الكتان » الذى بنى فى أوائل الفترة العثمانية والقيصارية وخان حكر التفاح ليصبح بالمدينة عشرة أسواق تقريبا (٣٦) • هذا باستثناء سوق الغنم •

ومع افتراض أن هذه الأسواق بقيت على حالها حتى أيام « جلبى «١٦٤٩م» فان هذا يعنى أن كل سوق به ستون دكانا !! وتعتبر بذلك كثافة عالية تؤكدها أرقام « جلبى » نفسه التى نستخلص منها بأن لكل منزلين بالمدينة تقريبا دكان واحدة !!

أما بالنسبة للحياة الزراعية بالمدينة ، فقد وصف مزارع الحنطة بأنها كثيرة وتشتهر ببياض لونها وكبر حجمها ويطلق عليها أبناء المدينة « سن الجمل » كما تشتهر بشعيرها وقطنها وحريرها التى تصنع منه البشاكير والمحارم • وتحيط بالمدينة مزارع الكروم البالغ عددها سبعة آلاف كرم، لاعنابها شهرة فائقة هذا بالاضافة لأشجار الزيتون والليمون والتين والرمان والنخيل مبينا ان لها شهرتها العالمية •

كما ذكر « زيت غزة » بأنه يصدر لمصر محملا على ظهور المئات من الابل لشهرته بها •

أما عن مصادر المياه ، فقد أفاد « جلبى » بأنها تسقى من عيون مائيـة ذكر منها « عين السجان » الواقعة فى مكان يدعى « غبيه » (**) وبجوارهـا أربعة ينابيع أخرى فى سهل منبسط غير فسيح واصفا مياهها بأنها « تزداد شتاء وتقل صيفا » كما انها تسقى من مياه الآبار لعدم وجود أنهار بالمدينة •

(★) مازال هناك « سوق السروجية » بقلب مدينة غزة للآن •

(٣٥) أوليا جلبى ـ سياحتنا مى سى ـ المرجع السابق ص ٧٧ •

(٣٦) أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسين ـ المرجع السابق ص ٦ ـ ١٥ •

(★★) هى المنطقة الواقعة الى الشمال مباشرة من « الاجمقية » وكانت مصبا لسيول الامطار وتدعى « بركة قمر » •

وذكر أن بالمدينة مائتي سبيل يرتوى منها الناس ، وأن المياه تنقل على ظهور الابل من خارج المدينة (٣٧) ٠

وادرايا : أوضح « جلبى » تبعية غزة لولاية سوريا وان ما عليها من ضرائب أميرية تقدر بنحو ٥٠٨ر٣٢٨ قطعة من الفضة مبينا أن لها سبع زعامات ومائة وسبعة تيمارات ٠

وكان يدير الحكم فى المدينة مع الباشا طاقم نذكره وفقا للترتيب الذى أورده « جلبى » وهم : القاضى وشيخ الاسلام ثم نقيب الأشراف فالأعيان والنبلاء ووجوه البلدة ثم السباهية ونائب المدينة فالصوماشي والمحتسب والباجدار ٠ تساندهم عسكريا فرقة من الجنود عددها ١١٥٠ عسكريا يتواجدون بقلعة المدينة ذات بوابة حديدية بها كثير من المؤن والذخائر والمدافع بل ويحفظ بها جميع مقتنيات السكان ومدخراتهم الثمينة (٣٨) ، وفى هذه الحقبة بنى الأمير حسن باشا عمارة بغزة وصفها المحبى قائلا بأنها كانت أنيقة جدا حتى أصبحت أحسن منتزة فى غزة ، لعلها هى « الدبويا » الآن (٣٩) (خريطة ٢٦) تغطية جغرافية شبه شاملة للمدينة حتى عام ١٦٤٩ م تعكس ازدياد عدد السكان الى الضعف تقريبا اذا ما قورن بعدد السكان عام ١٥٧٥ م ٠

ولعل ما ذكره قنصل فرنسا فى صيدا « شفالييه وارفيو » عندما زار غزة سنة ١٦٦٠ م ما يكمل لنا الصورة — كل وفق اهتماماته — فقد شاهد بالمدينة كنيستين احداهما أرمنية وأخرى كبيرة يونانية ، وان الناس يتكلمون العربية والتركية واليونانية — كما لم يلاحظ سورا للمدينة وانه شاهد ستة مساجد فقط عدا الجامع الكبير (٤٠) ويبدو من هذا الوصف أن القنصل لم تتعد خطواته حدود قلب المدينة القديم وانه شاهد فقط تلك المساجد الواقعة بين الكنيستين اللتين تقع احداهما فى الشرق والأخرى فى الغرب من المدينة ٠

وبعد ذلك بعام وفى سنة ١٦٦١ ميلادية أوقف موسى باشا متصرف مدينة غزة ابن الأمير حسن باشا أوقافا كثيرة تدل على بداية اضمحلال سلطة « آل رضوان » وحكمها لمدينة غزة بعد حكم دام لأكثر من قرن ونصف من الزمان ٠

---

(٣٧) أوليا جلبى سياحتنا مى سى — المرجع السابق ص ٧٧ — ٧٨ ٠

(٣٨) أوليا جلبى — المرجع السابق ص ٥٧ ٠

(٣٩) محمد المحبى — خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، الجزء الثانى — المطبعة الوهبية ١٢٨٤ هـ ص ١٦ ٠

(٤٠) عارف العارف / تاريخ غزة — المرجع السابق

وربما كان مرد ذلك تسلط الدولة العثمانية على أموال الأغنياء لتعويض ما تفقده فى الحروب والمنافسة المقيتة بالقهر والابتزاز من قبل الولاه الجدد على الأقدمين ، مما دفع العديد من أغنياء المدينة وحتى أمرائها هروبا من المصادرة القيام بتحويل أملاكهم للوقف الأهلى ٠

ومن خلال دراستنا الوقفية « موسى باشا آل رضوان » والتى وثقها بالمحاكم الشرعية بالقدس الشريف سنة ١٠٨١ هـ (١٦٦١ م) نتبين المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية التى امتلكها بمفرده عدا تلك التى كانت تخص والده الأمير حسن باشا وأجداده أحمد باشا ومصطفى باشا واخوته ٠ والتى شملت أراضى وعقارات فى مدينة غزة نفسها وعلى أطرافها (ساقية القيدة ـ والزيتون وحكر سويد ٠٠٠ الخ) ٠ وأراضى زراعية فى دير الداروم (دير البلح) وقرية السلقا ومعن وكذلك مساحات من أراضى مدينة رملة فلسطين وفى مدينة يافا وأسكلتها (مينائها) ٠

كما جاء ذكر بعض المساجد لأول مرة مثل جامع السواد (مسجد المغربى) بشارع بنى عامر بحى البرجلية كما ورد ذكر « لحمام القلعة » وربما هو نفسه « حمام العسكر » الذى ذكره « جلبى » ٠

كما ورد لهذا الجامع (السواد) وقف فى سنة ٩٦٤ هـ (١٥٥٩ م) أوقفه عمر بن مراد (٤١) ومما يلفت النظر فى « الوقفية » ذكرها اسم «ميماس» وان بها أرضا زراعية بها « ساقيتين ببئرى ماء وأشجار مختلفة » وبها مساكن ذات طابقين ومرافق وبركة لجمع الماء (٤٢) ، ليؤكد بذلك استغلال الأراضى حتى على شاطىء البحر الذى تكتشفه الكثبان الرملية ٠

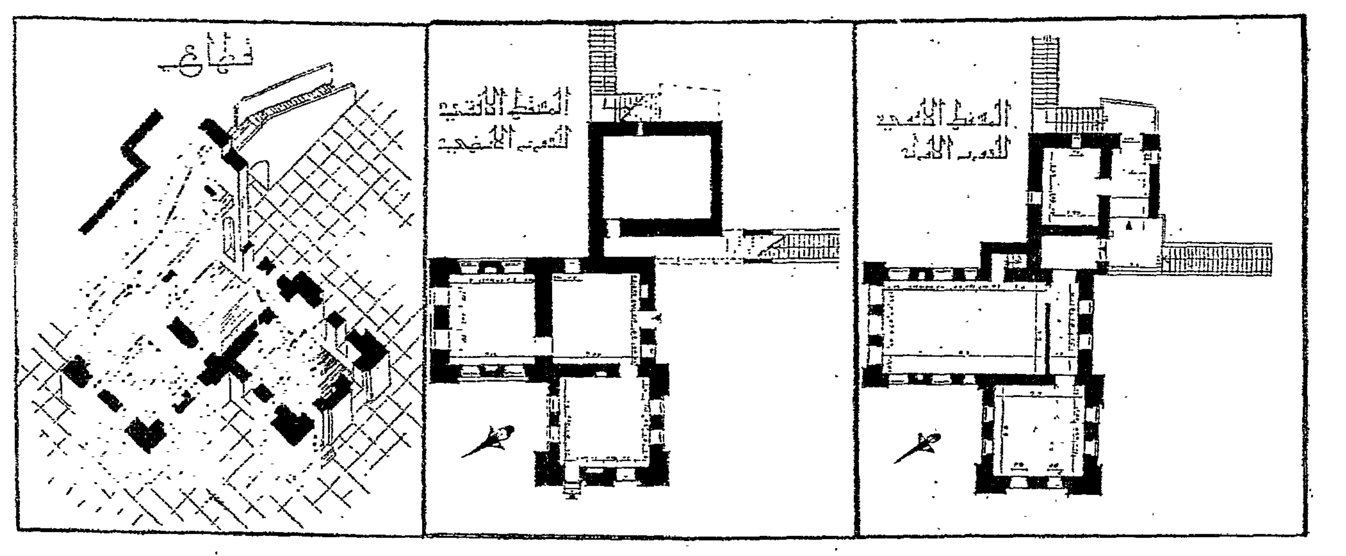
ومع نهاية القرن السابع عشر تقريبا وفى ربيع الأولى من سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) زار مدينة غزة الشيخ عبد الغنى النابلسى حيث قام بجولة داخل المدينة وحولها تركزت على زيارة المساجد ولم يمنعه ذلك من الذهاب لأحد منازل أبناء غزة المطربين ليسمع منه عزفا موسيقيا على آلة القانون بصحبة فرقته الانشادية ٠

ولقد زار الجامع العمرى الكبير وأدى الصلاة به ثم توجه الى مسجد الشيخ فرج واصفا اياه بان له عمارة منيفة ٠ ويقال ان الشيخ فرج هذا من رجال أواخر القرن العاشر الهجرى (نهاية القرن السادس عشر الميلادى) قد توفى ودفن به وقد اندثر هذا الجامع الآن ٠

---

(٤١) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الاعزة فى تاريخ غزة ـ جـ ١ غير مطبوع ص ٢٠١ ٠

(٤٢) وقفية محررة بالمحكمة الشرعية بالقدس سنة ١٠٨١ هـ ٠



خرائط توضح مساقط بناية (الدبويا) او السراى التى براها الأمير حسن آل رضوان بغزة
(مدرسة الزهراء الآن)

ثم زار مسجد الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي وبالقرب منه توجه الى مغارة مدفون بها جد الرسول هاشم بن عبد مناف. ثم اتجه شرقا لزيارة مسجد الشيخ على بن مروان ثم منها لزيارة جامع شهاب الدين أحمد بن عثمان بحي الشجاعية ثم سار الى مدرسة الطواشى (*) الواقعة بالقرب من جامع السيد على المغربى (والذى يطلق عليه أحيانا جامع الطواشى) ذاكرا أن قضاة غزة اتخذوا من هذه المدرسة مركز حكمهم وتلقاه بها « أحمد حلبى » النائب فى الحـــكم . ليتضح بالتالى أن مركز الثقل القضائى والادارى للمدينة انتقل للأحياء الشرقية فى حى الشجاعية الجديدة .

ثم وصف « جامع الجاولى » بأنه خراب ومنعزل عن العمران وبالقرب منه شاهد مسجد ومزار الشيخ مجاهد ومسجد الشيخ محمد العجانى .

واختتم زيارته لمعالم المدينة متجها الى أقصى الغرب متجتازا الكثبان الرملية نحو مزار ومدرسة الشيخ رضوان حفيد الشيخ على بن عليل الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى وهو أخو الشيخ عجلين الذى سميت ضاحية الشيخ عجلين على شاطىء البحر والواقعة الى الزاوية الجنوبية الغربية من مدينة غزة باسمه وقد جدد مزار الشيخ رضوان والمدرسة كما أوضحنا مراد بك سنة ٩٧١ هـ فى زمن السلطان سليمان القانونى .

ومن فوق التلة الواقعة عليها مدرسة ومزار الشيخ رضوان شاهد النابلسى قرية جباليا واصفا اياها « قرية لطيفة الهواء عذبة الماء فى أهلها صلاح ومحاسن الملاح » مما دفع أحد المصاحبين من أبناء غزة للشيخ النـابلسى أن ينشـده قائلا :

رشفت رضـــابه وسكرت منه   وقلت لصباحى هذا جبالى

ثم ترك النابلسى غزة متجها الى قرية « الدير » (دير البلح) ثم خان يونس حيث صلى بجامعها وبطبيعة الحال كان هذا هو « جامع الخان » لندرك أن الحياة قد دبت فيه بعد خرابه .

واعتبر خان يونس هى أول البلاد المصرية كما قيل له لمشاهدته بعض الجنود الغز والعسكر المصرى بعض أبيات الشعر على المنبر (٤٣) .

هكذا يبدو الحال فى مدينة غزة وما حولها من قرى مع انتهاء القرن السابع عشر الميلادى فلم تعد هناك أية توسعات عمرانية تذكر على حدود المدينة بل

(*) الطواشى : مفرد « طواشية » وهم الخصيان الذين عملوا مع المماليك ومع الحريم وفى الطبان المملوكية وكانت لهم كلمة فعالة وحرمة مهابة ويعد شيخهم من الأعيان وقيل ان أحد هؤلاء قد بنى المدرسة على الرغم من عدم وجود ما يشبه ذلك على الحجارة المنقوشة .

(٤٣) Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, p. 156.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحكمة الشرعية

الرقم

التاريخ ١٠٨١

وثيقة (٥)

وثيقة توضح جزءا من وقفية موسى باشا آل رضوان محررة من المحكمة الشرعية بالقدس ١٠٨١هـ .

لحق الخراب بكثير من جوامعها ومؤسساتها الدينية والدنيوية وكثرت ظاهرة الوقف ٠

فاقبل القرن الثامن عشر الميلادى الذى يعتبر بحق قرن الانتقال والتحول فى تاريخ فلسطين العثمانى ، فقد تأصلت فيه جذور العائلية فى مدنها وعلت منزلتها واستئثارها بالسلطة المحلية داخل المدن لتزداد قوتها فى هذا القرن ـ بتلازم عكسى مع قوة الدولة العثمانية التى أخذت فى التراجع بعد أن انجحت على نفسها جبهتين متنافرتين فى الشرق مع الفرس سنة ١٧٢٥ وفى الغرب مع أوربا الناهضة صناعيا فاستولت روسيا على شمال وشرق البحر الاسود ليدفع العرب جزءا ثقيلا من أقساط هذه الحرب الطاحنة فى صورة ضرائب تكاثرت كما ونوعا لتشمل معظم المنتوجات الزراعية والصناعية ، فقد بلغت مع مطلع هذا القرن سنة ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥ م من لواء غزة ـ المجدل وميناء يافا عشرين ألف ترس (٤٤) وفى عشرينات هـذا القرن (١٧٢٠ م) أخذ متصرفو غزة والقدس ونابلس فى جباية ضرائب خاصة على جميع السلع الضرورية منهـا والكمالية لتغدو عبئا ثقيلا على كاهل عامة الشعب فشملت ضرائب على الصابون (صابونك آفجيسى) بواقع ٧٥ افجة لكل أوقية وضريبة زيت الزيتون « رسم روغن زيت » بواقع خمسة آقجات لكل أوقية أما الدخان فبلغت ضريبته خمسين أقجة لكل أوقية تصـدر من ميناء يافا حتى الاسكندرية ويطلق عليها « دخان كمركى » ثم ضريبة القطن التى بلغ قيمتها عند نهاية القرن الثامن عشر من سنجق القدس وغزة ويافا حوالى عشرين ألف آقجه مضافا لها جميعا ضرائب التبن والصوف والحرير وتدفع بواقع آقجتان لكل أوقية (٤٥) ٠

ومما يلفت النظر أن ضريبة زيت الزيتون لم يعد لها ذكر بعد عـام ١٧٢٥ م مما يجعلنا نميل للاعتقاد بأن المحصول اما بدأ فى القلة بحيث لم يعد هناك مبرر لوجود مثل هذه الضريبة وهذا افتراض نادر الحدوث واما ناجم عن استياء السكان ورفضهم لهذه الضريبة على مادة أساسية وحيوية لكل بيت فهى الغذاء والدواء والوقود لهم لذا لم تستمر بعد عام ١٧٣٠ م (٤٦) ٠

وكان يحكم غزة فى هذه الفترة حسن بن مكى ٠

ولقد ترجم هذا الوضع وصوره الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطى الذى زار خان يونس ونزل بعدها بمدينة غزة مقيما فى « خان الزيت » سنة

(٤٤) Amnon, Palestine in 18 Century, Ibid, pp. 261-265.

(٤٥) الشيخ عبد الغنى الشهير بابن النابلسى ـ كتاب الحقيقة والمجاز فى رحلة الشـام ومصر والحجاز سنة ١١٠١ هـ ـ مخطوط ٠

(٤٦) Amnon, Paestine in 18 Century, Ibid, p. 261.

١٧٣٠ م فى كتابه « سوانح الأنس » برحلتى لوادي القدس » أن يندب جال المدينة بقوله « البلاد خراب من ظلم الأمراء وتحكم رهط الاعراب » معبرا عن ذلك بشعره :

يا ويح معاهدهـا للأنس جامعـة ... من كل معنى سما والحسن جامعها
فأصبحت من سـطو الأعراب خاوية ... على عروش مخيفـات بلاقعهـا

فالأمور لم تعد خاوية فى غزة من سطو الأعراب بل ومن تصرفات السلطة العثمانية التى كانت توفد الأغوات الى مدن وقلاع غزة والغير مرغوب فيهم فيستولون على أراضيهم فى حلب ويوقفونها بعد مماتهم على المدارس كما فعل بهرام باشا والى حلب والمتوفى سنة ٩٩٤ هـ عندما استولى على أراضى حسين أغا فى حلب وأرسله « كتخدا » قلعة خان يونس وعوضـه بأراض زراعية فى غزة فمنحة « ساقية قلفان » وثلاثة أرباع « ساقية شنقار » وساقية شعبان .

كذلك أرسل ببعض البكـوات الى العريش سنة ١١٥٠ (١٧٣٧ م) ليعطوهم أراضى فى غزة منها « نصف الحكمية » « والرمـاد » وقفـا على ذريتهم (٤٧) . وهى جميعا أراض زراعية تقع حول مدينة غزة .

ومع منتصف هذا القرن لم تعد تجبى معظم الضرائب السابقة الذكر فى المدن والقرى الفلسطينية حتى نهايته لما انتاب البلاد من موجة غلاء شديدة أيام السلطان عثمان الثالث (سنة ١٧٤٧ م) فضج الأهالى لصعوبة المقدرة الشرائية وجماد الأسـواق وانكماش معروضاتها فانتفض البدو سكان الأطراف ــ كرد فعل طبيعى لسوء الأحوال فى المدن ــ فما بال الهوامش شبة المقفرة والصحراوية بأرض البدو ــ هبوا معترضين من أبناء قبيلة بنى صخر على قوافـل الحجـاج وقتلوا أميرها سنة ١٧٥٧م ليغمروا بها أسواق غزة ولتباع بأبخس الأثمان ، وعلى أثرها هرب حاكم غزة حسين باشا مكى (٤٨) .

هذا الحد من الوهن الذى أصاب السلطة العثمانية المركزية دفعهـا أن تستجير « بالنقيب » وهى الوظيفة الثالثة بعد القاضى والمفتى « طالبة » المساعدة فى جباية الضرائب فقد شمل كتاب التعيين للسيد عبد اللطيف سنة ١٧٤٥م بالاضافة للقدس ونابلس وغزة والرملة وحنين يطلب منه جمع الضرائب من هذه المناطق (٤٩) .

---

(٤٧) الشيخ عثمان الطباع ــ اتحاف الاعزة فى تاريخ غزة ــ المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٤٨) عارف العارف ــ تاريخ غزة ــ المرجع السابق ص ١٨٢ .
(٤٩) مجلة الشرق ــ العدد الثالث ــ السنة التاسعة ــ تموز ــ أيلول سنة ١٩٧٩ ــ جبل الكرمل ــ حيفا ص ١٩ .

واستمرت أسرة « آل مكى » تحكم المدينة التى لم نلمس لها أية آثار باستثناء مزار بقبة بالقرب منه « سبيل ماء » نقش على بلاطه فوق المزار [بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ يا مارا على قبرى قف شويه ٠٠ واقرأ القرآن بصدق نية ٠٠ واهد ثوابه لمنشىء هذا القبر الفقير الى الله تعالى محمد بك مكى حاكم الوية غزة سنة تسع وخمسين ومائة وألف] أى الموافق سنة ١٧٤٦ ـ ١٧٤٧ م ٠ ويقع هذا المزار للشرق من خان يونس مدفون به الشيخ محمد الجراح (★) ٠ (صورة ١٣٩) ٠

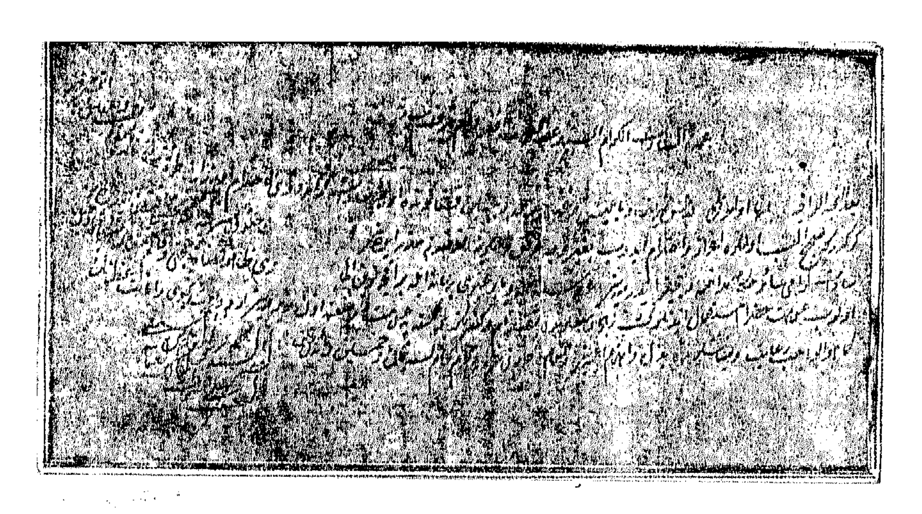
ظل البدو مقياسا لقوة السلطة العثمانية الذى تحدده وتستنفره الظروف والأحوال الاقتصادية للبلاد فالاهتراء الادارى والوهن العسكرى والضمور الاقتصادى كان يعنى بالطبع سعى البدو لقطع الطرق ونهب المدن بل والاعتداء على قوافل العساكر أنفسهم والذين تمردوا فى بعض الأحيان كما حدث أيام حكم حسين باشا بن مكى سنة ١٧٥٧ م ٠ مما أكسب البدو هيبة وسطوة حسب حسابها الحكام والقادة ٠ ونظرا لموقع غزة الحدى مع مصر فقد رأى « على بك الكبير » شيخ مصر أن يرسل قائده العسكرى « محمد بك أبو الذهب » لمدينة غزة للانتقام من « سليط » زعيم احدى القبائل البدوية وتم ذلك فعلا ٠ لأنه يرى فى استقرار الأوضاع فى هذا الممر الحيوى ضمانا له لتنفيذ مخططاته المستقبلية فى التوسع نحو الشام والاستقلال عن الدولة العثمانية ٠ خاصة وان « على بك الكبير » على دراية تامة بمشاكل أهالى غزة عندما عاش بينهم « كمنفى » سنة ١٧٦٦ م ولمس عن قرب تصرفات النائب العثمانى « عثمان باشا الكرجى » الذى انتقم منه أى من على بك الكبير يوم ان كان الاثنان امراء للحج سنة ١٧٦٤ م (٥٠) ٠ فقد كانت غزة تتخذ هى والصعيد مكانا لنفى الزعماء والمتمردين على السلطة لموقعهما الحدى والبعيد عن العاصمة المصرية حيث سبق وان نفى لمدينة غزة « صالح بك » سنة ١٧٦٥ م (٥١) وهو من رجال على بك فى ذلك الوقت ٠

فى هذه الأثناء ظهر على المسرح السياسى « الشيخ طاهر العمر » فى شمال فلسطين الذى حاول جاهدا خلق « دويلة فلسطينية » متخذا فى بداية حركته من مدينة « طبرية » مركزا له لينتقل بعدها الى عكا واضعا يده بيد « على بك الكبير » شيخ مصر الذى اتصل بدوره مع قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ليؤازره ويموله بالأسلحة والعتاد الحربى مما مكنه للتوجه نحو

(★) عرف هذا القبر خطا عن أهالى خان يونس بقبر أبو عبيدة الجراح ٠

(٥٠) د٠ عبد الكريم رافق ـ العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ـ المرجع السابق ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ ٠

(٥١) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٧٥ و ٨١ ٠



وثيقة (٦)

غزة فاحتلها سنة ١٧٧٣ ــ ١٧٧٤ م (٥٢) ٠ معلنا أنه ليس بخارج عن السلطان بل قادم لانقاذ أهل غزة من مظالم نائبها « عثمان بك الكرجى » الذى اعتدى على علماء غزة وحجاجها وتجارها ٠ ولعله بذلك قد عمل على تصفية حساباته مع عثمان الكرجى لما بينهما من عداء كما أسلفنا ، معلنـا بعدها على سكان المدينة بالغاء ضريبة « المال الميرى » لمدة أربع سنوات (٥٣) ٠ تقربا للسكان واضعا بالتالى يده على أشد الأمور حساسية فى البلاد التى كانت تعصرها الضرائب ٠

استطاعت جيوش على بك الكبير من التقـدم شـمالا متحالفة مع جيش الشيخ ظاهر العمر مستغلين فرصة الحرب الدائرة بين تركيا وروسيا سنة ١٧٦٨ ــ ١٧٧٤ م ومتحالفين مع روسيا التى أرسلت أسطولها أمام حيفا ثم ضربت القوات التركية فى صيدا سنة ١٧٧٢ م ٠ مما شجع الشيخ ظاهر العمر للاستيلاء على جميع المدن الفلسطينية مع بداية سنة ١٧٧٣ م فاستولى على القدس ونابلس ويافا وغزة (٥٤) ٠ وهكذا دانت له جميع المدن على الساحل الفلسطينى مستقلا بالبلاد ومعتمدا على اقتصادها وبوجه خاص القطن الذى غطت زراعته مساحات شاسعة فى منطقة الجليل وحتى مدينتى اللد والرملة فأخذ يصدره لفرنسا مقابل استيراد الأسلحة والذخائر (٥٥) ٠

الا أن هذه الدويلة واجهت العديد من المشاكل الداخلية والخارجية بدأت بتحريض السلطان العثمانى لقائده « محمد بك أبو الدهب » على قتل سيده سنة ١٧٧٣ م فقد على أثرها ظاهر العمر حليفه الوحيد ٠

وفى هذه الأثناء تفرغت تركيا لمجابهـة « ظاهر العمر » بعد أن وصلت الحرب الروسية ــ التركية الى منتهاها فبدأ السلطان العثمانى عبد المجيد الأول بتحريض « أبى الذهب » ضد ظاهر العمر فقام بحملته ثانية على فلسطين متوجها لمدينة غزة سنة ١٧٧٥ ومنها شمالا الى حيفا مما اضطر الشيخ ظاهر للفرار الى صيدا ، ولم يعد الا بعد موت أبى الذهب المفاجىء ٠ وعبثا حاول بعدها الشيخ العجوز ظاهر العمر من التصدى للأسطول الروسى الراسى أمام عكا حتى وافته المنية سنة ١٧٧٥ م لتعود المدن الفلسطينية للسيطرة العثمانية ثانية ٠

لا بد من نتيجة لهذه الانتفاضات السياسية السريعة والتى تمركزت فى الشمال الفلسطينى أن تتمخض عنها كثير من حركات التأييد والتمرد خاصة فى المناطق الحدية ذات الكثافة السكانية المتخلخلة ٠

---

(٥٢) محمد بك فريد ــ تاريخ الدولة العلية العثمانية ــ المرجع السابق ص ١٥٩ ٠

(٥٣) المختار من تاريخ الجبرتى ــ المرجع السابق ص ٨١ ٠

(٥٤) Amnon, Palestine in18 Century, Ibid, p. 98.

(٥٥) د٠ اميل توما ــ فلسطين فى العهد العثمانى ــ القدس ــ ١٩٨٣ ص ٤٣ ــ ٤٥ ٠

وهذا ما حدث فعلا فى « خان يونس » [فقد علم أن خليل أغا جاسر كتخدا أقام فى قلعة خان يونس عندما عزل من منصبه سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) وأستبدل بعلى أغا عبد الله قام الأول بالتحالف مع البدو والفلاحين بتخريب القلعة ونهبها وقتل أهلها وأكل مزروعاتها فأعدمته السلطة العثمانية] (٥٦) .

وربما نجمت هذه التصرفات عن تأييد خليل أغا جاسر للشيخ ظاهر العمر فقام بالتمرد على السلطة متحالفا مع جميع قوى الشعب التى غالبا ما تتنافر وهى البدو والفلاحين وكدليل التأييد المطلق له فاعتبرته الدولة العثمانية تمردا ضدها فعزلته . يؤيد هذا شهادة السيد « مارتينى » الفرنسى . الذى قال ان عهد « ظاهر العمر » فى فلسطين كان عهد نظام على الرغم من الحروب « فالغرباء وعابرو السبيل لم يتعرضوا فى عصره لهجمات اللصوص أو القتل كما كان يحدث من قبل » كما وضع حدا للنزاع الذى لم ينقطع بين التجار الأجانب وبين شركات التأمين الأوروبية فى عكا (٥٧) .

كما تمتعت البلاد فى عهد الشيخ ظاهر العمر بقسط من التسامح الدينى فبنى المسيحيون كنائس لهم فى حيفا عندما أمر ظاهر بهدم المدينة القديمة وانشاء مدينة حديثة جعل لها سورا ليصبح بالتالى بانى حيفا الحديثة (٥٨) .

يحلو للكثير من الكتاب الأجانب وصف بؤس الحالة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية فى البلاد أيام « دويلة ظاهر العمر الفلسطينية » متناسين ما كان يرتكبه الولاة العثمانيون من أمثال « عثمان باشا الكرجى » ومن سبقه فقد تميزت فترات حكمهم القصيرة المضطربة بدفعهم للابتزاز وجمع الأموال بشتى أنواع الوسائل والضرائب ومصادرة الأراضى والأموال تمثلت فى نهاية بعض الأسر الحاكمة من قبلهم بالمساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية والعقارات التى أوقفوها لصالح المرافق العديدة وكذا لأفراد عائلاتهم بعد أن اقتربوا من الانتهاء .

ولم يكن جمع هذه الأموال لدافع توظيفها اقتصاديا ولتوفير أسباب الرخاء للسكان ، اللهم الا اذا كان هناك وازع دينى يدفعهم لبناء مسجد أو سبيل ماء ـ وهذا أقل القليل. كما لاحظنا فى القرنين السابقين . كما لم يجبوا الأموال بسبب خطة عمرانية يرسمها السلاطين فى الباب العالى لينفذها الولاة فى سناجقهم وفقا لايراداتهم

---

(٥٦) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٥٧) د. الكسى كرمل ـ تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين ـ ترجمة تيسير الياس حيفا ١٩٧٩ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٥٨) د. الكسى كرمل ـ تاريخ حيفا ـ المرجع السابق ص ٩٣ .

فالمواطنون فى البلاد ابتداء من شيوخهم الثائرين ورؤساء العشائر البدوية وحتى الجنود فى بعض الأحيان والفلاحين لم يقطعوا الطرق الا لما يصيبهم من فساد وظلم واعتداء من قبل الولاة ممثلين فى السلطة العثمانية ٠

يؤكد ذلك ما يمكن إستنباطه مما كتبه الرحالة الفرنسى « فولنى » الذى زار فلسطين ومصر فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٧٨٣ م ـ ١٧٨٥ م والتى واكبت تمرد أحمد باشا الجزار بعد سيده ظاهر العمر مباشرة ١٧٧٦ م ـ ١٨٠٤ م ٠

فقد رأى « فولنى » أن غالبية السكان فى فلسطين هم من الفلاحين الملتصقين بأرضهم بفاعلية ونشاط بما فيهم البدو حين وصفهم قائلا « حتى ان العشائر والقبائل المترحلة اذا ما وقعت على بقعة من الأرض فانها تقوم بحرثها وزرعها » ٠ فى حين يصف علاقة هؤلاء السكان بالسلطة العثمانية فيقول [**اذا ما قاموا بالجور على سكان القرية هجروها الى الجبال**] (٥٩) فالهجرة هنا قهرية تتم فى ظروف قاسية وتعسفية للالتجاء والاحتماء بكهوف الجبال أما اذا سلب جنود السلطة منهم مواشيهم وأتلفوا مزروعاتهم وقضوا على تجارتهم فان رد الفعل ـ كما وصفه فولنى ـ الهياج صارخين « الى اللصوص !! » وعندما يقول فولنى « انهم على صواب » (٦٠) ٠

انها الدوافع الحقيقية لقطع الطرق أو مساندة قطاع الطرق وسيلة للتعبير والتنفيس عن سخطهم واعلان ثورتهم على عسكر السلطان الجائرين ، وليس صفة طبيعية عفوية فى نفوسهم كما يحلو للبعض تفسيرها وطرحها ٠

ولم تكن مدينة غزة بأسعد حالا عما هو سائد فى البلاد عامة باستثناء موقعها الذى منحها حدا من النشاط التجارى لموقعها بين مصر والشام الا انها لم تخرج من دائرة المحنة السياسية القلقة على نموها السكانى فقد ذكر « فولنى » أن غزة : (ليست اليوم سوى قرية) سكانها لا يزيدون على ألفى نسمة يعيشون فى ثلاثة أحياء أحدها « قلعة خربة يشغل قصر الأغا جانبا منها » هكذا أصبح الخراب يحيط بالقصور ٠

واثنوغرافيا لوحظ على سمات أبناء المدينة وملامحهم « الصفات المصرية أكثر من الصفات الشامية » ٠

---

(٥٩) س٠ف ـ فولنى ـ ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام ـ الجزء الأول ـ ترجمة ادوارد البستانى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٤٩ ـ ص ٢٤٥ ٠

(٦٠) س٠ف فولنى ـ المرجع السابق ص ٢٤٤ ٠

وهذه حتمية المواقع الحدية وما تفرضه من احتكاك وامتزاج مضافا لها المناخ شبه الصحراوى بحرارته وما تطبعه على الوجوه من سمرة ٠

وديمغرافيا يبدو الانتكاس والتدهور سكنيا وسكانيا اذا ما قورن بما كان عليه الحال قبل قرن ونصف تقريبا عندما زارها « جلبى » سنة ١٦٤٩ م الذى قدر منازلها بنحو ١٣٠٠ منزل فى ستة أحياء فى حين رآها فولنى سنة ١٧٨٤ م تتألف من ثلاثة أحياء بها ألفا نسمة ـ وان لم يكن هذا الرقم مبالغ فى قلة عدده ـ فان الهجرة القهرية نحو الجبال هى الجواب القاطع لهذا التدهور العددى فى السكان والذى يفترض أن يصل الى أضعاف ما كان عليه ٠ وقد قام متصرف غزة درويش حسين باشا بتجديد منارة الجامع العمرى الكبير وترميم الصهريج واتى بحوض رخامى كما جاء على بلاطة بفناء الجامع الشمالى (صورة ١٤٣) ٠

واقتصاديا : فالصورة تبدو باهتة مع هذه القلة المتبقية والمتمركزة فى المدينة والتى يبدو أنها محافظة الى حد ما على مكانتها التجارية فكان تجار المدينة يقصدون السويس فى حين نجد تجار مصر يبتاعون من المدينة « الزيت والدقيق والتمر » وبها ثلاثة مصانع للصابون ونحو خمسمائة نول للحياكة !! وكثيرا ما كان سوق المدينة يزخر بما يأخذه البدو من الحجاج (٦١) ٠

وقد ظهر أيضا فى قائمة رسوم الجمارك بميناء بولاق أن غزة قد صدرت ٧١ قنطارا من التين لمصر خلال عام ١٧٧٥ ـ ١٧٧٦ م (٦٢) ، لتتضح مكانة هذه المدينة التجارية ومدى انتعاش الزراعة بها فى أواخر أيام الدويلة الفلسطينية بزعامة الشيخ ظاهر العمر ٠

أما على هوامش مدينة غزة وفى مضارب بدوها فقد أفاد « فولنى » عند زيارته لأكبر مشايخها شوكة وجاها قائلا « انى لم أتبين أن نفقاته تزيد على نفقات زارع كبير ، وكانت منقولاته عبارة عن عباءات وسجاد وأسلحة وخيول وابل لا يتجاوز قيمتها خمسين ألف ليرة » (٦٣) ٠

ومع اطلالة الربع الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٧٥ م) قام أحمد باشا الجزار المملوكى بالاستيلاء على ولاية عكا فى حين بقيت الأجزاء الجنوبية ومنها غزة بعيدا عن سيطرته فلم يصلها الا متقدما لصد الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٩ م ٠

---

(٦١) س٠ف ـ فولنى ـ سوريا فى القرن التاسع عشر ـ ترجمة حبيب البسيونى ـ الجزء الثانى ـ صيدا ١٩٤٩ ص ٧٤ ـ ٧٩ ٠

(٦٢) وصف مصر ـ علماء الحملة الفرنسية ـ ترجمة زهير الشايب ـ المجلد الرابع ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٧٨ ص ٣٦٦ ٠

(٦٣) فولنى ـ ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام ـ الجزء الأول ـ المرجع السابق ص ٢٤٧ ٠

بقيت غزة طيلة الربع الأخير تقريبا من القرن الثامن عشر تحت السيطرة العثمانية حيث عاشت فى قلق واضطرب تحت تسلط المتصرفين وعلى رأسهم متصرف القدس وغزة « محمد باشا أبو مرق » الذى كثرت مظالمه على جميع المدن الفلسطينية الواقعة جنوب القدس فى غزة (٦٤) وقام بخلع أغا خان يونس والذى سبق أن أعدمت السلطات العثمانية جدة وابن أخيه عبد الرحمن أغا وقام بتعيين عثمان أغا سنة ١٢١٤ هـ الموافق لسنة ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ م أى ابان الحملة الفرنسية على بلاد الشام بقليل (٦٥) ٠

ولعل قراءة فرمان التعيين الصادر من متصرف القدس وغزة ما يوضح كيفية التعيين الوراثى وما يخلفه من تهديد ووعيد لمن يخالف السلطة على الرغم من امتداد الرقعة الواسعة المناطة بسلطته : ـ

« مفاخر الأقران اغا قلعة خان يونس حالا عثمان أغا عبد الله » انه لسبب التكاسل الذى ظهر من عبد الرحمن أغا جاسر بالخدمة ونزوحه من القلعة وتركه اياها قد عزلناه وعيناك مكانه أغا على القلعة المذكورة وأذناك بالاقامة بها والتقيد بالخدمة الرخيه لدينا على نهج الصدق والصداقة وحفظ الطرقات من العربان وخلافهم من وادى غزة الى الشيخ زويد وأنت مأذون من لدنا بصد كل من عارضك من العربان أو قصدك بسوء أن تضربه بالرصاص وتهدر دمه ودائما تكون متنبها للأمور التى فيها رضانا ولا تخرج عن حد الاستقامة وان ظهر منك خلاف ذلك يحل بك الندم اعتمد ذلك غاية الاعتماد والحذر ثم الحذر من الخلاف ٠

١٩ رجب ١٢١٤ هـ ٠

متصرف القدس وغزة

عبده محمد

حتى أغا القلعة يتركها وينزح عنها فالخان وما حوله حتى هذه الفترة لم يحظ بالاهتمام العمرانى باستثناء تلك « السبيل » المجاور لضريح محمد الجراح السابق الذكر والواقع الى الشمال الشرقى من خان يونس ٠

---

(٦٤) عارف العارف ، تاريخ غزة ـ ١٩٤٣ القدس ص ١٨٤ ٠

(٦٥) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٢٣٣ ٠



الفصل الخامس عشر

الحملة الفرنسية

- ثورة أحمد باشا الجزار واستيلائه على غزة .
- الحملة الفرنسية تهدم جامع الجاولى والبيمارستان ومدرسة قايتباى وبعض المساجد الأخرى .
- ظهور قرية « أبو حليب » على وادى السلقا .
- اعدام أربعة شـــباب أزهريين من غزة بتهمة ايواء سليمان الحلبى قاتل كليبر فى القاهرة .



الحملة الفرنسية على فلسطين

لقد تفاقمت الأوضاع في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى وبلغت أوجها المصيرى على الساحة الفلسطينية وقطبها عكا التى تمركز بها أحمد باشا الجزار المملوكى البشناقى بعد موت سيده ظاهر العمر وذلك فى سبتمبر سنة ١٧٧٥ م ٠

لم يجد الجزار الطريق أمامه ممهدا عند استيلائه على السلطة فأول من تصدى له وقاومه أبناء ظاهر العمر وعلى رأسهم ولده الكبير « على » تعززه قوة عربية محلية أطلق عليها « عساكر العرب » من أهالى الجليل الفلسطينى ودخل معه الجزار بجنوده البشانقة والارناؤوط والمغاربة فى حروب طاحنة اتخذت من الجليل مسرحا لها حتى قضى عليهم بموت ابن ظاهر العمر سنة ١٧٧٦ م ٠

وبعدها واجه الجزار سكان جنوب لبنان « المتاولة » الذين سبق لهم ان ساندوا الشيخ ظاهر العمر ورفضوا بالتالى الاعتراف بسلطته والتعاون معه وذلك بامتناعهم عن دفع الميرى له (٦٦) ٠ فقاومهم بحروب ضارية بلغت أشدها فى عام ١٧٨١ وعامى ١٧٨٤ م ـ ١٧٨٥ م حتى تغلب عليهم وقضى على مقاومتهم وتمردهم مما أتاح له الفرصة بعد ذلك من تعيين « المتسلمين » لجباية الضرائب٠

بقيت هناك جبهة غير نظامية تهدد الجزار من البدو الممتدة مضاربها الى الشرق من المدن الساحلية والوسطى من أقصى شمال القدس حتى جنوب غزة ، قبائل مارست التمرد فى فترات التحلل السياسى والعسكرى المصحوبة غالبا بالتدهور الاقتصادى وانتشار المجاعة ولم يفلح فى اخماد تمردهم الا ان مقاومته لهم كانت عنيفة مما اضطر الكثير من القبائل للرحيل شرقا نحو الأردن (٦٧) ٠

فى هذه الأثناء لم يبد الجزار اهتماما بالتجارة الخارجية مع الدول الأوربية كما فعل سلفه لتدهور الحالة الزراعية فتحملت طبقات الشعب من مزارعين وحرفيين أعباء هذه الحروب ٠ وانفرد حكام الولايات بسلطتهم شبه المطلقة على الشعب فانتشرت الرشوة فى وقت أصبحت معه مكانة وسلطة أصحاب الوظائف المدنية خاصة « النقيب » وهى تفوق سلطة العسكريين فشددوا بقبضتهم على

(٦٦) Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p. 101.

(٦٧) Amnon, Palestine in 18 Century; Ibid, p. 94-110.

مقدرات الشعب ليشبعوا منافعهم الشخصية وبلغت بهم القوة والسطوة قدرا جعل السلطة العثمانية المركزية تستجير بهم فها هى ترسل «للنقيب» عبد الله نقيب القدس وتوابعها الممتدة فى غزة فى عام ١٧٧٦ م تطلب منه جمع الضرائب من السكان غير المسلمين فى منطقته · واستمر هذا الحال حتى سنة ١٧٩٨ م عندما أرسلت لنقيب القدس أيضا مساعدة الحاكم التركى فى جباية الضرائب من قبيلة « بنى حسن » شرقى القدس والتى نكثت بوعدها عن تقديم الضرائب (٦٨) ·

ولم يكن الحال بأسعد حظا فى غزة التى بقيت طيلة هذه الفترة تحت السلطة العثمانية التى يهددها الجزار من الشمال والتى كانت تطارد جنوده القبائل البدوية حتى جنوب الرملة كما كانت حركات التمرد واضحة ضد العثمانيين فى قلعة خان يونس حتى عام ١٧٩٨ ·

لقد وضع الجزار البلاد فى حالة من الاضطراب الدائم لم يتمكن خلالها من السيطرة الفعلية على السكان فقد بلغت على سبيل المثال ـ مجموع الضرائب المتحصلة من « ضريبة القطن » فى عهده ٣٥٠٠ آقجه فى حين نفس الضريبة بلغت قبل ذلك من يافا وغزة ألف آقجه)٦٩) اذ توحى هذه الأرقام بضآلة المساحة المنزرعة وتدهور الوضع الاقتصادى الناجم عن هجرة السكان الزراعيين عن قراهم والتوجه شرقا نحو المناطق الجبلية مما سبب ضمور الخريطة العمرانية لمواطن الاستقرار البشرى على الساحة الفلسطينية كما أفادت السلطة العثمانية بعد القضاء على أحمد باشا الجزار فى فرمانها الصادر سنة ١٨٠٤ ضده فقد جاء فيه :

« فالديرة بما أنها بوقت موت الجزار كانت على حال التلف الكلى من الظلم والجور الذى أحاق بها مدة ولايته بنهبه أموالها وأرزاقها وضبطه أملاكها وقتل وجوهها وغالب أهاليها حتى صارت يرثى لها ، فالذين من أهلها ووجوهها قتلوا انضبط مالهم ورزقهم والذين بقوا أحياء فغالبهم من الجور منهوبة أموالهم ومضبوطة أرزاقهم والذين أمكنهم الهرب هربوا لديرة الشام وتوطنوا فى جبل نابلس والقدس وعجلون والقنطرة والكبرك ·· وغيرها من تلك النواحى وما بقى غير الفقير العاجز من المابة عشرة » ·

وقد أضاف قنصل فرنسا فى صيدا يقول « ان مساحة الأرض الزراعية

---

(٦٨) د· بطرس أبو منه ـ أضواء جديدة على علو شان العائلة الحسينية فى القدس فى القرن الثامن عشر مجلة الشرق ـ العدد الثالث ـ السنة التاسعة ـ تموز ـ أيلول ١٩٧٩ ـ حيفا ـ ص ١٨ ـ ١٩ ·

(٦٩) Amnon, Palestine in 18 century p. Ibid, p. 264.

في فلسطين قد تناقصت الى « الربع في عهد الجزار » (٧٠) ٠

هذا التوجه السكاني شرقا وترك الفلاحين لمزارعهم نتيجة الحروب المستمرة في الجليل والساحل الشمالى أدى الى هجر بعض القرى ففى منطقة صفد ـ الرامة تناقصت القرى من ٣٥ قرية في القرن السادس عشر الى ١٥ قرية في نهاية القرن الثامن عشر في حين وصل عدد القرى في منطقة حيفا وعكا وحتى الناصرة الى ١٩ قرية في نهاية القرن الثامن عشر بعد أن كان عددها ٦٠ قرية في القرن السادس عشر (٧١) ٠

فان كان هذا هو حال البنية الاقتصادية المتدهورة والاجتماعية والعمرانية المخلخلة التى خلفها الجزار في الشمال الفلسطينى على وجه الخصوص هى على هذا المنوال فى الجنوب الفلسطينى خاصة فى منطقة غزة التى كانت حقا تمور بالتمردات والقلاقل ولكن بشكل لا يماثل ما كان فى الشمال على الرغم من تحفظنا للأرقام الصادرة عن الدولة العثمانية والقناصل الأجانب فنسبة ال ١٠٪ المتبقية في مدن الشمال كما جاء فى الفرمان العثمانى ومساحة الأرض التى تناقصت للربع هى أرقام تعوزها الدقة فالقناصل تدفقوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين للبلاد وأصبحوا رسلا يبعثون بتقاريرهم الشاملة لجوانب الحيـاة المختلفة في البلاد متأثرة بالأطماع السياسية والاستغلال الاقتصادى تماما كما كانت تصور الأوضاع السلطة العثمانية عند نهاية كل ثائر أو متمرد يبغي الاستقلال عنها ٠ حتى الرحالة فولني ، وملاحظاته في مصر وبلاد الشام والتى سبق لنا أن استشهدنا ببعض منها هى فى الحقيقة مثار للريبة والشك لو علمنا أن نابليون بونابرت تأثر بأقواله عندما حثه ضمن تقرير يدعوه فيه لغزو مصر تلك الثمرة الناضجة التى ستسقط مع أول هزة لها ٠ حيث بقيت هذه العبـارة تدور فى خلد نابليون ٠ ومن هنا جاء وصف المؤرخين له بأنه « غاز » بعقل عالم وروح جاسوس (٧٢) ٠

فاذا قيل عن الجزار بأنه أوهن البنية الاقتصـادية للبلاد زراعيا وحرفيا وتجاريا ، فانه وبحق حقق انجازا عسكريا لم يضاهه فيه أحد منذ طرد الصليبين في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ٠ وذلك بتدميره أعتى قوة أوربية ضاربة هى الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت الذى حاول جاهدا بعد الاستيلاء على مصر فى سنة ١٧٩٨م مباشرة وفى نفس العام للتوجه شمالا نحو فلسطين مستهلا ذلك بمقدمات دبلوماسية حاول عن طريقها التفاوض مع أحمد باشا الجزار لاستمالته٠

---

(٧٠) Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p. 327-328.

(٧١) Amnon, Palestine in 18 Century. Ibid, p. 126.

(٧٢) د٠ محمد متولى مقال بعنوان « الجذور التاريخية للثقافة الفرنسية في مصر » مجلة الهلال ـ عدد مايو سنة ١٩٨٥ ص ٥٨ ٠

ففي يوم ٢٧/٨/١٧٩٨م رد أحمد باشا الجزار لنابليون بونابرت هديته رافضا حتى مقابلة حاملها (٧٣) ·

وفي ٣/١١/١٧٩٨م أرسل أحمد باشا الجزار أحد الهجانة ومعه فرمان عليه طرة متضمنة « براعة الاستهلال والآيات القرآنية والاحاديث الشريفة أو الآثار المتعلقة بالجهاد ولعن طائفة الافرنج والحط عليهم وذكر عقيدتهم الفاسدة وكذبهم وتحيلهم » (٧٤) ·

ليؤكد بذلك رفض الاحتلال الفرنسي ومقاومته له وليس كما ادعى بونابرت بأنه ذاهب للشام بسبب هجوم الجزار لقلعة العريش الذى لم يصلها الا بعد ان سد الجزار في وجه نابليون كل سبل التفاوض والخداع ·

عندما اندفع نابليون بجنوده عبر سيناء فاستولى على العريش حتى وصل خان يونس فى فبراير ١٧٩٩م ودخل مدينة غـــزة فى ٢٥/٢/١٧٩٩م الموافق لأواخر أيام شهر رمضان المبارك فلم تكن هناك مقـــاومة عنيفة على الرغم مـــن امدادات متسلم يافا « محمد أغا الأمين العزونى » لغزة بقوة عسكرية بقيادة ولده محمود الذى قتل (٧٥) ·

وعند دخول الجيوش الفرنسية مدينة غزة قامـــوا بتوزيع المنشـــــور التالى : ـ

[من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية الى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى ونواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله أجمعين ، بعد السلام ـ نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم ، ولاى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه ، ولأى سبب أيضا أرسل عساكره الى قلعة العريش بذلك حجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده اجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه ·

فاذا أنتم يا أهالى الأطراف المشار اليها : فلم نقصد لكم أذيه ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين مرتاحين ، واخبروا من كان خارجا من محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ، ومن قبلنا عليكم ثم

---

(٧٣) المختار من تاريخ الجبرتى ـ اختيار محمد قنديل البقلى ـ الجزء الثالث ـ القـــاهرة ـ مطابع الشعب ١٩٥٩ ص

(٧٤) المختار من تاريخ الجبرتى ـ الجزء الثالث ـ المرجع السابق ص

(٧٥) احسان النمر ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء ـ الجزء الثـــانى ـ نابلس ـ ١٩٦١ ص ٥٥٦ ·

عليهم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى حالكم وما نملكه يدكم ٠

وقصدنا ان القضاة يلازمون خدمتهم ووظائفهم على ما كانوا عليه ، وعلى الخصوص أن دين الاسلام لم يزل معتزا ومعتبرا ، والجوامع عامرة بالصلاة وزيارة المؤمنين ، ان كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ٠

ولا يخشى أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا يغدو باطلا ولا نفع لهم به لأن كل ما نفع يدنا لا بد من اتمامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصر تفهمون جيدا أننا نقمع اعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص من كوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين] (٧٦) ٠

نلاحظ من سطور المنشور المبررات الواهية لأسباب حملة نابليون على بلاد الشام وهى تعدى الجزار على غزة وقلعة العريش ويدحض ذلك مراسلات نابليون مع الجزار الفاشلة قبل ذلك ٠ كذلك تفادى بونابرت فى منشوره ذكر السلطة العثمانية خوفا من نقمة المسلمين ضده فى الوقت الذى يضمر فيه سوء النية والقضاء على الأمة الاسلامية وقد عبر عن نياته تلك عند تحدثه لزميله الجنرال بورين وهم قبالة اسوار عكا قائلا : ــ

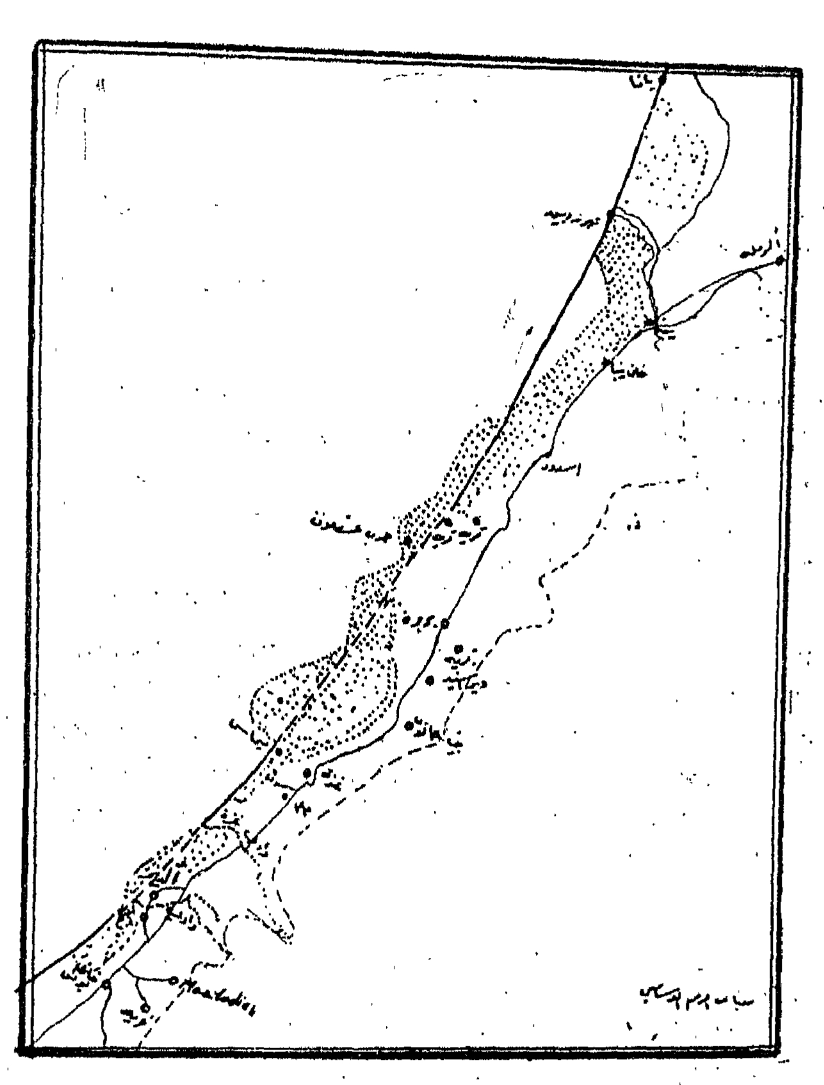
[« بورين ٠٠ اذا نجحت فى فتح هذه المدينة عكا كما أعتقد أننى سأنجح ــ فاننى سأجد فيها كنوز الجزار وأجد أسلحة تكفى لثلاثماية ألف جندى عندئذ أهيج أهالى سوريا الذين يبغضون الجزار لظلمه و ٠٠٠٠ ثم أسلح منهم جيشا عرمرما وأقصد دمشق وحلب فينضم الى القوم كمخلص لهم من المظالم ثم اسير بجيوش لفتح الآستانة وانشىء فى الشرق امبراطورية عظيمة الشأن «] (٧٧) ٠ تلك هى نيات بونابرت العدوانية التى دفنها الجزار تحت أسوار عكا ٠

وقد غنم الفرنسيون عند دخولهم غزة من مخازنها ما يوضح دورها كمحطة امداد وتموين للجيوش وكحجر قفز وتأهب عبر الصحراء جنوبا فقد استولوا على [حواصل مشحونة بالذخائر من بقسماط وشعير وأربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعا وحاصلا كبيرا مملوء بالخيام الكثيرة] (٧٨) ٠

ثم صور لنا الجبرتى جانبا من الحياة الاجتماعية فى قلب المدينة فى شهر رمضان قائلا : ــ

---

(٧٦) المختار من تاريخ الجبرتى ــ الجزء الثالث ــ المرجع السابق ص ٢٩٨ ٠
(٧٧) أحمد حافظ عودة ــ فتح مصر الحديث ــ القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٩٠ ٠
(٧٨) المختار من تاريخ الجبرتى ــ المرجع السابق ص ٢٩٩ ٠



خريطة (٣٧) « جاكوتين » للحملة الفرنسية للساحل الجنوبى الفلسطينى

كثبان رملية

خط سير الحملة

مدن وقرى

حدود المناطق الممسوحة

[« يسهر الناس فى القهاوى وزيارة الأصدقاء والسير بالليل بالفوانيس ·· والتسلى بالرواية والنقول ·· وكان القادة الفرنسيون يدعون أعيان المدينة للافطار على موائدهم »] (٧٩) ·

وهذا لا يمنع من وضوح الوجه الآخر للغزاة اذا ما أدبروا مهزومين وبعد أن تكبدوا خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد فى مدينة يافا ثم عكا التى أجهزت عليهم قوات أحمد باشا الجزار فارتدوا خائبين متذرعين بأكثر من ثلاثين سببا لعودتهم مهزومين ·

فقاموا بحرق جميع المدن الساحلية من يافا فى غزة كرد فعل لانتقام الضعفاء الذين أصابهم الطاعون وموت كبير المهندسين « كفرللى » المتخصص فى عمل المتاريس أمام عكا (٨٠) · مما جعلهم يضربون ويحرقون بقسوة وعنف لعدم احتمالهم اية مقاومة ·

وما ان وصلوا غزة حتى دمروا ما تبقى من سورها كما هدمـــوا جـامع البيمارستان الجاولى ومدرسة قايتباى والمدرسة الكمالية وجامع القلعة وزاوية الشيخ محمد شمس الدين أبى العزم محدثين بذلك الخراب والدمار فى وسط المدينة · ويقال أن نابليون بونابرت قد أقام فى القلعة « الدبويا » فى حين أقام جنوده فوق تلة المنطار [جبل شمشون كما جاء فى خريطة جاكوتين وبينما كانت القوات الفرنسية منسحبة جنوبا باتجاه خان يونس تطاردهـا قوات الجيش العثمانى · تعرضـت لهـــا قبـائل « الترابين » لتنقض على القوافل المحملة بالمؤن (٨١) · فحول خان يونس وفى جنوبها كانت تقطن عرب التياها والترابين وعرب بن البرانق يبلغ عدد فرسانها وفقا لما جاء فى « كتاب وصف مصر » ما بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ فارس كما لم تستطع أن تقدر الحملة الفرنسية عدد فرسان عرب الحناجرة فى حين قدرت عدد فرسان عرب الترابين القاطنين حول مدينة غزة فى منطقة « دير اللاتين » بنحو خمسمائة فارس (٨٢) ·

أما عرب الوحيدات فامتدت مضاربها جنوب خط عرض ٣١ درجة بين البحر المتوسط والبحر الميت لتشمل شمال النقب وشرق غزة حتى العريش وعدد فرسانها وفق تقديرات علماء الحملة الفرنسية ثلاثة آلاف فارس (٨٣) ·

---

(٧٩) المختار من تاريخ الجبرتى ـ المرجع السابق ص ٣٠٠ ·

(٨٠) المختار من تاريخ الجبرتى ـ المرجع السابق ص ٣٣٣ ·

(٨١) Amnon, Palestine in 18 century, Ibid, p. 108

(٨٢) وصف مصر ـ مجموعة من علماء الحملة الفرنسية ـ ترجمة زهير الشايب ـ المجلد الثانى ـ القاهرة ١٩٧٨ ص ٢٢ ـ ٢٣ ·

(٨٣) وصف مصر ـ المجلد الثانى ـ المرجع السابق ص ٢٦ ـ ٢٧ ·

وقد شملت دراسة الحملة الفرنسية جميع القبائل العربية الفلسطينية من خان يونس حتى أقصى الشمال حيث قدرت أيضا عدد سكان فلسطين بنحو ٢٠٠ الف) نسمة يعيش ٢٠٪ منهم فى المدن •

كما أفادت الحملة الفرنسية بأن مدن فلسطين ، وهى غـزة ويافا وعكا ونابلس والقدس كانت تصدر الصابون وزيت الزيتون والقطن والوبر وبذور النيلة والسمسم والأقمشة القطنية وكمية قليلة من الشمع تشحن جميعها من ميناءى يافا وعكا الى ميناء دمياط عبر البحر المتوسط فى حين يصدر جزء منها عبر الطريق البرى تحملها القوافل التى تقودها القبائل البدوية وقد بلغت كمية ما صدر عن الطريق البرى هذا نحو ألف الى الفى صندوق من الصابون [زنة كل واحد منها من ٧٠٠ ــ ٨٠٠ رطل وزنة الرطل ١٤٤ درهم] (٨٤) •

ولعل هذه التقديرات لعدد فرسان القبائل البدوية ومعها عدد سـكان فلسطين ووصف الحركة التجارية كما وكيفا فى عام ١٧٩٩ ما يناقض • ولو بقدر ما ــ تقديرات فولنى والقناصل والسلطنة العثمانية لهذه الفترة • حيث يصل معدل سكان كل مدينـة الى ١٦ ألفا كما أنها تؤكد بأن القبائل العربية البدوية اذا ما وجدت الأرض زرعتها ، واذا أتيحت لها الفرصة للتجارة قادتها ، أما اذا زاد التعسف والجور من قبل الولاة صدته •

كما قامت الحملة الفرنسية برسم خريطة للساحل الفلسـطينى أشرف عليها « الكولونيل جاكوتين » عليها جميع المدن والقرى التى مرت بها • وتعتبر هذه الخريطة أول خريطة لفلسطين بالمعنى الكارتوجرافى الحديث حيث تميزت بدقتها بدرجة لا تختلف كثيرا عن الخرائط الحديثة •

ومن دراستها يتضح عدم وجود « رفح » وان « خان يونس » هى بداية قرية بنى سهيلا وقرية الدير « دير البلح » ووادى غزة ثم مدينة غزة وميوما • ومن القرى الشمالية لم تظهر على الخريطة سوى قرية « بيت حانون » (٨٥) • [أنظر الخريطة ٢٧] •

ومما هو جدير بالتنوية ظهـور قرية صغيرة على وادى السلقـا تدعى « أبو حليب* » نسبة الى قبيلة عائلة تنتمى لهذه القبيلة •

---

(٨٤) وصف مصر ــ علماء الحملة الفرنسية ــ ترجمة زهير الشايب ــ المجلد الرابع ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٧٨ ص ١٦ •

(٨٥) I.E.J., 1960. An Analysis of Jacotin's Map of Palestine, pp. 172-173.

(★) ماتزال هذه القبيلة تقطن المنطقة الواقعة الى الشرق من دير البلح وشمال خان يونس •

(★★) هذا على اعتبار أن عدد سكان فلسطين ٤٠٠ الف نسـمة يقطن ٢٠٪ منهم مدن فلسطين الخمس الرئيسية وهى غزة ويافا ــ عكا ــ القدس ــ نابلس أى بما مجموعه ٨٠ الف نسمة فيكون عدد سكان كل مدينة ما يقارب ١٦ الف نسمة وفق تقديرات الحملة الفرنسية •

ذهبت الحملة الفرنسية عائدة لمصر ومعها عدد من أبناء المدن الفلسطينية ليزجوا بهم فى سجن القلعة بمصر بحجة تبديد ما عليهم من ضرائب !! على الرغم من عدم تواجد الفرنسيين لأكثر من سبعة شهور فى فلسطين ولم تفرج عنهم الا فى نهاية شهر أغسطس من سنة ١٧٩٩م .

كما أعدموا أربعة شباب من ابناء غزة المقيمين بالأزهر الشريف للتعليم بتهمة أيواء ومعرفة « سليمان الحلبى » قاتل كليبر (٨٦) .

لقد تركت الحملة لفرنسية بصمات عميقة ـ رغما عن قصر فترة احتلالها للساحل الفلسطينى ـ فقد أعاد نابليون انتباه معظم القوى الأوربية الى الشرق الأوسط عامة والى فلسطين بوجه خاص سياسته فبدأت أوربا فى تكثيف ارسالياتها التبشيرية للبلاد ودعم قناصلها وزيادتهم تمحكا بالتجارة ، وايفاد البعثات العلمية المتزايدة لتسبر غور امكانات البلاد الجغرافية والديمغرافية وبحجة البحث والاستطلاع أيضا ، ولكن جميعها سخرت كما سنرى وسيلة للغزو العسكرى فى الشرق الأوسط قاطبة .

وعاد العثمانيون مع نهاية آخر أيام سنة ١٧٩٩م وليبدأ القرن التاسع عشر بحكم البلاد كالعادة بعد انقضاء ثلاثة قرون تقريبا على السيطرة العثمانية التى بدأت تهتز مع حركتى ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار على مدى اكثر من نصف القرن الأخير .

ويبدو أن كلتا الحركتين لم يكن فى خلد قائديهما تكوين كيان سياسى مستقل أو دولة ذات سيادة منفصلة تماما عن السلطة العثمانية وأن طموحهما لم يتعد أكثر من الانفراد بنوع من الحكم الذاتى فى اطار الدولة العثمانية .

ولعل « النقود » من المعايير الاقتصادية الهامة ذات الدلالة السياسية على ذلك فعندما قام على بك الكبير بثورته فى مصر ضد السلطة العثمانية قام بضرب نقود تحمل اسمه أطلق عليها « عشرينية » (٨٧) . الا أنه كتب على وجهها الآخر اسم السلطان العثمانى « مصطفى الثالث » ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) . مما يؤكد اعتراف على بك الكبير بشرعية السلطة العثمانية . وعندما ارتد عنه قائده « أبو الذهب » أمر بابطالها [فخسر الناس خسارة عظيمة وباعوها بالأرطال للسبك] فهبطت قيمتها للضعف وبدأ تهريبها للمدن الفلسطينية ولمدينة عكا

(٨٦) المختار من تاريخ الجبرتى ـ المرجع السابق ص ٣٠٠ . وهم عبد الله الغزى ومحمد الغزى وأحمد الوالى وعبد القادر الغزى .

(٨٧) وصف مصر ـ علماء الحملة الفرنسية ـ ترجمة زهير الشايب ـ المجلد السادس ـ القاهرة ١٩٨٠ ص ١٢٠ ؛ كذلك النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ د. عبد الرحمن فهمى محمد ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢١ .

على وجه الخصوص عاصمة الشيخ ظاهر حليفه (٨٨) ٠

أما الشيخ ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار فلم يقوما بضرب نقود لهما على الرغم من سيطرتهما على البلاد لأكثر من ستين عاما بقليل حكم كل واحد منهما نصف هذه المدة تقريبا ٠

فى حين أعاد نابليون بونابرت تشغيل « الضربخانة » بالقلعة فى يونية ١٧٩٨ م وسك نقودا قال عنها « ضموئيل برنارد » بأنها كانت مقبولة فى السوق التجارية وتخلوا عنها فى يولية ١٨٠١م (٨٩) ولم يكن لهذه النقـــود بطبيعة الحال تداول فى فلسطين لقصر مدة السيطرة الفرنسية عليها ٠

وما دمنا بصدد ذكر « النقود » وانعكاساتها الاقتصادية الهامة على حالة البلاد فلنا أن نذكر بأنه لم يأت العثمانيون بأية اصلاحات للأنظمة النقـدية طيلة الثلاثة قرون المنصرمة بـل تعرضت قيمتها لعديد من الهزات المتتابعـة وصلت لحوالى ٢٤ تعديلا مختلفا لسعر المبادلة مما حدد معـه قيمـة العملة النحاسية والفضية والذهبية ولم يكن ذلك ناجم عن دراسة اقتصادية واعية من السلطة العثمانية بل هى أحداث افتعلتها لتجنى من ورائها الخزينة العثمانية قيمة النقود الاسمية وقيمتها الحقيقية ٠ فقد قامت الدولة العثمانية مرات عديدة بتخفيض قيمة عملتها المتداولة مما أثقل كاهل المواطن بالضرائب وزادتهم الحروب استنزافا خاصة اذا ما عجزت الامبراطورية عن الوفاء بتغطية التزامات الحروب ، عندها يلجأ السلطان لتوزيع « النقود النحاسية » على الشعب بالقوة واستبدالها منهم « بنقود ذهبية » ، لذا كثيرا ما احتج الشعب بالاضراب عنها فقال ابن اياس واصفا هذه النقود [« انها فى غاية الخفة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك وحصل لهم الضرر الشامل وأغلقت الدكاكين »] (٩٠) ٠

---

(٨٨) د٠ عبد الكريم رافق ـ العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ـ المرجع السـابق ص ٣٥٦ ٠

(٨٩) وصف مصر ـ المجلد السادس ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(٩٠) د٠ عبد الرحمن فهمى محمد ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ المرجع السابق ص ١٢٠ ـ ١٢١ ٠

الفصل السادس عشر

غزة وقطاعها

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

- تمرد اهالى غزة بقيادة مصطفى الكاشف ضد العثمانيين
- حملة ابراهيم باشا وتغير المفاهيم الادارية والاقتصادية
- عائلات مصرية تستوطن فى غزة
- اصدار المنشورات والتنظيمات الادارية والاجتماعية العثمانية



ان القاء نظرة دقيقة داخل مدينة غزة للتعرف على تركيبها الوظيفى وبنيتها الديمغرافية يساعدنا على تقييم مكانتها وهى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، ذلك القرن المتميز بأحداث محورية هامة اكتنفته طفرات صناعية عالمية واكتشافات علمية ودراسات اركيولوجية ووقائع وأحداث تاريخية رافقتها تدخلات أوربية تبشيرية واستعمارية غيرت من مجريات الأحداث وخلقت معه مجتمعا له مميزات وملامح اقتصادية وسياسية مغايرة لما سبقه من قرون خلت ، كان من أهمها ظهور الحركة الصهيونية بما أحدثته من تغيرات كما سنرى ٠

فمدينة غزة بلا شك قد أصابها نوع من الضمور الوظيفى كمحطة على الطريق والتذبذبات الديمغرافية فمع بداية القرن التاسع عشر أصبح بها أربعة آلاف منزل وحوالى خمسمائة دكان ٠

وصناعيا وصل عدد أنوال النسيج الى أربعين نولا ٠ بالاضافة الى مصنعين للصابون وست معاصر لزيت الزيتون (بدود) ودكان للدباغة وستة مقاه يتوسطها جميعا « خان الزيت » وفى قعبه السوق لايواء المسافرين ومسلخ واحد (٩١) ٠

ومع ما للتعليق على الأرقام من حساسية فى هذه الفترة التى يعوزها الاحصاء الدقيق الا أننا نبقى منجذبين لها ومضطرين للأخذ بها ــ لما تلقيه لنا من أضواء نتلمس من خلالها مدى نماء المدينة ولكن بشىء من التحفظ ٠

ففى المجال الديمغرافى ندرك أن هناك فارقا بينا بين عدد المنازل قبل قرن ونصف من الزمان تقريبا « ١٦٤٩ م » وعما هو عليه الآن حيث وصل عدد المنازل الى أربعة آلاف منزل مقابل ١٣٠٠ منزل أيام جلبى (١٦٤٩م) وهذه الزيادة تقدر بأقل قليلا من أربعة أمثال ما كانت عليه من الصعب أن نصفها بأنها كبيرة أو ضئيلة اذا ما أخذنا فى الحسبان ما انتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين من الفوضى الادارية وكثرة الحروب الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوربية مع ما يلازمهما من ضغوط داخلية على السكان ٠ والانتفاضات الداخلية التى استمرت لأكثر من نصف قرن مع ما رافقها ونجم عنها من اضراب داخلى ٠

---

(٩١) عارف العارف ــ تاريخ غزة ــ القدس ١٩٤٣ ص ١٨٨ ٠

وبطبيعة الحال لابد من ازدياد عدد السكان الذى تراوح ما بين ١٢ ألف الى ١٦ ألف نسمة مع بداية هذا القرن لاستتباب الأمن الى حد كبير وعودة معظم السكان من القرى والمناطق الجبلية الشرقية الى المدن فالهجرة الداخلية تتلازم تلازما طرديا مع فقدان الأمن والحروب وأحيانا هروبا من دفع الضرائب المجحفة واتقاء من شر فرسان السلطة وابتزاز الولاة للمواطنين كما أشار كثير من الرحالة وكما ورد فى منشور نابليون بونابرت اذا ما قارناه بعدد السكان أيام فولنى سنة ١٧٨٤ حيث لم يتجاوز ألفى نسمة ٠

الا أنه لم يصاحب ازدياد السكان هذا ازديادا متماثلا أو متناسبا مع عدد المرافق الاقتصادية من « دكاكين » فبعد ان كانت ٦٠٠ دكان سنة ١٦٤٩م انخفض عددها الى خمسمائة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى ليظهر عدم القدرة الشرائية لدى المواطن ، وعدم استقرار السوق الاقتصادية ، واضطراب حالة النقد وتدهور قيمتها كما أسلفنا بالاضافة لصعوبة الاتصال ، وانهيار عنصر الأمن طيلة النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى وكذلك قلت معه عدد مصانع الصابون فوصلت الى مصنعين بعد أن كانت ثلاثة مصانع سنة ١٧٨٤ م حيث كانت تصدر الصابون لمصر كما هبطت صناعة المنسوجات فى نفس الفترة من خمسمائة نول سنة ١٧٨٤ م الى أربعين نول فقط !!

فان صح هذا الرقم فان السنوات الأخيرة من حكم أحمد باشا الجزار وتحدى السلطة العثمانية له وهى على أرض غزة ثم استيلائه عليها لمجابهة الحملة الفرنسية ثم استيلاء الفرنسيين على المدينة وما أصابها من تدمير من جرائها وسيطرتها على الطريق الساحلى الهام ٠

أدت هذه الظروف جميعا الى نقل طريق التجارة التى تتوسطه غزة الى الشرق عبر الطريق الجبلى الممتد من السويس الى القصيمه فبئر السبع فالخليل الى منطقة اللسان بالبحر الميت ومنه الى الأردن (٩٢) فأصاب هذا التحول مدينة غزة بالذبول الاقتصادى وضعف الحركة التجارية طيلة هذه الفترة ٠

ولم تنعدم الجوانب الترفيهية بالمدينة ففيها « ست مقاه » حيث يتجمع بعض الناس لقضاء أوقات فراغهم ويستمعون أحيانا الى قصص البطولات والنقول من الراوى كما أوضح الجبرتى بالاضافة لوجود « خمارة » واحدة ٠

تلك هى مقومات المدينة الاقتصادية والديمغرافية مع بداية القرن التاسع عشر حيث غادرها نابليون بونابرت مدحورا لمصر وجاءت من بعده القوات العثمانية فتولى أمر غزة وقراها رجل تميز بالقوة والجبروت وهو

---

(٩٢) C. Klien, on the fluactualist of the level of the Dead Sea the begining 19 century, Hydrological Paper, No. 7, Jerusalem, 1965.

« محمد أغا أبو نبوت » فعين متسلما لغزة ويافا سنة ١٨٠٧ م فكان أهلا لفترة تميزت بعدم السيطرة على الأمن ٠

فعمل على كبح جماح عرب « الهنادى » المتسلطين على غزة وتجارها كما قضى على الفتنة بين قبائل قيس وعين فى المناطق الجبلية بالقدس التى كثيرا ما كانت تقطع سبل التجارة والاتصال بين المدن (٩٣) ٠

وهكذا أصبحت مدينة غزة فى تدرج السلم الادارى « متسلمية » أى مركزا لنائب المتصرف بعد أن كانت تدار مباشرة من قبل المتصرف التركى فى القدس ٠

وقد استمر « محمد أغا أبو نبوت » متسلما على غزة فى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٠٧ حتى سنة ١٨١٨ م غادرها بعد ذلك لمصر وبصحبته أموال طائلة استنزفها من الضرائب والاعشار المتحصلة من المدن والقرى الجنوبية لفلسطين ٠

وبعد عام سنة ١٨١٨ م تولى متسلمية غزة « مصطفى أغا الوكيل » فشجع هذا الرجل الزراعة فى المناطق الشرقية لمدينة غزة فأقام المخافر أولا لدرء الخطر عنها مشجعا بعد ذلك أبناء غزة خاصة من احيائها الشرقية (الشجاعية) للتوجه نحو قرى « هوج » والكوتى والمحرقة فأقطعهم بعضا من أراضيها لزراعتها وتعميرها (٩٤) ٠

وبعد عام ١٨٢٠ م تقريبا أصبحت متسلمية غزة تحت امرة « حسين أغا » وشملت الرملة حتى مدينة يافا وتم ذلك عن طريق عبد الله باشا والى (عكا وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة ويافا ونابلس والقدس) ٠ ثم تولى من بعده مجموعة من « المتسلمين » فى مدة لا تتعدى ست سنوات وحتى الحملة المصرية على الشام وهم (عيسى أغا المشعلجى سنة ١٨٢١ ثم سليمان أغا سنة ١٨٢٦ م وصالح أغا البشناق سنة ١٨٢٧ م ثم محمد أغا بن سليمان زينه الغزى وأخيرا ابراهيم أغا بازه الذى كان حاكما عند دخول الجيوش المصرية الشام فى أكتوبر سنة ١٨٣١ م) ٠

فان دل هذا فانما يدل على عدم استقرار الأمن فالعثمانيون لم تعد لهم الثقة التامة بالمتسلمين نتيجة عدم استقرارهم واطمئنانهم لهم كما أنهم — أى السلطة العثمانية — فقدوا عنصر التركيز وضبط الأمن أمام تعديات القبائل البدوية لاختلال الأوضاع الاقتصادية مما دفعهم لتغيير المتسلمين بشكل سريع

---

(٩٣) P.E.F., 1908 pp. 37-40.

(٩٤) مصطفى الدباغ — بلادنا فلسطين — الجزء الأول — القسم الثانى — بيروت ١٩٦٦ ص ٩٥ — ٩٦ ٠

جريا وسعيا بشتى السبل لاعادة الاستقرار فلا غرابة أن يعبر قضاة غزة عن تذمرهم للأوضاع كما جاء على لسان أحدهم قائلا :

[ان « المتسلمين» لم يفعلوا شيئا لايقاف تعديات البدو بعد أن كان « أبو نبوت » قد أخلدهم للسكينة] ويستطرد القاضى الغزى قائلا أما اليوم (فأكثر من ستة آلاف بدوى يسرحون ويمرحون دون أن يجرد عليهم عبد الله باشا جنوده) . كما قدر هذا القاضى ما يصيب أهالى غزة من السلب بأكثر من « عشرة آلاف كيس سنويا » مؤكدا أن الحكام والولاة لا يهمهم سوى سلمية ونهب أموال الناس دون كلل ، مشبها اياهم « كرمال الصحراء التى لا ترتوى » وكالمطرقة الثقيلة على رؤوس الغزيين (٩٥) .

وقد ظلت هذه المطرقة ثقيلة بطرقاتها ليس فقط على رؤوس الغزيين بل وعلى معظم رؤوس أبناء المدن الفلسطينية فى ظل حكم « عبد الله باشا » الوالى التركى .

فثارت ضده جميع المدن الفلسطينية ومنها نابلس فجرد لهم جيشا تؤازره قوات من بشير الشهابى أمير جبل لبنان استمرت تضرب بأهل هذه المدينة لبضعة شهور (٩٦) . مما دفع قاضى غزة للقول (« كان على عبد الله باشا يرسل جنوده لمقاومة اللصوص الذين يسلبون غزة بدلا من مقاتلة أبناء نابلس !! ») . واستمرت الثورة تستعر فى معظم المدن الفلسطينية متحدية عبد الله باشا .

وقد عبر عنها أبناء مدينة غزة بطردهم « وكيل الجمارك » الذى بعثه الوالى عبد الله باشا فاتحدوا جميعا تحت قيادة « مصطفى الكاشف » الغزى الذى نجح فى استقطاب عرب التياها والترابين معه ينتظرون رد فعل الوالى الذى ارسل لهم كتابا يهددهم « صادر من ديوان دار الجهاد محروسه عكا المحمية » جاء فيه : ـ

(طرق مسامعنا أن بهذا الاثناء تظاهرتم بالعصيان لطرفنا وقد صار بينكم وبين عرب التياها والترابين اتفاق وبذلك الوقت كان متسلمنا فى لواء غزة والرملة ويافا ـ حسين أغا ـ زيد مجده قد أرسل لطرفكم وكيلا من طرفه على الجمرك فطردتموه وسحبتم أعناقكم من قلادة الطاعة وقد استغربنا هذا الحال) .

هذه الفقرة من الرسالة تكشف جانبا اجتماعيا وحيويا للوحدة الوطنية بين

---

(٩٥) سليمان أبو عز الدين ـ ابراهيم باشا فى سوريا ـ بيروت ١٩٢٩ ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٩٦) عبد المنعم محمود باشا ـ ابراهيم الفاتح ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ ص ١٥٦ .

أبناء الشعب الواحد فى مدنه وقراه وبواديه اذا ما اشتد الخطب ، وليؤكد بأن البدو من الأهل لم يكونوا ليقطعوا الطرق أو يعتدوا على المدن الا فى وقت تعزفيه الأقوات وتقسوا السلطة على السكان بجمع الضرائب ..

فقد جاء فى سطور الرسالة أيضا (كان أيالة غزة ديانا والرملة وتلك النواحى مالكانه لنا ببراءة مخلدة بيدنا بمدة حياتنا ، وأن أموال الميريه المرتبة من قديم الأيام وسالف العصر والأوان ، وبورود جناب شيخنا الشيخ محمد أفندى سكيك لطرفنا سمحنا منها بمقدار وافر مرحمة للفقراء وتلطفا للرعايا .)

اذا لم يكن هذا التذمر واعلان الثورة والتمرد آت من فراغ فالضرائب الفادحة فى صورة الاموال الاميرية . على الرغم من تلطفه بتخفيفها عن الفقراء هى من المحكات المباشرة على الثورة .

كما لم ينس الوالى عبد الله باشا أن يهددهم محاولا أن يذكرهم بما فعله مع ثوار « راشيا » بجنوب لبنان وابناء « جسر بنات يعقوب » من قتل وقمع وكذلك مجازر « المزة » بدمشق وكيف قضوا على كل هؤلاء عندما ثاروا ضدهم ليوضح بالتالى شمولية الثورة والاستياء . فاستطرد فى رسالته لأبناء غزة مهددا ومبينا علاقته بوالى مصر محمد على الذى أثبت جدراته العسكرية لدى السلطان العثمانى بقمعه الحركة الوهابية بالجزيرة العربية وحربه مع بلاد المورة فى اليونان . فقال (ان بجواركم الحاج محمد على باشا واظهار زيادة ميله وحبه القلبى لطرفنا ومهما طلبنا عساكر من جانبه فلا يمنع من تسايرهم ») (٩٧) .

مطالبا أهالى غزة وبعد هذا التهديد والوعيد بتسليم « مصطفى الكاشف » قائد التمرد وارساله لمدينة يافا .

وفشلت كل محاولاته وتهديداته أمام السكان خاصة فى عصر سمى « بعصر القومية » حيث قام كل شعب يعيش تحت السيطرة العثمانية بالثورة كى ينال استقلاله فقامت ثورات قومية فى البلقان تطالب بالتحرر والاستقلال ، كما بدأت فرنسا بالاستيلاء على دول شمال افريقية (الجزائر سنة ١٨٣٠م) حتى داخل تركيا نفسها بدأت بذور القومية تنمو فى صدورهم ، فلم يكن غريبا والحالة هذه أن تستعر نار القومية فى بلاد الشام ضد السلطة العثمانية فى دمشق وجسر بنات يعقوب وراشيا ونابلس حتى غزة . خاصة وبجوارهم محمد على باشا والى مصر الذى بدأ يتمرد على الامبراطورية العثمانية ــ مخيبا آمالها فى شخص عبد الله باشا والى عكا الذى توعد أبناء غزة به .

---

(٩٧) عارف العارف ــ تاريخ غزة ــ القدس ١٩٤٣ ص ١٨٥ ــ ١٨٧ .

فقد وجد محمد على باشا الطريق أمامه ممهدا لغزو الشام قبل ان يجف مداد تهديدات عبد الله باشا بأقل من عام بل اتخذ منها سببا لغزوه . ومن آثار هذا الرجل فى غزة تجديده لزاوية الهنود فقد جاء على بابها (« أمر بتجديد زاوية الهنود الراجى لثواب الملك المعبود الطامع فى سعة بحر كرمه الممدود ، حضرة سيد الوزراء العظام أفندينا وولينا السيد عبد الله باشا فى غرة رجب سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م (صورة رقم ١٤١) .

حملة ابراهيم باشـــا

١٨٣١م ـ ١٨٤٠م

لم تكن حرب محمد على باشـــا والى مصر على بلاد الشـــام وليدة عـــام ١٨٣١م عام الغزو . بل لقد كان حلم الاستيلاء عليها شغله الشاغل منذ توليه الحكم فى مصر مما يدحض الادعاء القائل بأن حملته على الشام تعويض لما خسره فى حرب « المورة » ومن قبلها الجزيرة العربية يكشف ذلك قنصل فرنســـا فى مصر المسيو «دورفيتى» الذى كاتب حكومته سنة ١٨١٠م قائلا « ان محمد على طلب من السلطان ولاية الشام محتجا بأنه فى حاجة لطاقاتها البشرية والمادية لمعاونته على قتال الوهابيين » .

وفى رسالة أخرى بعثها نفس القنصل فى سنة ١٨١١م الى بلاده قـــائلا (« ان محمد على يطمع فى ولاية ســـوريا وقد قال لى يوما انه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال قدره سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزينة السلطان ») (٩٨) .

فالتفكير اذن فى الاستيلاء على الشام مبيت لدى محمد على كهدف حيوى بالنسبة له منذ القدم ، ولكن تمخضت الظروف السياسية مع بداية ثلاثينات القرن التاسع عشر عن تمهيد الأسباب والذرائع للغزو ، مهد لها محمد على باشا بالفعل فى سنة ١٨٢٢م عندما احتضن الأمير بشير الشهابى الذى فر من السلطان نتيجة ولائه لعبد الله باشا المخلوع من قبل السلطان والمؤيد له ، فأحسن لقاءه ، وأعلن تأييده له فأرسل للسلطان كتابا يقول فيه (اذا لم يرجع عبد الله باشا كما كان ، يضطره الأمر الى الخروج عن الطاعة) هكذا أعلن محمد على تأييده للاثنين ضد السلطان الذى بدوره أعلن عفوه عنهما شريطـة أن يدفع عبد الله باشا للسلطان ستين ألف كيس الى الخزينة قام محمد على بتسديد جزء منها لعدم قدره عبد الله باشا على دفعها جميعا وبذلك استثمر

(٩٨) عبد المنصف محمود ـ الفاتح ابراهيم باشا ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

محمد على باشا بحنكته السياسية هذا الموقف السياسى طالبـــا من الأمير الشهابى أن يعد له أربعة آلاف مقاتل من لبنان لمساندته فى حرب المورة ـ ان دعت الحالة ـ كما طلب من عبد الله باشا سرا أن يهيىء له عشرة آلاف مقاتل لحماية ظهره وهو زاحف لتركيا (٩٩) .

وبناء على هذه العلاقة السرية هدد عبد الله باشا من قبل أبناء غـــزة بزميله محمد على كما ذكرنا فى الوقت الذى أخذ فيه الأخير يحشد طاقاته البشرية ويجبى الضرائب لاعداد العدة مما أدى الى فرار عديد من الأسر المصرية من منطقة الشرقية خاصة « بلبيس » متوجهين نحو فلسطين بأعداد وصلت حتى عام سنة ١٨٣١م نحوا من ستة آلاف نسمة سكن معظمهم غزة وقراها الشرقية والشمالية والجنوبية (*) (١٠٠) . مما حذى بمحمد على باشا أن يطالب عبد الله باشا فى عكا اعادتهم له لأن فى ذلك اهدارا لطاقاته البشرية والاقتصـــادية فى مصر فرد عليه عبد الله باشا قائلا (ان هؤلاء الستة آلاف رعايا السلطان وشأنهم هنا كشأنهم فى مصر فان شئت فاحضر لأخذهم ») . فرد عليه والى مصر مهددا (« انى ساحضر لأخذ ستة آلاف وواحد فوقهم ») (١٠١) .

لقد أخذت العزة عبد الله باشا الشاب بالاثم فأساء علاقته بمحمد على صديقه مدعيا بسوء معاملته له فرفض تسديد ما عليه من ديون وبدأ فى تنفيذ مقاطعته الاقتصادية لمصر فمنع عنها تصدير « بذور التـوت » المستخدمة فى تربية دودة القز ثم عمل على تحويل تجارة الحاصلات المصرية الى طريق سيناء البرى بدلا من تصديرها من الموانىء عبر البحر وذلك لتعريضها لعمليات النهب والسلب ، خاصة وأن عرب الرتيمات كانت تتربص للقوافل هـــذه وتنقض عليها كما فعلت فى قافلة قد خرجت من غزة سنة ١٨٣٠ فسلبت كل حمولتها بعد معركة مشهورة عند العريش (١٠٢) .

لقد عجلت هذه العوامل من تنفيذ محمد على لرغباته ، ولم تجد الدولة العثمانية لنفسها دورا حاسما بين المتخاصمين أكثر من أن ترسل خطابا لمحمد

---

(٩٩) عبد المنصف محمود ـ ابراهيم الفاتح ـ المرجع السابق ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(★) من هؤلاء الأسر ، عائلة قمحاوى ـ المصرى ـ العزيزى ـ القطب ـ غزالة ـ عميرة ـ حجاب ـ أبو العافية ـ أبو طبيخ ـ خشانة ـ البلبيسى ـ الحناوى ـ القنـــاوى ـ أبو لبن ـ أبو ضبة ـ عرفة ـ الشيخ على ـ أبو جياب ـ الأعوج ـ الدمياطى ـ .. الخ

(١٠٠) الشيخ عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٠١) عبد المنصف محمود ـ ابراهيم الفاتح ـ المرجع السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

(١٠٢) ابراهيم أمين غالى ـ سيناء المصرية عبر التاريخ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٠٠ .

على يدل بشكل قاطع على مدى الضعف الذى وصلت اليه سلطة الباب العالى جاء فيه : ـ

(« ان شكوى بعض التجار لا يمكن ان تسوغ تحكيم الحسام واشعال نار الحرب وان ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى باشهار السيف بل يتدخل الباب العالى ») (١٠٣) ٠

وبهـــذا لم يبق لمحمـــد على والى مصر من أسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية الا وقد توفرت له مؤمنا « بأن الشام باب الديار المصرية » (١٠٤) وتأمين سلامة حدوده وخدمة الدين كما جاء على لسان رفاعه رافع الطهطاوى واعظ الجيش المصرى وباعث الحركة العلمية معللا فتوحات محمد على بأنهـا « لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، اذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة ، تحسبهم أيقاظا وهم رقود » (١٠٥) ٠

اندفعت قوات محمد على بقيادة ابنه ابراهيم باشا بحرا وبرا فاستولت على خان يونس ثم عسكرت بظاهر مدينة غـــزة الجنوبى حتى أقتحموها فى أكتوبر سنة ١٨٣١ م دون مقاومة تذكر ثم حاصر الاسطول المصرى البحرى مدينة عكا فى ٢٦/نوفمبر سنة ١٨٣١م وظل محاصرا المدينة حتى سقطت فى ٢٧/مايو سنة ١٨٣٢م بعد مقاومة ضارية فى حين استولت القوات البرية على مدينة القدس فى ديسمبر سنة ١٨٣١ م (١٠٦) ليكتمل له الاســـتيلاء على فلسطين كلها ، مستمرا فى اندفاعه شمالا نحو سوريا وتركيا ليكمل مسيرته ٠ وقد أجاب ابراهيم باشا على سؤال وهو يحاصر عكا الى أى حد ستصل فتوحاتك اذا ما سقطت عكا ؟ فأجاب (« الى مدى ما يتكلم الناس اللغة العربية ») (١٠٧) ٠

ويمكن اعتبار التواجد المصرى فى فلسطين نقطة تحول هامة فى المجالات السياسية والاقتصـــادية وحتى الادارية والاجتماعية بالغة الأهمية تركت آثارا عميقة هى أشبه فى الواقع بثورة غيرت مناحى الحياة على الرغم من قصر مدة هذا التواجد الذى لم يتعد لتسع سنين الا ببضعة شهور ٠

فعلى صعيد الزراعة عماد البلاد الاقتصادى تركزت اهتماماته بالمناطق

---

(١٠٣) د٠ هنرى دودويل ـ الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على ـ ترجمة أحمد محمد عبد الخالق بك ـ القاهرة ٠٠٠ ص ١٢٣ ٠

(١٠٤) محمود عوض ـ وعليكم السلام ـ دار المستقبل العربى ـ القاهرة ١٩٨٤ ص ٥٧ ٠

(١٠٥) د٠ محمد عمارة ـ تيارات اليقظة الاسلامية ـ كتاب الهلال أغسطس ١٩٨٢ ص ٩٤ ومأخوذ عن كتاب الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ـ ج ١ ص ٥٣٤ ٠

(١٠٦) عبد المنصف محمود ـ ابراهيم الفاتح ـ المرجع السابق ص ١٦٠ ٠

(١٠٧) لويس عوض ـ تاريخ الفكر المصرى الحديث ـ المجلد الأول ـ القـــاهرة ١٩٨٠ ص ٣٧٠ ٠

السهلية لنشر الأمن والهدوء بادىء ذى بدء فارتدت القبائل البدوية لقلب الصحراء داخل النقب وسيناء .

شجع بعدها زراعة القطن ، ومنح الفلاحين « حق رفع الشكوى ضد الملتزمين » الذين اتسعت سلطتهم فى هذا القرن بصورة فاقت حدود التزاماتهم الجغرافية فامتدت بامتداد قدراتهم العائلية والعصبية وبمقدار ما يخضع لسلطتهم من أناس يدورون فى فلكهم كجباة للضرائب حتى منحوا حق استخدام قوة مسلحة لجمع الضرائب تأتمر بأوامرهم (١٠٨) .

وعليه شجع ابراهيم باشا الفلاحين ومنحهم حق الاعتراض . ثم حاول جاهدا تركيز القبائل البدوية بحثهم على انشاء علاقات تجارية ثابتة مع سكان القرى والمدن واقناعهم بمزاولة حرفة الزراعة محاولا بالتالى توسيع رقعة المزروع من الأرض خاصة شرق مدن السهل الساحلى . مما شجع الشيخ سعيد المصطفى متسلم سنجق غزة ان يدفع ببعض اهالى مدينة غزة بالتوجه شرقا واستغلال الأراضى فى الزراعة فسكنوا قرى برير وقبيبة والسكرية وهوج والكوفخة (١٠٩) . كما شاهد ذلك « روبنسن » فيما بعد سنة ١٨٣٨ عندما رأى بعض أبناء القبائل البدوية يمارسون الزراعة (١١٠) .

ثم عمل على تأمين الناس على أملاكهم وحمايتها فانعش حركة التجارة بين مصر وفلسطين بعد أن قام بترميم الطريق الساحلى لتصبح غزة محطة تجارية بين مصر والشام .

وبحكمته قطع دابر الرشوة بشهادة القبائل الانجليز فى البلاد سنة ١٨٣٦ م (١١١) .

وقام بتوزيع الضرائب توزيعا عادلا فارضا ضريبة جديدة « ضريبة الفردية بواقع خمسين قرشا على كل شخص خفضها لتتراوح ما بين ثلاثين الى خمسين قرشا وفقا لثروة الفرد ودخله (١١٢) .

---

(١٠٨) د. هنرى دودويل ــ الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على ــ المرجع السابق ص ١٢٨ .

(١٠٩) E. Robinson, Biblical Researches in Palestine and in the adjacent Regions, A journal of Travels in the year 1838, II, London, 1841, pp. 384-385.

(١١٠) I.E.J. Vol. 3, 1953, Jerusalem, pp. 353.

(١١١) هنرى دودويل ــ الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على ــ المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(١١٢) هنرى دودويل ــ الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على ــ المرجع السابق ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

واجتماعيا استطاع ابراهيم باشا أن يساوى بين الناس جميعا فعمل على اطلاق الحريات الدينية على أرض حباها الله بجميع المقدسات ، واوضح ذلك برسالة بعثها لمفتى الاسلام فى القدس وباقى المدن الفلسطينية جاء فيها : —

(« أسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة « نهر الاردن » شيئا من الكلفة والمغارم ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموا الصغار بدفع المال ، فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم لها والسلام عليكم ورحمة الله ») (١١٣) ·

هذه المزايا والاصلاحات الجذرية كانت بمثابة تحولات ثورية لم يعهد مثلها المواطن من قبل كما أنها شكلت خطرا ليس فقط على السلطة العثمانية بل وعلى جميع الدولة الأوروبية المتربصة بالمنطقة مما دفع السيد « دبرى » الى القول بأنه (« اذا استمر العمل بهذا النظام فانه كفيل بأن يؤدى الى أجزل الفوائد ») (١١٤) ·

لذا نشط الأوربيون والعثمانيون أمام هذه الموجة العاتية للدولة النامية فى استغلال كل صغيرة وكبيرة لتأليب الأهالى ضد ابراهيم باشا فاستغلوا ما قام به من « تجنيد اجبارى » وما نجم عنه من حل الجيوش الاقطاعية واستغلالها « لدواب الحمل » لدى الفلاحين لنقل العتاد العسكرى بأجور زهيدة وتسخير بعض العمال فى بناء التحصينات العسكرية (١١٥) ، وتجريد السكان من السلاح باستثناء « المخاتير والنواطير » (١١٦) وهى جميعا تعللات أجنبية واهية ·

وكان من أهم الأسباب التى استثمروها سياسة التسامح الدينى التى مارسها ابراهيم باشا عند فتح المجال أمام البعثات التبشيرية فاتخذت التعليم وفتح المراكز التعليمية ستارا تختبىء من خلفه وعلى رأسهم البعثات الفرنسية والامريكية تحولها هؤلاء جميعا وعلى رأسهم الانجليز الى شحنة من الحقد

---

(١١٣) عبد المنصف محمود — ابراهيم الفاتح — المرجع السابق ص ١٦١ ·

(١١٤) عبد العزيز عوض — الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ — ١٩١٤ — المرجع السابق ص ٢٨٣ ·

(١١٥) هنرى دودويل — الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على — المرجع السابق ص ٢٨٦ ·

(١١٦) P.E.F., 1908, pp. 40.

السياسى شحنوا بها عملائهم ومنهم « ريتشارد وود » فأرسلوة لجبل لبنان لاقناع المارونيين بالتوجه الى القناصل الأوربية والاحتماء بهم بمجرد ضرب ميناء بيروت . كما حرضوا اليهود باقامة دولة لهم (١١٧) .

واستغل الاتراك هذا التسامح من جانبهم فأرسلوا أشخاصا لمدينة نابلس تعمل على التحريض كما أفاد بذلك القنصل الانجليزى « كامبل » ضمن مذكراته يوم ٣٠/يونيه سنة ١٨٣٤ م عندما كتب بأن أحد الاتراك صعد على احدى مآذن مدينة نابلس وأخذ يصرخ قائلا :

(« ألم يعد ثمة وجود للديانة الاسلامية هل تلاشت وعفا أثرها ـ ألسنا عثمانيين فليهرع كل من يحب النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى السلاح وليصمد لذلك الرجل الذى يسمى ابراهيم باشا الذى لا ايمان له ذلك المدمن الذى يعاقر الخمر ويأكل الخنزير وكل من يخرجه البحر من قاذورات ») (١١٨)

كما دفع الأوربيون رعاياهم بعدم الاهتمام برجال السلطة وحرضوهم حتى ضد حكام الأقاليم فها هو كنغليك الذى وصل لمدينة غزة سنة ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ م قد جاءه حاكم غزة بنفسه وهو مقيم فى خان التجار ليشكو له تابعه فى الرحلة « ديمترى » الذى حقره وتعدى عليه فانكر ديمترى قول الحاكم أمامه ليعترف بذلك بعد مغادرة الحاكم للمجلس ، والذى عقب كنغليك على الموقف بقوله « وانصرف الحاكم وهو يشعر بالمرارة لانه عاجز عن التوفيق بين واجبه الرسمى كممثل للدولة وبين اضاعة حقه على يد رجل يتمتع بالحماية الأجنبية ») (١١٩) .

أمام ذلك كله قام السكان فى معظم المدن الفلسطينية بالعصيان والتمرد ضد ابراهيم باشا باستثناء مدينة يافا التى تحصن بها ابراهيم باشا .

أما فى مدينة غزة فقد قام متسلمها الشيخ سعيد المصطفى كما ورد فى رسالته المؤرخة فى ١٥/ربيع الآخر ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) والمرسلة لوالى مصر محمد على باشا ما يلى :

(« انه بحسب الارادة الشريفة السر عسكرية توجه صحبه الأوردى المنصور الى الخليل وانه بسطوة سعادة الخديوى العظيم المعظم والسر عسكر ، جمع المخالفين وحصلوا على ترتيب الجزاء التام وتحرك الركاب الشريف

---

(١١٧) محمود عوض ـ وعليكم السلام ـ المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥١ .
(١١٨) هنرى دودويل ـ الاتجاهات السياسية لمصر ـ المرجع السابق ص ١٧٥ .
(١١٩) رحلة كنغليك الى الشرق ـ ترجمة محمود العابدى ـ عمان ـ ١٩٧١ ص ٩٧ ـ ١٠٥ ـ ١٠٨ .

بالعساكر الظافرة الى الكرك لتأديب عربان غـزة وغـيرهم من الثـوار الذين التجأوا اليها ») (١٢٠) ٠

وهكذا عم العصيان جميع المدن من الشمال حتى الجنوب وقف ازاءهـا ابراهيم باشا ومن خلفه والده محمد باشا بقوة فقد وصلت قوات بحرية مصرية نزلت الساحل الغربي لمساندة قوات الحكومة بالمدينة حتى تم القضاء على التمرد في جميع انحاء المدن مع نهاية عام ١٨٣٤ م ٠

أخذت هذه الدولة الفتية بقيادة محمد علي باشا تستحوذ اهتمام كثير من الدول الأوربية المتنافسة على الشرق وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا ، خاصة عندما فجر هذا القائد الموقف السياسي في مايو سنة ١٨٣٨ م وامام قناصـل بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا معلنا « استقلاله التام والنهائي عن السلطان العثماني » (١٢١) فكان الغضب الشديد من جـانب لندن واحتجت باريس والعواصم الأوربية الأخرى فاندفعوا نحو الباب العـالي للضغط على ابراهيم باشا معززين قناصلهم داخل المدن متمسحين بمسوح الدين وحماية الحجـاج المسيحين ففتحت لها بريطانيا قنصلية بالقدس سنة ١٨٣٨ م وقد سبقتهـا روسيا في سنة ١٨١٢م بفتح قنصليتها في يافا كما أسس موسى مونتفيوري أول مدرسة يهودية في فلسطين في عام ١٨٣٨ م ولحقتهم فرنسا بفتح قنصليتها في القدس سـنة ١٨٤٣ م وكان يعمل في جميـع هـذه القناصل يهـود مستنصرون (١٢٢) ٠

أما رد الفعل العثماني ــ وكعملية اسقاط ــ أصدر السلطان عبد المجيد « خط شريف كلخانه » سنة ١٨٣٩ م يخفف من أمر اعادة فلسطين الى الحكم التركي محاولا تحسين نظم الحـكم بأن يرفـع مكانة المواطن في الامبراطورية والمحافظة على حياته وممتلكاته كما أراد توحيد جباية الضرائب ؛

الا أن هذا المرسـوم ذهب جفـاء أمام تحديات الأوربيين الذين اتفقت مصالحهم التكتيكية مع الدولة العثمانية لتحجيم سلطة محمد علي في مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ م ولسنا بصدد الآن سرد بنوده ٠ فقد وصلت هذه الدولة الى قمة تدخلها عندما حاصر الأسطول الانجليزي ميناء عكا واستولى عليه في أقل من ساعة فانسحب ابراهيم باشا بجيوشه شرقا سنة ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ م عن طريق الغور الفلسطيني فاقدا الكثير من جنوده واتباعه وهو في طريق انسحابه (١٢٣)

---

(١٢٠) الشيخ عثمان الطباع ــ اتحاف الأعزة في تاريخ غزة ــ المرجع السابق ص ٩٦ ٠

(١٢١) أنتوني ناتنج ــ العرب تاريخ وحضارة ــ ترجمة محمود مسعود ــ الجزء الثاني ــ كتاب الهلال ــ القاهرة ١٩٨٠ ص ٦٦ ٠

(١٢٢) Jerusalem, Keterbooks, Jerusalem, 1973, pp. 102-111.

(١٢٣) P.E.F. 1908, pp. 40-42.

مخلفا أيضا كثيرا من العائلات والجنود الذين مكثوا واستوطنوا فى جميع قرى ومدن فلسطين فاستوطن فى منطقة الحولة والأغوار « الغوارنة » كما انتشروا فى قرى عديدة مثل (المسيحية ـ جرجا ـ هوج ـ المحرقة ـ الكوفخة وغـزة وخان يونس حتى تأثرت هذه القرى فى نمطها العمرانى بالنمط السائد فى ريف مصر سواء فى شكل المنزل أو اسلوب الزراعة (١٢٤) ٠

غادر ابراهيم باشا البلاد تاركا فترة من التخلخل والفراغ السياسى سواء للقبائل البدوية التى هى بحق البارومتر السياسى الذى يقيس قوة الضغط المركزى للسلطة ، أى سلطة ، ومدى قدرتها على ضبط الأمن ، فانقضت عليه بعض القبائل ونهبت محطات البريد فى منطقة الشيخ زويد مما دفع محمد على باشا بضربهم بعرب الهنادى المصرية التى أخذت تلاحقهم حتى خان يونس (١٢٥) ٠

وكذلك فعلت السلطة العثمانية التى قـامت بمجرد عودتهـا بتأليب الفتنة واشعال نارها بين القيسية واليمنية من سكان مدن الجبل والسـهل الفلسطينى فأقتتل ابناء نابلس ورام الله حتى مدينة الخليل جنوبا مع بعضهم البعض مما أودى بحياة الكثير من ابناء هذا الشعب حتى بلغ بالحاكم العسكرى التركى « محمد القبرصلى » بمحاصرة مدينة الخليل ودكها بقنابل مدافعه حتى هجرت المدينة من أهلها ليمنحهم بعدها مدة عشرين يوما للعودة الى بيوتهم ليواصل بعدها زحفه نحو غزة فدخلها دونما مقاومة وأخذ فى اعداد الترتيبات لتوطيد دعائم الأمن وحماية السكان (١٢٦) ٠

انتابت بعدها الدولة العثمانية حمى الاصلاحات واصـدار المنشورات والتنظيمات الادارية والاجتماعية كرد فعل لما طبعه ابراهيم باشا فى نفوس المواطنين من أفكار تحررية واصلاحات اجتماعية وتسامح دينى ٠ وما فقدته من أراض فى أوربا وتغلغل الاستعمار الفرنسى واستيلاءه على أجزاء من شمال أفريقيا بحيث لم يبق لها سوى المنطقة العربية ٠

ففى عام ١٨٣٩ م بدأت بعملية تحول هامة للحد من الاقطاعات القديمة وذلك باشراك الملتزمين والمحصلين مع أصحاب التيمارات والزعامتات « واستمر الحال على هذا النحو حتى عام ١٨٥٨ م حيث صدر فيه قانون الاراضى الذى أنهى نظام الاقطاعيات العسكرية بصورة شرعية وتحرير الفلاحين من عبودية ٠ التيمارجية والزعامتـات » وأصبحت المعـاملة منحصرة فقط « بمأمورى الطابو » (١٢٧) ٠

(١٢٤) I.E.J. Vol. 3, 1953, pp. 324-356.

(١٢٥) ابراهيم غالى ـ سيناء المصرية عبر التاريخ ـ المرجع السابق ص ١٩٩ ٠

(١٢٦) P.E.F. 1908, pp. 46.

(١٢٧) دعيدس المر المحامى ـ أحكام الأراضى ـ القسم الأول ـ القدس ١٩٢٣ ص ١٢٣٠

وقبل ذلك بعامين أصدر الباب العـــالى « خطى همايون » فى فبراير ١٨٥٦ م يعترف فيه السلطان بتحلل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية منذ قرن ونصف خلت أى منذ بداية القرن السابع عشر فقد جاء فيه (« ولكن منذ ماية وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة ولهذا قد تحولت تلك القـوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدثار » (١٢٨) وعليه وعد الناس بحفظ شرفهم واموالهم وتعيين مال الويركو وتحديد مدة الخدمة العسكرية الى أربع سنوات أو خمس ٠

بدأ العمل بعد ذلك ومنذ عام ١٨٦٠ م بتسجيل الأرض فى فلسطين الأمر الذى أفسح المجال للملتزمين والمحصلين من « الأفندية » بأمتلاك اقطاعيات كبيرة أقلها مساحة بالشراء وأكثرها بالخداع وبسيف الحياء وكرباج الملتزم لمن لا يقوى على دفع ما عليه وكثيرا ما سلبوا الأراضى كهدية أو مقابل عدم تقـديم ابن الفلاح للخدمة العسكرية ٠ أو عند عدم قدرة الفـــلاح على دفع ضريبـــة الاملاك ٠٠٠٠ حتى وصل الحال فى منطقة غزة أن امتلكت عشرون عائلة فقط مساحات هائلة من الأراضى بل هنــاك أسرة واحدة كادت تمتلك أراضى قرية بكاملها ٠

لذا اندفع كثير من الأسر والعائلات الاقطاعية لشراء مساحات من الأراضى الشرعى وهو الفلاح العربى الفلسطينى الذى كان يفلحها كمالك لها مقابل نسبة من الخراج من منتوجها يقدمــه للدولة بحكم الملكية الجماعية للدولة لهـــذه الأرض ٠

لذا اندفعت كثير من الأسر والعائلات الاقطاعية لشراء مساحات من الأراضى من خارج الحدود الفلسطينية كما تسربت رؤوس الأموال الأجنبية التابعـــة للدول ذات الأطماع الاستعمارية (١٢٩) ومما أفشل هذه التنظيمات تحريض قناصل الدولة الأوربية للمسيحيين فى البلاد بعدم التنفيذ لها لأنهم المستفيدون الوحيدون من نظام الالتزام « لان معظمهم يزاولون الالتزام » — مما دفع السلطان عبد الحميد الثانى فيما بعد للقول (« ونجحوا — أى القناصل — بابقـــاء كل شىء على ما كان ») (١٣٠) ٠

ولكى تؤكد السلطة العثمانية هذه التنظيمات أرسلت لقائمقام غزة عن

---

(١٢٨) د٠ عبد العزيز محمد الشناوى و د٠ يحيى جلال يحيى — وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر — القاهرة ، دار المعارف — ١٩٦٩ ص ١٤ — ١٦ ٠

(١٢٩) لوتسكى — تاريخ الاقطار العربية — دار التقدم — موسكو — ص ١٦٠ ٠

(١٣٠) السلطان عبد الحميد الثانى — مذكراتى السياسية ١٨٩١ — ١٩٠٩م — الطبعة الثانية — بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨ ٠

طريق والى القدس أمرا يبلغه وجوب تطبيق المساواة « من كل صنف وتبعه ومن أى ملة ومذهب » وعملا بأوامر الدولة العثمانيـة تطلب منه التدقيق على هوية مشترى العقار ويجب أن يكون من تبعة الدولة العلية ، مما يدل على تهافت الاجانب عن طريق قناصلهم على شراء العقارات فى مدينة غزة (١٣١) . بل تعدتها أكثر بارسال بعثات لاستخراج البترول والبحث عنه فى فلسطين مثل بعثة « لينس Lynch » الامريكية سنة ١٨٤٩ م وبعثة دوق دى لانيس Du cde Lynes الفرنسية سنة ١٨٦٤ م ثم تلتها بعثات أخرى كما سنرى (١٣٢) وهكذا أصبح الدور القنصلى الأوربى مقلوبا فبعد تضافره مع السلطة العثمانية ضد التدخل العربى المصرى أصبح الآن يلعب دورا مضادا لترسيخ دعائمه ونفوذه الاقتصادى ومن ثم السياسى توطأة للغزو الامبريالى كما سيحدث .

ولعل ما عثرنا عليه من احدى سجلات صاحب مصنع للصابون بغـزة (الشيخ محمد أبو شعبان) ما يكشف لنا طبيعة العلاقات التجارية بين مدينة غزة ومصر ، وذلك وفق ما جاء بها من بيان حساب الوارد والصادر من والى مصر والتى تعود حساباتها لنهاية عام ١٢٦٠ هجرية (١٨٤٣ م) أى بعـد انسحاب الجيش المصرى من البلاد بمدة وجيزة (وثيقة رقم ٧) .

فقد استمر التبادل قائما بين ميناء مصر (بولاق) وفقا لمـا جاء فى فاتورة الاستيراد ، ومدينة غزة حيث تصدر مصر الأقمشة مثل (التافته ـ التل ـ الخيش للحزم واللف) وتستورد مقابل ذلك الصابون والزيت :

وبتحليل المعطيات الرقمية الواردة بالوثيقة نجد أن أرباح الأقمشـة المصرية كانت تتراوح ما بين ٣٣٪ و ٤٥٪ فى حين بلغت أرباح الصابون أقل قليلا من ١٥٪ مما يضطر التاجر المصرى لفرض عمولة على الدين .

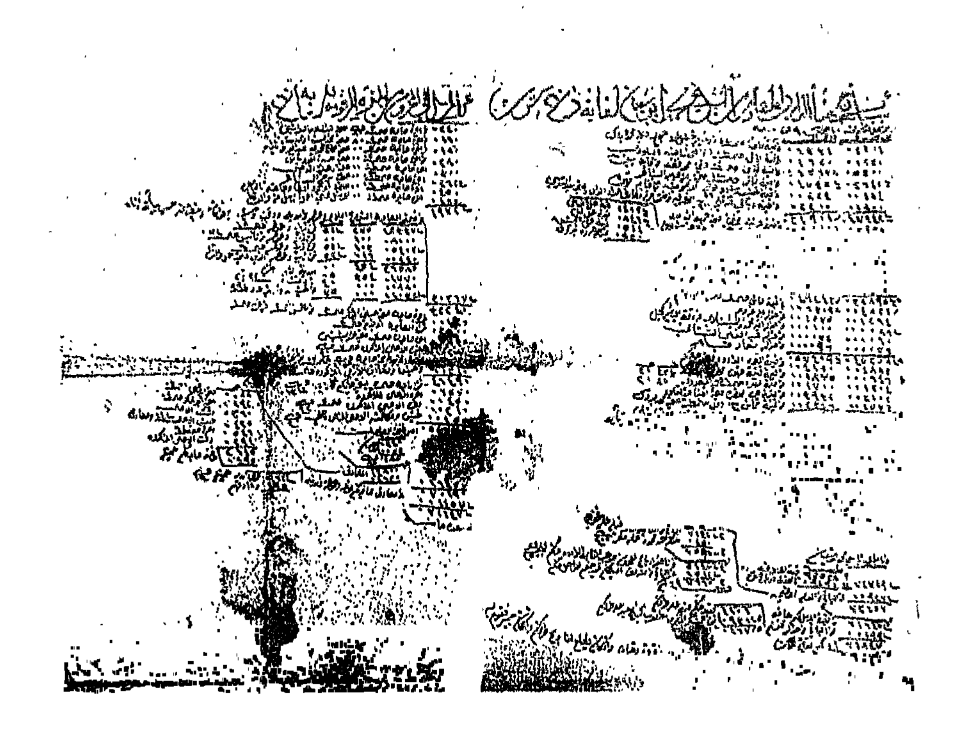
كما أبانت الوثيقة دور مدينة غزة كسوق تجارى مركزى لمـا حولها من القرى الفلسطينية فى الشمال والجنوب فالى جانب الربح الذى يحصل عليه صاحب « المصبنة » فقد كان أمامه مجال لتوكيل تجار آخرين للبيع فى القرى مقابل أرباح بصفة عمولة لهم فقد ظهر من بين هؤلاء (ابراهيم الجبالى ـ وسعيد السوسى وعلى غنايم وابراهيم الشاعر ومحمد قفـه ومحمـد مبروك وعبد السلام العرايشى) والأخير كان كأحد الزبائن من الطرف المصرى .

من هنا يتضح مكانة غزة كسوق وممول لمـا حولها من المدن والقرى حتى مدينة العريش المصرية .

---

(١٣١) د. عبد الكريم رافق ـ غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ ـ بحث اعد بمناسبة المؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ـ عمان ـ ١٩٨٠ ص ٤١ ـ ٤٢ .

(١٣٢) عارف العارف ـ تاريخ بئر السبع ـ القدس ـ ١٩٣٤ ص ٦٩ .



وثيقة (٧)

كشف بحساب الصادر والوارد لغاية نهاية سنة ١٢٦٠هـ الخاص بمصبنة غزة .

كما ورد فى هذه الورقة التى هى جزء من دفتر سجلاته وحساباته تصدير (الدخان) الغزى لمصر بالاضافة للصابون وزيت الزيتون . وقد وصلت أرباح هذا التاجر فى هذه الفترة وكما يتضح من هـــذه الورقة من بعض صفقاته التجارية ما جملته ٩١٩١ قرشـا ولهذا المبلغ قيمته خاصـة لو علمنا أن ثمن قيراط الأرض فى مدينة غزة نفسها وفى ذلك الوقت وفقا لما جاء فى حجـة بيع شرعية لأرض ترجع لسنة ١٢٥٦ هجـرية ما قيمته ١١١١ قرشـا وبلغت قيمة القيراط الواحد فى « كرم الزيتون » بمدينة غزة سنة ١٢٦٢ هـ ما قيمته ١٣١٢ قرشا ، لأدركنا قيمة الأرباح الذى يجنيها هذا التاجر الغزى .

هذه صورة ربما تكون مصغرة للأحوال الاقتصادية فى المدينة فى الأربعينات الأولى من القرن التاسع عشر الا أنها كافية لابراز قسماتها الاقتصادية .

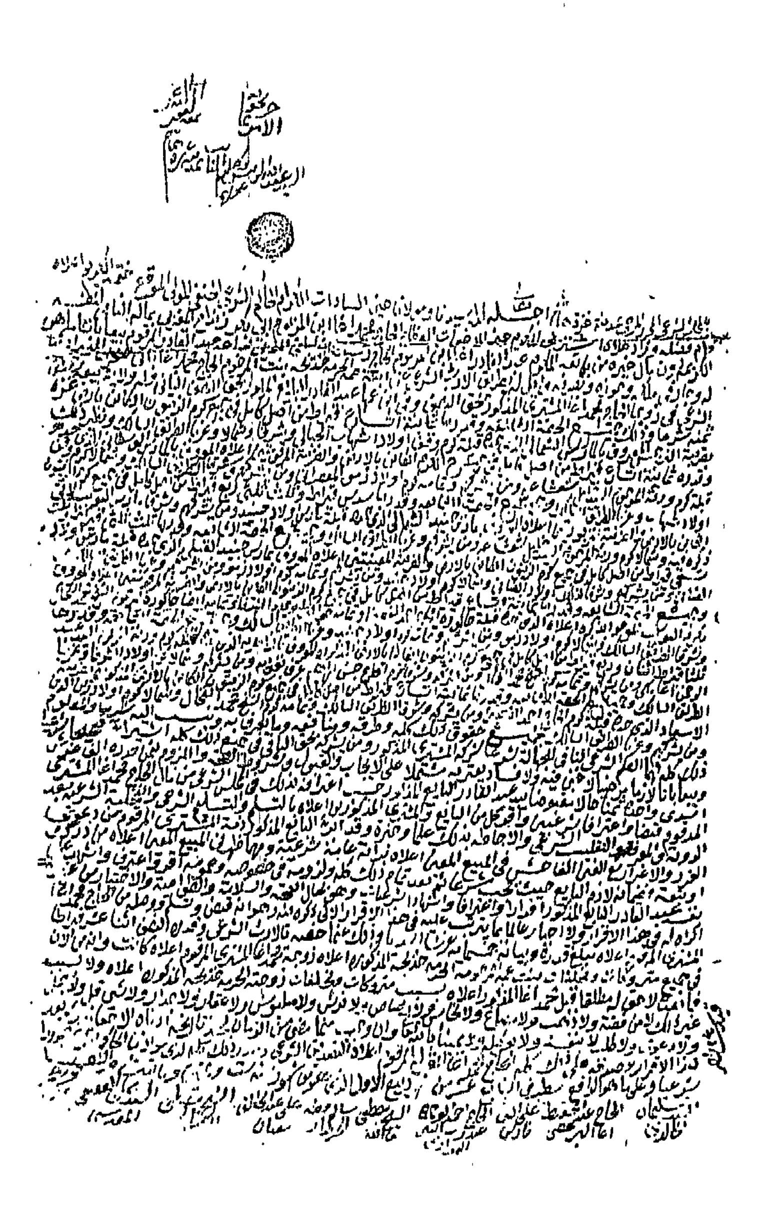
ونظرا لمـا انتاب الدولة العثمانية ـ كما ذكرنا ـ من اصدار قوانين وقرارات أهمها التدقيق على هوية المشترى للعقارات والحرص التام بأن يكون من أتباع الدولة العثمانية لاحساسها بتدخل عناصر غريبة ومريبة فى شراء الأراضى مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ فقد انعكس مردود ذلك داخل المدينة فى الحرص التام على توثيق جميع عمليات البيع والشراء بالنسبة للأراضى باحكام وداخل المحكمة الشرعية بغزة نفسها شهادة وتوقيع أكبر عدد ممكن من وجهاء واعيان ومشايخ المدينة .

فقد حصـلنا على عدة حجج بيع شرعيـة لأراض فى فترة أربعينيـات وسبعينات القرن التاسـع عشر تبرز قيمة الأرض لدى المواطنين الفلسطينيين فى غزة ومدى تمسكهم بتسجيل ممتلكاتها وتوثيقها بشهادات وعقود شرعية رسمية . نستخلص منها العديد من الملامح الاقتصادية والاجتماعية السائدة .

فالوثيقة رقم ٨ عبارة عن حجة بيع شرعية اشترى بموجبها الحاج محمد أغا ابن المرحوم أبى بكر زنداح المغربى من بائعه عبد القادر أغا حصة قدرهـا ٨/٩ قيراط من كرم الزيتون بغزة الواقع ضمن « ضريبة النرجس » بمبلـغ الف قرش أسدى وذلك فى عام ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) .

وزيادة فى الحرص والأهمية وتفاديا من كل لبث أو غموض فقد تمت عملية البيع داخل المحكمة الشرعية للمدينة وكانت تستهل بعبارة تقليـدية كالتالى : ـ

(« بالمجلس الشرعى المحرر المرعى بمدينة غزة هاشم ولدى سيدنـا ومولانا عين السادات الفخام والحاكم الشرعى الحنفى المولى والموقع ختمه الكريم أعلاه دام فضله وزاد علاه اشترى ....) .



وثيقة (٨)

حجة بيع أرض في مدينة غزة سنة ١٢٥٦هـ

ويعنون هذه الحجة ختم الحاكم الشرعى نفسه وهو » عبد الله الريس » وكيل النائب بمدينة غزة هاشم آنذاك ، هذا بالاضافة الى شهادة وتوقيع عدد من الشهود بلغ عددهم عشرة من كبار مشايخ واعيان المدينة كما هو واضح من الوثيقة «٨» السابقة ٠

وتوضح « الوثيقة ٩ » وهى الخاصة ببيع قطعة أرض اشتراها الحاج مصطفى ابن المرحوم الحاج عمار من الحاج أبو بكر بن المرحوم الحاج عاشور المغربى فى شهر شوال سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥) ومساحتها نصف قيراط وربع قيراط من أرض « كرم الزيتون » الكاين بأرض غزة المعروفة بكرم مقدمه (مقدمة آل رضوان) بثمن قدره سبعماية وخمسون قرشا أسديا ٠

وقد تم البيع كسابقتها بالمجلس الشرعى ولدى الحاكم الشرعى الحنفى والموقع بختمه أعلى وثيقة البيع وهو السيد مصطفى ٠

وقد وقع على الوثيقة فى ذيلها عشرة من كبار المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ « محمد سباق الله » كما حرص على توثيقها بختمه وشهادته كل من الشيخ محمد محمد النحال وأحمد محى الدين عبد الحى الحسينى مفتى غزة فى ذلك الوقت ٠

وبعد سنتين انتقلت الحصة المحررة فى الوثيقة هذه الى الحرمة رقية بنت المرحوم عبد اللطيف الخزندار فى ٢٨/ذى القعدة الحرام سنة ١٢٦٤ هـ ٠

ومن دراسة الوثيقتين السابقتين نجد ارتفاع سعر الأرض داخل مدينة غزة فى خلال ست سنوات من ١١١١ قرشا للقيراط سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) ٠ الى ١٣١٢ قرشا فى عام ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥ م) ٠

وربما يرجع هذا الارتفاع لظروف الحرب وعدم الاستقرار والأمن أثناء احتلال ابراهيم باشا بن محمد على للمنطقة وما ان انتهت بانسحابه وعودة السلطة العثمانية للمنطقة بدأ سعر الأرض فى الارتفاع خاصة وانها أخذت فى اصدار العديد من التشريعات التى تطمئن الناس على ملكياتهم وحفظ حقوقهم الشخصية ٠

أما « الوثيقة رقم ١٠ » فهى أيضا حجة شرعية تفيد بشراء الحاج محمد بن المرحوم الشيخ عبد الخالق أبى شعبان المصابنى (صاحب المصبنة فى الوثيقة رقم ٧) من السيد أحمد وشقيقه الحاج محمد أفندى ابنى المرحوم السيد مصطفى أفندى شعشاعة العلمى (كان نقيب السادة الأشراف بغزة فى خمسينيات القرن الثالث عشر الهجرى وتوفى سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) والمحترم السيد محمود أفندى نجل المرحوم السيد محمد شعشاعة العلمى حصة من الأرض مساحتها أربعة قراريط بأرض غزة بضريبة الأسعار المعروفة « بكرم

وثيقة (٩)

حجة بيع ارض في مدينة غزة سنة ١٢٦٢هـ .

« التينة » بمبلغ وقدره ألف وأربعمائة (١٤٠٠ قرش) قرش أسدى صاغ ، وذلك فى ثلاث وعشرين من شهر ذى القعدة سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف هجرية • معتمدة من المجلس الشرعى وقائمقام المدينة السيد محمود وبشهادة ثمان رجال من أهالى المدينة •

هكذا توضح هذه الحجة مدى التدهور فى قيمة الأرض حيث وصلت قيمة القيراط الى ٣٥٠ قرش أسدى سنة ١٨٧٠ م بهبوط حاد وصل الى أقل قليلا من ربع ما كانت عليه سنة ١٨٤٥ م •

هذا بالاضافة الى دفع رسوم ضريبية على هذه الحجة بلغت ٢٨ قرشا أى بمعدل ٢٪ من قيمة ثمن الأرض المشتراة وهى ضريبة مرتفعة الى حد ما ، هذا التدنى فى سعر الأرض وزيادة الرسوم التى وضعها السلطان عبد الحميد ـ كما سنرى ـ بأنها باهظة مع ما صاحبها من أزمات اقتصادية عالمية خانقة ضربت الزراعة فى سبعينات هذا القرن والتدخل الأجنبى فى فلسطين بالذات كانت المسئولة عن تدهور سعر الأرض كمقدمة لخلع انسانها من عليها لكن دون جدوى • كما سنرى فيما بعد •

وقد تميزت هذه الحجة عن سابقتها بأنها مختومة بالطغراء التركية مما يدل على أن الأوراق المستخدمة فى كتابة الحجج الشرعية ، أخذت طابعا رسميا حكوميا حل محل الأوراق العادية •

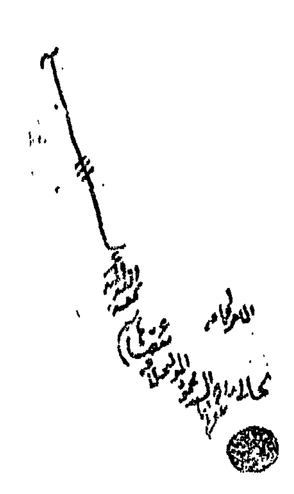
وهناك حجة بيع أخرى « وثيقة ١١ » تمثل فى الحقيقة ثلاث حجج اشترى بمقتضاها الحاج محمد بن المرحوم عبد الخالق الى شعبان الغزى (صاحب المصبنة) ثلاث قطع من الأرض جميعها تقع فى كرم الزيتون بضريبة « ساقية أم الليمون » يحدها جميعا من الشرق « تربة الشهداء » (حارة العواميد) •

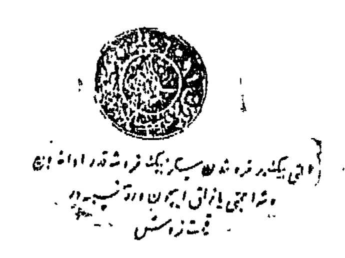
وجميع القطع الثلاث متساوية المساحة ، مساحة احداها قيراط وربع قيراط ونصف ثمن قيراط اشتراها بمبلغ قدره ستمائة قرش أسدى لكل منها • اشتراها من ثلاث أفراد يمتون لعائلة واحدة (عائلة الفرا) •

الأولى من الشيخ حمودة وأخويه خطاب وموسى الفرا والثانية من عطية ابن المرحوم الحاج بركات مبروك الفرا موكلا عن والدته محبوبة ، أما الثالثة فقد اشتراها من الحاج محمد صالح ابن الحاج اسماعيل الفرا الوكيل الشرعى عن والده • وقد تم شراؤهم جميعا فى بداية عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨) •

ويبدو أيضا من خلال هذه الوثيقة استمرار هبوط سعر الأرض وذلك لازدياد نفوذ الأجانب وقناصلهم فى فلسطين وضعف الدولة العثمانية أو بالمعنى الأدق اضعافها من قبل هؤلاء كما سنرى •

كما نلاحظ أن هذه الوثيقة لم تستهل بتلك المقدمة التقليدية التى جاءت فى الوثائق السابقة أى لم تسجل فى المحكمة الشرعية بالمدينة وتحت قائمقامها





وثيقة (١٠) حجة بيع أرض في غزة سنة ١٢٨٨هـ .

أو حاكمها الشرعى • لكنها كتبت بأوراق رسمية مختومة بالطغراء التركية وعليها تواقيع من بينهم الشيخ يوسف شراب الذى سيرد ذكره فيما بعد •

وربما سجلت هذه الوثيقة بصفة شخصية زيادة فى التأكيد ووفقا لما تعودوا عليه من قبل ذلك على الرغم من ظهور شهادات رسمية يتم تعبئتها من قبل موظفين حكوميين عليها ختم خاقانى حصلنا على بعض منها يرجع لسنة ١٢٩٢هـ وسنة ١٢٩٤هـ (أنظر وثيقة ١٢) أى قبل تسجيل الوثيقة التى نحن بصدد دراستها •

اهتمت بعدها الدولة العثمانية بتطوير طباعة هذه الأوراق الرسمية مع مطلع القرن العشرين وذلك باصدار « سندات خاقانية » هى بمثابة « كوشان طابو » تميزت بدقة طباعتها بحيث يصعب تقليدها تبعاً من قبل موظفين يعملون فى دائرة الأملاك (الطابو) وقد عززت لأول مرة بلصق « تمغات » حكومية رسمية (أنظر وثيقة ١٣) التى تعود لسنة ١٣٢٩ هـ الموافق لسنة ١٩١٠ م •

وعليه ومن خلال دراستنا لجميع الوثائق السابقة التى تمثل حججا شرعية نلاحظ تطور تسجيل هذه الملكيات وحرص الدولة العثمانية على تأكيدها والحفاظ عليها وعلى تطويرها بما يضمن حقوق الفرد وعدم التعدى عليه بالاعتماد على سندات خاقانية لها قيمتها ودقتها منعا للتزييف ، حرص الشعب الفلسطينى خلالها على مواكبة هذا التطور بتوثيق ملكياته طيلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية العشرين وحتى انتهاء الدولة العثمانية • ومما يلفت الانتباه فى جميع الوثائق السابقة أن ملاكها هم من أغاوات المدينة أصحاب الرتب العسكرية والألقاب الرسمية الذين يمثلون الزعامات المحلية •

كما أبانت هذه الحجج وهى تحدد مواقع الأراضى المراد شراؤها بأن معظم ما حولها كان ملكا لأسر الأمراء والباشوات والأفندية وبعض رجال الدين من القضاة والمفتين من آل رضوان ومكى والحسينى والنخال وشعشاعة العلمى ••• ويعنى ذلك أن أراضيهم مجاورة لبعضها البعض وتقع حول موقع المدينة الأم وفى منطقتها الزراعية •

ولما كان هؤلاء جميعا يعتبرون أنفسهم من رجال الحكم أو القريبين منهم ومن السلطة فقد تحمل الفلاح ــ زارع الأرض ــ عبئا مزدوجا على كاهله من الضرائب يقدم جزءا للحكومة المركزية والأخرى لمالك الأرض سواء أكان أغا أو باشا أو مفتى مما جعل استغلال الأرض عملية صعبة زادها ظهور الملتزمين والتخطيط الأجنبى للقضاء على الدولة العثمانية والاستيلاء على المنطقة عامة وفلسطين على وجه التخصيص •

[illegible]

وثيقة (١١)

ثلاث حجج بيع أراضي من غزة سنة ١٢٩٦هـ .

كما توحى هذه الوثائق ببداية تحلل الأسر الحاكمة منذ نهاية العصر المملوكى وبداية الحكم العثمانى كما يتضح من بيع أفرادها للأراضى التى كانت ملكا لأجدادهم فى الوقت الذى بدأت فيه ظهور طبقات أخرى من الملتزمين أخذت فى شراء الأراضى والاستيلاء عليها مستغلين فقر الفلاح وعدم قدرته على دفع ما عليه، كما سنرى مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وربما تعكس أيضا مردود العمل التجارى والصناعى داخل مدينة غزة وما يدره من أرباح لصاحبها وقدرته على الادخار تحفزه لشراء العديد من مساحات لا يستهان بها من الأراضى كما هو الحال بالنسبة لصاحب « المصبنة » الشيخ محمد أبى شعبان الذى اشترى العديد منها كما بينا .

كما بينت هذه الوثائق العديد من رجال المدينة المثقفين الحائزين على ثقة المواطنين من المشايخ ورجال الدين والافتاء أمثال أحمد محى الدين الحسينى والشيخ يوسف شراب والشيخ محمد ساق الله الذين لعبوا دورا بارزا كما سنرى فى الحياة الاجتماعية والسياسية داخل المدينة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحكم العثمانى . تلك الفترة التى تميزت بأحداث طفرية هامة أثرت تأثيرا فعالا على مجالات الحياة ومناحيها المتعددة لسكان المنطقة الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصفة عامة وعلى أبناء فلسطين بشكل خاص . تمثلت فى التغيرات التى سنتها الدولة العثمانية الخاصة بملكية الأرض وتسجيلها كما بينا وتغلغل القناصل بسلطتهم المحرضة ، ودخول العديد من الشركات الأجنبية مجال التجارة والتنقيب كستار تخفى من ورائه أطماعهم فى السيطرة كذلك دخلت البلاد عناصر الارساليات التبشرية والدارسين والرحالة المغرضين ، مشجعين جميعا ميلاد الحركة الصهيونية كأخطر ظاهرة استيطانية زلزلت صلب المنطقة العربية مستغلة فرصة الضعف العثمانى الذى أنهكته القوى الأوربية الاستعمارية الطامعة .

ثم كان حفر قناة السويس وافتتاحها للملاحة كوسيلة وصل بين البحرين المتوسط والأحمر وما وراءهما مما فضل معه الاتصال الأرضى المستمر بين مصر وفلسطين ومن خلفها الشام بل والقارة الأسيوية ، مما خلق للمنطقة وضعا استراتيجيا أضاف لموقعها الاستراتيجى الهام بعدا عمق من شراهة الاستعمار الأوربى ، فكانت السيطرة البريطانية على مصر سنة ١٨٨٢ م ومن ثم الاحتكاك والصدام مع الدولة العثمانية وما نجم عنه من خلق بدعة الحدود بين مصر الخديوية تحت السيطرة البريطانية وفلسطين العثمانية سنة ١٩٠٦ م امتدت من رفح حتى طابا كأول خط حدودى هندسى تعسفى فاصل بين جناحى الأمة العربية الواحدة بشقيها الآسيوى والأفريقى . وكانت الحرب العالمية الأولى



باعث تحرير سند اولدر كه
دفترخانهٔ خاقانی‌يه ورود ايدن ژريده نومرو وشهريى تحرير دفترلردن مستبان اولديغى وجهله [illegible] سنجاغنده
غزه قضاسنده [illegible] نومرو ايله مرقوم
طارفلرى [illegible] ايله محدود [illegible]
[illegible] مالكى اولان [illegible] رضاسيله شروط مفسده
ومواضعه‌دن عارى اولەرق بيع بات صحيح شرعى ايله [illegible] مقابلنده
بيع واولديغى بروجه محرر اشترا وقبول ايلمش اولديغندن [illegible] دفترخانهٔ خاقانيده [illegible]
مهده سنه قيد ايدلمش اولاغله بروجه ملكيت ضبط ايتمك اوزره تملك وتصرفنى مبين اشبو سند اعطا قلندى
فى سنه ١٢٩٤
١٥ [illegible]

وثيقة (١٢)

شهادة تمليك أرض في حي التفاح بغزة سنة ١٢٩٨هـ .

وما أفضت اليه من نتائج مخيبة للآمال والطموحات العربيــة فى الاســتقلال والوحدة ٠

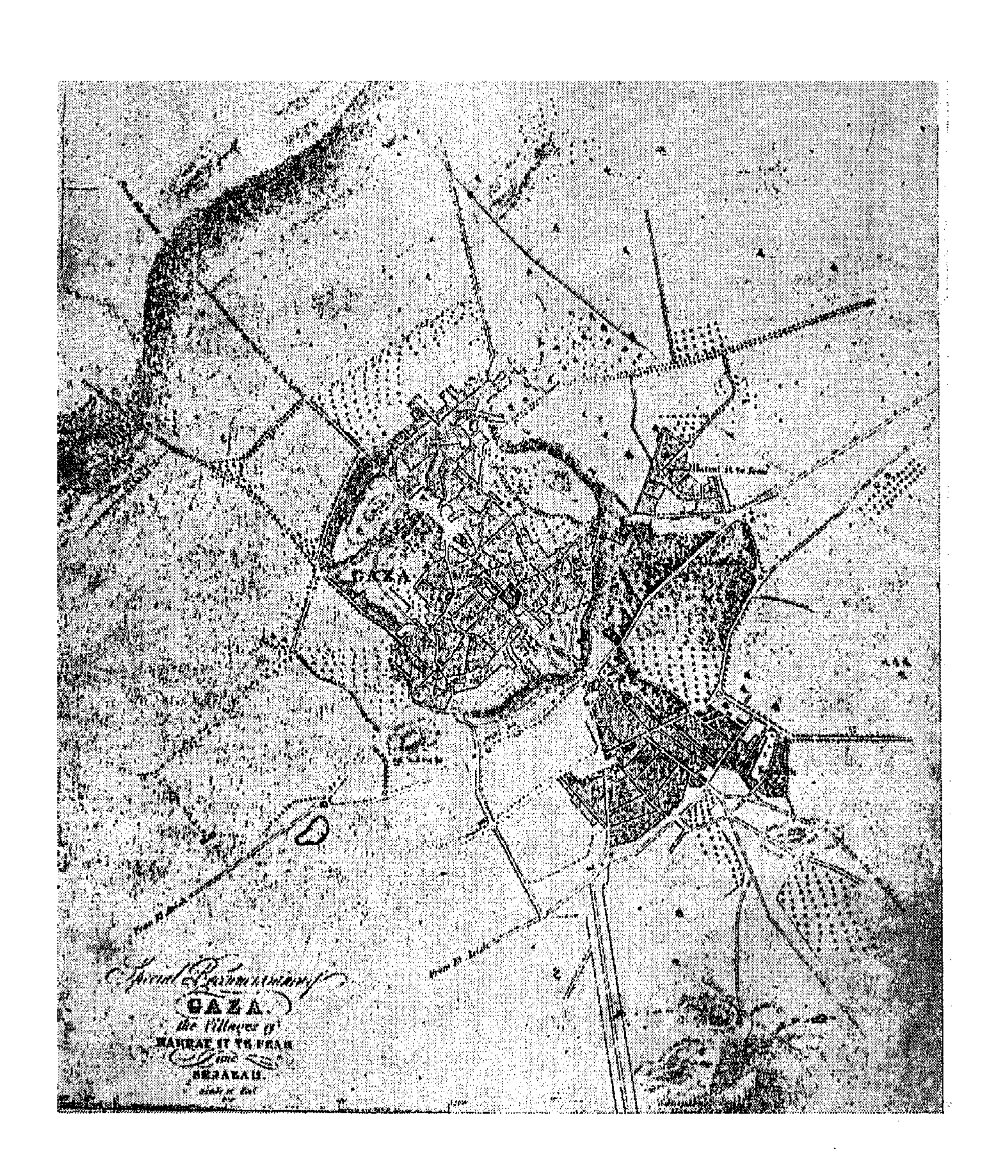
هذه الأحداث جميعا أمدتنا بذخيرة غزيرة من المعطيات تحفزنا لدراسة المدينة وقطاعها على مدى هذه الفترة الزمنية (١٨٥٠ ـ ١٩١٤ م) والقاء الضوء عليها على نحو تفصيلى وتحليلى لجميع ملامحها وخصائصها السياسية والادارية ثم دراسة التركيبة الاجتماعية والديمغرافية سكنا وسكانا ٠ وأخيرا نتعرض لدراسة البنية الاقتصادية ، كل على حده وحتى بداية الحرب العالمية الأولى ٠

سند خاقانى

[redacted] [redacted] [redacted] [redacted] [redacted]

وثيقة (١٣)

سند خاقانى (كوشان طابو) لقطعة ارض فى غزة سنة ١٣٢٩هـ .



خريطة (٢٨) خريطة لمدينة غزة سنة ١٨٤٣م



الفصل السابع عشر

غزة وقطاعها
١٨٥٠ - ١٩١٤

- الأحوال السياسية
- السلطة الادارية
- التركيبة الاجتماعية
- ديمغرافية غزة « سكانا وسكنا »
- البنية الاقتصـــادية



الأحوال السياسية

لقد آثرنا تقديم دراسة الأوضاع السياسية على غيرها لتأثيرها المباشر على جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ليس فقط على مدينة غزة وما حولها بل وعلى جميع أنحاء البلاد ، لما تميزت به من أحداث محورية هامة ومتلاحقة تبلورت فيها السياسة الأوربية بجلاء ضد الدولة العثمانية .

فمع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى سعت الدولة العثمانية جاهدة وبكل الوسائل فى خلق واقع جديد يعزز مكانتها ويوطد أركانها المتداعية سواء بين الدول الأوربية المتربصة لها وعلى رأسها كل من بريطانيا وفرنسا أو بالنسبة لشعوب المنطقة العربية التابعة لها وذلك باصدار العديد من التنظيمات « خطى همايون » سنة ١٨٥٦ م وقانون الأراضى سنة ١٨٥٨ م « معالجة بواسطتها ملكية الأرض » والغاء النظم الاقطاعية واطلاق الحريات وتحديد قوانين التجنيد لاظهار حسن نياتهم مع شعوب المنطقة .

فبدأ الناس يسجلون أراضيهم ويتصرفون بها بالبيع والشراء فى المحاكم الشرعية كما يبدو ذلك فى عديد من الوثائق سواء الخاصة بالشرعية منها والتى تعود للفترة الواقعة ما بين ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ م أو تلك التى عثرنا عليها فيما بعد (وثائق) ...

الا أن الكثير من هذه الجهود وفعالية هذه التنظيمات ذهبت هدرا أمام تحديات الدول الأوربية التى اتخذت وسائل شتى هى وحلفاؤها للقضاء على هذه الامبراطورية التى وصفتها « بالمريض » لا لتعافيها بل لتقضى عليها أولا وتنفرد بالشعب العربى لتمتص موارده ومقدراته وتقطع أراضيه دولا فيما بعد.

ولتنفيذ ذلك عملت على دفع العديد من القناصل للتدخل فى الشئون الاقتصادية والادارية وحتى السياسية وذلك بفتح العديد من الشركات . كما سنرى ـ فأقامت فى فلسطين شركتى « لويد » « والمساجيرى ماريتيم » فى حيفا ويافا وتعبيد الطرق البرية لربط مدن الساحل بالداخل فى فلسطين لسهولة (١) انتشار هؤلاء القناصل بها ولمتابعة تطورات الأوضاع الاقتصادية ، وتحريض السكان خاصة العرب المسيحيين بعدم دفع الضرائب بجميع أنواعها،

---

(١) د. الكس كرمل ـ تاريخ حيفا فى عهد الأتراك العثمانيين ـ حيفا ـ ١٩٧٩ ص ١٣٤ .

ليرسلوا بعد ذلك بتقاريرهم لعواصمهم يشرحون فيهـا أوضـاع البلاد معقبين بتوصياتهم وفق ما يرتأون لاختيار أنسب الطرق لهدم الدولة العثمانية ·

ومن الأحداث التى أثرت على المنطقة سياسيا حفر قناة السويس فى عام ١٨٥٩ وافتتاحها للملاحة سنة ١٨٦٩ م فقد جذب العمل فى منطقتها العديد من تجار أبناء مدينـة غزة فأقاموا الأكواخ هم وأبناء العريش والصالحية لبيع بضائعهم على عمال الحفر وبدو المنطقة واضعين بذلك حجر الأساس والنـواة لمدينة « القنطرة شرق » (٢) ·

وافتتاح القناة للملاحة بعد ذلك أضاف بعدا استراتيجيا ليس على مصر فقط بل وعلى فلسطين فان كانت سيناء منذ عهد الفراعنة تمثل عمقا استراتيجيا للدفاع عن مصر فالقناة عمقت هـذا البعـد الاستراتيجي وخلقت معه وضـعا اقتصاديا مربكا من البداية على مصر بما أثقلته من ديون على يد الخديوى اسماعيل باشا ليصبح مقدمة للتدخل البريطانى والفرنسى فيما بعد ولينتهى باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م ·

فأصبحت القناة شريانا يربط الشرق صاحب المواد الخام الغنية والمغلوب على أمره وبين دول الغرب الاستعمارية المستنزفة لهذه الموارد والخامات ، وفى الوقت نفسه حدث القناة من سيولة الحركة التجارية بين فلسطين عامة وغزة بوجه خاص ومصر · وأصبح المسافر العادى من أبناء غزة يسافر عن طريق البحر بدلا من البر · بالاضافة الى ذلك خلق « وجود القناة « جوا من المنافسة بين كل من بريطانيا وتركيا فى التفكير بانشاء قنوات بديلة على حساب الأرض الفلسطينية وكل وفق مخططاته المستقبلية ·

فبعد أن استولت بريطانيا عسكريا على مصر سنة ١٨٨٢ م وأحست بثقل المنافسة الفرنسية لها على القناة وحبها فى التدخـل والسـيطرة على الأراضى المجاورة فى فلسطين والواقعة تحت النفـوذ العثمـانى فكر الجنرال « غوردون باشا » بعد احتلال مصر بعام واحد وفى سنة ١٨٨٣ م أن تنشىء انجلترا ترعة تمتد من حيفا الى بحيرة لوط (البحر الميت) ومنها لخليج العقبة تقوم مقام قناة السويس وتكون ملكا لبريطانيا مؤكدا لزميله المستر « ديمتريوس بولجر » الذى أطلعه سرا على هذا المشروع · ان احتلال بريطانيا لمصر غايته ضمان ربا الدين المصرى البالغ تسعون مليونا من الجنيهات والسيطرة على « ترعة السويس » (القناة) مما أدى الى وقوع المشاكل بين بريطانيا وفرنسا · واستطرد قائلا بأنه من المستحسن ان تنال بريطانيا من السلطان فرمانا لحفر ترعة واسعة توصل بحر الروم (البحر المتوسط) عند حيفا بالبحر الأحمر عند العقبة

(٢) ابراهيم غالى ـ سيناء المصرية المرجع السابق ص ٢٠٣ ·

معددا فوائد هذا المشروع والتى من ضمنها التخلص من المشاكل التى نتجت عن احتلال مصر ومشاكل السودان (٣) ولم ير هذا المشروع النور • وبالمقابل فكرت تركيا عن طريق ضابط روسى بايصال البحر الميت بخليج العقبة وربطهما بالبحر المتوسط للاستغناء عن قناة السويس مطلقا على البحيرة الواقعة بين خليج العقبة والبحر الميت بعد الوصل (بحيرة عبد الحميد) (٤) • وكان ذلك فى عام ١٨٩٨ م ولم يكتب له النجاح لأنه كان أعظم من قدرات الدولة التركية ، لكنها كانت اسقاطات تراود كلا الطرفين للتغلب على الآخر ولمدى ما أحدثه حفر القناة من تبدلات فى السياسة العامة فى المنطقة •

وازداد التفكير العثمانى فى البدائل ففكروا بانشاء خط حديدى « سكة حديد بغداد » وخط سكة حديد الحجاز للاستغناء أيضا عن قناة السويس من ناحية ولمجابهة التحديات والتحريض البريطانى لسكان اليمن ضـــد الدولة العثمانية ولتوطيد دعائم السياسة الاسلامية « جامعة الدول الاسلامية » الجديدة التى تبناها السلطان عبد الحميد والذى رأى بدوره أن هذه الخطوط الحديدية سلاح ذو حدين (٥) فى حالة الضعف العثمانى واستيلاء بريطانيـــا عليها • بعد ما مرقت وقارها هى وفرنسا على حد تعبير السلطان عبد الحميد لكســـب امتياز مدهما دون جدوى (٦) • وازدادت أساليب التدخلات الأجنبية بتركيز عمليات الاستطلاع على الأرض الفلسطينية التى أصبحت الآن « منطقة ارتطام » بين بريطانيا المحتلة لمصر والدولة العثمانية فتدفقت البعثات بحجة الدراسة والمسح الاركيولوجى والتنقيب عن البترول ظاهريا لكن الواقع كانوا بمثابة طلائع استكشاف لهذه الأرض الحدية ، والا بماذا نفسر تأسيس « هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين » سنة ١٨٦٥ Palestine Exploration Fund لتبدأ أعمالها سنة ١٨٦٧م بقيادة ضابط مدفعية بريطانى صغير ثم ترســـل من بعده بعثة أخرى سنة ١٨٧٢ م وتعمل حتى عام ١٨٧٨ م فى طول البلاد وعرضها لرسم خرائط مساحية دقيقة مقياس رسم ١ : ١٠٠٠٠٠ » (واحد لمائة ألف) بقيادة ضابط أيضا يدعى كتشنر H. H. Kitchiner وهو « اللورد كتشنر فيما بعد » صاحب الشهرة الذائعة ومعه كوندر G. r. Condr »(٧) لينتهوا من أعمالهم بكتابة ثلاثة مجلدات وأربع وعشرين خريطة تفصيلية دقيقة لفلسطين دون أن يمسحوا المنطقة الواقعة جنوب دير البلح ليأتى من بعدهم

---

(٣) المقتطف ــ المجلد التاسع والستون ــ يوليه ــ ديسمبر ــ ١٩٢٦ ص ٢٧٦ •

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى ــ المرجع السابق ص ١٢٩ ــ ١٣٤ •

(٥) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى ــ المرجع السابق ص ١٣٠ •

(٦) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى ص ١٣٥ •

(٧) وليم ف• أولبرايت ــ آثار فلسطين ــ ترجمة زكى اسكندر و د• محمد عبد القـــادر محمد ــ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ــ ١٩٧١ ص ٣٠ ــ ٣٤ •

« شوماخر » سنة ١٨٨٦ م ويكمل الدراسة والمسح فقط من دير البلح حتى « الشيخ زويد » بسيناء كما سنرى فيما بعد .

ثم لماذا تتحرج الحكومة المصرية من أمر تنقيب «فلندرز بترى» فى الأراضى المصرية بعد أن اكتشف العديد من الآثار المصرية فيذهب من بعدها لفلسطين هو وغيره من أعضاء مدرسة الاركيولوجيا البريطانية بعد ما رأوا من المصاعب فى مصر على حد رأى مجلة ناتشر Nature (٨) ؟ !!

وهل تتسع مساحة الأرض الفلسطينية ــ خاصة تلك الواقعة شرق مدينة غزة حتى بئر السبع وجنوبها ــ القاحلة لأكثر من عشر شركات بريطانية وأمريكية للبحث عن البترول ؟ !! منها بعثة مستر هل Hull الانجليزية سنة ١٨٩٣ وبعثة هربلونكن هورن Blanken horn سنة ١٩١١ وبعثة مستر براون سنة ١٩١٢ ثم بعثة دوى Doy سنة ١٩١٢ وبعثة الدكتور آرثر Arthur سنة ١٩١٣ وغيرهم ممن سبقوهم فقاموا بتعبيد الطرق لتربط بين مدن الخليل والسبع ومناطق التنقيب المزعومة فى « كرنب ، وتل الملبح » (٩) .

ولسوء الحظ لم تعثر أى شركة على قطرة من البترول وتتضح نواياهم من الشروط التى وضعوها أمام السلطان عبد الحميد ومنها حفر آبار جنوب الصحراء الشامية حتى اذا ما خرج الماء جعلوا المواطنين ينتفعون منه بشرط ان تكون مصادر المياه نفسها ملكا لهم (١٠) !! .

ولماذا هذا التكثف الواضح فى التوجه لهذه المنطقة ابان الحرب العالمية الأولى هل لموقع غزة كقاعدة امدادات رئيسية للجيش التركى أم لمكانة « بئر السبع » الناشئة والتى أعادت وجودها تركيا سنة ١٩٠٠ لتمثل قاعدة للجيوش العثمانية للاندفاع نحو قناة السويس ؟! .

وظهر عنصر سياسى جديد فى خضم النهش فى جسد الدولة العثمانية ممثلا فى تأسيس اليهود « جمعية محبى صهيون » سنة ١٨٨١ م نتيجة لما تعرضوا له من اضطهاد فى روسيا يمثلون مجموعة تهدف للاستيطان فى الأراضى الفلسطينية فاستغلوا العديد من القناصل خاصة البريطانيين والفرنسيين اليهود ــ فى شراء الأراضى ــ القابضين على مقدرات الدولة العثمانية ومشاريعها يتحكمون فيها كما يشاؤون والذين ساعدوا اليهود من قبل فى تأسيس بعض المستوطنات لهم منذ عام ١٨٧٠) مستوطنة مكفا يزرئيل) بالقرب من يافا « وبتاح تكفا »

(٨) المختطف ــ الجزء الرابع ــ المجلد ٩٦ عدد ١ ديسمبر ١٩٢٦ ص ٢٦٤ .

(٩) عارف العارف ــ تاريخ بئر السبع وقبائلها ــ القدس ١٩٣٤ ص ٦٩ .

(١٠) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى ــ كتاب الهلال ــ عدد أكتوبر سنة ١٩٨٥ صد ١٠٤ ــ ١٠٥ .

سنة ١٨٧٨ شرق يافا ومستوطنات زخارون يعقوب وروش بينـــا وريشون لزيون وجمعيهم فى عام ١٨٨٢ (١١) · واستولت فرنسا سنة ١٨٨١ على تونس فلم يجد السلطان عبد الحميد ازاء هذا الاخطبوط المتعدد الأطراف الا أن يتخذ سياسة واقعية قائمة على مبدأ « الانحسار والتكاثيف » سياسة ووسيلة يحاول فيهـا استرداد ولو بعضا من عزيمة الامبراطورية فقرر الانسحاب مـن البلقان (١٢) · وعلى الرغم من ذلك ساءت علاقاته مع أوربا أكثر وانهزمت أمام روسيا فى القوقاز وأوكرانيا ·

وازدادت الهجمة الصهيونية تساندها بريطانيا ورؤوس الأموال اليهودية المنتشرة فيعواصم أوربا والتى قادها «هرتزل» واضعا أمام السلطان عبدالحميد ملايين الليرات الذهبية ومحرضا العديد من ملوك وقياصرة وسفراء الكثير من دول العالم للتدخل مع لسلطان فى سبيل منحه أراض فى فلسطين لاستعمارها فأبى السلطان كل الاغراءات والضغوط مفضلا عند الضرورة أن يمنحهم أراضى فى تركيا لا فى فلسطين خاصة بعد أن أعربوا عن نواياهم بوضوح فى مؤتمرهم الأول المنعقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ م متخذين قرارهم الأول بتشجيع هجرة واستيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود فى فلسطين وفقا لخطط مناسبة ·· كمـا أعلن هرتزل فى سنة ١٨٩٩ م بلندن « بأن الفكرة الصهيونية وهى فكرة استعمارية يجب أن تحظى فى انجلترا بفهم سريع وسهل » ولقد فشل فى اقناع السلطان عبد الحميد بمنح حقوق غير محدودة للهجرة لفلسطين مقابل سداد الديون العامة للسلطنة العثمانية (١٣) ·

وعندما أحسوا بشىء من المنعة فكرت بريطانيا لهم بانشاء مستوطنة شرقى قناة السويس فى منطقة سيناء بواســـطة اللورد كرومر الذى بذل جهـــودا مضـــنية هو وخبراؤه الا أن المشروع قد فشـــل أمام عدم رغبـــة الحكومة المصرية له (١٤) ·

وركزت الصهيونية بعد ذلك جهدها مسخرة جميع مؤسساتها السياسية والاقتصادية فى وقت الوهن العثمانى المحتضر وبدعم بريطانيا وهى فى عنفوان تسلطها وجبروتهـا الاستعمارى فأسست « الصندوق التأسيسى اليهودى » « كيرن هيسود » وأنشأت دائرة خاصة لشئون فلسطين ثم أقامت مكتبا صهيونيا

(١١) Geography, I.P.L., Jerusalem 1973, p. 184-247.

(١٢) مذكرات عبد الحميد الثانى ـ المرجع السابق ص ٧٨ ـ ٨١ ·

(١٣) يوميات هرتزل ـ اعداد أنيس الصايغ ـ ترجمة هيـــلدا الصـــايغ ـ بيروت ١٩٧٣ ص ١٠٢ ·

(١٤) ابراهيم أمين غالى ـ سيناء المصرية عبر التاريخ ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ·

فى يافا سنة ١٩٠٨ م باسم « مكتب فلسطين » لبرمجة المخططات الاستيطانية واقامت منطقة سكنية بالقرب من يافا سنة ١٩٠٩ كانت بمثابة نواة مدينة « تل أبيب » كمنافس لميناء يافا الفلسطينى كما شكلوا فى نفس العام شركة « انماء الأراضى فى فلسطين » لشراء الأراضى بتمويل من « الصندوق القومى اليهودى » (كيرين كييميت لاسرائيل) الذى سبق أن تأسس سنة ١٩٠١ م . أرست الحركة الصهيونية بذلك الأسس والدعائم التخطيطية والتنفيذية للتوجه نحو الاستيطان والاستيلاء على الأراضى بكل السبل مستغلين فى البداية نظم الأراضى السائدة فى البلاد بأنواعها المختلفة كالأراضى المملوكة والأميرية والموقوفة فأراضى الموات والأرض المتروكة ، متسللين من خلال ما قبلت به الحكومة التركية خلال مفاوضاتها مع هرتزل سنة ١٩٠٣ والتى كشفها بنفسه للمؤتمر الصهيونى السادس والتى تنص على انشاء مستعمرات يهودية متفرقة فى أنحاء الامبراطورية العثمانية دون أن يكون بينها رابط وينتفع بها المهاجرون دون سواهم (١٥) .

وكان بعض الناس من أصحاب الأراضى المملوكة يهبون أجزاء من أراضيهم للسلطان تبركا (١٦) وعلى وجه الخصوص من أولئك الذين لا يرثهم أحد مما زاد من مساحة أراضى السلطان والذى أخذ اليهود جزءا منها هبة من الحكومة التركية كما اشــتروا أراضى من ملاك عرب غير فلسطينيين (عائلة سرسق ـ جدعون ـ القبانى ـ التيان ـ خورى ـ مطران) أقاموا عليها مستوطنات تركزت فى أقصى الشمال الفلسطينى فى الجليل وبالقرب من طبرية وحول مدينة يافا كما أسلفنا . ولم يصلوا للجنوب الفلسطينى الا بعد عام ١٩٠٦ عندما اشترت المنظمات الصهيونية بواسطة القنصل البريطانى فى مدينة غزة ووكيل هذه المنظمات عشرة آلاف فدان من أراضى سيناء بالقرب من رفح كما استخدموا قنصــل بريطانيــا فى القدس وهو يهودى اســمه « كتوفتش » لشراء أراضى فلسطينية تملكها الحكومة المصرية مساحتها ١٢٥ هكتار لصالح جمعية صهيونية « أجودات اسرائيل » (١٧) . فأصبحوا بذلك يمتلكون من عام ١٨٧٠ وحتى ١٩١٨ ما مساحته ٦٥٠ ألف دونم بما يعادل ٢٪ من مساحة الأرض الفلسطينية فى الوقت الذى لم يتجاوز عددهم ٨٪ من عدد ســكان العرب الفلســطينيين استوطنوا فى ست وأربعين مستوطنة حتى عام ١٩١٤ م (١٨) .

ومن الأحداث المحورية مع مطلع القرن العشرين رسم أول خط هندسى حدودى تعسفى فاصــل بين متصرفية فلسطين السورية كجزء من بلاد الشام

---

(١٥) د. محمد حسين هيكل ـ القضية الفلسطينية ـ تحليــل ونقد ـ يافا ـ ١٩٣٧

(١٦) دعيدس المر ـ أحكام الأراضى ـ القسم الأول ـ القدس ـ ١٩٢٣ ص ٤٧ .

(١٧) جريدة الشعب ـ لسان حال حزب العمل الاشتراكى المصرى ـ العدد ٢٨٦ ٢٨ مايو ١٩٨٥ ص ١٠ .

(١٨) Geography, I.P.L. Ibid, pp. 184-187.

الخاضعة للدولة العثمانية وبين مصر وذلك ضمن اتفاقات معترف بها بين بريطانيا وتركيا بعد معارك سياسية ومناورات عسكرية بدأت منذ عام ١٨٩٢ م عندما أصدرت تركيا فرمانا بتولية الخديوى عباس محاولة فيه سلخ سيناء عن أراضى مصر (١٩) ، لكى تدافع عن خط سكة حديد الحجاز الواصل بين دمشق والمدينة بعمق استراتيجى مساحته سيناء كعازل طبيعى يبعد بريطانيا عنه ، مما دفع الأخيرة لاستعراض عضلاتها ببوارجها الحربية البحرية التى أخذت تناور ما بين رفح تارة ومنطقة طابا فى خليج العقبة مرة أخرى ٠ كما أراد الخديوى عباس أن يعزز هذه الحدود بزيارته لمدينة رفح فى ٥ مارس ١٨٩٨ فأمر محافظ العريش أن يسجل تاريخ هذه الزيارة على عمود رخامى يقع بين المتصرفية الفلسطينية ومصر (٢٠) ٠

واستمرت المفاوضات الساخنة سجالا بين حكومتى مصر الخديوية ومن خلفها بريطانيا وتركيا اقترحت خلالها عدة خطوط بين رفح والسويس والعقبة تارة على هيئة مثلث يمزق سيناء الى قسمين واقتراح آخر برسم مستقيم يشطر سيناء بشكل طولى يبدأ من شرق العريش لرأس محمد ومشروع ثالث تبدأ فيه الحدود من تل الخرايب على شاطىء بحر رفح حتى طابا على خليج العقبة (٢١) (أنظر الخريطة) ٠ لتنتهى فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ م بالاتفاق على تحديدها كما جاء فى نص المادة الأولى : ــ

(« يبدأ الخط الفاصل الادارى من نقطة رأس طابه الكائنة على الساحل الغربى لخليج العقبة ويمتد الى قمة جبل فورت مارا على رؤوس جبال طابه الشرقية المطلة على وادى طابه ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط بتل الخرايب على ساحل البحر المتوسط ») (٢٢) بطول يصل لنحو مائتين وأربعين كيلو مترا ٠ (أنظر الخرائط والصورة ١٤٢) ٠

وعليه أصبح هذا الخط ممزقا للقبائل العربيــة فى الجانب الفلسـطينى والمصرى والمتجولة عبر الصحراء الواحدة سيناء والنقب الامتداد الطبيعى لهـا فحد من تجوالهم ومزق وحدة الملكية الواحدة على الرغـم من تسميتها بالحدود الادارية فى نصوصهم ومواثيقهم المكتوبة الا انه خط هندسى عسكرى وعلى الرغم من الترتيبات التى وضعت لحركة هــذه القبائل التى وجدت ولأول مرة فى تاريخها المديد حدا أو خطا ــ يحسب له حساب ــ ونشازا غير متناسق أو متسق

---

(١٩) ابراهيم غالى ــ سيناء المصرية عبر التاريخ ــ المرجع السابق ص ٢٢٧ ٠

(٢٠) ابراهيم غالى ــ سيناء المصرية ــ المرجع السابق ص ٢٢٩ ٠

(٢١) عباس مصطفى عمار ــ المدخل الشرقى لمصر ــ القاهرة ١٩٤٦ ص ١٩٧ ــ ٢٠٠ ٠

(٢٢) د٠ حامد سلطان ــ مشكلة خليج العقبة ــ معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ص ١٢ ٠

مع الحياة البدوية على جانبيه ولا مع حياة منطقة مدنية بها سكان هى « رفح » لكى يشطرهـا بأسـلوب فج لا يراعى فيـه الجوانب الاجتماعيـة ولا حتى الاقتصادية .

كما قلب هذا الخط الموازين العسكرية لصالح بريطانيـا التى أصبحت بموجبه كل سيناء عمقا استراتيجيا للدفاع عن القناة وأرضا فارغة من أى قوات تركية يحسب لها حساب . فأضحى هذا الخط أشبه بسد يعوق التحرك بين أبناء غزة « البوابة » المطلة عليه ومن خلفها فلسطين وبلاد الشام بل والقارة الآسيوية بكاملها فكان أخطر خط صنع لسد هذه البوابة .. ولتصبح معه مدينة غزة وقراها أول مواقع المواجهة والمجابهة التى كادت أن تحدد مصير بريطانيا العظمى فيما بعد وفى الحرب الكونية الأولى فانهزمت بها مرتين أفقدت صواب لندن فى مدة وجيزة .

تلك هى أهم الأحداث التاريخية المحورية التى أثرت تأثيرا فعالا وعميقا فى جسد الدولة العثمانية وفى المنطقة العربية وعلى رأسها بوابتاها الآسيوية والافريقية غزة واقليمها الجغرافى .

فما هو موقف العرب جميعا حيال هـذه الأحداث فى الشـام عامة ، والفلسطينيين على وجه الخصوص والمستهدفين الأوائل وأبناء غزة الواقعين فى منطقة التماس اللاهبة فى هذه الحقبة والمجاورين لمصر ؟

فقد أخذ أبناء مدينة غزة منذ البداية فى استغلال التنظيمات الخيرية الخاصة بالأراضى بتسجيل ملكياتهم فى حجج رسمية وشرعية موثقة من المحاكم بتوقيع قائمقام المدينة ورجال الدين كما سنرى عند دراستنا لملكية الأرض ضمانا لتعزيز وتوثيق ملكياتهم وعقود البيع والشراء . فى وقت أخذت فيه الثغرات الادارية تتفشى وتتسع فى كيان الدولة العثمانية وما نجم عن ذلك من نزف للأموال أنفقته الدولة للقضاء على الدسائس التى تحيكها الدول الكبرى بواسطة قناصلهم وشركاتهم فى الداخل . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد عايش الشعب الفلسطينى محنة مصر المالية والسياسـية فى هذه الفترة وهى تكابد أهوال الديون أيام الخديوى اسماعيل باشا فتجاوب أبناؤها جنبا لجنب مع أخوتهم شعب مصر فانتقدوا السياسة المالية ومن بعدها التخبط السياسى أيام توفيق وآزروا الثورة العرابية وقد أعرب عن ذلك الشيخ يوسف شراب الشاب الأزهرى الغزى فى عام ١٨٨٢م بقصيدة شعرية انتقد فيها الأوضاع الماليـة والسياسية قائلا فى مطلعها : ـ

وصـار يجلب للعمال آكسـية — من أرضـهم وغـذاء من غذائهـم
وفوضى الرأى فهـم فى رعيتـه — أمـرا ونهبـا بتصـويب لفعلهـم
وفى الخزينة قـد صـارت رواتبهم — فـوق الذى لامـام العرب والعجـم
وطارق النهب فى الأموال يطرقهـم — مـن الأمـير عـلى عنـف لسـلبهم

وبعد تصويره للفوضى المالية ونهب مقدرات الشعب على أيدى المحتلين من الانجليز انتقل منتقدا الوضع السياسى أيام الخديوى توفيق قائلا :

وجاء من بعده خلف يغر به ... بدر المقنع فى أنحاء غربهم
وواعدوه خداعا أنهم رهن ... الى أوامره ما شاء فى الحكم
وأودعوه مواثيقا مموهة ... بزخرف القول فى قرطاس كتبهم

مؤيدا بعد ذلك ومناصرا الثائر أحمد عرابى فى ثورته ضد الخديوى توفيق قائلا :

فقام أحمد يحمى الدين مع نفر ... باعوا النفوس على أثمان ربهم (٢٣)

وعلى أثر ذلك طرد الشيخ يوسف شراب ابن غزة من مصر مع مجموعة المؤيدين لأحمد عرابى ومنهم الشيخ عبد الرحمن عليش والشيخ محمد عبد الجواد القاياتى والشيخ محمد عبده وذلك فى عام ١٨٨٢ م .

وتنامى العمل الوطنى ضد التدخلات الاجنبية والمشاريع الاستيطانية والتى بدأت تطفو على السطح جهارا مع مولد الصهيونية فى مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ م وأصبحت « فلسطين » ذلك الجزء الجنوبى الذى لا يتجزأ من سوريا الكبرى وكأنه وحدة سياسية مستقلة أفرزتها المخططات السياسية عنوة فانتفض أبناء غزة وعلى رأسهم نخبة من الشباب الأزهرى المتعلم والملئ بالايمان عن سخطهم وحبهم للاستقلال والحرية فقامت السلطة العثمانية فى أواخر رمضان سنة ١٣١٥ (١٨٩٧ م) ليلا بالقاء القبض على كل من حنفى أفندى المفتى بغزة سابقا ومعه أخيه عبد الحى أفندى وابنه أحمد عارف وايداعهم سجن أنقرة بتركيا بتحريض من القائمقام حسن بك وجمال بك وتوفيق باشا متصرف القدس . حيث مات المفتى وهو فى السجن « ١٩٠٥ م » . وقد سبق لوالد هؤلاء وهو مفتى غزة فى ستينات القرن الثالث عشر الهجرى أن نفى الى مصر سنة ١٢٨٢ هـ لمواقفه المعادية لتركيا ثم رجع لغزة على أثر تدخل اسماعيل باشا فى سنة ١٢٨٥ هـ ثم أبعد ثانية للقدس فى سنة ١٢٨٦ هـ .

وقد وقف الرأى العام الفلسطينى فى غزة ما بين معارض شامت عليهم وآسف صامت فكان من الفئة الأولى الذين عبروا عن معارضتهم بقصائد شعرية وأكالوا السلطان بالمديح والثناء الشيخ عبد الله الغصين والشيخ أحمد مكى والشيخ أحمد بسيسو الذى نورد من قصيدته مطلعها الذى امتدح فيها السلطان ورجاله فى القدس وغزة قائلا :

قد ماتت الغايات وابتهج الورى ... حيث المآل لظالم فى أنقرا
سلطاننا الغازى جليل مهابه ... عبد الحميد الليث والسامى الذرى
أهدى الى القدس الشريف سيدا ... متصرفا بامورها لن يفجرا
توفيق بك ذى المعالى والعلى ... بطلا هماما فارسا وغضنفرا

(٢٣) جمعت هذه القصائد من أوراق عديدة غير مطبوعة خطها الشيخ عثمان الطباع .

فى حين أنشد الأديب عبد الحى الحسينى ابن مفتى غزة سابقا وهو فى سجن أنقرة قصيدة قال فى مطلعها : —

لئن نابنى دهرى ممـــا أنـا عاتبه — ومن ذا يرجى رفـق قرن يغـــالبه
وانى وهـــذا الدهر دوما كمـــا نرى — يجاذبنى طــرف العــلى وأجــاذبه
وقالوا امتحنت اليوم قلت نعم لقد — ظلمت ولم يستنكر الارث صـــاحبه

ومن الصعب على المرء أن يقطع بيقين أى الفريقين على صواب فى وقت لم تتضح فيه الرؤية السياسية لهؤلاء الذين وقفوا مع سياسة عبد الحميد عندما نادى « بالجامعة الاسلامية » وسيلة لحل مشاكله أم أولئك الذين نادوا بالدستور والاستقلال ضمن اطار سياسة تركيا الخارجية · فما تزال تركيا وسياستها قضية للمناقشة والحوار ·

الا أنها تبقى ظاهرة طيبة وطبيعية من شعب بدأ يتجاوب مع الأحداث السياسية ولم تغلبه أو تسكته ركامات أربعة قرون مضت بكل مآسيها ·

وفى عام ١٩٠٨ ظهرت « حركة الشباب الأتراك » باعلانهـــا الدستور وتشكيل حكومة نيابية وابعاد السلطان عبد الحميد الذى رأى فيها أمرا مشبوها قام بتحريض من انجلترا لتقويض حكمه والا لماذا لم تقم انجلترا نفسها حكما دستوريا فى الهنـــد وهى بلد متعدد العناصر من مسلمين ومسيحيين وبوذيين ··· الخ ؟ وتريد تنفيذه فى الدولة العثمانية (٢٤) ·

وواصل العرب كفاحهم فى نيل الاستقلال بأسلوب لا مركزى مع اشراكهم فى السياسة الخارجية لتركيا ، ولما لم يجد ذلك ظهرت جمعيات وطنية مثـــل « جمعية الاتحاد التركى » من العرب والترك وكان لها فرع فى غزة برئاسة ضابط عربى عثمانى يدعى « سنوسى بك » يعاونه من أبناء غزة وضمن تنظيمه أحمد عارف الحسينى الذى أطلق سراحه من قبل وخليل بسيسو رئيس بلدية غزة السابق والحاج سعيد الشوا ومحمد الصورانى وحسين خيال والشيخ محى الدين عبد الشافى أخذوا جميعا فى مقاومة سياسة التتريك التى بدأت تنفذ مخططاتها فى المناطق العربية وبعد أن خيبت آمال العرب فى الاستقلال ، كما قاوموا سياسة الاستيطان الصهيونية ·

فقد أشارت التقارير البريطانية الصادرة من فلسطين الى استياء الفلسطينيين ومعارضتهم للمستوطنين اليهود وعدائهم حتى للملاك من غير الفلسطينيين للأرض

---

(٢٤) مذكرات عبد الحميد الثانى السياسية — المرجع السابق ص ٧٨ — ٨١ ·

لسهولة بيعهم لها دون اكتراث وقام الفلاحون بمهاجمة الأراضى القريبة من بحيرة طبرية وتلك التى باعتها « أسرة سرسق» وطردوا منها العمال والفنيين مما أسفر عن استصدار قرار من تركيا بالغاء بعض الصفقات التى عقدها اليهود (٢٥) كما أمرت تركيا أجهزة الحكم فى فلسطين بمزيد من اليقظة والتصدى أمام أطماع وطموحات الصهاينة فى امتلاك الأراضى (٢٦) ٠

وتابعت هذه الجمعيات نضالها تكافح سياسة التتريك كما ناضلت من قبل سياسة عبد الحميد ومحمد رشاد تحت لواء « جمعية الاخاء العربى » سنة ١٩٠٨ « والمنتدى الأدبى » سنة ١٩٠٩ فى اسطنبول ومن أعضائه الغزيين مصطفى أحمد عارف الحسينى وعاصم خليل بسيسو ورشدى سعيد الشوا ، فى الوقت الذى كانت تبذل فيه جهود سياسية تدعو للجهاد الاسلامى يقودها الشيخ عبد العزيز جاويش من زعماء الحزب الوطنى المصرى يساعده فى لبنان الأمير شكيب أرسلان يحاولون كسب أنصار ومؤيدين لدعوتهم فكان الأمير ينتقل بين المدن الفلسطينية فى كل من يافا ونابلس (٢٧) وعرج على مدينة غزة فى يوم ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) مجتمعا بالحاج سعيد الشوا رئيس بلدية غزة فى منزله وبصحبتهما الشيخ عثمان الطباع أثناء مروره لمصر فى مهمة وصفها الطباع بأنها « سياسية » ولم يفصح فى أوراقه عما دار بينهم من حديث ، الا أن رئيس بلدية غزة كان له نشاط سياسى ودى مع الحكومية التركية فقد منحته النيشان الثالث العثمانى على حسن خدمته فى تجنيد العرب وذلك فى شهر صفر سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥/١٤) كما تم تبرئة ولده رشدى الشوا فى ٥/ جمادى الأول سنة ١٣٣٤ هـ ومعه عاصم خليل بسيسو (٢٨) فى حين تم اعدام مصطفى وأبيه أحمد عارف الحسينى بعد أن أعلنت تركيا اعدامهم جميعا ٠ وفى هذا العام أعلنت تركيا قيام الحرب ٠

هذه العوامل السياسية المحورية وعلى مدى أكثر من نصف قرن طبعت الأوضاع الادارية والاجتماعية وكذا الاقتصادية فى مدينة غزة وما حولها بل على الساحة الفلسطينية والعربية بطابع التسيب الادارى والفوضى الاجتماعية والتدهور الاقتصادى بشكل مهد للاحتلال الذى رسم لذلك وخطط وسنتابع تأثير ذلك على النظام الادارى والتركيبة الاجتماعية والديمغرافية والبنية الاقتصادية لمدينة غزة وقراها ٠

---

(٢٥) جريدة الشعب ـ لسان حال حزب العمل الاشتراكى المصرى ـ عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٨٦ ص ١٠ ٠

(٢٦) د٠ يوسف هيكل ـ القضية الفلسطينية ـ المرجع السابق ص ٢٣ ٠

(٢٧) الحرب العالمية الأولى ـ موسوعة تاريخية مصورة ـ الجزء العشرون ـ بيروت ص ٣٥ وانظر الموسوعة العربية الميسرة ـ دار الشعب القاهرة ـ ١٩٦٥ ص ١١٧ ٠

(٢٨) أوراق عثمان الطباع ـ غير مطبوعة ٠

السلطة الادارية

أخذت غزة وقراها تحتل مكانة لا تتعدى دور « القائمقاميه » أي يحكمها قائمقام ومركزه « سراى غزة » فى المنطقة الواقعة الى الشرق مباشرة من الجامع العمرى الكبير [الدبويا فيما بعد] وتتلقى هذه القائمقامية رواتب موظفيها سنويا وتصدر لها الأوامر من والى القدس مباشرة ويعاون القائمقام مسئولون يمكن ترتيبهم وفقا لما جاء فى المراسلات الصادرة اليهم من والى القدس كالتالى : (٢٩) ٠

- قائمقام غزة وهو حاكم المدينة وقراها وعليه تنفيذ الأوامر الصادرة.

- نائب الشريعة ، أى القاضى الحنفى ٠

- مفتى أفندى ، وغالبا ما كانت هذه الوظيفة حكرا لبعض الأسر يتوارثها الأبناء عن الآباء كما هو الحال فى أسرتى الحسيني والعلمى فى غزة ٠

- قائمقام نقيب السادة الاشراف ، ويتم تعيينه من قبل السلطة العثمانية بأسطنبول مباشرة بعد أن يزكيه علماء واشراف وارباب الكلام من سكان المدينة لما لها من مكانة فى نفوس العثمانيين خاصة وان نقيب الاشراف يشرف على شئون واحوال الأشراف من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام مستمدا سلطة خاصة فى الجهاز المحلى للحكم يحافظ بموجبها على مصالح هؤلاء ويمنع اذا لزم الأمر تدخل السلطة فى شئونهم ٠ وفى فترات الضعف هذه تعدت سلطته حدودها لتدخل فى صلاحيات المساعدة فى جمع الضرائب كما رأينا سابقا وفى القرن الثامن عشر المنصرم (٣٠) ٠

وقد تقلد هذا المنصب فى غزة السيد مصطفى العلمى شعشاعه بعد عام ١٢٥٠هـ واستمر فيه حتى توفى سنة ١٢٦٨هـ خلفه فيه من بعده ولديه الحاج أحمد ثم الحاج محمد (٣١) وقد ورد اسمهما فى حجة بيع شرعية ٠

---

(٢٩) د٠ عبد الكريم رافق - غزة - دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٨٥٧ - ١٨٦١ - عمان ١٩٨٠ ص ٧ ٠

(٣٠) بطرس أبو منة - أضواء جديدة على علو شأن الحسينية فى القدس - مجلة الشرق - العدد ٣ - تموز - يوليه ١٩٧٩ - حيفا - ص ١٨ - ١٩ ٠

(٣١) الشيخ عثمان الطباع - الشجرة الزكية - مخطوط ص ٨٨ - ٨٩ ٠

ـ يلي نقيب الأشراف أعضاء المجلس ، ولم تشر الوثائق الشرعية الغزية التى تغطى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م عن خصائص هذا المجلس أو صلاحياته يلي هؤلاء جميعا فى المسئوليات الادارية أصحاب الألقاب التالية :

ـ وجوه البلد ٠

ـ مختارو المحلات (المختار أو العمدة) ٠

ـ مشايخ الحارات ٠

ـ أرباب التكلم بوجه العموم ٠

ـ مفاخر القبائل والعشائر ، وكان فى منطقة غزة قبائل تقسم الى قسمين هما : ـ

ـ عربان بلاد غزة الصف الشمالى ، والتى تتمركز مضاربهم شمال مدينة غزة وعلى رأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدى الحسينى ويحمل لقب شيخ مشايخ هؤلاء العربان ٠

ـ عربان بلاد غزة الصف القبلى ، ويسكنون جنوب غزة ويرأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدى الحسينى الملقب بشيخ مشايخ العربان ٠

هذا بالاضافة لعربان « القديرات » جنوب شرقى غزة (وشيخهم سلامة رقيق) وعرب العزازمة وبنى أيوب وعرب وادى موسى (٣٢) ٠

وقد اعتمدت عليهم الدولة العثمانية فى نقل المؤن خاصة القمح والشعير من غزة الى معان لحساب قافلة الحج الشامى (٣٣) كما كان الحال فى القرون التى خلت ٠

وهؤلاء جميعا كما أوضحنا سابقا يديرون شئونهم وفقا للعادات والاعراف المتداولة فيما بينهم ولا مانع من الاستعانة بالقوانيين الحكومية اذا دعت الحالة كما سنرى عندما كانوا يشترون أراضى داخل المدينة أو يتزوجون من بنات القرى الغزية ٠

ونظرا لان هذه الوظائف الادارية غالبا ما كانت تنقل بالوراثة من الأب الى الابن أو فى أضيق الحالات لواحد من نفس الأسرة (الحسينى ـ العلمى ٠٠)

(٣٢) د٠ عبد الكريم رافق ـ غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ـ المرجع السابق ص ٧ ـ ٨ ٠

(٣٣) د٠ عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

فقد خلقت جوا من التنافس الأسرى داخل المدينة ، كما كانت تخلق نوعا من الحساسية أو التدخل فى الشئون الداخلية فيما لو تم تعيين قائمقام أو مفتى أو نقيب أشراف من مدينة أخرى .

ونظرا لما عم البلاد فى هذه الحقبة من تدخلات سياسية كما أشرنا وما أصاب البلاد من جراء ذلك من تسيب ادارى عبر عنه ابناء مدينة غزة من الطبقة المثقفة والمتعلمة بأشعارهم يوم كان الشعر هو التعبير والوسيلة الشافية والمقنعة للتقييم والتقويم ، للنقد والاصلاح . وكان من أشعارهم ما يفصح عن جانب من الأوضاع الادارية السائدة داخل المدينة وما كان يقترفه بعض القضاة ورجال الافتاء والنواب والمتصرفين .

فها هو مفتى مدينة غزة السابق الشيخ أحمد محى الدين (سنة ١٢٦٢ هـ ظهر توقيعه على حجة شرعية) يبعد منفيا لمصر سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) فأرسل قصيدة للخديوى اسماعيل باشا مستغلا قدومه من الأستانة شاكيا له فيهاظلمه وغربته قال فى مقدمتها :

غوثا لعبد كان فى أوطانه	ينتمى لدولة عزكم وسناها
مكرت به أعداؤه حتى احتمى	فى حرمة لا يستباح حماها

واستمر يرفع شكواه حتى صدرت الأوامر من الأستانة بالسماح له بالعودة لمدينة غزة فى عام ١٢٨٥هـ ليبعدوه ثانية وبعدها بعام فقط الى القدس .

وها هو الشيخ صالح سكيك من أبناء مدينة غزة يفصح بشعره عن سوء الأحوال السياسية وتشاؤمه من الأوضاع ربما متأثرا بابعاد مفتى غزة فيقول فى مطلع قصيدته سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٥) :

واعظم شدة وأشد بلوى	معاداة الخسيس مع الرئيس
يبيع اليه عرضا مستهينا	ويقدح منه فى عرض نفيس

ولعله يقدم لنا صورة اكثر وضوحا عن نساء رجال الادارة فى عهده فأنشد قائلا فى عام ١٨٨٨م : ـ

ان الأولى كانوا بغزة هاشم	أقمار سعد فى بروج سعودها
فتوحشت من بعدهم وتبدلت	غزلانها بكلابها وقرودها
لا ترتجى من بعدهم خلا ترى	من بشاشة وجهه لمريدها

ويبقى سوء الأحوال الادارية يضرب أطنابه مع أواخر القرن الثالث عشر الهجرى فيقدم لنا الشيخ محمد ساق الله الغزى صورة قاتمة لسلوكيات بعض

قضاة المدينة المدعو محمود شفيق من دمشق ويشكوه مباشره بقصيدة شعرية لشيخ الاسلام بالأستانة سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) يقول فيها : —

أيهـــا الســـامى مقاما قد عـــلا هـــام الثريا
شـــيخ الســـلام هماما فاضـــلا شـــهما تقيـــا
عنـــدنا الآن قـــاض دائمـــا يزداد غيـــا
لا يعى فصل الدعـــاوى مـــن تعاطيـــه الحميـــا
شربه شرب ذريـــع عـــابه مـــا دام حيـــا
انه وانـــه والله عـــار مثـــله يبقـــى وليـــا

وجاهد هذا الرجل في كشف التخلخل والتحلل الادارى رافعا شكواه لأعلى المناصب الدينية في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، فعبر عن ذلك فى عـــام ١٢٩٧ هـ ليقدم لنا صورة أخرى لمآسى المدينة فى قاضيها محمود أفندى الخانى نقطتف من قصيدته الأبيات الناقدة التالية : —

لله نشـــكو قاضـــيا هو فى القضا سوء القضا
مـــا فيه من حسن سوى بســـط الأكف ليقبضـــا
وبكـــل زور باطـــل قول الأيمـــة عارضـــا
ومجاهـــر بالارتشـــا ومصرحـــا ومعيرضـــا

واستمر الحال بالشيخ محمد ساق الله الحنفى الغزى حتى تم تعيينـــه « مفتى « بمدينة غزة فى تسعينات القرن التاسع عشر الميلادى فانفصل عن الافتاء لتفشى الفتن والضغائن بين الناس فأرسل قصـــيدة للصـــدر الأعظم بالأستانة يبثه شكواه ومسترحما العودة لوظيفته قال فى مطلعها سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٣م) : —

يقول ناظمها من فكـــره دررا محمد بن بســـاق الله مشتهر
مـــا جئت أستانه من غزة وطنى وساءنى فى الطريق البرد والمطر
مع ان سنى ثمانون متممـــــة من السنين بدرس العلم أفتخـــر
الا لتقبيل اقدام اليك علـــت هام الثريا التى يمحى بها الضرر
أرجـــو الاغاثة من أمـــر بليت به مالى سواك لهذا الأمر ينتصر
وهو انفصالى عن الافتا بلا سبب ولا أتيت بذنب منـــه يعتـــذر
بل كان ذاك الأمـــر سر مبدلى بذى فساد جهـــول دأبه الضرر

ويضيف لنا الشيخ الغزى أحمد بسيسو ملامح أخرى عن صورة القضاة المشوهة داخل المدينة يصف فيهـــا بشعره القـــاضى محمود أفندى السرمينى الحلبى والذين لقبوه « بالسخل » وكان قاضيا لمدينة غزة قال فى مطلع قصيدته سنة ١٢٨٨هـ (١٧٧٢م) : —

سرمين بلدته والسخل شــهرته ... والكذب عادته فى كل ما قال
كم يدعى نسب الكيال من حلب ... فهل سمعت بكون السخل كيـــال
فى غزة بعض أهل السوء يصحبه ... اتعس بأسود وجه فى الردى جال

ويؤكد محمد عبده وزميله جمال الدين الأفغانى هذه الصورة القاتمـــة للحياة الادارية فى يناير سنة ١٨٨٤م عندما أسدوا النصيحة لصـــديقهما « بلنت » الانجليزى المؤازر لهما فى محنتهما بعدم الذهاب للقسطنطينية لأنهـا تحت امرة « عثمان باشا » الصدر الأعظم الذى كرس كل اهتماماته « ليمـــلأ كيسه بالمال » واستطردا قائلين أما ســوريا (الشام) فتسودها أفكار الحرية رغم طغيان رجال الشرطة والجواسيس (٣٤) · ولا ينكر السلطان عبد الحميد الثانى فى مذكراته هذا الوضع المهين الذى بلغ حدا ارتشى فيه صدره الأعظم السر عسكر « حسين عونى باشا » فتسلم نقودا من الانجليز مما دفع السلطان الى الاعتماد على « دراويش التكايا » كعيون له لكى يتعرف على « تفكير الرعية » على حد رأيه ـ تماما كما فعل من قبل جده محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م) عندما وسع دائرة مخابراته بالدراويش ، والا فكيف يتسنى لدولة أن تعيش آمنة على حياتها وقد انحدر وزيرها الأعظم لهذا المستوى من التردى ؟! هـكذا يتساءل السلطان عبد الحميد الثانى (٣٥) ·

وهكذا تفشى سوء تصرف رجال الادارة فى هذه الحقبة بالذات مستغلين ومستثمرين مناصبهم وهم على أعلى درجات المسئولية فكيف ســيكون الحال بالنسبة للقضاة والمفتشين من رجال الادارة القابعين فى مـــدن اطـــراف الامبراطورية كمدينة غزة وقد اكمل الوصف « براهيم المويلحى » الذى عايش السلطان عبد الحميد فى عاصمته فى الفترة الواقعة ما بين ١٨٨٥ ـ ١٨٩٢م فى كتابه « ما هنالك » قائلا [« يأتى المعزولون من المأمورين الى دار السلطنة فيدخلون وعبابهم مملوءة بالمال ورؤوسهم بالأحلام يطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والحاجب والنديم وعندما يعودون الى وظائفهم لا ترى منهم الرعية الا نمورا تمزق الأجساد واسودا تفرق الأشلاء وافاعى ناهشات ··· وعرفوا ان لا عقاب على الرشوة ولا مؤاخذه فى استعمال القسوة »] (٣٦) ·

---

(٣٤) كتاب س· بلنت ـ د· على شلش ـ الأفغانى ومحمد عبده ـ كتاب الهلال ـ يناير ١٩٨٦ ص ٧٣ ·

(٣٥) مذكرات السلطان عبد الحميد ـ اعداد محمد حرب ـ كتاب الهلال ـ أكتوبر ١٩٨٥ ص ١٠٧ ١٠٨ ·

(٣٦) مجلة الهلال ـ عدد يناير ١٩٨٦ ص ١٢٥ ·

كان رجال الادارة فى مدينة غزة صورة لهذا الوضع اصبح معه رجال العلم والاتقياء يتنافقون من الوظائف والمناصب وأصحاب الالقاب من « الأفندية » التى اصبحت تهمة يستنكرها الناس ولقد رسم لنا هذه الصورة بشعره أحد مشايخ غزة الشيخ عثمان الطباع عندما قال فى سنة ١٣٢٤هـ الموافق لسنة ١٩٠٦م :

تبا لأرباب الوظائف انهم ... أهل الشقاء والخزى والخسران
باعوا المروءة والمكارم والتقى ... بالدرهم المنبوذ بالطغيان
عدلوا عن الحق المبين وزينوا ... أعمالهم بوساوس الشيطان

هذا ما اتصف به أرباب الوظائف من الرشوة والبعد عن العدل والانصاف بين الناس فيكمل لنا نفس الشيخ الطباع بلوحته الشعرية أخلاقيات الموظفين ممن يحملون لقب « الافندى » قائلا :

لا تصحبن من اللئام أفندى ... واترك مودته وأبعد عنه
لا ترتجى اسعافه لحوادث ... كل التضرر والمفاسد منه
خبث الأخسة مع سوء الفعال غدا ... فى فرقة قد دعوهم بالأفنديه
لذا بدا وجه ما قالوه من زمن ... ان المراحيض تبنى بالأفنديه

ولتأكيد هذا الوضع الادارى المتقلب • وحتى آخر سنوات الحكم العثمانى ـ فقد حدث أن فصل محمد رشدى ـ من رئاسة « بداية محكمة غزة » فتوجه فورا للاستانة فى شباط سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) ليتم تعيينه رئيسا لمحكمة قضاء عكا التابعة لمتصرفية طرابلس الشام فى حزيران من نفس العام •

هذا الفصل والتعيين فى مدى أشهر وجيزة دلالة قاطعة على التخبط الادارى واتخاذ القرارات العفوية اللامسئولة اما لانتشار الرشوة والمحسوبية كما بينا من قبل أو لتفسخ واسترخاء ادارى مقيت وينقل لنا هذه الصورة أحد أبناء غزة وفى عام سنة ١٢٣٠هـ (١٩١٢م) يصف فيها نائب غزة قائلا :

عونا أمام العصر من ذى نائب ... بغزة أعيا الورى نائب
بقاؤه من أعظم المصائب ... اذا لم يكن فى حكمه صائب
مداره غدا بقبض اليد
مجاهر بالارتشا ومرتجى ... دوما يوافيه المنا ممن يجى
ويخزن المقبوض عند المطرجى ... لذا سموه فى الورى بالمطرجى
بنى ظلمه ببغى جمع النقد

ووقف مع هذا الشاكى الأديب الفلسطينى الشيخ سليم أبو الاقبال اليعقوبى اللدى مؤازرا ومناشدا أهالى غزة محنتهم فيه قائلا :

يا آل غزة أودى المطرجي بكم والمطرجى كداء السل فى الجسد
أن تنبذوه تنــالوا كل مكرمة أو تطردوه تريحوا الناس فى البلد

هكذا أصبحت الرشوة وسيله من وسائل تخـــريب الادارة التنفيذية للسلطة العثمانية وعلى أيدى رجال ادارتها أنفسهم ، والتى استفحلت عـلى مدار أكثر من نصف قرن ابتداء من ستينات القرن التاســع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى وهكذا فقط وفقا لما عثرنا عليه ٠

وقد حدث قبل نهاية القرن التاسع عشر وفى عام ١٨٩٣م تشكيل أول مجلس بلدى لمدينة غزة برئاسة الحاج مصطفى العلمى مستمرا فى رئاستها حتى عام ١٨٩٨م ليخلفه ابنه الحاج أحمد العلمى وحتى عام ١٩٠٢ ليأتى بعده على الشوا الذى استمر فى البلدية حتى ١٩٠٦م ليخلفه الشيخ عبد الله العلمى فى عام ١٩١٠ ترأس البلدية خليل بسيسو ليترأس بعده البلدية الحاج سعيد الشوا الذى بنى مقرا للبلدية (صورة ١٤٣) ٠

وقد جاء فى مرسوم التعيين الصلاحيات الواجب اتخاذها من قبل رئيس البلدية :

« يجب ان تداوم على الحضور الى المجلس صارفا الهمة بالاتفاق عـــلى عموم أعضائه لاستكمال وسائل طهارة البلده ونظافتها وتعديل أسعار ارزاقها وتحسن عمرانها حسب التعليمات التى ترد من مركز الولاية ايجابا لحميتك واقتضاء لفرايض الغيرة الوطنية والانسانية » (٣٧) ٠

أما القرى المحيطة بالمدينة فتتبع بطبيعة الحال فى جميع شئونها الادارية والمدنية لمدينة غزة نفسها ٠ وفى عام ١٩٠٤ أصبحت مدينة غزة تتبع متصرفية القدس كما كانت سابقا والتى لها علاقتها المباشرة بوزارة الداخلية بتركيا دون أن تتبع أية ولاية لمكانتها الدينية ولكن الجديد هو فى تشكيل أقضية أربعة هى غزة ويافا وبئر سبع وخليل الرحمن أصبح معه قضاء غزة يضم أصـــغر مساحة جغرافية له وحتى قيام الحرب العالمية الأولى ٠٠

---

(٣٧) احسان النمر ـ تاريخ نابلس والبلقـــاء ـ الجزء الثـــالث ـ نابلس ـ ١٩٦١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

الفصل الثامن عشر

التركيبة الاجتماعية

- الأحوال الاجتماعية
- مكانة المرأة الغـزية
- التعليم فى غـــزة
- الوقف كظاهرة اجتماعية



على العكس من الطبقة الادارية الحاكمة والضاغطة بانفلاتها عن كل النظم على كاهل الشعب عاش أبناء مدينة غزة فيما بينهم بقوة الايمان الذى يعمر قلوبهم تزكيهم وتحليهم روح التسامح الدينى ليس على انفسهم بل وعلى الجميع من أبناء الطوائف الدينية الأخرى • فلا وجود للنظام الطبقى الفارق بينهم ، فالاقطاع العسكرى العثمانى جعل الجميع من أبناء المدينة وهم جزء من الشعب الغزى الفلسطينى يعملون كفلاحين يحرثون الأرض ويفلحونها ويجنون ثمارها ليقدموا جزءا منها للمتسلمين على هيئة ضرائب (باستثناء قلة قليلة جدا من أسر الحكام والملتزمين والأغوات الذين تمتعوا بمزايا امتلاك الاراضى وفقا لنظم الاقطاع العسكرى) •

واعتمد هؤلاء الفلاحون وهم السواد الأعظم من السكان على فائض انتاجهم لبيعه لأصحاب الحانات فى قلب المدينة الأم (فوق المدينة وعلى الحرفيين وأصحاب المصانع البسيطة • ليسدوا حاجاتهم اليومية •

هؤلاء جميعا تربطهم وشائج الود دون انفصام بين المسلمين الغالبية العظمى وبين اخوانهم من العرب المسيحيين •

ومن واقع المعلومات التى أمدتنا بها وثائق المحكمة الشرعية لمدينة غزة فى الأعوام الواقعة بين سنتى ١٨٥٧م سنة ١٨٦١م (٣٨) • نجد أنه لم يكن هناك خط أو شارع تعيش فيه فئة دينية أو اثنوغرافية معينة •

وان اختلفت أسعار المنازل ـ فى الحى الواحد ـ التى بيعت فى هذه الفترة فان ذلك مرده لبعد المنزل المراد شراؤه عن مركز المدينة التجارى (قصبة السوق) التى يتوسطه « جامعها العمرى الكبير » لا الى قيمة الأرض فى حد ذاتها أى أن الذى يحدد السعر هو « موقع المنزل » بالنسبة لمركز السوق وليس لطبقة اجتماعية معينة تسكن الحى ، فالمنزل الذى بيع بالقرب من مسجد الشيخ عثمان تشقار وهو يبعد عن قصب السوق والجامع العمرى الكبير بنحو مائة متر تقريبا بحى الزيتون كان أغلى سعرا من المنزل فى خط مسجد الشمعة والذى يقع وفى نفس الخط بنحو ٢٠٠ متر الى الجنوب من الأول وهذه المنطقة منازلها أغلى ثمنا من تلك الواقعة الى الجنوب منها وفى نفس الخط والواقعة بالقرب من « مسجد البطل » الواقعة تقريبا عند نهاية سفح تلة المدينة لتبدأ الأراضى الزراعية والسواقى والتى يمثل الحد النهائى لعمور المدينة •

---

(٣٨) د• عبد الكريم رافق ـ غزة ـ المرجع السابق ص ٢٦ •

هذا التباين فى الأسعار مرده كما ذكرنا الموقع أو البعد عن مركز المدينة لا الى التمايز الطبقى فجميع هذه المنازل واقعة فى « حى الزيتون » وفى خط واحد (شارع واحد) فقط ٠

ولم يكن بالمدينة حى خاص للعرب الفلسطينيين المسيحيين فى هذه الحقبة من النصف الثانى من القرن التاسع عشر بل كانوا جميعا منتشرين فى شتى أنحاء المدينة وفى أحيائها ولو أن معظمهم كانوا يتمركزون فى خط واحد (هو الخط السابق الذكر فيما بين مسجد قشقار ومسجد الشمعة فى حى الزيتون (حوالى سبعة منازل) ٠

هذا الانتشار وعدم التمركز فى حى خاص بهم يعود لقلة عددهم بالنسبة لبقية السكان المسلمين وعليه كانوا جميعا يسكنون جنبا لجنب مع منازل اخوتهم المسلمين كذلك الحال بالنسبة لأماكن عملهم « أى دكاكينهم » فالبعض امتلك « دكانا » فى قصبة سوق الشجاعية والزيتون وحى الحضر والبرجلية مشاركين اخوتهم المسلمين فى البيع والشراء (٣٩) بحرية وسماحة لا تشوبها شائبة التعصب أو التقوقع بدليل عدم محاولة المسيحيين شراء منازل المسلمين الواقعة بجوارهم عند طرحها للبيع وغير مستغلين حق الجوار بالشفعة « لامتلاكها (٤٠) ٠

كما اعتمدت المحاكم الشرعية بمدينة غزة شهادة المواطن المسيحى بالنسبة للمسلم بمساواة تامة ودعمت ذلك السلطة العثمانية فى تنظيماتها الصادرة سنة ١٨٥٦م وفى قانون العقوبات الجديد سنة ١٨٥٨م والقاضى بالمساواة بين جميع السكان بقطع النظر عن مذهبهم وقد أبلغ قائمقام غزة من والى القدس بوجوب تطبيق وتنفيذ المساواة والعدالة « من كل صنف وتبعه ومن أى ملة ومذهب » (٤١) ٠

ولم تشر هذه الوثائق حتى بداية الستينات من القرن التاسع عشر سنة (١٨٦١م) عن وجود يهود يسكنون المدينة كذلك لم يرد ذكرهم على لسان « طومسون » حين زار المدينة سنة ١٨٥٧ م وتحدث عن سكانها (٤٢) ٠ وفى نهاية السبعينات وفى عام ١٨٨٧م ذكر جات Gatte القس النمساوى بوجود « حى لليهود » داخل المدينة فى حين لم يذكر شوماخر Schumacher سنة ١٨٨٦م والذى زار المدينة قبله بعام واحد عن وجود يهود داخل المدينة

---

(٣٩) د٠ عبد الكريم رافق - غزة المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧ ٠

(٤٠) د٠ عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٣٩ ٠

(٤١) د٠ عبد الكريم رافق المرجع السابق ص ٤٢ ٠

(٤٢) w.M. Thomson, The land and the book, Londo 1913, p. 547.

مبينا أن بالمدينة مائتى مسيحى ، وقد لاحظ أثناء تجوله بقرية دير البلح وجود أسرة مسيحية واحدة وفدت للمدينة فى نفس العام قادمة من السلط (٤٣) ٠

وقد بقى الحال على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر ليسجل السيد مـــاير Meyer ســـنة ١٩٠٦ نقـــلا عن السيد ســـوردل D. Sourdel أن بالمدينة ١٦٠ يهوديا منهم ثلاثون من السفارديم (٤٤) ، وان افترضنا وجود مثل هذه الفئة الدينية اليهودية فاننا لا نجد لهـــا فعالية اقتصـــادية أو حتى اجتماعية تذكر ٠ وعلى العكس كان المسيحيون الذين امتلكوا منازل وأراضى زراعية ومحلات للبيع والشراء فى معظم أسواق المدينة وأشـــارت الوثائق الشرعية الغزية بوجود طائفة « النور » بمدينة غزة (٤٥) ٠ ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطائفة قد تركزت فى سكناها على أطراف المدينة للشرق من حى الشجاعية (التركمان) وفى أقصى الطرف الجنوبى الغربى (حى الزيتون) وقد احترفت الحدادة الخاصة بالمواقد ومستلزماتهـــا وشـــحذ آلات وأدوات الزراعة كالمحاريث والفؤوس ٠ وقد اختلف العديد من الدارســـين عن موطنهم الأصلى سواء أكانوا من الهند أو مصر أو نجد أو قدموا من القسطنطينية وكذلك عن مدلول اسمهم هل هو كما يقول « كارترمير » مشتق من الكلمة العربيـــة « النار » والفعل العربى لها « نور » لانهم كانوا يشـــاهدون وهم يحمـــلون الفوانيس (٤٦) ؟ ٠

فأيا كان مصدرهم يبقى أن موقع مدينة غزة الجغرافى كعقدة مواصلات وبوابة لقارتى آسيا وأفريقيا وكمركز تجارى هام فى القرون الوســـطى وحتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا لا يمنع من استقرار فئة من هؤلاء للارتزاق وهم لا يزيدون عن عشر أسر تقريبا فى المدينة ٠

كما نزل بمدينة غزة هنود مسلمون أقيمت لهم زاوية فى قلب المدينة التجارى تحمل اسم « زاوية الهنود » للآن ولكن هذا لا يعنى توطنهم بها ٠

ولأهمية هذا الموقع احتـــل مكان التجمع بين حجاج المسلمين فى جناحى الوطن العربى الأفريقى وفى مقدمته مصر وبلاد المغرب والآسيوى ممثـــلا فى سوريا الكبرى حيث يتجمعون فى المدينة كمركز لمحمل الحجاج بقيادة حـــاكم المدينة لذا فضل الكثير من هؤلاء الحجاج بعد العودة الاقامة فى المدينـــة وبناء

---

(٤٣) G. S. Schumacher, Researcheas in Southern Palestin, P.E.F., 1886, p. 179.

(٤٤) M. A. Meyer, History of the city of Gaza, New York, 1966, p. 108.

(٤٥) د٠ عبد الكريم رافق ـ غزة ـ المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

(٤٦) د٠ نبيل حنا ـ البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الغجر ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٣ ص ١٠٦ ـ ١٠٩ ٠

المساجد وشراء الأراضي كما بينت الوثائق الخاصة بشراء الأراضي في سنة ١٢٥٦ هـ .(١٨٤٠ م) والخاصة بملكية محمد أغا أبى بكر زنداح المغربى (وثيقة رقم ٨ =) .

كما أوضحت الوثائق أيضا ذكر العديد من الأسر المغربية التى أقامت فى المدينة منها استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد أغا البرعصى المغربى مبلغا من المال من زوجها عبد الحفيظ البرعصى المغربى فى عام ١٨٥٩ هـ . وجاء ذكر سكنى الحاج هيبة المغربى بمحلة الشجاعية بخط الشيخ محمد الطيار (٤٧) .

كما استقر فى غزة العديد من الأسر العربية المصرية من مناطق الصالحية ومن طائفة السعاديين وأكباد الغتاورة سكنوا جميعا فى منازل اشتروها لأنفسهم فى أحياء الزيتون والشجاعية والبرجلية واختلطوا بالسكان بفعالية وعملوا فى وظائف فمنهم من عمل « دقاق بارود » وآخرون فى « الكرنتينه » الواقعة جنوب المدينة مباشرة (نهاية شارع الكمالية) . كما سكنوا قرى غزة فى خان يونس ودير البلح ويبنا وجولس وزرنوقه (٤٨) وهؤلاء جميعا عاشوا بالمدينة عربا مسلمين متضامنين متكافلين تحت مظلة الاسلام التى لا تعرف الطبقية أو التمايز الا بالتقوى .

مكانة المرأة الغزية :

لقد تعدى دور المرأة العربية الفلسطينية فى غزة وقراها وظيفة « سيدة البيت » المتفرغة لأعمال الطهى وتنظيف وترتيب منزلها لخدمة زوجها وأولادها الى ما هو أوسع مدى وذلك بمشاركة زوجها فى الحقل زراعة وعناية وحصادا كما أوقفت فى المدينة الكثير من أموالها الخاصة لخدمة العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية كما رأينا مع بداية العهد العثمانى ونهاية الفترة المملوكية (وثيقة رقم ١ =) كما ساهمت فى عمليات البيع والشراء فاشترت وباعت أراضى زراعية داخل المدينة وخارجها (وثيقة رقم ٩ = .) .

ووقفت بنفسها فى المحاكم بخصوص زواجها أو طلاقها كما وقفت كمدعية ومدعى عليها وفى بعض الحالات وكما ظهر فى وثائق غزة الشرعية فى خمسينات القرن التاسع عشر كان ينوب عنها زوجها أو أحد أقاربها .

كما عملت المرأة العربية الفلسطينية فى غزة فى صناعة الألبان وبيعها وقطف القطن وغزله ونسجه فى قاعات الحياكة المنتشرة فى معظم أحياء المدينة فى الشجاعية والبرجلية .

---

(٤٧) د. عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٤٦ .

(★) لا تزال هذه الأسر تعيش فى غزة .

(٤٨) د. عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٤٥ .

كما أقرضت العديد من الرجال ومنهم الحرمة (زينب الرملى) التى بلغت قيمة تركتها ٣٣٢٦٧ قرشا أسديا منها ٩٣٥٢ قرشـــا قيمة حليها ونقود ، كما أعطت ١٦ الف قرش دين عقدته مع شخص يدعى أحمد عودة (٤٩) ٠

وكان لبعض الأسر الغزية فى هذه الحقبة من النصف الثانى للقرن التاسع عشر جوار بيعت احداهن وهى سمراء فى سنة ١٨٥٩ م بمبلغ ٢٥٠٠ قرش أسدى وكانت من ضمن جوارى أحمد عودة البطل (٥٠) ٠

أما المرأة المسيحية فان ظهورها فى المحاكم كان أقل من ظهور المسلمات ربما لأسباب دينية تسمح لهن بالتوجه الى مكان آخر غير المحكمة ٠

وعموما كانت المرأة العربية المسيحية تجارى المسلمة فى ملابسها فكان لها حجابها الشبيه بحجاب المرأة المسلمة المتمثل فى (الكاب ومنديل وغطرة) وجميعها سوداء اللون وتلبسه نساء أحياء الحضر والدرج والبرجلية أما نساء الشجاعية التركمان فكن يلبسن ثوبا فضفاضا لونه أزرق بأكمـام عريضـة عند معصمهن (أردان) وعلى وجوههن « برقع » من القماش مرصع ببعض النقود الفضية متدليا على جانبى رأسها بحيث يكون وجهها مكشوفا وتغطى رأسـها بغطاء أبيض يسمى (غطراس) أى غطاء رأس ٠ أما نساء الشجاعية الجديدة والتفاح والزيتون فيلبسن جميعا ثوبا لونه أسود ويتميز باتسـاعه وتغطى رأسها بغطاء أبيض يتدلى على ظهرها تحجب به وجهها باستثناء عينيها فقط ٠

ولعل الدراسة التى قام بها الدكتور رافق على عينة عشوائية من الوثائق الشرعية لمحكمة غزة فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٥٧م و ١٨٦١م ، تعطينـا صورة ولو بشكل محدود عن ملامح الحياة الاجتماعية لظاهرة الزواج والطلاق على الرغم مما قد يتكرر من حالات للزواج أو الطلاق ، الا أنها تقدم لنا ظاهرة اجتماعية حيث وجد أن هنـــاك احدى وخمسين (٥١) حـالة زواج يقابلهـا سبع وثمانون حالة طلاق ٠ مما يضفى جوا من عدم الاستقرار الأسرى – ولو جزئيا – ناجم عن سوء الأحوال الاقتصادية ومن المتزوجين الواحـد والخمسين كانت الزوجة فى ثلاث وثلاثين منها بالغة عنـــد الزواج وقاصرة فى الحالات الباقية (٥١) التى تمثل أكثر من ٣٠٪ من حالات الزواج ٠

مما يعكس وضعا اقتصاديا واجتماعيا له مميزاته فى هذه الفترة متصفا بالتدنى والفقر لنسبة غير ضئيلة على الأقل من الناس خاصة لو علمنــا أن متوسط مهر البنت للعينة العشوائية نفسها ١٦١٨ قرشا أسديا فى حين وصل

(٤٩) د٠ عبد الكريم رافق – المرجع السابق ص ٦٨ ٠
(٥٠) د٠ عبد الكريم رافق – المرجع السابق ص ٤٦ ٠
(٥١) د٠ عبد الكريم رافق – المرجع السابق ص ٤٤ – ٤٥ ٠

متوسط مهر البنت القاصر ١٧٢٥ قرشا أسديا ويمكننا أن نحكم على هذا المبلغ من المهر لو عرفنا أن متوسط سعر شراء المنزل فى مواقع مختلفة من أحياء المدينة فى نفس الفترة بلغ ٣١٠٠ قرش وقيمة الدكان ٢٢٥٠ قرشا أسديا على المتوسط (٥٢) • وهذا يعنى أن مهر البنت يعادل أقل قليلا من نصف قيمة المنزل للدلالة على ارتفاع قيمة المهر •

أما الزواج من غير البالغات فيرجع لظروف اجتماعية فى غالبيته أهمها زواج الأقرباء من بعضهم البعض ، وأحيانا يفضلون الزواج من الصغيرة ايمانا منهم بسهولة تربيتها وتطبيعها وفقا لسلوكياتهم وظروف تربيتهم • كما أن للفقر أثره فى تفضيل الأب تزويج بناته وبسرعة خاصة عند نهاية الحكم العثمانى يوم كان معظم الرجال يساقون للجندية ولم يبق فى البيت الا المسنون هذه الأحوال السياسية أيضا سببت تعجيل الزواج لما أضافته أيضا من القلق فى نفوس الناس والاضطراب الأمنى دفع العديد للتعجيل فى زواج بناتهم صونا للعرض وتخفيفا من النفقات على الأسرة التى يعولها والتى هى فى الغالب أسرة مركبة •

وقد كانت هناك علاقة مودة ومصاهرة بين السكان البدو وسكان القرى على الرغم من أن البدو غالبا ما يأنفون من زواج القرويات أو المدن الا أننا نجد الشيخ عوض بن الشيخ سلامه أبى رقيق شيخ عرب القديرات قد تزوج من أمونه البكر البالغ بنت المرحوم أحمد الشاعر اللهوانى (بيت لاهيا) بمهر مقداره ٤٥٠٠ قرش أسدى فى شهر فبراير سنة ١٨٥٧م • مما يؤكد سعة عيش هذا الشيخ •

التعليم فى غزة :

تمركزت مراكز التعليم فى مدينة غزة ومنذ بداية الفترة الاسلامية فى الجوامع والمساجد والزوايا ولم تنفرد بمؤسسات أو مبان خاصة بها الا فى العصر المملوكى الذى وجدنا فيه انتشار المدارس فى معظم الأحياء وكانت غالبيتها ملحقة أو قريبة من الجوامع والمساجد مثل مدرسة السلطان قايبتاى بالقرب من جامعه فى حى الشجاعية والمدرسة الحنفية والمدرسة الجركسية (الزاوية الاحمدية) بحى الدرج ومدرسة بالقرب من مسجد السيد على المغربى وجامع ابن عثمان ومدرسة الباسطية فى حى الشجاعية ورواق محمد بن مقبل الرومى الخاص بتعليم طلبة غزة والذى استمر حتى قبل مجىء العثمانيين كما رأينامن قبل •

---

(٥٢) د• عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٥٤ •

واستمرت هذه المدارس تعمل حتى الحملة الفرنسية التى هدمت بعضا منها ودمرت الأمطار والهزات الأرضية بعضا آخر مع بداية القرن التاسع عشر ٠

ومع نهاية الفترة العثمانية أخذت هذه المدارس تتقوقع داخل الجوامع والمساجد فقط فلم يهتم العثمانيون ببناء المدارس الخاصة بالتعليم داخل المدينة باستثناء تلك التى جاء ذكرها فى الوثائق الشرعية لمحكمة غزة (١٨٥٧ ـ ١٨٦١ م) واسمها « المدرسة الحسنية » بمحلة البرجلية (الدرج حاليا) بالقرب من الجامع العمرى الكبير (مكتبة الظاهر بيبرس سابقا) ٠ حيث يتلقى الطلبة علومهم الدينية واللغوية فى الغالب الأعم ليواصلوا بعدها تعليمهم بالأزهر الشريف بالقاهرة ليعودوا بعدها لمدينتهم يعملون اما فى التدريس أو داخل المحاكم الشرعية وكثيرا ما كانوا يتسلمون مناصب خارج مدينتهم وفى مدن عربية أخرى يوم كانت أرض العرب للعرب تحت رايه الاسلام بلا حدود ٠

وقبل أن نتحدث عن أحوال التعليم فى غزة ابتداء من النصف الثانى للقرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب الكونية الأولى نذكر هنا من نبغ من أبناء هذه المدينة فى الفترة السابقة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين منهم :ـ

ـ القاضى تقى الدين التميمى الغزى الذى جال فى عديد من البلاد الرومية وألف العديد من الكتب منها كتاب « طبقات الحنفية » وقد عمل بالقضاء مدة طويلة خلص منها بتجربة قائلا :

من تمنى القضا فلا تعطينه واجعل الموت سابقا للقضا ٠

وقد توفى بمصر سنة ١٠١٠ هـ (٥٣) ٠

ـ الشيخ حسين بن عبد الكريم بن عبد الله الملقب زين الدين الغزى المعروف بابن النخالة الشافعى تعلم فى صباه بمدينة غزة ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف بمصر سنة ٩٩٨ هـ ليعود لمسقط رأسه ويعمل مفتيا للشافعية حيث توفى سنة ١٠٥١ هـ (٥٤) ودفن بغزة ٠

ـ شرف الدين المعروف بابن حبيب الغزى الحنفى وكان عالما جليلا وفقيها متمكنا له عدة تآليف منها حاشيته المشهورة على الأشباه والنظائر لابن نجيم سماها « تنوير البصائر» وله كتاب « محاسن الفضائل بجمع الرسائل » (٥٥)٠

---

(٥٣) محمد المحبى ـ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ـ الجزء الأول ـ المطبعة الوهبية المصرية ـ ١٢٨٤هـ ـ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ ٠

(٥٤) محمد المحبى ـ خلاصة الأثر ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٩٤ ٠

(٥٥) ـ محمد المحبى ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ٠

ـ الشيخ شعبان المعروف بأبي القرون الغزى وقد اشتهر بمدينة غزة حيث اتخذ لنفسه طريق الأحمدية عن الشيخ أحمد الجركسي خليفة السيد أحمد البدوى وقد ذهب لدمشق سنة ١٠٤٥ هـ ليحج من بعدها ثم يعود لغزة ، وكان لهـذا الرجل مكانة كبيرة بالمدينة لما له من أحوال عجيبة وتوفى سنة ١٠٧٦ هـ (٥٦) . ودفن غرب مدينة غزة حيث أقيم بجواره مسجد يحمل اسمه (مسـجد الشيخ شعبان ومقبرته) .

ـ صالح بن محمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب التمرتاشي الغزى وكان رجلا بحاثة وله عدة تآليف في الفقه ونظم أشعارا عديدة وقد ولد بغزة سنة ٩٨٠ هـ وتوفى سنة ١٠٥٥ هـ وقد نبغ من هذه الأسرة العديد من العلماء فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميـلادى) منهم محفوظ التمرتاشي الغزى (٥٧) .

ـ عبد القادر الغزى الشافعي المعروف بابن الغصين :

ذهب لمصر لتلقى العلم على أيدى مشايخها منهم أبى العباس المقرى والبرهان اللقانى فبرع فى عدة علوم سنة ١٠٣٣ هـ ليعود لمدينة غزة سـنة ١٠٣٧ هـ حيث توفى بها سنة ١٠٨٧هـ (٥٨) .

ـ على الغزى القاهرى الشافعي الملقب علاء الدين وهـو عالم محقق ولد بمدينة غزة سنة ٩٣٣ هـ ونشأ بها ثم ذهب لمصر ولازم عدة مشايخ ليذهب من بعدها لمدينة حلب سنة ٩٦٩ هـ وقد فسر القرآن وتوفى سنة ١٠٠١ هـ (٥٩) .

ـ عمر المشرقى الغزى ، وهو رجل علامة اشتغل بالعلم وصار من أجـلاء علماء المدينة وأصبح مفتيا بها وله أشعار عديدة توفى سنة ١٠٨٧ هـ ولهـذه العائلة (المشرقى) شهرتها بغزة ونبغ منها العلامة الشيخ محمد المشرقى وقد توفى سنة ٩٨٠ هـ (٦٠) ولهذه العائلة أيضا أوقاف عديدة فى غزة كما سنرى .

هؤلاء هم صفوة من علمـاء أجلاء غزة فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أما أولئك الذين نبغوا فى العلم فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى فمنهم على سبيل التمثيل لا الحصر :

---

(٥٦) ـ محمد المحبى ـ المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٥٧) ـ محمد المحبى ـ المرلجع السابق ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٥٨) ـ محمد المحبى ـ المرجع السابق ص ٤٣٧ .

(٥٩) ـ محمد المحبى ـ الجزء الثالث ـ المرجع السابق ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

(٦٠) ـ محمد المحبى ـ خلاصة الأثر ـ الجزء الثالث ـ المرجع السابق ص ٢١٢ ـ ٢١٤ .

ـ ابراهيم بن سفر الغزى :

تعلم في مدينة غزة ثم واصل تعليمه بمصر حيث مكث بها خمسة عشر عاما قضاها في التحصيل ثم عاد لمدينته وله أشعار عديدة (٦١) ٠

ـ حسن بن محمد بن أحمد المعروف بالنخال الشافعي الغزى العمروى (نسبة لحى بنى عامر) ارتحل لمصر طلبا للعلم ثم عاد لمدينة غزة وتوفى بها سنة ١١٦٥ هـ (٦٢) ٠

ـ حسين باشا مكى الغزى :

كان جده من كبار تجار غزة وقد نشأ حسين فى حجر الشيخ حسين خليفة الشيخ شعبان أبى القرون وأصبحت له مكانة علمية حتى سنة ١١٥٥ هـ الى أن وصل الى مرتبة حاكم غزة ثم أصبح حاكما للقدس سنة ١١٦٩ هـ ثم عاد لغزة وقد قام الجنود وبعض الطوائف ضده ثم هاجمته عربان بنى صخر والوحيدات حيث مات سنة ١١٩٧ هـ (٦٣) ٠

ـ عبد الرحمن الغزى ، ولد سنة ١١٢٤ هـ ونشأ على يد جده لأمه الشيخ عبد الغنى النابلسى صاحب كتاب الرحلة المشهورة « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » وتوفى سنة ١١٤٤ هـ (٦٤) ٠

ـ كمال الدين البكرى الغزى :

وهو شيخ علامة وشاعر ولد سنة ١١٤٣ هـ وله عدة مؤلفات منها « النفحات العواطر على الكلمات والخواطر » وكتاب « البكرية فى حل معانى الأجرومية » وكشف اللثام « الروض الرائض فى علم الفرائض » وله ديوان شعر أسماه « نبراس الأفكار » وتوفى بمدينة غزة سنة ١١٩٦ هـ (٦٥) ٠ استمرت هذه الأسرة تلعب دورا هاما فى حياة المدينة كما سنرى ٠

ـ وقد ظهرت من بين نساء غزة « زينب الغزية » وهى شاعرة ومن أفاضل النساء من أهل العلم والدين ولها أشعار عديدة وقد توفيت سنة ١٩٨٠هـ(★)

ـ الشيخ محمد الريس ابن عبد الله بن سليمان الشهير بالريس الحنفي

---

(٦١) ـ محمد خليل المرادى ـ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ـ الجزء الأول ـ بولاق مصر ١٣٠١ هـ ص ٣٠ ـ ٣١ ٠

(٦٢) ـ محمد خليل المرادى ـ المرجع السابق ص ٣٤ ٠

(٦٣) المرادى ـ الجزء الثانى ـ المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦٢ ٠

(٦٤) المرادى ـ المرجع السابق ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ٠

(٦٥) المرادى ـ الجزء الرابع ـ المرجع السابق ص ١٤ ـ ١٥ ٠

(★) الشيخ نجم الدين المغربى ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ـ الجزء الثالث ـ بيروت ١٩٧٩ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ٠

الغزى ، وهو عالم بالطب والحكمة والفلك والهيئة ، ولد بغزة هاشم ونشأ بها وأخذ الطب عن والده وقد ارتحل لمصر ودمشق وله تآليف فى الطب وتوفى سنة ١١٣٠ هـ ودفن بالقدس (٦٦) ٠

ــ يوسف الغزى بن أحمد بن عثمان الشهير بالمقرى ٠

ولد بغزة سنة ١١١٩ هـ وتعلم الفقه والنحو ورحل الى بغداد سنة ١١٤٣هـ ثم أقام بعدها بالمدينةالمنورة ليعود بعدها لمدينة غزة سنة١١٤٩هـ وبعدها أخذ يتنقل ما بين مكة واليمن عدة سنوات حتى عاد سنة ١١٦٩ هـ وفى عهد واليها حسين باشا مكى فأنزله على الرحب والسعة الى أن توفى سنة ١١٨٨ هـ (٦٧) ٠

ومن رجال غزة النابهين والذين تولوا المناصب التعليمية والدينية الهامة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للنصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادى تقريبا ٠

ــ الشيخ محمد بن الشيخ محمد بن شاهين سكيك الغزى أسهم هذا الرجل بالنهضة العلمية فى مدينة غزة فقد عثرنا على العديد من كتب قام بنسخها بخطه الجميل فقد نسخ كتاب « قلايد الفحام فى مولده عليه الصلاة والسلام » سنة ١١٩٥ هـ كما نسخ كتاب سنة ١٢٠٠ هـ « الفوايد المحصلة فيما يتعلق بالبسملة » للعلامة الجوهرى (٦٨) ٠

ــ الشيخ حسن بن الشيخ محمد بن شاهين بن سليمان سكيك ٠ كان عالما فاضلا وحسن الخط ونسخ أيضا الكثير من الكتب النفيسة وكان يجيد الشعر الذى يتميز بخفة روحه وقد توفى سنة ١٢٣٤ هـ (٦٩) ٠

ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى أخذت الدولة العثمانية تعانى الكثير من الأزمات السياسية والاقتصادية الطاحنة فلم تعد قادرة على الوفاء بخدمات المدن التعليمية أو حتى الاقتصادية بدرجة لم تعد فيها لتقوى على بناء ما انهدم من المدارس أو الجوامع والمساجد على أيدى جنود الحملة الفرنسية أو ما هدمته الأمطار وعوامل الزمن فبقيت أطلالها على حالها من الخراب والدمار (مدرسة

---

(٦٦) المرادى ــ سلك الدرر ــ الجزء الرابع ــ المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٦٧) المرادى ــ المرجع السابق ص ٢٣٨ ٠

(٦٨) مخطوطات تم الاطلاع عليها من أماكن متعددة فى غزة ٠

(٦٩) ابراهيم سكيك ــ نشرة خاصة تمثل شجرة عائلة آل سكيك سنة ١٩٨٦ ٠

الباسطية وجامع ومدرسة قايتباى وجامع الجاولى والقلعة وجامعها ٠٠) تمثل خرائب وسط وعلى أطراف المدينة حتى أصبحت علامات « مميزة فكثر استخدام كلمة « الخرابة » والخربة كعناوين يسترشد بها داخل المدينة ٠

وعليه استمرت بقية المساجد والجوامع هى الأماكن التى يتلقى فيهـــا طلبة المدينة علومهم الدينية والدنيوية حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا حتى قام السلطان عبد المجيد ببناء جامع على ضريح السيد هاشم جد الرسول عليه السلام فى حى الدرج مستخدما حجارة انقاض جامع الجاولى والبيمارستان والقلعة المتهدمة سنة ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) كما يتضح من بقايا حجارة نقش عليها كتابة ترجع لسنة ٧١١ هـ أى لفترة حكم علم الدين سنجر الجاولى ٠ وكذلك بعض الحجارة عليها نقوش ترجع لفترة أخرى غير واضحة وقد بنيت ضمن سلالم المئذنة وقد ألحق بالجامع أربعة غرف أعدت للتدريس كما يبـدو ذلك من لوحتين رخاميتين نقش على احداها أبيات من الشعر والواقعة على باب الجامع الداخلى وأخرى تقـع فوق شـــباك غرفة ضريح السيد هاشم (صـــور ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧) ٠

وفى عام ١٨٤٣ قام الشيخ محمد كمال الدين البكرى بتوسيع الجـامع العمرى الكبير من الجهة الشمالية فبنى الباب الشمالى بحجارة جامع التركمانى والمنقول على ما يبدو من حى الشجاعية وكذلك بحجارة أحد المساجد الذى يرجع لسنة ٨١٥ هـ مضيفا أربع غرف كمدرسة لتعليم أبناء غزة مســـتغلا انقاض جامع الجاولى وجامع قايتباى كما ذكرنا سابقا عند حديثنا عن هذه الحجـارة فى تاريخها ٠

أخذ أبناء المدينة يتجهون « للكتـــاتيب » الملحقة بالجـوامع والمســـاجد والمنتشرة فى جميع أحياء المدينة وكانت فى هذه الفترة على النحو التالى :

كتاب العجمى « بجامع العجمى » وكتاب الشيخ عطية وكتاب جامع أبى ركاب وجميعها فى حى الزيتون ٠

أما كتاتيب حى الشجاعية فكانت كتاب جامع المحكمة «وكتاب الست رقية» وكتـاب جامع الغزالى ومسجد السيد على المغربى ومســجد الظفردمرى وكتاب الطيار وجامع ابن عثمان ٠ وهى كما نرى ملحقة جميعها بالجوامع والمساجد ٠ وفى حى الدرج كانت الكتاتيب الملحقة بالمساجد التالية والمسماة بأسمائها مسجد الشيخ ظريف ومسجد الشيخ خالد والشيخ فرج وكتاب مسجد الهليس ٠

أما كتاتيب حى الدرج فكانت ملحقة بالمساجد كمسجد السدرة ومسجد ابن سلطان ٠

وبداخل هذه الكتاتيب كان الأطفال يتلقون تعليمهم بمبادىء القراءة والكتابة

والحساب وتلاوة وحفظ القرآن الكريم فاذا استطاع فريق منهم ان يحفظ القرآن عن ظهر قلب تخرج من الكتاب بحفل كبير ليواصل بعدها حياته العملية بالاتجاه نحو حرفة وهناك آخرون يواصلون تعليمهم في المدرسة الوحيدة التى اقامتها الدولة العثمانية ١٨٨٧م وتتألف من ثلاثة فصول ابتدائى (كانت تقع للشرق مباشره من مدرسه الزهراء الحاليه) (صورة ١٤٨) ٠ وكان هناك مدرسة أخرى ملحقة بزاوية أبي العزم تسمى « مكتب الفنون » أو « كتاب الفنون » يدرس فيها تلاوة القرآن الكريم وتجويده وكان يقوم بتدريسهما الشيخ يوسف المالكي المغربي ٠ وهناك مواد التجويد والتوحيد والحساب والاملاء والعبادات ويدرسها جميعا الفقيه الشيخ حامد السقا الحنفى الغزى وكانت الدراسة فى هذا « المكتب » تستمر لعامين يحصل الطالب على شهادة (شهادتنامه) تؤهله بعدها لدخول « المكتب الرشدى » الذى يدرس فيه مواد التجويد والتوحيد والحساب والنحو والصرف والتاريخ والجغرافيا والصرف العثمانى والخط والاملاء ومبادىء اللغة التركية واللغة الفارسية ومن مدرسى هذا المكتب الشيخ عبد اللطيف الخزندار الغزى والمعلم القدير محمد شوكت أفندى والدراسة لمدة سنتين ينتقل بعدها الطالب المتفوق الى « المدرسة العلمية » الملحقة بالجامع العمرى الكبير بغزة حيث تقوم بتدريس المواد السابقة بتوسع مضافا لها حفظ المتون الصغيرة والكبيرة وكان من مدرسى هذه المدرسة الشيخ سليم سليم شعشاعة والشيخ يوسف شراب والشيخ عبد الله ألغصين والشيخ عبد اللطيف الخزندار والشيخ سعيد مراد والشيخ أحمد بسيسو ٠

وكانت الدراسة فى « المدرسة العلمية » ثلاث سنوات بعدها يكون الطالب قد انهى دراسته فى مدينة غزة ليتوجه بعدها ـ ووفقا لظروف أهله الاقتصادية ـ الى الأزهر الشريف بمصر لتكملة دراسته ٠

هذه النخبة من المدرسين السابق ذكرهم هم من أبناء غزة وعلى كاهلهم قامت النهضة التعليمية داخل المدينة فى أحلك الأوقات سوادا تحاصرهم الظروف السياسية والادارية المتردية كما أوضحنا وسوء الأحوال الاقتصادية وعلى الرغم من ذلك تخطوا هذه الصعاب وتعددها للتصدى لها نقدا وتجريحا بجرأة واقدام فنظموا الشعر المعبر عن ظروفهم السياسية والاجتماعية وكذا الاقتصادية كما بينا ومعظمهم تتلمذوا على أيدى علماء الأزهر فى مصر ٠ وفى حجر هؤلاء اتجه الكثير من أبناء غزة لتكملة علومهم يدفعهم ايمانهم ويحدوهم الأمل نحو مستقبل أفضل فى وقت عصيب من نهاية القرن التاسع عشر ينبىء بتحولات مصيرية خطيرة بوجه عام وبلدهم بوجه خاص ٠

هذه الآمال دفعت العديد من الأسر الغزية لارسال أبنائها للأزهر الشريف بمصر فكان على الطالب اما أن يسافر برا عبر صحراء سيناء حتى القاهرة مع

احدى القوافل كما فعل الطالب الشيخ سعيد أبو شعبان سنة ١٣١٥ هـ (١٧٩٨ م) وهناك من يتخذ الطريق البحرى بالاتجاه الى مدينة يافا ومن مينائها يبحر الى مصر متجها لميناء بور سعيد ثم للقاهرة كما فعل الطالب الشيخ عثمان الطباع والشيخ عمر صوان سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) هذا على سبيل التمثيل لا الحصر ٠

وفى هذه الأيام من تسعينات القرن التاسع عشر كان هناك عدد لا يستهان به من طلبة مدينة غزة يتلقون تعليمهم فى الأزهر الشريف منهم الشيخ عبد الله خلف والشيخ خليل الحليمى وسعيد وفا العلمى ومحمد مكى وعبد الرؤوف غربية وخليل غزال وسليم الغيض (٧٠) وكذلك المشايخ يوسف القولق وأحمد البسك ومحمد السقا وشاكر العلمى وسعيد عطا الله وأخيه بدر الدين أحمد اليازجى وعبد الله القيشاوى كما وردت أسماؤهم من خلال رسالة بعث بها الطالب سعيد أبو شعبان من الأزهر الى أهله فى غزة ٠ (أنظر صورة لها رقم ١٤) ٠

وبعد انتهاء دراستهم الأزهرية يعودون لمدينتهم ليكون فى استقبالهم شيخ العلماء فى المدينة « والذى كان فى سنة ١٩٠٤ الشيخ يوسف شراب » مع نخبة من علماء المدينة ووجهائها ٠ ثم يطلب من كل خريج الاستعداد لالقاء درس أمام هؤلاء جميعا ومعهم أفراد الشعب فى موضوع يختاروه له مثل «مبحث القياس فى علم الأصول » مثلا فيستعد الخريج له ثم يلتقى بهؤلاء جميعا بعد صلاة العصر فى الجامع العمرى الكبير ويقوم بالقاء الدرس ليظهر فيه مدى قدرته على التحصيل وكفاءته فى الأداء حتى اذا ما أعجب به العلماء واجتاز الاختبار بنجاح كتبوا له شهادة تجيز له التدريس فى جوامع ومساجد المدينة مصدقة بمنصبه من مجلس الادارة وواصل التعليم مسيرته بأن أصبح جامع السيد هاشم فى حى الدرج مدرسة ينتقل منها الطلاب للازهر ٠ وفى عام ١٩١١ م أقيمت مدرسة جديدة أطلق عليها اسم « المدرسة الرشيدية » نسبة « لمحمد رشاد » (مدرسة هاشم الاعدادية الآن) وتقع قبالة « مسجد أبى العزم » وكتاب « الفنون » يتألف من أربعة فصول يدرس فيها باللغة التركية مواد التاريخ والجغرافيا واللغة العربية ومبادىء العلوم الطبيعية ثم بنى فوقها طابقا علويا ليصبح بها ستة فصول وذلك فى عام ١٩١٤ م تتم فيها الدراسة على مراحل ثلاث ابتدائية دنيا وأخرى وسطى وثالثة عليا مدتها جميعا ست سنوات ٠ أصبح الطلبة وفى ظل سياسة التتريك يتعلمون اللغة التركية (★)

---

(٧٠) من أوراق الشيخ عثمان الطباع ــ غير مطبوعة ٠

(★) حدثنى بعض المسنين ممن تلقوا تعليمهم فى هذه المدرسة انهم كانوا ينشدون فى الصباح باللغة التركية قائلين (نحن أباؤنا الطورانيون) ٠

وثيقة (١٤)

صورة لرسالة الطالب سعيد ابو شعبان ارسلها من الأزهر لأهله فى غزة سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٦م)

ولعل ما عثر عليه بين أوراق أحد موظفى المالية (٧١) فى العهد التركى والخاصة برواتب الموظفين فى الدوائر والمديريات المتنوعة لسنة ١٩٠٤ ، مايلقى الضوء على نصيب كل دائرة من الاهتمام على ضوء نسبة رواتبها ٠

الدائرة	الرواتب بالقرش
رواتب القائمقام وموظفى الادارة المركزية	٢٣٣٦ قرشا
رواتب مديرى النواحى	١٤٤٠ »
» المالية	١٩٢٣ »
» محصلى الأموال	٥٦٠٠ »
» العدلية	١٧٣٤ »
» الشرعية	٠٩١٦ »
» النظامية	٢٢٢٧٢ »
» الضبطية	٠٨١١ »
» الجندرمة	١١٠٣٥ »
» الذاتية	٠٧٧٦ »
» المعارف	٠٨٧٠ »
» الموقوفين والمحبوسين	٠٤٠٠ »
مخصصات العتبة	٢٨٠٠٠ »
مخصصات المتقاعدين الملكيين	٠٨٣١ »
مخصصات المتقاعدين العسكريين	٧١١٠ »
معاشات الأرامل والأيتام	٠٩٥١ »
المجموع يعادل ٨٦٩ ليرة عثمانية	

يستدل من هذه الرواتب أن رواتب التعليم لا تساهم الا بنسبة لا تزيد عن ١٪ من جميع المخصصات الخاصة برواتب المؤسسات محتلة بالتالى أدنى درجات الاهتمام ولا تسبق الا رواتب الموقوفين والمحبوسين ورواتب الذاتية والضبطية ويعلوهم جميعا رواتب الجندرمة (الجيش) ومحصلى الأموال ليتضح هيمنة الطابع العسكرى على الاقتصاد ٠

وعلى الرغم من ذلك استطاعت هذه المدينة أن تنجب شموعا تضىء وسط الظلام المدلهم فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أسهموا فى حركة التعليم وتسلموا مناصب عالية ليس فقط داخل مدينتهم بل وانتشروا فى مدن عديدة من مدن وقرى مصر والجزيرة العربية والشام فكانوا ترجمانا حقيقيا لما يدور حولهم يعكسونه بصدق وأمانة وبشجاعة نادرة فسجن وأبعد بعضهم وصمد الباقون يجمعون الطلاب من حولهم تحت أقبية المساجد مكان من هؤلاء :

(٧١) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ القدس ـ ١٩٤٣ ص ٢٠١ ٠

ـ الشيخ صالح سكيك وهو شاعر غزى تخرج من جامعة الأزهر وتميز شعره بالزهد والحكمة والرثاء نقتطف من قصائده في عام ١٨٦٥م قائلا :

تمسك بكتب الطبع لا تبغ بيعهـــا ... فان رقيق اللفظ فيهـــا محـــرر
ومن يطلب التغيير منـك فقـــل له ... لعمـرك ان الطبـــع لا يتغـير

وله أشعار تعكس الظروف الاجتماعية سبق أن تحدثنا عنها .

وله مرثية قالها عند وفاة العلامة الشيخ عبد الوهاب انفالوجى الشافعى سنة ١٨٦٢ م وتتألف من واحد وسبعين بيتا قال فى مطلعها :

الى كم ذا التنـــائى والتمـــادى ... وحادى المـــوت بالأرواح حـــادى
وراحات المنـــون اليـــه تطـــوى ... عـلى الســاعات أرواح العبـــاد
وترمى بالســـهام عـلى ســـهام ... علت قوســـا علا عن قوس عاد

كما رثى العلامة الفقيه الشيخ يوسف كساب الحنفى الذى تعلم بالأزهر الشريف وسكن المدينة المنورة حيث توفى هناك سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٥) رثاه فى قصيدة طويلة كان مطلعها :

نشرت يـد الأقـدار طى العنبر ... من أرض طيبـة والمقـام الأنـــور
وبنت بها قبرا زها فى روضـــه ... فكأنه فى روض عـدن الأزهـر

ومن أبناء غزة الشيخ أحمد محى الدين المفتى والذى أبعد عن مدينته لمصر وقد كان مفتيا بها سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٨ م) ثم عاد أليها بواســـطة الخديوى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٧ كما ذكرنا .

وهناك أيضا القاضى الشيخ أحمد عاشور الغزى وقد تم تعيينـــه قاضيا بزفتى، بمصر ثم نقل الى « بيت غمرة » وبعدها أصبح نائبا فى الزقازيق بمصر وتوفى سنة ١٩١٠م .

ومن مشايخ غزة وشعرائها الشيخ محمد ساق الله وقد تعرضنا لأشـــعاره العديدة الناقدة لمساوىء الجهاز الادارى فى هذه الحقبة .

ومن أهم مشايخ غزة وشعرائها فى هذه الحقبة (١٨٥٠ ــ ١٩١٤) .

الشيخ صالح بن عبد الحى الحسنينى وقام بمجهودات كبيرة فى نسخ الكتب والمخطوطات العلمية والدينية والتى يرجع بعضها لسنة ١٢٥٥هـ .

الشيخ صالح عبد الشافى والشيخ عبد الرحمن أغا مكى وعبـــد المحسن التنوخى وحسن محمد شاهين سكيك وعيسى محمد شاهين الخياط وعبد الله صلاح العلمى وراشد المظلوم وحسن هاشم الشبوا والشـــيخ يوسف شراب والشـــيخ

ابراهيم الصحانى والشيخ عبد الله الغصين وأحمد مكى وعبد الحى الحسينى وجميع هؤلاء من أبناء غزة ولهم أشعار عديدة ٠

وقد نبغ من بينهم الشيخ عثمان الطباع الغزى الذى ولد بالمدينـــة فى الثمانينات الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٨٢ م) وتعلم بكتـــاتيب غزة ثم ذهب لمصر ليواصل تعليمه سنة ١٣١٨ هـ فتعلم على أيدى علمائها الاجلاء وتخرج سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) تولى بعدها مناصب عدة ٠ وقام بتأليف عدة كتب ورسائل زادت على الأربعين منها رسائل فى النحو والبيان وشرح الديبـــاج المنشور على زورق البحور فى علم العروض وقد طبع فى مصر فى أوائل القـرن العشرين ٠ كما طبع له كتاب آخر فى يافا سـنة ١٣٤٤ هـ بعنـوان « هداية الرحمن فى هدم البدع وترك شرب التمباك والدخان » كما ألف كتاب « اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة » ولم يطبع وله أشعار عديدة انتقد فيها بمرارة كما ذكرنا الأوضاع الادارية فى نهاية العصر العثمانى ٠

وأسهم العديد من أبناء غزة فى نسخ العديد من الكتب العلمية والدينية فى وقت لم تتيسر فيه الطباعة من أمثال خير الدين سليمان بن محمد بن الحاج مصطفى عرفات القدوة الغزى فنسـخ كتـاب « نظم الوهبانية » للشيخ وهبان سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧م) ٠ (أنظر صور افتتاحية المخطوطات المنسوخة ١٥) ٠

الوقف :

يدفعنا الحديث عن « الوقف » استمرارية اسهاماته فى الحياة الاجتماعية بفعالية مجزية غمرت الى حد كبير معظم المؤسسات وفى مقدمتهـا الجـــوامع والمساجد وسدنتها من رجال الدين كمرافق دينية وتعليمية ٠

فقد اشارت كل « الوقفيات » لتخصيص جزء من الاموال للجوامع والمساجد للحفاظ عليها ولاداء واجبها باستمرار ٠

فقد خصصت كل الأموال الخاصـــة بالأوقاف المدرسية لتعليم أبناء غزة وبعضها خصص للعجزة ٠ كمـا غذى « الوقف » المكتبـــات بكثير مـن الكتب والمخطوطات ٠

وارتبط العديد من الناس وفى مقدمتهم رجال الدين والتعليم والفـلاحين فى معيشتهم ورواتبهم بأموال الوقف وعلى اختلاف أنواع هذا الوقف خيريا كان أم أهليا « ذريا »

وتعدى الأمر لأكثر من ذلك فى استثمار أموال الوقف وتوظيفها فى شراء العقارات وبناء المؤسسات باسم « الوقف » والأوقاف ٠ فقد جاء فى « تركة أبناء عزة دين بذمتهم لجامع السيد هاشم سنة ١٨٥٧ وقدرة (٨٧ر٥ قرش أسدى)

" صورة للكتابة الذى نسخه صالح عبد الحى الحسينى الخزرجى سنة ١٢٥٥هـ "

" صور لثلاث نسخ كتبها الشيخ محمد بن محمد شاهين سكيك الغزى فى سنوات ١١٩٠هـ وسنة ١٢٠٠هـ "

وثيقة (١٥)

صور لافتتاحيات الكتب المنسوخة للمخطوطات بأيدى مشايخ أبناء غزة .

هذا كتاب نظم الوهبانية للشيخ الإمام العالم العلامة
ابن وهبان رحمه الله تعالى ونفعنا به
والمسلمين أجمعين
آمين

افضل السلام على خير الأنام سيدنا ومولانا وشفيعنا يوم الدين
وعلى آله وصحبه أجمعين فقد وقع التمام بقلم أفقر الورى
كتبه العلماء وطلبته الشهير الحنفي مذهبا القادري الخلوتي الرفاعي طريقة
الغزي نسبا ضبط خير الدين الرملي سليمان ابن المرحوم السيد محمد
عرفات ابن المرحوم السيد الحاج مصطفى عرفات القدوة الغزي
غفر الله له ولوالديه ولوالديهم والمسلمين آمين في يوم الخميس المبارك
ثاني يوم أو ثلاث مضت من شهر شعبان سنة ألف ومائتين وثلاث
وستين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

وثيقة (١٦)

« صورة لكتاب نسخه خير الدين الرملي بن محمد عرفات بن مصطفى عرفات القدوة الغزي سنة ١٢٦٣هـ »

وعلى آخر بلغ (٥ر٢٧٩ قرش) لجامع الحضر (كاتب الولاية) فى سنة ١٨٥٨ م (٧٢) وربما تم عقد هذا « الدين » من قبل نظار الأوقاف .

ونظرا لكثرة من تبوأوا المناصب الرفيعة من أبناء غزة من حكام وأغوات وقضاة ونقباء للاشراف مدة طويلة واحتكروها لأسرهم من بعدهم خاصة فى الفترة العثمانية فقد جمعوا خلالها أموالا طائلة وامتلكوا أراضى شاسعة وعقارات عديدة أخذ جزء منها بالتسلط وارهاب الناس وقهرهم بسبب وبدون أسباب فبلغت حدا غير معقول كما نرى ذلك فى العقارات والاراضى المملوكة والمسجلة فى « وقفية موسى آل رضوان » السابقة الذكر . وتعدت هذه الملكيات حدود غزة واقليمها لتمتد لمدن فلسطينية أخرى وشامية . خاصة تلك الوقفيات التى تعود «لآل رضوان » تلك الأسرة التى حكمت المدينة لأكثر قليلا من قرن ونصف منذ نهاية الفترة المملوكية وحتى النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى تقريبا .

واستمرت أوقاف هذه العائلة فى عطائها حيث تم تعيين متولين شرعيين لها من آل رضوان وآل وفا العلمى وأسرة رباح الحسينى نظارا عليها .

وفى نهاية هذا القرن التاسع عشر ومع انتشار الفوضى الادارية والرشوة والانكماش الاقتصادى والتدخلات الأجنبية فى شئون الدولة العثمانية الداخلية وعدم الأمن فقد تفشى نوع من التسيب ونهب الأموال الموقوفة لسوء استخدامها فدفع البعض لايجار المحلات والدكاكين بغبن فاحش مما اضطر المحاكم الشرعية لاسناد الاشراف عليها لبعض رجال الدين الموثوق بهم كما دلت على ذلك بعض أوراق وشهادات للقاضى الشيخ عثمان الطباع (٧٣) ، الذى كان أحد المتولين الشرعيين على « نصف سهم » من وقف آل رضوان نظرا لثبوت سوء استغلال بعض الأفراد المتولين عليه ولكى نوضح قيمة « نصف السهم » هذا نبين ما يشمله من عقارات فى غزة فقط وهى :

- نصف كرم القسيمة العامرة وتمام القسيمة الخاربة .
- أرض « بركة الباشا » بمحلة الزيتون .
- كرم أم الزرور .
- ثلث ساقية البحر بحى الدرج .
- ربع ساقية شنقار .

---

(٧٢) د. عبد الكريم رافق — ص ٦٧ .

(٧٣) سجلات وأوراق خاصة بالشيخ عثمان الطباع غير مطبوعة .

ـ دكان ببابين بغزة ٠

هذا بالاضافة للعديد من المنازل والدكاكين فى مدينتى الرملة ويافا وعددها جميعا ٣٤ عقارا جميعها تابعة لنصف السهم هذا ٠

ويتقاضى المتولى على هذا الوقف راتبا شهريا من مال الوقف نفسه يصل لأربعمائة قرش شهريا كما كان راتب مدرس الجامع وخطيبه ثلاثمائة قرش شهريا من « مال الوقف » فى نهاية الفترة العثمانية (٧٤) ٠

ومن أوقاف مدينة غزة وقف حسين باشا مكى الغزى الذى كان جده أحد تجار غزة البارزين وقد أخذ والده محمد بلاد غزة اقطاعا له بطريق « المالكانة » سنة ١١٥٥ هـ أما ولده حسين فقد كان حاكما على غزة وقد تعرضنا لسيرته من قبل فأوقف أوقافا جليلة بعد مماته وعين أشخاصا من أسرة مكى نظارا عليها ونتيجة لتلاعب بعض المتولين والاعتداء على أموال الوقف أقامت السيدة مهيبة بنت سلمان آل رضوان طعنا فيهم وأقامت حجة وكالة على وقف حسين باشا مكى بغزة ومدينة الرملة بتفويض وتولية الشيخ عثمان الطباع على تأجيره وتعميره ومحاسبة المتولى السابق وذلك ابان الحرب العالمية الأولى (٧٥) كذلك فعل العديد من نساء أسرة آل رضوان (رقيه وتحفه وكذلك على وكلبهار آل رضوان)(★) ٠ وهناك أوقاف أسرة « المشرقى » والجبرى والخزيراتى كما قام العديد من أبناء المدينة رجالا ونساء بوقف العديد من عقاراتهم وممتلكاتهم من أراض رزاعية وسواق لصالح أعمال البر فقد أوقف الحاج أحمد عدس ساقيته سنة ١٢٨٢ هـ بحى الشجاعية (ساقية العدسية) (٧٦) كذلك أوقف الكثير من رجال الدين والمعلمين كتبهم ومخطوطات نفيسة عديدة لمكتبة الجامع العمرى الكبير للاستفادة منها ٠

لذا كان الوقف رافدا فياضا يتدفق فى شرايين المدينة الاجتماعية والاقتصادية يمولهم بالطاقة والقدرة على مجابهة الفاقة التى بدأت تطبق عليهم مع نهاية الدولة العثمانية ٠

وبعد الحرب العالمية الأولى أصبحت الأموال الوقفية تتولاها لجنة محلية تدار من قبل المجلس الاسلامى الأعلى ٠

---

(٧٤) كان هذا راتب الشيخ عثمان الطباع كمدرس فى جامع المحكمة ومسجد الشيخ فرج ومتولى أوقاف مسجدى الشيخ سليم امسلم ومسجد سعد بقرية بيت لاهيا ٠

(٧٥) الشيخ عثمان الطباع ـ ضمن أوراقه ومذكرات خاصة غير مطبوعة ٠

(★) تولى أوقافهم كل من احسان البكرى وزكريا العلمى ـ شعبان الريس ـ توفيق العلمى ـ خليل عاشور ٠

(٧٦) الشيخ عثمان الطباع ـ الشجرة الزكية ـ مخطوط ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل الوقف من اعظم القربات وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد اشرف
المخلوقات وعلى آله واصحابه اولي الكرامات اما بعد فلما كان الوقف من اعظم
المبرات ومن الاعمال الجاري ثوابها في الحياة وبعد الممات رغب عمدة الاكابر والاعيان
صاحب الخير والاحسان جناب حضرة الشيخ سعيد المصطفى متسلم سنجق غزه
ونواحيها في وقف هذا الكتاب فاوقفه على كل من ينتفع به من اهل العلم
وجعل مقره في خزانة مولانا السيد الشيخ حسين افندي سليم الدجاني مفتي
يافا المحروسة وجعل النظر له مدة حياته ينتفع به ويعيره لمن شاء
ثم من بعده يكون النظر فيه لمن له ولاية النظر على خزانة جناب المومى اليه اعلاه
وقفاً صحيحاً شرعياً اوقفه بطريقه الشرعي فمن بدله بعدما سمعه فانما
اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم وصلى الله على نبينا وعلى آله وصحبه وسلم
تحريراً في اليوم الخامس في شهر جمادى الثاني
الذي من شهور سنة ١٢٥٤ من الهجرة الشريفة

وثيقة (١٧)

صـــورة تعبر عن وقف كتاب رحلة النابلسي أيام الشيخ سعيد المصطفى متسلم سنجق غزة في سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٧م)

الفصل التاسع عشر

ديمغرافية غزة

- النمـــو الســـكانى
- أحياء المدينة « خطوطها ومرافقها »
- نمط الســـكن



ان دراسة تطور النمو السكانى لمدينة غزة عبر تاريخها العثمانى ليس بالأمر الهين لأنه مفعم بالتقلبات السياسية والاضطرابات الادارية والاقتصادية ، عملت جميعها الى شد ودفع المؤشر السكانى فى المدينة وما حولها فجعلته يتميز بخطوط متذبذبة صعودا وهبوطا حادا من الصعب وضعه ضمن قاعدة سكانية معينة وذلك لصعوبة ضبط الاتجاهات السياسية الفوارة فى المنطقة (انظر الرسم البيانى) .

فاتخذت المدينة لنفسها وظيفة المضخة الماصة الكابسة تمتص ما حولها من سكان القرى عند شيوع التدهور الاقتصادى والانحطاط الأمنى فالمناطق الهامشية القروية هذه تمثل الأطراف شديدة الحساسية التى يندفع أهلها فورا نحو المدن فترتفع كثافة المدن بسكانها ، لا تلبث فى فترات الاستقرار والأمن أن تضخ المدينة بسكانها لما حولها فيعمرون قراهم .

هذه الحركة من القرية للمدينة وبالعكس وليدة الظروف السياسية والأمنية الداخلية للدولة العثمانية يحددها فى الغالب الأعم سياستها الاقتصادية نحو الفلاحين وما ينجم عنه من هجوم القبائل البدوية المحيطة بالمدينة عليها انتقاما فى صورة الحاكم المقيم وسطها .

أما فى حالة تعرض البلاد لغزو خارجى فتكون ظاهرة الطرد السكانى من داخل المدن الى خارجها أشد خاصة تلك الواقعة على طرق القوات العسكرية الرئيسية مثل غزة .. ويتضح ذلك عند دراستنا لتطور عدد سكان غزة ففى القرن السادس عشر الميلادى وهو قرن الاستقرار السياسى والعسكرى والاقتصادى للدولة العثمانية والذى يمثل « العصر الذهبى » فى تاريخ المنطقة ، نلاحظ ارتفاع عدد سكان غزة بشكل مضطرد على مر عقود هذا القرن منسحبا ذلك على بقية المدن الفلسطينية الهامة .

والجدول التالى (٧٧) يوضح هذا التطور ويرتب عدد سكان غزة بالنسبة لبقية المدن على امتداد القرن السادس عشر تقريبا :

المدينة	١٥٢٥م	١٥٣٩م	١٥٤٩	١٥٥٧	١٥٩٦ ميلادية
صفد	٥٩٠٩ نسمة	–	١٧٢١٣	١٧١١٢	١٦٥١٤
غزة	٥٨٨٦ »	٨٧٨٩	١٣٩٦٤	١٣١٤٣	١١٣٩٠
القدس	–	٥٥١٢	٩١٣٥	–	٨٤٣١
نابلس	–	٦٦٢٨	٨٨٧٠	–	٧٩٩٢

(٧٧) P, Medeblelie, Gaza et son Histore Chrétienne, Jerusalem, 1982, p. 47.

هكذا ازداد عدد سكان المدينة الى أكثر من الضعف خلال أقل قليلا من ثلاثة أرباع القرن فى عصر الاندفاع والاصلاح الزراعى وانتعاش التجارة ازداد معه عدد السكان فى كلتا بوابتى فلسطين شمالا فى صفد وجنوبا فى غزة وصل لذروته فى منتصف القرن عندما اقترب عدد سكان غزة من ١٤ ألف نسمة فى سنة ١٥٤٩ م ليبدأ فى الهبوط الى ١١ ألف نسمة عند نهاية القرن منطبقا ذلك على بقية المدن الفلسطينية الرئيسية وليبدأ الانخفاض فى التعداد السكانى لعدم تكرار مثل هذا القرن فى حياة الدولة العثمانية وحتى انتهائها من المنطقة فى بداية القرن العشرين ٠

بدأ الهبوط فى عدد سكان المدينة فوصل فى عام ١٦٤٩ م ما بين ٦ ــ ٨ آلاف نسمة وفقا لما ذكره الرحالة أوليا جلبى والذى قدر عدد منازلها بنحو ١٣٠٠ منزل هذا على افتراض متوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة فى كل منزل ما بين ٥ ــ ٦ أفراد ، وحتى لو افترضنا أقصى ما يمكن افتراضه وهو « متوسط عشرة أفراد للأسرة » فهذا يعنى أن عدد السكان سيصل الى ١٣ ألف نسمة وهذا يشير الى تجمد عدد السكان ان لم يكن انخفاضه على مدى قرن من الزمن ومنذ ان كان تعدادها مثل هذا الرقم تقريبا فى سنة ١٥٤٩ م ٠

فالقرن السابع عشر هو قرن التحول بالنسبة للدولة العثمانية حيث وصلت فيه لبداية الكهولة وتصل للشيخوخة فى القرن الثامن عشر فيهوى عدد سكان غزة الى قعر الحضيض حين يدعى فولنى لدى زيارته للمدينة سنة ١٧٨٤ م بأن عدد سكانها ألفا نسمة فقط ، ودعمت هذا الرقم الحملة الفرنسية دون زيادة أو نقصان على الرغم من مرور خمسة عشر عاما من زيارة فولنى ٠

ولا ندرى كيف قدر فولنى هذا الرقم المخيف ، هل قدره وفقـــا لعـــدد « الحلات » كما قدر عدد سكان مصر والتى أعطاها نفس التدهور السكانى فى هذه الحقبة ؟ (٧٨) ٠ أم هى وليـــدة الانحطاط الاقتصـــادى وتدهور الأمن وازدياد هجمات القبائل البدوية أنتقاما من السلطة ٠ أم هى هجرة سكانية عادة ما تسبق أو تواكب عمليات الغزو الخارجى فيهاجر أهل المدن الواقعة على الطريق العسكرى الرئيسى الذى تسلكه الحملات العسكرية كما هو الحال فى موقع غزة حيث يبتعد سكانها متجهين نحو الأطراف ريثما ينجلى الموقف العسكرى لهم كما

---

(٧٨) جمال حمدان ــ شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ــ الجزء الرابع ــ القـــاهرة ١٩٨٤ ص ٢٠ ــ ٢٣ ٠

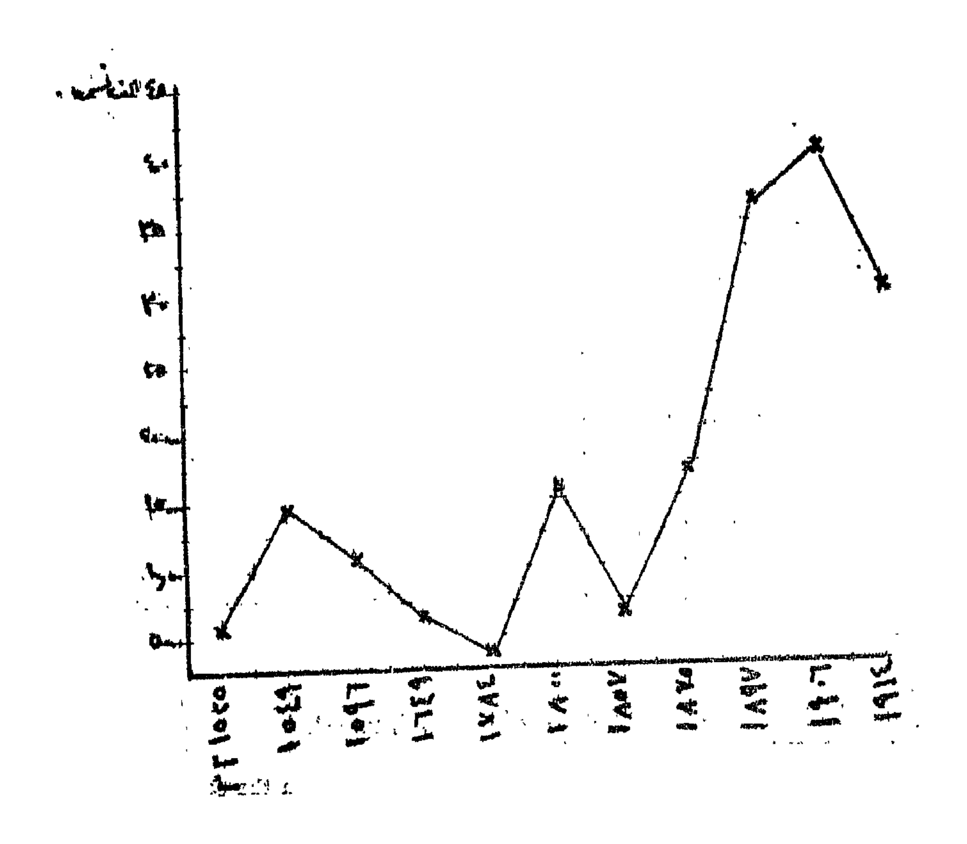
لاحظنا عند مناشدة نابليون بونابرت سكان غزة من خلال منشورة ــ بالعودة لمدينتهم آمنين ٠٠ وهذه الهجرة المؤقتة أصبحت عادة لسكان منطقة مرورية ودرب عسكرى لامبراطوريات سبقت وحتى اليوم ٠

ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادى أخذ عدد السكان فى الازدياد بصورة طفرية وصل معها فى منتصف القرن تقريبا وفى سنه ١٨٥٧ م (٧٩) بالتحديد الى سبعة آلاف نسمة كما روى ذلك « طومسون » عند زيارته للمدينة ـ ليتضاعف ويصل الى ١٨ ألف نسمة فى فترة زمنية لا تتعدى ربع قرن وفقا لتقدير مصلحة مساحة غرب فلسطين S.W.P. فى سنة ١٨٧٥ م (٨٠) ٠ ولما قامت هذه البعثة بتقدير عدد سكان معظم المدن الفلسطينية الرئيسية فلعله من الأهمية أن نورد عدد سكانها وسيلة للمقارنة وتتبعا لما اعتراها (٨١)

مسلسل	المدينة	سنة	عدد السكان	مصلحة غرب فلسطين S.W.P		
				المجلد	صفحة	
١ ــ	القدس	١٨٧٣م	٢٠٫٩٠٠ نسمة	٣	١٦٢ ــ ١٦٣	
٢ ــ	غزة	١٨٧٥	١٨٫٠٠٠ »	٣	٢٩٥	
٣ ــ	نابلس	١٨٧٥	١٣٫٠٠٠ »	٢	٢٠٣	
٤ ــ	الخليل	١٨٧٤	١٠٫٠٠٠ »	٣	٣٠٩	
٥ ــ	صفد	١٨٧٧ ــ ١٨٨٠	٤٤٥٠ ــ ١٣١٥٠ »	١	١٩٩	
٦ ــ	عكا	١٨٧٤	٨٠٠٠	١	١٤٥	
٧ ــ	يافا	١٨٧٦	٨٠٠٠	٢	٢٥٤ ــ ٢٥٥	
٨ ــ	اللد	١٨٦٩	٦٨٥٠	٢	٢٥٢	
٩ ــ	الناصرة	١٨٧٤	٥٦٦٠	١	٢٧٨	
١٠ ــ	بيت لحم	١٨٧٤	٥٠٠٠	٣	٢٩	
١١ ــ	حيفا	١٨٦٩ ــ ١٨٧٣	٤١٩٤	١	٢٨٢ ــ ٢٨٣	
١٢ ــ	الرملة	١٨٧٢	٢٥٨٤	٢	٢٥٢ ــ ٢٥٣	
١٣ ــ	جنين	١٨٧٢	٣٠٠٠	٢	٤٤	
١٤ ــ	بيت جالا	١٨٧٠	٢٨٠٠	٣	٢٠	
١٥ ــ	طبرية	١٨٧٧	٢٠٠٠	١	٢٦١ ــ ٢٦٢	
١٦ ــ	شفا عمرو	١٨٧٤	٢٠٠٠	١	٢٧٢	
١٧ ــ	مجدل عسقلان	١٨٧٥	١٥٠٠	٢	٤١٠	

(٧٩) W. M. Thomson, The land and the book, Ibid, p. 549.
(٨٠) S. w. P, Vol. 3, ibid, p. 238.
(٨١) Amiron estimates of the Urban Population of Palestine in the second of 19 century, I.E.J., Vol. X, 1960, pp. 181-182.

ليتضح من هذا الجدول أن سكان غزة يأتون فى تعدادهم بعد سكان القدس مباشرة ويبدو فيه التوطن البشرى المدنى فى المدن الجبلية الداخلية مع نهاية القرن التاسع عشر اذ تمركز غالبية السكان فى المدن الجبلية والداخلية والتى تمثل فى عددها ٨ر٥٨٪ من عدد جميع المدن يسكنها نفس النسبة تقريبا ٣ر٥٨٪ من مجموع عدد سكان المدن والنسبة الباقية من السكان تسكن المدن الساحلية ، هذا التوجه السكانى نحو الداخل يفسره عنصر الأمن المضطرب حيث يلجأ السكان لسكنى المناطق الجبلية الوعرة الاكثر أمنا بالنسبة لهم . كما نجد ان غزة مازالت أكبر المدن الساحلية سكانا على الرغم من منافسة مينائى حيفا ويافا لها منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى الا أن موقعها التجارى كمحطة على طريق مصر وكسوق رئيسية محلية لمعظم القرى الفلسطينية شمالها وجنوبها وشرقها ومعها القبائل العربية البدوية المتمركزة شمال النقب الفلسطينى وجنوبه ومع ما صاحب ذلك من هجرة كثير من سكان القرى هذه الى غزة كما سنلاحظ لسوء الاحوال الاقتصادية والأمنية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين .



وعليه نلاحظ ازدياد عدد سكان مدينة غزة فوصل في عام ١٨٨٦ م الى ٢٠ ألف نسمة كما ذكر ذلك « شوماخر » عند زيارته لها ، ليزداد أكثر وفي قمة التحلل والضعف العثماني بجميع مجالاته عدد سكان غزة فيصل الى ٣٦ ألف نسمة سنة ١٨٩٧ م ليقفز مرة أخرى الى ٤٠ ألف نسمة سنة ١٩٠٦ ثم يهبط فيصل الى ٣٠ ألف نسـمة ابان الحرب العالمية الأولى وبذا يكون عدد سكان غزة قد قفز الى أكثر من ضعف عدده قبل ٣١ سنة ومرد ذلك بطبيعة الحال للهجرة الداخلية من القرية للمدينة لسوء الأوضاع الاقتصادية للفلاح مما دفعهم للتوجه نحو المدينة علهم يجدون فيها ما يسد رمقهم من فائض عطاء أغنيائها بحيث لم نعد نجد آثارا لتلك القرى الصغيرة المحيطة بالمدينة مثل (سوق مازن ــ الدميثة ــ السلقا ــ البها ــ لسن ــ سيحان ــ الجوباني ــ منشية تل العجول ٠٠٠٠ الخ) والتي هجرها سكانها نحو غزة ٠٠٠ ولم تقتصر هذه الظاهرة على مدينة غزة وقراها بل تمثلت في جميع القرى الصغيرة المحيطة بمعظم المدن الفلسطينية كما نلاحظ ذلك من تعداد سكان المدن الرئيسية التالية ابان الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ م (٨٢) ٠

المدينة	عدد السكان	المدينة	عدد السكان
القدس	٩٠٫٠٠٠ نسمة	عكا	١٠٫٠٠٠ نسمة
غزة	٣٠٫٠٠٠ »	حيفا	١٠٫٠٠٠ »
يافا	٢٥٫٠٠٠ »	الناصرة	١٠٫٠٠٠ »
الخليل	١٥٫٠٠٠ »	نابلس	١٠٫٠٠٠ »
صفد	١٢٫٠٠٠ »	بيت لحم	٦٫٠٠٠ »

حيث يبدو لنا ازدياد عدد سكان جميع المدن اذا ما قارناه بالجدول السابق الخاص بتعداد مساحة غرب فلسطين S.W.P. ٠ وأكثر ما يلاحظ من ازدياد طفري للسكان في مدينة « القدس » لمكانتها الدينية ولازدياد التدخل الأجنبي المتمسح بالدين وارسالياته وقناصله الذين مدوا طريقا معبدة تصلها بالميناء عند يافا كما اتصلت بها بخط سكة حديد عزز التواجد بها ، كما بدأت المدن الساحلية في الازدياد خاصة يافا وحيفا لأنهما أصبحتا محل اهتمام كبير وكشف للشركات الأجنبية وقناصلها مما فتح مجالا للنشاط الاقتصادي ومن ثم جذب العديد من العمال لها على حساب الزراعة ٠

(٨٢) الهيئة البهية في الكرة الأرضية ــ المطبعة الأمريكانية ــ بيروت ١٩١٤ ص ٦٣ ــ ٦٤ ٠

واجمالا ترينا جميع الجداول السابقة الخاصة بتطور أعداد السكان لمدينة غزة أننا بازاء تعدادات وتطور سكانى لا قواعد ولا ضوابط له تماما كالاحوال السياسية والغزوات القبلية والتسلط الخارجي وهجوم الأوبئة ومداهمة المجاعات والقحط تأتي جميعا أو فرادى دون استئذان ٠

فموقع المدينة جر عليها النعم تماما كما ألصق بها الكثير من النقم فى فترات متنوعة ومتعاقبة من التاريخ العثمانى كما لاحظنا ٠ مما جعل صورة التعداد السكانى تعاكس كل النظريات والتطورات السكانية التى يرى علماؤها ومنهم ابن بطوطه صاحب نظرية العمران والدولة والسلطان ، القائلة بأن الدولة فى عصر فتوتها وشبابها تتمتع بقوة الادارة والتنظيم والاستقرار السياسى وما يتبعه ذلك من ازدهار اقتصادى ونمو سكانى ـ والى هذا الحد من النظرية ينطبق القول على سكان مدينة غزة كما لاحظنا حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ـ ويمضي قائلا أما فى فترات الشيخوخة للدوله فيصيبها الوهن والتسيب والانحدار الاقتصادى ليرتبط بالعجز السياسى وتناقض السكان وانهيار تعدادهم وهنا نجد الأمر مقلوبا بالنسبة لسكان غزة وتعدادهم بل ولمعظم المدن الفلسطينية الرئيسية كما رأينا والتى أخذ سكانها فى الازدياد بشكل قفزات ضفدعية واسعة المدى لا يفسرها الا الهجرة من القرية للمدينة نظرا لما أصاب الدولة العثمانية من انهيار اقتصادى وتدهور أمنى ناجم عن التدخل الأجنبى كما رأينا عند دراستنا للاحوال السياسية والادارية من قبل ادت الى قيام الحرب العالمية الأولى ٠

ديمغرافية غـزة

احياء غـــزة :

لم يطرأ تغير يذكر بالنسبة لأحياء مدينة غزة وتسمياتها منذ بداية القرن السادس عشر وحتى نهاية الفترة العثمانية تقريبا حيث طرأ عليها بعض التعديلات المفرضة ابتداء من النصف الثانى للقرن ١٩ فقد جاء فى الدفتر العثمانى (رقم ٥٢٢) السابق الذكر والذى يسجل أملاك وأوقاف فلسطين فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى أن لمدينة غزة الأحياء التالية :

- حى حكر التفاح
- محلة دار الحضر

- محلة الزيتون

- محلة الدباغة أو الصباغة ·

- محلة البرجلية

- محلة التركمان وسجاعية الأكراد (٨٣) ·

وبقيت هذه التقسيمات والتسميات للأحياء حتى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى فكثرت الرحلات والرحالة يقودها اما رجال دين أو عسكريين محشوة أدمغتهم بأفكار مسبقة كما سبق أن ذكرنا بدأوا بتزويدنا بأسماء وفق أهوائهم · منها هو « طمسون » يزور المدينة سنة ١٨٥٧ ويذكر أن بها أربعة أحياء هى (٨٤) : -

- حى السجرية ·

« ويقصد هنا حى الشجاعية » لكنه اعتمد على السمع الخادع فقط فتمادى فى خطئه وعلل هذه التسمية لكثرة أشجار الحى ·· هكذا !! مما يدعونا للتشكك فى صحة كثير من البيانات التى يوردونها ·

- حى التفاح (التفين) ·

- حى الدرج ·

- حى الزيتون ·

تلاشت بناء على ذلك تسميات أحياء « الحضر » لأنها فى الواقع جزء لا يتجزأ من حى الزيتون حيث كان وما زال للآن يسكن هذا الجزء من الحى والواقع أقصى غرب المدينة القديم فئة التجار وأصحاب الحوانيت والخانات لذا أطلق عليهم « الحضر » أى الطبقة المتمدينة ·

كذلك لم نعد نسمع عن « حى البرجلية » « والدباغة » لأنهما جزء من « حى الدرج » حيث التحم العمران ببعضه البعض ولم يعد هناك تميز بين

---

(٨٣) محمد ابشرلى ومحمد التميمى - أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون - استانبول ١٩٨٢ ص ١٤ - ١٩ ·

(٨٤) W. M. Thomson, The land and the Book, Ibid, pp. 549.

أولئك الذين يسكنون ويخدمون « الأبراج » الواقعة شرق المدينة القديم وهم « البرجلية » وبين بقية السكان ممن يمتهنون « الصباغة » فأصبحوا جميعا فى حى واحد هو « حى الدرج » نسبة « لساقية الدرج » أى التى لها عدة درجات (*) ٠

ثم أبانت وثائق غزة الشرعية التى تغطى الفترة الواقعة ما بين سنتى ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ م (٨٥) أن بالمدينة سبعة « أحياء » هى :

- حى الشجاعية ٠
- حى الزيتون ٠
- محله الحضر ٠
- حى التفاح ٠
- حى الدرج ٠
- حى البرجلية ٠
- حى بنى عامر ٠

ولعل زيادة هذه التسميات يعود لعدم نسيان الناس تاريخهم الديمغرافى بسهولة بل يبقى حيا فى أذهانهم فحى بنى عامر من الأحياء القديمة التى سكنها العرب قبل الفتح الاسلامى وأصبح يمثل عدة شوارع فقط من حى الدرج والى الشرق والشمال « برجها وقلعتها » القديمة ٠٠ ولعل ذكر مثل هذه الأحياء الصغيرة راجع لزيادة الايضاح عند ادلاء الشاكين فى المحاكم والأوراق الثبوتية بأقوالهم ٠

ثم قدمت بعثة المسح الأثرى (مساحة غرب فلسطين .S.W.P) فى سنة ١٨٧٥ م بقيادة « كوندر وكتشنر » لتسجل أن بالمدينة أربعة أحياء تحتل مساحة تقدر بنحو ¾ ميل مربع وهى (٨٦) :

(★) هكذا يفسر معظم المسنون والمشايخ بالمدينة ٠

(٨٥) د٠ عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ١٤ ٠

(٨٦) S.W.P. Vol. 3. Jerusalem, 1973, p. 234.

- حارة الدرج
- حارة التفاح (التفين) .
- حارة الشجاعية .
- حارة الزيتون .

وأخبرهم السكان بأنه كان يعيش بينهم سومريون منذ مائة عام خلت على حد تعبيرهم .

وبعد ذلك ذكر الهرجات GATTE المبشر النمساوى الذى عاش فى دير اللاتين بغزة فترة من الزمن أن المدينة تتألف من تسعة أحياء هى :

- حى الزيتون .
- حى اليهود .
- حى النصارى .
- حى المسلمين .
- حى الفواخير .
- حى الدرج .
- حى التفاح .
- حى بنى عامر .
- حى الشجاعية .

وكان متأثرا بهذه التسمية بما جاء فى كتاب « بيديكر » بالألمانية على الرغم من مكوثه داخل المدينة سنوات ، فهل هذا يعنى قدوم يهود أو نصارى ومسلمين جدد وخلال عدة أعوام فقط وأصبحت لهم أحياء جديدة أو حتى قديمة مستقلة ؟

وان دخل المدينـــة أفراد من اليهــود ــ وفى هذه المدة الوجيزة ــ هل وصل بهم الحد والكثرة حتى يطلق على سكناهم « حارة اليهود » ؟!!

والحقيقة أن شعبنا العربى اعتاد أن يطلق التسميات أحيانا وفقا لندرتها تمييزا لها فيكفى أن يسكن فرد واحد من مصر أو المغرب أو أرمنيا فى شارع واحد لكى يطلق على الشارع اسم « شارع المصرى ـ أو المغربى · أو اليهودى » لسهولة تحديد الشارع فى أيام لم يكن للشوارع فيها تسميات محددة خاصة لو خلت من جامع أو زاوية أو خان أو حمام ··· الى آخره من المؤسسات والمرافق الحيوية القديمة ·

فالخلط هنا واضح بين الشارع والحارة والحى فأحيانا يطلق على الشارع « حارة » خاصة لو سكن الشارع عدة أسر مسيحية أو ذات حرفة معينة فنظرا لتمركز عدة أسر مسيحية فى شارع واحد من « حى الزيتون » خاصة « جامع الشمعة » لذا يطلق عليه الناس « حارة المسيحية » ·

ولكن أين تقع حارة المسلمين ؟! التى ذكرها « جات » والمدينة كلها مسلمون ولم يزد عدد العرب المسيحيين فى ذلك الوقت على ٧٥٠ نسمة وحتى نهاية القرن أما اليهود فهم أقل من هذا الرقم بكثير وعليه يكون تصنيف الأحياء وفقا للدين هو تصنيف غير منطقى وغير معقول · تماما كما جعل من « شارع الفواخير » الذى هو جزء من حى « الدرج » حارة بأكملها ·

وقد حذا « ماير » فى كتابه عن تاريخ غزة سنة ١٩٠٦ حذو جات دون تمحيص ذاكرا نفس الأحياء التسعة (٨٧) ·

والحقيقة أن معظم هؤلاء المستشرقين والرحالة لم تكن دراستهم قائمة على البحث الجاد أو الدراسة الحقلية النقالة داخل المدينة ، فمعظمهم ان لم يكونوا جميعا لم يستقروا بالمدينة أكثر من ساعات يعتمدون فيها على نقل المعلومات من عامة الناس فكما رأينا سجل طمسون اسم « حارة السجرية » بدلا من الشجاعية وراح يعلل تسميتها !! كما نسيت أو تناست بعثة كوندر وكتشنر دراسة قرى جنوب غزة بأكملها ولم تسجل العديد من مواضع الاستقرار القديمة (الخرب) فى فلسطين · ليأتى من بعدهم « شوماخر » فى سنة ١٨٨٦ م فيعمل على دراسة

---

(٨٧) M. A. Meyer, The History of the city of Gaza, ibid p. 108.

قرى جنوب مدينة غزة وحتى « الشيخ زويد » وعندما دخل مدينة غزة فى صيف ذلك العام لم يذكر من أحيائها سوى حى الدرج وحى الشجاعية فقط . من هنا لا بد من الحيطة والحذر من دراساتهم فى هذه الحقبة التى تميزت بطابع سياسى معين كما ذكرنا من قبل اختلفت وتعددت فيها الأهداف والمقاصد ليأتى فى نهايتها الدراسة والمسح والتنقيب .

ومع مطلع القرن العشرين أصبح هناك أربعة أحياء فقط بتسمياتها القديمة وان تعددت شوارعها فهى حى الشجاعية بتسمية (تركمان وجديدة) ثم حى الدرج وحى الزيتون ثم حى التفاح ويطلق عليه عامة الناس للتخفيف « التفين » وللشمال من حى التفاح هناك ضاحية أو حارة « المشاهرة » وشمالها « سكنة الزرقة » .. كضواحى لمدينة غزة شمالا .

الاحياء ــ خطوطها ومرافقها :

لعل دراسة خطوط (شوارع) الأحياء بمدينة غزة ما يؤكد هوية المدينة العربية الفلسطينية ويبرز عن قرب دقائق ملامحها وقسماتها ويكشف لنا العديد من مؤسساتها الدينية والثقافية والترفيهية والاقتصادية ويدحض لنا التصنيفات التعسفية الاستشراقية .

واعتمادنا فى الغالب الأعم على الوثائق الشرعية الغزية التى تغطى الفترة الزمنية الواقعة بين عامى ١٨٥٧ م وسنة ١٨٦١ م ، يدفعنا لمزيد من التحفظ على ما جاء ذكره من خطوط (شــوارع) ، لأنها عبارة عن سجلات لوقائع وشكاوى وحجج وتركات لمواطنين من أهل المدينة ذكر كل فرد منهم عنوانه مع ما يكتنفه من غموض أحيانا أو عدم دقة يدعم ذلك ما يلى :

ــ تعدد التسميات لخط (شارع) واحد نظرا لامتداده أحيانا فى أكثر من حى .

ــ نظرا لوجود أكثر من مسجد وجامع فى شارع واحد أحيانا يؤدى الى تعدد تسميته بتعدد المساجد .

ــ ونتيجة لعدم تسمية محددة للشوارع من قبل السلطة أو أى جهة نلاحظ تعدد التسميات وفقا لما يراه المواطن لأى ظاهرة موجودة فيه مثل (مسجد ــ زاوية ــ حمام ــ عائلة كبيرة ــ سبيل ــ سوق . الخ) من هنا تكررت التسميات للشارع وكأنه عدة شوارع هذا بالاضافة للخلط أحيانا بين « حى » وحارة وعليه سنذكر هذه « الخطوط » وفقا لما جاءت به سجلات المحكمة

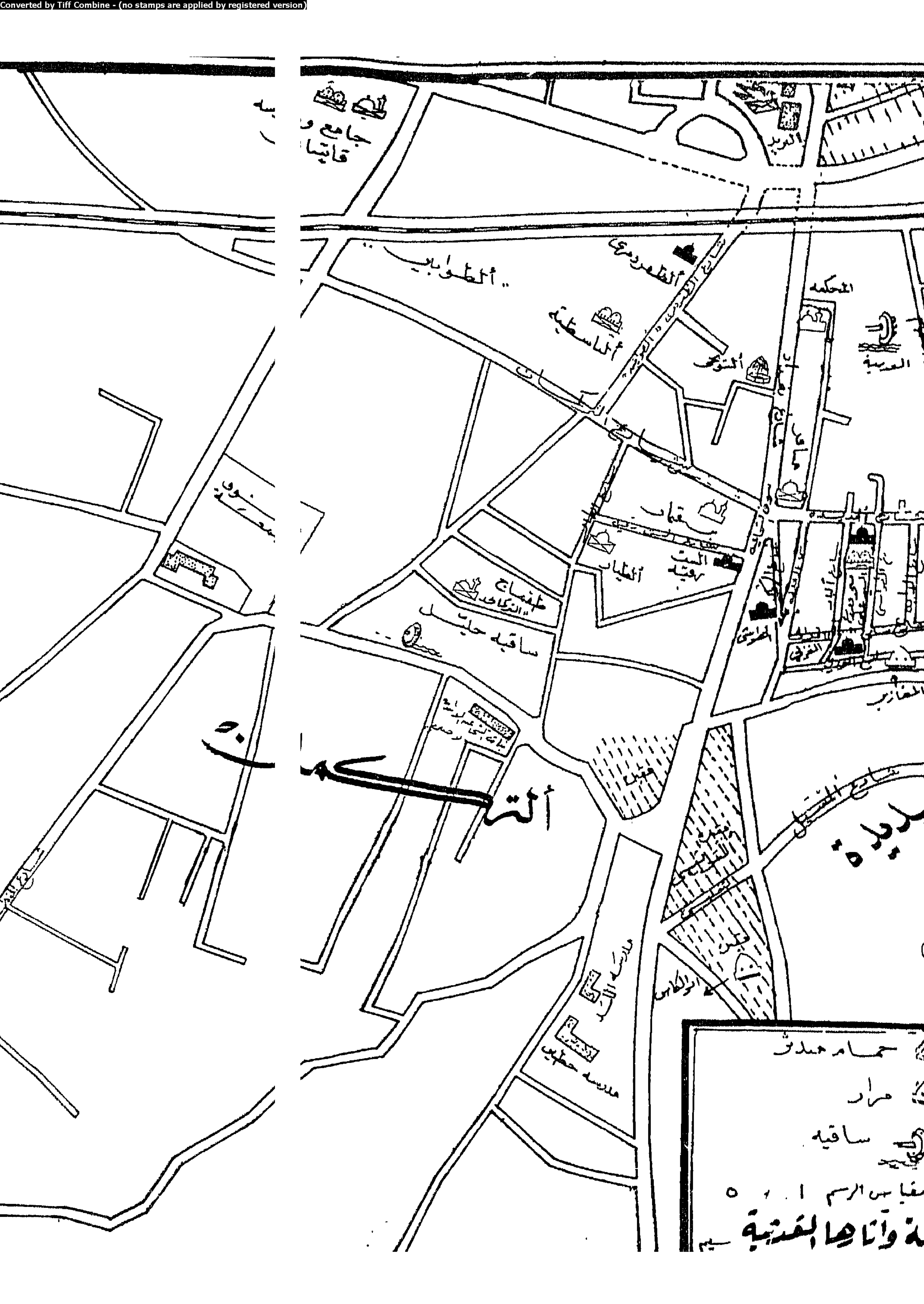
حى الشجاعية

اسم « الخط » والشارع (٨٨)	ملاحظـــات (*)
خط الجديدة	الشارع الرئيسى لحى الشجاعية الجديدة الآن ويقع فى وسطه مسجدى الطواشى ومسافر
خط التركمان	الشارع الرئيسى فى الشجاعية التركمان ويقع فى منتصفه شارع جامع بن عثمان
خط الاسكافية	اسم عائلة بحى الشجاعية الجديدة وربما كان الاسكافية يعملون فى خط التركمان السابق
خط المحكمة القديمة	شارع يقع عليه جامع المحكمة بحى الشجاعية الجديدة الآن
خط الحمام	وهو « حمام السويحى » كما جاء فى الدفتر العثمانى ٥٢٢ وقد اندثر .
خط الشيخ الغزالى	وهو شارع مسجد الغزالى بالشجاعية الجديدة واعيد بناؤه الآن
خط الشيخ على المغربى	وهو « مسجد الطواشى » ويقع على الشارع الرئيسى لحى الشجاعية الجديدة السابق الذكر (خط الجديدة) .
خط اولاد عبد (العبابدة) أو خط بوابة أبو بكر (ابو كر)	كانت هذه البوابة تقع عند نهاية سوق الشجاعية التركمان الجنوبى وقد اندثرت وعائلة ابو كر قديمة ينتمى اليها الشيخ محمد العابد الذى له مسجد معروف باسمه (٨٩)
خط ولى الله تعالى الشيخ نصر الدين	
خط مسجد الشيخ عكرى بن مسافر	كان مسجدا وهو الآن مزار بحى الشجاعية الجديدة ويقع عند بداية شارع المحكمة
خط التفليسى	اسم المقبرة الواقعة شرق حى الشجاعية
خط سوق الغزل	يقع بالقرب من جامع الظفردمرى الآن .
خط مسجد ولى الله تعالى الشيخ محمد الظفردمرى	وهو نفس شارع سوق الغزل (الصوافين الآن)
خط العابد	ربما هو شارع مسجد محمد العابد المندثر
خط زقاق اولاد حتحت	اسم عائلة تسكن للآن بشارع مسجد الست رقية بالشجاعية الجديدة
خط الباسطية	نسبة لجامع الباسطية المندثر
خط مسجد الشيخ محمد الطيار	اندثر هذا المسجد وهو بالشجاعية التركمان
خط ساقية خليل	اندثرت الساقية وتقع الأرض للآن شرق الشجاعية التركمان عند نهاية خط مسجد محمد الطيار
خط المفتى	
خط البازار	خط يقع ضمن سوق الشجاعية
خط الباز	عائلة تسكن الشارع بحى الشجاعية الجديدة ومازال يحمل نفس الاسم .

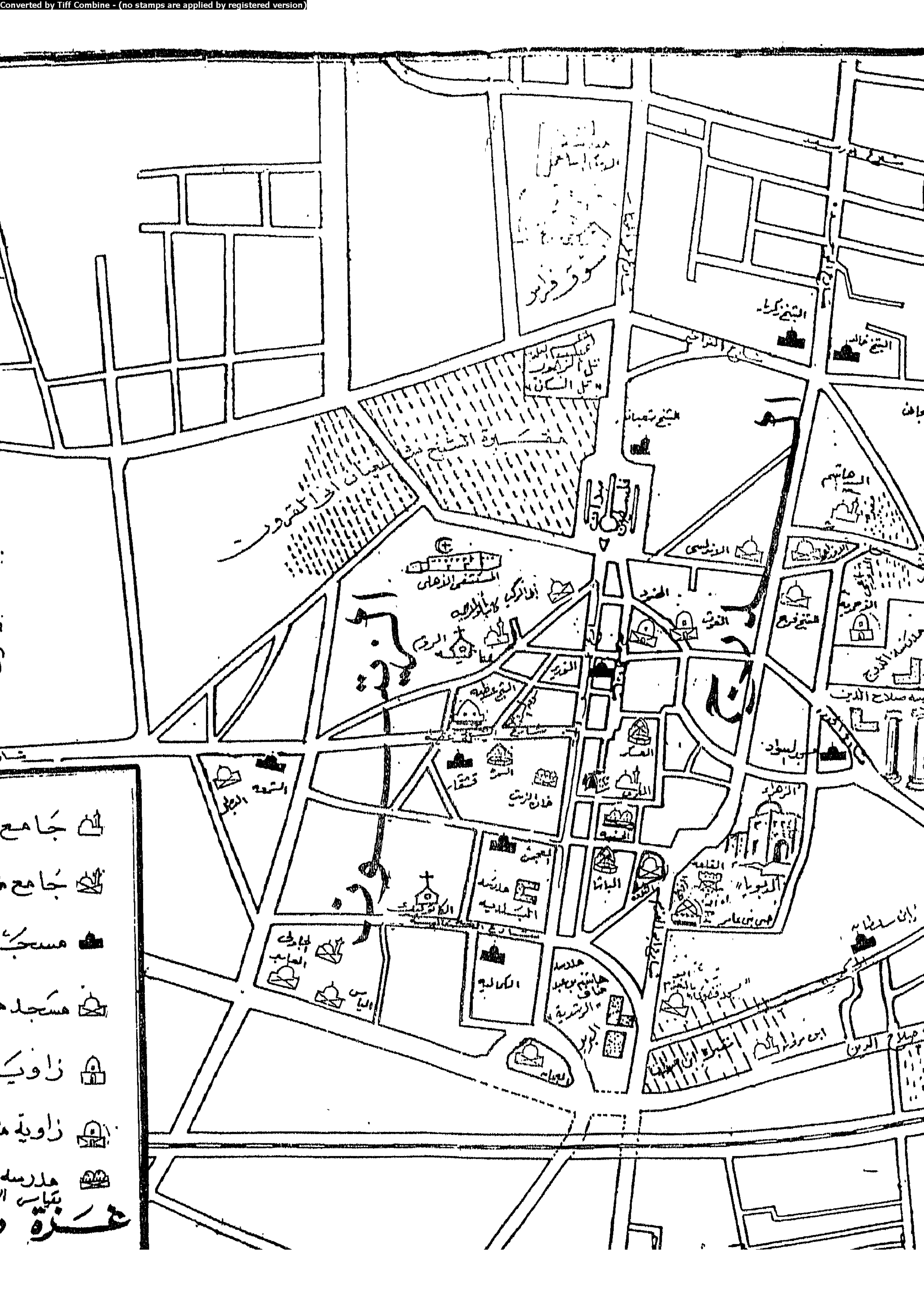
(*) أسماء الخطوط وفقا لما ذكرته « الوثائق » أما الملاحظات فهى من تعليق المؤلف .

(٨٨) د. عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ١٧ ـ ٢٧ .

(٨٩) عثمان الطباع ـ الشجرة الزكية ـ مخطوط .


جامع و
قايتبا
ألطوابيب
المحكمه
سقايات
ساقيه حليل
مدرسه حطيب
حمام هندى
مزار
ساقيه
مقياس الرسم ١ ٠ ٥
وآثارها القديمة





المستشفى الأهلي
الشيخ شعبان
الباشا
جامع
مسجد
زاوية
مدرسة



تابع خطوط الشجاعية :

ملاحظـــات	اسم الخط ـ الشارع
	خط مسجد ولى الله الشيخ سعيد
يوجد للآن مزار الشيخ أبو الكاس ويقع ضمن مقبرة الشجاعية (التفليسى)	خط الشيخ ابو الكاس
وهو الجامع الكبير بحى الشجاعية ويقع وسط خط التركمان وامتداد خط الجديدة .	خط جامع شهاب الدين بن عثمان
	خط ولى الله الشيخ المصلح
هو نفسه خط جامع ابن عثمان السابق الذكر وخط التركمان .	خط الجامع الكبير
اسم عائلة تسكن هذا الشارع ويقع بالقرب من « ســـوق الجمعة الآن » وقد ذكر فى الوثائق « حارة » للدلالة على عدة شوارع وليس « حى »	خط حارة حلس
وهو نفسه « خط الجديدة » الذى يقع وسطه مسجد السيد على المغربى الذى يطلق عليه ايضا « مسجد الطواشى » بحى الشجاعية الجديدة .	خط الطواشى
شارع عند نهاية حى الشجاعية الجديدة من الشرق ومازال هذه العائلة موجودة .	خط اولاد سهمود
مسجد يقع بحى الشجاعية الجديدة وقد اندثر القديم وبنى حديث فوقه .	خط مسجد محمد الهواشى
مسجد يوجد بحى الشجاعية الجديدة ومازال قائما ويقع عند بداية خط أولاد حتحت السابق الذكر .	خط مسجد الست رقية

الشرعية فى غزة للفترة المذكورة مع اضافة ملاحظات أمامها توضح ما تكرر منها أو أى ملاحظات أخرى . هذا مع أخذنا فى الاعتبـــار أن هذه الخطوط الوارد ذكرها ليست هى خطوط المدينة فى كمها وشمولها التام فهناك بعض « الخطوط » لم تذكر . الا أنها فى الحقيقة تغطى معظم خطوط المدينة

وستذكر خطوط كل حى من أحيــاء المدينــة وأهم المرافق الموجودة فيه

من دراستنا « للخطوط » نلاحظ ســيادة الطابع العربى الاسلامى على شوارع « الحى » بل المدينة بأسرها فكانت « المساجد والجوامع » هى رموز الشوارع وعناوينها ومعها أولياء الله الصالحين . « انظر الخريطة ٢٩ » .

كذلك تبين لنا تكرار التسميات كما أوضـــحنا . كما شمل الحى على أحد عشر مسجدا أو جامعا مازالت باقية لليوم باستثناء اثنين قد اندثرا (مسجد الشيخ سعيد ومسجد الباسطة) واثنان قد أصبحا مجرد مزارين فقط ولم تقم

فيهما الصلاة (مسجد الطيار ومسجد الشيخ مسافر) وتوسط الحى الحمام الوحيد (حمام السويحى) وقد اندثر .

أما « الأسبله » فلم يأت بذكرها باستثناء « سبيل واحد » هو « سبيل الاسكافية » جــاء ذكــره فى الوثائق بمناســبة وقف دكان للصباغة عليه بنفس الحى (٩٠) .

أما بالنسبة لفعالية « الحى » الاقتصادية والمتمثلة فى مرافقه بالأسواق والخانات فقد كانت من الكفاية الانتاجية لأهل « الحى » بدرجة أصبحت معه تمثل أشبه ما يكون بوحدة سكنية مستقلة بكيانها الاقتصادى حتى أشكل على بعض الدارسين وأظهرها فى خريطته باسم « قرية الشجاعية » فى سنة ١٨٤٣ م

وكان من هذه الأسواق والخانات والمعاصر :

ـ سوق الصوافين : ويقع بحى الشجاعية التركمان وبالقرب من جامع الظفردمرى السابق الذكر

ـ سوق الغزل : ويقع بجوار سوق الصوافين وبنفس الخط .

ـ سوق العطارين : ويقع فى منتصف سوق الشجاعية وكان بمثــابة الصيدلية بالنسبة لسكان الحى حيث يشترون ما يلزمهــم للوصفات الطبية للعلاج وغالبا ما كان يصفها لهم « العطار » نفسه .

ـ سوق الاسكافية : ويقع بجوار جامع ابن عثمان (الجامع الكبير) وفى منتصف الشارع تقريبا وهو خاص بالصناعات الجلدية وأهمها صناعة الأحذية

ـ خان القهوة : وهو الخان الوحيــد التى ذكــر بالحى فى خمسينات القرن التاسع عشر كما جاء ذكر « معاصر » بداخل الحى وهى ثلاث :

ـ معصرة أولاد الغزالى .

ـ معصرة بدوى حتحت وتقع بخط مسجد الست رقية .

ـ معصرة أولاد حتحت وتقع بخط جامع ابن عثمان .

وهناك بالاضافة لذلك أربعة محلات للصباغة هى :

ـ مصبغة لصاحبها أحمد بن على المشهراوى وقد أوقفهـــا لصـــالح « سبيل الاسكافية » الذى يقع بجوار سوق الاسكافية وقبالة جامع ابن عثمان .

ـ مصبغة أخرى بنفس الشارع .

ـ مصبغتان يمتلكهما عبد الرحمن زمو ونازعه فى احــداها يوســـف السقا وأخوه فى خمسينات القرن التاسع عشر .

وفى حى الشـــجاعية الجديدة وفى شارعها الرئيسى كانت هناك قاعة

(٩٠) د. عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٢٨ .

للحياكة بخط مسجد السيد على المغربى (خط الجديدة) يعمل بها العديد من النساء ٠

واستمرت معظم هذه المرافق الاقتصادية فى مطلع القرن العشرين الى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ٠

حى الدرج

وهو من أقدم أحياء المدينة ويقع على ربوتها القديمة (٤٥ مترا فوق مستوى سطح البحر) ويحتل قسمها الشمالى وقد تعددت تسمياته وفقا لتعدد مرافقه فاطلق على قسمه الشرقى والقريب من حافة المدينة الشرقية (حى بنى عامر) والى الغرب من هذا الحى مباشرة أطلق عليه « حى البرجلية » نسبة للبرج الموجود فيه وفى أقصى الغرب أطلق عليه « حى الفواخير » وهى فى الحقيقة لا تمثل أكثر من عدة شوارع فى الحى كله والذى غلب على تسميته بحى الدرج ٠

وسنتتبع خطوطه (شوارعه) وفقا لما ورد ذكره فى الوثائق الشرعية وبنفس التقسيم لأحيائه وهى محلة الدرج ومحلة البرجلية ومحلة بنى عامر ٠

الخط (الشارع)	ملاحظات
خط مسجد الشيخ ظريف	يقع غربى « سباط المفتى » بالقرب من الفواخير وقد دمر ذكره جات سنة ١٨٨٧م واندثر
خط الشيخ ذكرى	
خط الشيخ خالد	مسجد يوجد عند سفح المدينة الغربى قبالة الفواخير وهو للأسف مهجور الآن والأوقاف تنظر اليه ٠
خط الخرابة	يوجد الى الشرق مباشرة من القلعة القديمة ٠
خط مسجد البلاطة	اندثر
خط الفواخير	شارع الفواخير أى الواقع امام منطقة صناعة الفخار عند سفح المدينة الغربى
خط سوق الفخار	الى الشرق من الخط السابق ٠
خط بير الدولاب	
خط الشيخ شعبان	خط الشيخ شعبان ابى القرون وقد اندثر جامعه وبنى من جديد
خط البيمارستان	دمر البيمارستان جنود نابليون سنة ١٨٠٠
خط الشيخ محمد الخروبى	يتوسط مقبرة الخروبى عند سفح المدينة الشمالى واسفل جامع السيد هاشم ٠

نأتى للقسم الثانى من حى الدرج نفسه والذى كان يطلق عليه « حى البرجليه » فقد جاءت الخطوط التالية ويقع للشرق من حى الدرج نفسه وخطوطه هى :

محله البرجلية

اسم الخط (الشارع)	ملاحظـــات
خط سوق الخضر	يوجد فى وسط الحى وهو للآن تطلق عليه نفس التسمية .
خط مسجد ولى الله الشيخ ظريف	ورد فى حى الدرج من قبل مما يؤكد وحدة الحى . (اندثر) .
خط زاوية الهنود	فى قلب سوق المدينة القديم واندثرت الزاوية وبنى فوقهـا مسجد
خط مسجد ولى الله الشيخ عياد	
خط مسجد ولى الله الشيخ فرج	يقع الى الشرق من جامع السيد هاشم وقد اندثر نتيجة لفتح شارع جديد .
خط مسجد ولى الله محمد المغربى	ويسمى هذا المسجد باسم « مسجد السواد » ومازال موجودا
خط الشيخ محمد العراقى	
خط مسجد ولى الله محمد الهليس	اندثر .
خط بنى عامر	نسبة لبنى عامر مما يؤكد ان هذا الحى جزء لا يتجزأ من حى الدرج
خط الخرابة	سبق ذكره نتيجة لامتداد الخط فى القسمين من الحى .
خط سوق الفخار	تكرر نفس الاسم اما لامتداد الشارع أو لأن الحى واحد .
خط خان الكتان	ويقع للغرب مباشرة من « سوق القيسارية » الآن وقد اندثر الخان
خط مسجد ولى الله الشيخ على الاندلسى	وقد اندثر هذا المسجد وكان يقع عند بداية شارع فهمى بك من الشمال .
خط حمام السوق	ويقع عند بداية سوق الخضار من الشرق وقد اندثر الحمام .
خط القهوة	لا يعرف موقعها .
خط الشيخ على الأوزاعى	اندثر هذا المسجد .
خط مسجد السيد هاشم	ويقع عند سفح المدينة الشـــمالى وقد بنى فى نفس الفترة سنة ١٨٥١م .
خط مسجد محمد العجمى	سيرد ذكره فى حى الزيتون « يقع فى حى الزيتون »
خط مسجد ولى الله الشيخ منصور	اندثر
خط جامع البلاطة	اندثر وقد ورد ذكره فى حى الدرج
خط الشيخ شرف	
خط مسجد ولى الله الشيخ محمد الأزبكى	اندثر .
خط ساقية الدرج	لقد سمى حى الدرج نسبة لها
خط البيطار	
خط زاوية سيدى بن مدين الغوث	وتقع هذه الزاوية قبالة زاوية الهنود وهى خربة الآن .
خط القلعة	وقد دمرها جيش نابليون بونابرت .
خط الجامع الكبير	وهو الجامع العمرى الكبير بوسط المدينة القديمة .

(٩١) د. عبد الكريم رافق ص ١٩ ــ ٢٣ .

تلك هي خطوط « حي البرجاية » :

أما بالنسبة « لحي بني عامر » فقد اشتمل على خط واحد اسمه خط مسجد ولى الله تعالى محمد المغربى (٩٢) (السواد) والذى ورد ذكره فى حى الدرج » من قبل كما جاء أيضا ضمن « حي البرجلية » وأخيرا ذكر فى حى بنى عامر » فان دل ذلك فانما يدل على أن الأحياء جميعها تمثل كتلة سكنية متراصة لا انفصام بينها • وما التسميات الا لوجود ظاهرات عمرانية بارزة (جوامع أو مساجد •• الخ) أو سكانية (عائلات •• وظائف) أو بعض الصناعات • (انظر خريطة ٣٠) •

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه ورد في وقفية موسى آل رضوان سنة ١٦٦١ م أى قبل قرنين من الزمان بالتحديد اسم « شارع بني عامر » •

وعليه سيطرت تسميات الجوامع والمساجد والزوايا وأولياء الله الصالحين على معظم الخطوط بالرغم من أنه لم يأت ذكر الزاوية الأحمدية وجامع الشيخ زكريا ومسجد الهجاني وزاوية المغاربة بخط الشيخ فرج فهى جميعا ما زالت باقية باستثناء زاوية المغاربة التى اندثرت • فاذا أضفنا هؤلاء جميعا يصبح هناك تسعة عشر جامعا ومسجدا وزاوية • ونظرا لقدم هذا الحى ووقوعه الملاصق لقلاع وأبراج المدينة فكثيرا ما تعرض للتدمير أو الاهمال فى فترات التحلل ، وكانت آخرها فى ستينات القرن العشرين الأولى عندما دمر أعظم مساجده وزواياه أثرا وآثارا بحجة شق شارع فى الحى (شارع الوحدة الآن) فقضى بالتالى على كثير من الشوارع المسقوفه (سباط المفتى) حتى بلغ ما اندثر كلية من تلك الأماكن الدينية أحد عشر مسجدا وجامعا •

هذا بالاضافة لاهمال بعض الزوايا مثل « زاوية ابن معدين الغوث » المهملة ومعها مسجد الشيخ خالد • ولما كان هذا الحى يمثل جزءا من الحى القديم للمدينة الأم ذات السور القديم لذا كان مركزا للنشاط التجارى والصناعى وتنوعت فيه الخدمات وتعددت الوظائف فهو المركز الادارى للحكم ، به قصر القائمقام وقلعته وبيمارستانه والسوق ، وعليه تركزت الأسواق والخانات فهو عصب المدينة الاقتصادى ومستودعها ومركز تجارتها فقد جاء فى الوثائق الشرعية (٨١٥٧ – ٨١٦١ م) ذكر المؤسسات التالية فى الحى •

– خان الكتان •

(٩٢) عبد الكريم رافق – غزة – المرجع السابق ص ٢٤ •

- خان زاوية الهنود ٠
- خـــان الغلة ٠
- وكالة أبو شعبان ٠
- وكالة على ساق الله (٩٣) ٠

وكان بالحي « مسلخ » وســوق للنحاسين ومصبغة بشارع بنى عامر ومعصرة لأولاد القهوجى بالقرب من الحمام ٠

وقد انفرد هذا الحي بصناعة « الفخار » عند أقصى طرفه الغربى وما زالت فى نفس الموضع ومارست هذه الصناعة عدة أسر غزية كما ورد فى الوثائق منها (أسر قعوة ـ ابراهيم الشوبكى ـ خلف الأقرع ـ محمد فلفل ـ عبد ربه الغداوى ـ الحاج عبد الفتاح المشهراوى ـ ابراهيم الزنوتى ـ وأبو عبيد الأزعر والحرمة أمونة صالح وغمش » (٩٤) للدلالة على مشاركة المرأة جنبا لجنب مع الرجل فى ميدان الصناعة والعمل ٠

ونلاحظ عند استعراضنا للأسواق دخول اصطلاح « وكالة » لأول مرة دلالة للتأثير المصرى على السوق التجارية فى غزة فقد شيد السلطان قنصوى الغورى « الوكالات » فى مصر ســـنة ١٥٠٠ م (٩٥) ٠ وتبدو فعالية السوق والحركة التجارية من الكثافة الواضـــحة لعدد الخانات والوكالات فى منطقة محددة من الحي (لا يتعدى طولها مائتى متر) ٠

واستمرت هذه الفعالية حتى نهاية القرن التاسع عشر حيث ظهرت هذه الخانات على خريطة رسمها « بيديكر » سنة ١٨٨٧ م ٠ لذا كانت هذه المنطقة هى « مدينة التجار » اذا جاز التعبير ٠ (انظر خريطة ٣٣) ٠

من المظاهر العمرانيـــة التى حرصت الدولة العثمانيـــة على الاهتمام بهـــا وتجديدها فى هذا الحي « ساقية الرفاعية » التى كانت تستمد مياهها من بئر حفر بالقرب من « برج المدينة » ويخدم بدوره منطقة أو حى « البرجلية » بالدرجة الأولى لموقعهـــا بالقرب منه ثم بنى عامر وحى الدرج بأكمله من هنا سمى « بئر البرج » قام بتجديده سنة ٩٧٦ هـ (١٥٧٠ م) بهرام بك آل رضوان كما يستدل من كتابة كانت على الساقية :

---

(٩٣) عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٥٤ ٠
(٩٤) د٠ عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٥٥ ٠
(٩٥) ثروت عكاشة ـ القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨١ ص ٢١٢ ٠

بناه أعدل الحكام بهرام بك أمير اللواء
هو ابن المصطفى باشا تكون الجنة مثواه

فلما انتهى من تأسيس هذا قيل للتاريخ
ســبيل الله يا عطشـــان باسم الله (*)

بعد ذلك قام بتجديدها قائمقام غزة « رفعت بك الجركسى » سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧٠/١٨٧١ م) واليه تنسب الساقية للآن « ساقية الرفاعية » (٩٦) حيث قام بتسخير العديد لاعمارها من الناس المسنين ومستقطعا الأموال من الناس بطريقة وصفت « بالشدة وكلفهم بالدفع خارجا وداخلا » وسجل عليها ابياتا من الشعر تنم عن الركاكة والتكلف جاء فيها : (صور ١٥٣ ـ ١٥٤) ·

بيـــارة (*) تمت على أعلى نظـــام   رفعت بك شـــادها القائمقـــام
لما انتهى تعميرها تاريخهـــا   زها ابتهاجا فادخلوها بسلام (٩٧)

ثم قام بتعميرها السلطان عبد الحميد الثانى وأضاف اليها « سبيل ماء » على الشارع فى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٠٠ م) كما جاء على بلاطة رخامية وضعت أسفل قوس الجدار ·

ثم جرى عليها آخر صيانة سنة ١٣٣٢ قبيل الحرب العالمية الأولى حيث مازال الجدار الخارجى قائما للآن أما البئر والساقيـــة فقد اندثرا وأصبحت الأرض الآن تحتلها المدارس ·

حى الزيتون

وهو مكمل لحى الدرج السابق من الناحية الجنوبية ولا يفصله عنه سوى الاسم فقط فالاتصال العمرانى بينهما يمثل كتله عمرانية ملتحمة ويقع بطبيعة الحال فوق تلة المدينة القديمة. وقد اشتمل على الخطوط التالية كما جاء فى الوثائق الشرعية (٩٨) ·

---

(٩٦) عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١٨٤ « غير مطبوع »·

(★) يوجد هذا الحجر المسجل عليه هذه الأبيات أعلا عتب غرفة بالطابق العلوى « لمدرسة البلدية » بشارع عمر المختار بغزة وهى مهجورة الآن ·

(★) بيارة : نسبة للبئر الذى يروى مساحة من الأرض مزروعة بالخضار والفواكه أما الآن فتعنى الأرض الواسعة المزراعة غالبا بأشجار الحمضيات وتسقى بمياه الآبار ·

(٩٧) عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة ـ المرجع السابق ص ١١٨ ·

(٩٨) د· عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٢٤ ·

اسم الخط (الشارع)	ملاحظات
خط مسجد ولى الله الشيخ عثمان قشقار	مازال موجودا
خط الكمالية	نسبة لجامع الكمالية ويطلق عليه الآن اسم « مسـجد العجمى الجديد »
خط الحضر	أى حى الحضر الذى هو جزء من حى الزيتون .
خط بوابة اولاد شبير	
خط ولى الله الشيخ عطيه	ويقع بخط مسجد ولى الله عثمان قشقار السابق الذكر .
خط مسجد الشمعة	ويقع فى نفس خط الشيخ عطية ومسجد قشقار وهو مازال موجودا .
خط مسجد ولى الله الشيخ كاتب ال	مازال موجودا .
خط مسجد ولى الله الشيخ محمد البطل	لقد اندثر وهو بنفس خط مسجد قشقار
خط جامع باب الدروب	اندثر واقيم فوقه جامع صلاح الدين الحالى .
خط ساقية القيدة	تقع أسفل سفح المدينة الجنوبى .
خط الشيخ الياس	اندثر مسجده ويقع على أسفل سفح المدينة الجنوبى الشرقى .
خط مسجد ولى الله الشيخ محمد العجمى	مازال موجودا .
خط مسجد الشيخ أبى ركاب	موجودة بقاياه وهو خرب الآن .
خط مسجد الشيخ الصيحانى	
خط آل رضوان	
خط بوابة عليط	
خط دار شرير	اسم عائلة تسكن الحى .
خط مسجد ولى الله الشيخ عمر	
خط مسجد الوزيرى	مازال قائما وقد ازيل جزء منه عند شق شارع عمر المختار فى نهاية الفترة العثمانية على يد جمال باشا » .

وتعتبر « محلة الحضر » أيضا ضمن هذا الحى لكنهـا شـوارع تميزت بسكنى الطبقة التجارية من الناس الذين يتمتعون بحياة حضرية داخل المدينة فأطلق السكان على ساكنى هذه الشوارع « محلة الحضر » وتتألف من الخطوط التالية (٩٩) .

(٩٩) د. عبد الكريم رافق ص ٢٤ .

اسم الخط (الشارع)	ملاحظـــات
خط حمام السمرة	مازال قائما فى الحى .
خط مسجد كاتب الأولياء	مازال موجودا وقد ورد ذكره ضمن حى الزيتون
خط مسجد الشيخ ركاب	ورد ذكره بحى الزيتون
خط سوق الخضر	ورد فى حى الزيتون .
خط معصرة أولاد مكى	اندثرت .

تكرار هذه التسميات فى الخطوط دلالة قاطعة على وحـدة المبنى للحى وما تسمية « حى الحضر » الا للدلالة على عدة شوارع يسكنها هؤلاء الناس فى قلب المدينة التجارى وبالقرب من حوانيتهم فنالوا قسطاً من الثراء .

وهكذا نالت معظم الخطوط (الشوارع) أسماءها من المساجد والجوامع كمراكز اشعاع دينى وثقافى رصنع قلب المدينة العامرة وقد بلغ تعدادها حتى الستينات الأولى للقرن التاسع عشر اثنى عشر جامعاً ومسجداً اندثر منها ستة مساجد .

وتوسط الحى حمام واحد . (انظر خريطة ٣٠) .

وفى وسط هذا الحى توجد كنيسة « برفيريوس » التى أعيد ترميمها على يد تاجر سنة ١٨٥٦ م يدعى جورج بك أيوب حضر من مصر فجدد زينتها وزخرفتها (١٠٠) والتى تم أنشاؤها فى القرن الخامس الميلادى . وفى نهاية ص ٤١٥ .

القرن التاسع عشر تم بناء كنيسة دير اللاتين أنشأها الراهب النمساوى الهرجات سنة ١٨٧٩ م فى « خط الكمالية » كما تم بناء كنيسة أخرى « كنيسة البروتستانت » وقد أسستها الارسالية التبشيرية الانجليزية سنة ١٨٩٣ م التى

(١٠٠) عثمان الطباع ــ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ــ المرجع السابق ص ١٨٢ .

أقامت حولها مستشفى أطلق عليه « المستشفى الانجليزى » (المستشفى الأهلى الآن) عند الطرف الغربى من الحى ٠

وقد ورد ذكر « سبيل واحد » بالحى يدعى « سبيل سوق الخضر »(١٠١)٠

أما بالنسبة للمرافق الاقتصادية بالحى فهى كما ذكرنا تقع وسط المدينة القديمة وعليه فهو يمثل قمة النشاط والحركة التجارية مكملا بالتالى لأسواق وخانات حى الدرج ، وقد جاء ذكر الأسواق التالية فيه :

ـ خان الزيت :

وهو من أشهر أسواق المدينة القديمة فهو « الرباط المنصـورى » القديم ومن ثم أصبح « خان » ينزل فيه التجار والمسافرون لعقد صفقاتهم الجارية وأصبح فيما بعد ضمن أوقاف آل رضوان وقد هدم فى ستينات هذا القرن ٠

وكثيرا ما ذكره الرحالة والمسافرون ٠

ـ خان الجمالى : ويقع بخط سوق الخضر ٠

ـ سوق السراجين : وما زال هذا الشارع يحمل نفس الاسم وان اختلفت الوظيفة « سوق السروجية » ٠

ـ سوق الخضر : وهذا السوق ما زال فى وسط المدينة يحمل نفس الاسم ٠

ـ سوق الحمير : وكان يقع فى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة ٠

ـ معصرة أولاد مكى : كانت توجد بمحلة الحضر وقد اندثرت ٠

ـ معصرة الحاج حسن البورنه (البورنو) بخط الشيخ عطية وقد اندثرت٠

ونظرا لشهرة هذا الحى بزراعة أشجار الزيتون التى تنتشر الى الجنوب من المدينة والتى ما زالت مساحة شاسعة حتى اليوم تغطى أرضها هذه الأشجار لذا تميز عن غيره من الأحياء بأنتشار معاصر زيت الزيتون « ألبد » فقد جاء فى الوثائق ألبدود التالية (١٠٢) :

---

(١٠١) د ٠ عبد الكريم رافق ـ ص ٢٨ ٠

(١٠٢) د ٠ عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٥٦ ٠

- بد أولاد شرير

- بد بخط البطل

- بد زايد بمنطقة الخربة

وهكذا استغرقت التجارة ممثلة فى الخانات والأسواق ومعها الصناعة التحويلية من معاصر وبدود وصناعة الفخار والصابون معظم مؤسسات المدينة داخل حى الدرج والزيتون ، ففى هذه المنطقة نبض الحياة الاقتصادية بجميع فروعها .

حى التفاح « التفين »

وهو حى جديد تمحور حول مسجده « الشيخ الأيبكى » السابق الذكر ويحد المدينة القديمة من جهة الشمال ويقع على أرض سهلية منبسطة كانت مزروعة بأشجار التفاح « حكر التفاح » وقد ضم الخطوط التالية (١٠٣) وفقا لما جاء فى الوثائق حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى .

اسم الخط (الشارع)	ملاحظات
خط جامع الشيخ عبد الله الايبكى	مازال هذا الجامع قائما حتى الآن فى وسط الحى .
خط جامع السكة	اندثر
خط ولى الله تعالى الشيخ عبد الرحمن بن سلطان	بنى فوقه مسجد
خط جامع القهوة	اندثر
خط جامع السدرة	مازال موجودا
خط المعصرة	اندثر
خط الجماقية	اندثرت « الجماقية »
خط القاعات	ربما قاعات للحياكة
خط زقاق الشرفا	اسم عائلة ماتزال تعيش فى الحى

هكذا كانت الجوامع والمساجد هى العامل المشجع للحياة الحضرية والاستقرار البشرى ليس وسط المدينة القديم فحسب بل وفى أحيائها الجديدة .

---

(١٠٣) د . عبد الكريم رافق ص ٢٤ .

ويعتبر هذا الحى من أصغر أحياء المدينة كما يبدو من خطوطه وعـدد مساجده التى تصل لأربعة كما فى الوثائق علما بأن هناك أهم جامع للحى لم تذاكره الوثائق وهى كما ذكرنا ليست معطياتها تامة ـ ألا وهو جامع على بن مروان الذى استمر خالدا يصلى فيه حتى اليوم وكذلك « مسجد الجولانى » عند أقصى طرف الحى الشمالى الشرقى وبذا يكون عدد مساجد الحى ستة اندثر منها اثنان ·

وبهذا الحى كانت توجد « الأجمقية » وهى « سبيل ماء » كانت تغطى احتياجات حى التفاح وحى الشجاعية الجديدة من مياه الشرب واستمرت تواصل خدماتها حتى نهاية الفترة العثمانية الا أنها اندثرت فيما بعد

ولم يكن بهذا الحى على ما يبدو أية أسواق أو حمامات فكان يستمد جميع مستلزماته من « فوق المدينة » حيث يغلب عليه الطابع الريفى فقـد ذكرت « الوثائق الشرعية » ان بالحى حارة تدعى « حارة الجمالة » نسبة لاقتناء ساكنيها أو معظمهم « الإبل » لاستخدامها إما فى الفلاحة و كوسيلة للنقل بين المدينة وقراها تنقل منتوجاتهم الزراعية للمدينة وترد لهم صناعات المدينة وبضائعها من سلع استهلاكية ضرورية · (أنظر خريطة ٣٠) ·

واجمالا نجد أن بمدينة غزة وأحيائها تسعا وأربعين جامعا ومسجدا اندثر منها ثلاثة وعشرون مسجدا وجامعا أى أقل قليلا من نصفها · استحوذت المدينة القديمة الأم (فوق المدينة) المشتملة على حى الدرج والزيتون بثلاثة وثلاثين مسجدا أى بما يعادل ٣ر٦٧٪ من جميع مساجد المدينة بأحيائها الجديدة فى حين بلغت مساجد وجوامع حى الشجاعية بقسميه (الجديدة والتركمان) وحى التفاح بسبعة عشر مسجدا وجامعا أى بما يعادل ٧ر٣٢٪ من مساجد وجوامع المدينة ·

وبحكم التقادم وتعرض المدينة التلية القديمة لكثير من الطرقات الحربية كقاعدة للحكم والادارة والجيش وأعمال الهـدم المتعمدة فقد تعرض الكثير من مؤسساتها الدينية للهدم فبلغ ما اندثر من جوامعها ومساجدها تسعة عشر بنسبة ٦ر٨٢٪ من مجموع الجوامع والمساجد المندثرة ·

ولو أضفنا لعدد الجوامع والمساجد أربع زوايا (الأحمدية ـ المغاربة ـ الهنود ـ أبو مدين الغوث) لأصبح هناك ٥٣ مؤسسة دينية فى المدينة كلها نتوزع على نواحى المدينة المختلفة · ووفقا لتعداد سكان المدينة الذى قدر بنحو ٧ آلاف نسمة فى خمسينات القرن التاسـع عشر (١٨٥٧ م) ووفقا لما ذكره طمسون منهم ٥٠٠ نسمة من ديانات أخرى وسيكون نصيب الجامع نحو

مائة واثنين وعشرين شخصا دون أن نحذف رقم الأطفال · ومع افتراض مساحة الجوامع والمساجد والزوايا تقدر بنحو ١٣٢٥٠ (*) مترا مربعا (وعلى افتراض أن متوسط مساحة الجامع والمسجد والزاوية ٢٥٠ م٢) فسيصل نصيب المصلى الواحد ـ مع خصم ⅓ السكان كأطفال الى ٦ أمتار تقريبا ·

ازداد عدد السكان حتى وصل الى ثلاثين ألفا قبيل الحرب العالمية الأولى وبقيت هذه الجوامع والمساجد على حالها وقد ورثتها جميعا من العصر المملوكى باستثناء جامع السيد هاشم وجامع البطل الذى اندثر ومسجد الغزالى بالشجاعية الجديدة ·

وقد وصل عدد الكنائس بالمدينة مع نهاية القرن التاسع عشر الى ثلاث كنائس وعدد العرب المسيحيين سبعمائة وخمسون نسمة (روم وأرثوذكس ـ وبروتستانت ـ كاثوليك) ·

أما بالنسبة للمؤسسات الصحية مثل الحمامات فلم يرد ذكر أكثر من ثلاث حمامات بالمدينة بالشجاعية والزيتون والدرج أى بمعدل حمام واحد لكل حى وهى نسبة ضئيلة ربما تعكس قلة مصادر المياه داخل المدينة خاصة وأن الأسبلة قد تضاءل عددها بشكل كبير اذا ما قارناه بالرقم الذى أورده « جلبى » فى منتصف القرن السابع عشر ·

ولعل ما تعهد به أحد أبناء المدينة من تقديم « ألف قربة » ماء كل سنة لجامع كاتب الأولياء فى شهر أغسطس سنة ١٨٦٠ (١٠٤) أى بمعدل « ثلاث قرب » فى اليوم لجامع يقع فى منتصف « حى الحضر » المكتظ بالسكان الذين يتمتعون بمستوى معيشى مرتفع اذا ما قورن ببقية الأحياء تعتبر هذه الكمية من المياه ضئيلة جدا خاصة لو علمنا أن كل « ٢٥ قربة ماء » تعادل كمية مياهها متر مكعب من الماء ·

وقد استمر الرجل « السقا » يحمل على ظهره قربته كوسيلة وحيدة لتوزيع المياه على المنازل والمساجد حتى قيام الحرب العالمية الأولى داخل مدينة غزة وأحيانا تحمل المياه الدواب فى جرار فخارية ·

أما بالنسبة لمراكز الاستقرار البشرى على ساحل المدينة فقد استوطن قلة من السكان حول أضرحة أولياء الله الصالحين حول الشيخ عجلين السابق الذكر فأصبحت هناك أشبه بقرية صغيرة تدعى « الشيخ عجلين » ·

والى الشمال منها وقبالة مدينة غزة مباشرة هناك سكان التفوا حول ضريح « الشيخ حسن » الواقع بالقرب من ميناء المدينة « والكرنتينة البحرية » التى

(*) أخذت هذه المعدلات وفقا لدراسة مساحة معظم الجوامع والمساجد ·

(١٠٤) د · عبد الكريم رافق ـ ص ٣١ ·

أقامها السلطان عبد المجيد ويقع بالقرب من الشيخ حسن منطقة أثرية كانت تسمى « القيشاني » في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٥ م) (١٠٥) .

كذلك الحال بالنسبة لمنطقة « الشيخ رضوان » حيث سكن بعض الناس حول مقامه التي الحقت به مدرسة سبق ان تحدثنا عنها وقد دكت قنابل السفن البحرية البريطانية في الحرب العالمية الأولى هذا المقام ولم يبق له أثر سوى الضريح فقط .

« ضاحية المشاهرة »

من ضواحي مدينة غزة الشمالية والواقعة جنوب جباليا اعتمدت في حياتها على الزراعة وكان أغلبها من أشجار الزيتون وكان بها « بد » لعصر الزيتون في سنة ١٨٥٨ م (١٠٦) . وقد وصفتها بعثة غرب فلسطين سنة ١٨٧٥ م بأنها قرية صغيرة أو ضاحية من ضواحي غزة تقع وسط أرض سهلية زراعية خصبة تحيط بها الحدائق والبيارات التي تروى بمياه الآبار الواقعة الى الشمال والغرب منها وهي « بئر بيارة البقارة » « وبئر بيارة الغباري » وبئر بيارة الوحاحشه (١٠٧) . ويقال لها « نزلة المشاهرة » (*) نظراً لانخفاض فوقها بالنسبة للنازل من فوق المدينة التلية القديمة (غزة) . وأخذ العمران يمتد الى شمالها نظرا لازدياد أعداد السكان ، فأصبحت المنطقة العمرانية التي أنبتتها المشاهرة تسمى « سكنة الزرقا » التي لاحق عمرانها قرية جباليا .

الوحدة المعمارية

نمطها الانشائي والعمراني والعوامل المؤثرة فيها

ان أهم ما يسترعى انتباه الناظر لمدينة غزة كتلتها السكنية المتراصة والملتحمة أحياؤها مع بعضها البعض فوق التلة المرتفعة (الدرج وحي الزيتون) القديمة فتحتشد بيوتها بشكل لا يسمح في الغالب الأعم بوجود فراغ أو مسافات ارتداد بين كل منزل وآخر وهذا النظام هيأ عنصر التضامن والتكافل فجعل المدينة أشبه بقلعة حصينة يسهل الدفاع عنها ضد غوائل الزمن وكان استجابة لعنصر الأمن وكذا الروابط الاجتماعية فيما بين الأسر ، فغالبا ما يقطن الشارع

(١٠٥) S.W.P., Vol. 5, Ibid, p. 233.

(١٠٦) د . عبد الكريم رافق ص ٥٩ .

(١٠٧) S.W.P. Vol. 3, p. 236.

(*) يقال انه نزل بها السيد صالح البلاسي وهو في رحلته من العراق لمصر ثم تركها واقام بها ابن عمه الشيخ شهاب الدين البلاسي الشريف الحسني وصار اتباعه يضعون العمامة الخضراء على رؤوسهم (عثمان الطباع ـ اتحاف الأعزة ـ ص ١٤٨ .

الواحد عائلة واحدة تتوزع على طول الشارع فى عدة منازل متجاورة لبعضها البعض حتى ليطلق عليها « حارة » العائلة نفسها كما لمسنا ذلك فى تسميات العديد من شوارع أحياء المدينة ٠

وتميزت شوارع المدينة بضيقها (ما بين متر ومتر ونصف عرضا) واعوجاجها بشكل لا يسمح معه لسير أكثر من رجلين يمشيان جنبا لجنب أو لرجل واحد يركب دابته ٠

ومن الشوارع ما كانت أجزاء منه « معقودة » أى تشبه بناية « القيسارية » كما هو الحال فى « سباط المفتى » بحى الدرج مستغلين الأجزاء المسقوفة من الشارع والتى هى أشبه ما تكون « بالكوبرى » فى بناء غرفة فوقها « صورة ٠٠٠٠٠ » ٠

هذا الضيق والاعوجاج للشارع لا يمنح العربات الحربية فى أوقات الحرب من حرية الحركة داخلها أو حتى السماح لها بدخوله أحيانا (الزقاق) وفى الوقت نفسه يمنع من دخول الأتربة وتوغلها داخل الشارع عندما تذروها الرياح مثل رياح الخماسين كما تحد من سرعتها لتعرجها فتصل للشارع معتدلة الحرارة ٠ كما ان لضيقها واعوجاجها أثره فى أنها تصبح ظليلة تلطف من حرارة الصيف وتساعد المشاه على السير والتجوال داخل الأحياء ٠

ومن شوارع المدينة ما كان مفتوحا على غيره يطلق عليه فى « الوقفيات والحجج الشرعية » بالطريق السالك ٠ ومنها ما كان مسدودا « غير نافذ » وهذه عوامل مشجعة لسكناه وسعره فموقع المنزل على الطريق السالك يعطيه الأولوية فى السكن وفى السعر المرتفع عند بيعه ٠

وغالبا ما كانت المساجد والجوامع تحدد اتجاه الشارع حيث كانت تقع عند بداية الشارع وأحيانا عند نهايته أو فى منتصفه ٠ كما هو الحال فى أحياء الشجاعية والدرج والزيتون والتفاح ٠ لذا كانت جميعا عاملا مشجعا على استمرارية سكنى المدينة فالعلاقة وطيدة بين الدين والمدينة منذ أقدم العصور فالدين لا يمارس بحق الا داخل المدينة ففيه تقام صلاة الجمعة « والجمعة من التجمع » والتشتت والتباعد العمرانى يؤدى الى التهاون والابتعاد فالمسجد أول أساس يتم فى المدينة الاسلامية الجديدة (١٠٨) ٠

ولعل وصف « منزل » كوحدة أساسية ونواة أولى للحى ومن ثم للمدينة يوضح نمط هذا العمران والعوامل المؤثرة فيه ٠

فقد جاء فى « وقفية » موسى باشا آل رضوان متصرف مدينة غزة والمسجلة بالقدس سنة ١٠٨١ هـ (١٦٦١ م) وصف لمنزل ٠ قد أوقفه المذكور يقع فى

(١٠٨) جمال حمدان ــ جغرافية المدن ــ القاهرة ــ بدون تاريخ ص ٣٢٧ ٠

« حى البرجلية » الذى هو جزء من حى الدرج ونعتبره من « منازل » الأمراء وصف مكوناته كالتالى :

« جميع الدار العامرة القايمة البنا الكاينة بمحلة البرجلية داخل مدينة غزة هاشم بشارع بنى عامر (*) المشتملة على بيوت وايوان ومطبخ معقودات بالحجر والشيد وساحة سماوية مفروش أرضها بالرخام والبلاط المحكم ومقر علوى بقبة بالجهة القبلية منها وايوان ملاحق له معقودين بالحجر والشيد وتجاههما حضير يصعد الى ذلك من سلم حجر معقود بالحجر والشيد ومقعد براني وايوان ملاصق له معقودين بالحجر والشيد وساحة سماوية تجاههما من جهة القبلية والشرقية واصطبلين وبيرين معدين لخزن الغلال أحدهما بالايوان والآخر بالساحة ، وأرضه ملاصقة لدهليز الباب المتوصل منه معقودين بالحجر والشيد » . (صورة ١٥٤ ــ ١٥٥) .

ولقد حافظ هذا النمط العمرانى السكنى على شكله ووظائفه حتى بعد قرنين من الزمان فقد جاء فى أحد الوثائق الشرعية الغزية وصفا لمنزل سنة ١٨٥٧ م تم بيعه فى نفس الحى « البرجلية » كالتالى :

« قاعتين عقد وثلاثة بيوت (غرف) مسقفات بالخشب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلمين من الحجر أحدهما يوصل الى قصر معقد بالحجر والجير وايوان «وأوضفة» مسقفة بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة (دورة مياه) عقد والسلم الثانى موصل الى حضير فقط » . (أنظر للرسم التخطيطى للمنزل ٣١) .

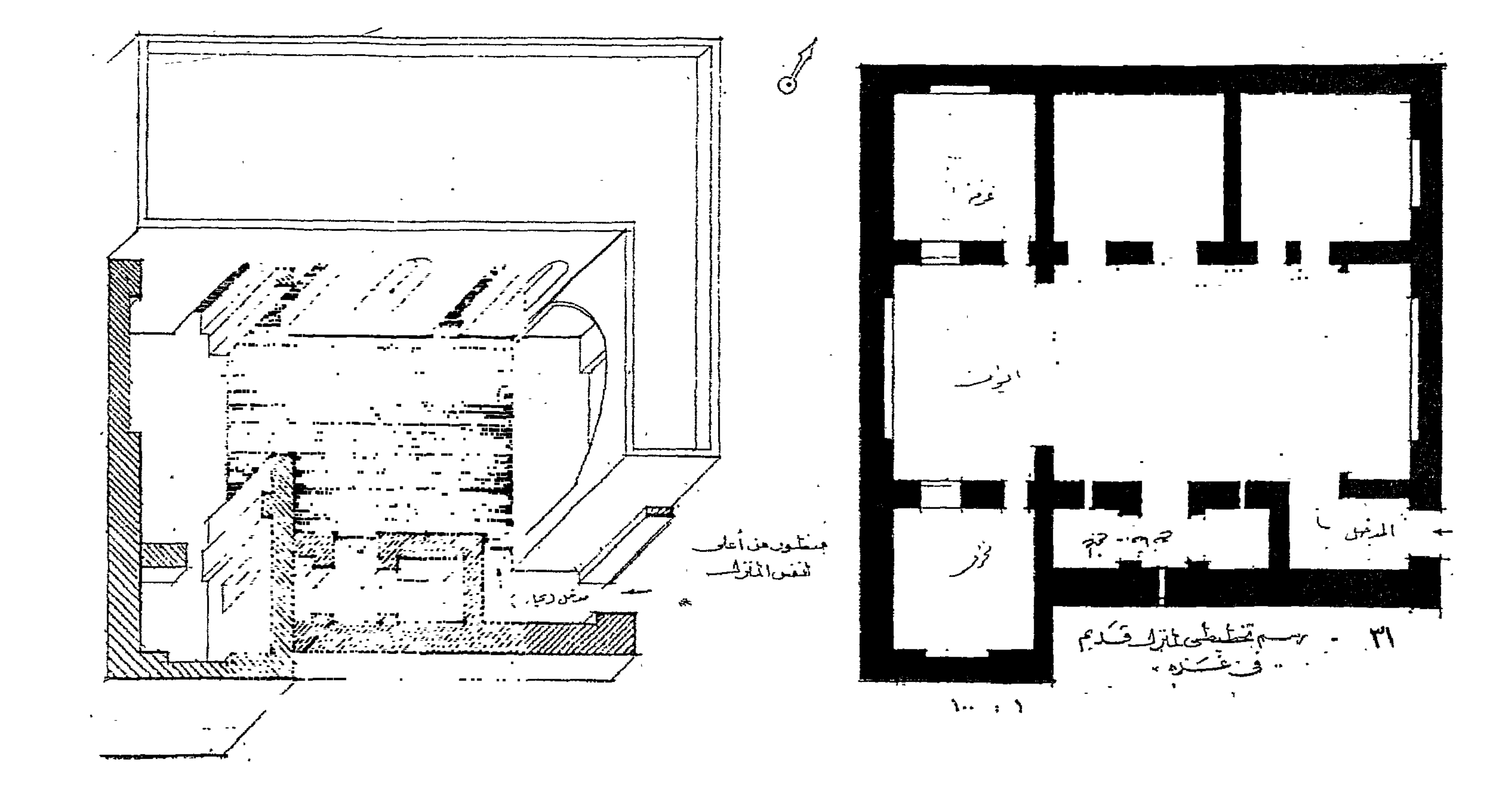
ولهذا المنزل بابان أحدهما « جوانى » يفتح على زقاق سد أى غير نافذ والآخر « برانى » يفتح على طريق سالك .

وقد بيع هذا المنزل بمبلغ ٢٤٠٠٠ قرش أسدى وهو أغلى منزل بيع فى ذلك العقد من خمسينات القرن التاسع عشر فى غزة (١٠٩) .

وفى عام ١٨٦٠ م تم بيع منزل بحى الشجاعية بشارع « مسجد السمت رقية » جاء فى وصفه « المشتمل على بيتين (غرفتين) وخزانه ومطبخ مسقفات بالأخشاب وساحة سماوية » .

كما جاء ذكر أصغر بيت بيع بحى الشجاعية الجديدة بشارع جامع المحكمة فى سنة ١٨٦٠ م مكونا من « بيتا واحدا ضم غرفة وساحة سماوية » (١١٠) بيع بثمان مائة قرش .

(*) ورد الشارع هنا باسم بنى عامر ليؤكد انه جزء من حى البرجلية .
(١٠٩) د. عبد الكريم رافق ــ المرجع السابق ص ١٣ .
(١١٠) د. عبد الكريم رافق ص ١٨ ــ ٣٠ .



٣١ - رسم تخطيطي لمنزل قديم
في غزة

أما منازل بقية الأحياء الواقعة فى ظاهر المدينة (الشجاعية والتفاح) فكان أغلبها مبنيا من الطين عدا الجوامع والمساجد والحمامات والأسواق فقد كانت من الحجارة وكان البيت يشتمل على غرفة أو أكثر تبنى من الطين ومسقوفة بجذوع الأشجار وأغصانها ليوضع فوقها الطين وكانت البيوت تبنى على هيئة قاطرة أمامها عريشة وأحيانا يلحق بالبيت « بايكة » لخزن الغلال ومبيت الحيوانات وعلى مقربة من الغرف هذه يبنى « الفرن » أو « الطابون » فهو بمثابة المطبخ للمنزل الذى تقضى المرأة معظم وقتها اليومى بجواره تطهى الطعام وتعد الخبز ٠

من خلال مكونات كل منزل من هذه المنازل وتركيبه الوظيفى نلاحظ ان هناك عدة عوامل دينية واجتماعية ، مناخية ، وعسكرية قد تأثر بها العمران العربى داخل المدينة وبذل الانسان الفلسطينى جهدا لتطويعها وفقا لمقتضيات هذه الظروف جميعا وبيئته المحلية ٠

فمن الناحية الدينية والاجتماعية : —

نجد ان شكل المنزل الخارجى قد تم تصميم جدرانه الخارجية على هيئة جدار مرتفع مصمت يشرف على الشارع بفتحات ضيقة وصغيرة فى أعلاه وفى المنتصف السفلى الباب الرئيسى (البرانى) الذى يوصل لداخل المنزل بدهليز وملتو يسمح للمرأة بالتحرك فيه لو طرق طارق البيت دون أن يراها ، تماما كما يمنع الجدار الخارجى المرتفع الراجلة من الناس فى الشارع من رؤية من بداخل البيت بما يتناسب مع « حجاب المرأة » وعدم رؤية الآخرين لها وفقا للعوامل الدينية الحنيفة والعادات والتقاليد المتوارثة ٠

كما نلاحظ تعدد غرف المنزل الواحد أحيانا ويتألف من طابقين لكى يفى بتعدد أفراد الأسرة الواحدة المركبة التى يرغب الأب فيها من سكنى أولاده وزوجاتهم معه ٠ كما تبدو التأثيرات الريفية واضحة داخل المدن من وجود « الحضير » لتربية الدواجن ، والآبار المعدة لخزن الغلال فى كل منزل ٠

وجيولوجيا :

لعبت ظروف التكوينات الجيولوجية لمدينة غزة وما حولها فى تقديم جميع الخامات اللازمة للبناء قام باستغلالها واستثمارها العربى الفلسطينى فالى الشمال والشرق والجنوب الشرقى من مدينة غزة القديمة تنتشر تكوينات التربة الطينية التى استغلتها الطبقة الفقيرة من المواطنين فى جلبها من المكاشف الجيولوجية الطينية (المطينة) وصنع منها قوالب طينية مستطيلة الشكل بعد خلطها « بالتبن » لتزداد تماسكا ليبنى بها جدران منزله ٠

والى الشرق من نطاق التربة الطينية توجد تكوينات الحجر الرملى (الكركار) على هيئة حزان مرتفع (٦٥ — ٨٥ مترا فوق مستوى سطح البحر) وعلى طول

القطاع فأخذ الانسان العربى الفلسطينى فى تقطيع حجارته منها متوغلا فى بطن هذه التكوينات على هيئة « مغارة » حاول الاحتماء بها أثناء الخطر يطلق عليها « المحجار » حيث يأخذ حجارته الخام ثم يقوم بتشذيبها وفقا لاحتياجاته (الحجر البلدى) ليبنى بها منزله والذى غالبا ما يستخدمها الأغنياء فى المدينة كما هو الحال (فى حى الدرج والزيتون وأجزاء من الشجاعية) ٠

أما « الشيد » فقد استخلصه من « الحجر الجيرى » المنتشرة تكويناته غالبا الى الشرق من تكوينات الحجر الرملى والى الغرب من مدينة « بئر السبع » وفى منطقة جبال الخليل يقوم بحرقها فى « اللتون » ثم يضعها فى حفرة ليصب فوقها الماء (المصول) مستخلصا منها الجير ليمزجه بعد ذلك بالرماد (السكن) لتكون مادة يبنى بها الحجارة (قصرمل) ويبيض بها الجدران الداخلية للغرف ٠ وكثيرا ما كان يجلب بعض أمراء المدينة « والأفندية » حجارتهم من المنطقة الجبلية الوسطى يطلقون عليه (حجر قدسى) نسبة للقدس ٠

واستعانت العمارة الفلسطينية بكثير من الأعمدة الرخامية الاسلامية والرومانية والبيزنطية لتدعم بها الايوانات كما زينتها الحجارة ذات الزخارف الجصية بأساليبها العربية الاسلامية ٠ (صورة عمارة الزهراء) ٠

كما أدخلت بعض المصنوعات الفخارية مثل « الجرار والأباريق » فى عملية البناء فوضعت فى أسقف المنازل كما زينت بعض جدران الأسطح منها ٠ (الصورة رقم ١٥٥) ٠

ومناخيا :

لعبت عناصر المناخ التى تتنازعه المؤثرات الصحراوية جنوبا والبحر المتوسط صاحب الأمطار الاعصارية المتذبذبة فى كميتها دورا هاما فى تصميم المنزل فى المدينة فجميع المنازل الطينية فى الأحياء الفقيرة كانت أسطحها مستوية لا تسمح باستقرار المياه عليها ٠

فى حين نجد المنازل المبنية بالحجارة فى أحياء الدرج والزيتون وأجزاء من الشجاعية كانت ذات قباب تنزلق عليها مياه الأمطار وفى الوقت نفسه لا تكون عرضة لأشعة الشمس طول النهار ٠

كما أن وضع « الساحة السماوية » فى منتصف المنزل يتمشى مع الظروف المناخية القارية الى حد ما ويتفق مع المنطق العلمى فالهواء البارد يسقط أثناء الليل على أرضية هذه الساحة السماوية ليتسرب وفقا لثقله الى غرف النوم والايوانات المحيطة به فيعمل على تلطيفها مدة طويلة حتى اذا ما سخن بعضه ارتفع الى أعلى وخرج من الفتحات الضيقة أعلى الغرف ٠ وقد أثبتت الدراسات

العديدة صحة فكرة هذه « الساحة السماوية » أو « الصحن » فى البيت العربى الاسلامى (١١١) ٠

كما كان لندرة الأمطار وتذبذبها حرص الانسان الفلسطينى فى الحفاظ عليها فقام البعض بحفر آبار فى منتصف الساحة السماوية تقريبا لخزن مياه الأمطار به أثناء سقوطها عبر « المزراب » من فوق أسطح البيت ٠ كما حرصوا على بناء « مزيرة » لحفظ المياه بها أشبه بخزان يبنى غالبا أسفل السلم الحجرى الموصل للطابق العلوى ٠

هكذا كان النمط العمرانى للمنزل العربى الفلسطينى يفى بجميع متطلبات الانسان (غرفة نوم — مضيفة — مطبخ — بئر للغلال — بئر للماء أو مزيرة — بيت الراحة (دورة مياه) — فرن بايكة — اصطبل) يتفاوت بمكوناته هذه بتفاوت المستوى المعيشى داخل أحياء المدينة ٠

حافظت مدينة غزة وضواحيها على نمط عمرانها حتى بداية الحرب العالمية الأولى كما وصفها معظم الرحالة والدارسين والبعثات فى سنة ١٨٧٥ م وكما وصفها ٠ شوماخر سنة ١٨٨٦ م عندما ذكر بأن شوارعها نظيفة ولمنازلها (حى الدرج) مشربيات مفسراً ذلك بالتأثير المصرى على المدينة كما وصف حى الشجاعية بأن معظم مبانيه من الطين مجملا قوله بأن المدينة متأخرة عن ركب المدن المتحضرة الأخرى عشرون عاما !!! فقط ٠

ولم يطرأ على كتلة المدينة السكنية أية تغيرات تذكر حتى عام ١٩٠٧ م وعندما تم شق شارع يشطر المدينة من أقصى غربها (مقبرة ومسجد الشيخ شعبان أبى القرون) ٠ حتى أقصى شرقها وجرى تعبيده على يد جمال باشا فى سنة ١٩١٤ وأطلق عليه شارع « جمال باشا » (*) شارع عمر المختار الآن) ٠ وعلى أثر ذلك جرى هدم بيوت كثيرة من حى الحضر بالزيتون » وهدم منه أجزاء وأجزاء من « جامع الوزيرى » كذلك شطر « خان الزيت » وهدم منه أجزاء كثيرة ، وقد وصف المعاصرون ذلك بقولهم « قد لحق الناس ضرر وحزنوا حزنا شديدا — لأن الحكومة التركية لم تعوضهم » (١١٢) ٠

---

(١١١) مصطفى عباس الموسوى — العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية — منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد — ١٩٨٢ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ٠

(*) أطلق عليه المجلس البلدى لمدينة غزة سنة ١٩٢٨ اسم « شارع عمر المختار » تخليداً لبطولته ضد الايطاليين فأصبح قنصل ايطاليا فى فلسطين معتبرا ذلك « اهانة » فرد عليه رئيس بلديتها فهمى بك الحسينى بكتاب قائلا « اذا كان هذا العمل يعتبر اهانة فان ايطاليا قد أهانت نفسها باعدامها هذا الشيخ العربى (حلمى أبو شعبان) — تاريخ غزة نقد وتحليل — القدس — ١٩٤٣ ص ٥٥ — ٥٦ ٠

(١١٢) عثمان الطباع — اتحاف الأعزة — المرجع السابق ص ١٨٥ ٠

كما تعرضت المدينة وسكانها لأقصى وأقسى ما تتعرض له من كوارث ونكبات ما زال العديد من أبنائهما يتحدثون عنه فقد اجتاحهــا « الجراد » فى سنة ١٩١٤م من الشرق والشمال ليقضم كل أخضر بها • وتبعه فى العام التالى وفى سنة ١٩١٥ وباء الكوليرا الذى حصد العديد من سكانها •

وفى نفس العام نصبت الدولة العثمانية أعواد المشانق لمن فر من الخدمة العسكرية فى ثلاثة مواضع من المدينة شنقت على مرأى من الناس أربعة أشخاص أمام مسجد أبى العزم واثنين قبالة الجامع العمرى الكبير وسط المدينة وشنقت آخر عند طرف المدينة الغربى فى وضح النهار والناس متجمهرة حولهم •

وبعدها أتى رسول من جمال باشا يخبر أهالى غزة بأن مدينتهم أصبحت خطا حربيا وأمر أهلها بالرحيل عنها « خلال يومين ولو زحفا على الركب » وكل من تأخر يحرق هو وأمتعته وكان مناد ينادى بذلك ليلا على الناس •

فرحل الناس عن المدينة حتى غدا هذا الرحيل سجلا مستقرا فى أذهانهم يطلقون عليه « رحيل غزة » فاتجهوا شرقا شمال بئر السبع وشمالا نحو مدن فلسطين بعدها أخذ الجنود الأتراك فى هدم جميع المنازل المبنية من الطين وسحب أخشاب أسقفها لعمل المتاريس أو حرقهــا (الشجاعية ــ التفاح ــ وجنوب الزيتون) ليعود الناس بعد عامين ليجدوا معظم أحياء مدينتهم قد دمرت • سواء من العثمانيين أو قنابل جيش الحلفاء التى انهمرت على المدينة من البر والبحر فأصابت منازلها ومساجدها بالتدمير •

أما القرى الفلسطينية المحيطة بمدينة غزة ــ فقد لعبت المساجد وأضرحة أولياء الله الصالحين دورا بارزا فى استقطاب السكان وترسيخ تواجدهم فيهــا لاعتقادهم بصلاح هؤلاء وتبركهم بهم لمقامهم عند ربهم (الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) صدق الله العظيم ــ وببركتهم هذه يحرس الله لهم مقامهم ومن جاورهم من السكان • لذا فضل السكان الاستقرار والسكنى بالقرب من هذه الأضرحة والتى غالبا ما أقيم بالقرب منها جوامع أو مساجد تجمع السكان خمس مرات فى اليوم •

فقد كان لأهل مدينة يبنا اعتقــاد بالشـــيخ عوض الغزى بأنــه خفير البلاد (١١٣) فى سنة ٩٢٥ هـ •

وقد ورثت هذه القرى مواقعها ومواضعها فى الغالب من القرى العربية الكنعانية وارتبطت فى نشأتها بأسباب دينية وحربية فكثيرا ما نجد أسماءهــا تسبقها كلمة « بيت » أو « دير » أو اله من الآلهة ليأتى الاسلام فيعزز ويرسخ تواجدها بجوامعه ومساجده وقبائله •

(١١٣) نجم الدين الغزى ــ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ــ تحقيق د• جبرائيل جبور ــ الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨٧ •

فها هى قرية « بيت حانون » العربية القديمة يعمق بقاءها « مسجد النصر » رمزا وتخليدا لنصر المسلمين على الصليبيين فيها كما ذكرنا وقرية « بيت لاهيا » الكنعانية يحافظ الاسلام على تواجدها بزرع مساجد الشيخ سليم أبو مسلم والشيخ سعد فى أوائل أيام الدولة العثمانية لتلتف مبانى القرية حولهما وكذلك الحال فى أكبر قرى غزة الشمالية وهى قرية « جباليا » التى تجمعت مبانيها حول جامع برجس وأصبح جامعها الكبير ومقام الشيخ محمد المشيش مع بداية القرن الخامس الهجرى ٠

ونفس المكانة كانت لأضرحة أولياء الله فى منطقة شمال غرب غزة وفوق تلالها الرملية حيث تواجد ضريح « الشيخ رضوان » ومدرسته والى الغرب من غزة مباشرة وعلى ساحل بحرها ضريح الشيخ حسن الأغبر وفى جنوبها الغربى وفوق تلة مرتفعة هى أشبه بالجرف كان وما زال ضريح الشيخ عجلين فكانوا بالتالى نواة لتكوين قرى اندثر بعضها وبقى البعض ينمو السكان من حولهم بشكل كاد يفوق حدود القرية كما هو الحال فى منطقة الشيخ عجلين ٠ حتى حرص الرحالة من المسلمين ــ كما ذكرنا من قبل ــ على زيارة هذه الأضرحة عند مجيئهم لمدينة غزة ٠

أما جنوب مدينة غزة فقد جذبت هذه الأضرحة كثيرا من السكان كما هو الحال عند وادى غزة حول مقام الشيخ نبهان المتوفى سنة ٦٨٤ هـ كما جاء على قبره ٠ ومسجد الخضر فى دير البلح وضريح المغزا فى منطقة الدميثة (داثن) جنوب المغازى والشيخ عبيد وأبو جميزه فى منطقة خان يونس وهو أخو الشيخ نبهان السابق الذكر وهما ابنا الشيخ عزاز المدفون بجهة الصالحية بمصر ويمتون بصلة القربى بكل من الشيخ محمد البطاحى المدفون فوق تلة المنطار شرق غزة والشيخ رضوان (١١٤) السابق الذكر ٠ (خريطة رقم ٣٢) ٠

تماما كما أضفت القبائل العربية الاسلامية على مناطق استقرارها اسمها ، فكانت قرى خان يونس الشرقية وهى قرى بنى سهيلا وعبسان الكبيرة والصغيرة وقرية خزاعة وقرية معن ٠ حتى ليخيل اليك بأنها جميعا « قرى أضرحة » والتى كثيرا ما أقيمت حولها ليس قرى بل مدن بكاملها كما فى العراق ومصر وبقية الدول العربية أما رفح فانتشرت فيها « الخرب » كمناطق استقرار بشرية تعرضت للتخريب والاندثار كمنطقة حدية صحراوية فانتشرت فيها خربة مصبح وخربة العدس ودرهس ٠

أما النمط العمرانى والسكنى للقرية فنجد جامعها هو مركزها ومعلمها الجغرافى الثابت وهو الوحيد المبنى من الحجر تحيط به بيوتها الطينية المتجمعة

(١١٤) الشيخ عثمان الطباع ــ الشجرة الزكية ــ مخطوط ٠

خريطة (٣٢)

غزة وجنوبها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر

والمتكتلة كأنها بيت واحد ضمانا للأمن وقوة للدفاع اذا ما كدر صفوها معتد من الداخل أو الخارج ، تتخللها شوارع ضيقة معوجة تسمى فى الغالب اما باسم الجامع أو المسجد أو الضريح أو باسم أكثر العائلات سكنا فيه ٠

فها هى قرية جباليا بها شارعان فقط ورد ذكرهما فى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر وهما خط الجامع الكبير (جامع برجس) وخط الدرادنة (١١٥) نسبة لعائلة تسكن القرى للآن ٠

وللديوان أو « المقعد » وظيفة حيوية لأهل القرية يجتمعون فيه مساء كل يوم يناقشون قضاياهم الاجتماعية والاقتصادية وكل ما يتعلق بمشاكلهم للوصول الى أنسب الحلول بشكل جماعى ٠ وللديوان أيضا وظيفة « المضافة » يحتفون به بالزائرين أو الضيوف كل بقدر استطاعته ٠

والمنزل فى القرية يتألف من غرفة أو أكثر مبنية من الطين يزداد عددها أو ينقص وفقا للظروف الاقتصادية فى المقام الأول لرب الأسرة ثم عدد أفراد أسرته وتأخذ الغرف شكل القاطرة بجوار بعضها البعض وأمامها ساحة سماوية ويبنى بالقرب منها « الفرن » للطهى والخبز ويبنى فى البيت أحيانا « بايكة » هى بمثابة مخزن للغلال واصطبلا للحيوانات ٠ ويحاط المنزل بسور طينى له باب ٠

وبئر القرية هو الممول الوحيد لاحتياجات كل منزل من الماء ٠

وليس للقرية فى الغالب « سوق » فهى تسوق منتجاتها الزراعية لأقرب مدينة لها وهى غزة بالنسبة لقرى الشمال والشرق حيث يفدون لها فى يوم سوقها « سوق الجمعة » فى الطرف الجنوبى الشرقى من حى الشجاعية التركمان يشترون منه كل ما يحتاجونه من منتجات زراعية وصناعة أو مواش وأغنام ٠

أما قرى جنوب مدينة غزة فهناك « سوق الثلاثاء » فى دير البلح وسوق الأربعاء فى « خان يونس » « وسوق السبت » يعقد فى رفح ٠

وهذه الأسواق جميعا تقع فى أماكن مناسبة فى بعدها عن القرى القريبة منها بحيث لا تتعدى ثلاثة كيلو مترات عنها ٠

---

(١١٥) د٠ عبد الكريم رافق ــ ص ١٣ ٠

الفصل العشرون

البنية الاقتصادية

- اولا : الزراعــة
- ثانيا : الصناعة
- ثالثا : التجــارة



البنيــة الاقتصادية

يتألف البناء الاقتصادى فى الأرض الفلسطينية التابعة للدولة العثمانية ومن ضمنها غزة واقليمها الطبيعى الجغرافى من قاعدة أساسية تكاد تكـون وحيدة وهى « الزراعة » تفرعت منها وقامت عليها صناعات معاشية ترفيهيـة أصبحت فيما بعد استهلاكية بسيطة لتصـل فى نهايتها الصناعات تكميلية خادمة للاقتصاد الزراعى القاعدة سـدت احتياجات المنطقة الذاتية وفاضت لتدخل فى قائمة الصادرات وليعودوا بقيمتها بما يحتاجونه من واردات فكانت التجارة ٠

تلك ثلاثية الاقتصاد الغزى الفلسطينى فى غزة التى ســنتعرض لها بملامحها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى الحرب الكونيــة الأولى ٠

أولا : الزراعـــة

اعتمدت مدينة غزة واقليمها الطبيعى الواســع على الزراعة بصــفة رئيسية فهى بحق « سلة الخبز » الفلسطينى لتتعدى بانتاجها وشهرتها الى ما وراء البحار فيصدر شعيرها بالمقام الأول للعالم العربى والخارجى ثم قمحها وفواكهها ٠ كما زرع القطن شرق وشمال شرق غزة ٠

فقد أحيطت مدينة غزة بنطاقين زراعيين :

الأول نطاق زراعى معاشى يسور المدينة من جهاتها الأربع كالســوار الضيق الملتصق باليد وهو « نطاق السواقى » نطاق الزراعة الاقطاعية التى يتحكم فيها أمراء المدينة وحجابها ورجال السلطة المقربين ٠ وعلى الفلاح الذى يزرعها وتعتمد أساسا على زراعة الخضار والفواكه التى تخدم مالكها الاقطاعى فى المقام الأول وما يفيض يذهب للسوق المحلية وتعتمد هذه « السواقى » على مياه الآبار التى حفرت لها خصيصا ٠

وتعددت هذه السواقى فكانت فى حى الشجاعية « ساقية خليل » للشرق من حى التركمان « وساقية العدسية » (*) « وساقية سويد » للغرب من حى الشجاعية الجديدة ٠ « هذا فى حى الشجاعية الواقع الى الشرق من المدينــة

(★) أوقفها الشيخ أحمد بن الحاج محمد عدس سنة ١٢٨٢هـ والمتوفى سنة ١٣٠٢هـ ٠

« الأم (. والى الشمال منها في حي التفاح الممتلك لأراضي التفاح كانت تحده « ساقية قلفان » الواقعة الى الشمال مباشرة من أسوار المدينة وساقية شعبان وساقية حسن ، أما الى الجنوب من موضع المدينة فهناك حي الزيتون بزيتونه الشهير تحده « ساقية الزيتون » « وساقية القيده » وبركة بهرام التى أوقفها سنة ١٠٠٠ هـ . وساقية أم الليمون » « وساقية القصر » ولعل أسماءها تفصح عن زراعاتها .

اما في الجهة الغربية فهناك « ساقية الدرج » « وساقية الرفاعية » الواقعة بداخل مدينة غزة الأم .

فقد أسهمت هذه « السواقى » التى أوقفها الأمراء ورجال الحكم فيما بعد – في سد احتياجات المدينة واحيائها المحلية من خضار وفواكه في مساحة زراعية امتدت حول المدينة لمسافة تقدر بأربعة أميال شمالها وجنوبها وبنحو ٢ر٥ ميل الى الشرق والغرب أما النطاق الثانى ، فهو المتمثل في ظهير مدينة غزة السهلي الساحلي والذى وصل الى حده الأدنى مع سبعينات القرن التاسع عشر الميلادى فأصبح يمتد حتى المجدل شمالا ليضم احدى عشر قرية فقط (١١٦) . تمول مدينة غزة في الغالب بخضارها وفواكهها كما وصف من قبل طومسون سنة ١٨٥٧ (١١٧) وخاصة الزيتون الذى ترسله قرية جباليا». أما بقية القرى الشمالية هذه فكانت النزلة وبيت لاهيا وبيت حانون ودير اسنيد وهربيا وبيت دمره والجوزة وكان لكل قرية بئر واحد ترتوى منه .

أما قرى الجنوب فلم تذكر بعثة مسح غرب فلسطين سنة ١٨٧٥ م سوي دير البلح وشهرتها بأشجار النخيل (١١٨) .

في حين ذكرها « شوماخر » سنة ١٨٨٦م بأنها مزدهرة الزراعة تحيط بها أشجار النخيل « والبيارات » ذات الآبار الواقعة عند مدخل القرية الشمالي « بيارة أبو سته » وان معظم اراضيها مزروعة بالبطيخ والشمام ويزرعها عرب الحناجرة والملالحة والنصيرات بمساحة كبيرة تصل حتى « وادى غزة » شمال القرية كما يزرعون القمح والشعير والدخان والبقوليات مستخدمين وسائل رى أشبه ما تكون « برى الحياض » في مصر ، كما شاهد حادثة وهو في قرية دير البلح ربما تعكس دلالات اقتصادية معينة عندما منع أحد العساكر بدويا كان يطلب منه ضريبة العشر فصفعه البدوى وهرب مما دفع العسكرى

---

(١١٦) S.W.P. Vol. 3, Ibid, p. 233.

(١١٧) W. M. Thomson, Ibid, p. 547.

(١١٨) S.W.P. Vol. 3, Ibid, p. 248.

الى قتله وفر بعدها الى تكيته فهاج الأهالى وأخذوا العسكرى وسلموه لشيخ قبيلة الحناجرة الذى أمر بقتله فأرسل على أثر ذلك المتصرف حملة عسكرية قامت بحرق جميع مزروعات المنطقة (١١٩) • مما دفع هذه القبائل لتركهـا والتوجه جنوبا شرق منطقة « الشيخ حمودة » •

هذا يؤكد أولا أنه لم يعد هناك بداوة خالصة تعتمد على الرعى فقط بل ارتبطوا بالأرض وزرعوها •• كما تشير هذه الحادثة الى الضيق الاقتصادى وسوء أحوال المزارع التى لم يعد معها بقادر على دفع الضرائب وعدم قدرة السلطة على الانضباط الذى يؤكد الضعف والتهور فيحرق الأرض بما عليها ليترك أبناء الشعب بلا مورد خاصة « البدوى » الذى كان يأنف الزراعة والذى ربما ارتبط بها واحترفها لتردى الأحوال التجارية فى أواخر القرن التاسع عشر ومن ثم الاعتماد على ابله كوسـيلة للنقل أو الاعتماد عليه هو كدليل للقوافل التجارية فاتجه للارض •

والى الجنوب انتشرت أيضـا زراعة الخضـار والفواكه الى الشرق من خان يونس فى قرى بنى سهيلا وعبسان الصغيرة والكبيرة وخزاعة ومعن فزرع سكانها من عرب الحناجرة الحبوب والدخان والتين والنخيل وحفروا الآبار واعتمدوا على مياهها •

أما رفح وقراها فقد كان يسود غربها الرعى فى خربه مصبح وخربة العدس وأم الكلام ودرمس عرب الترابين فقط (١٢٠) •

أما الممول الرئيسى لمدينـة غزة فهى الأراضى الواسـعة الممتدة الى الشرق منها وحتى بئر السبع أرض القمح والشعير الذى تميز بشهرته الفائقة والذى أخذ فى الاضمحلال كما سنرى حيث بدأت الزراعة تنوء لمنافسة البضـائع الأوربية وانخفاض قيمة النقد العثمانى وفقدان مدينة غزة موقعها كممر تجارى وكميناء بحرى ومحطة لمحمل الحجاج بعد عام ١٨٨٥م فأصبحت على آخـر الطريق الشامى جنوبا بعد أن كانت حلقة وصل وذلك لسـيطرة الانجليز واحتلالهم لمصر وممرها المائى قناة السويس •

واستدعاء الدولة العثمانية لمعظم الشباب للانخراط بالعسكرية التركية وارسالهم الى جبهات القتال فى اليمن وأوربا وتسلط القلة القليلة من أبنـاء المتصرفين والأفندية والملتزمين على معظم الأراضى الزراعية مما جعل الفلاحين لا يقدرون على سداد ما عليهم فسلبت أراضى البعض ولم يقدر الآخرون الا على كفاف أنفسهم ساعدهم وخفف عنهم روح الأسرة المركبة التى يسودها التكافل

(١١٩) G. Schumacher, P.E.F., Ibid p. 178-180.

(١٢٠) G. Schumacher, ibid, p. 190-191.

فالكبير عليه العطف على الصغير وكذلك ما ورثوه من عادات وتقاليد كعادة « الرزقة » عندما يجتمعون فى « الديوان » للأكل جميعا بمساهمة كل فرد بما لديه وعادة « المنوحه » والتى بموجبها يقدمون الأغنام لمن لا أغنام عنده لكى يحلبها ويستفيد من البانها • كما يمنحون شجرة لأولئك الذين لا يملكون مزارع لكى يأكلوا من ثمارها • وتتجلى مساعدتهم لبعض فى عادة « العونة » حيث يهب الجميع لحراثة أراضى الغير كل بمحراثه لمن لا يملك القدرة بنفسه أن يحرث أرضه الواسعة •

حتى ديون أهل القرية كان سدادها جماعيا •

بروح التكافل والتضامن هذه استطاع الفلاح العربى الفلسطينى أن يخفف الى حد كبير من وطأة الفقر الذى اجتاح المنطقة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

فبعد أن كانت ثروات الشعب معظمها آت من الزراعة والتجارة كما فى بداية خمسينات القرن التاسع عشر وكما أوضحتها الدراسة القائمة على ثلاث وأربعين تركة من تركات ابناء غزة (١٢١) • نجد أنه بدأت فترة الضمور والتدهور الاقتصادى ممثلا خير تمثيل فى الزراعة مما أدى الى تدنى سعر الأرض التى هى عماد الفلاح الاقتصادى ورصيده المتمسك به تمسكه بحياته وشرفه ووطنيته « اللى ما له عطن ما له وطن » •

فقد بلغت قطعة من أرض زراعية بيعت فى مدينة غزة سنة ١٢٥٦ هـ مساحتها $\frac{٨}{٩}$ قيراط ألف قرش أسدى أى بما يعادل ألف ومائة وأحد عشر قرشا اسديا تقريبا للقيراط الواحد بأعها أحد أغوات المدينة أيام ابراهيم باشا • (وثيقة رقم •••) •

وفى عام ١٢٦٢ هـ بيعت قطعة أرض أخرى تقدر مساحتها بثلاثة ارباع قيراط فى حى الزيتون بمبلغ قدره سبعمائة وخمسون قرشا أسديا أى بما يعادل ألف قرش للقيراط الواحد • « وثيقة رقم ٩ == »

وعليه نجد أن قيمة الأرض فى هذه الفترة ان لم تكن قد احتفظت بسعرها فانها قد ارتفعت قليلا فى حين نجد التدهور بدأ يأخذ مجراه فى سبعينات هذا القرن لاضطراب الأمن وازدياد التدخل الأجنبى وسوء الأحوال الاقتصادية التى ربما عززتها الأزمة الاقتصادية العالمية فى هذه السبعينيات من القرن(١٢٢) حيث بيعت قطعة أرض زراعية مساحتها أربعة قرايط بمدينة غزة

---

(١٢١) د• عبد الكريم رافق ـ المرجع السابق ص ٦٥ •

(١٢٢) جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ـ ١٩٨١ ، ص ٢٥ •

سنة ١٢٨٨ هـ بمبلغ ألف وأربعمائة قرش أسدى أى بما يعـادل ثلاثمائة وخمسون قرشا للقيراط الواحد لتصل الى قمة التدنى وقد أخذ ثمانية وعشرين قرشا ضريبة على هذه الحجة من البيع أى بنسبة قدرها ٢٪ من قيمة الأرض ٠ وثيقة رقم ٠٠٠٠

وتفاقم الوضع الاقتصادى سوءا حتى هبط سعر الأرض الزراعية لحـد وصل معه فى عام ١٢٩٦ هـ ان تم شراء قطعة أرض بساقية أم الليمون بحى الزيتون مساحتها ١¾ قيراط بمبلغ ستمائة قرش أسدى ٠ أى بما يعـــادل ثلثمائة واثنان وأربعون قرشا للقيراط الواحد ٠

حتى وصل الحد بالفلاح أن يقدم أرضه للملتزم مجانا اذا ما حاول الأخير مطالبته بالعشر أو أى مبلغ من المال يريده ٠ ومن هذه الحقبة بدأ كثير من أسر الأغوات تفقد الكثير من أراضيها فى حين ظهرت طبقة جديدة من الملتزمين تسلب الأراضى بشراهة ونهم تارة بالكرباج ومرة أخرى بالتهديد والتخـويف وتارة بالتخجيل ولدي الأجداد والآباء وكثير من هذه القصص التى حاول فيها البعض امتلاك الآلاف بل عشرات الآلاف من الدونمات ٠

ثانيا : الصناعة

قامت الصناعات الغزية فى غالبيتها على الزراعة كمادة خام أساســـية بشقيها النباتى والحيوانى ، ومن ثم واكبت هذه الصناعات التحويليـــة فى معظمها مسيرة الزراعة وارتبطت بها لحد كبير صعودا وهبوطا وكان على رأس هذه الصناعات ٠

صناعة عصر الزيتون :

تصدرت صناعة عصر الزيتون لاستخراج زيته مكانة هامة فى مدينة غزة بل وفى جميع أرجاء فلسطين لقيمة هذه الشجرة المباركة التى تعدت القيمة الغذائية بل ودوائية ومادة وقود ٠ لا ينافسها الا القمح حتى أصبح كلاهما ــ القمح والزيت ــ ثنائية ينشدها كل بيت لضمان استقراره المعيشى وناموسا شعبيا يسعى الجميع لضمانه « عمارة البيت خبز وزيت » ٠ فانتشرت « البدود » لعصر الزيتون واستخراج زيته ، وبمنطق الجغرافيا تركزت معظمها كما لمسنا من قبل وفى خمسينات القرن التاسع عشر الأخيرة فى حى الزيتون وضاحيـة

غزة الشمالية « والمشاهرة » فحققت منه اكتفاء ذاتيا ثم فائضا تصدر منه لما يحولها خاصة الى مصر كما ذكر العديد من الرحالة وحتى أوائل القرن التاسع عشر •• واستمر تصدير غزة له في بداية القرن العشرين ولكننا لا نجزم بتلك الكمية التي كانت في العصر المملوكي أو حتى بداية العصر العثماني • فقد ذكر « ماير » أن معاصر غزة أصبحت تدار بطواحين بخارية سنة ١٩٠٥ (١٢٣) •

كذلك عملت « معاصر » غزة لاستخراج « السيرج » من السمسم وذلك للاكتفاء الذاتي داخل المدينة وقد جاء ذكر ست منها ما بين عامي ١٨٥٧ ـ ١٨٦١م نصفها تركز في « حي الشجاعية » كما ذكرنا من قبل •

صناعة الصابون :

انتعشت صناعة الصابون بمدينة غزة في أربعينات القرن التاسع عشر لوفرة « الزيت » مادة خامه الأولى • وانتشرت « المصابن » لذلك في قلب المدينة وحققت أرباحا جيدة ، فمن خلال دراستنا لبعض أوراق خاصة بمصبنة « أبو شعبان » سنة ١٢٦٠ هـ سجل فيها صاحبها جزءا من حساباته نجد أنه حقق أرباحا وصلت الى آلاف القروش (٩١٩١ قرشا) وهذا مبلغ لا يستهان به في حينه خاصة لو رجعنا الى قيمة الأرض في تلك الأيام والتي وصلت فيها الى أكثر قليلا من ألف قرش للقيراط الواحد •

كذلك نلمس حجم التعامل التجاري في « المصبنية » من خلال دراستنا للدخل الذي وصل الى ٨١٩١٠٤ قروش والخارج ٦٣٥٢٨٩ قرشا • كما سبق أن أوضحناه •

واستمرت هذه الصناعة كما اتضح بعضها على خريطة جات سنة ١٨٨٧ ومنها « مصبنة الباشا » وبقيت مع ما أصابها من الانكماش لمنافسة بعض الصناعات الأوربية صامدة في غزة ولكن للاكتفاء المحلي وأقل القليل يصدر للخارج حتى سنة ١٩٠٥م (أنظر خريطة ٣٣) •

أما صناعة النسيج : فقد واصلت غزة صناعة الملبوسات والبشاكير مستمدة خاماتها من القطن المزروع الى الشرق منها كما صنعت « الأعبية » والطواقي مستغلة أصواف الأغنام وأوبار الابل الموجودة في سوق الصوافين والغزالين بالمدينة لكنها لم تعد تلك الصناعة التي كانت ايام « اوليا جبلي » لا في كمها أو نوعها •

فقد ذكر طمسون سنة ١٨٥٧م أن بمدينة غزة مصنعا للنسيج يدار

(١٢٣) M.A. Meyer, Ibid, ibid p. 106.

بطاحونة بخارية (١٢٤) وتوزعت قاعات الحياكة فى خمسينات القرن التاسع عشر تعمل فيها نساء المدينة داخل أحياء الشجاعية والدرج والتفاح ٠

وبقيت المدينة تعمل فى صناعة الأكلمة الصوفية والأعبية حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث ظهرت ضمن قائمة صادراتها (١٢٥) ٠

وقد قامت على هذه الصناعة بعض محلات « الصباغة » تركزت معظمها فى سوق حى الشجاعية وفى حى « الدرج » عند « سدرة الخروبى » ٠

صناعة الفخار :

وهى أقدم الصناعات الفلسطينية التى اشتهرت بها مدينة غزة ومن قبلها « تل العجول » وللأسف لا يمكننا القول بأن هذه الصناعة بقيت على حالها للآن بل تراجعت فى نوعيتها على الرغم من كثرة استخداماتها داخل المدينة فى ذلك الوقت وللآن ٠

وكما ذكرنا فقد حافظت على موقع صناعتها الجغرافى بالنسبة للمدينة فبقيت عند حافة المدينة الغربية وفى « حى الدرج » حتى الآن وغطت بانتاجها معظم الجنوب الفلسطينى وحتى القدس واستمر الطلب عليها حتى بلغ ما فى المدينة « خمسون دولابا » لصناعتها فى عام ١٩٠٥ (١٢٦) ٠ وهى لليوم على حالها تحتاج الى التطوير ٠

صناعة الجلود :

ليست هناك احصاءات أو تقديرات محددة للثروة الحيوانية فى غزة الا أنها لعبت دورا هاما فى اقتصاد المدينة المعتمد فى أساسه على الزراعة ٠ كما جاء فى ثنايا الوثائق الشرعية الغزية (١٨٥٧ ـ ١٨٦١ م) ذكر الأماكن التى كانت تذبح فيها تلك الحيوانات (المسلخ) فى حى الدرج وحى الزيتون كما أبانت لنا فى الفترة ذاتها وجود « سوق الاسكافية » بحى الشجاعية حيث كانت تصنع الجلود ويتم دبغها لتصنع منهـا الأحذية وتقوم عليها صناعة « الغرابيـل » « والمناخل » والتى ظهرت ضمن قائمة الصادرات الغزية فى سنة ١٩٠٥ م (٢٧)٠

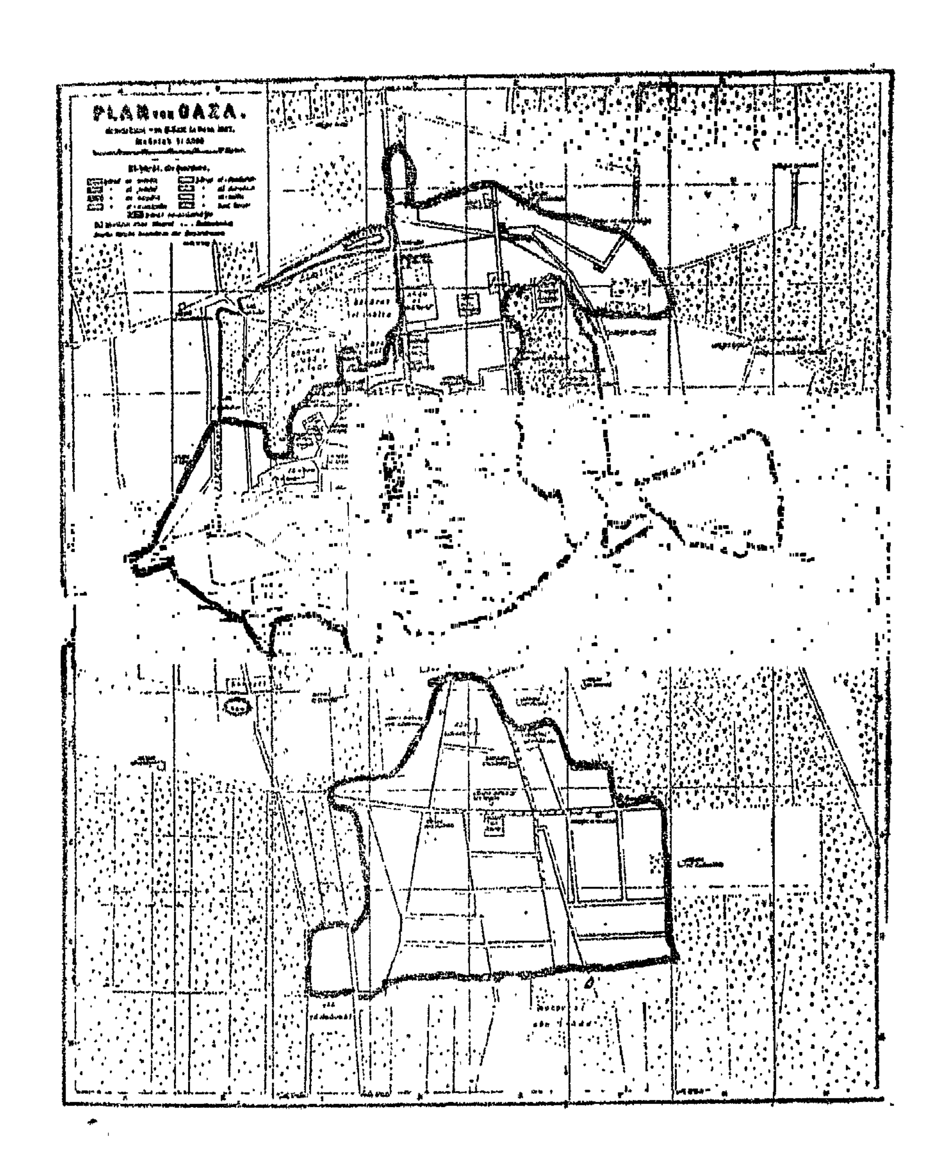
---

(١٢٤) W.M. Thomson, Ibid, p. 549.

(١٢٥) M. A. Meyer, ibid, p. 106.

(١٢٦) M.A. Meyer, ibid, p. 107.

(١٢٧) M. A. Meyer, ibid, p. 106-107.



خريطة (٣٣)

خريطة لمدينة غزة سنة ١٨٨٧م (خريطة بيدكر)

الا أن هذه الصناعات الغزية جميعا أخذت فى الاضمحلال كما وكيفا لمزاحمة الصناعات الأوربية لها فى نهاية الفترة العثمانية فأصبحت غزة كمـا سنرى تتدفق على أسواقها الأكلمة والبشاكير ومواد البناء والصابون والسكر وغيرها والتى معظمها تعتبر مصنوعات مثيلة لصناعاتها فانزوت الصناعات المحلية أمام منافستها هذه وأصبحت قاصرة فقط على سد حاجات الطبقة الفقيرة من المجتمع الغزى •

ولم تعد غزة تشارك الا بالنذر اليسير من صناعة المنسوجات والفخار كما يتضح ذلك من عدد العمال العاملين فى الصناعات الفلسطينية المختلفة سنة ١٩١٢ م (١٢٨) •

الصناعة	المدن الصناعية	عدد العمال
الخزف	القدس ـ الرملة ـ غزة	٢٥٩
النسيج	غزة ـ المجدل ـ القدس	٤٦٧
دبغ الجلود	الخليل ـ يافا ـ القدس	٠٨٢
البسط والسجاد	القدس ـ يافا	١٥٦
صناعة الزجاج	الخليل	٠٣٩
صناعة الصابون	نابلس	٦٠٠
المجموع		١٦٠٣

ثالثا : التجارة :

بقيت مدينة غزة محتفظة بمكانتها الاقتصادية كقاعدة تجارية ومتجر لظهير واسع من السهل الساحلى الفلسطينى معتمدة ليس فقط على مواردها الزراعية وصناعاتها القائمة عليها ، بل وعلى تجارة المرور فانتقلت أهميتها من دور المحلية والاقليمية لمجال أوسع شمل مناطق عربية واسلامية مجاورة وتعداها لما وراء البحار نحو أوربا • كما كان فى فترات من العصر الفرعونى الكنعانى والرومانى والنبطى ثم الاسلامى فى الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية لحد ما •

الا أن هذه المكانة وهذا الدور كميناء بحرى وقاعدةتجارية مرورية بدأت فى الذبول فى نهاية المرحلة العثمانية واتضحت عليها سمات الشيخوخة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القـــرن العشرين حيـث بدأت التجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة •

---

(١٢٨) محمد يونس الحسينى ـ التطور الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين العربية ـ القدس ١٩٤٦ ص ١٢٤ •

ففى عام ١٨٥٧ م كانت تجارة غزة كما وصفها طمسون « معتبرة » تصدر القمح والشعير والسمسم للأقطار العربية ولأوربا ولكن عن طريق ميناء يافا (١٢٩) ٠ واستوردت غزة فى سنة ١٨٥٨م الخيول والبازود من مصر ٠

وفى عام ١٨٦٠م استوردت غزة الذرة من الاسكندرية عن طريق البحر معبأ فى اكياس داخل كل كيس « ثلاثة وعشرين ربعا » عن طريق وكلائها المتواجدين بمدينة الاسكندرية ٠ كما استوردت الصوف من جدة بالجزيرة العربية وذلك عن طريق أمين التجار « جريس الظهر » بمدينة السويس لحساب « أحمد يوسف السقا » فى غزة ، والصوف مرسل للسيد « الحاج عمر زعيتى » بنابلس الا أنه فضل تسويقه فى مدينة غزة ، ربما لحاجة مدينة غزة له أو لارتفاع مستوى الحاجة عند الفرد وقدرته الشرائية داخل المدينة (١٣٠) ٠

ويرى الدكتور رافق من خلال دراسته لحوالى ثلاثة وأربعين تركة لرجال أعمال من مدينة غزة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٥٧ - ١٨٦١م أن ٣٠٪ منها كان أصحابها مثقلين بالديون كما بلغت نسبة الديون لبعض الحالات ٦٠٪ بالنسبة لمقدار ثروته الاجمالية والبعض منهم بلغت نسبة ديونه ١ر٤٤٪ من مقدرار ثروته الاجمالية ٠ ويرد ذلك للعقلية التجارية النشطة وذلك لقدرتها على توظيف الأموال بشكل مربح والاهتمام بسيولتها وعدم تجميدها وتخبئتها (١٣١) ٠

كما يعكس نوعا من التكافل الاجتماعى بين البائع والمستهلك أو يعكس ضعف المقدرة الشرائية لدى المواطنين الذين كانوا يتعاملون معهم ٠

ولم يبق لمدينة غزة سوى مصر ترسل اليها قمحها وشعيرها الجيد والتى وصف تجارتها الرائجة معها « شوماخر » سنة ١٨٨٦م ذاكرا أسواق المدينة بانها كبيرة ومتعددة المخازن على الرغم من أنه ينهى حديثه عن غزة بأنها متأخرة عشرين عاما عن مدن العالم ! (١٣٢) ٠

وان جاز هذا التأخر فان مرجعه للسياسة الأوربية التى بدأت تجتاح المنطقه بأسرها فالبريطانيون قد استولوا على مصر منذ عام ١٨٨٢م والبعثات المغرضة بدأت فى التسلل بحجة الدين والدراسة ومعها العديد من الشركات ينظر لها جميعا القناصل الموزعون فى عديد من المدن كما سبق ان ذكرنا مما

---

(١٢٩) W. M. Thomson, Ibid, p. 550.

(١٣٠) د٠ عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٠ ٠

(١٣١) د٠ عبد الكريم رافق - المرجع السابق ص ٦٥ ٠

(١٣٢) G. Schumacher, Ibid, p. 175-176.

أوقع الدولة العثمانية تحت تراكمات ثقيلة من الديون بدأت معهـا أعراض التفسخ تسم جميع مرافق الدولة الادارية منها والاقتصادية ٠

وفى عام ١٨٨٥م وجهت بريطانيا ضربة عنيفة للاقتصاد الغزى بالذات بأن قامت بتحريض المصريين الحجاج بعدم الذهاب للمدينة التى هى مركز تجمع محمل الحج وأمرتهم بالتوجه مباشرة لمدينة « السويس » ومنها الى مكة كمـا بدأ قناصل الدول الأجنبية وعلى رأسهم الانجليز والفرنسيين فى التكثف داخل مدن الأحداث وحول المناطق الحساسة الفلسطينية ، فسكنوا مدينة حيفـا التى بدأت تسلب دور مدينة عكا كميناء شمال فلسطين بعد أن تفجر ميناؤها سنة ١٨٤٠م على أثر قذيفة دمرت مخازن البارود من قبـل الأسـطول الانجليزى (١٣٣) ، وساعد على ازدهارها موقعها الخليجى تحت حماية جبل الكرمل من خلفها وانعشها اقامة شركتا « لويد » « والمساجيرى ماريتيم » سنة ١٨٥٠م محطات لها لنقل الركاب بالاضافة لتمتعها بظهير زراعى خصيب يضم سـهل مرج ابن عامر والجليل بامكاناتهم الزراعية من قطن وحبـوب وزيوت وصابون نابلسى ٠ فازدهرت الى حد ما حركة الصادرات والواردات مما دفع « ميزنى » صاحب كتاب « سبعة موانىء فى سوريا » الى احصاء مائة واثنين وستين سفينة فى ميناء حيفا معظمها يونانية (اثنان وثمانون سفينة) وفرنسية (أربع وعشرون سفينة) وتركية وانجليزية ـ من سردينيا وغيرها ، مقـدرا مكوسهما بنحو ستمائة ألف قرش كما ذكر بأن ميناء يافا قد استأثر ببضائع ومنتوجات المناطق الوسطى والجنوبية من فلسطين وتصديرها للخارج (١٣٤) حتى أصبح ميناء يافا الميناء الفلسطينى الأول مع مطلع تسعينات القرن التاسع عشر فى تلقى صادرات وواردات البلاد ٠

فقد كتب المستر « ديكسن » قنصل انجلترا فى القدس الشريف يصف تجارة فلسطين بقوله انها اتسعت نطاقا فى العامين الأخرين (١٨٩٠ ـ ١٨٩١م) وان قيمة الصادرات الفلسطينية فى ازدياد خاصـة من الصابون والسمسم والبرتقال ويصدر الأخير من ميناء يافا الى انجلترا لكبر حجمه وجودة طعمه وتحرص بيوتات لندن التجارية بارسال معتمد لها للذهاب الى بساتين فلسطين لاختيار أجود الأنواع وارسالها الى لندن ٠

ويرى ان التجارة لم يصبها الرواج فى سنة ١٨٩١ م بالمقارنة للسـنة التى سبقتها وذلك لما أصاب البلاد فى سنة ١٨٩٠ م من محل وانتشار مرض الكوليرا ٠ لذا وصلت قيمة الصادرات الى ٤٠٠٥٣٠ جنيهـا والواردات بلغت

---

(١٣٣) الكس كرمل ـ تاريخ حيفا فى العهد العثمانى ـ المرجع السابق ص ١٣٥ ٠

(١٣٤) الكس كرمل ـ تاريخ حيفا ـ المرجع السابق ص ١٣٦ ٠

قيمتها ٢٨٧٠٠ جنيه بجملة قيمتها ٦٨٨٣٠ جنيها ليتضح الهبوط من جراء ذلك وكانت أكثر الصادرات الفلسطينية من الذرة والصابون والبرتقال والحنظل والجنود والحبوب وزيت الزيتون والسمسم والصوف والعظام ، كما صدرت الخمر الجيد الذي شبهه بخمر برغندى بفرنسا . بلغت جملة ما صدر من الصابون فقط سنة ١٨٩١ م خمسون طنا بقيمة قدرها ١٢٤ الف جنيه أكثره خرج من مدينة نابلس كما ساهم البرتقال فى الصادرات بنحو ٢٧٠ مائتان وسبعون ألف صندوق بلغت قيمتها ١٠٧ مائة سبعة آلاف جنية أى بنسبة ٩ر٣٥٪ من قيمة الصادرات الفلسطينية فى حين أسهمت الصادرات من البرتقال بنحو ٧ر٢٦٪ من قيمة الصادرات فى هذا العام .

أما الواردات الفلسطينية فكانت من الجوخ والفحم الحجرى والخشب والملح والدقيق والحديد والمنسوجات القطنية والبن والأرز والسكر والخزف والكحول (١٣٥) وهى واردات كما نرى مثيله فى معظمها لما ينتجه هذا الشعب كوسيلة لضرب الانتاج المحلى بمنافسته فى البداية والقضاء عليه فى النهاية .

وربما يكون جديرا بالتنويه هنا أن شعب كاليفورنيا فى الولايات المتحدة قد شرع فى زراعة البرتقال فى سنة ١٨٨٧ م (١٣٦) فقط فى حين وصلت الصادرات الفلسطينية منه أسواق لندن .

وهكذا بدأ ميناء يافا يحتل مكانة وأهمية ميناء غزة ويسلب منه ظهيره الزراعى بدرجة لا يستهان بها حتى غدت « الكرنتينة البحرية » لميناء غزة لا تستقبل الا القليل من السفن القادمة من أوربا وموانىء مصر لتفى بحاجات المدينة بالكاد فقط .

أخذت بعدها الضرائب تثقل كاهل الشعب بعد أن ضاعفتها الدولة العثمانية فجعلت ضريبة الأرض والمسقفات أربعة فى الألف لكل منها بحيث يؤخذ ثلاثة قروش على كل رأس من الماعز وأربعة قروش على كل رأس من الأغنام وبعد دفع هذه الضرائب جميعا يرى السلطان عبد الحميد الثانى « أن لا مجال اذا لتحميلهم فوق ما يطيقون » (١٣٧) .

---

(١٣٥) مجلة المقتطف ـ الجزء الحادى عشر السنة السادسة عشر عدد ١٨٩٢/٨/١ ص ٧٩٨ـ ٧٨٨ .

(١٣٦) مجلة المقتطف ـ المجلد ٦١ عدد يونيه ـ ديسمبر ١٩٢٢ ص ١٨٢ .

(١٣٧) مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى مذكراتى السياسية ١٨٩١ ـ ١٩٠٨ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٨٨ .

وعله من المفيد هنا أن نضع قائمة بالأعشار الضريبية التى تم تحصيلهـا من أحياء مدينة غزة وقراها التابعة لها والمتحصلة سنة ١٨٩٤ م (١٣٨) ٠

اسم الحى	الأعشار الضريبية	بارة	ملاحظات
حى الدرج	١٧٣٩١ قرشا	١٠	
« الزيتون	٣٤٧٨٤ »		
« الجديدة	٢٤٦٥٣ »		الشجاعية
« التركمان	٢٦٥٢٢ »		
« التفاح	٢٦٢٦١ »		
مجموع الأحياء	١٢٩٦١٠ »	١٠	
مجموع ما تم تحصيله من قرى غـــزة	١٣١٧٩٠٨	٢٠	

ومن قراءة هذا الجدول يتضح لنا أن حى الشجاعية بقسميه أكثر الأحياء دفعا للاعشار الضريبية وذلك لمســاحة الأراضى الزراعية الشاسعة من خلفه شرقا ومزاولة أهله الزراعة وتربية الحيوانات ومن بعده حى الزيتون صاحب حقول الزيتون الواسعة التى تطوف المدينـة من الجنوب والجنوب الغربى ٠ كما يتضح لنا أن مجموع ما دفعته المدينة بأحيائها يعادل ٩٫٨٪ من مجموع ما دفعه أبناء القرى التابعة لها ٠

بدأت غزة مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين تفقد دورهـــا كميناء بحرى وكممر تجارى الى حد كبير أمام الأطمـــاع الأوروبيـة المتسلطة والمستنزفة والتمزق العثمانى ٠ فلم يعد مينـــاء غزة يستقبل الا المنتوجـات الزراعية المتاخمة لظهـيره القريب منه تحمله الابل وحيوانات الحمل الأخـرى مخترقة طريقا تكتنفه الكثبان الرملية لم يشق الا فى عام ١٩٠٢ م ٠

فقد صدرت غزة عن طريق مينائها البحرى هذا من القمح والشــعير فى سنة ١٩٠٥ م ما قيمته ١٫٥ مليون دولار تم شحنه فى خمس وعشرين سـفينة تنقلها اليها سفن صغيرة من الشاطىء ومعها الذرة والسمسم والبلح والجلود والدواجن ٠ وتستورد البضائع القطنية والملابس الجاهزة والأحذية والسجاجيد والبن والسكر والنيلة وصلت قيمتها ٧٥٠ الف دولار أمريكى (١٣٩) محققة بالتالى وفى هذا العام فقط ميزانا تجاريا فى صالحها ٠

(١٣٨) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ١٥٩ ـ ١٩٦ ٠

(١٣٩) M. A. Meyer, ibid, p. 106-107.

هذه البضائع خلقت وضعا اقتصاديا جعلته أقربه ما يكون للفوضى الاقتصادية داخل البلاد غمرت بها أسواقها التجارية حتى ليخيل اليك أنك أمام معرض للسلع والبضائع الأجنبية .

فالامتيازات الأجنبية أطبقت على مقدرات الشعب وسيطرت معها على شرايين المواصلات والموانىء والسكك الحديدية بحق الامتياز عجزت معها الدولة العثمانية عن بسط نفوذها وسيطرتها لا على الاقتصاد فحسب بل وعلى الأمن مما جعل السلطان عبد الحميد الثانى يعترف بأن هـذه الامتيازات الأجنبية أصبحت عبئا اقتصاديا وسياسيا على الامبراطورية ، فاقتصاديا فوتت على الخزينة العثمانية موردا سنويا ضخما ، وسياسيا أخلت بسيادة الدولة وأمنها (١٤٠) ، ضاعف من هذا العبء النظام الاقطاعى الالتزامى الذى أفرزته التيمارجية والملكانه والزعامتات على الرغم من زوالها اسميا الا أنها خلفت لنا الملتزمين والأفندية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين مستغلين تقربهم للادارة الحاكمة بالليرات الذهبية فاستحوذت بالقوة والتلويح بها وبأسلوب الهدية والتخجيل على مساحات كبيرة من أراضى الطبقة المطحونة من الفلاحين فاثروا ثراء فاحشا . لم يقو بعدها الفلاح ومع مطلع القرن العشرين من انتاج ما يقيم أوده – انتاج معايشى فقط – نجم عن هذا الوضع ان اهتزت الثقة بالقيمة الشرائية للنقد العثمانى أمام النقد الأجنبى وفى مقدمته « الليرة الفرنسية » كوحدة نقدية حسابية فى التبادل والمعاملات التجارية لما تتميز به من دعم اقتصادى وادارى متين فشلت أمامه الدولة العثمانية فى الحفاظ على قيمة نقدها بالسعر القانونى حتى أصبحت المدن الفلسطينية بل وقراها تتداوله بأسعار متباينة ومتفاوتة من مدينة لأخرى بل ومن قرية لقرية .

ولعل هذا الجدول يؤكد لنا ذلك حيث يوضح أسعار النقدين فى أسواق المدن الفلسطينية (المجيدى العثمانى والليرة الفرنسية) (١٤١) .

المدينة	الليرة الفرنسية	الريال المجيدى	البشلك	
غـزة	٢٢٢	٤٧	٦	
القدس	١٠٩	٢٣	٣	
نابلس	١١٨	٢٥	١٣ر٣	
يافا	١٢٤	٢٦	٣	
لواء عكا	١٠٨	١٢ر٢٣	١٦ر٣	
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣	

---

(١٤٠) مذكرات السلطان عبد الحميد – المرجع السابق ص ٩٨ – ٩٩ .

(١٤١) عمر البرغوثى وخليل طوطح – تاريخ فلسطين – القدس – ١٩٢٣ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

هذا التفاوت الواضح فى قيمة العملة العثمانية والفرنسية فى أسواق المدن الفلسطينية يكشف لنا بوضوح النفوذ والتغلغل الأوربى الاقتصـادى والسياسى فى المنطقة ويتجلى ذلك فى المدن الفلسطينية التى تكثر فيها الطوائف المسيحية بارسالياتها التبشيرية ومدارسهـا ومعـاهدها لذا نجد مدينتى غزة ونابلس أقل المدن تأثرا (وحدة التحويل ٧٢ر٤) لقلة الجاليات المسيحية بها فى حين نجد مدينة الناصرةمن أكثر المدن (٨١ر٤) لمكانتها الدينية لدى هذه الطوائف تليها مباشرة مدينة يافا لمكانتهـا كميناء رئيسى وهام (٧٧ر٤ » ثم القدس وعكا (٧٥ر٤) ٠

ومع هذا التدخل المغرض تبدو أحيانا ملامح الانتعـاش الاقتصـادى التى هى فى الحقيقة تورم اقتصادى يخفى معه مرض التبعية والالحاق الاقتصادى للمنطقة بأسرها بدأ معه ميناء يافا وحيفـا يقضيان على ميناء غزة المتطوح فى أقصى جنوب الساحل الفلسطينى عند نهاية الطريق التى سدته بريطانيـا باحتلالها لمصر وتغيير مسار الحج المصرى عنها الى السويس ٠

وتمركز الوكالات الأجنبية وقناصلها فى يافا وحيفا ٠ بدأت على أثـر ذلك شواطىء غزة وميناؤها فى الجمود الاقتصادى ببطء ، والجدول التـالى لقيمة الصادرات الفلسطينية من موانئها بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٣ م ما يبرز ذلك (١٤٢) ٠

الصـادرات بالجنيه الفلسطينى *

الميناء	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٥٥٦٣٠٠	٥٦٠٩٠٠	٦٣٦١١٠٠	٧١٠٦٠٠	٧٧٤١٠٠	—
حيفا	٣٧١٧٧٠	—	٧٠٥٠٠	٩٠٠٠٠	٣٤٦٧٠٠	٧٤٥٤٠٠
غزة	٢٠٦٢٤٠	٤٩٧٦٠	٨٥٥٠	٧٧١٥٠	٦٧٠٠	١٦١١٢
المجموع	١١٣٤٣١٠	٦١٠٦٦٦٠	٧١٥١٥٠	٨٧٧٧٥٠	١١٢٧٥٠٠	٩٠٦٥٢٠

وهكذا تأتى الصادارت من ميناء غزة فى نهاية القائمة بالنسبة لبقيـة الموانىء وفى كل السنوات وتتضاءل قيمتها كلما مر بها الزمن ففى حين ساهمت بنحو ١٨٪ من قيمة مجموع الصادرات الفلسطينية سنة ١٩٠٨ نجد أنهـا

(١٤٢) محمد يونس الحسينى ـ التطور الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين العربية ـ المرجع السابق ص ١٥١ ٠

(*) لم يكن هناك نقد فلسطينى فى هذه الفترة ولكن المؤلف حاول حسابهـا فيما بعد بالجنيه الفلسطينى ٠

تدنت حتى وصلت فى سنة ١٩١٣ الى ٧ر١٪ من مجمل قيمة الصادرات • وفى المقابل صعد ميناء يافا من ٤٩٪ من مجمل قيمة الصادرات الفلسطينية سنة ١٩٠٨ قفز لكى يستحوذ على ٨٢٪ من مجموع قيمة الصادرت الفلسطينية سنة ١٩١٣ •

ولا تختلف هذه الصورة عندما نستعرض جدول الواردات الفلسطينية فى الثلاثة موانى الفلسطينية والمقدرة قيمتها بالجنية الفلسطينى ولنفس الفترة (١٤٣) •

الميناء	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢	١٩١٣
يافا	٨٠٣٤٠٠	٩٧٣١٠٠	١٠٠٣٤٠٠	١١٦٩٩٩٠٠	١٠٩٠٠٠٠	١٣١٢٦٠٠
حيفا	٣٥٥٥٠٠	-	٣٩٩١٠٠	٣٧٥١٠٠	٤٦٠٤٠٠	٥٣٠٠٠٠
غزة	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	٩٦٤٠٠	١٠٨٢٠٠
المجموع	١٢٣٠٩٠٠	١٠٤٥١٠٠	١٤٧٤٥٠٠	١٦١٧٠٠٠	١٦٤٦٨٠٠	١٩٥٠٨٠٠

ولأول وهلة يبدو الجمود فى قيمة الواردات الغزية طيلة أربع سنوات متتالية ابتداء من ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ لم تتخط قيمة الواردات مبلغ ٧٢ اثنين وسبعين ألف جنيه وبنسبة لا تتعدى ٨ر٥٪ فقط من قيمة الواردات الفلسطينية الاجمالية سنة ١٩٠٨ م لتهبط الى ٥ر٥٪ من قيمة الواردات سنة ١٩١٣ التى وصلت فيه الصادرات الغزية من الشعير الى ٤٠٠ر١٨ طن بعد أن كانت فى عام ١٩٠٨ م ٣٨ ألف طن (١٤٤) لتصل الى الحد الأدنى فى أهم منتوجاتها الزراعية التى اشتهرت بها وهو الشعير • لتقطف الدول الأوربية الاستعمارية ثمار مخططاتها الاقتصادية والسياسية فتعلن بعدها الحرب التى شملت الكرة الأرضية لتنزوى مدينة غزة فى ركنها منكفأة على نفسها طيلة سنوات الانتداب البريطانى البغيض الأسود •

(١٤٣) محمد يونس الحسينى ـ التطور الاجتماعى والاقتصادى ـ المرجع السابق ص ١٥١ •
(١٤٤) عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ المرجع السابق ص ٢٨٨ •

المراجع

المطبوعات

- ابن حوقل – صور الأرض – بيروت .. بدون تاريخ .
- محمد بن أحمد بن اياس الحنفى المصرى – المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور – تحقيق محمد مصطفى كتاب الشعب القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن بطوطة – مهذب رحلة ابن بطوطة – تهذيب وضبط أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى – القاهرة .
- أبو الفدا – البداية والنهاية – بيروت ١٩٦٦ .
- أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطى – اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى – تحقيق د. أحمد رمضان أحمد – القاهرة ١٩٨٣ .
- البلاذرى – فتوح البلدان – القاهرة ١٩٥٩ .
- السخاوى – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع – القاهرة : ١٣٥٣ هـ المجلد ٢ و ٣ .
- السويدى – سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب – دار احياء العلوم – بيروت – بدون .
- الظاهرى – زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك – باريس ١٨٩٤ .
- القلقشندى – صبح الأعشى – القاهرة .
- المختار من تاريخ الجبرتى – اختيار محمد قنديل النعلبى – مطابع الشعب – القاهرة ١٩٥٩ .
- مجير الدين الحنبلى – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل – عمان ١٩٧٠ .
- المقريزى – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – القاهرة ١٩٥٧ .
- المقدسى الدمشقى – الذيل على الروضتين وتراجم رجال القرنين السادس والسابع – دار الجيل – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

- محمد خليل المرادى ـ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ـ بولاق مصر ١٣٠١ هـ (٤ أجزاء) ٠
- محمد المحبى ـ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ـ ثلاثة أجزاء ـ المطبعة الوهبية المصرية ـ ١٢٨٤ هـ ٠
- نجم الدين الغزى ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ـ تحقيق د٠ جبرائيل جبور (ثلاثة أجزاء) ـ بيروت ١٩٧٩ ٠
- ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ـ خمسة أجزاء ـ دار احياء التراث ـ بيروت ـ بدون ٠
- قدامة بن جعفر ـ الخراج وصناعة الكتابة ـ شرح وتعليق د٠ محمد حسين الزبيدى ـ دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨١ ٠

المخطوطات

- الشيخ عبد الغنى الشهير بابن النابلسى ــ كتاب الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز سنة ١١٠١ هـ . ــ مخطوط .
- الامام على بن بكر الهروى ــ الاشارات فى الزيارات ــ مخطوط سنة ١٢٦٨ هـ نسخة حماد بن ذيب بن حماد اللدى .
- الشيخ عثمان الطباع ــ اتحاف الأعزة فى تاريخ غزة ــ ١٩٤٣ مخطوط .
- الشيخ عثمان الطباع ــ الشجرة الزكية ــ مخطوط .

المجلات العربية

- المقتطف ـ الجزء ١١ من السنة السادسة عشر عدد ١٨٩٢/٨/١ م ٠
- المقتطف ـ الجزء ٧ السنة السادسة والعشرون عدد ابريل ١٨٩٣ م ٠
- المقتطف ـ ـ ديسمبر ١٩٢٧ م ٠
- المقتطف الجزء الرابع المجلد ٦٩ ـ ديسمبر ١٩٢٦ م ٠
- المقتطف المجلد ٦١ ـ ديسمبر ١٩٢٢ م ٠

مجلة الهلال ـ عدد يناير سنة ١٩٨٦ م القاهرة ٠

مجلة الفيصل العدد ٩٤ يناير سنة ١٩٨٥ ـ دار الفيصل الثقافية ـ الرياض ٠

مجلة الشرق ـ العدد ٣ السنة التاسعة تموز ـ أيلول ١٩٧٩ جبل الكرمل ـ حيفا ٠

مجلة الحرب العالمية الأولى ـ موسوعة تاريخية مصورة ـ الجزء ٢٠ بيروت ٠

مجلة الفجر الأدنى ـ العدد آذار سنة ١٩٨٣ ـ القدس ٠

جريدة مكرمة فلسطين الرسمية ـ العدد ١٧٩ القدس ١٩٢٧/٣/١٦ ٠

جريدة الشعب ـ لسان حال حزب العمل الاشتراكى المصرى ـ العدد ٢٨٦ ـ ٢٨/ مايو سنة ١٩٨٥ القاهرة ٠



المجلات العلمية الأجنبية

P. E. F. 1886.

P.E.F. 1908.

J.O.P.S., Vol. XI 1929.

J.O.P.S. Vol. XI, 1925.

P.J.B., 20, 1924

I.E.J , 15, 1950.

I.E.J., 1, 1950.

I.E.J., 2, 1952.

I.E.J., 5, 1955.

I.E.J., 9, 1959.

I.E.J., 6, 1956.

I.E.J., 10, 1960

I.E.J., 22, 1972.

I.E.J., Vol 20, 1970.

I.E.J., Vol. 23, 1973

I.E.J., 24, 2974.

I.E.J., 28, 1978.

I.E.J., 3, 1953.

B.A.S.O.R., 87, 1947.

B.A.S.O.R. — 137, 1955.

A.A.S.O.R. 23, 1923.

T.B.L. 79, 1960.

Z.D.P.U, 74, 1928.

I.E.A., 14, 1928.

J.E.A., 50, 1964.

Z.D.P.U., 67, 1944.



المراجع الأجنبية المترجمة

جيمى هنرى بريستد ـ العصور القديمة ـ ترجمة تربان ـ المطبعة الأمريكانية ـ بيروت ١٩٣٠ .

جيمى هنرى بريستد ـ تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسى ـ ترجمة حسن كمال ـ القاهرة ـ ١٩٢٩ .

وليم ـ ف أولبرايت ـ آثار فلسطين ـ ترجمة زكى اسكندر ود. محمد عبد القادر محمد ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة ١٩٧١ .

ج ـ برونوفسكى ـ ارتقاء الانسان ـ ترجمة موفق شخاشيروا ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨١ .

س . و . دلدردج ـ الجغرافيا مغزاها ومرماها ـ ترجمة د. يوسف أبو الحجاج ـ القاهرة ـ الألف كتاب ١٧٨ .

ول ـ ديورانت ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثالث ـ المجلد ٣ ترجمة جامعة الدول العربية ـ ١٩٦٤ .

ل . م . ماير ـ بعض البنايات الاسلامية الدينية فى اسرائيل ـ القدس ـ ١٩٥٠ .

انتونى ناتنج ـ يقظة العرب ـ مترجم ـ كتاب الهلال .

سونيا هاو ـ فى طلب التوابل ـ ترجمة محمد عزيز رفعت ـ القاهرة ١٩٥٧ .

انتونى ناتنج ـ العرب تاريخ وحضارة ـ ترجمة محمود مسعود ـ الجزء الثانى ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ١٩٨٠ .

رحلة كنغايك الى الشرق ـ ترجمة محمود العابد ـ عمان ـ ١٩٧١ .

د. هنرى دودويل ـ الاتجاهات السياسية لمصر فى عهد محمد على ـ ترجمة أحمد محمد عبد الخالق بك ـ القاهرة .

د. الكس كرمل ـ تاريخ حيفا فى عهد الأتراك العثمانيين ـ ترجمة تيسير الياس ـ حيفا ١٩٧٩ .

س · ف فولنى – ثلاثة أعـــوام فى مصر وبر الشام – ترجمة ادوارد البستانى – الجزء الأول – طبعة ثانية – بيروت – ١٩٤٩ ·

س · ف فولنى – ســوريا فى القرن التاسع عشر – ترجمـة حبيب السيوفى – الجزء الثانى – صيدا ١٩٤٩ ·

علماء الحملة الفرنسية – وصف مصر – ترجمة زهير الشايب – المجلد الرابع – القاهرة ١٩٧٨ ·

شمس الدين جونالتاى – سوريا وفلسطين – أنقرة – ١٩٤٧ (باللغة التركية) ·

المراجع العربية

د. ابراهيم رزقانه ـ موضوعات فى الجغرافيا التاريخية ـ القاهرة ١٩٦٦ .

د. ابراهيم أمين غالى ـ سيناء المصرية عبر التاريخ ـ القاهرة ١٩٧٦ .

د. ابراهيم طرقان ـ مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة ـ الألف كتاب ـ القاهرة ١٩٦٠ .

المهندس الدكتور ـ أحمد سوسة ـ تاريخ حضارة وادى الرافدين ـ الجزء الأول ـ وزارة الزراعة ـ بغداد ١٩٨١ .

احسان النمر ـ تاريخ نابلس والبلقاء ـ نابلس ١٩٦١ .

أحمد حافظ عودة ـ فتح مصر الحديث ـ القاهرة ١٩٢٦ .

د. أحمد عيسى بك ـ تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ـ دمشق ـ ١٩٣٩ .

د. أحمد البيلى ـ حياة صلاح الدين الأيوبى ـ القاهرة ١٩٢٢ .

ـ د. حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ ج٤ ـ القاهرة ١٩٦٨ .

ـ د. جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

ـ د. جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ ٤ أجزاء ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ .

ـ ثروت عكاشة ـ القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨١ .

ـ دعيدس المر ـ أحكام الأراضى ـ القسم الأول ـ القدس ـ ١٩٢٣ .

ـ خير الدين الزركلى ـ الاعلام ـ قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩ .

ـ د. سعاد ماهر ـ القاهرة القديمة واحياؤها ـ المكتبة الثقافية ـ العدد ٧٠ القاهرة ١٩٦٢ .

.. د· رمضان ششن ـ نوادر المخطوطات العربية فى مكتبات تركيا ـ المجلد الثانى ـ بيروت ١٩٨٠ ·

ـ ساطع الحصرى ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٥ ·

ـ سليمان أبو عز الدين ـ ابراهيم باشا فى سوريا ـ بيروت ١٩٢٩ ·

ـ د· سيد أحمد الناصرى ـ قضية التاريخ القديم ـ المكتبة الثقافية ـ القاهرة ـ ١٩٧١ ·

ـ صاعد الأندلسى ـ طبقات الأمم ـ بيروت ـ ١٩١٢ ·

ـ عمر البرغوثى ـ وخليل طوطح ـ تاريخ فلسطين ـ القدس ـ ١٩٢٣ ·

ـ عبد الغنى قمر ـ الامام الشافعى فقية السنة الأكبر ـ القاهرة ـ دار القلم ـ ١٩٧٦ ·

ـ عبد العزيز عوض ـ الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ ـ ١٩١٤ ـ القاهرة ١٩٦٩ ·

ـ عبد العزيز محمد الشناوى ود· يحيى جلال يحيى ـ وثائق ونصوص وتاريخ الحديث والمعاصر ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩ ·

ـ عباس محمود عمار ـ المدخل الشرقى لمصر ـ القاهرة ١٩٤٦ ·

ـ عفت الشرقاوى ـ فلسفة الحضارة الاسلامية ـ بيروت ١٩٧٨ ·

ـ د· عبد الكريم رافق ـ العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ـ طبعة ثانية ـ عكا ـ ١٩٧٨ ·

ـ د· عبد الكريم رافق ـ غزة دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ هـ ـ عمان ١٩٨٠ ·

ـ السلطان عبد الحميد الثانى ـ مذكراتى السياسية ١٨٩١ ـ ١٩٠٨ ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٧٩ ·

ـ عبد المنصف محمود باشا ـ ابراهيم الفاتح ـ القاهرة ١٩٤٨ ·

ـ د· على شلش ـ كتاب س· بلنت الأفغانى ومحمد عبده ـ كتاب الهلال .. يناير سنة ١٩٨٦ ·

عارف العارف ـ تاريخ بئر السبع وقبائلها ـ القدس ـ ١٩٣٤ ·

عارف العارف ـ تاريخ غزة ـ القدس ١٩٤٣ ·

عارف العارف ـ القضاء بين البدو ـ القدس ـ ١٩٣٤ ٠

عبده مباشر واسلام توفيق ـ سيناء الموقع والتاريخ ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨ ٠

د٠ عبد الرحمن فهمى محمد ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

لويس عوض ـ تاريخ الفكر المصرى الحديث ـ المجلد الأول ـ القاهرة ١٩٨٠ ٠

السيد أحمد بن زين دحلان ـ الفتوحات الاسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

السيد عبد العزيز سالم وزميله ـ تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ـ ج١ الاسكندرية ١٩٧١ ٠

د٠ محمد عماره ـ العرب والتحدى ـ كتاب الهلال ـ العدد ٣٨٤ القاهرة ١٩٨١ ٠

ـ د٠ محمد عمارة ـ تيارات اليقظة الاسلامية ـ كتاب الهلال ـ أغسطس ١٩٨٢

ـ محمد على خلوصى ـ التنمية الاقتصادية فى غزة ـ القاهرة ١٩٦٦ ٠

ـ د٠ محمد غلاب ـ الجغرافيا التاريخية لاقليم النقب ـ مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ـ الموسم الثقافى لعام ١٩٥٦ القاهرة ٠

ـ د٠ محمد غلاب ـ الساحل الفينيقى وظهيره بيروت ـ ١٩٦٩ ٠

ـ محمد عواد حسين ـ البحرية فى عهد البطالمة ـ جامعة الاسكندرية ـ ١٩٧٣

ـ محمد كرد على ـ خطط الشام ـ الجزء الرابع ـ دمشق ١٩٢٦ ٠

ـ محمد فريد بك المحامى ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ بيروت ١٩٧٧ ٠

ـ محمد ابشرلى ومحمد التميمى ـ أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين ـ استانبول ـ ١٩٨٢ ٠

ـ د٠ محمد حسين هيكل ـ القضية الفلسطينية تحليل ونقد ـ يافا ١٩٣٧ ٠

ـ محمود العابد ـ التبراد ـ عمان ـ نابلس ١٩٥٦ ٠

ـ محمود نديم أحمد فهيم ـ الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٣ ٠

- محمود عوض ــ وعليكم السلام ــ دار المستقبل العربى ــ القاهرة ١٩٨٤ ٠
- د٠ مصطفى العبادى ــ محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ــ بيروت ١٩٨٢ ٠
- مصطفى مراد الدباغ ــ بلادنا فلسطين ــ الجزء الأول ــ القسم الثانى ــ بيروت ١٩٦٦ ٠
- مصطفى عباس الموصوى ــ العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ــ وزارة الثقافة والاعلام ــ بغداد ــ ١٩٨٢ ٠
- الهيئة البهية فى الكرة الأرضية ــ المطبعة الأمريكانية ــ بيروت ١٩١٤ ٠
- أميل توما ــ فلسطين فى العهد العثمانى ــ القدس ــ ١٩٨٣ ٠
- اوليا جلبى ــ سياحتنا مرسى ٠
- حامد سلطان ــ مشكلة خليج العقبة ــ معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٦٦/١٩٦٧ ٠
- د٠ نعيم زكى فهمى ٠
- د ٠ نبيل حنا ــ البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الغجر ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٣ ٠
- مصطفى مراد الدباغ ــ بلادنا فلسطين ــ الجزء الأول ــ القسم الأول ــ دار الطليعة ــ بيروت ١٩٦٤ ٠
- الدبس ــ تاريخ سوريا ــ المجلد الأول ــ الجزء الأول ــ بيروت ١٨٩٣ م ٠
- انيس الصايغ ــ سوريا فى الأدب القديم ــ بيروت ١٩٥٧ ٠
- الشيخ نسيب وهيب الخازن ــ من الساميين الى العرب ــ بيروت ــ ١٩٦٢ ٠

M. A. Meyer, History of the City of Gaza, New York, 1960.

Condor and H. Kitchener, Survey of Western Palestine, 3 vol, Jerusalem, 1970.

F. Petrie, Ancient Gaza, 3 vol, London, 1931.

J. L. Starky and Lankester, Beth Pelet II, London, 1932.

V. H. Duncscombe calt, interduction in excavation of Nassana, London, 1962.

G. Dawney, Gaza in the early sixth century, university of Acklahama Press, 1963.

Leo Picard, Geography, Library Boket, Jerusalem, 1973.

Palestin Map, 1 : 1000, Scheet II, Gaza, 1941-1942.

V. Hintington, Palestine and its Transformation. London, 1910.

Wolly and Lawrance, The wilderness of zin.

N. Glueck, exploration in eastern Palestine, I, B.A.A.S.O.R. 14, 1933.

F. Petrie, Ancient Egypt and the East, Part I, 1934.

A.J. Herbertson, Regional environment, London, 1915.

Cardinar, Egypt of the Pharoahs, Oxford, 1961.

K. M. Kenyon, Archeology in the Holly Land London, 1965.

Y. Aharoni, The land of the Bible, Historical Geography, Philadelphia, 1967.

— J. Mellart, The Chalcolithic and Early Bronze Ages in Near east and Anatolia, Berut, 1960.

— G. rauk, Ancient Iraq, London, Plican Book, 1966.

W. M. Flinders petri, Anthedon, London, 1937.

N. Glueck, The other Side of Jordan, New Haven, 1945.

V. Grace, Stamped Handle of Commercial Amphoras, excavation of Nassana, Vol. I, London, 1962.

— Pritchard, Ancient near East text relating to the old testement, Princeton, 1929.

H. G. Wells, The Ouline of History Vol. I, New York, 1956.

C. F. Hill, Cataloge of the Greek Coins of Palestine, London, 1914.

M. Rosenberger, city coins of Palestine, Vol. II, Jerusalem 1975.

Archeology of Israel. Pocket Library, Jerusalem, 1974.

M. Rossovt Zeff, Social and economic history of the Helenistic World, Vol. I, Oxford, 1941.

C. F. Hurani, Arab Sea faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951.

Atlas of israel, Jerusaulem, 1970.

G. A. Smith, Historical Geography of the holy land, London, 1966.

W. B. Fisher, The Middle east, London, 1950.

Phliip Hitti, The Arabs, London, 1948.

Steven Runiciman, A history of the Grusades, 2, Pelican Books, 1971.

G. A. May, Oxford Bible Atlas, London, 1968.

Lane Pool, A history of egypt in the Middle Ages, Frank Cass, 1968.

Uriel Heyed, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615, London, 1960.

G. Dawney, Antioch in the Ages of eodosius thegreat, Norman, 1962.

Amnon, Palestine in 18 century, Jerusalem, 1973.

The History Until 1880, Israel Pocket library, Jerusalem 1973.

W.D. Huetteroth and K. Abdul Fattach, Historical geography of Palestine Transjordan and Southern Syria in the late 16 century, Erlangen, 1977.

Jerusalem, Keter Book, Jerusalem, 1973.

P. Medeblelić, Gaza et Son Histoire Chrétienne, Jerusalem; 1982.

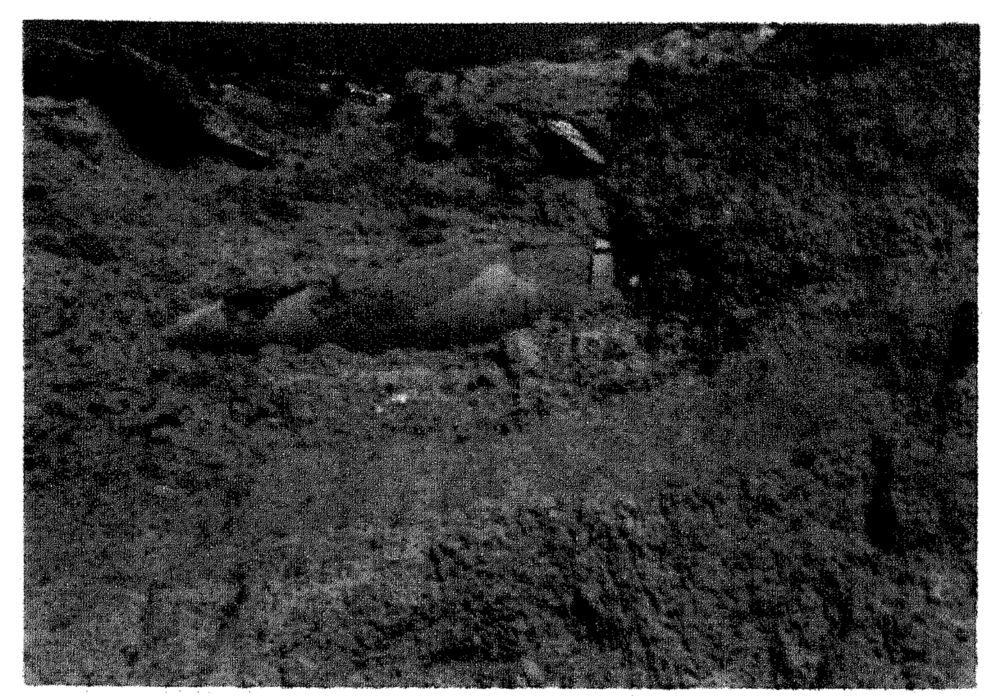
Bulletin de la Société de géographie D'Egypte, xxxiii, Cairo, 1960.

H. J. Mackinder, Democratic ideals and Reality, Pelican Books, 1944.

Levent, Journal of the British School of Archeology in Jerusalem.

اللوحـــات

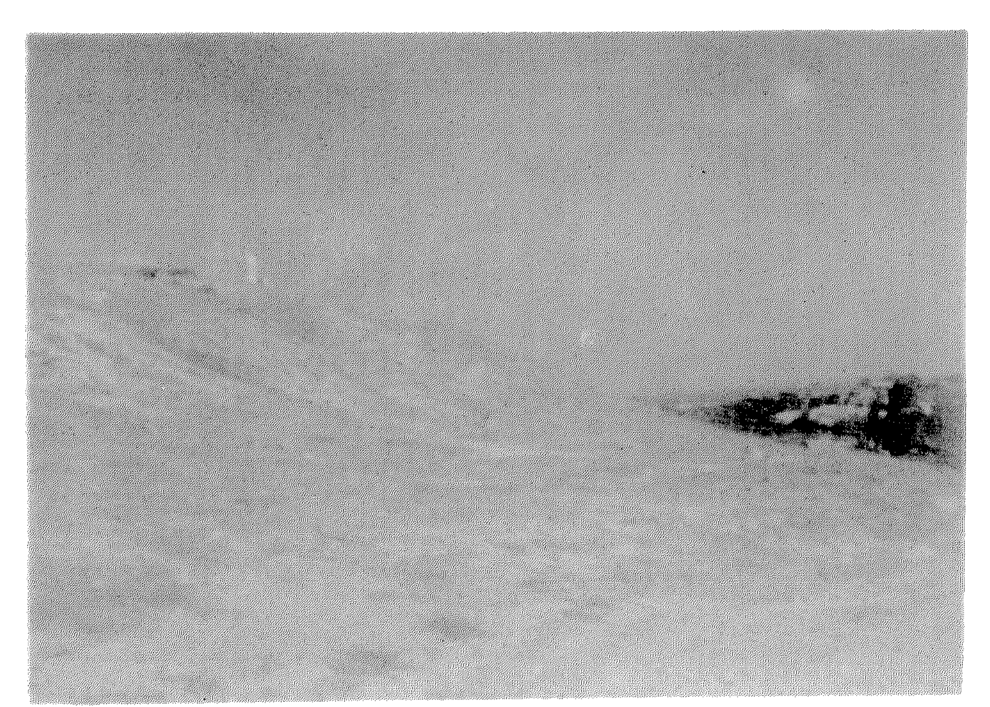




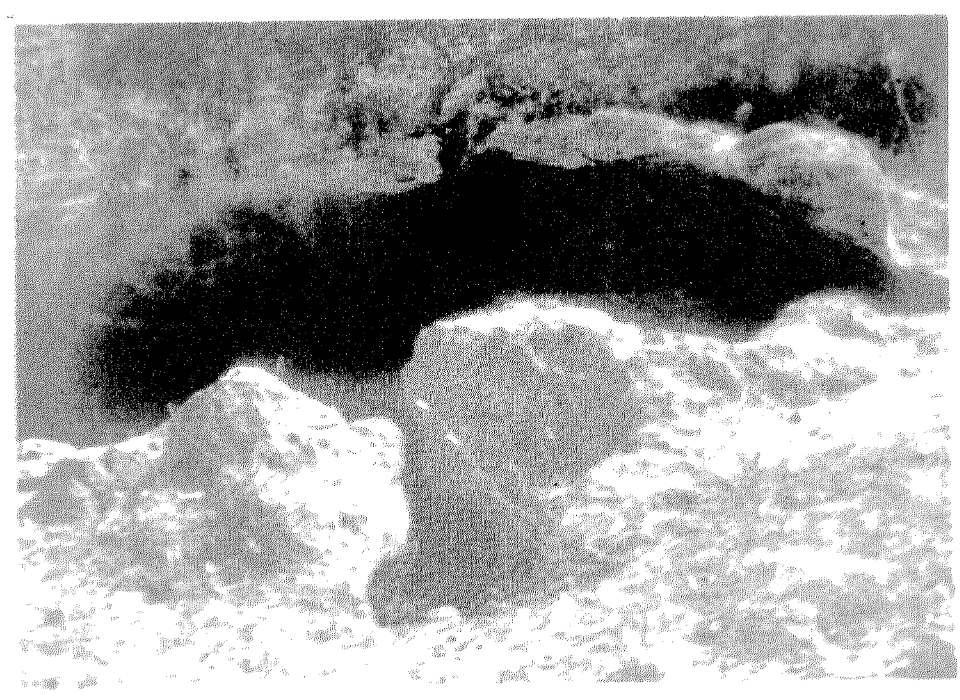
صـورة رقم ١٨



صورة رقم ٣٢



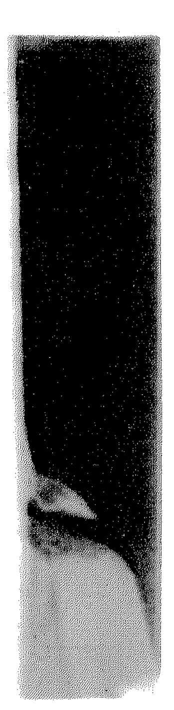
صـورة رقم ٣٨



صورة رقم ٣٩



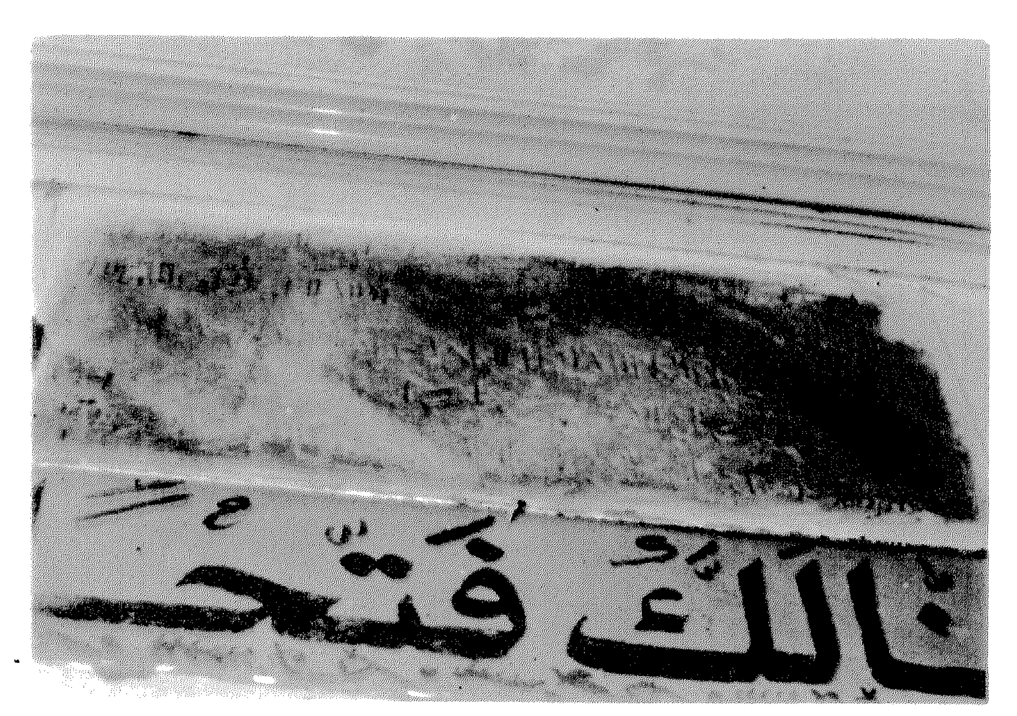




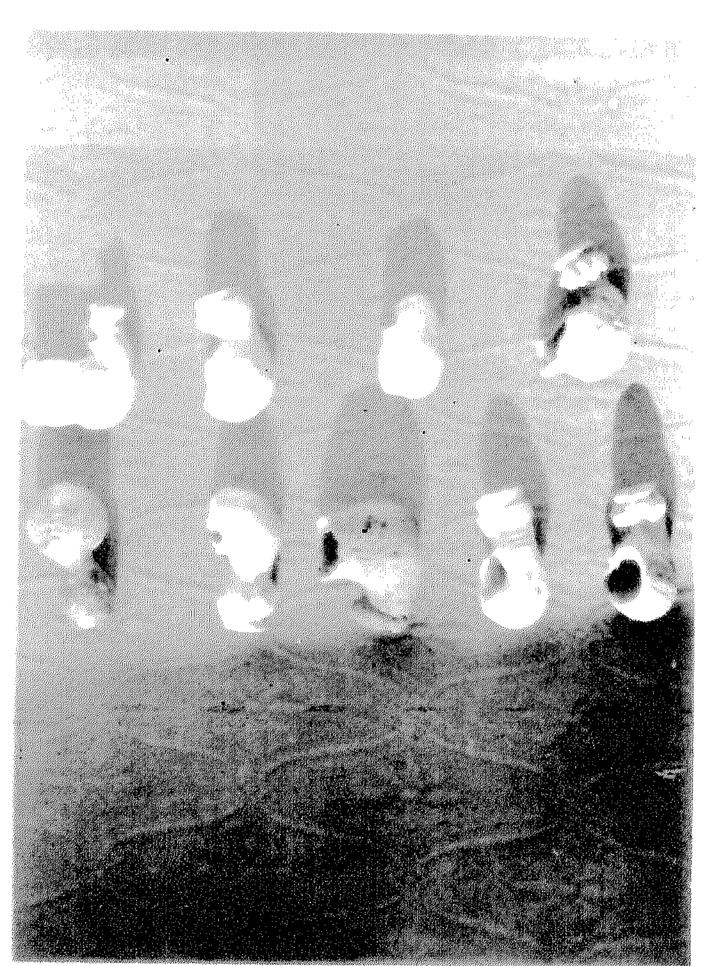
صورة رقم ٤٣



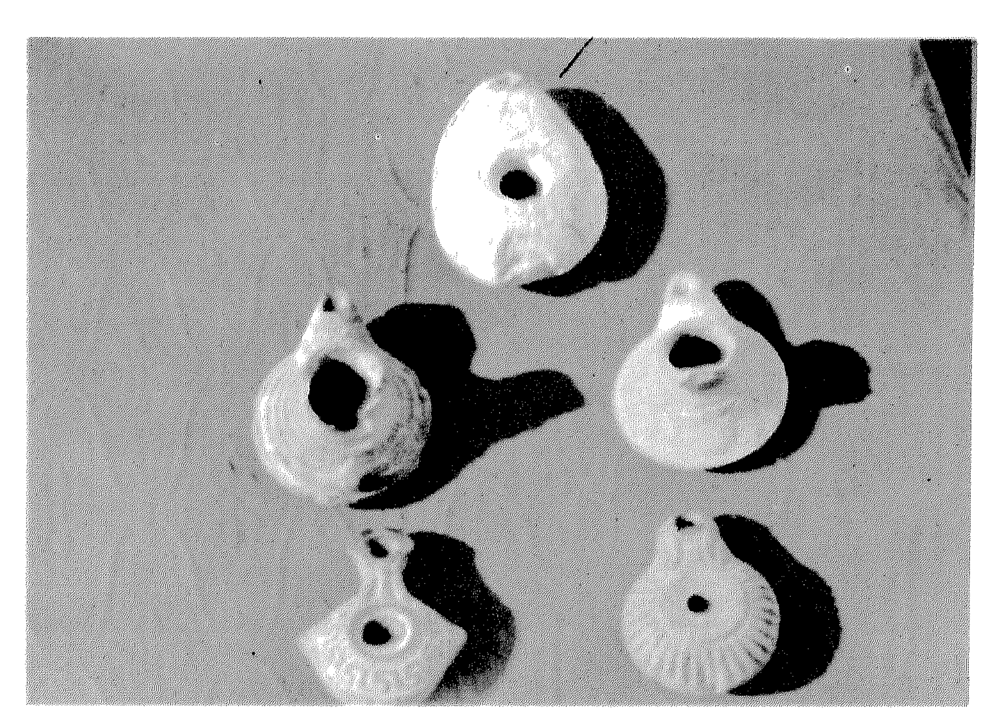
صورة رقم ٤٥



صورة رقم ٤٧



صورة رقم ٤٨



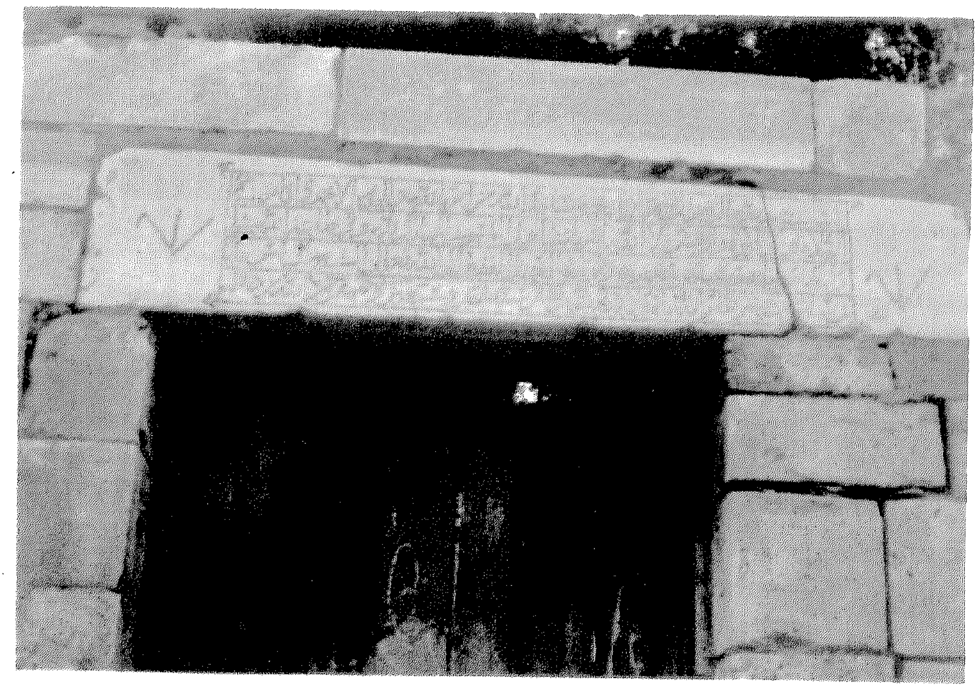
صورة رقم ٤٩



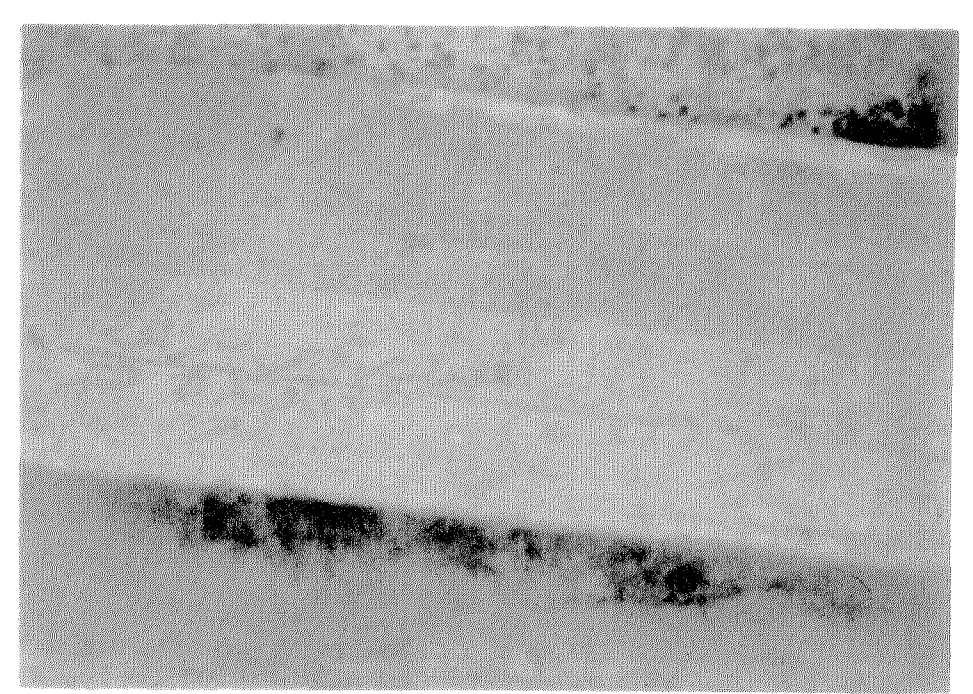
صورة رقم ٥٢



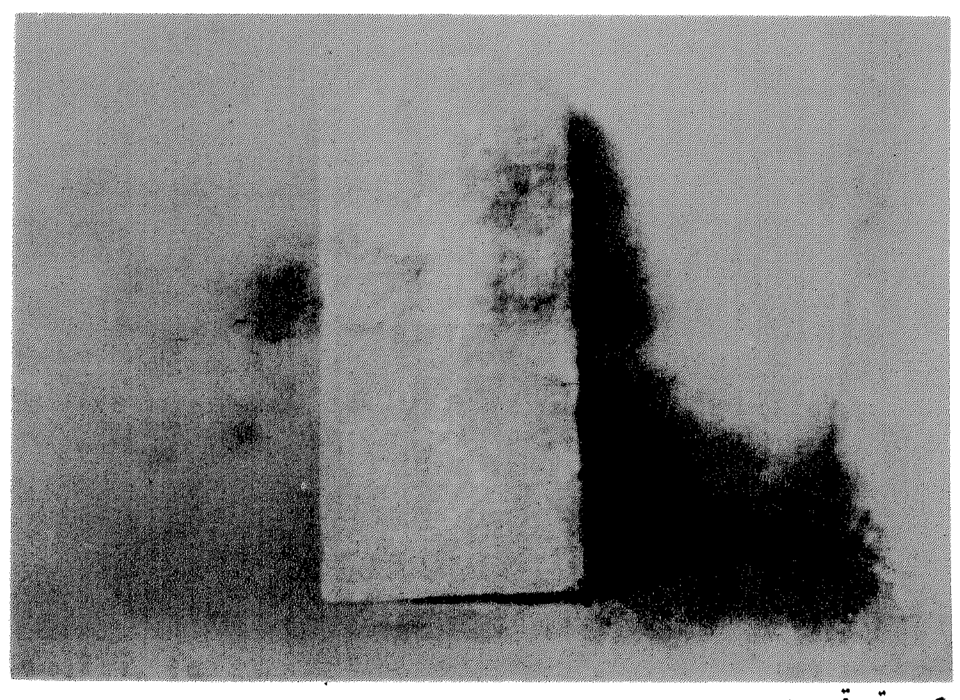
صورة رقم ٥٣



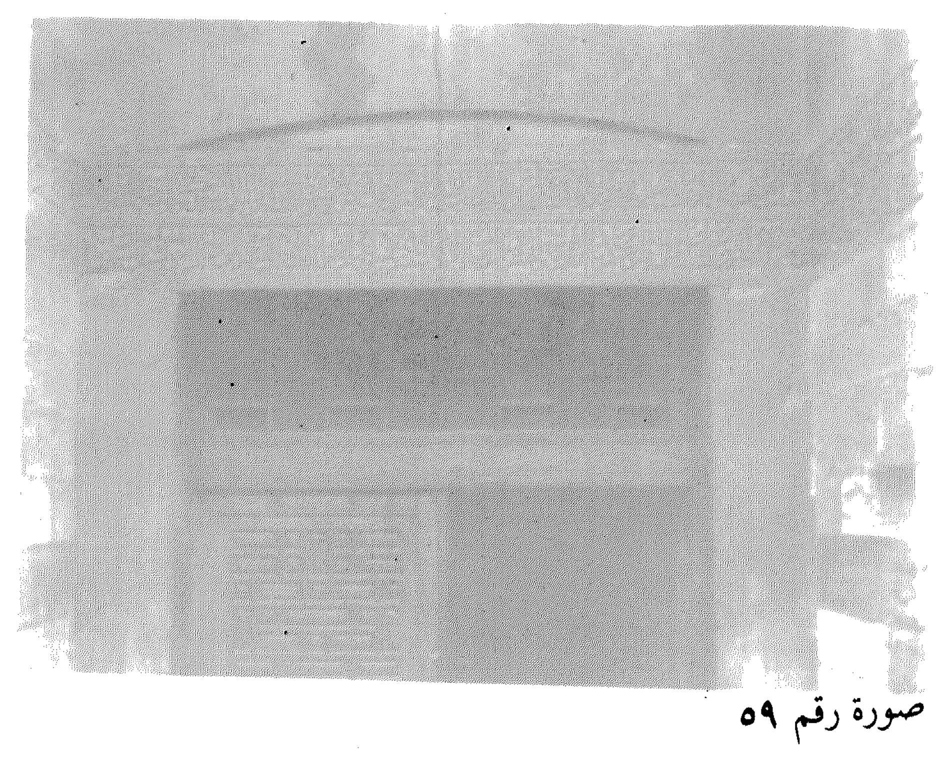
صورة رقم ٥٤



صورة رقم ٥٧



صورة رقم ٥٧ ب



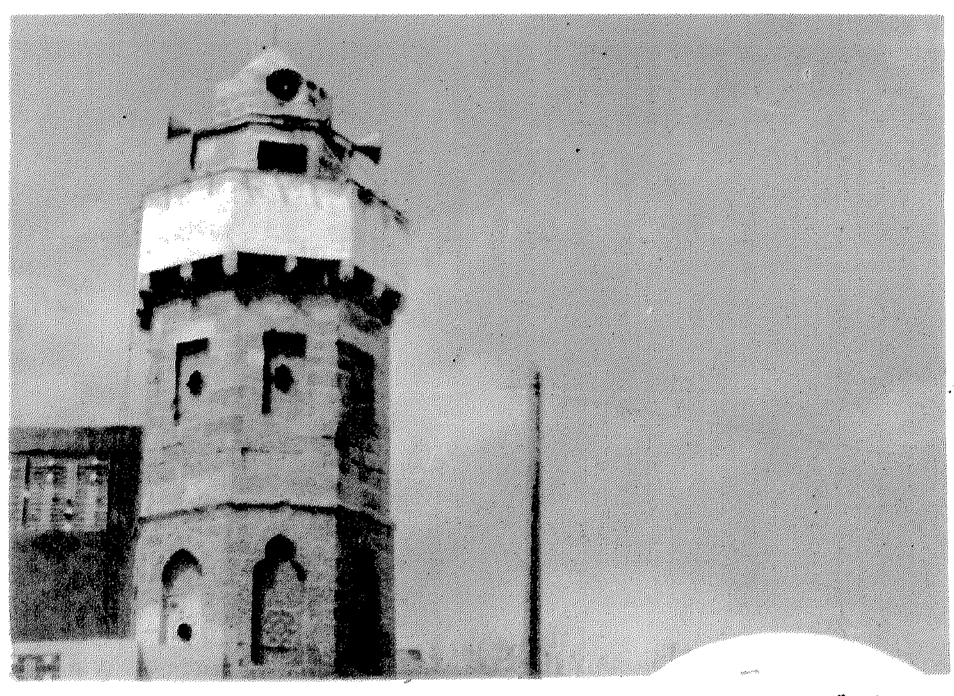
صورة رقم ٥٩



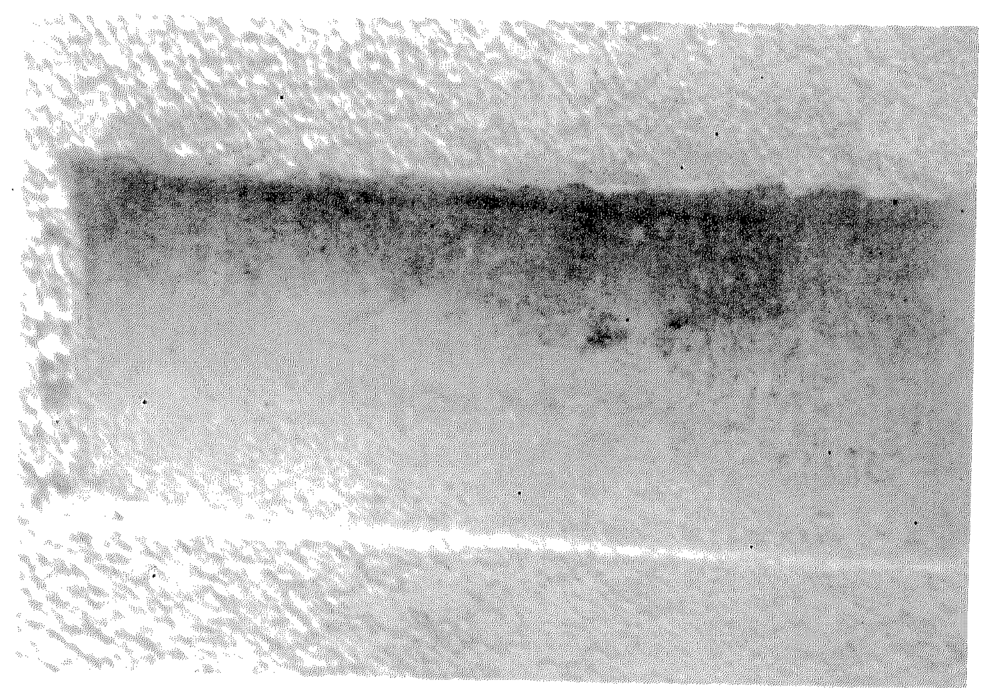
صورة رقم ٦٤



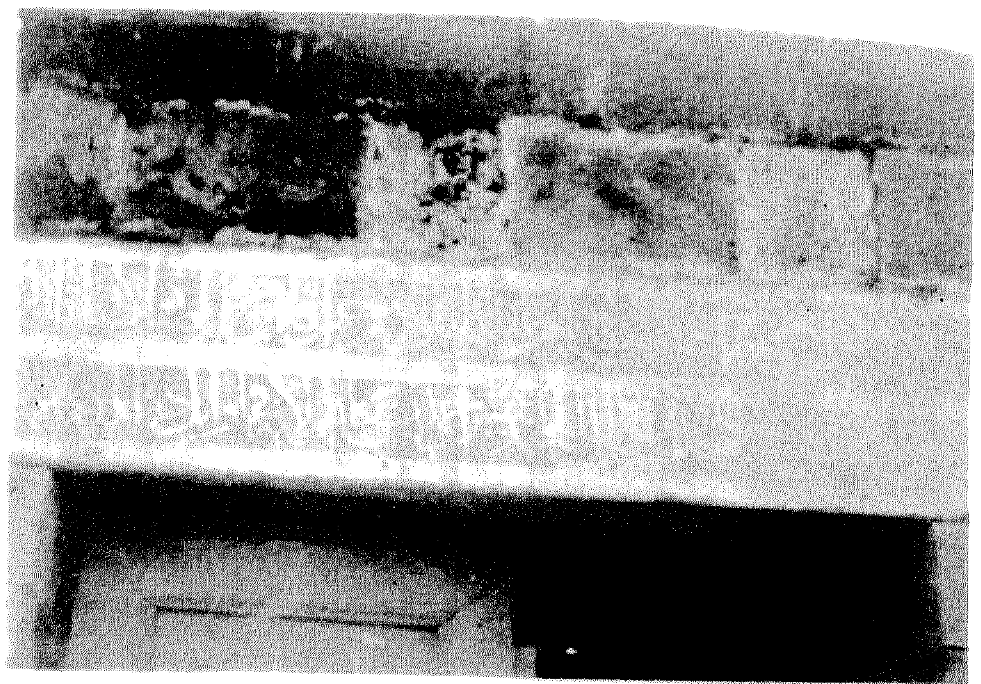
صورة رقم ٦٥



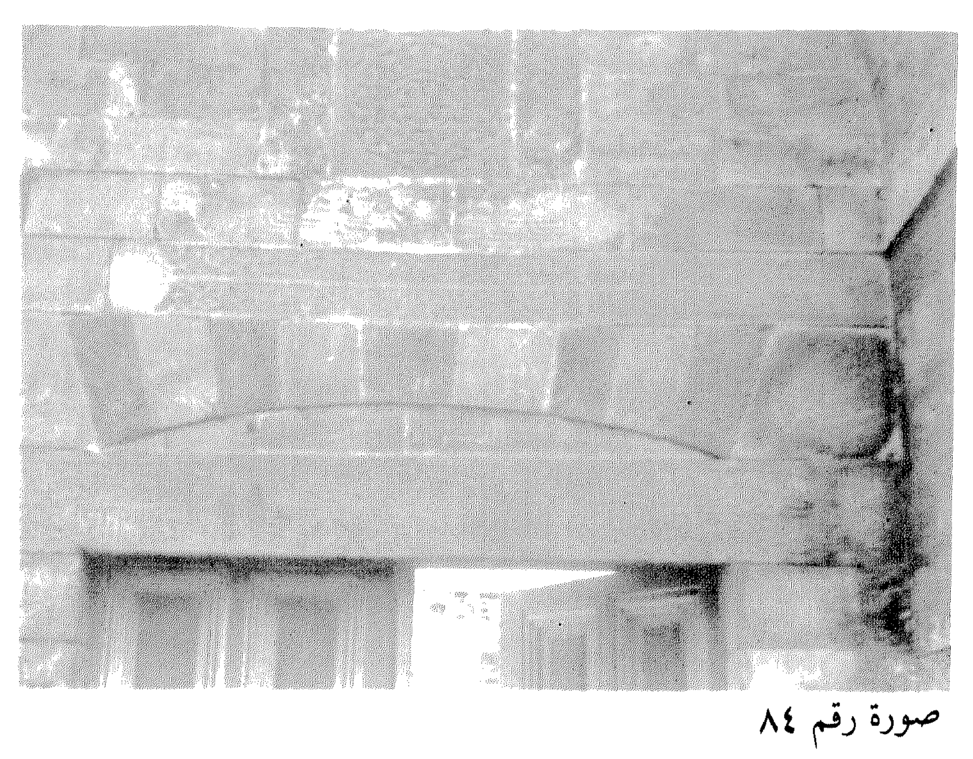
صورة رقم ٦٩



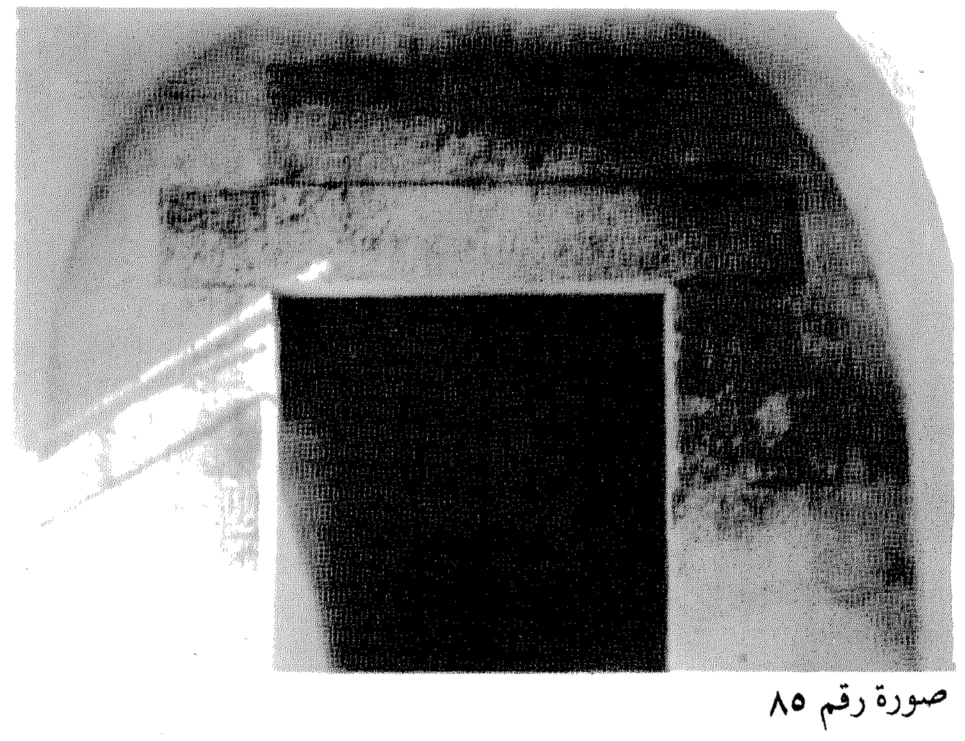
صورة رقم ٦٩ ا



صورة رقم ٧٥



صورة رقم ٨٤



صورة رقم ٨٥

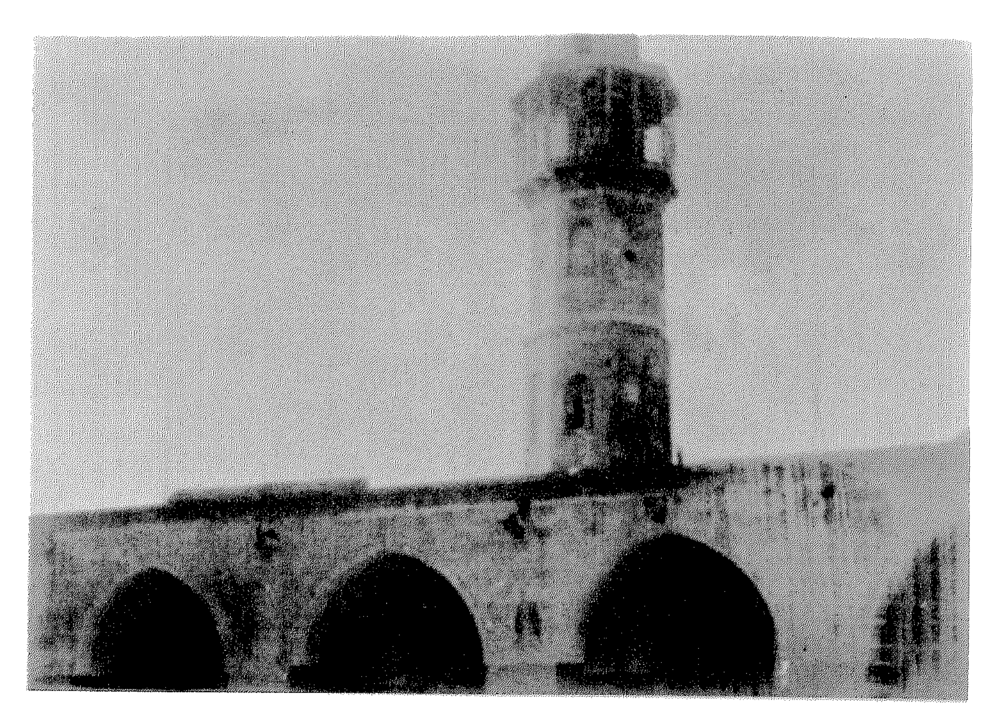


صورة رقم ٨٦

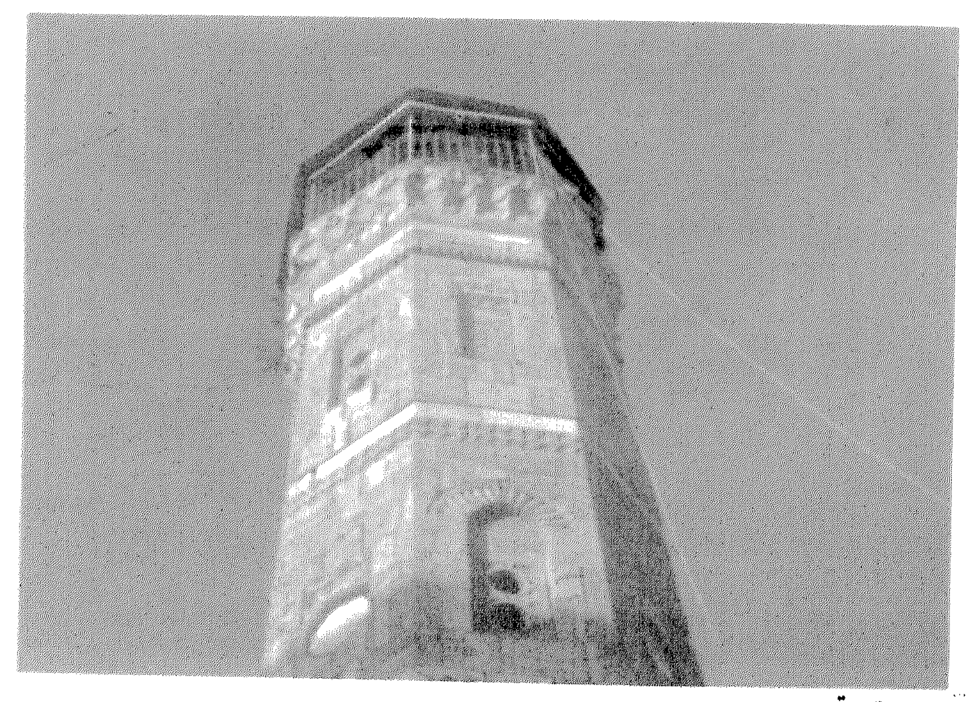
صورة رقم ٩٣



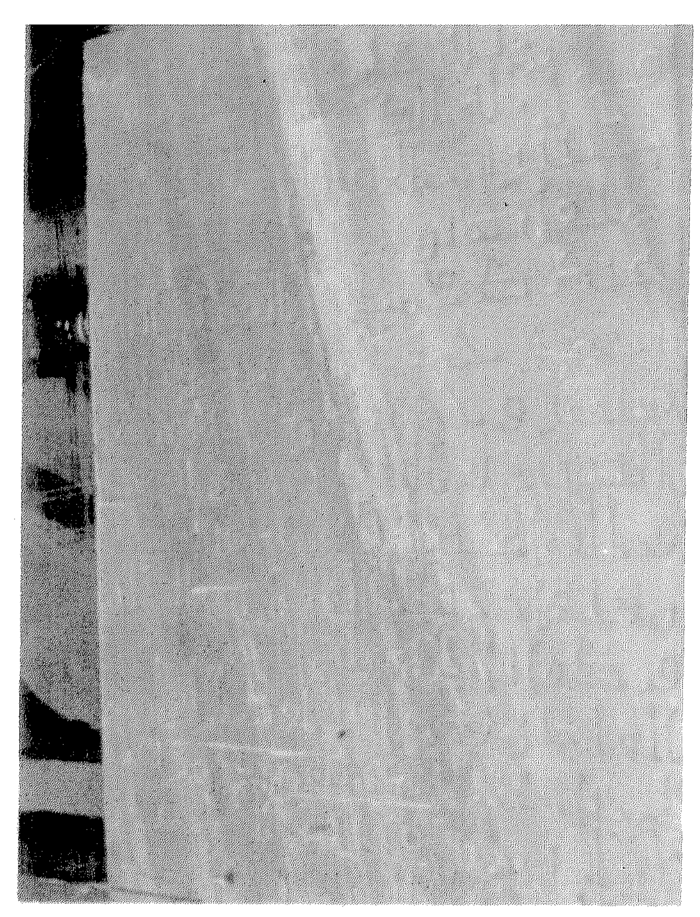
صورة رقم ٩٩



صورة رقم ١٠٢



صورة رقم ١٠٤



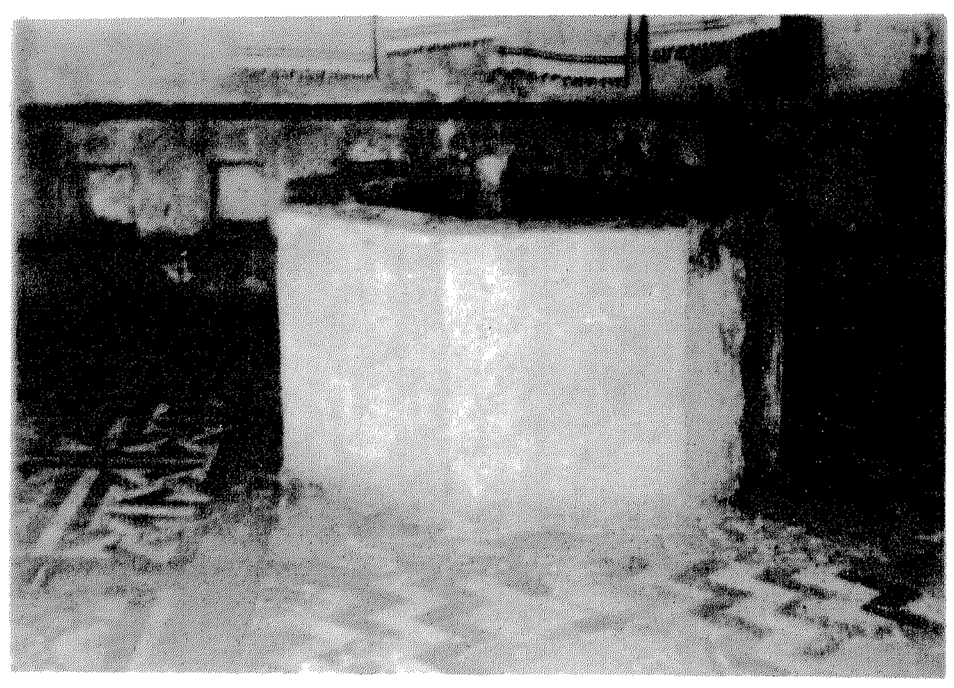
صورة رقم ١٠٦



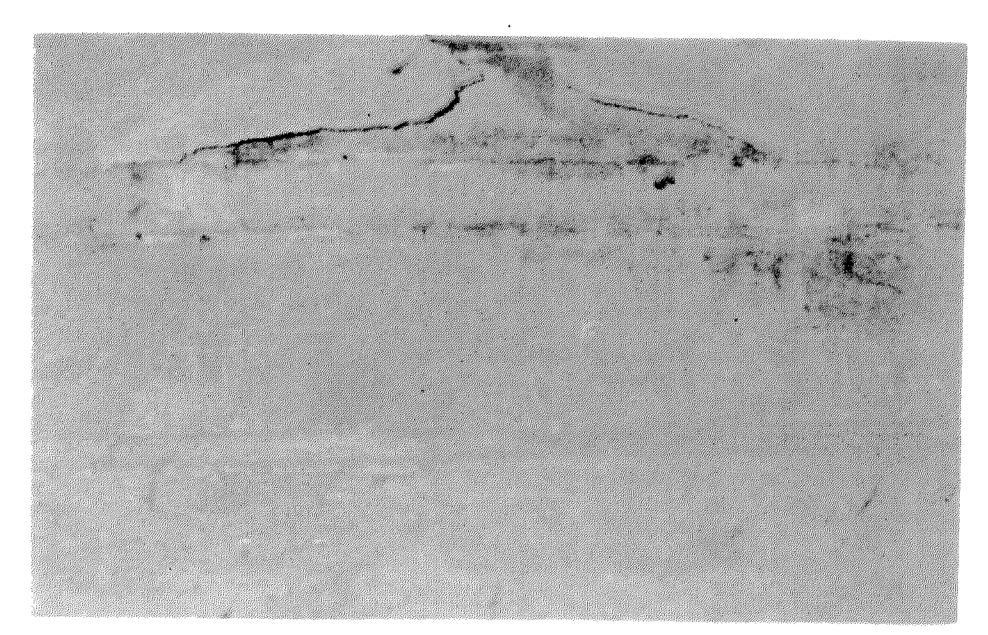
صورة رقم ١١٢



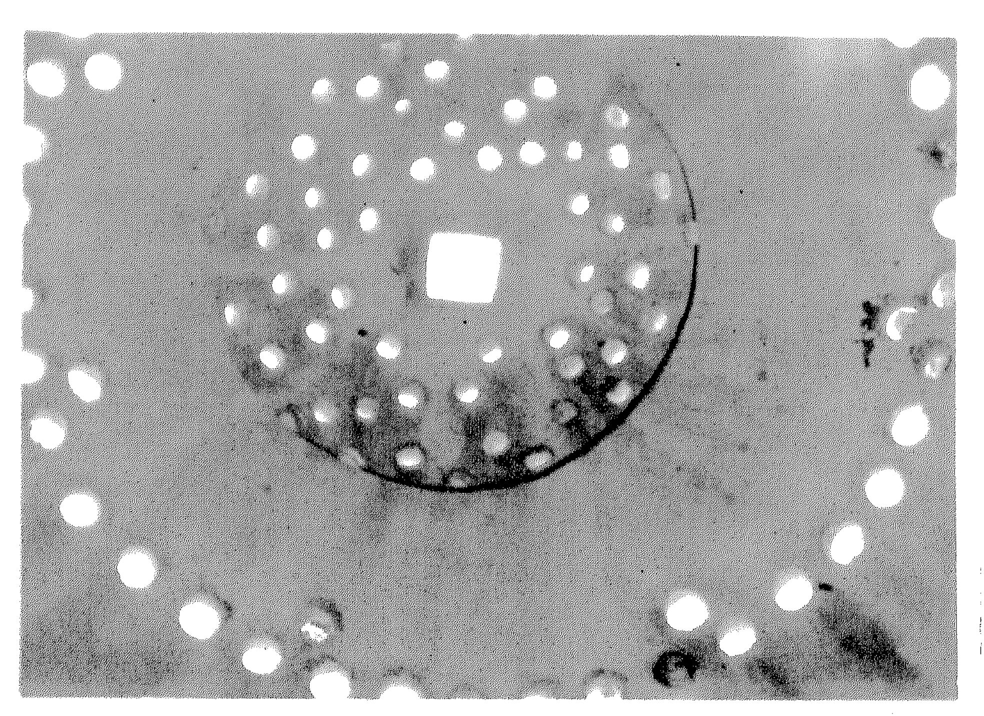
صورة رقم ١١٤



صورة رقم ١١٦



صورة رقم ١١٧



صورة رقم ١١٨

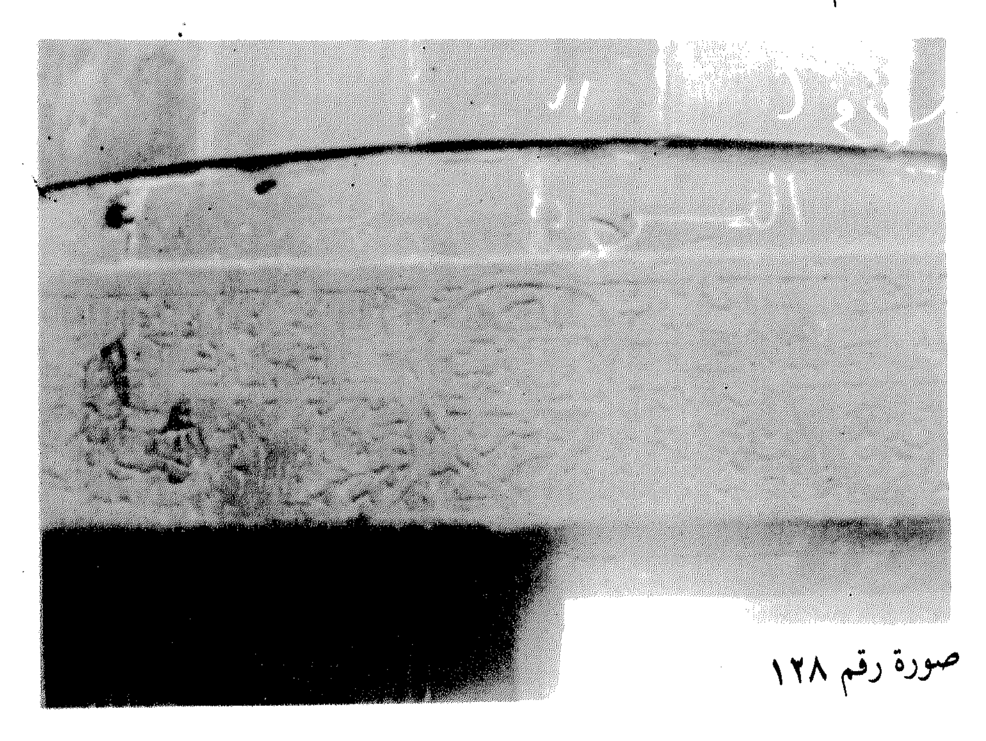
صورة رقم ١٢٣



صورة رقم ١٢٥



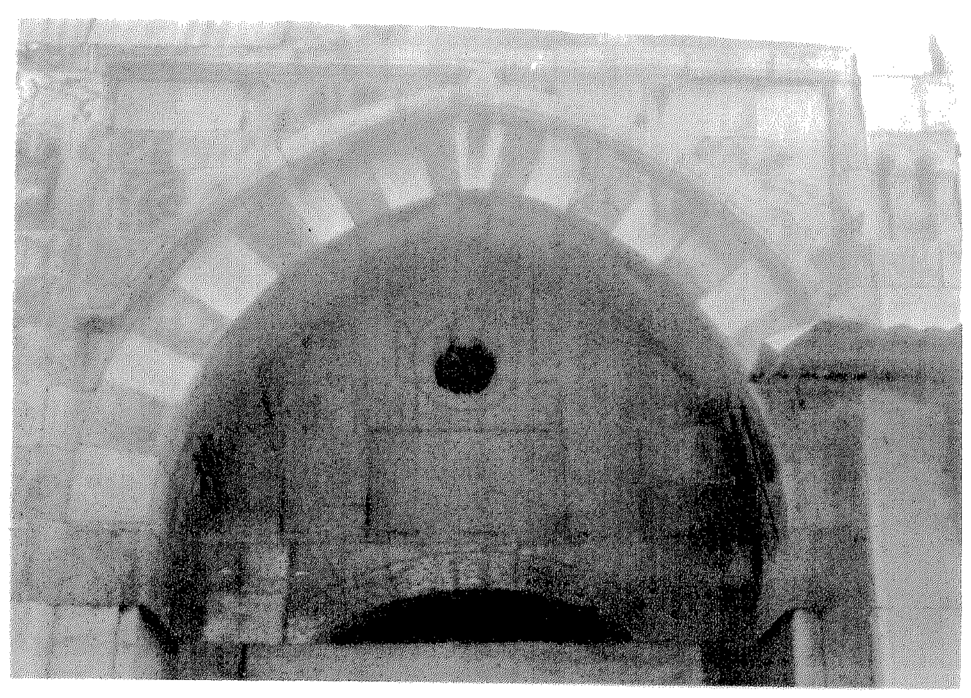
صورة رقم ١٢٧



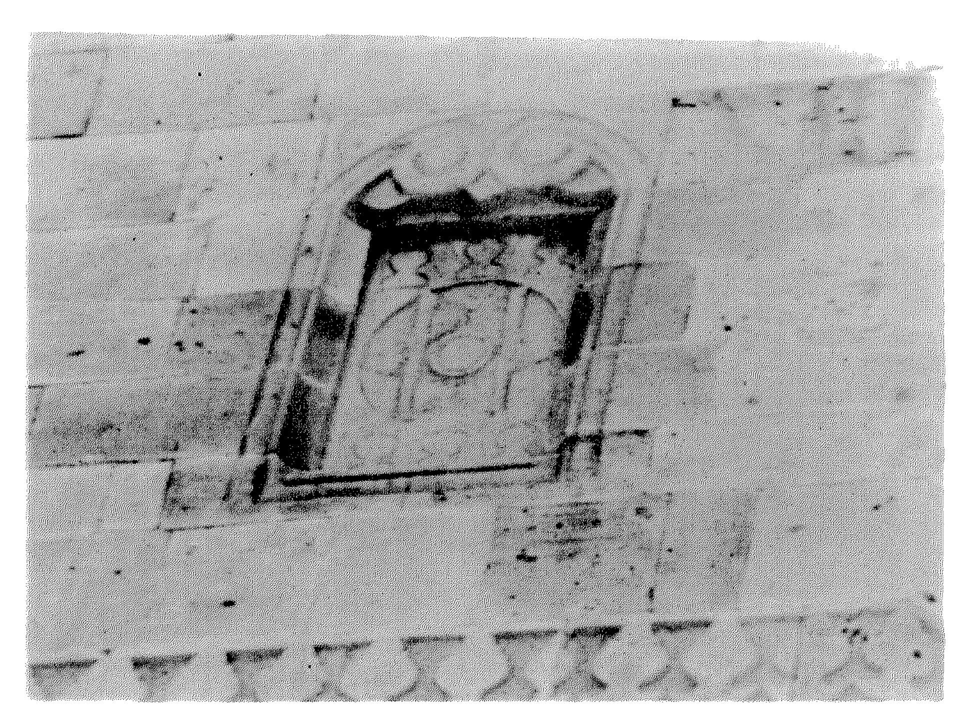
صورة رقم ١٢٨



صورة رقم ١٣٠



صورة رقم ١٣١



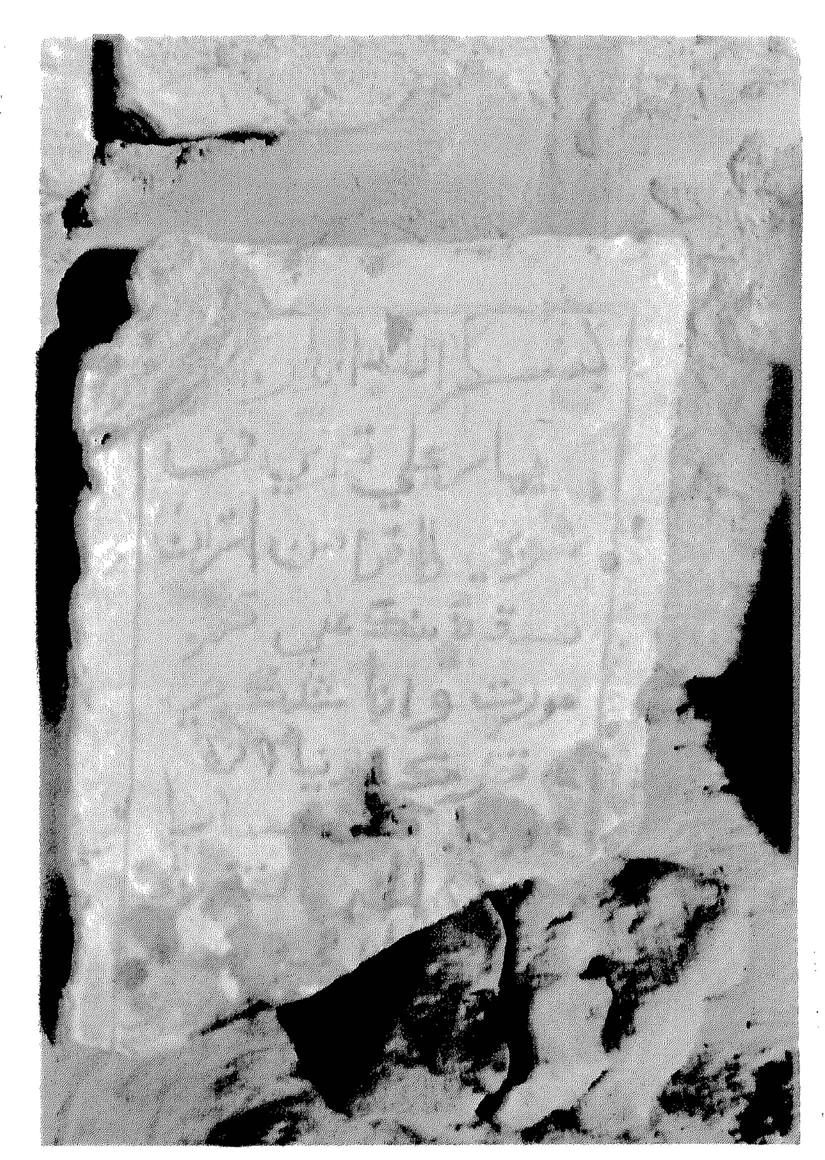
صورة رقم ١٣٢



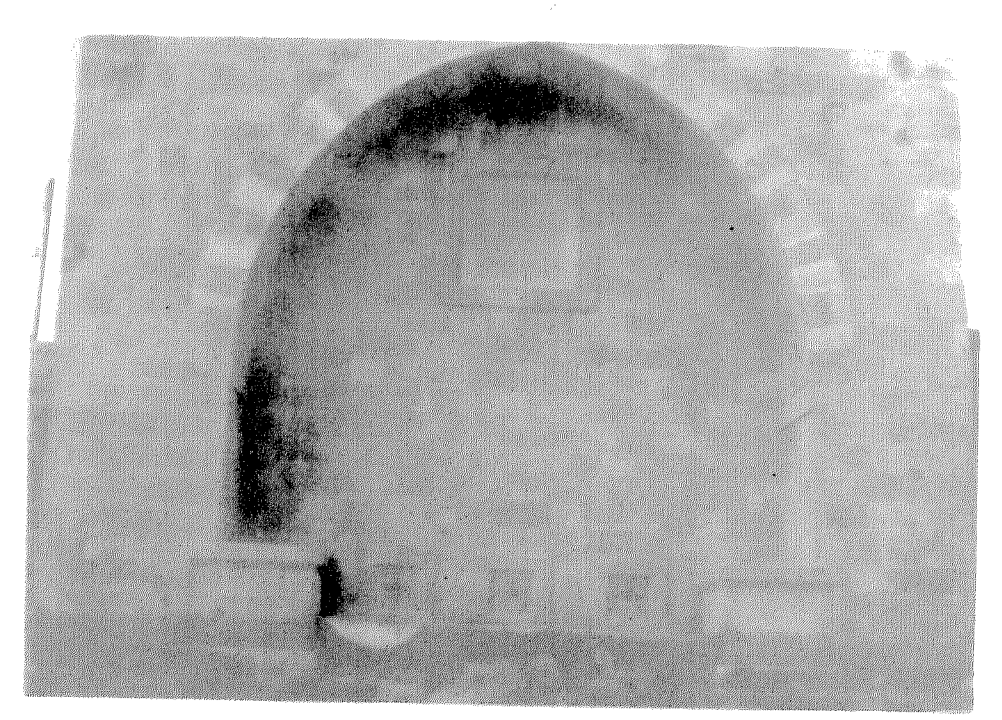
صورة رقم ١٣٣



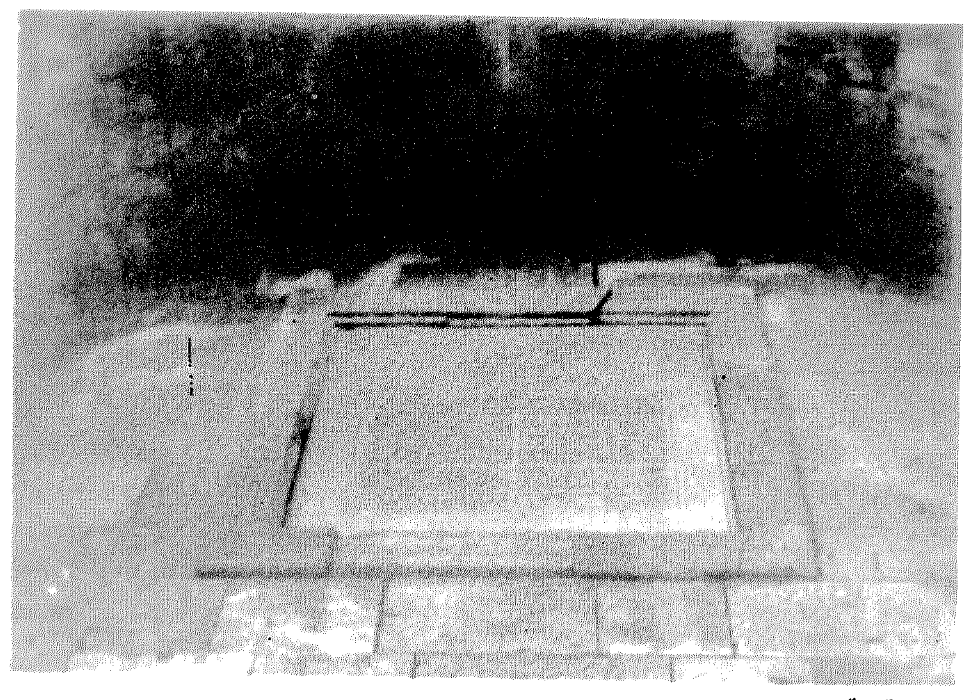
صورة رقم ١٣٤



صورة رقم ١٣٩



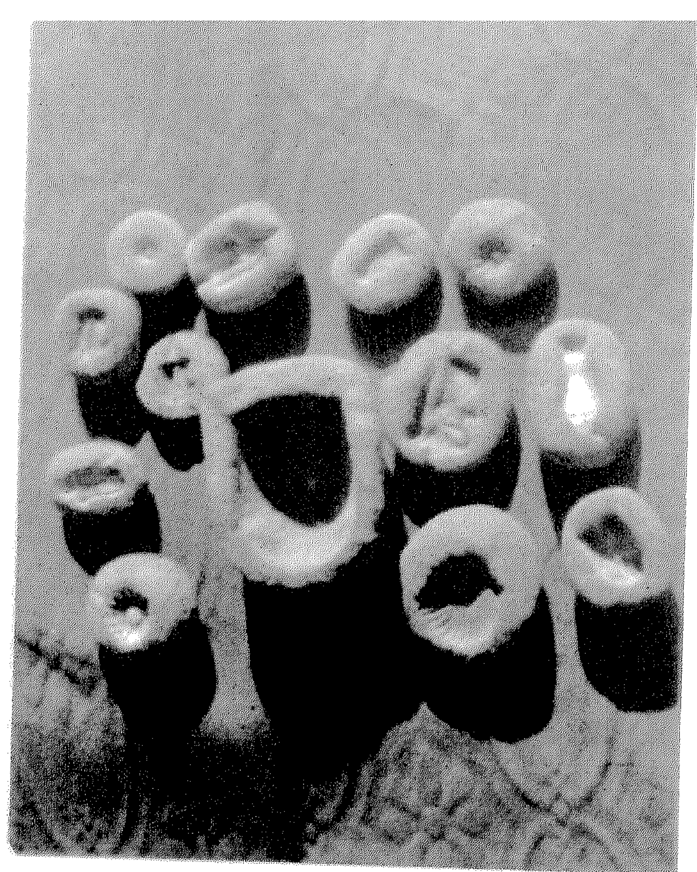
صورة رقم ١٥١



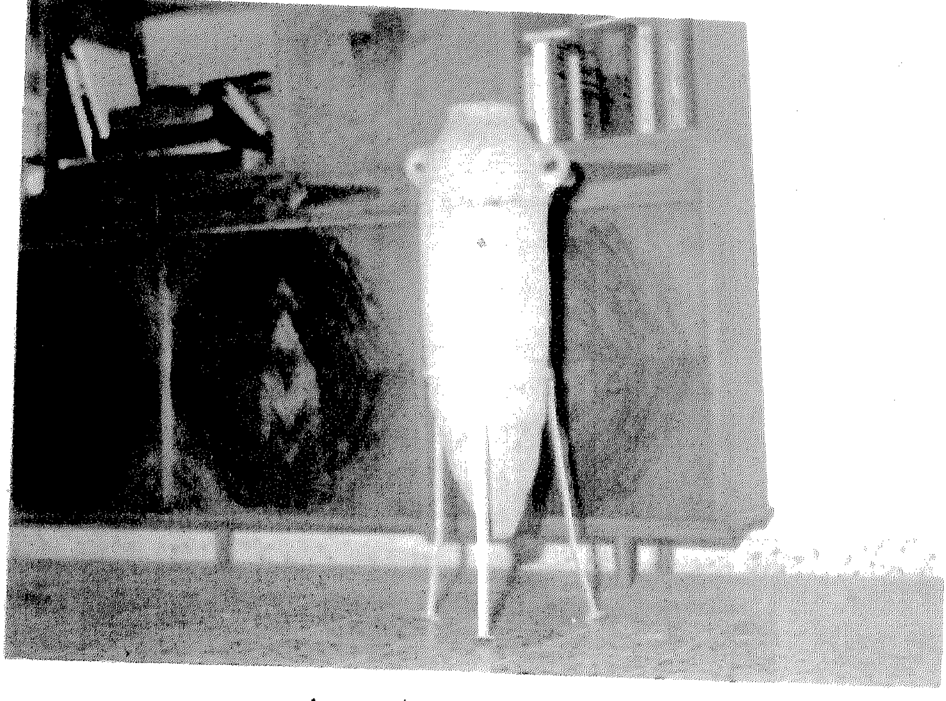
صورة رقم ١٥٢



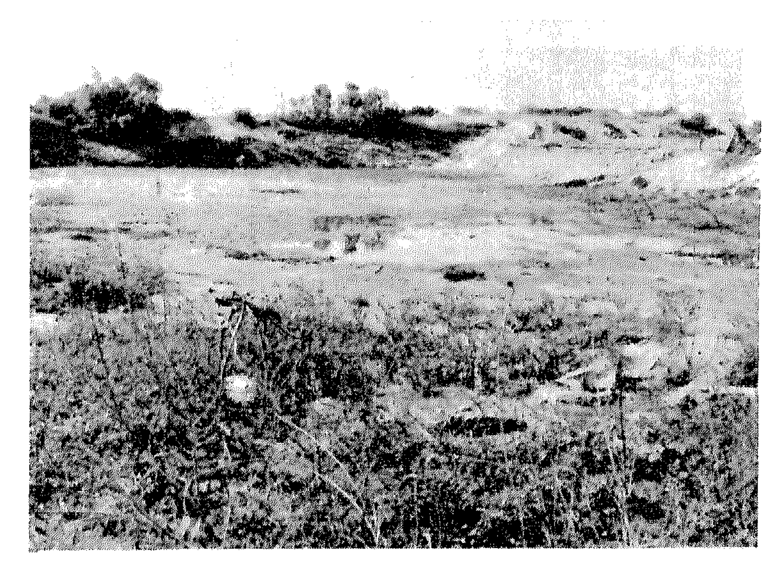
صورة رقم ١٥٤



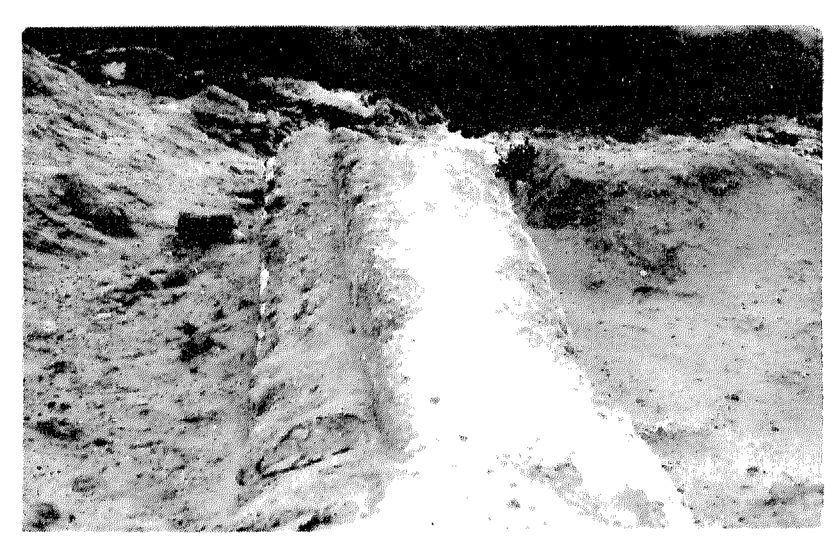
قوالب فخارية رومانية لأشكال مختلفة (عثر عليها على شاطىء غزه)



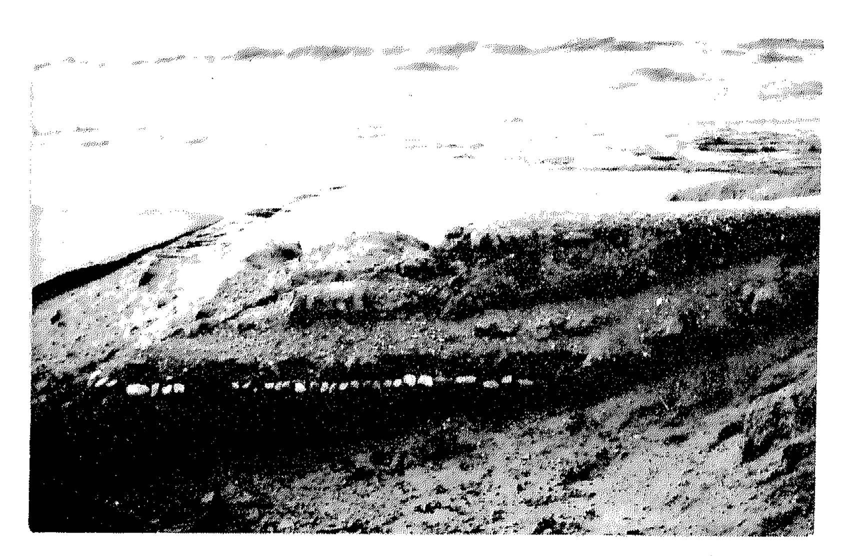
زير فخاري روماني (خرب العدس برفح)



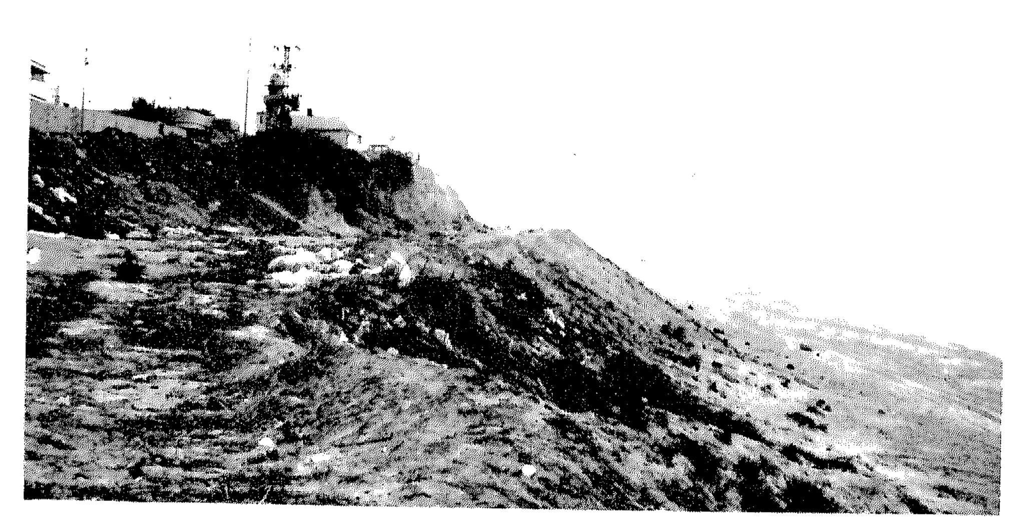
صورة رقم ١٣



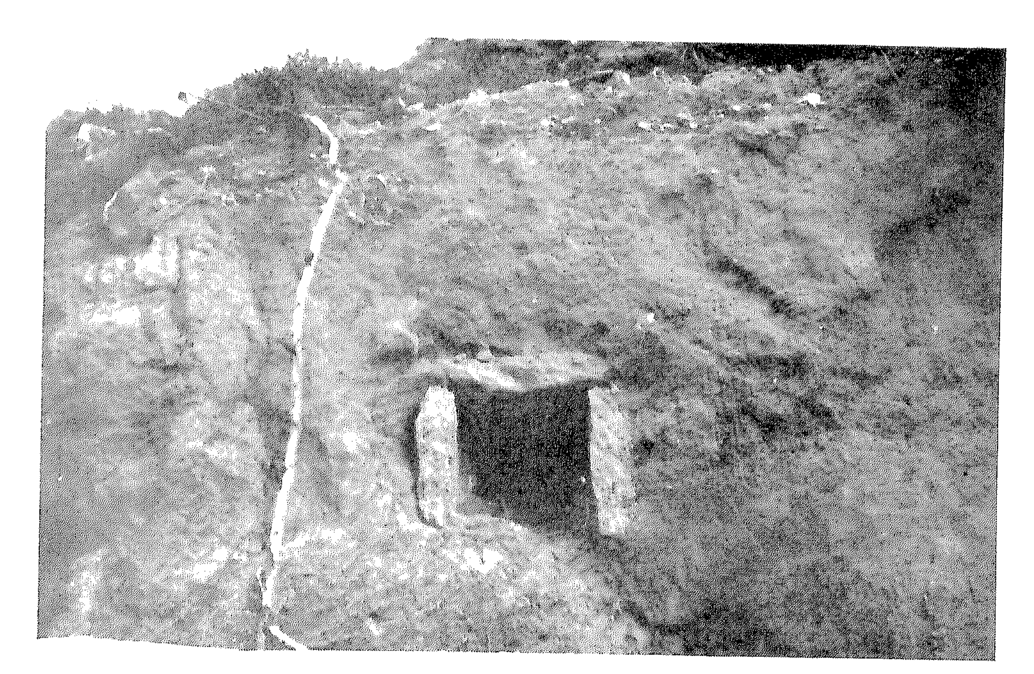
صورة رقم ١٤



صورة رقم ١٥



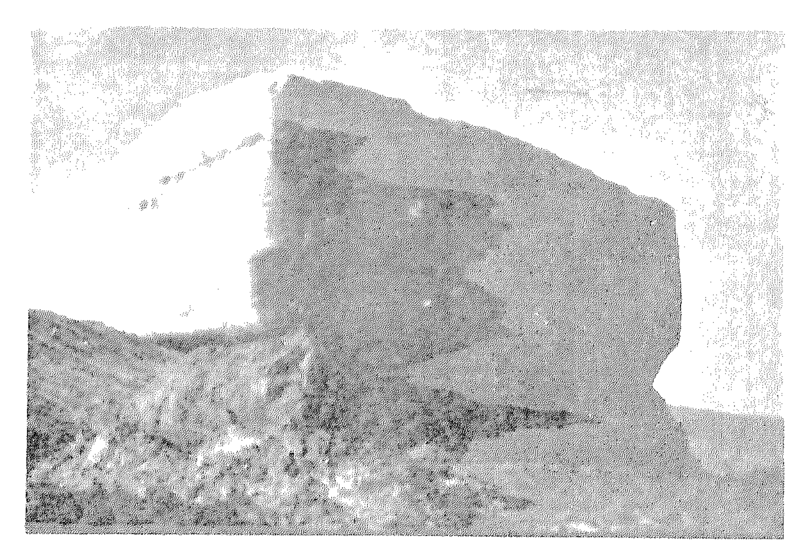
صورة رقم ١٦



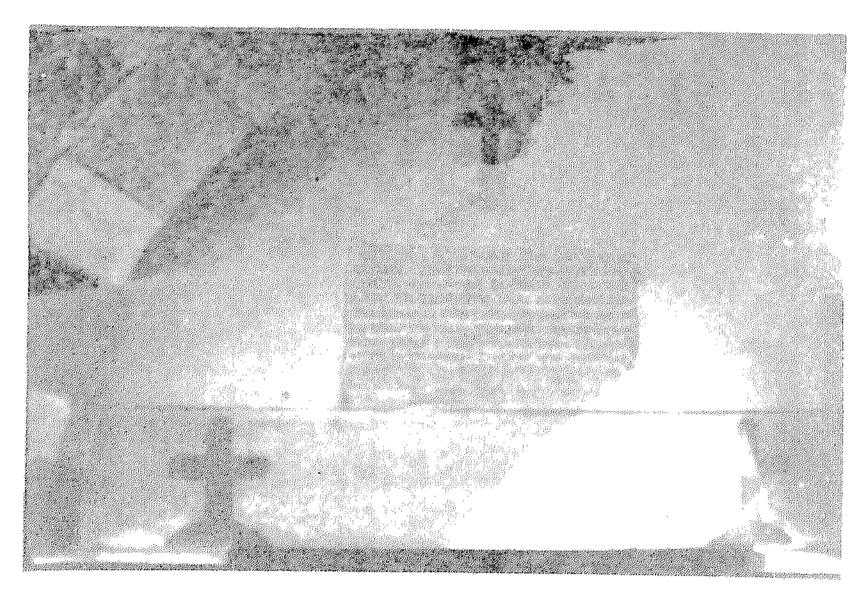
صورة رقم ١٧



صورة رقم ١٩



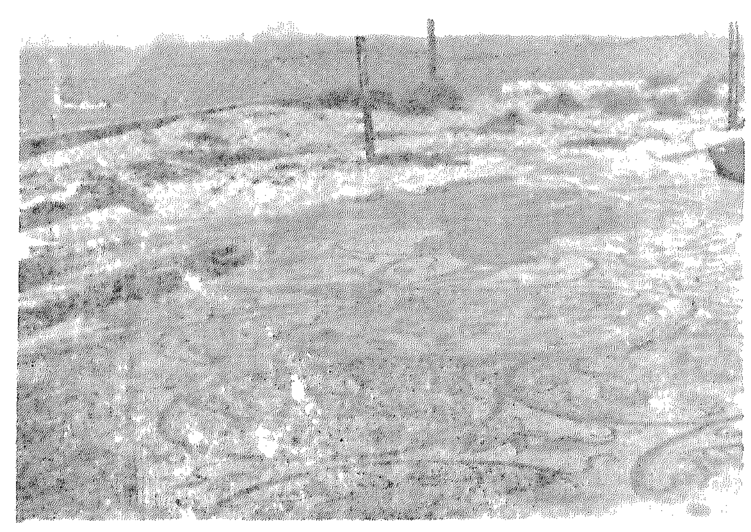
صورة رقم ٢٠



صورة رقم ٢٢



صورة رقم ٢٣



صورة رقم ٢٤



صورة رقم ٢٥



صورة رقم ٢٦



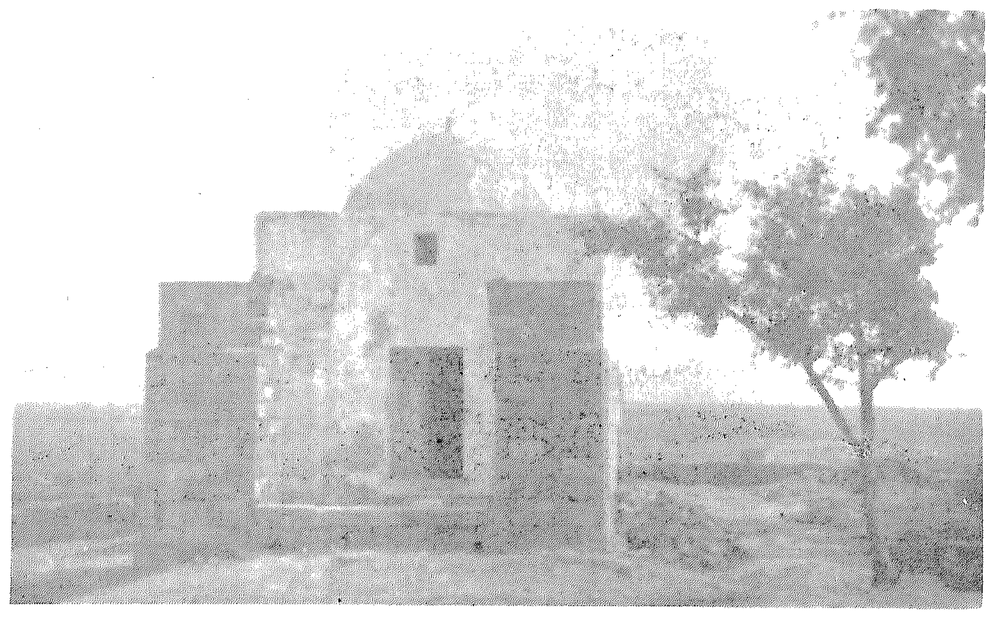
صورة رقم ٣٦



صورة رقم ٣٧



صورة رقم ٤١



صورة رقم٤٤





صورة رقم ٤٦



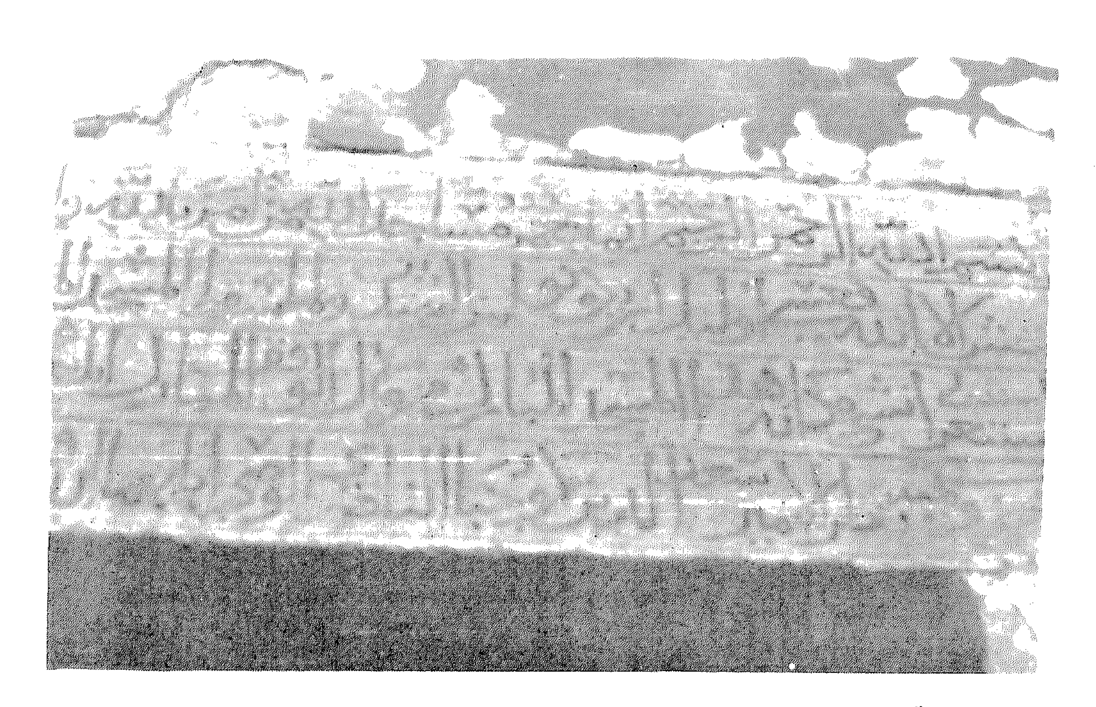
صورة رقم ٥١



صورة رقم ٥٥



صورة رقم ٥٦



صورة رقم ٥٨



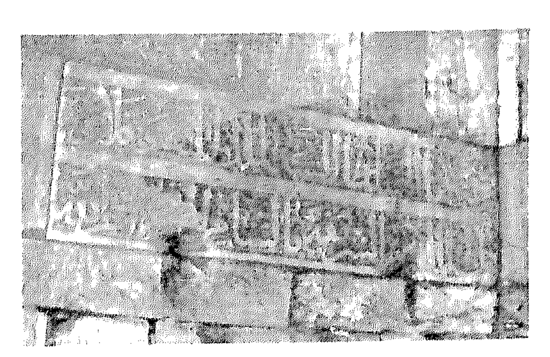
صورة رقم ٦٠



صورة رقم ٦١



صورة رقم ٦٢



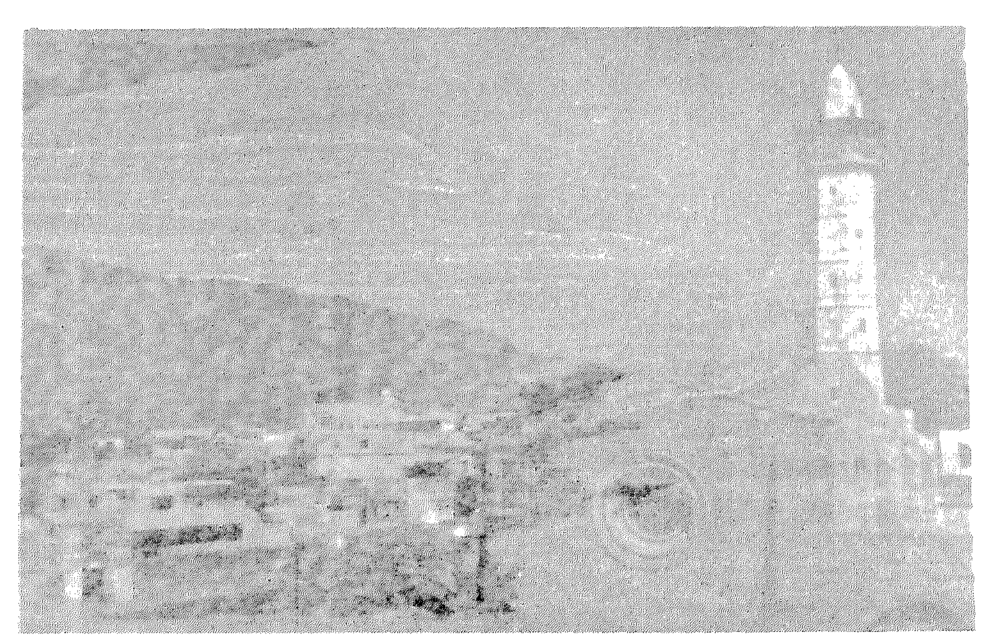
صورة رقم ٦٢حـ



صورة رقم ٦٢ ب



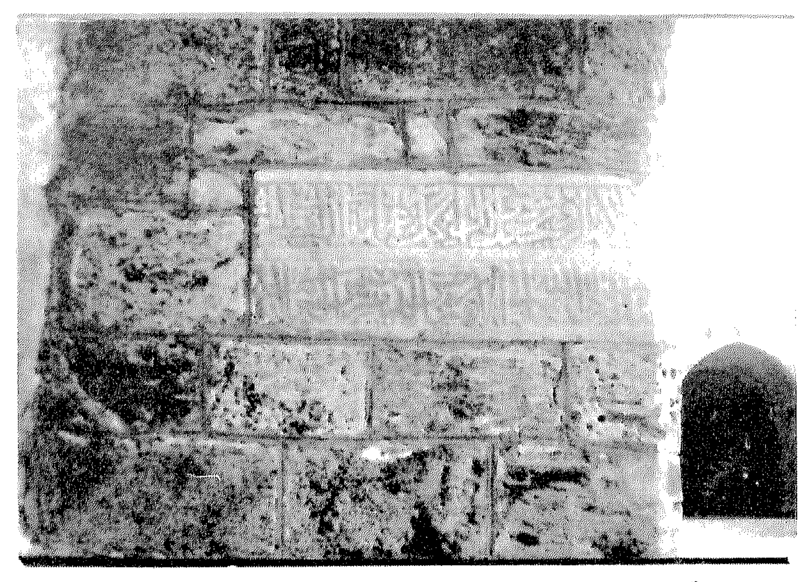
صورة رقم ٦٢ـ



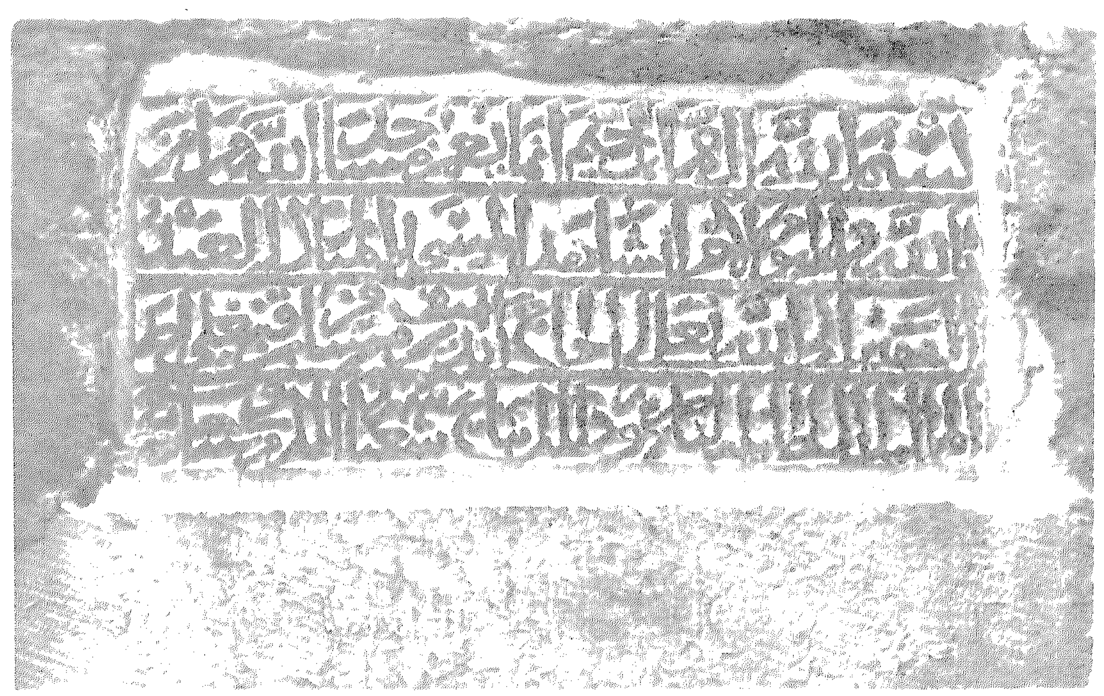
صورة رقم ٦٣



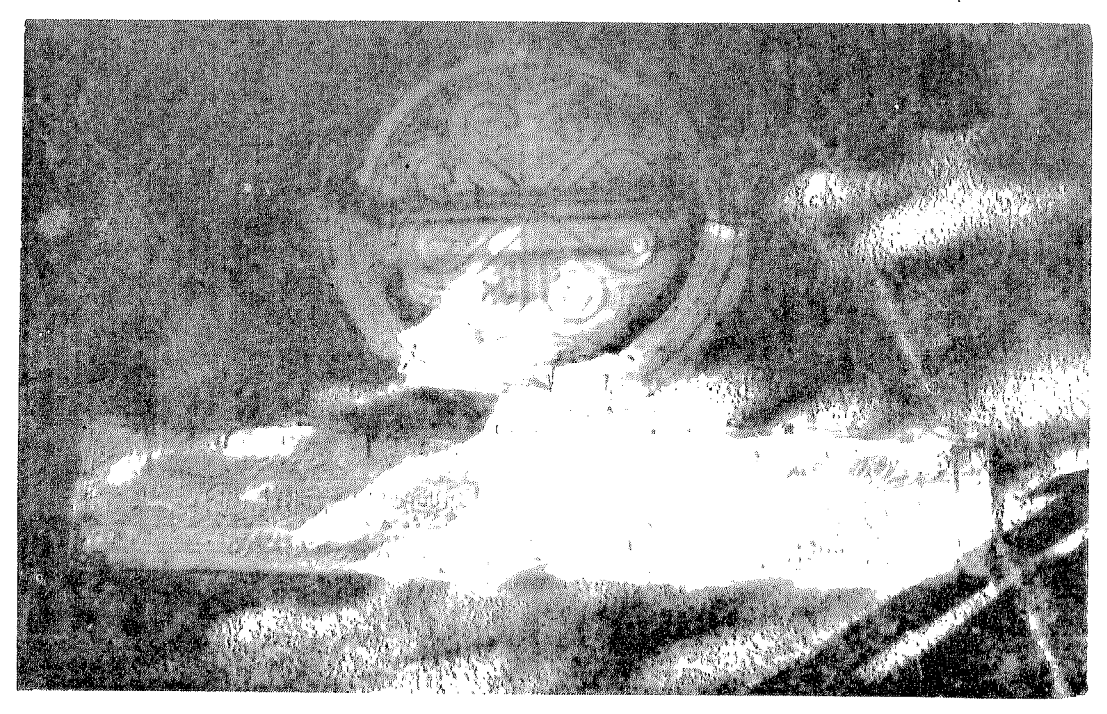
صورة رقم ٦٦



صورة رقم ٦٧



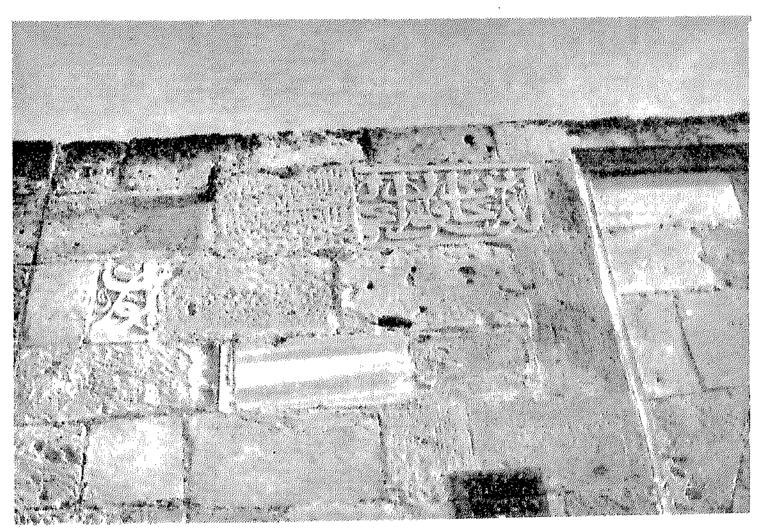
صورة رقم ٦٨



صورة رقم ٧٠



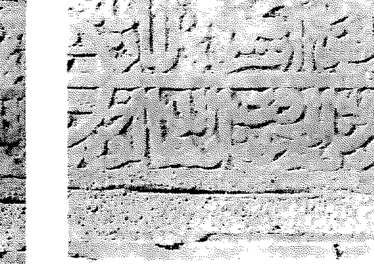
صورة رقم ٧٢

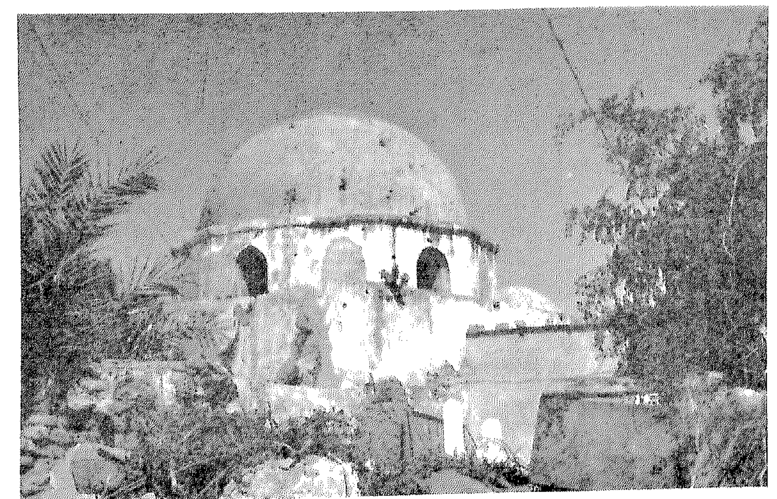


صـورة رقم ٧٣

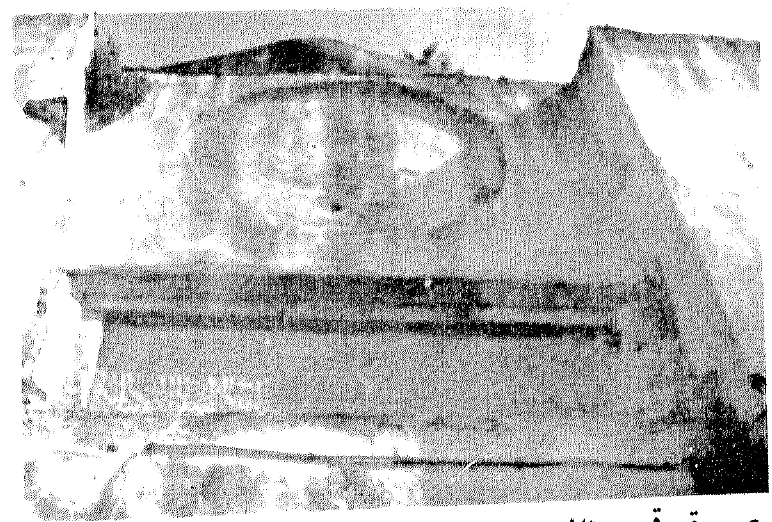
صورة رقم ٧٤



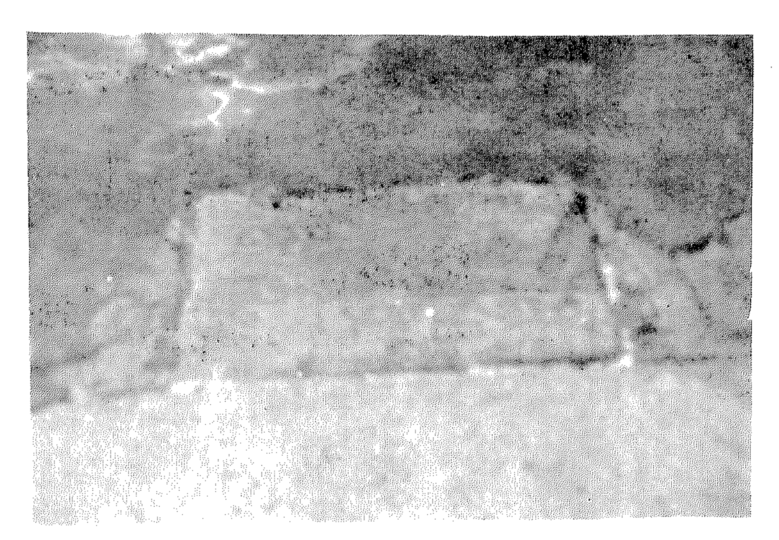




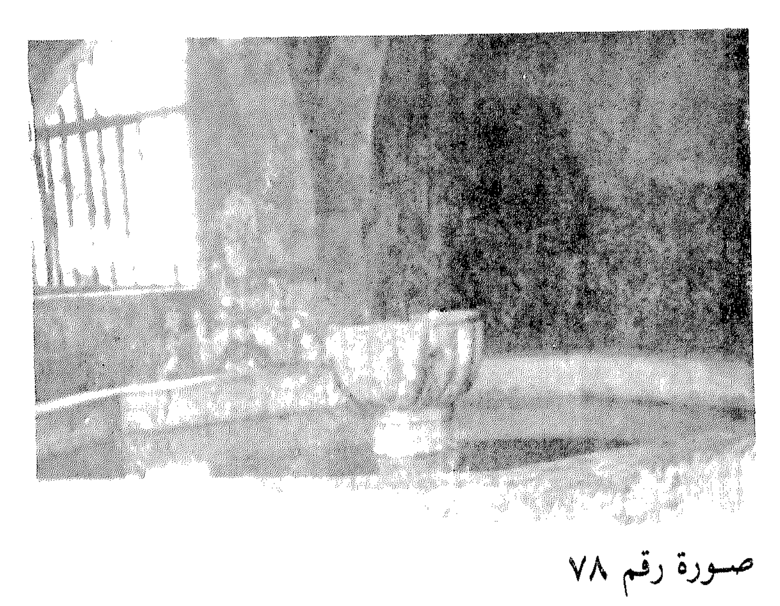
صورة رقم ٧٦



صورة رقم ٧٦ ب



صورة رقم ٧٧



صـورة رقم ٧٨



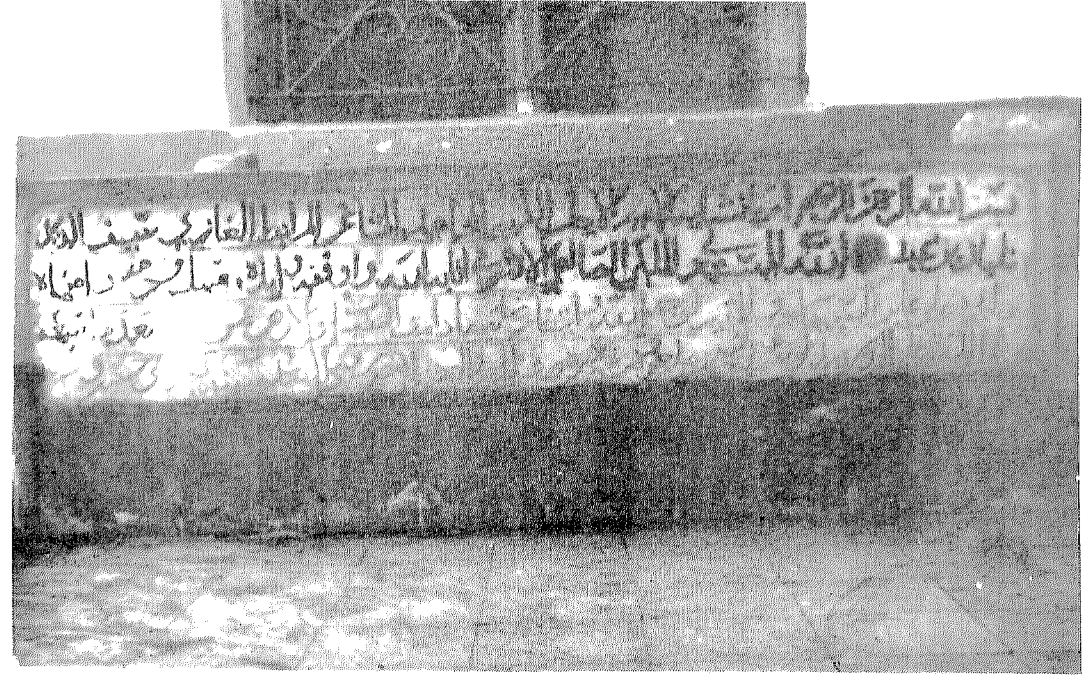
صورة رقم ٧٩



صورة رقم ٨٠



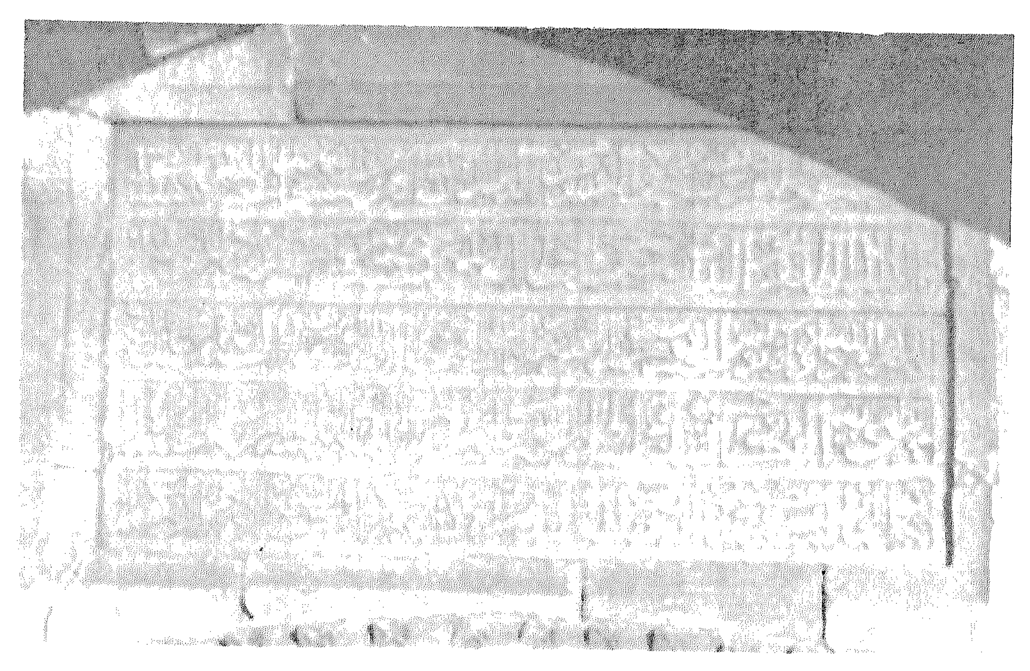
صورة رقم ٨١



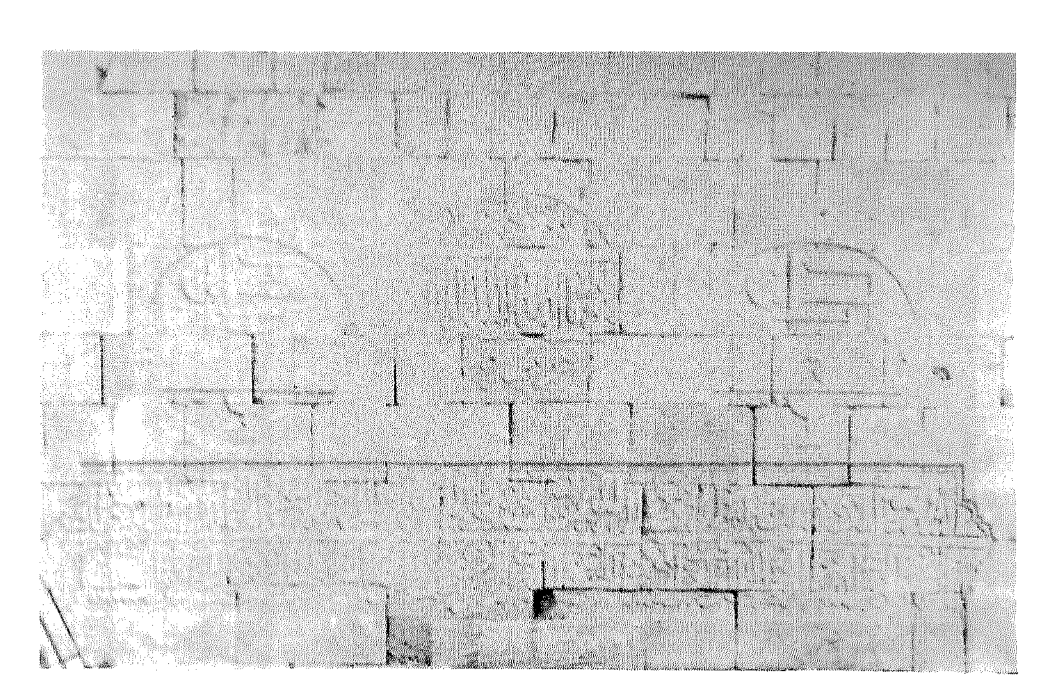
صورة رقم ٨٢



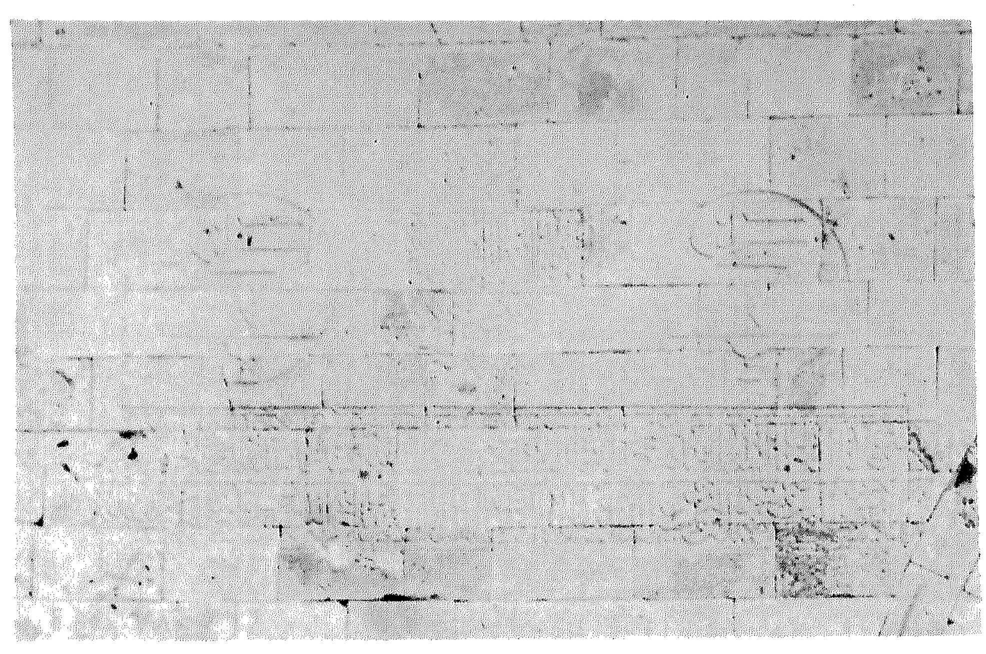
صورة رقم ٨٣



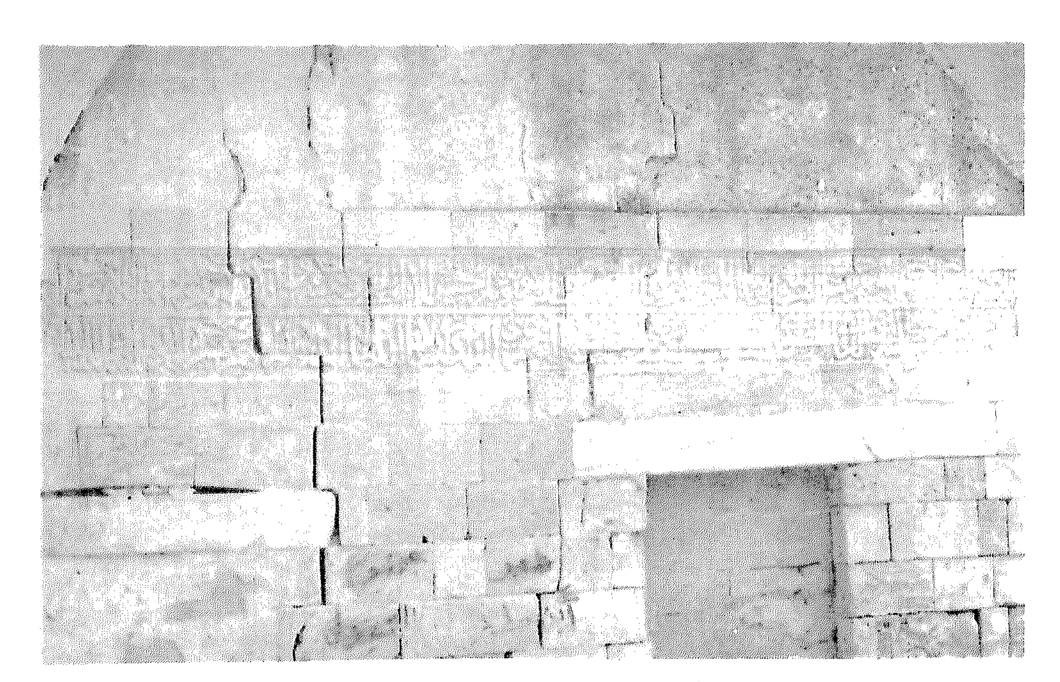
صورة رقم ٨٧



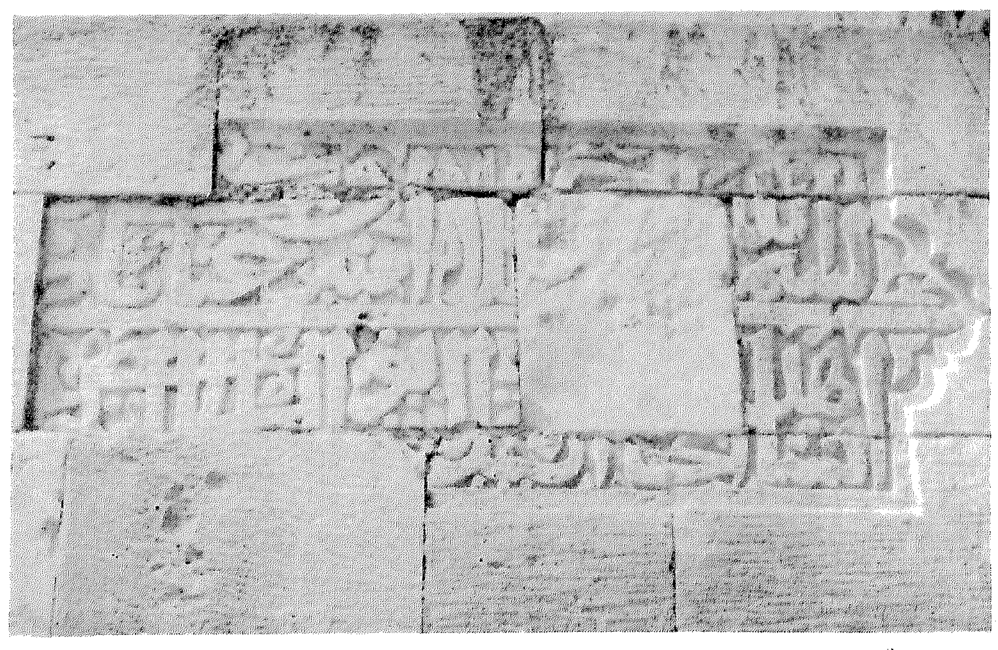
صورة رقم ٨٨



صورة رقم ٨٩



صورة رقم ٩٠



صورة رقم ٩١



صورة رقم ٩٤



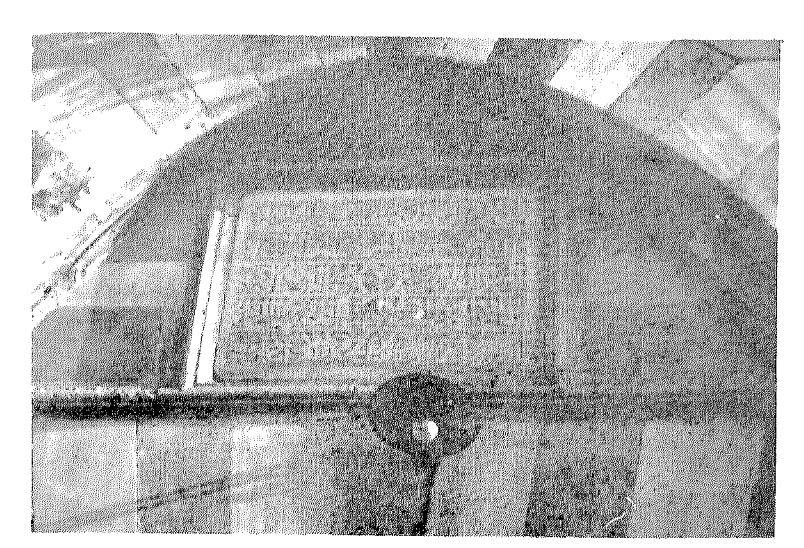
صورة رقم ٩٤



صورة رقم ٩٥



صورة رقم ٩٦



صورة رقم ٩٧



صـورة رقم ٩٨



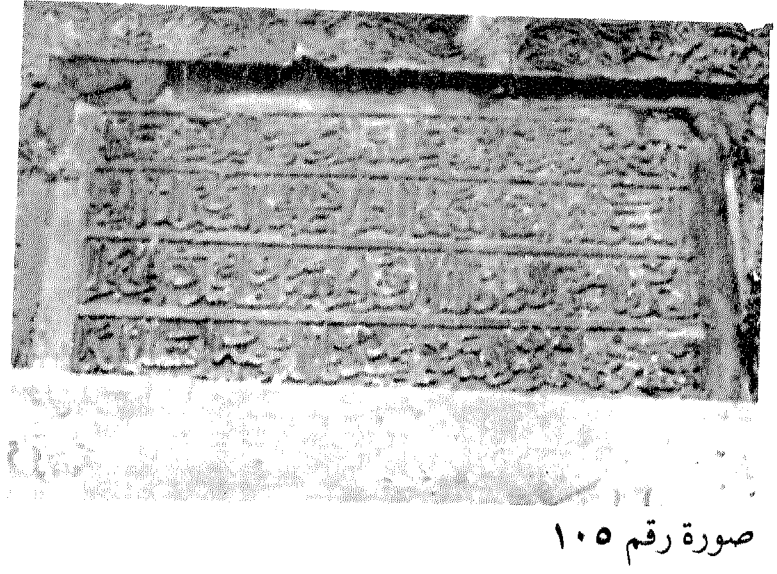
صورة رقم ١٠٠



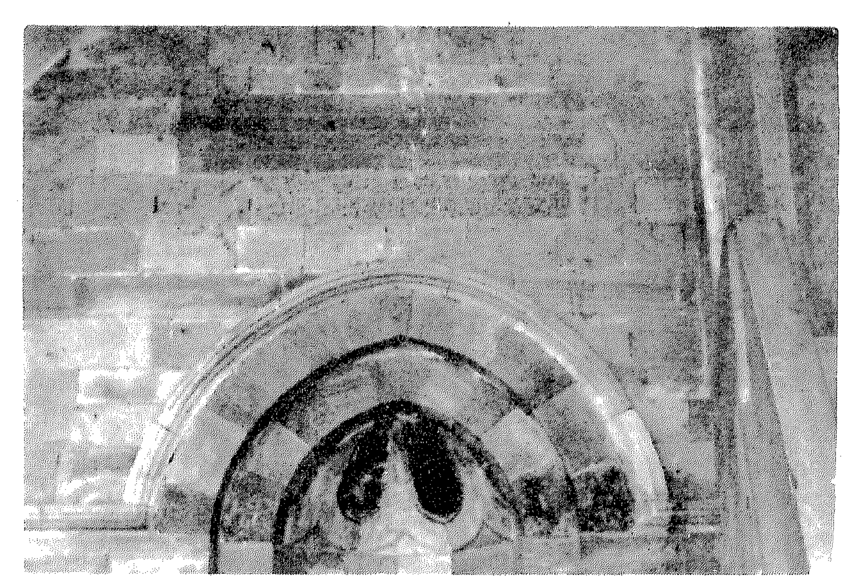
صورة رقم ١٠١



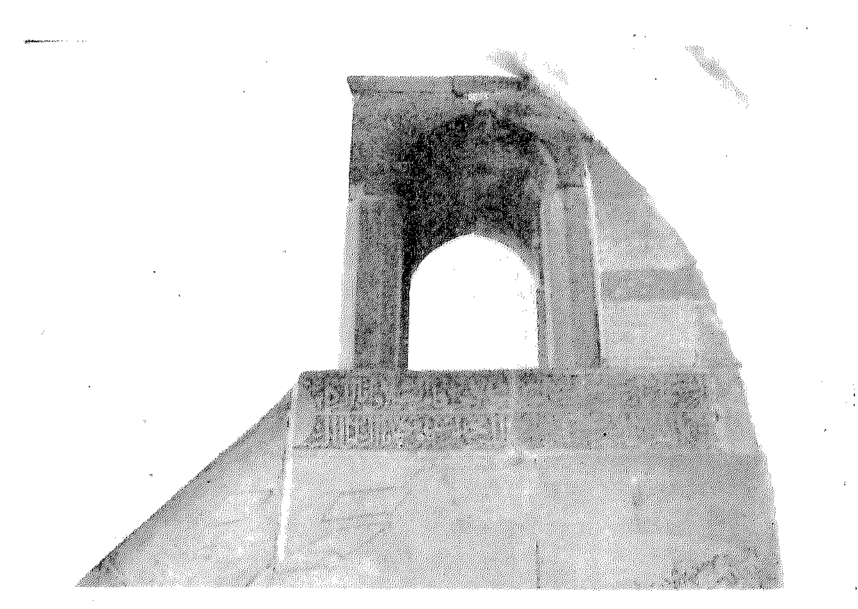
صورة رقم ١٠٣



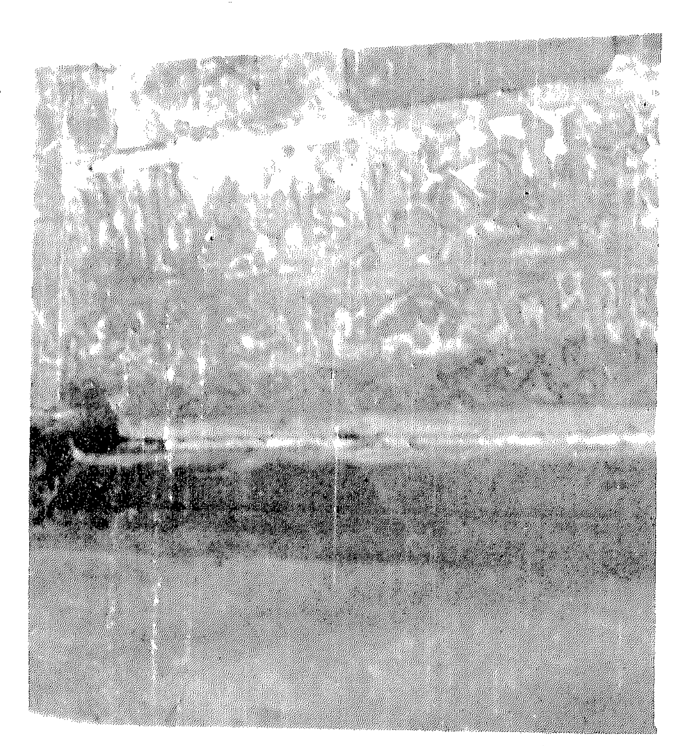
صورة رقم ١٠٥



صورة رقم ١٠٧



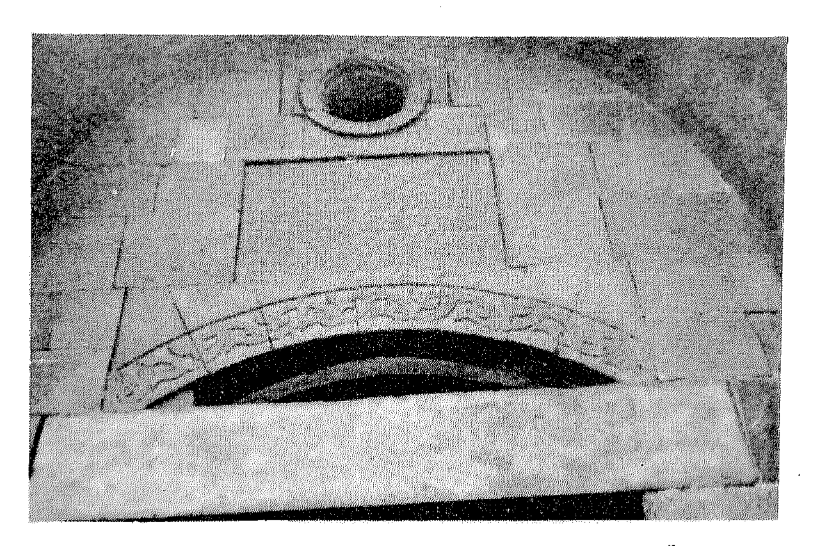
صورة رقم ١٠٨



صورة رقم ١٠٩



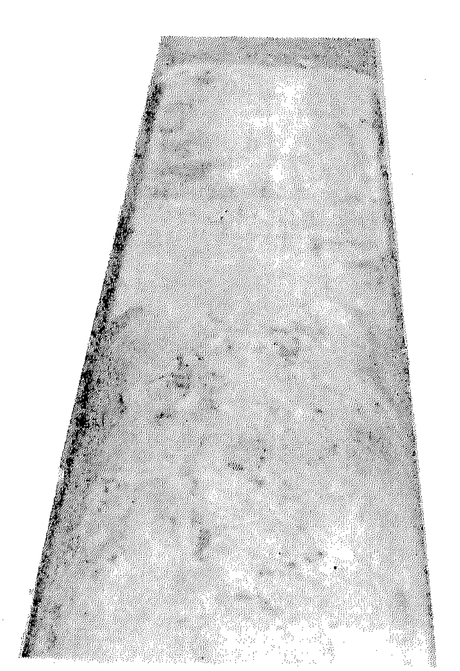
صورة رقم ١١٠



صورة رقم ١١١



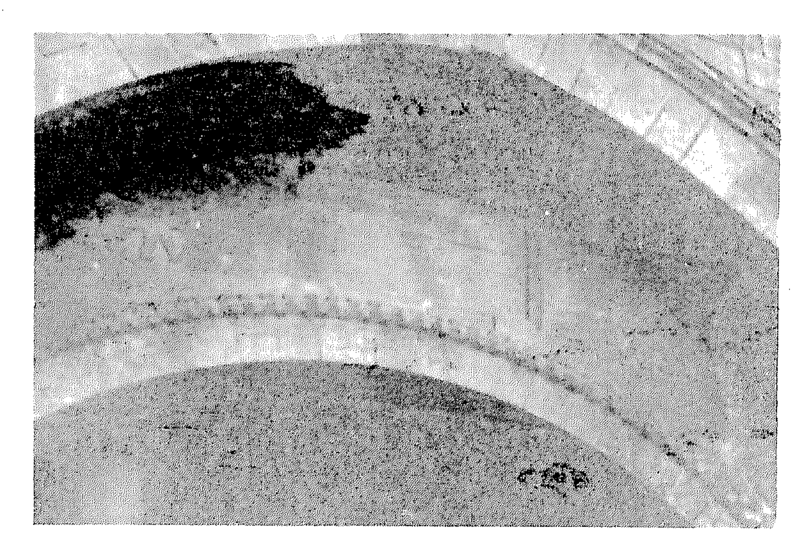
صورة رقم ١١٩



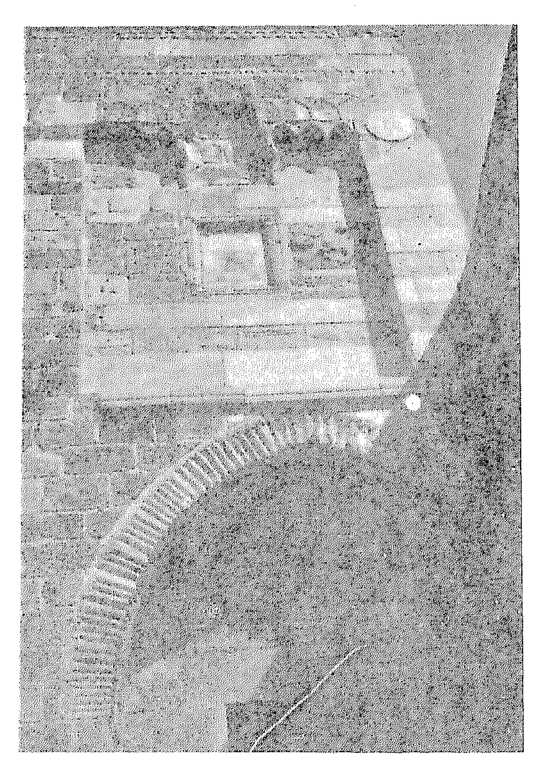
صورة رقم ١٢٠



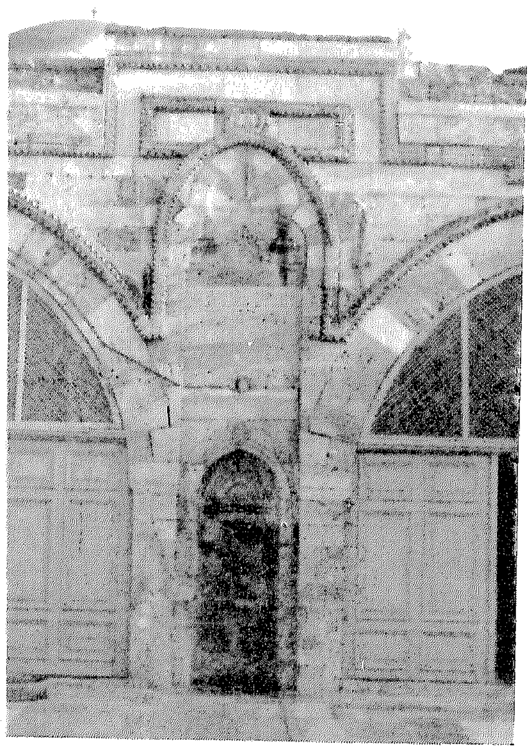
صورة رقم ١٢١



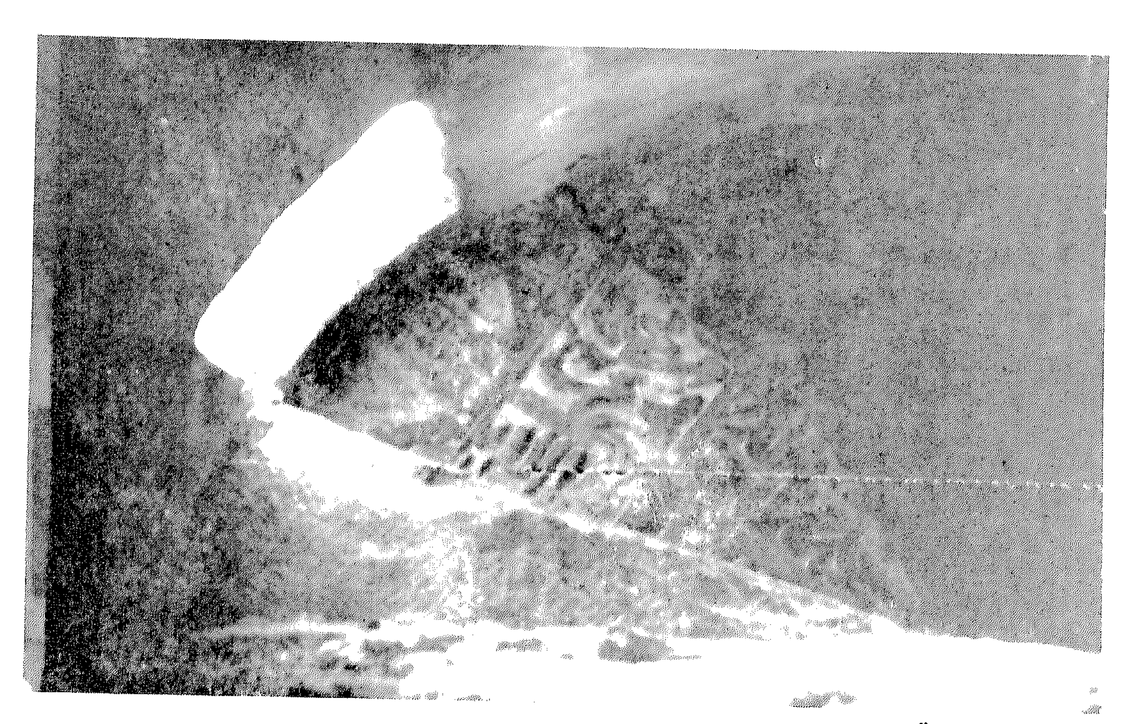
صورة رقم ١٢٢



صورة رقم ١٢٤



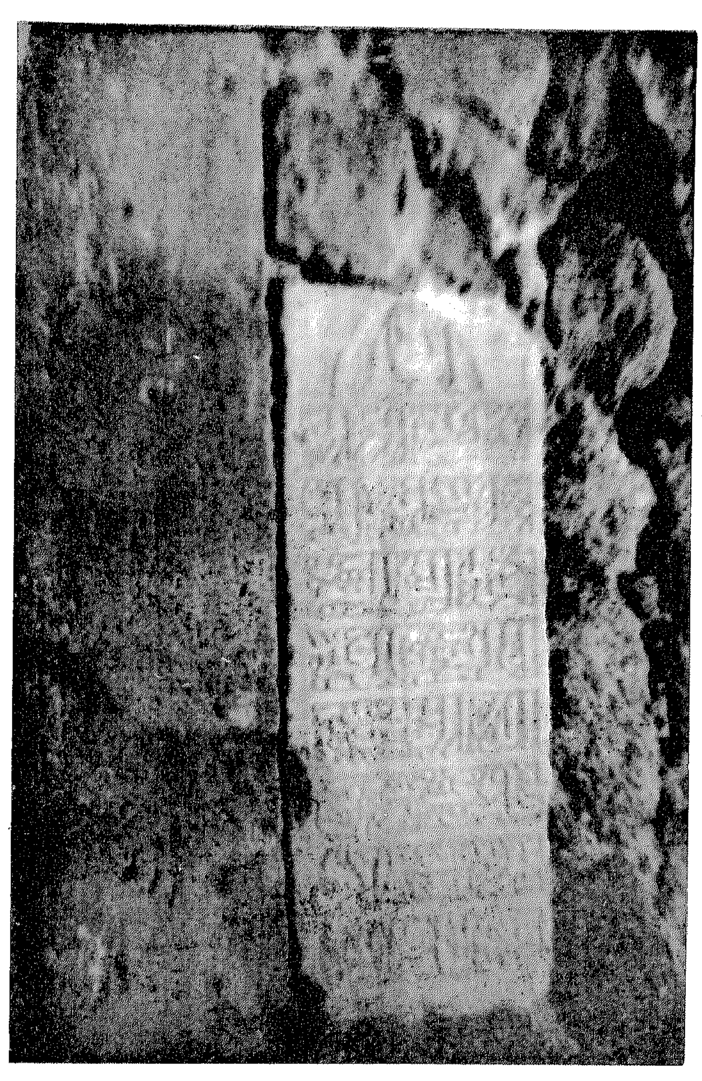
صورة رقم ١٢٦



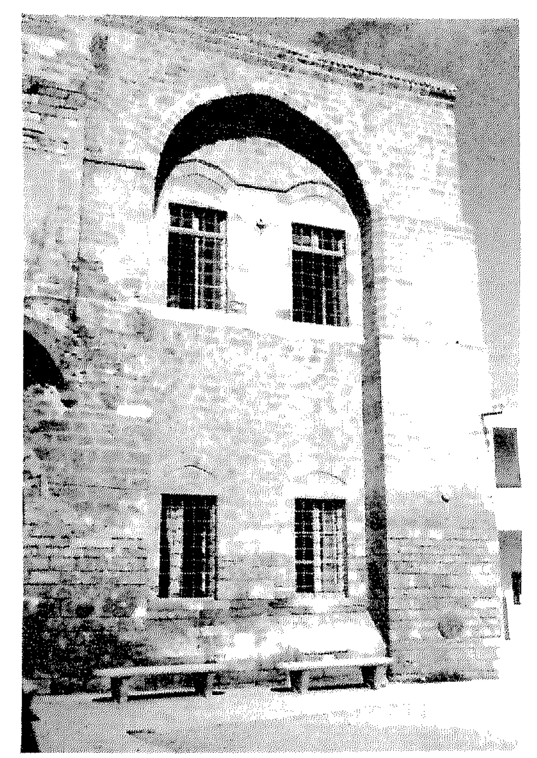
صورة رقم ١٢٩



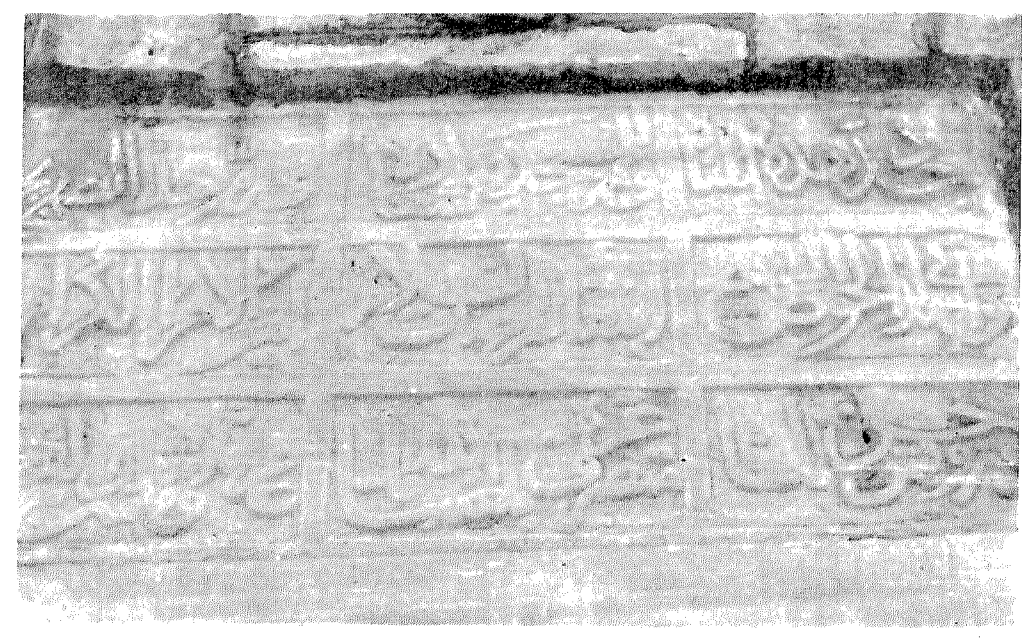
صورة رقم ١٣٣



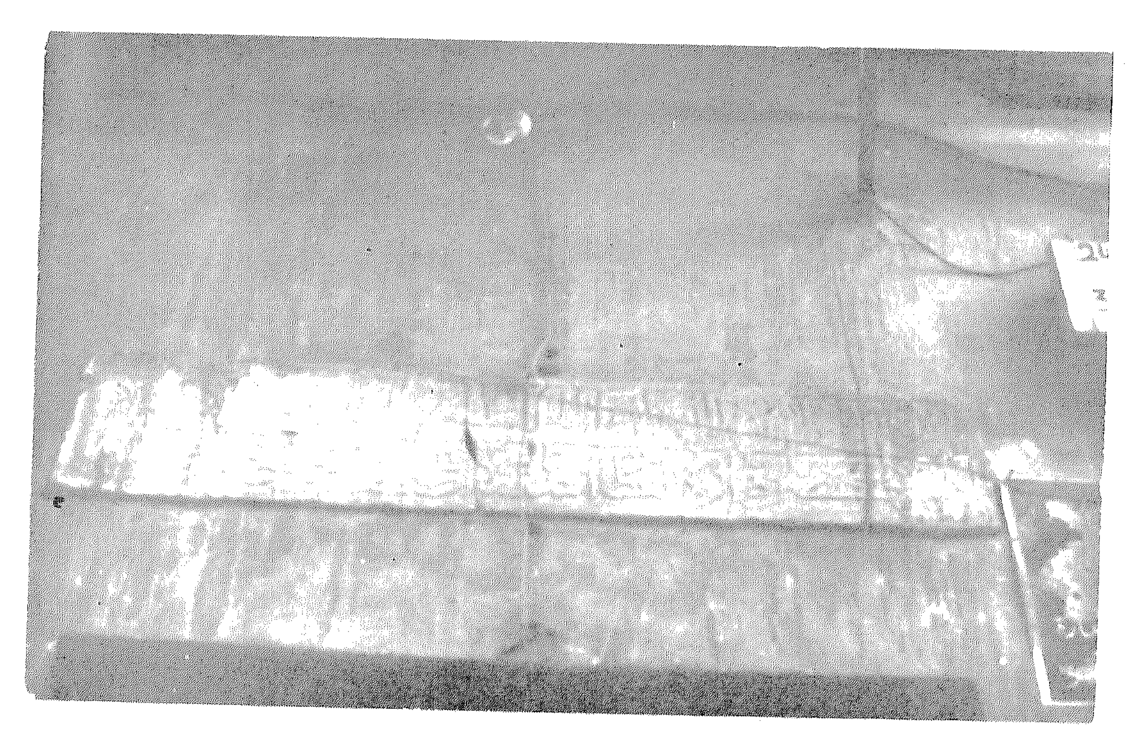
صورة رقم ١٣٥



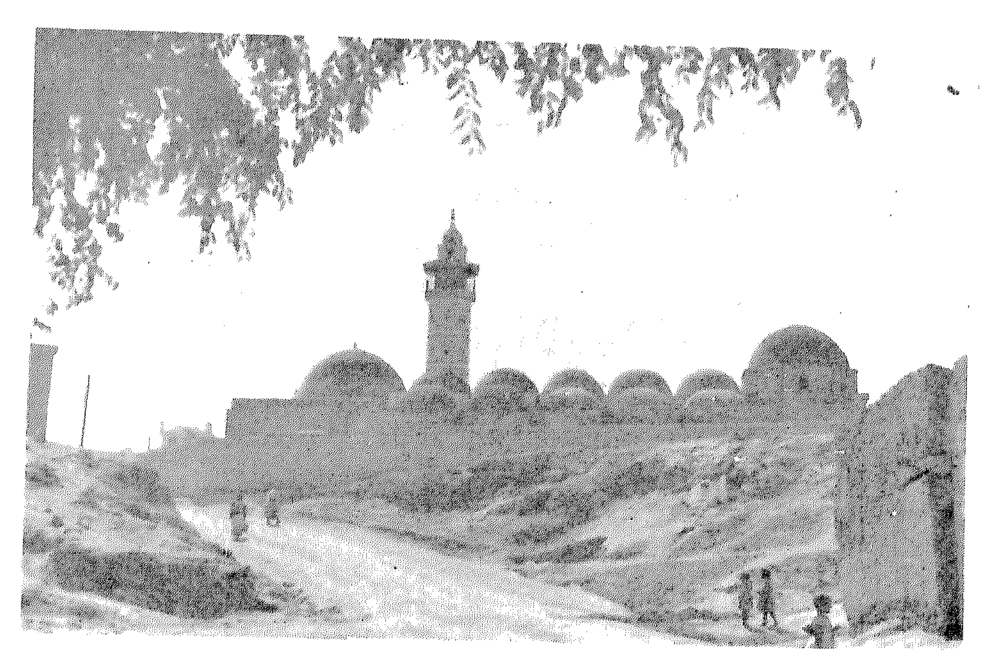
صورة رقم ١٣٦



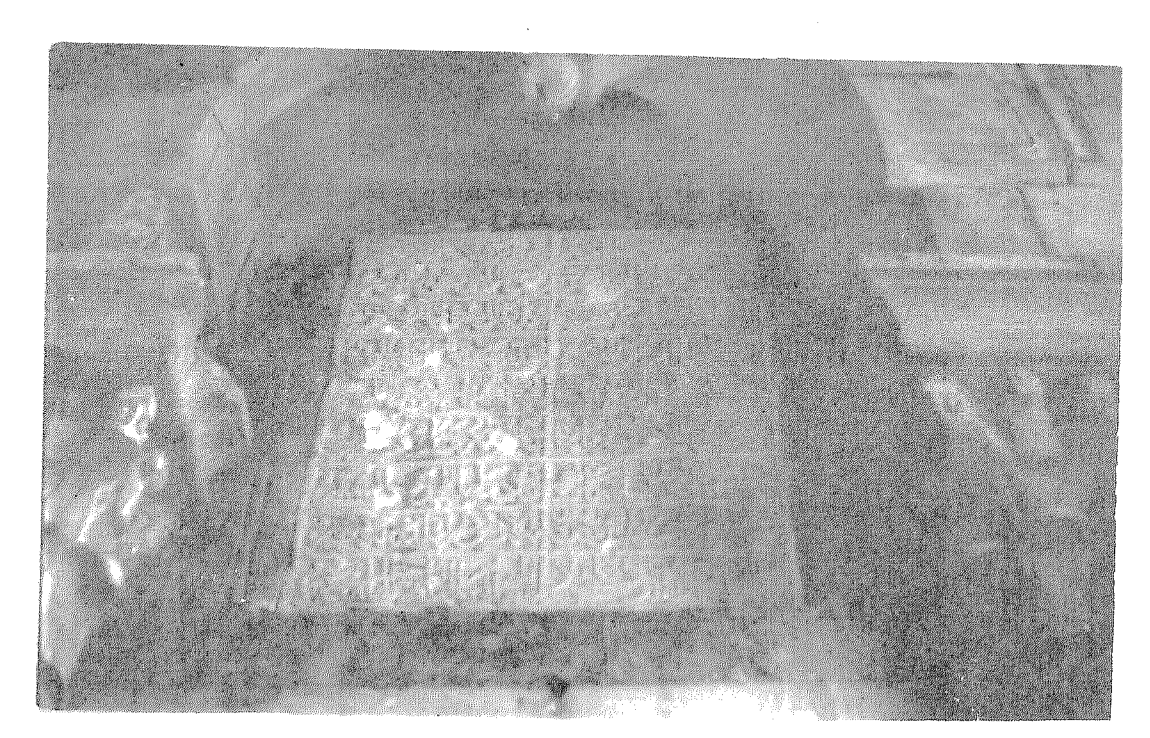
صورة رقم ١٤٠



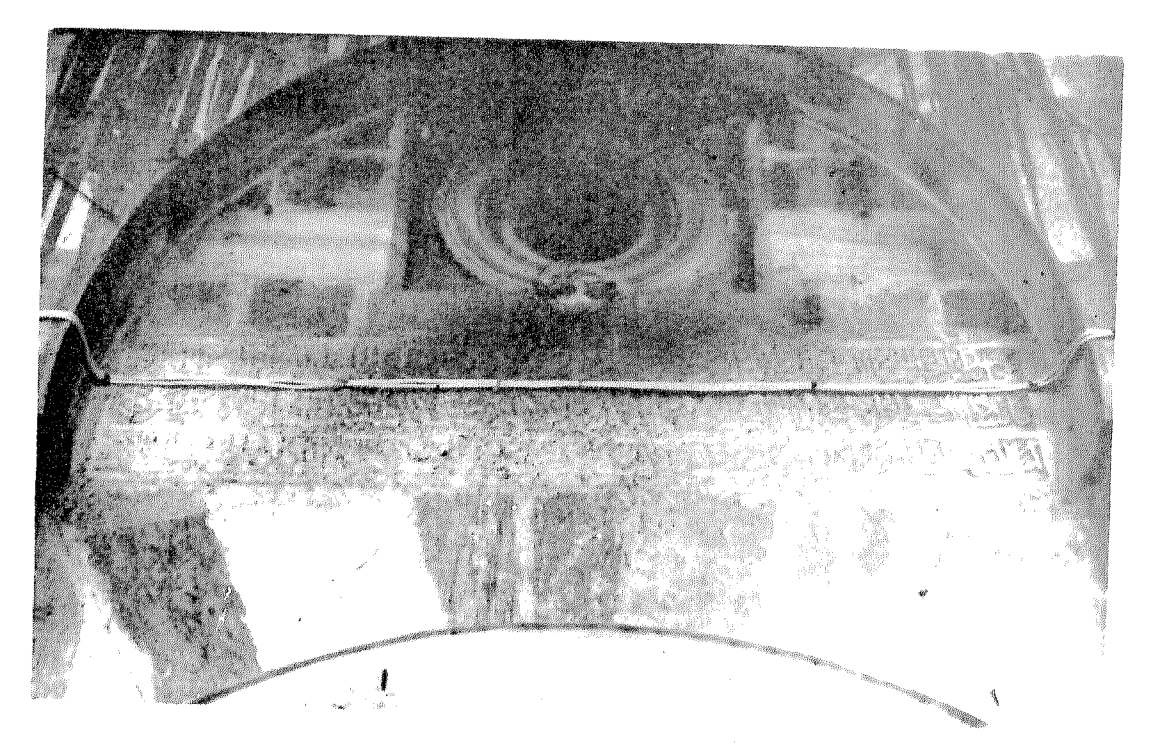
صورة رقم ١٤١



صورة رقم ١٤٥



صورة رقم ١٤٦



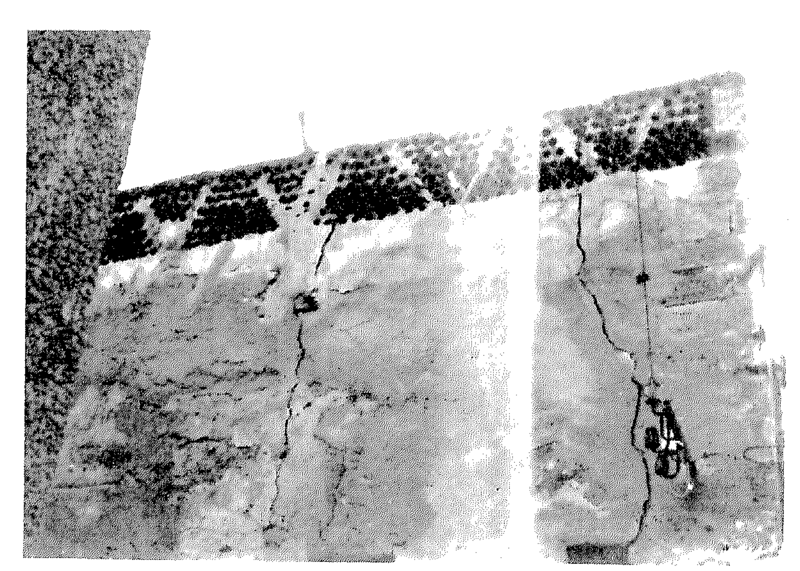
صورة رقم ١٤٧



صورة رقم ١٥٠



صورة رقم ١٥٣



صورة رقم ١٥٥



صورة رقم ١٥٦

صورة رقم ١٥٧

الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٨١٥ / ١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٤٤٩ ـ ٩





هذه الدراسة تصل إلى التوغل داخل مكونـات هذه المدينة حتى تمسك بمفتاح سرها الذى منحها الخلود على مر العصور دون أن يأتى عليها حين من الـزمان كـانت فيه مندثرة ، وهذا قمة فلسفتها المكانية - خاصة لمدينة ذات مـوقـع متميـز بـزخم تـاريخى رسم ، واكب معـظم الحضارات بل وكان لكل منها ، بل ولمعظم القادة الكبار عبر التاريـخ القديم والحـديث حدث وحـديث فى هذه المدينة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب